
Bibliotheca Alexandrina
0136270


كتاب الهلال
شكوى الموظف الفصيح
يوسف الشاروني

كتاب الهلال

KITAB AL-HILAL

سلسلة شهرية تصدر عن « دار الهلال »

العدد ٣٥١ – ربيع الثاني ١٤٠٠ – مارس ١٩٨٠

No. 351 — March 1980

مركز الادارة

دار الهلال ١٦ محمد عز العرب

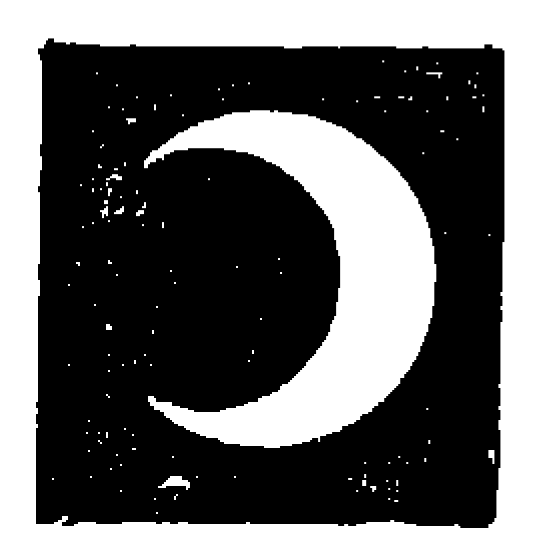
تليفون ٢٠٦١٠ (عشرة خطوط)

الاشتراكات

قيمة الاشتراك السنوى – ١٢ عددا – في جمهورية مصر العربية جنيهان مصريان بالبريد العادى . وبلاد اتحادى البريد العربى والافريقى وباكستان ثلاثة ونصف جنيه مصرى بالبريد الجوى . وفى سائر انحاء العالم سبعة دولارات بالبريد العادى وخمسة عشر دولارا بالبريد الجوى .

. والقيمة تسدد مقدما لقسم الاشتراكات بدار الهلال فى ج. م. ع. بحوالة بريدية غير حكومية وباقى بلاد العالم بشيك مصرفى لامر مؤسسة دار الهلال وتضاف رسوم البريد المسجل على الاسعار الموضحة اعلاه عند الطلب .

كتاب الهلال



سلسلة شهرية لنشر الثقافة بين الجميع

يوسف الشاروني

شكوى الموظف الفصيح

دار الهلال

شكوى الموظف الفصيح

عندما ذهبت لأعزى فى وفاة قريبى زيد بن عبيد همس فى أذنى أكبر أبنائه ــ وهو صديقى ومن جيلى ــ بأنه يريدنى فى أمر هام فى أى وقت أحدده .

وحين ذهبت اليه بعد اسبوع أطلعنى على مجموعة من الشكاوى كان المرحوم قد تركها فى درج بمكتبه فى منزله . وقال لى انه وأخوته قد اكتشفوا بطريق الصدفة هذه الكومة من الرسائل بعد وفاته ، فلم يكونوا يعلمون عنها شيئا قبل ذلك . وكانوا قد وجدوا الدرج مغلقا بمفتاح سرى لم يستطيعوا العثور عليه حتى اضطروا لاستحضار نجار لفتحه بالقوة ، ولما فوجئوا بكومة الأوراق مضوا يقلبون فيها بلهفة وهم يخشون فى أبيهم جانبا مخفيا عنهم كأن تكون هناك زوجة أخرى فى حياته أو شيء من هذا القبيل ، لكنهم بدلا من ذلك وجدوا هذه المجموعة من الشكاوى التى ظل يكتبها فيما يبدو على مدى سنوات ولا يرسلها الى من يوجهها اليهم بل يحتفظ بها فى هذا الدرج المغلق . وقال لى ابن المرحوم انه وأخوته قرروا اننى باعتبارى كاتبا قد أجد فى هذه الشكاوى ما يهمنى . فهذا أفضل من القائها فى سلة المهملات . فرغم ان المرحوم كان عزيزا عليهم وكل ما تركه بالتالى

عزيزا لديهم ، الا أن كلا منهم يسكن فى شقة لا تكاد تتسع له ولأولاده ؛ فلا مكان لمزيد حتى ولو كان بضعة أوراق للذكرى .

وهكذا عدت الى بيتى حاملا هـذه المجموعة من الأوراق لأتصفحها على مدى ليلتين كاملتين ، فـاذا أنا امام عشرات من الشـكاوى كتبها قريبى فى موضوعات مختلفة كل الاختلاف ، فبعضها يمس مسائل عامة جدا وبعضها يمس مسـائل خاصـة بأسرته أو أقربائه أو اصدقائه . كما انها موجهة الى مختلف الجهات من ناظر مدرسة ابتدائية أو مدير مكتب بريد الى رؤساء وزارات ورؤساء دول عربية وأجنبية بل الى الله سبحانه وتعالى .

والحق يقال ان الخطـابات لم تكن جميعـا فى باب الشكوى ، فقد عثرت على ثلاث رسائل بالتحديد كلهـا ثناء وتقدير لعمل أنجز أو اشـادة بدقة ونزاهة كانت اعجاب زيد بن عبيد . ومع ذلك فيمكن القول بأن هـذه الرسائل الثلاث كانت وجها آخر للشكاوى ، لأن مابها ليس الا اشادة بانجـاز كان يجب أن يكون أمرا عاديا لا يثير دهشة ولا اعجابا ، لكن التنويه به دلالة على ندرته بحيث يستحق الالتفات والتشجيع .

وأنا وان كنت لا أعرف على وجه التحديد ما الذى دعا زيد بن عبيد الى أن يحجم عن ارسال كل هـذه الشكاوى التى لا شك انه سهر وتعب فى تدبيجها — فقد عثرت على مسودات لبعضها — الا أننى أعتقد انه اذا كان السبب هو تهيب ارسال بعضها لا سيما تلك الموجهة الى أصحاب السلطات العليا ، فربما كان السبب بالنسبة لأكثريتها هو اعتقاده بأن ارسالها أو عدم ارسالها يتساويان ، حيث قرأ ولابد فى الصحف آلاف الشكاوى

المماثلة التى لم تلق أى استجابة والتى بدت له ـ كما عبر في احدى رسائله ـ انها للتنفيس لا للتنفيذ . بل لعله رأى كيف أن بعض هذه الشكاوى تنقلب على رأس مرسلها فتتعطل تماما مصالحه ـ كما حدث فى حالة زوجة ابنه المدرسة بوزارة التعليم ـ أو تعطل تنفيذ اقتراحاته عقابا له على شكواه بعد أن كان لا يثيره الا سوء التنفيذأوبطئه.

ملاحظة أخيرة أحب أن أذكرها هى ان زيد بن عبيد لم يكن موظفا عاديا ، فقد كانت له هواية أنفق عليها معظم دخله المحـــدود ، هى هواية القراءة . ولا أزال اذكر فى طفـــولتى كيف كنـــا نتسـلل ـ نحن أصدقاء ابنه ـ الى هذا المحراب المنعزل فى بيته المكدس بالكتب فى رفوف من الأرض حتى تكاد تمس السقف ، وذلك عندما لا يكون فى المنزل . ونختلس النظر الى هذه الأرفف مبهورين ، وعندما كنا نتسامر او نلعب فى الشارع الذى تطل عليه مساكننا ، ونرى الضوء يسقط علينا من نافذة فى هذه الغرفة ، ندرك أن زيد بن عبيد يمارس هوايته المفضلة ، ولا شك أن هذه الذكريات التى ترسبت فى أعماقى منذ طفولتى المبكرة من أكبر العوامل التى وجهتنى فيما بعد الى عالم القراءة والكتابة .

وعندما أعددت للنشر هذه الشكاوى لم يكن لى اى دور الا دور محقق النسخ الخطية الذى قـد يصعب عليـه قراءة كلمة هنا أو كلمة هناك فيجتهد فى استنتاجها من سياق النص ، كما أننى فضلت حذف الأسماء الحقيقية واكتفيت بالاشارة اليها بالحروف الهجائية .

والشكاوى التالية نماذج تقدم صورة ـ ارجو أن تكون متكاملة ـ من مجموع الرسائل،فبعضها فصيح الأسلوب بينما بعضها الآخر عادي الأسلوب بل ربما كان أقل من العادى .

وبعــد ، فــانى أرجــو أن أكون قد وقفت ، والله المستعان .

سيدي محافظ القاهرة

كان يا ماكان ، فى سالف العصر والأوان ، فى مدينة تدعى القاهرة عاصمة مصر الطاهرة ، دورات مياه عمومية، فى الميادين والشوارع الرئيسية . حقا لم تكن بالوفرة التى عليها عواصم مثل لندن وباريس ، ولا فى نظافتها ورائحتها العطرة أحيانا ، فنحن ناس على قد الحال . لكن عددها كان يتناسب وعينا المثانى . غير ان الســادة المشرفين على تنظيم ميادين القاهرة وتجميل شوارعها ـ عفوا أقصد العكس ـ يبدو أنهم لم يفهموا الحكمة من وجود هذه المبــانى ، وبدلا من أن يدركوا انها لحماية القاهرة من القذارة ، ظنوا ـ حفظهم الله ـ ان وجودها سبة فى جبين عاصمتنا ، أو ربمــا أرادوا أن يخففوا الضغط على شبكة مجاريها المتهالكة عساهم يحاون بذلك مشكلة طفحها ، أو لعلهم كانوا يفكرون بعقليتنا الريفية التى لا ترى حرجا فى قضاء الحاجة على الجسر أو وسط المزارع تحت شعار « كله منه واليه » . فأصدروا أوامرهم بازالتها من الوجود وتسويتها بالأرض ، ونسوا ان يصدروا أوامرهم بأن تزال من الناس مثاناتهم . فماذا يفعل عباد الله المساكين حين تمتلىء هــذه المثانات الى حــد الانفجار بل وما خلف المثانات أحيانا . لم يكن أمامهم الا أن يجعلوا من القاهرة كلها مرحاضا عاما : كل حائط أو ركن فيهــا مستباح ، لا فــرق فى ذلك بين انســان أو حيوان . آه يا سيدى المحافظ ، لعل هؤلاء المسئولين

قد خلقهم الله تعالى من طينة غير طينتنا فسواهم بلا مثانات يعانون منها مثلما نعانى .

سيدى المحافظ رحمة بما تبقى من القاهرة وساكنيها الغلابة أمثالى الذين مثاناتهم ـ مثل خلقهم ـ ضيقة ، ونتكسف فى اللجوء الى الخرابات أو من أن تكون كالكلاب فنحول جدران المنازل وجذوع الأشجار ـ ان وجدت ـ الى دورات مياه عامة .

وكلما امتلأت مثانتى الى حد الانفجار وأنا فى شوارع القاهرة لا أجد دورة مياه ، ارتد الى طفولتى حين كانت تمتلىء مثانات بعض زملائى وترفض المدرسة القاسية أن تأذن لهم بالخروج من الفصل لافراغها ، فتصبح القاهرة امامى فصلا هائلا يتجول فيها شيخ محروم من افراغ مثانته . هل يرضيك يا سيدى المحافظ أن تذكرنى بتلك الأبلة المتجهمة وأن يحدث لى فى هذا السن الوقور ما كان يحدث لنا أثناء طفولتنا وقاك الله شر الفضائح ، ووهبك خير الناصحين وأفضل النصائح . ولعلك لا تعلم ياسيدى المحافظ أن لدينا ـ نحن رابطة ضيقى وضيقات المثانة ـ خرائط موضح عليها دورات المياه العمومية فى مدن العالم الرئيسية ، وان مدننا المصرية أفقر مدن العالم فى هذه المعالم الحضارية ، بحيث ينحنى عندها الخط البيانى انحناء شديدا فى رسومنا التوضيحية . واذا كان رجالنا يرغمون على التصرف بطريقة ما مهما بدت مستنكرة ، فما عسى أن تفعل سيداتنا يا سيدى المحافظ ؟ .

ولا أزال اذكر حدثا لا انساه حين كنت فى الاسكندرية منذ عشر سنوات ، واضطرتنى الضرورة الى دخول احدى دورات المياه العمومية ، ففوجئت بنظافتها وبريقها غير المألوفين . فما كان منى الا أن عبرت عن متعتى بربع جنيه

أهبه من ميزانيتي المحدودة للحارسة ـ وكانت سيدة ـ مكافأة لها على ما أمتعتني به . أخشى ان أنا ذهبت اليوم لأستعيد ذكرى ذلك الحادث العظيم ، أن أجد دورة المياه وحارستها قد أزيلتا من الوجود كما أزيلت أخوات لهـا بالقاهرة .

لست من هواة الشكاوى ، بل أنا ممن يؤمنون بأننا لا يجب أن نلقى عبء المسئولية كلها على السلطة ، بل لابد من المشاركة فى حل المشاكل بما درجنا على تسميته « الجهود الذاتية » ، لكنك تعلم يا سيدى المحافظ اننى لم أهدم دورات المياه بالجهود الذاتية ، وبالمثل فلست أستطيع اعادة بنائها فى كل حى أو شارع رئيسى بالجهود الذاتية .

لقد سافر حفيدى الى الخارج خلال أجازته الصيفية هذا العام ، وحين عاد لم يكن له من حديث الا المقارنة بيننا وبينهم ، وقـد جذب سمعى من حديثه الفقرات الخاصة بدورات المياه وتوفرها وجمالها ونظافتها ورائحتها العطرية حتى انه حين دخلها أول مرة لم يكن يريد أن يغادرها بسبب ما أحسه من راحة نفسية بالاضافة الى راحته البدنية ، ولست أطمع يا سيدى المحافظ فى شىء من هذا ـ فأنا رجل واقعى ـ كل ما أطلبه من سيادتكم اعادة بناء الدورات . المصيبة أنها كانت موجودة فعلا ، وبدلا من أن تتضاعف عددها ـ كما تضاعف سكان العاصمة ـ اذا بها قد محيت من الوجود .

ضيق المثانة والخلق

زيد بن عبيد

مرثيـــة

حبيبتى القاهرة

من ذا الذى اخرج أمعاءك ، ونثر اشلاءك ؟ هل حفرت شوارعك اظافر مجنون ؟ هل قطع مواصلاتك ، ولوث مياهك ، ورفع أسعارك غريب مخمور او عدو مأجور ؟ هل شخت أم شاخ سكانك ؟ .

أين جمالك وزينتك ، وعبقك وخضرتك ، وهدوؤك ونظافتك ؟ .

كيف شـوهوا حسنك ، وملؤوا بالبثور خدودك ، وبالتجاعيد والأخاديد وجهك ، وأصبح كل من يساوى ولا يساوى يسخر منك .

كيف استباحك أبنـاؤك ، وفعلوا بك ما لم يفعله اعداؤك .

كيف أطلت ـ يا قاهرة ـ مآذنك وابراجك الطاهرة ، على ألف ألف قاذورة ، وألف ألف مستنقع ؟ .

كيف خرج من رحمك خونة عقدوا معاهدة ملعونة مع الذباب ، صديق الموت والعذاب ، بمقتضاها هيأوا له من النفايات فراشا وثيرا ، ومن القرفات المعديات طعاما هنيئا وفيرا ؟ .

كيف ضاقت مبانيك ، على البسطاء من أحفاد أحفاد بانيك ، واتسعت لغير بنيك ؟ حبيبتى ، هل لم يعد أمام عشاقك الشعراء الا أن يتباروا فى رثائك ؟ .

آه ... لم يكن يومك يا قاهرتى المقهورة ...

امضاء

العاشق الحزين

زيد بن عبيد

الى السيد وزير المواصلات

باسم آلاف الموظفين الغلابة دافعى الضرائب ، وباسم أبنائهم وبناتهم الطلبة فى الجامعات والمدارس الثانوية والاعدادية والابتدائية ، وباسم العمال ومصانعهم التى تتوقف كلما تعطل هذا الشريان الحيوى المسمى مترو حلوان . باسم باعة الخضار الذين يملأون ردهات المترو بقففهم وزكائبهم المبتلة بالجرجير والنعناع والخبيزة والسبانخ ، باسم رواد المسرحيات والأفلام وركاب آخر الليل من سكان هذا الخط ... باسم كل هؤلاء أتوجه اليك يا سيدى الوزير لعلك تتعطف وتتنازل وتركب معنا هذا المترو اللعين لترى كيف نحشر فيه كالبهائم وكيف تذل آدميتنا . ألسنا ندفع ضرائب مقابل خدمات ، فلماذا نستمر فى دفعها وقد توقفت الخدمات وعلى راسها بند المواصلات ؟ ومع ذلك فنحن لا نركبها مجانا ، بل نحن نتعذب فيها يوميا مقابل تذكرة ندفعها ثمنا لهذا العذاب .

لا تصدق يا سيدى الوزير ما يقولونه لك عن قلة

الامكانات ، فهذه شماعة يعلقون عليها اهمالهم وما هو اكثر من اهمالهم . السادة المسئولون عن تسيير هذا المترو يعلقون ارتباك حركته احيانا على انقطاع التيار أو انقطاع سلك كهربائي أو وقوع حادث : انقلاب احدى عرباته أو اصطدامه بسيارة عند أحد مزلقاناته .. ولكن هذا هو الاستثناء ، أما المألوف فهو ما نراه من اندفاع قاطرات المترو واحدة وراء الأخرى أمامنا على الخط المقابل بينما تزدحم محطتنا بالركاب وكأننا يوم الحشر : طالب أوشك أن يفوته موعد امتحانه ، مريض يسنده اهله على موعد مع طبيب ، مسافر ازف موعد قيام طائرته ، عاشق على موعد مع حبيب وكلاهما على موعد مع فيلم قد حجزا مقعدين ليشاهداه أو يشاهدهما ، ونسأل أهل الذكر : هل هو عطل أم تأخير ؟ فيجيبنا صوت غير مكترث : مجرد تأخير ، كلها دقيقتان . أما الفرق بين اصطلاحى العطل والتأخير ، فهو ان الأول معناه وقوع حادث يترتب عليه تعطل الحركة نصف يوم على الأقل ، وعلى كل من كان فى نيته الركوب تدبير أمره أو فليضرب رأسه فى حائط المحطة ، فنحن أمام مسائل تتعلق بالقضاء والقدر ولا دخل فيها لارادة انسان .

أما التأخير فأمره بسيط : نصف ساعة أو ثلاثة أرباع الساعة فقط نتيجة ارتباك واهمال وعدم اكتراث بمشاعر الناس . ويقفز أحدهم صائحا وهو يكاد ينفجر غيظا : هذا تخريب متعمد حتى يكره الناس الحكومة . بينما يتساءل آخر : هل هناك جاسوس لاحدى دول الأعداء ؟ وأخيرا تهل علينا عربات المترو التى طالما اشتقنا لرؤياها وتطلعنا لمجيئها حتى التوت رقابنا وجحظت عيوننا .. لقد وصلت القاطرات التى رأيناها على الخط المقابل

بعد ان اكملت رحلتها الى محطة حلوان وها هى ذى الآن تعود مكتظة ، لا تستطيع أن تزدرد فردا واحدا . وهكذا لا يكون وصولها وقيامها الا لزيادة غيظ خلق الله المطوعين فى حر الصيف وبرد الشتاء . ومع ذلك فلا يعدم الحال أن يتقدم مغامر جرىء محاولا ان يجد مكانا لذراعه أو قدمه . ولكن فجاة وبلا سابق انذار ينطلق المترو بينما النساء والأطفال والشيوخ ما يزالون يغادرونه أو يحاولون ركوبه ، وتطير فردة حذاء لتستقر فوق القضبان ، وينقطع زرار من جاكتة رجل أنيق ، وتسقط باروكة احدى السيدات ، بينما تصرخ أم أو طفلة لان المترو الغدار قد فرق بينهما ، احداهما التهمها زحامه والأخرى لم يسعدها الحظ ، ويقع من يقع وينكسر من ينكسر فما أرخص البنى آدم ، ولعلها محاولة لحل مشكلة التكاثف السكانى .

وتطل على هذا جميعه فى ختام الرحلة بالنسبة لبعضنا واستفتاحها بالنسبة للبعض الآخر ساعتان كبيرتان مثبتتان فى مكانين مرتفعين احداهما داخل المحطة النهائية والأخرى على الحائط الخارجى تعلن كل منهما عن وقت مخالف للأخرى تمشيا مع هذا الذى تطلان عليه ، وحتى لا تشذان عنه . فقد كانتا ذات يوم مضى تقومان بالمهمة التى تقوم بها كل ساعات الدنيا : تحديد الوقت بالثانية والدقيقة . فلما أفلت العيار وأصبح الوقت لا يقاس بالثوانى والدقائق بل بربع اليوم ونصف اليوم ، وجدتا ألا جدوى من تحركهما ، فآثرتا التلكؤ فالتوقف — فلماذا تشذان ؟ — وأعلنتا متضامنتين أنهما لن تستأنفا حركتهما الا اذا رد للوقت اعتباره .

ولن أحدثك عن الأتربة التى تغطى مقاعد العربات

الخارجة لتوها من مخازنها لنساهم نحن الركاب بثيابنا في مسحها ، فضلا عما يتجمع في أرضيتها من نفايات لا تجد من يشرف على ازالتها في نهاية الخط وبدايته .

ولن أحدثك يا سيدى الوزير عما يحدث فى هذا الزحام لأمهاتنا وزوجاتنا وأخواتنا وبناتنا ، ولا عن حوادث النشل يتفنن فيهـا محترفوها الطلقاء فتجمع بين الطرافة المضحكة والمأساة المبكية . اذا كان لديك الوقت فدعنى أقص عليك احداها لا لأنها أطرفها بل لأنى كنت أحد شهود العيان ، فقد طلب أحد الواقفين على الرصيف — ومن خلال النافذة والقطار يهم بالقيام — حقيبته التى نسيها فوق شبكة العربة بالداخل ، وبكل انسانية وشهامة لبى الجالس بجوار النافذة حاجته . وما أن تحرك المترو حتى دبت فى العربة معركة بدأت بصياح أحد الواقفين صياحا أقرب الى الخوار لأن حقيبته التى كانت فوق الشبكة وبهـا أوراق هامة مصلحية وخاصة قد اختفت ، ويكتشف الجالس الشهم انه كان ضحية شهامته وانسانيته ، ووسط تبادل الشتائم والاتهامات لا تعرف من اللص ومن الضحية .

ولن أحدثك يا سيدى الوزير عن النوافذ التى تستعصى على الفتح أو الغلق فينفذ منها برد الشتاء الى نخاعنا وغبار الصيف وصهده الى كل فتحات وجوهنا حتى حلوقنا يضاعف منها سرعة القطار ، ونطل منهـا على جانبين تؤذى العين رؤيتها ، ولكن هذا خارج عن اختصاصك يا سيدى الوزير .

ولن احدثك من الأبواب ـ شقيقة النوافذ ـ نصف المغلقة كعيون الخبثاء ، تتضافر مع شقيقاتها في تعذيبنا ببرد الشتاء وغبار الصيف وصهده . وعند المحطات يكون على الآلاف ان يتدفقوا اليها خلال ثوان ، فاذا وقع ـ لا قدر الله ـ حادث ، فهناك شماعة القضاء والقدر معلقة معدة نعلق عليهما فوضانا ـ وتقصيرنا . ولقد اكتشفت ـ يا سيدى الوزير ـ ومن خلال مترو حلوان ان للعصر الحديث ميتافيزيقاه أى تلك الاشـياء التى نلمس آثارها ولا نلمسها ونتحدث عنها ولا نراها مثل : القول ، التنفيذ ، الروتين ... الخ .

فاذا تدفق آلاف الركاب على الرصيف كان عليهم أن يهرولوا هابطين فوق خمس أو ست درجات كأنما وضعت خصيصا لكى ينزلق فوقها من بقى سليما منهم ـ وهم ما يزالون ألوفا بحمد الله ـ بسبب سطحها المائل الذى يغرى بالانحدار فوقهـا ، ييسر لهـذا مهمتها ما انتشر عليها من حبات رمل دقيقة ذات صرير منذر عند احتكاكها بأحذيتها المتلكئة . فاذا هبطناها انحشرنا فى منافذ محدودة ضيقة سدتها أحيانا أكوام القمامة أو مستنقعات المجارى . وأحيانا قام بهذه المهمة ماسحو الأحذية وبائعوا الكشرى بل ومن استوطنوها فنصبوا فيهـا أكشاكهم وخيـامهم يصنعون فيها الشاى أو يصلحون الأحذية .

أمر واحد أحب أن أشيد به ـ فلست أحب أن انظر الى الأمور كلها بمنظار أسود وأنا رجل يحب العـدل ـ ذلك هو النظام الموضوع لتأخذ به المصـلحة أجرها المستحق من الركاب وسط هذه الزحمة الخانقة وبالرغم منها . فكل راكب بلا تذكرة يحصل منه المحصل أجرها مضافا اليها غرامة للمحصل نسبة منها ، بذلك يكافأ

المحصل على جهده وتأخذ المصلحة حقها وزيادة ويعاقب الراكبون بلا تذاكر . لكن الذى يحيرنى أن شبابيك قطع التذاكر تضاءلت فى بعض المحطات الى شباك واحد مع ان أعداد الركاب تتضاعف والعمالة زائدة بحمد الله ، وتكون النتيجة ارغام البعض على الركوب بلا تذاكر أو تعطلهم وتكدسهم فى طوابير طويلة أمام الشباك اليتيم .

المهم ان القاطرات ما تلبث ان تتوالى حتى ليكاد أن يكون اخرها خاليا ثم تعود دورة ما يسمى بالتأخير . اذ تتجمع كل قطارات الخط فى محطة الوصول لتعود تتدافع وراء بعضها فى ايابها لتأخذ خلق الله الذين جاء عليهم الدور فى التكدس والزحام واللا آدمية . فالركاب — كالأيام — دول ، قطار لك وقطار عليك .

يخيل الى يا سيدى الوزير ان المسئولين عن حركة هذا المترو يريدون أن يثبتوا لنا ولغيرنا اننا ما نزال قوما ريفيين ، ولهذا كان الديزل أقل مشـــاكل من المترو الكهربائى والقطار البخارى أقل الجميع مشاكل ، وهكذا نظل نتقهقر حتى نصل الى الحمير فلعلها تكون أسلم المواصلات لأنها أكثر تناسبا مع عقلية هؤلاء الذين يديرون مثل هذا الخط وما يشبهه من آلات ومصانع تخسر بدلا من أن تربح ، فهى لا تتفق ونمط عقليتهم الريفية التى تقيس الوقت بالفصول وليس بالدقائق والثوانى . فلا يزعجهم أن يتعطل الناس عن مصالحهم ساعة أو ساعتين ... عندما تعطل بنا المترو فى منتصف الطريق ذات مرة قال لى سائقه : لا تقلق ، كلها دقيقتان يا والدى . فلما مرت نصف ساعة عاتبته فأجابنى : وهل كنت تريدنى أن أقول لك انه سيتأخر كل هذا الوقت واغضبك وأنت فى سن والدى ؟ وكان يبتسم وانا أكاد انفجر غيظا .

لهذا أقشعر رعباً يا سيدى الوزير كلما قرأت عن نية انشاء مترو الانفاق . فلست أستطيع أن أتخيل ما عساه يحدث ان تمت ادارته بالطريقة الريفية التى يدار بها مترو حلوان ... وتدافعت قاطراته فى جانب ليخلو منها الجانب الآخر المقابل .. لو انقطعت الكهرباء ونعطل المترو المزدحم فى منتصف الأنفاق المعتمة الضيقة محدودة الهواء فى ظهر نهار صيفى قائظ ... سيختفى المرور ويختفى معه الأطفال والمرضى والشيوخ .

لست احب الشكوى فأنا أومن بمبدأ الجهود الذاتية . فهل أقترح أن يشترى كل راكب حمارا ؟ ومع ذلك فالحمار يحتاج الى بردعة والى علو برسيم كل يوم والى اسطبل خاص به لا تتسع له شقق اليوم الضيقة .

أنا أعرف يا سيدى الوزير انك ستقول ان المشكلة ليست على هذا النحو الضيق الذى أتصوره ، فهى متعددة الأسباب متعددة الحلول : فما كان ينبغى أن تتركز المصانع فى منطقة واحدة ، وعربات المترو تنوء بأضعاف حمولتها ، والعين بصيرة والميزانية قصيرة . لكن ما علاقة هذا كله بالقطارات التى تتدافع فى جانب ليخلو منها الجانب الآخر ، وما سر هذه الظاهرة المحيرة ، وقاك الله شر الأسرار ، انه الحليم الغفار ، والعليم الستار .

سيدى الوزير ، المشكلة تزداد يوما بعد يوم : الوحدات تستهلك وتتناقص ، والركاب يتضاعفون بلا رابط ، والقاطرات تتدافع بلا ضابط ، ولا أحد يستطيع أن يتخيل المصير .

فاقد الوقت والاعصاب
زيد بن عبيد

الى من يستطيع التنفيذ

كنت اهم ان أوجه هذا الالتماس الى من يهمه الأمر . حين اكتشفت ان كل من يحب مصر يهمــــه الأمر . مشكلتنا ليست فى أن الأمر يهمنا أو لا يهمنــــا ، بل مشكلتنا فى التنفيذ . فلكنــا فى جلساتنا نتكلم وننتقــد ونقترح الحاول ، فاذا طلعت علينا شمس الصباح وذهبنا الى أعمالنا محاولين أن نضع كلامنا موضع التنفيذ ، أدركنا ان المسألة تتجاوز قدراتنا الفردية المتواضعة ، كأنما هنــــاك اخطبوط وحشى خفى يجثم على قدراتنا ويشلها ، واننا لسنا الا تروسا فى آلة ، وما عســـاه يفعل الترس الجيد فى آلة صدئة . هناك هوة بين النظرية والتطبيق ، أو جدار بين « من يهمه الأمر » وسيادتك يا « من يستطيع التنفيذ » ، وكأنك كائن هلامى «مزفلط» كلما حاولنا الامساك بك تسربت من أيدينا ، فنتحدث عنك ولا نراك ، ونراك ولا نستطيع الامساك بك ، ونمسك بك لتفلت منا .

نتحدث جميعا عن ضرورة محو الأمية باعتبارها نقطة البداية لكل اصلاح ، نعتمد الميزانية وننشىء الفصول ونعين المدرسين ونحضر الطلبة وتنتهى الدورة الدراسية ونعقد الامتحانات ويجتاز الأميون امتحان محو أميتهم ، ثم يتضح ان نسبة الأمية قد زادت . ونكشف ان خللا قد حدث بين الفكرة والتنفيذ . وان العملية كلها أسفرت عن مجرد تمثيلية : قبض فيها المدرسون أجورهم دون أن يمحوا أمية مواطن واحد ، وعند عقد الامتحان ارتدى بعض المتعلمين ثياب المفترض محو أميتهم وأدوا الامتحان نيابة عنهم ، وهكذا بين الفكرة والتنفيذ انتصب جدار فتعطل مســـتقبل أمة ، وبين مصلحة الفرد ومصلحة

المجموع فنحت هوة ابتلعت مصلحة الطرفين .

وانا أعلم يا « من يستطيع التنفيذ » أننا نمر بفترة حرجة متعددة الأسباب متعددة النتائج . لعل أهمهما سببان : العدوان الخارجي وهو قدرنا منذ آلاف السنين بحكم موقعنا الجغرافي ، وهذا يكلفنا جهدا ماديا وبشريا واجتماعيا .. الخ في سبيل الدفاع عن حدودنا وشخصيتنا ، ثم عدوان داخلي اسمه تضاعف السكان نتج عن تقدم الطب وانتشار الأطباء حتى الريف ، فتراجع الموت دون مقابل فى تراجع من المواليد ... مع ذلك فنحن نضاعف من أثر هذين العاملين بثالث يبدأ بالروتين الجامد المعقد وينتهي بالفوضى وما اصطلحنا على تسميته بالتسيب .

لقد شاهد ابنى الأكبر عندما أوفد أخيرا فى مهمة رسمية بالخارج دولا تعانى مثلما نعانى من نقص فى مواردها وامكاناتها ، لكنهم لا يضاعفون معاناتهم بالتسيب والفوضى . فى موقف لسيارات الأجرة وقف ينتظر ، كان واضحا ان هناك أزمة فى هذه الوسيلة من المواصلات ، فالمنتظرون أضعاف الامكانات المتاحة ، لكنهم لا يتنافسون على ركوبها الى حد التشابك بالأيدى كما يحدث عندنا بحيث لا يستفيد بها المحتاج اليها فعلا كالمرضى والحوامل والمرضعات ، بل وقف ابنى ينتظر مطمئنا الى انه مهما طال به الوقت سيأتى دوره ويستقل سيارة بلا ادنى احتمال أن تتعرض كرامته ولو لخدش بسيط . وهكذا أصبحت المشكلة فى حجمها الحقيقى ، لا يضخمها احساسك بأنك فى غابة ، الفائز فيها هو الأوقح والأغلظ .

وانا ارفع التماسى هذا اليك ـ يا من يستطيع التنفيذ ـ لأن احدى حفيداتي تخرجت منذ ثلاث سنوات من كلية الآداب قسم الفلسفة . وبصراحة لم نكن هذه الدراسة باختيارها ، بل ان ما يسمى « مكتب تنسيق الجامعات » رماها فى كلية الآداب ، وتنسيق كلية الآداب رماها بدوره فى هذا القسم بعد نجاحها من السنة الأولى للثانية . وقد اكتشفت حفيدتى ـ كما اكتشفت معها ـ فيما بعد أن التنسيق من أسماء الأضداد فى بلدنا ، أى اللفظ الذى يتضمن المعنى وضده فى وقت واحد . ذلك أنها عندما قصدت وزارة التربية بعد تخرجها اكتشفت انها ستعمل فى غير تخصصها ، اللغة الانجليزية او التاريخ أو الجغرافيا ، فتفتيش المواد الاجتماعية قد تشبع بمدرسيه ، ووجدت أن تدريس مادة لم تتخصص فيها جناية على نفسها وعلى تلميذاتها ، واذا كانت وزارة التربية تقبل هذا الوضع ـ لمبررات لديها ـ فان ضميرها لم يقبله . فلما عينتها القوى العاملة بعد سنتين فى وظيفة حكومية ، تأكدت ان أجمل سنوات حياتها قد ضاعت هباء ، فلا عمل لها الا التوقيع بالحضور والانصراف ، ثم الثرثرة مع زميلاتها ـ وبين أصابعهم ابر التريكو وخيوطه ـ حول طعامهن وشرابهن وأزيائهن ومشاكل الأزواج والأطفال . وقررت البنت أن تثور على هذا جميعه ، فانقطعت عن عملها وصرخت فى افراد أسرتها المحتجين : يكفيكم انكم اخترتم لى حياتى حتى اليوم ، دعونى اختار لنفسى من الآن . سأفترض اننى ما ازال بالثانوية العامة وألغى من حياتى السنوات السبع التى تلت ذلك وأبدأ من جديد . وهى الآن تتلقى دروسا فى اللغات الأجنبية والاختزال والكتابة على الآلة الكاتبة

لعلها تلتحق باحـــدى الشركات التى تعلن كل يوم عن حاجتها الى مثل هذه المهارات والتخصصات فى مقـابل اجور مضاعفة لأن الطلب أكثر من العرض ، ولأن الانتاج فيها حقيقة لا وهم .

ولقد وقفت الى جانب حفيدتى مؤيدا مغامرتهـــا الصغيرة بين دهشة الجميع معلنا أن التنسيق لا يقوم على أى تنسيق ، فيكثر من قبول طلبة الكليات النظرية لأنه ـ ظاهريا ـ لا يكلفنا كثيرا ، لتكون النتيجة فاقدا فى المال والبشر ، ونحن فى فترة أشد ما نكون حاجة الى كليهما .

نلتمس منك يا « من بيدك التنفيذ » أن تستمر سياسة التوسع فى التعليم والتوسع فى العمالة فنحن فى حاجة الى كليهما ، ولكن بشرط أن تتغير خريطة التخصصات فى ضوء خريطـــة الاحتياجات الفعلية محليا وعربيا وافريقيا حتى نهاية هذا القرن على الأقل .

الحالم بما لا يستبعد على الله
زيد بن عبيد

السيد وزير التربية (التعليم حاليا)

أعرف ان مشاغلك كثيرة مثل كل مسئول فى هذا البلد وربما اكثر : ابتداء من طفل يريد أهله أن يدخلوه دار حضانة مهما كلفهم ذلك ومع هذا لا يجدون له مكانا ، حتى ترقية كبار موظفى وزارتك الى مناصبها العليا . وفى كل يوم أطالع فى الصحف شكاوى الذين تمتد اليهم مظلة رعايتك : طلبـــة ومدرسين وموظفين وأولياء أمور ، يلجأون اليك لتحميهم مما يقترفه بعضهم في حق البعض الآخر . مولد كبير يا سيدى الوزير

اعانك الله على الخوض فيه .

بعد هذه المقدمة الصغيرة استأذنكم في الدخول مباشرة في الموضوع . بصراحة لقد تكونت لدى عقدة من كلمة تنسيق فى بلدنا ، فمكاتب الجامعات والكليات والمدرسين ، كلها من أسماء الأضداد ياسيدى الوزير ، هل تصدقون ان قراراتكم الوزارية التى تصدرونها ـ أو التى أصدرها وزراء سابقون عليكم ـ لانصاف العاملين بوزاراتكم تفسرها ادارات التنسيق تفسيرا ينتهى بعكس المقصود منها .

قلت سأدخل في الموضوع مباشرة . الموضوع يتعلق بزوجة ابنى السيد «ق» . كان أمامها يا سيدى الوزير فرصة النقـــل من وزارة التربية أكثر من مرة ، لكنها لشغفها بالتعليم ـ للأسف ـ فضلت أن تبقى فى مهنة التدريس ، فكان الجزاء ان الوزارة عند كل ترقية تكاقبها (يبدو من سياق الـكلام التالى ان زيد بن عبيد ينحت الفاظا جديدة في اللغة فـكون هـذا الفعل من النصف الأول من الفعل يكافىء والنصف الأخير من الفعل يعاقب ، ومعناه يعاقب شخصا عن عمل يستحق عليه المكافأة) ، وكأنما باستحقاقها الترقية ترتكب جريمة تستحق عقوبة عليها أبسطها ابعادها عن زوجها وأولادها لتعمل فى مدينة أخرى ، ولابد أن عندك فكرة عن مأســاة المواصلات فى بلادنا . لماذا توقع عليها هذه العقوبة ، لأنهـا رقيت من التعليم الاعدادى الى التعليم الثانوى أو من مدرسة الى مدرسة أولى وهكذا . . ويشهد أولادها هذه التصرفات ، فتترسب فى نفوسهم المتفتحة مخاوف من وزارة التربية ، حتى اذا أنهوا تعليمهم يوما ما فضلوا أن يظلوا عاطلين على أن يلتحقوا بوزارة التربية .

هل تعلم يا سيدى الوزيرمدى شغفها بالتدريس ؟ ان طالباتها يعبدنها ، يتبادلن معها بطاقات التهنئة فى الأعياد، ويقدمن لها الهدايا ، لست أقصد وهن طالباتها ، كلا ، بل بعد أن يتخرجن ويعملن ، فالصلة تظل معقودة بينها وبينهن ، ذات يوم كنت أزور ابنى فى بيته عندما طرق الباب ودخلت آنسة حلوة الوجه أناقتهـــا فى بساطة ملابسها ، ذات شعر أسود مسترسل ، وبصحبتها شاب أنيق مثلها . وبعد زيارتهما فهمت أنهما خطيبان وان الآنسة كانت طالبة منذ سنوات لزوجة ابنى وانهـــا تخرجت من كليتها الجامعية وتعمل معيدة بها الآن وهذا زميلهـــا وخطيبها ، وقد أقبلت الآن بصحبته لتعرفه بمدرستها السابقة وحتى تطمئن الى حسن اختيارها ، فرغم أن والديها على قيد الحياة وقد باركا علاقتهما الا انها تعتبر مدرستها أما ثانية لها . ولهذا فانها استحقت — فيما يبدو — ان تكافئها وزارة التربية على اخلاصها وتفانيها فى عملها الذى تمارس فيه العملية التربوية فى اوسع وأسمى صورها .

قلت سأدخل فى الموضوع مباشرة . لقد تخلفت زوجة ابنى عن احدى ترقياتها لأن طفلها كان مصابا بالحمى يوم عرضوا عليهـــــا الترقية المصحوبة بعقـــوبة النقل الى مدينة أخرى ، وكان عليها أن تختار بين حياة طفلها وترقيتها ، وطبعا فضلت أن تتنازل عن الترقية .

ثم صدر قرار وزارى لتسوية المتخلفين فى الترقيات بزملائهم الذين سبقت ترقيتهم . وقد حسبت أن القرار ينطبق عليها ، لكنها فوجئت بتطبيقه على من لا ينطبق عليهم ممن يعملون بالوظائف الادارية أى من غير المشتغلين بالتدريس بينما اغفلت هى تماما ، مع أنها يا سيدى

الوزير الأحق والأقدم والأكفأ بحـــــكم اشتغالها الفعلى بالتدريس . فلما استفسرت عن سبب اغفالهـــــا كان التخلص عجبا : ان القرار لا يطبق الا على المشتغلين بغير التعليم لمساواتهم بالمشتغلين بالتعليم . وبهذه الفتوى العبقرية تجاوز الطرف المتخلف الطرف الآخر الذى كان من المفروض أن يتساوى به . بل رقى من لا يستحق وحرم من الترقية من يســـتحق . وأصـــبح اللامعقـــول معقولا والمعقول لا معقول . وعنـــدما قدمت زوجة ابنى الشكوى تلو الشكوى من هذا الظلم الفـــادح الواضح وهددت برفع شكوى الى الجهات القضائية قوبلت بلا مبالاة كاملة . ففى بلدنا يمكن لأى بيروقراطى أن يظلم اى موظف ثم يقف موقف الشامت وهو يراه يتخبط بين المحـــاكم سنوات دون أن يخشى عقابا حتى لو اتضح فى النهـــاية ظلمه . فالقضاء هنا ينصف المظلوم ولا يعاقب الظالم .

ولقد رفعت زوجة ابنى شكواها الى القضاء المختص منذ أكثر من عامين حيث ما تزال قضيتها تزحف من مرحلة الى أخرى . ورغم أنها حصلت على احكام لصالحها فى كل مرحلة ــ لأن حقها واضح ــ الا أنها ليست احكاما نهائية . والبطء فى العدل ظلم يا سيدى الوزير .

وفى أثناء هذا كله لاحظت ان هناك جرثومة خفية تنخر فى هذه النفس الحساسة لتدمرها شيئا فشيئا . فرغم انها احتفظت بحماسها الظاهرى ، الا أنها ــ فيما يبدو ــ قد اقتنعت ان أحلامها فى عملها يتناسب تناسبا عكسيا مع حصولها على حقها ، وانها لابد وأن هناك طرقا أخرى ــ غير الاخـــلاص والتحمس ــ تمـــكن الآخرين من أن يحصلوا حتى على ما هو اكثر من حقوقهم .

واذا كان تخريب النفس الانسانية للمشتغلين بتعليم

أبنائنا أمر لا يهم ... (هنا كلمات قاسية آثرنا حذفها) فلست أشك أنه موضع اهتمامك يا سيدى الوزير ولن يرضيك أن يكون الظلم أطول عمرا من العدل . أما اذا كان مصير شكواى هو مصير شكاوى زوجة ابنى فالأولى أن أطويها بين جوانحى ، فهذا أفضل من أن تتنقل من مكتب الى مكتب تحمل تأشيرة هنا وتأشيرة هناك تبرر اللامعقول وتتجاهل الحق والعدل .

يا مرشد كل غارق الى البر نج من غرقت سفينته ، ولن يكون هناك شيء يماثل استقامتك . واذا وضع قارب المعدية على البر فبماذا اذن يمكن للانسان أن يعبر ؟ وهل عبور النهر بالنعال طريقة حسنة للعبور . لقد حدث صدع فى السد فتدفق منه الماء ، وانفتح فى الكلام . ان مكيال القمح قد طفح ، وكلما اهتز فان الفائض منه ينتثر على الأرض ، وكل من يظلم آخر كمن يكتم أنفاسه .

كن يا سيدى الوزير كالشبع يقضى على الجوع ، والكساء يقضى على العرى ، وكالسماء تصفو بعد العاصفة وتدفىء كل من يحس بالبرد ، وكالنار تطهى الشيء ، وكالماء الذى يطفىء الظمأ . أقم العدل ، والذى عدل عدالته موجود . وعندما يكون الحسن حسنا فالأمر اذن حسن .

زوجة ابنى يا سيدى الوزير ، زوجة ابنى ، زوجة ...

سليل الفلاح الفصيح
زيد بن عبيد المتفاصح

((دعاء))

اللهم أصلح ضمائرنا حتى تصلح مواصلاتنا .

اللهم نظف عقولنا وشوارعنا من المستنقعات والقاذورات .

اللهم طهر قلوبنا حتى تطهر أيدينا من الرشوة ، وألسنتنا من النفاق ، وتصرفاتنا من الاهمال واللامبالاة .

اللهم اجعل ايماننا بك فى السوق مثل ايماننا بك فى المسجد .

اللهم اعطنا القدرة حتى نصفق للمتفوقين ، لا نضع العراقيل أمامهم ولا نحقد عليهم ، بل نهيىء لهم كل فرص التفوق فتزيدهم تفوقا .

اللهم علمنا ان مصلحة الفرد لا تزدهر الا من خلال مصلحة المجموع وان مصلحة المجموع لا تزدهر الا من خلال مصلحة الفرد .

اللهم اعطنا الايمان بأن قدوة الكبار للصغار ، والتخطيط والنظام ، والجهد والانتاج ، والثواب للمحسن والعقاب للمسيء وليس العكس ، واحترامنا حرية الرأى مع اختلافنا معه ، هى العصى السحرية فى عالم اليوم ،

تنصرنا على أعدائنا ، تهبنا المهابة ، ترفع عنا كابوس الغلاء وأزمة السكن والمواصلات ، تشفى تعليمنا من أمراضه ، تنقذ مستشفياتنا من وهدتها وترفع عنها غمتها ، تنظف شوارعنا ومياهنا .

اللهم اجعل أقوالنا أفعالا ، ونياتنا تنفيذا .

اللهم ذكرنا ان آخرتنا تراب فى العين ، ومتر فى مترين .

انك السميع المجيب ..

الراجي عفو الخلاق
زيد بن عبيد المشتاق

ايضاح

زيد بن عبيد موظف توفى أخيرا بعد أحالته على المعاش بقليل . وقد عثر فى أحد أدراج مكتبه على تسعين شكوى ـ وكان سلفه الفلاح الفصيح قد رفع منذ أكثر من خمسة آلاف عام تسع شكاوى فقط كانت كافية للنظر بعدها فى موضوع شكواه وانصافه ـ اما موظفنا الفصيح فانه لم يكترث بارسال ما تعب فى كتابته بل ظل محتفظا به الى أن وافاه الأجل المحتوم . وهى شكاوى مرسلة الى جهات مختلفة وأشخاص متباينين منهم الأحياء ومنهم الأموات بل منهم من لم يولد بعد . كما انها شكاوى تتفاوت موضوعاتها ما بين شديدة العمومية وشديدة الخصوصية ، وهو يهتم أحيانا بتناول المبادىء العامة وأحيانا أخرى بالتفاصيل والجزئيات . كما ان هناك أكثر من فكرة تلح عليه فى معظم شكاويه آثرت الا احذفها فى حالة تكرارها مثل ترديده أنه لا يحب الشكوى ـ والدليل على هذا انه لم يرسل واحدة منها الى اية جهة موجهة اليها ـ وانه يؤمن بمبدأ الجهود الذاتية ... الخ .

ويبدو أن ابناء زيد بن عبيد قد عدلوا عن موافقتهم على مواصلتى نشر رسائل المرحوم والدهم ، فقد طلبوا

منى استردادها لأنهم ـ على نحو ما جاء على لسان اخيهم الأكبر وصـديقى ـ راوا أن بها مساسا لأمور شخصية يحرجهم نشرها . ومع ذلك فقد استطعت استبقاء بعض رسائله بعد اقناعهم بانها ـ وان كانت رسائل شخصية حقا ـ الا انه ليس فيها ما يمس كرامتهم أو يسبب لهم حرجا من قريب او بعيد .

ولكن يبدو انه كان لزيد بن عبيد رأى مخالف لرأى ابنائه . فقد تصادف انى ذهبت لاول مرة فى حياتى ـ ومن باب حب الاستطلاع ـ الى جلسة من جلسات تحضير الارواح . ومع أننى أقف موقفا محايدا بالنسبة لهذا الموضوع ، الا أننى فوجئت بروح زيد بن عبيد تحضر الجلسة وتملى على الوسيط رسالتها التالية طالبة منى أن أنشرها فيما أنشر من رسائله . ويبدو أن الحديث الذى كثر هذه الأيام عن الضرائب قد أثار شجون زيد بن عبيد وأقلق روحه بحيث اضطرها أن تخرج عن صمتها الأبدى . ومما يلفت النظر أن ما يعذب هذه الروح ، ولعله كان يعذب صاحبها أثناء حياته ، ليس مقدار ما يؤخذ منه من ضرائب ، فهذا ما لم يناقشه أبدا فى رسالته التى أملتها روحه ، ولكن طريقة أداء هذا الواجب الوطنى هى التى تؤرقه . فواضح أنه كان يلاقى الأمرين فى هذا السبيل ، وهذا هو ما يريد لأبناء جيلنا والأجيال التالية تجنبه ، فهو مهموم بهمومنا حتى وهو فى العالم الآخر . واظن أن أبناء زيد بن عبيد لا يستطيعون أن يدعوا ملكية والدهم ولا ملكية ما يمليه من رسائل بعد أن توفاه الله . ويلاحظ ان زيد بن عبيد فى رسالته التى أملاها من العالم الآخر ما يزال يحاول الاحتفاظ بروحه المرحة الساخرة التى سادت رسائله التى تركها قبل وفاته

وان كانت الجدية قد غلبت على معظم الرسالة . وفيما يلي هذه الرسالة مع رسالتين اخريين مما كتبه وهو فى عالمنا .

سيدتي الجليلة مصلحة الضرائب

ليس من شك انك فى غاية السعادة لأن سيرتك اليوم على كل لسان ، والمستقبل أمامك ، وخطاب ودك كثيرون ، والمعذبين بك أكثر ، وأنت تزدادين تدللا على عباد الله الذين يتطلعون الى نظرة عطف منك .. نظرة يا سيدة السيدات وجميلة الجميلات .

وطلابك مستعدون أن يلبوا لك طلباتك ـ وان كانوا يطمعون أن ترد لهم خدمات عامة يلمسون آثارها ـ وهم يقصدونك بكل رهبة وخشوع آملين أن تتنازلى وتتقبليها منهم ، لكن يبدو أنك تتلذذين بتعذيبهم ، وتضعين بينك وبينهم متاهات يشقون فى سراديبها قبل الوصول الى أعتابك السامية والحصول على رضائك العزيز الغالى .

ثم أن لى عتابا معك أرجو أن تتقبلبه برحابة صدر ، فليس مصدره الا غيرة المحب على محبوبه ـ حتى وان كنت قارقت هذه الديار : لماذا تفرقين فى المعاملة بين احبائك ، فأنت تمرين بالموظفين كالطيف الهفهاف ، تأخذين ما تريدين منهم لا يكادون يسمعون لك حسا ، فتحصلين على حقك من مرتباتهم دون اقرارات ولا محاسبين ولا لجان داخلية أو خارجية ... الى آخر هذا الصداع الذى تسببينه لأرباب المهن التجارية وغير التجارية وغيرهم . لماذا لا تريحين الكل أو ـ على الأقل ـ من يعلن رغبته فى الراحة والبعد عن الصداع . وتتعلمين درسا من ابنة عمومتك مصلحة التليفونات ، حيث

الفرصة متاحة لكل من يرغب أن يسدد اشتراكه السنوى دفعة واحدة ، فيخف بذلك عبء المتزاحمين على مكاتب التليفون لدفع اقساط اشتراكاتهم مرة كل ثلاثة أشهر . لماذا لا تتيحين الفرصة امام الراغبين فى خصم المستحق لك كله من المنبع وليس جزءا منه كما يحدث الآن ، بحيث يكون موقفه موقف الموظف الذى لا تطالبينه فى نهاية العام بتقديم اقرار او دفع أية مبالغ أخرى لا تتحملها ميزانيته المتواضعة .

ولا أعرف الحكمة من ترك التبسيط الى التعقيد ، فقد كان الممول مخيرا بين تقديم الفواتير الخاصة بمصروفاته او الموافقة على خصم خمس دخله من المهن الحرة مقابل مصروفاته . وكان الكثيرون يفضلون ـ اختصارا للأمور وراحة للبال ـ خصم هذا الخمس على امساك دفتر وحساب كل قرش يصرفه على المهنة مع تقديم مستندات قد يصعب الحصول عليها أو تكون موضع خلاف حول مدى علاقتها بالمهنة مما يتطلب فراغ بال واستعدادا خاصا لا يتوفر لمعظم المشتغلين بالمهن الحرة . وبذلك تصبح الحسبة سهلة بالنسبة لهم ولك يا سيدتى الجليلة فتعطى التعليمات ـ لكل من وقع اقرارا بارتضائه هذا النظام ـ للجهات التى يتعامل معها ـ اذا كان يتعامل مع جهات رسمية ـ بأن يخصم أولا بأول عن كل مبلغ يتقاضاه مصروفاته فى الحدود التى يعلن عنها المشروع الجديد ثم تخصم الضريبة المستحقة على أقل الشرائح . فاذا تبين فى نهاية العام انه لم يتجاوز هذه الشريحة فلا يطالب بما يطالب به اليوم من اثبات ان المبالغ المخصومة فعلا قد وردت فعلا للمصلحة وأن يذكر أرقام الشيكات التى وردت بمقتضاها هذه المبالغ وتاريخ

توريدها وجملة المبلغ المتضمن فى الشيك ... مما يعطل الممول تماما عن الانتاج ويصيبه باليـــأس وهو يتحرك كبندول الساعة بين الجهة التى صرفت له المبالغ ومصلحة الضرائب التى لا مصلحة لها فى أن يتردد عليها الآلاف عشرات المرات . اما اذا زاد الدخل عن الشريحة الأدنى ، فان دفع فروق الضرائب سيكون أمرا هينا لا يثقل كاهله ولا يصيبه فى مقتل .

بل أن لى تجربة مريرة ياسيدتى الجليلة حين عذبتنى فى شيخوختى وقد تجاوزت السبعـــين ولا أستطيع أن اتحرك تلك الحركات الرشيقة التى لابد أن يجيدها كل من يتعامل معك ، فلابد أن يكون ممولك سليم البدن سليم العقل سليم الاعصاب ـ وان انتهى الى غير ذلك فما هو الا من فرط حبك له ـ وأنا شيخ مصـاب بداء القلب وتصلب الشرايين وضعف الذاكرة ، ومع ذلك تطالبيننى بما تطالبين به شبابا كله حيوية وخصوبة وقدرة على المنح والعطاء وارواء ظمأك الأبدى الى المال . فلماذا لا تتكرمين بالاعلان عن تكريم كل من جاوز السبعين باعفائه من التعامل معك مكتفية بما يهبك الشباب من حيويتهم وخصوبتهم ؟ واذا كان الشيوخ يهربون أموالهم الى أبنائهم فان العكس لا يمكن أن يحدث ، فلن يهرب أحد أمواله لشيوخ أشرفوا على نهايتهم . أرجو أن تكونى كريمة مع كل من جاوز السبعين فتعفيه من التعامل معك ولو من ضريبة المهن الحرة . فأنا وان كنت قد غادرت دنياكم الفانية الا أننى لا أريد لأجيال الشيوخ من بعدى أن يلاقوا ما لقيته منك حتى لقد اضطررت ذات لحظة الى ايقاف نشاطى القليل ذعرا منك مع أننى كنت وقتها فى أشد الحاجة الى أن يشعر الناس بأننى ما أزال موجودا .

وختـــاما فاننى آمل أن يزودك أولياء أمرك بالآلات الحاسبة والأرفف والدواليب والبطاقات التى تفتقدينها مع أنها أوليات العمل المنظم فى أصفر وحدة حسابية . فما بالنا وأنت على وشـــــك أن تتعاملى مع ملايين المواطنين . اخشى اذا بقيت فى وضـعك المتواضع أن يحدث أحد أمرين لا ثالث لهما : أما انك لن تنجزى شيئا ، وأما انك ستتعذبين وتزيدين عشاقك عذابا فوق عذابهم الحالى .

تزينى يا سيدتى الجليلة وتعطرى حتى يصبح موعد المحاسبة الضريبية عيدا قوميا كمـــا يحدث فى كل بلد متقدم . أعانك الله وأعان احياء هذا البلد معك .

زيد بن عبيد
دفع ضريبة الحياة
وانتقل الى نعيم بلا ضرائب

الى طبيبى المصرى العظيم

فى الصيف الماضى سافر ابنى الأكبر الى أوروبا بدعوة من احدى الهيئات لمدة ستة أشهر . وقبل سـفره ـ وبمناسبة سفره ـ جلسنا نتذاكر قصة الصدام واللقاء بالحضارة الغربية الحديثة . أغضضنا الطرف عن الصدام القديم أيام الحروب الصليبية ، ونفذنا سريعا الى مانسميه بداية العصر الحديث حين جاءنا الأوروبيون غزاة ، وذهبنا اليهم نتعلم منهم ونتعرف عليهم عسانا نصد غزواتهم بأسلحتهم . لم تكن أول مرة يســـافر فيها ابنى الى أوروبا ، لكنها كانت زيارات سريعة قصيرة يكون فيهـا أقرب الى السائح . أما هذه المرة فسيقيم فيها كما أقام قبله أسلافه المحدثون ابتداء من رفاعة رافع الطهطاوى الذى لخص لنا رحلته فى كتابه تخليص الابريز فى تلخيص

باريز حتى يحيى حقى فى كتابه « حقيبة فى يد مسافر » وبينهما صف طويل من مفكرينا على رأسهم المويلحى الابن صاحب حديث عيسى بن هشـــام وطه حسين وتوفيق الحكيم ... كل هؤلاء قد بهرته هذه الحضارة فى جانب منها وأن أنتقدها في جانب آخر . ولعل النظام والدقة والنظافة واحترام الانسان للانسان بل للحيوان على رأس قائمة ما يشيدون به . وعندما سافر ابنى كنا نتساءل عما عساه يلقاه من جديد يبهره .

وجاءتنا خطاباته تترى ، وكانت خطابات قصيرة مختصرة ليس فيها الا أخبار عادية يعلن فيها أنه لم يجد شيئا لم يتوقعه . فالنظام والنظـــافة والدقة وحسن الأداء وآخر ما وصل اليه الانسان من مخترعات وتذوق للفنون متوفرة حقا لكنها لا تبهره لأنه يتوقعها . وهو على عكس أسلافه لا يبهره ما يراه بل يصدمه ما لم يتوقعه حين لا يكون على المستوى المنتظر : ورقة على أرض الطريق ، تصرف بوليسى مع أحد الغرباء ، سلعة يشوبها عيب ... وفجأة وصلنا منه أول خطاب مطول يقص فيه علينا قصة أقلقتنا جميعا . فقد أصيب بسعال أهمل أمره على مدى ستة أسابيع كاملة . وأخيرا قرر أن يزور الطبيب ، وهو طبيب عينته الهيئة الداعية . سأله الطبيب : هل تشكو من أمراض البرد . أجابه : لا .

ـ وهل سبق أن شكوت من ارتفاع ضغط الدم .

ـ نعم وعالجته وكان عاديا قبل مجيئى .

ـ اذن انت لا تأخذ أدوية تخفض ضغطك حاليا .

ـ لا .

ـ آه .. هذه الكحة اذن من ذاك الضغط .

وقاس له الضغط فوجده مرتفعا ، وأتبعه برسم

للقلب . ثم أعلن له ان ما تنبأ به من علاقة السعال بالضغط وأكده له قياس الضغط وكشفه عليه بالسماعة قد وضح فى رسم القلب . وأمره بتعاطى أربعة أدوية منها ما يخفض الضغط ونسبة الماء فى الجسم ، ومنها ما يقوى عضلة القلب ، ومنها ما يهدىء الأعصاب المتوترة . وبعد أسبوع من العلاج كان الضغط قد أصبح عاديا .

وبمجرد وصول خطابه اتصلت بصديقه وطبيبه الأستاذ الجامعى الذى كان يشرف على علاجه قبل سفره ، وهو طبيب يحاول خلق جيل جديد من الأطباء المهرة المخلصين قبل أن يبحث عن شهرة أو مال لنفسه ، يجمع بين الذكاء والتواضع والاخلاص . فبادر بارســـال خطاب — أو محاضرة — الى ابنى من أربع وعشرين صفحة يؤكد فيها — على البعد — أن هذا التشخيص خطأ مائة فى المائة . فلكى يتسبب الضغط فى السكحة يجب أن يكون قد أدى الى تضخم عضلة القلب ثم هبوطها مما يؤدى الى رشح فى الرئة يتسبب عنه السكحة . وهذه تطورات تحتاج الى سنوات من الاصابة بضغط الدم المرتفع . وكان على طبيبك الأجنبى أن يسألك : هل تنام نوما عاديا ؟ فالمصاب بهبوط القلب لا يستطيع النوم الا جالسا أو شبه جالس . هل تحس بالتعب عقب بذل أى مجهود ؟ هل كشف على رئتيك بالأشعة ؟ هل طلب فحص قاع العين ليتأكد من وجود ضغط مرتفع مستمر ... فلا يكفى أن يكون هناك سعال وضغط لكى يكون هذا من ذاك .

ومع ان ابنى راجع الطبيب الأوروبى — على ضوء تفسيرات صديقه — الا أنه ازداد تشبثا برأيه وما توصلت اليه آلاته قائلا : طبيبك المصرى يشخص حالتك من على بعد آلاف الأميال أما أنا فبالكشف عليك وأنت أمامى .

وتحديا للطبيب المصرى قام بعمل أشعة على الصدر ثم كتب تقريرا وقعه بامضائه يردد ويؤكد فيه تشخيصه مما هز ثقــة ابنى ــ ذات لحظة ــ فى صديقه وطبيبه المصرى ، وأفسد عليه متعة أيامه الباقيات فى غربته رغم ما كان يلقاه من حظوة وتقدير .

فلما عاد الى مصر المحروسة ، وكشف عليــه طبيبه المصرى العظيم ، اتضح ان الطبيب الأوروبى قد أولى الآلة كل ثقته وعطل تفكيره فوصل الى استنتاجات خاطئة . تماما كما يعتمدون على الآلة فى رفع أثقالهم فلا يستطيعون رفع عشر ما يرفعه حمالونا ، وكما اعتمدوا على الآلات الحاسبة فيضيقون بالاعتماد على عقــولهم امام عملية حسابية بسيطة .

وقد ذكرنى هــذا بنفس هذا الابن عنــدما كان صبيا لا يجاوز العاشرة واصيب بسخونة لم تزايله أكثر من عشرة أيام . فلما استدعينا له الطبيب المختص امر بعمل تحاليل معينة رأيت أن أضيف لها من عندى تحليل حمى التيفوئيد ، وكانت النتيجة سلبية كل التحــاليل ما عدا التحليل الذى لم يطلبه الطبيب . ومع ذلك فعندما علم بالنتيجة لم تهز شعرة فى رأسه وأعلن بكل ثقة ان هذا التحليل غير دقيق لأنه كان يجب أن تكون هناك أعراض مصاحبة لهذه الحمى لو أنه كان صحيحا . وأعلن ان الأمر لا يعدو أن يكون اصابة بسيطة بالانفلونزا . ورغم اننى شككت فى هذا التشخيص ، الا أن شفاء ابنى فى اليوم التالى مباشرة أكد لى صحة راى الطبيب .

تحية الى طبيبنا المصرى العظيم ، وعقبال ممرضينا وممرضاتنا .

الفخور بطب بلاده
الحزين على تمريضه
زيد بن عبيد

الى القرن الحادى والعشرين

أنا الفرد المسحوق فى القرن العشرين .
فى القرن التاسع عشر سحق الفرد المجموع .
فى القرن العشرين سحق المجموع الفرد .
أنا الفرد المسحوق المنسحق ، المطحون المتطحن .

كالأرانب توالد الناس .
العرض أصبح أكثر من الطلب .
أصبح الفرد رخيصا فى سوق المجموع .
افترسه تنين المجموع .

كتبت شكوى ،
قيل لى اكتب ألف شكوى .
أنت واحد ونحن تسعة وتسعون .
أنت فرد ونحن ملايين الأرقام .

أنت رقم فى سجلاتنا .
ما قيمة أن تأتى ، ما قيمة أن تذهب .
أنت فرد فان ، ونحن الجمع الباقى .
من قبلك كنا ، من بعدك نبقى .

انا الفرد فى البيت ،
فى المقهى وفى الملهى .
انواقف أمام المكتب ،
امام باب المكتب .

ونحن المجموع الجالس خلف المـكتب .
نحن الأبواب المغلقة .
نحن اللجان داخل الأبواب المغلقة .
نحن المخفى المرئى ، المجرد الملموس .
نحن مجموع آفراد .
لـكن المجموع فينا يسحق الفرد منا .
نحن الآلة ،
نحن تروس الآلة وأزرار الآلة .

أنا المتهم أنا المدان .
ونحن الاتهام نحن القضاة .
أنا الفرد المسحوق المطحون .
ونحن المجموع الساحق الطاحن .

وأنا أحلم ...
أحلم بعصر يتصالح فيه الفرد والمجموع .
عصر يزدهر فيه الفرد من خلال المجموع .
ويزدهر فيه المجموع من خلال الفرد .

القصيدة ناقصة الوزن
لمؤلفهـا ناقص الموهبة
زيد بن عبيد

حبر على ورق

- ١ -

كثيرا ما أتساءل وانا أقرأ ما يكتب فى كثير من الصحف والمجلات حول أوجه السير العرجاء فى كثير من مصالحنا وهيئاتنا ، أتساءل اذا ما كان هذا النقد من باب النفخ فى قربة مقطوعة ، وما اذا كانت هذه المصالح والهيئات تنظر الى صحافتنا نظرتها الى هايد بارك اخرى الكلام فيها للتنفيس لا التنفيذ .

ويجب أن نفرق بوضوح بين عقبات نواجهها بسبب الضغوط الاقتصادية والعسكرية وعقبات نواجهها بسبب سوء الادارة والتنظيم . اننا جميعا على استعداد لتحمل اثر الضغوط علينا ، لكن اذا كنا خمسة أشخاص وليس امامنا الا رغيف خبز فانه ليس مقبولا أن يختطفه شخص أو شخصان بينما المنتظمون فى الطابور يعاقبون على انتظامهم بالخروج من الطابور بلا حمص ، ثم تكون المعركة هى الشماعة التى يعلق عليها نفاد الرغيف ، والمعركة بريئة من هذا الفساد .

واذا كان هناك نقص فى السيارات العامة أو سيارات الأجرة بسبب ضغوط المعركة ، فان دور الادارة يبدأ من الصيانة حتى تنظيم الركاب بحيث لا يسبق شاب مكتمل الصحة شخصا مسنا أو سيدة تحمل طفلا أو حاملا ، وقد رأينا فى دول أخرى نقصا ، فى وسائل المواصلات ولكن

الاطمئنان الى ان دورى آت يقلل من متاعب الانتظار ، بينما نحن نضاعفها بالتنافس والفوضى .

ونشكو وتنشر الصحف الشكاوى ، وكأن المسئولين فى معظم المصالح والهيئات لكل منهم اذن من طين والأخرى من عجين ، أو لعلهم أصبحوا محصنين ضدها من طول ما تعودوها ، بل لعلهم يقتاتون بها قبل أن تقتات بهم .

ذهبت يوما أشكو لمسئول فى تنظيم القاهرة من فجوة تركت شهورا فى الشارع المؤدى الى بيتى ، وحين عرف اننى يمكن أن أرفع صوتى الى أبعد من الجدران الأربعة التى تضمنا رحب بى وكأنى هبطت من السماء ، فقد بح صوته هو أيضا من الشكوى لمن هم أعلى منه مسئولية لنقص معداته ورجونى أن نرفع صوتينا معا .

نحن نعرف ان عبء التنفيذ لا يجب أن يلقى كله على عاتق أجهزة الدولة ، وان أفراد الشعب والأجهزة الشعبية مطالبة بالمشاركة فى التنفيذ عن طريق ما اصطلحنا على تسميته بالجهود الذاتية وبالرقابة أيضا ، فقد تمت تسوية الفجوة خلال أسبوع من مقابلتى للمسئول فى تنظيم القاهرة بالرغم مما أبداه من اعذار .
لكن أجهزة الدولة هى القدوة وهى المشجع .

— ٢ —

يقول الأطباء المتخصصون فى أمراض تصلب الشرايين التى تؤدى الى الذبحة الصدرية او الشلل النصفى ان أسبابها الرئيسية ترجع الى ثلاثة عوامل : عامل وراثة لا صلة لنا فيه ، وعامل انفعالى التحكم فيه ممكن الى حد ما لأن الوراثة ما تزال تلعب دورها هنا عن طريق الجهاز العصبى ، ثم عامل التغذية من حيث النوع والكم ، وهذا عامل يمكن للفرد ان يتحكم فيه ، ولا عذر

لمن يدعى بأنه لا غناء له عن نوع معين من الطعام فهناك شعوب بملايينها تأكل ما لا نستسيغه نحن ولا نستسيغ ما نأكله نحن ، فالطعام عادة مكتسبة يمكن للفرد أن يغيرها لصالحه . وقد كانت شهيتى فى صباى تتفتح لرائحة التقلية بينما هى اليوم تثير فى رغبة الغثيان . وبالتحكم فى عاملى الانفعال والغذاء يمكن ترويض عامل الوراثة وتقليل خطورته الى حد ما .

ويقول أطباء السياسة المتخصصون ان ما تعانيه مصر اليوم يرجع أساسا الى ثلاثة عوامل أيضا : أما أولاها فهو العامل الجغرافى والاستراتيجى مما جعلها هدفا للقوى الكبرى على مر العصور منذ غزاها الفرس ، وهذا قدرنا ولا حيلة لنا الا بمجابهته . انه أشبه ما يكون بالعامل الوراثى . أما العاملان الآخران فهما التضخم السكانى الخطير والفوضى الادارية الأكثر خطورة . وهما عاملان لابد من التحكم فيهما اذا أردنا التصدى للعامل الأول وترويضه وتجنب خطره وخطورته . فعدم التحكم فى هذين العاملين هو الذى يؤدى الى ضعفنا مما يغوى بنا القوى الكبرى ويثير شهيتها فى التهامنا . وطالما قيل ان أحد الأسباب الرئيسية التى شجعت على دق الاسفين الاسرائيلى فى منطقتنا العربية هو الظن بأننا اضعف من أن نتصدى له .

فزيادة النسل تأكل كل زيادة فى الانتاج بل تتجاوزه الى حد الارهاق ، وتأتى الفوضى الادارية فتزيد الأمور سوءا ، فحتى القليل الذى لدينا يتبدد ، وتتبدد معه طاقاتنا ، بحيث وقر فى النفوس أن المخلص يعاقب والفهلوى يكافأ . أليس غريبا ان المصرى كفرد تبرز عبقريته ، وشاهدنا على ذلك بطولاتنا الدولية فى الألعاب

الفردية مثل السباحة والاسـكواش والتنس وبعثاتنا التعليمية التى يتفوق فيها كثير من المصريين على زملائهم من أبناء البلاد نفسها التى يدرسون فيها ، وكذلك نبوغ عدد غير قليل فى المهن الفردية كالمحاماة والطب . أما فى الأعمال الجماعية ، عندما يكون المصرى ترسا فى آلة اكبر ، فان عيوبنا ما تلبث أن تظهر ، وشاهدنا على ذلك العابنا الجماعية مثل كرة القدم ، ونظمنا البيروقراطية التى تجعل من الطبيب الناجح فى عيادته موظفا لا حول له ولا قوة فى مستشفياتنا .

من السذاجة القول ان القوى الكبرى ستنصرف عنا بمجرد نجاحنا فى التحكم فى تضخمنا السكانى أو معالجة عيوبنا البيروقراطية ، ولكن الذى لاشك فيه اننا سنصبح عندئذ لقمـة مريرة فى حلوقهم وشرابا غير سائغ فى أفواههم .

— ٣ —

من مظاهر المجتمعات المتقدمة ان تكون مصلحة الفرد جزء من مصلحة المجموع ومصلحة المجموع هى مصلحة الفرد . وكلما اتسعت الهوة بين المصلحتين كان المجتمع أكثر تخلفا . ولا تستشرى الاختلاسات والرشوة .. الى آخر هذه الانحرافات الا حين يضع الفرد مصلحته فوق مصلحة المجموع ، وهى أمراض وبائية ، بمعنى ان المريض بها يعدى السليم .

وهذا الانفصام بين الفرد والمجموع قد يبدو حتى فى التصرفات الصغيرة وان كانت لها آثار بعيدة . فعدم احترام النظام أو القوانين مظهر من مظاهره ، وبذلك تصبح القيم فى وضع عكسى ، أعنى يصبح احترام النظام

دليلا على الضعف ، ومن ينفذ القانون على نفسه انما ينفذه لأنه لا ظهر له ، بينما اندلالة على القدرة والنفوذ هو أن تحصل على ما تريد بخروجك على النظام ، وهكذا يسود قانون الغابة .

حتى الاهمال وما اصطلحنا على تسميته بالتسيب لون من ألوان هذا الانفصام ، فمعناه اننى أريد أن أحصل على أجرى فى نهاية الشهر عن عمل لم أؤده ، حاسبا بذلك اننى أخدع القوانين الاقتصادية ، ولـكن الذى يحدث هو أن القوة الشرائية لهذا الأجر لن تساوى الاقيمةماأنتجته، فيكون ذلك أحد أسباب التضخم الذى أشكو منه وأنا أحد أسبابه .

ولعل أخطر ما ينجم عن الانفصام بين الفرد والمجموع هو تحطيم كل عبقرية تبرز فوق سطح المجتمع ، حتى ليصبح التفوق جريمة يعاقب عليها صاحبها ، بدلا من أن يهيأ له المناخ الذى تزدهر فيه مواهبة . وبذلك يعقم المجتمع ممن كان يمكن أن يطوروه الى أفضل ويظل على تجمده بينما يتاح للمجتمعات الناضجة أن تزداد نضجا مما يوسع الهوة بينها وبين المجتمعات المتخلفة ويتيح لها مزيدا من السيطرة عليها أن عسكريا أو اقتصاديا أو ثقافيا ... الخ .

وهكذا تسود القيم المقلوبة فى مجتمع الانفصام ، فالتهليب شطارة ، والنفاق حداقة ، وخطف اللقمة ممن يستحقونها جدعنة . رأيت مرة سيدة تقف خارج طابور لقطع تذاكر أحد القطارات وهى تحاول أن تقنع أحدا من الواقفين فى الطابور بقطع تذكرتها ، فلما قوبلت بالرفض تحسرت قائلة « هو ما فيش انسانية » وسمعت فى مرة أخرى مدرسة اطفال تحكى فخورة — فى المواصلات

العامة ـ كيف انها قامت بعمل انسانى حين أملت اجابات الامتحان على أطفالها « والنبى كانوا صعبانين على » .
واحتج صديق ذات ليلة على زعيق مكبر صوت لسابع جار ظل يلعلع حتى بعد منتصف الليل لحادث حزن أو فرح ـ لست أذكر ـ وقع له ، فقوبل باستنكار شديد لأنه لا يراعى مشـــاعر الجيرة ، وضاعف من جريمة احتجاجه انه لم يكن لديه عذر قوى يدفعه الى هـذا الاحتجاج مثل شيخ مريض أو تلميذ فى ليلة امتحان .
وقد أتانى يقص على القصة وهو يتساءل ساخطا « من الذى لا يراعى مشاعر من ؟ » .

وكما ان مصلحة الفـرد والمجمـوع متلازمتان فـان العكس كذلك صحيح . فالفرد الذى استفاد على حساب مجتمعه هو جزء من هذا المجتمع الذى شـــارك فى تخريبه ، وبذلك فكما يعانى الناس من تصرفاته سيعانى هو بدوره حين تكون له مصالح عند الآخرين لأن أمثاله منتشرون فى كل مكان يقصده . لكن الأخطر من ذلك انه سيغرق فى النهاية مع السفينة التى يشارك هو فى ثقبها .

ـ ٤ ـ

روى لى الدكتور عونى عبد الرءوف ناظر المدرسة الانجيلية الألمانية بالزمالك أنه دهش عنـدما لاحظ أن أساسات المدرسة الجديدة التى تبنى فى الدقى تصل الى عدة أمتار فى باطن الأرض مع ان أدوار المدرسة لن تتجاوز دورين أو ثلاثة . وعندما استفسر من المهندس الألمانى أجابه بأنه من المتوقع أن يسبب احتفاظ النيل بارتفاع مياهه طوال العام بسبب انشاء السد العالى

ارتفاعا فى منسوب المياه الباطنية خلال السنوات العشر المقبلة مما قد يكون له تأثيره على الأساسات الضعيفة لاى بناء ، وانه يدخل فى اعتباره هذا التطور المتوقع حدوثه مستقبلا .

وفى مقابل هذا النوع من التفكير ، نجد آخرين لا يفكرون الا بعقلية اللحظة المؤقتة . فالحضارة المعاصرة تغلب الحاضر - على مستوى الجماهير على الأقل - على كل من الماضى والمستقبل . وهذا هو أساس فكرة الموضة مثلا ، فهو أسلوب تجارى يستخدم على أساس رواج موديلات اللحظة الحاضرة وبوار كل ما عدا ذلك . وهو كذلك أساس انتشار وسائل الاعلام - كالصحيفة اليومية - التى تكتسب أهميتها ثم تفقدها من يوم الى يوم بل من ساعة الى أخرى وتغلبها على الكتاب مثلا الذى قد لا تكون له نفس أهمية الصحيفة فى اللحظة الحاضرة لكنه ابقى منها لأنه يحتفظ بالماضى للمستقبل .

ومجتمع اللحظة المؤقتة مجتمع بلا جذور ، لا يستطيع أن يقاوم تحدى المجتمعات التى تمتد جذورها راسخة فى الماضى ، وتتطلع للمستقبل وتخطط له فى ضوء خبراتها الماضية .

والماضى هو ذاكرة الفرد ، وفرد بلا ذاكرة لا شخصية له ، والتاريخ ذاكرة الأمة ، وأمة بلا تاريخ لا شخصية لها . لهذا لابد من بث تاريخ الأمة فى عقول الأجيال الناشئة وحفرها فى ذاكرتهم ، لا بما يتلقونه من دروس بالمدارس الابتدائية والاعدادية فقط ، بل بكل وسيلة ممكنة : بعث الرحلات الى اماكننا الأثرية ، اقامة تماثيل للبارزين فى تاريخنا فى الميادين العامة ، الدعاية لمتاحفنا ،

نشر الطابع القومى فيما نستخدمه من أدوات الحياة اليومية واثاث منازلنا ولوحات جدرانها .. الخ .

أما المستقبل فهو الأمل الذى بدونه لا حياة لفرد أو أمة ، وفى حضارتنا العلمية لم يعد يترك المستقبل للمقادير ، بل أصبحت فى كل دولة تقدر المسئولية وزارة للتخطيط ، تخطيط الحاضر فى ضوء متطلبات المستقبل وتطوراته المحتملة والمطلوبة .

أليس ما يعانيه مشروع أنفاق القاهرة من عقبات سببه ان الذين خططوا لعاصمتنا قديما لم يحسبوا حساب المستقبل ، ان كانوا قد خططوا لها أصلا .
وعلى مستوى العالم العربى فان على دول البترول الا تعيش بأموال البترول لحظتها الحاضرة بل تمول بها ما تخططه لمستقبلها من مشروعات نكون مصدر ثروتها بعد نفاد البترول فى نهاية القرن كما يتنبأ العالمون ببواطن الأرض .

ولا قيمة لحاضر لا يصب فيه ماض يستفاد من خبراته ودروسه ولا ينبع منه مستقبل يحسب حسابه ويخطط له ..

أن مجتمع اللحظة الحاضرة هو مجتمع التضخم السكانى ، المجتمع الذى تعلو فيه مصلحة الفرد على مصلحة المجموع ، وشعاره أنا وبعدى الطوفان . أما المجتمع الموصول بماضيه المهموم بمستقبله فهو مجتمع تنظيم النسل ، المجتمع الذى يجعل مصلحة المجموع فوق أى مصلحة ، فلا وساطات ولا رشاوى تحت أى ستار ، مجتمع شعاره ، زرع أجدادنا الزيتون لنا ، ونزرعه نحن اليوم ليأكله أحفادنا من بعدنا .

حلم طالما طاف بخيال الكثيرين نرجو أن تحققه وزارة الثقـافة ، ذلك هو شراء بيوت المفـكرين والفنانين من ورثتهم تمهيدا لاحالتها الى متاحف . اشترت فيللا أحمد شـوقى ولـكن تعثر شراء فيللا الدكتـور طـه حسين وأم كلثوم . وهو تقليد عظيم فى كل بلاد الدنيا التى تدرك أن التاريخ ذاكرة الأمة ، وأن أمة بلا تاريخ كشخص بلا ذاكرة . وأن التاريخ ليس مجرد ما نقرأه فى الـكتب رغم الأهمية البالغة لذلك . وهو ليس مجرد المناطق الأثرية ولا حتى المتاحف التى تضم المبعثر مما يعثر عليه فى هذه المناطق وينظمها ويحسن عرضها . فالتاريخ حركة مستمرة ، وعلينا أن نعرف حاضرنا القريب كمـا نعرف ماضينا البعيد . واذا كانت آثارنا الفرعونية قد استطاعت أن تقـاوم الزمن لأن الذين أقاموها كانت تسيطر عليهم فكرة الخلود المادى ، أى بعث الأرواح فى أجساد أصحابها بما يحتاجون اليه من طعام وشراب وخدم وحشم ، فان آثارنا القريبة لن تقاوم الزمن مقاومة مماثلة اذا نحن تركناها تحت رحمته لأنها تقام على أساس عقيدة مختلفة فى الحياة الأخرى .

لهذا يحرص المسئولون فى كل بلد على شيء من الوعى أن يقبضوا على التاريخ المعـاصر وشـواهده قبل ان يندثر ، ويبقوه حاضرا فى أذهان المواطنين بل والأجانب العـابرين وذلك بمختلف الطـرق وفى كل مكان يمكن استغلاله حتى يظل واقعا ملموسا وليس مجرد ذكرى من أيام التلمذة . واقامة النصب التذكارية لبطـولات الأمة والتماثيل لعظمائها وشراء بيوتهم وتحويلهـا الى

متاحف أحدى هذه ألوسائل ؛

وكم اسفت حين علمت ان وزارة الثقافة لم تستطع أن تحصل من بيت شوقى الا على جدرانه ، أما أثاثه ـ الذى كان يمكن أن يكون نواة متحفه ـ فقد بيع بثمن أقل بكثير من قيمته الآثرية قبل أن تتم صفقة البيع مع وزارة الثقافة .

بقى بعد ذلك أن نحسن العرض ونحسن الدعاية وننجح فى أن نجعل هذه المتاحف ثقافة وسياحة وتجارة كما تفعل كل بلاد العالم المتحضرة فنستفيد ونفيد . وان يؤمن قبل ذلك كله المسئولون عن التمويل أن مثل هذه المشروعات ـ اذا أحسنت ادارتها ـ تدر من الاموال أضعاف ما ينفق عليها فضلا عن عائدها المعنوى وقيمتها التى تتضاعف بمضى الزمن .

والعقبى لمقبرة العظماء ؛ الحلم الذى طاف بخيال المرحوم يوسف السباعى ولم يتحقق حتى اليوم .

ـ ٦ ـ

من غرائب الأمور وعجائب الدهور ان هناك أشخاصا ولدوا ونشأوا وتوظفوا فى المدينة ، ومع ذلك فانهم يعيشون بعقلية البدو فى الصحراء ، أو على أحسن تقدير بعقلية الريفى فى قريته ، ذلك ان الانتماء الوحيد الذى يعترفون به هو الانتماء القبلى ، وقبيلة المدينة لا تقوم على صلات الدم مثل قبيلة الصحراء والمناطق المتخلفة حضاريا ، بل على صلات شعارها « شيلنى وأشيلك » . وهكذا نجد فى معظم مصالحنا الحكومية نظام الشلل ، القائم على أساس ان مصلحة الشلة فوق المصلحة العامة ،

ولا بأس ان تحطم أفضل الكفاءات اذا كان ذلك من شأنه أن يخدم أحد أفراد الشلة حتى ولو كان عاطلا من أية موهبة الا موهبة الانتماء للشلة . بل ان معظم أفراد الشلة لا يجمعهم الا انهم عاطلون من آية مواهب أخرى غير موهبة الحقد على الآخرين والتنكيل بهم .

ومن طقوس هذا النظام القبلي — واختلافه مع نظام القبيلة الأصلي المأخوذ عنه — أنه لا يواجه الآخرين أبدا وجها لوجه ، انه أجبن وأذكى من أن يفعل ذلك . انه يترك لهؤلاء الآخرين أن يصرخوا ما شاءوا وأن يكتبوا الشكاوى ويرفعوا القضايا ، بينما يتحرك أفراده فى هدوء ، وقد مدوا عيون أعوانهم الى كل ركن من أركان المصلحة كما مدوا خيوط شبكتهم الواسعة الى كل منطقة من مناطق النفوذ بها ، ليفوزوا بالغنائم وينكلوا بكل من يحاول أن يقف فى وجههم أو يكشف وجههم القبيح حتى ولو بمجرد اخلاصه لعمله ومثابرته وتحمسه — فهذه صفات يفتقدونها . وهكذا فان لهم الأعمال ولغيرهم الأقوال ، لهم التنفيذ ولغيرهم التنفيس . وقد يلقاك أحد أفراد الشلة فيبتسم لك ويسلم عليك بيد بينما تخفى يده الأخرى الخنجر . والمصيبة ان الجيل الأكبر يربى جيلا ناشئا على نفس التقاليد والطقوس ضمانا لاستمرار هذا الأخطبوط الرهيب .

ان وجود هذه القبلية فى مصالحنا الحكومية من أهم أسباب تخلفها وتخلفنا ، لأنها لا تضم الا الحاقدين والموتورين المتفرغين للوقيعة والدس ليطفوا على سطح حياتنا ويفوزوا بما لا يستحقونه بينما يعاقب كل مخلص متحمس على اخلاصه وتحمسه الى أن يصاب باليأس والقرف .

ـ ٧ ـ

فى كتاب «وجهة نظر» يقص علينا الدكتور زكى نجيب محمود كيف أنه تلقى خطابا ذات يوم من مكتب حكومى يحدد له موعدا فى الساعة التاسعة من صباح يوم معين ، فذهب قبل الموعد بدقائق ليجد المكان خاليا ، وقال له أحد السعاة أنهم يكتبون التاسعة ويعنون بها الحادية عشر . وحتى عندما حضر الموظف المختص لم يكن فى عجلة ولا فكر فى الاعتذار ، بل طلب القهوة له ولضيفه وحدثه عن قضايا فلسفية تشغله ـ وقد عرف شخصية الدكتور ـ ثم بدأ ينظر فى موضوع ضيفه .

وفى مقابل ذلك روى لى صديق كان فى الولايات المتحدة أخيرا أنه ذهب يصلح سيارته عند الميكانيكى المختص ، فوجدها فرصة ليتعلم منه كيفية اصلاح السيارة ويستفسر منه عن بعض آلاتها ، فوجد من العامل ترحيبا ومضى يشرح له باسهاب كان موضع تقدير من صديقنا . وبعد أن تم الاصلاح والشرح تقدم العامل بفاتورة بأجر مرتفع . فلما أبدى صديقى اعتراضه ودهشته ، أجابه العامل مبتسما « هذا أجر الزمن الذى أمضيته معك أشرح لك فيه وكان يمكن أن أمضيه فى اصلاح سيارة أخرى وأتقاضى عن ذلك الدولارات التى أطلبها منك » .

والواقع ان الوقت هو اكبر فاقد فى مجتمعنا . ويعلل الدكتور زكى نجيب محمود ذلك بقوله ان ذلك من بقايا المجتمع الزراعى حيث يقاس الزمن بالفصول وليس بالدقائق والثوانى . فالمجتمع الذى خلق الساعات بدقائقها وثوانيها هو المجتمع الصناعى ، حيث العامل

يقف امام الآلة التى لا يستطيع ان يغفل عنها لحظة لأنه يأخذ منها شيئا أو يغذيها بشيء كل دقيقة أو دقيقتين .

والكلام الذى لا رصيد له مرتبط بالوقت الذى لا ثمن له ، فاذا كان موعد الاجتماع أو الحفل أو الندوة قد تحدد فى ساعة معينة فان هذا معناه أن تبدأ هذه الاجتماعات بعد نصف ساعة وأحيانا ساعة من الموعد المحدد ، والويل لمن يأتى فى موعده ، سينتابه احساس بأنه هو المخطىء ، هو الذى لا يفهم طبيعة الناس فى مجتمعه ، وكان اجدى عليه لو استثمر هذا الوقت ولو فى سمر مع صديقه .

حتى سككنا الحديدية كانت مشهورة بدقة التوقيت بحيث يضبط الأهالى ساعاتهم على مواعيد القطارات التى تمر بهم . فلماذا تصبح مواعيدها بالبركة ، واذا تعطل الركاب تعطل وصولهم الى مصالحهم التى يقضون فيها حاجات الآخرين أو التى يقضون فيها حاجاتهم هم . وقديما قال أجدادنا « الوقت كالسيف أن لم تقطعه قطعك » . وعلى كل منا أن يتساءل من الذى يقطع من ؟ .

— ٨ —

كل من يشاهد معارضنا الصناعية يلاحظ بكل أسف غياب الشخصية المصرية من صناعاتنا المحلية ، فكلها — فيما يبدو — تعتمد على الكتالوجات الواردة من أوروبا أو أمريكا ، بحيث لا نلمس طابعا مصريا فى مصنوعاتنا الا فيما يندر وبطريقة عفوية . وليس هناك عذر بأن مراكزنا المختصة لم تقدم الدراسة المطلوبة لتحقيق هذا المطلب .

فعلى سبيل المثال يوجد بوزارة الثقافة أكثر من مركز مهمته استخلاص الطابع القومى من فنوننا التشكيلية خلال مصر الفرعونية فالقبطية فالاسلامية ، مثل مركز الفن والحياة بقصر المانسترلى عند مقيـــــاس جزيرة الروضة ، ومثل مركز بحوث الفنون التشكيلية ببيت السنارى خلف مدرسة السنية الثانوية للبنات بالسيدة زينب ، ومثل دار النسجيات المرسمة خلف حديقة الهابى داى بحلوان ، ومركز الفنون الشعبية بالقرب من ميدان عرابى . كل هذه المراكز وغيرها قامت بدراسات عن الطابع المصرى وما يتناسب من تشــكيلاته المختلفة مع الخامات التى تصنع منها الأدوات التى نستخدمها فى حياتنا اليومية بما فيها من خامات حديثة لم يعرفهــا أجدادنا مثل البلاستيك . فاستخلصوا لنا نقوشا مصرية الطابع ـ فرعونية أو اسلامية ـ وقدموا نمــــاذج على انواع الأقمشة المستخدمة اليوم ، ونفس الشىء فيما يتعلق بالأوانى الخزفية والحلى وقطــع الأثاث والسجاد ... حتى ملاعق الآيس كريم البلاستيك قدم أحد هذه المراكز ملعقة يعرف من يستخدمها انها لابد وأن تكون قد صنعت فى مصر بدلا من هذه الملاعق المستخدمة التى تحس انه لا وطن لها .

وانى لأعجب لماذا لا تستفيد شركاتنا الصناعية مثل مصانع النسيج أو الخزف والصينى أو البلاستيك أو الأثاث أو السجاد ... من هذه الدراسات فيصبح للبيت المصرى طابعه المميز ، بل تلقى هذه الصناعات رواجا بين الأجانب المقيمين أو العابرين على نحو ما تلقاه صناعات خان الخليلى لأن الأجنبى لا يشــترى صــناعة عنــده ما يشبهها .

وفى جناح مصلحة السجون على سبيل المثال تمنيت لو ان المشرفين على هذه الصناعات المتعددة التى يبذلون فيها جهدا واضحا ، تمنيت لو أنهم أولوا اهتمامهم للاستفادة من جهود هذه المراكز التابعة لوزارة الثقافة ومن غيرها ، فلا يقدمون لنا صناعات هى تكرار لغيرنا بل صناعات تعلن أنها صنعت فى مصر وبأيد مصرية ، وحبذا لو خطت شركاتنا الصناعية على نفس الطريق .

— ٩ —

لى صديق فى خريف عمره ، اشترى قطعة أرض ليبنى عليها بتحويشة العمر بيتا يستريح فيه من نكد أصحاب الملك ، ويحقق حلمه فى ممارسة هوايته بزرع وقلع وتقليم وقطف ازهار وثمار أشجار حديقة صغيرة تحيط ببيته عندما يحال الى المعاش . لكن هذا الحلم سرعان ما تبدد عندما برز له أحد لصوص الأرض ليحيل حلمه الى كابوس . والمهم انه عندما لجأ صديقى الى القانون واعتقد أن الحق سيتضح والاغتصاب سينكشف اذا بلص الأرض يلجأ أيضا الى القانون ، ورأى صديقى أرضه تغتصب منه اغتصابا قانونيا ، فخصمه متخصص فى هذه الجرائم التى يرتكبها باسم القانون مستغلا ما فيه من ثغرات لصالحه . وهكذا وجد صديقى نفسه ينفق تحويشة العمر على المحامين والخبراء وكتبة المحاكم بدلا من أن ينفقها على تحقيق حلمه ، ولم يظفر فى النهاية الا بأمراض الضغط والذبحة ..

وأعرف أديبا كبيرا حصل على جائزة الدولة التقديرية وقدرها الفين وخمسمائة من الجنيهات ، رأى أن

افضل وسيلة تمنعه من تبديدها هو شراء قطعة ارض من طريق احدى الجمعيات التعـاونية لبناء المساكن ،

وعندما هم ببنائها قيل له ان سكرتير الجمعية توفى ولم يترك ما يدل على انك سـدت ثمن ما اشتريت وان ما لديك انما هى ايصالات غير رسمية . وهكذا ابتلعت موهبة سكرتير الجمعية فى لحظة موهبـة أديبنا التى قدرتها الدولة بعد أكثر من ثلاثين عاما من الجهد .

ان من يقتل أو يسرق أو يختلس أو يرتشي ... الخ ويتم ضبطه للمحاكمة لينال عقابة انما هو مجرم أهون بكثير ممن يرتكب جريمته باسم القـانون . فقـد وجد القانون لحماية الحقـوق ، فاذا انتشر التحايل باسم القانون لالتهام الحقوق بحيث لا تصبح مجـرد حالات فردية فان الأمر سيصبح ظاهرة تستحق الدراسة لمعرفة الأسـباب وتلافى النتائج ، حتى لا يقـع آلاف البسطاء ضحية النصابين والمحتـالين باسم القانون ، مما يهز الثقة فى القيمة الحقيقية له .

انني أطالب باعادة النظر فى قوانيننا التى يتسلل منها هؤلاء المجرمون ، حتى لا تفاجأ بطردك أنت وأولادك من شقتك ذات يوم ، أو بمحضر يحجز على أثاثك تنفيذا لحكم أنت لا تعلم عنه شيئا ، أو بخصم يبرز لك ليغتصب حلم حياتك . فالحضارة تقاس بمدى شعور المواطن بالطمأنينة فى مجتمعه ، ولا طمأنينة الا بسد الطريق أمام كل من يرتكب جريمة ولو باسم القانون .

من الآداب العالمية

من الأدب السوداني

تاجوج

اهتم المصريون منذ زمن بعيد بالسودان والسودانيين ، فتكلمنا عن الوحدة الدينية أو اللغوية أو الاقتصادية أو الجغرافية ، ولكن الكثيرين منا لم يهتموا بدراسة الآداب السودانية والثقافة السودانية ، حتى المثقفون منا . لهذا يعيب علينا شاعر كبير كالتيجانى منذ أربعين عاما مضت قائلا : « ومما يؤلمنا حقا هو أن نظل مجهولين هكذا من ناحيتنا الأدبية حتى فى الأقطار الشقيقة ، واذا تغاضينا عن كل هذه الأقطار فما يكون عذر مصر فى جهلها بنا جهلا تاما لا من تلك الناحية وحدها بل فى كثير من النواحى غيرها » .

ولم تغير الأعوام الطويلة شيئا من هذا الانفصال المرير ، فظل أدباء السودان يعرفوننا ولا نعرفهم ، ويعرفون ادبنا ولا نعرف أدبهم . واذا كنا نريد أن نعرف الأدب السودانى فلابد أن نعرف منابعه أولا ، ومنابع الأدب لدى كل شعب هو أساطيره وقصصه الشعبى ، لهذا رأيت أن أعرض هنا قصة من أشهر القصص الشعبية السودانية وهى قصة « تاجوج » .

وقصة تاجوج نشأت فى المجتمع البدوى الذى يمثل جزءا كبيرا من المجتمع السودانى . حقا ان سكان البلاد

الاصليين هم السود او الزنوج ولكن السودان من قديم الزمان كان قبلة كثير من الشعوب التى هاجرت اليه . يقول عبد الله حسين فى كتابه تاريخ السودان « وهاجرت اليه بعد الفتح الاسلامى قبائل عربية حجازية ويمنية ومغربية وسادت أهله الأصليين وامتزجت بهم بالزواج فكسب الوافدون السحنة الســـودانبة قليلا أو كثيرا وشيئا من العادات » .

ويقول الأستاذ محجوب فى كتابه « الحركة الفكرية فى السودان » ان الأمر الذى لا شك فيه هو أن الثقافة العربية هى الغالبة او على الأقل هى التى تستحوذ على لب القارئين وتتأثر بها عقليات الـكتاب .

ومن المعلومات الخاطئة لدى الكثيرين هو الخلط بين النوبيين الذين كانوا يقطنون ما بين الشلال وحلفا وبين السودانيين الذين يعيشون جنوبى حلفا ، لأن للنوبيين لغات خاصة بهم واللغة العربية بالنسبة لهم دخيلة عليهم فلا يستطيعون نطقها نطقــا سليما ، أما الســودانيون فيتكلمون العربية ، وهى عربية أقرب الى الفصحى ، لأن المتكلمين بها عرب وافدون من البــــلاد الحجازية ولا يزال منهم الكثير فى حالة البداوة ، ولهذا فنحن حين نجابه قصة تاجوج نجد انها كقصة قيس وليلى بل أقرب الى قصة قيس ولبنى . وقد تعاون الشعر مع القصة على اذاعتها . الشعر الفصيح والشـــــعر القــومى السودانى ، وهو يشبه الزجل عندنا . وأشهر قوالبه الدوبيت ، ومعناه البيتان ، فالقصة أو الأغنية تنقسم الى بيتين بيتين كل منهما له قافية ولكن وزن الجميع واحد وسنجد أن قصة تاجوج والمحلق لا تمثل قصة عاشقين لا يستطيعان أن يحققا امانيهما ، بل نجـدها

قصة زوجين يخفقان فى علاقتهمـــا وكل منهما يحب الآخر فيتعذب الزوجان عذابا نفسيا هائلا .

ويقال ان هذه القصة نشأت فى أواخر القرن السابع الميلادى أو أوائل الثامن عشر على وجه التقدير .

***

تاجوج هى ابنة زعيم الحمران ، وهى احدى القبائل التى تسكن بادية السودان الشرقية .. وكانت أجمل فتـاة فى عصرها .. لم يصـلنا عنهـا وصف سوى الجمـال النسـائى العـام .. فالشـاعر السـودانى البدوى يقول « جمال تاجوج ما فى مثيله وقد أحبهـا المحلق وهو ابن عمها .. ولم يكن المحلق فردا عاديا فى القبيلة ، ولا هو يمتاز بكونه ابن أخى زعيم الحمران ، بل كان بطل القبيلة فى معاركها مع القبائل الأخرى لا سيما قبيلة الهدندوه ـ فهو اذن فارس القبيلة وحامى ذمارها وشاعرها أيضا ، وكما كان يحب تاجوج لجمالها الباهر ، فقد كانت هى أيضا تحبه لبطولته ورجولته ورجاجة عقله .

ولقد حدث ذات يوم أن كان الشيخ « عكد » والد تاجوج وزعيم الحمران جالسا بين أشجار الدوم الوارفة الظلال فى يوم من أيام السودان القـائظة ، وكان ينتظر ضيوفا أو نزلاء .. فانه موسمهم ولن يحول دون وفودهم الا الخريف حين تسيل الأودية وتمتلىء بمياه الأمطـار ويحول الوحل دون الأسفار .. وفجأة تبين الشيخ فى الأفق أشباح رجال ، وكانت الى جانبه تاجوج ابنته ، فسألها ما اذا كانت تتبين القـادمين ، فرفعت عينيها وقالت : اننى ارى رجالا من الهدندوة بعضهم على ظهور الابل وبعضهم راجلين يحيط بهم رجالنا وعلى ظهور بعض

الجمال احمال تمشي بها الجمال مشيا بطيئا . . واختفت تاجوج خلف شجرة صغيرة تراهم ولا يرونها وتسمع ما يقولون ، فلما اقتربوا ورأت سحنتهم علمت ان أمرا جللا قد حدث ، وزاد من اضطرابها أنها لم تجد المحلق بينهم ، وزاد من هلعها رؤيتها لبعض الأجسام المسجاة فى أثوابها وقد سالت منها الدماء وخشيت أن يكون حبيبها من بينهم . . وبينما كان البعض ينيخون الجمال كان البعض الآخر يسرع نحو زعيم الحمران يقصون عليه قصة مؤداها أنهم كانوا يصيدون بالأمس فجمح فرس واحد منهم فجعل يعدو خلفها وتتبع اثرها حتى وصل الى حى الهدندوة فذكر لهم أمر جموح فرسه وطلب تسليمها اليه فأبوا عليه ذلك وردوه ردا خشنا فبادلهم الخشونة وبدأت بينه وبينهم معركة أصيب فى أثنائها بجرح بالغ ، وكان اثنان من رجال الحمران قد لحقا به فى هذه الأثناء فوجدوا الهدندوة قد ضيقوا عليه الخناق فواصل احد الرجلين السير لانقاذ صديقه بينما قفل الآخر راجعا ، يحمل خبر القتال . وعلم المحلق بالأمر فسارع مع زملائه لنجدة صديقهم ، وبالرغم من تفوق الهدندوة فقد تغلب عليهم بنو الحمران وأسروهم فيما عدا شخصا هرب ليخبر قبيلتهم ويطلب نجدة . . ولقد ظل المحلق متخلفا مع الصيد الذى اصطادوه بينما سبقوه هم ليخبروا زعيمهم بما حدث . .

وما لبث الشيخ عكد أن امر ثلاثة من خير فرسانه بامتطاء ثلاثة من خير الجياد ، أحدهم يخبر المحلق بالعودة السريعة ، والآخر يلحق بالرسول الهارب ، أما الثالث فيطلب من زعيم الهدندوه مقابلة زعيم الحمران بغير أن يخبروه عن سبب هذه المقابلة . . . ولقد نجح الثلاثة فى

مهمتهم .. واطمأنت تاجوج الى سلامة حبيبها ، وان كانت تخشى أن يصيبه مكروه قبل وصوله الى خيام قبيلته ، ولكنه وصل وأخذ يساعد عمه فى اشاعة روح الصلح والسلام مع الهدندوة الذين قادهم بنو الحمران .. ولقد أقبل الزعيم موسى أخيرا زعيم الهدندوة ، فاستقبل بكل حفاوة وبكل اكرام ، ثم حدثه الشيخ عكد عن غرضه من هذه المقابلة وانه مستعد لدفع الديات رغم أن رجاله لم يبدأوا بالعدوان ، فسر زعيم الهدندوة بهذه الروح وقال انه كفيل بارضاء أهل القتلى من قبيلته فلا ثأر ولا عار ولا مطالبة بالديات ما دام التحدى من جانبهم هم .. وانتهى الأمر بالصلح . ومكث زعيم الهدندوة ثلاثة أيام أخرى بعد تسوية هذا الحادث فى كرم ديار الحمران .

ولقد شغلت هذه الحوادث المحلق زمنا طويلا ، لم يكن يرى فيها تاجوج الا فى الفينة بعد الفينة وفى مناسبات عارضة كأن يدخل على عمه لأمر من الأمور فيجدها هناك ، أو تدخل هى عليهما وهما يتحدثان فى شأن من الشئون ، حتى لم يعد المحلق يفكر الا فيها وحتى رأى أن الحياة لا تصلح بدونها وعليه أن يصارح عمه بحقيقة ما يعتمل فى نفسه ... فيمم نحو دار عمه ذات صباح فاذا به يشرب قهوته وتاجوج جالسة أمامه على حصير من خوص الدوم تصب اليه القهوة وتتحدث اليه ... فلما دخل المحلق تنحت عن الحصير لابن عمها ثم انسحبت الى منازل الحريم .. وأدرك الشيخ من ملامح المحلق أن أمرا ذا بال شغله فقال له كأنما يمهد له الحديث :

ــ ماذا كنت تفعل اليوم ؟

ــ حاولت ان اروح عن نفسى بأن أسير قليلاً فى الغابة ..

ثم أخذ رشفة من فنجانه وتابع حديثه قائلا :

ــ لقد جئتك يا عمى فى امر أريد ان أعلم رأيك فيه .

ــ حسنا يا بنى ، وما عساه يكون .

ــ انى أطلب الزواج من تاجوج .

وأطرق الشيخ راسه قليلا ، ثم رفعها الى السماء وقال :

ــ أنت كفء لها ، أنت ابن عمها ، وأنت بطل وفارس، وفيك كل الصفات الخيرة ، فكلاكما للآخر ، وسأتحدث لوالدتها هذه الأمسية فى ذلك الشأن ، على انى أحب أن أعلم متى تريد أن يتم هذا الزواج .

ــ أرجو أن يتم فى الأسبوع المقبل .

ــ حسنا ، فليس ينقصها شىء من الاستعداد للزواج .

وخرج المحلق من عند عمه وهو يكاد يطير فرحا .

وما لبث أن خرج مع فريق من قبيلته لصيد بعض الحيوان ويجمع ما تصل اليه يداه من سن الفيل او الخرتيت أو ريش النعام ، ثم ذهب ليستبدلها من تاجر الزينة ، فحصل منه على صناديق محلاة ومزخرفة ووسائد من الأبنوس ومباخر من الفضة محكمة الصنع حملها كلها الى منزل تاجوج مع الجهاز ، وشملت القبيلة كلها موجة من الفرح والغبطة .

وغاش المحلق مع زوجته عيشة هنيئة هادئة ، ووجد فيها المرأة الحنون الرقيقة ، ووجدت فيه الرجل الشهم المحب . وساعدت الظروف فسعدت القبيلة واخضرت مراعيها ، وكثرت مواشيها .

وسافر المحلق ذات مرة الى الجنوب لبعض شئونه وطالت غيبته أكثر من كل مرة ولبث بضعة أشهر بعيدا عن تاجوج فازداد شوقه اليها وهيامه بها ، فما كادت تنتهى أعماله حتى عاد مسرعا الى ابنة عمه ، وبعد أن انفضت جموع المرحبين بعودته انفرد بزوجه واستلقى على فراشه يتحدث اليها عما لقيه فى أسفاره وما أحضر لها من هدايا ويسألها عن اخبار العشيرة ، السار منها والمحزن ، ثم أخذ يبثها هيامه وشوقه ، وكان يبدو عليه الاعياء الشديد ، فأخذت تدلك له جسده ، وما لبث أن راح فى سبات عميق ، وأمضى اليوم التالى فى المرور على أصدقائه ، وفى الليل أتوا هم لزيارته ، فلما كان الليل ، وكانت الليلة من ليالى الصيف المقمرة ، أراد أن يحقق فكرة طالما راودته وهو بعيد عنها أثناء سفره وحاول عبثا أن يطردها ، ولكنها كانت تلح عليه من جديد .

وقد ظن فترة من الزمان أنه تغلب على هذا الخاطر ، لكنه ما عاد الى تاجوج ورأى جمالها حتى عاودته الرغبة ليتمتع بمشهد لا يتاح له أن يراه الا على مهل وتان : أن تتجرد تاجوج من ملابسها وتمشى أمامه عارية بجسدها الناعم البض فى ضوء القمر الساحر . فيدقق النظر فى فتنتها ويمتع النظر برؤية الجمال الذى طالما اشتاق اليه وحلم به أيام سفره بعيدا عنها . واستمعت تاجوج الى هذا المطلب الغريب ، وعجبت كيف يطلب منها زوجها ذلك وهى بين يديه كلما أراد ، وأحست أنه يهين المرأة فيها

بهذا الطلب ، وانه يريد أن يتمتع بها كما يتمتع سيد بجاريته وأن فى مشيتها أمامه متجـــردة اذلالا لانوثتها واهانة لكرامتها . وأسرت فى نفسها ما أثاره فيها المحلق من حفيظة عليه ، ورأت أن تســاوم مساومة تحصل بعدها على حريتها ؛ فهى لن تبيع كرامتها رخيصة بلا مقابل ، فقالت له فى تهكم لا يدرى ما وراءه .

ـ فان نفذت لك رغبتها فما عساك تجزينى عن هذا الصنيع .

ـ لك ما تريدين .

ـ اما تزال مصمما على رغبتك .

ـ نعم .

ـ أليس من الخير أن تعدل عنها .

ـ لن أعدل ولن يضيرك هذا فى شىء .

ـ سأكون واثقة بأنك منفذ لى رغبتى ؟ .

ـ كما أقسمت لك ولست احنث بقسمى .

عندئذ وقفت تاجوج واخذت تتجرد من ملابسها قطعة قطعة ، حتى بدت مفاتنها وهى تمشى امامه مقبلة مدبرة ، وهو مستمتع ذاهل عما حوله وعما يكمن له . فما انتهت لحظة النشوة والشهوة حتى طالبته بأن يفى بما وعد فيجيب لها ما تطلب .. ولم يكن طلبها الا .. الطلاق .. وصعق المحلق وحاول عبثا ان يثنيها عما تطلب واغراها بأن تتقدم اليه بطلبات أخرى الا هذا الطلب فما ازدادت الا تمسكا بما طلبت وتمسكا بوفائه بوعـده . واضطر المحلق أن يفى بوعده ويطلقها . ولكنه اتفق معها ـ اخفاء للفضيحة ـ بأن يكون سبب طلاقهما أمام الناس هـو

اتخاذه خليلة الى جانب تاجوج ، وأنه لم يعد زوجا أمينا
.. وما لبث تاجوج أن انفلتت ميممة الى منزل والدتها ،
وغادر المحلق المنزل أيضا الى منزله الذى كان يقيم فيه
مع بقية أهله .

وهنا تبلغ المأساة قمتها ، فيهيم المحلق فى البرارى ،
وهو يبكى فتاته فى أبيات من الشعر ويحاول عبثا أن
ينساها بالرحيل عن الحى أو الاشتراك فى الصيد أو
الاشتراك فى غارات الأعداء ، فما لبث أن تخلى عن مكانته
التى كان يحتلها فى قبيلته ، فلم يعد فارسها
ولا حاميها ، وكأنما الحب والبطولة رفيقان فاذا تخلى
الحب عن البطل فقد تخلت عنه بطولته كذلك . وكأنما
تاجوج تتحمل مسئولية سلب بطولة المحلق. وتجددتعرض
قومها لهجمات الهدندوة . وهنا نلمح عمق الأدب الشعبى
وكيف يربط بين سعادة الفرد وسعادة قومه .

اما تاجوج فقد تزوجت من تاجر من تجار القبيلة ،
فجن جنون المحلق وراح يوالى البكاء والتشبب بها
ويصيبه الاغماء بين الحين والحين لا يرافقه سوى خادمه
الأمين سالم . حتى ساءت حاله ووصلت الى حد خطر ،
ولم تعبأ تاجوج أن تعرف من أخباره شيئا حتى ألح
عليها الأهل بأن تزوره وهو يعانى سكرات الموت ، فلما
راته فى الرمق الأخير جزعت شد الجزع ، وراحت
تناديه فلما سمع صوتها حاول أن يحدثها ولكنهما لم
يتبادلا الا كلمات قلائل مات بعدها . فأصابها الحزن
الشديد ورجعت مهمومة تبكى .

وعاد الهدندوة ينقضون اتفاقهم ويغيرون على بنى
الحمران وقد أدركوا أن بطلها قد مات . فاشتد ساعدهم
وهم يسلبون منهم كل يوم ويأسرون ، حتى وقعت

تاجوج ذات يوم من بين السبايا ، فاذا بها تصبح أسيرة ذليلة . وما لبثت تاجوج أن فتنت عرب الهدندوة بجمالها الرائع وقدها الممشوق وحلاوتها وعذوبتها فاختلفوا عمن تكون له ، وما لبث أن دب الشقاق بين أفراد القبيلة بسببها ، كل يريد أن تكون له وليست لغيره . وتحول الشقاق الى قتال ، واشتد القتال وكثرت حوادث الاغتيال بسبب تاجوج حتى قيل ان عرب الهدندوة الذين ماتوا بيد بعضهم بسبب تاجوج أكثر من هؤلاء الذين قتلهم بنو الحمران أثناء حروبهم معهم . وكأنما كان لجمال تاجوج من الأثر فى نفوس الأعداء ما كان لبطولة المحلق عشيقها وزوجها من قبل . وأخيرا رأى أحد القوم أنه لن يقضى على الفتنة الا بالقضاء على مصدرها ، على تاجوج نفسها . ففى ذات يوم سارع الى خيمتها يدعوها ، فلما أطلت طعنها طعنة كان فيها القضاء عليها . ويقال ان قبرها أصبح مزارا لأهل الهوى يحجون اليه من جهات متعددة ليذكروا قصة الحب والبطولة والجمال التى لم تستطع أن تدفع الشقاء عن أصحابها .

ثمن الحرية أو مونسيرا

مسرحية للكاتب الفرنسى عمانوئيل روبلس

فى عام ١٨١٢ كان الارهاب الأسبانى فى فنزويلا بأمريكا الجنوبية على أشده .. فكان من الضباط الأسبان من يتلذذ بتقطيع أطراف امرأة ، ومنهم من كان يحتفظ لنفسه بلذة بقربطون الحبالى ، ويرسل لأصدقائه أكياسا مليئة بالأيدى المقطعة ، ومنهم من كان يتسلى بفتق عيون أعدائه بالمبضع . أما الراهب «أوزوبيودو كورنيل» فكان يدعو الى ابادة جميع الفنزويليين الذين تزيد سنهم على السابعة . وقد أثارت هذه الوحشية ثائرة « مونسيرا » وهو أحد هؤلاء الضباط الأسبان الذى لم يوافق على ما يقترفه قومه من فظائع .

وذات مساء كاد الضباط المتوحشون أن يقبضوا على القائد الفنزويلى الثائر بوليفار ، بعد أن عرفوا مخبأه . فاجتمعوا يتدارسون خطة الأسر التى أعدها الملازم أول ايزكياردو لاتمامها فى الصباح . ولكن بعد ساعتين من هذا الاجتماع تسلل الضابط « مونسيرا » وركب حصانه فى ظلمة الليل الى حيث يختبىء الثائر

الفنزويلى ، واخبره بالخطة المبيتة ضدد ، فما كان من بوليفار الا أن ترك مخبـــأه ... رغم أنه كان مريضـــا تنهكه الحمى . وعندما اقبل الجنود الأسبان فى الصباح وفوجئوا بفراره ذبحوا جميع أفراد الأسرة والخدم ... وحين اكتسحت النيران المكان خرج زنجى كاد من الخوف ان يجن .. كان قد اختبأ تحت القش . ولم يجـدوا جهدا لحمله على سرد القصة بينما كان احد الجنود يساعده على الاعتراف بأن يلامس أسفل بطنه بنقرات من حربته . كما اعترف على مونسيرا الحوذى الذى كان قد سرج له حصانه .. وهكذا تم القبض على مونسيرا ، وكان قد عاد الى رياسة جيشه بعد أن اطمأن الى فرار بوليفار ..

ولمـا كان ايزكياردو يعرف أن مونسيرا انما فعل ذلك بدافع من ضميره الحساس وأن أية طريقة من طرق التعذيب الجسدية لن تحمله على الـكلام ، لهذا فقـد اختار له الطريقة التى راى انها كفيلة بأن تؤثر على ذلك الضمير .. فيعترف بالمكان الذى لجأ اليه بوليفار ، وهو أحد مكانين .. اما أن يقصد « بيوبلا » ليجمع شتات ثواره من جديد ، واما أن ينسحب حيث يقيم أصدقاؤه الانجليز فى « كوراساو » .

وأمر ايزكياردو أحد ضباطه قائلا : خذ معك عشرة رجال واهبط الى الساحة وعليك أن تقبض على الأشخاص الستة الأول الذين تلتقى بهم ، وأن تقودهم الى هنا ..

ـ الأشخاص الستة الأول ؟ ..

ـ أجل اسرع ...

ـ حسنا ..

ثم يشرح ايزيكاردو المســـألة الى مونسيرا قائلاً :
سيحجز ستة أشخاص هنا ، فى هذه القاعة .. معك ..
أشخاص اخذوا بالمصادفة من الشارع . أبرياء يا مونسيرا
.. رجال ونساء من هذا الشعب الذى تحبه أكثر مما
تحب بلادك . فان لم تكشف بعد ساعة عن المكان الذى
يختبىء فيه بوليفار فسوف يقتلون رميا بالرصاص ..

مونسيرا .. هذا مستحيل .. ايزيكاردو .. هــذا
وحشى ..

وهكذا تنتهى مقدمة المسرحية لتبدأ المعركة الخارجية
بين مونسيرا والأبرياء الستة الذين تتوقف حياتهم على
اعترافه ، والمعركة النفسية فى ضمير مونسيرا ، بين
التضـحية بمستقبل جميع الفنزويليين بالاعتراف على
مخبأ ثائرهم وبين التضحية بستة أبرياء لا يد لهم فيما
يحدث سوى مرورهم العارض المشئوم فى الخارج فى
ذلك الوقت ..

اما الأشخاص الستة فهم .. خزاف فى الخمسين
من عمره ، وبائع فى الخامسة والثلاثين ، وممثل فى
الأربعين ، وأم لطفلين ، وريكاردو وهو شاب فى العشرين
وايلينا وهى شابة فى الثامنة عشرة .. ولكل من هؤلاء
ظروفه التى تدعوه أن يتشبث بالحياة وتدعو الحياة أن
تتشبث به وسيكون مونسيرا مسئولا عن موتهم اذا هو
لم يعترف عن مخبأ بوليفار ..

ولم يكن من بين هؤلاء الرهائن الستة من هو أسبانى
الا الممثل ، أما البقية .. فمن الوطنيين الفينزويليين ..
ويتوسل أربعة من الستة الى مونسيرا أن ينقذهم من
هذا البلاء الذى حل بهم فجأة من غير ذنب جنوه ..

الخزاف (مفتاظا) : اترانا لم نفهم ما قاله الضابط ؟ .. اما أن تسلم بوليفار ، واما أن نرمى جميعا بالرصاص . أليس كذلك ؟ ..

ان لى خمسة اولاد .. لم يبلغ اكبرهم الثانية عشرة ، وانا أربيهم بصنع جرارى وبيعها بنفسى وانت لن تعولهم بعدى ... واذن ..

مونسيرا (متحمسا) : هذا صحيح ، ان هذا كله صحيح . ان لكل منكم حقيقته التى يدافع عنها ، وحياته وما هو أهم من حياته ، ولكن بوليفار يظل بعد ذلك الأمل الوحيد ، الأمل الأخير للفينزويليين بأن يتحرروا من الأسبان . فان أنا سلمت بوليفار .. فانى لا أسلمه وحده ، بل أسلم معه الحرية وحياة بضعة ملايين من البشر ..

الخزاف : ستعترف لنا .. نعم أم لا .. أين خبأت بوليفار ؟ ..

مونسيرا : ان الأسبانيين لا يعتبرونكم من البشر ، بل من الحيوانات .. من الكائنات التى يمكن .. بل يجب ابادتها .. هذه الفظائع كلها .. وهذه الالوان الوحشية جديرة بأن تثيركم .. الا يمكن أن تكفى لحملكم على النهوض ضد هؤلاء الوحوش .. حتى آخر تضحية ..

الممثل : اسمع .. انه لا يمكنك ان تفعل ذلك ، لا تستطيع أن تقتل ستة أشخاص لتنقذ شخصا واحدا ..

مونسيرا : ولكن افهموا .. انا أدرك جيدا انه يشق عليكم أن تفهموا .. ليست هى قضية حياة ستة

اشخاص مقابل حياة شخص واحد . وانما مقابل الحرية .. ومقابل حياة الوف المساكين ..

ويمضى الحوار الرائع على هذا النحو حتى يضج الأبرياء من توسلاتهم ، ويثوروا ويحاولوا الاعتداء على مونسيرا وقتله حيث أنه بموته لن يطالبهم أحد بالموت .. لأن مونسيرا ما عاد قادرا على الاعتراف ..

ولكن يتدخل احد رجال الحرس الأسبانى قائلا : لا تحاولوا أن تقتلوه .. فقتله متعة نحتفظ بها لأنفسنا ..

وعبثا يحاول الأبرياء حمل مونسيرا على الاعتراف حتى تنتهى الساعة المحددة لهم .. ويقبل ايزكياردو لينفذ احكام الاعدام فى الأبرياء الستة واحدا بعد الآخر . وبذلك تدخل المعركة فى صورة أكثر جدية وخطورة .. ذلك أن كلا من الجانبين يزداد تصلبا وعنادا ولا أمل فى ان يلتقيا ..

ويلتفت ايزكياردو فجأة الى الفتاة الهندية ايلينا والى جمالها فيعلن انه سيبقيها ليتمتع بها اذا ما حل المساء ، ولكن الفتاة تطلب أن ترمى بالرصاص مع الآخرين . أما ايزكياردو فيقرر أن تنفذ أحكام الاعدام فى هؤلاء الأبرياء واحدا بعد الآخر — بعد اعفاء ايلينا — على أن تكون الأم آخرهم .. عسى أن تتحطم أعصاب مونسيرا وهو يراهم يختفون أمامه واحدا بعد الآخر .

ويبدأ التنفيذ بالخزاف ، وهو خزاف مشهور فى البلاد لأنه يصنع جرارا على شكل حيوانات وحين يراق الماء من هذه الجرار فانها تقلد أصوات الحيوانات التي تمثلها .. كما أن له خمسة أولاد ..

وعندما يتوسل الخزاف الى ايزكياردو — بعد أن فشل فى اقناع مونسيرا — بألا يعدمه الحياة يرد عليه قائلا :

— ليس صحيحا أن من الضرورى لمن يموت ان يكون قد ارتكب جريمة .. ثم انه حين يموت رجل شجاع ميتة بايدة بسبب مرض من الأمراض .. فانك لا تجد احدا يفكر فى الاحتجاج على ارادة الله ..

وهكذا ينفذ حكم الاعدام فى الخزاف المسكين ويتلوه البائع ، وهو رجل سعيد بثروته ، وبزوجته ، ويوضح ايزكياردو لمونسيرا ذلك قائلا :

— هل سمعت يا مونسيرا ؟ .. هذا رجل سعيد . هذا رجل ممتلىء حبا وغنى وشبابا .. ان له من الحياة خير الثمار وأجمل الزهور .. وهو يتمنى أن يدوم هذا . أليس كذلك ؟ .

اتراك ستذكر ذلك يا مونسيرا ؟ .. اترى حياة تاجر نشيط لا تهمك الا قليلا ؟ ..

ويظل مونسيرا على تشبثه . فيقاد البائع الى حيث ينفذ فيه ثانى حكم بالاعدام ..

ويتلوه الممثل ، وهو أسبانى وفد الى فينزويلا مع احدى الفرق التمثيلية ، وقد شاهده ايزكياردو يمثل ذات مرة دورا لأحد الشجعان وهو يصعد الى المقصلة .. فيطلب منه تمثيل هذا الدور مرة ثانية .. وبعد تردد يلقى الممثل دوره حتى يصل الى قوله .. ينبغى أن نصعد الى الله طاهرة قلوبنا من كل لطخة. فيشرح له ايزكياردو ذلك بقوله : ان الله يأمر بأن يموت المرء من غير أن يلعن ، وأن يعفو عن جلاده .

وهنـــا يتدخل الأب كورنيل فى الحـــديث قائلا للممثل :

كلا .. ان الله لا يأمر فقط بأن نعفو عن جلادينا .. بل يأمر بأن نحبهم أيضا .. ويضرب لذلك مثلا بالمسيح الذى كان الحب يملأ قلبه وهو ينتظر تعذيبه ..

ويمضى الحوار ليبين فى سخرية مريرة كيف يمكن لبعض رجال الدين أن يؤيدوا الطغيـــان . فيمضى الأب كورنيل قائلا للممثل البرىء وهو على وشك أن يعدم : لا تفكر فى نفسك . بل فى الذين سيهلكون جميعا . ينبغى الا تندم على هذه الحياة ، ولا على هذا الجسد الفانى ، وعلى كنوز العالم المزيفة .. من أجل هذا ينبغى أن تموت وأن تنادى بأن البشر الذين يقتلونك هم اخوتك وأن تحبهم من أعماق الروح ..

الممثل : كلا .. كلا يا أبت .. انك تناصر هـــذا الرجل الذى يقتلنا .. ان الله ليس هنا ، وأنت لا تخدم الله . ان واجبك ... باسم اله العدالة والحب هو أن تدافع عنا . ان المســـاومة التى نحن ضحيتها اهانة للرب ..

الأب كورنيل : ان المسيحى جندى من جنود الرب . والملك يستمد سلطته من سلطة الله القدير . ان بوليفار قد عصى جلالته فهو اذن عدو الله . حتى ان واجب المسيحى أن يضحى بكل شىء ، فيتم أسر بوليفار ، ومن أجل هذا يقتضى مجد الرب تعالى ان تضحى بحياتك هذا المساء فى سبيل القبض على ذلك الشقى فعليك الا تخضع وتستسلم فحسب ، بل أن تسعد بهذا المصير .

وهنا ينتبه ايزكياردو فجأة الى أنه اذا كان من واجب

الممثل أن يضحى بنفسه وهو فرح فهو لا يرى سببا يدعو مونسيرا ـ الذى يسمع كل هذا الحوار ـ الى الاشفاق عليه وانقاذه من الموت .. فيرد على الأب كورنيل قائلا : ولكن هذا الشـــقى كان يتهمنى بالاشتراك فى الجرم .

ايزكياردو (مقاطعا) : نعم هذا شيء آخر .. ان كلا منكم يدخل الله فى حججه .. وحجة الممثل منطقية يا أبت ، وحجتك المعارضة منطقية هى أيضا . ولكنكما لن تتفاهما ابدا لانكما تستعملان مزيدا من المنطق فى مسألة يبدو الله فيها عنصرا متحولا الى ما لا حد له . ان اله الممثل ساسادو اله الحب والعطف ، أما الهك يا ابت فهو اله غيور على سلطته ومجده . وهو هذا الذى ندعوه الى الحرب الى جانبنا . بحيث أنك ان لم تكن شريكا لنا فى العمل .. فأنت على الأقل حليفنا ..

وهكذا ينتهى ذلك الحوار ليلقى الممثل مصير الأبرياء السابقين ..

ويأتى دور الشـــاب ريكاردو ، وهو مثل ايلينا .. يرحب بالموت فى سبيل وطنه وفى سبيل قائد ثورته .. فلم يحاول أن يستعطف مونسيرا لانقاذه بل يذهب لينفذ فبه حكم الاعدام وهو يقول : اننى أعرف لماذا أموت ..

ويفزع مونسيرا من هذه الجرائم المتتالية .. عندما يقبل ضـــابط يتحـدث كيف استقبل ريكاردو الموت بشجاعة وكيف رفض أن تعصب عيناه . ويأتى بعد ذلك دور الأم . وكان عندما قبض عليها ، قد خرجت من بيتها لتبتاع شيئا ثم تعود الى طفليها اللذين أغلقت عليهما الباب ..

ايزاكيادور : لا تنس ان لها ولدين .. انهما محجور عليهما فى بيتها .. فاذا هى ماتت فسيموتار جوعا ، وسيكون موتا بطيئـــا فظيعا ، يعانيه هذان الصبيان اللذان يملك أمثالهما الحياة كلها (مخاطبا الأم) استعدى ايتها المراة .. انها ساعتك ..

وتتوسل الأم الى مونسيرا وتبكى فلا يلبث ان يضعف ويلين فيرفع يده قائلا بصوت ضعيف : انه بيت منعزل على بعد خمسمائة متر من طريق يؤدى ..

وهنا نتدخل ايلينا التى أبقاها ايزكياردو لنفسه فى الليل .. فتصيح فى مونسيرا قائلة بشجاعة :

كلا .. اخرس .. اســـتعد رباطة جأشك ، انه لا مجال بعد لأن تكون جبانا .. لقد سبق أن ضحيت بأربعة منا . لقد فات الأوان . أصمت ..

الأب كورنيل (غاضبا) : الـكلبة .. خـذوها .. وأسرعوا ..

وهكذا تؤخذ ايلينا لتعدم ، ويستعيد مونسيرا رباطة جأشه فيتوقف عن الاعتراف ، فما تلبث الأم أن تلقى مصيرها ..

ويبدأ النقاش بين مونسيرا وايزكياردو ويحاول أن يهون اعدامه لستة أبرياء قائلا :

— فى هذه الساعة يموت على سطح الأرض كلها حشد من الأبرياء ميتة بليدة بسبب حادث أو مرض ، فهل يهزك ذلك كثيرا ؟ لا ..

ثم يحـــاول أن يبين سخف تشبث مونسيرا وعناده قائلا : ان بوليفار مريض وربما يكون هذه الليلة بالذات

قد مات .. ثم ان جنودى فى اثره ، وربما اسر هذه الليلة ، ولئن استطاع أن يدرك الليلة « بيوبلا » وان يجمع انصاره فهو قد لا يهزمنا .. ومعنى هذا أن بولبفار اذا مات أو أسر أو قتل فلن يكون هذا كله الا حكاية دامية . ولقد كان جميع رهائن الساعة مقتنعين بأنهم انما يقتلون مجانا . ان هناك اناسا لا عزة لهم . يؤثرون أن يعيشوا تحت سيطرتنا على أن يتلقوا اثنتى عشر رصاصة فى صدورهم . انهم يفضلون أن يعيشوا عيشة ذليلة تحت نعالنا على أن يموتوا ميتة مجيدة من أجل الحرية ..

مونسيرا : ولكن قبلت رهينتان من مجموع ست رهائن ان يموتا من أجل هذا الألم الذى تحتقره . فلو طبقنا هذه النسبة على شعب هـذه البـلاد بأكمله ، لبلغ الرقم مليونى نسمة يقبلون هذه الميتة من مجموع الملايين الستة التى يتألف منها .. ألا يبدو ذلك عظيما ؟ .. الا يبدو لك مدهشا ؟ ..

وهنا ينادى ايزكياردو على أحد ضباطه طالبا منه أن يستدعى ستة أبرياء جـدد على أن تـكون المهلة التى أمامهم هذه المرة نصف ساعة فقط .

مونسيرا : انك لن تفعل ذلك فأنا لن أطيق .. لن أطيق ..

ايزكياردو (يقترب منه بقسوة) : واذا لم تنجح الرهائن الجـــديدة فى حملك على الاعتراف فسآمر باطلاق الرصاص عليها تحت ناظريك .. ثم استقدم ست رهائن أخرى وبعـدها ستا أخرى حتى تدرك أخـيرا جنونك ..

ويجن جنون مونسيرا ويبدأ من جديد فى الاعتراف ، ولكن .. ولكن قبل أن يمضى فى اعترافه يقبل أحد الضباط معلنا نجاح الثائر الفينزويلى بوليفار من الوصول الى بيوبلا حيث يجمع فيها شمل أنصاره من جديد .. ولا يملك مونسيرا الا أن يعبر عن فرحه وهو يتخيل أجراس بيوبلا تدق والنساء تزغردن والرجال يتسلحون بأسلحتهم . وينظر ايزكياردو الى مونسيرا قبل اعدامه وهو يقول له :

لقد انتهى كل شيء يا مونسيرا ، فيرد عليه مونسيرا فى صيحة : كلا بل سيبدأ كل شيء .

وعندما يخرج مونسيرا ليلقى حتفه يتوجه الأب كورنيل الى ايزكياردو متسائلا : عم كان يحدثك مونسيرا اخيرا .. هل اظهر ندما ؟ ..

ايزكياردو (يحدق فيه ثم يقول له ببسمة غريبة) : كلا .. كان يحدثنى فحسب عن فرح الآخرين ..

الساعة الخامسة والعشرون

لكونستانتان جيورجيو

« ان الرجال الذين لا زالوا على انسانيتهم ، مرغمون على الاختفاء »

« كونستانتان فرجيل جيورجيو مؤلف هذا الكتاب رومانى الجنسية ، لكن الكتاب لم يظهر أبدا باللغة الرومانية لأسباب سياسية واضحة . وفى مقدمة الترجمة الفرنسية له — وهى أول ترجمة ظهرت للكتاب — يقول الفيلسوف الوجودى جابريل مارسيل : ان هذا الكتاب لا يمكن أن يستغله أى حزب للدعاية ، وهذا أثمن ما فيه . ويتضح ذلك عندما نعلم ان أحد أبطال القصة يقول ان آخر ما وصل اليه الانسان فى الحضارة الأوروبية هو أن يختار بين سجنين : السجن الروسى أو السجن الأمريكى .

ولا يعتبر المؤلف الحرب بين الكتلتين الشرقية والغربية حربا بين مذهبين ، بل هى حرب داخلية فى نظام واحد ، ذلك أن روسيا — بعد الثورة الاشتراكية — ليست الا الفرع الأكثر تقدما من فروع الثورة الغربية فى الصناعة

الآلية ، ويستوى الروس والأمريكان – لدى الكاتب – فى أنهم أهدروا قيمة الفرد ولم يعودوا يتعاملون الا مع مجموعات بطريقة آلية .

والواقع اننا يمكن أن نعتبر الكاتب من ناحية امتدادا لآراء الفيلسوف الألمانى اشبنجلر الذى أعلن انحلال الحضارة الغربية ، كما أعلن عن خلاص يأتى من الشرق ، ومن ناحية أخرى فاننا يمكن أن نضعه مع الوجوديين الذين يعطون الفرد قيمة أكثر مما للمجموع . ولعله لهذا السبب كان جبريل مارسيل هو صاحب المقدمة فى الترجمة الفرنسية .

ومع أن الكاتب متشائم الى درجة مفزعة ، ومع انه لم يستطع أن يقف موقفا جدليا أمام التفاعل الموجود بين الفرد والجماعة فيعطى ما لقيصر لقيصر وما لله لله ، الا أنه على كل مثقف أن يقرأ هذا الكتاب – فأنا لا ألخصه ولكنى أثير الاهتمام به فقط لأنه فى أكثر من خمسمائة صفحة فى كل من الترجمتين الفرنسية والعربية – فهو يثير مجموعة من القضايا والأسئلة على كل منا أن يجيب عليها ..

ان قراءة هذا الكتاب أمر ضرورى فى الوقت الذى تبحث فيه مصر – والشرق العربى – عن شخصيتها بين مختلف التيارات ..

***

– الساعة الخامسة والعشرون هى اللحظة التى تكون فيها كل محاولة للانقاذ عديمة الجدوى ، بل ان قيام مسيح جديد يخلص العالم لن يجدى فيها . انها ليست الساعة الأخيرة ، بل هى ساعة بعد الساعة الأخيرة . ساعة المجتمع الغربى . انها الساعة الحاضرة

.. الساعة الدقيقة المضبوطة .

كانت هذه كلمــــات تريان بن القس كوروجا راعي الكنيسة الأرثوذكسية فى قرية فانتانا برومانيا ، وتريان هو أحد أشخاص قصة الساعة الخامسة والعشرون ، وظيفته مؤلف روائى . وهكذا استطاع المؤلف الحقيقى أن يختفى وراء شخصية تريان وأن يعبر به عن آرائه .

وبعد تناول العشاء ســـأل القس كوروجا ابنه عن مشاريعه الأدبية فقال : ان حدثا خطيرا قد وقع حولنا ، اننى أشعر بهذا الحدث الهائل شـــعورا لا يضاهيه الا احساس الجرذان الذى يدعوهم الى هجر مركب على وشك الغرق .

وكان جورج داميان ــ وكيل النيابة ــ جالسا يستمع الى هذا الحديث فسأل قائلا : وما هو ذلك الخطر الذى يتهددنا ؟ .

اجاب تريان كوروجا : انه الآلات ، هـــذا الرقيق الفنى ، هذا الخادم الذى يقدم لنا يوميا ألف خدمة ولا شك ان هناك عشرات المليارات من هــؤلاء العبيد الفنيين وحوالى مليارين من البشر ونحن الآن مرغمون على معرفة عادات هــؤلاء العبيـــد وقوانينهم لنستطيع استخدامهم . وجرت العـــادة انه اذا كان المحتل أقــل عددا من الأمة التى يحتلها فانه مرغم على اعتناق عادات تلك الأمة يتعلم لغتها بسبب المنفعة . وهــذا ما نحن مرغمون عليه امام الآلات رغم أننا المحتلون ..

وهكذا فانـــا سنتخلى يوما عن صـــفاتنا الانســـانية وقوانيننا الخاصة تدريجيا ونعتنق أسلوب الحياة المطبق على عبيدنا الفنيين ، وستكون دلالة ذلك هو التخلى

عن الانسانية واحتقـــار الكائن البشرى . ان الرجال سيحاكمون آليا ويقتلون آليا . لن يكون للمرء الحق فى الحياة بل سيعامل كأنه مكبس أو آلة ، هل رأيت فى حياتك مكبسا يعيش حياة خاصة ؟ .

وسيصبح الرجل مغلولا خلال سنين طويلة فى المجتمع الآلى ، لـكنه لن يموت فى الأغلال ، ان المجتمع الآلى يستطيع ابداع الرفاهية ، لكنه لا يستطيع خلق الفكر . وبدون الفكر لا توجد عبقرية . وان مجتمعا محروما من العباقرة مقضى عليه بالفناء .

ان هذا الانهيـار فى المجتمع الآلى سيعقبه اعتراف بالمواهب الانسانية والعقلية . وسيشرق هـــذا النور العظيم من الشرق ، من آسيا . لكن ليس من روسيا . ان الروس قد انحنوا خاضعين أمام نور الغرب الكهربائى فلن يبلغوا تلك المرحلة .

لقد قمت مرة بجولة بحرية فى جوف غواصة ، ومكثت تحت الماء حوالى الف ساعة . أن فى الغواصات جهازا خاصة ينبىء بالوقت المعين اللازم لتجديد الهواء . أما من قبل فان الغواصات لم تكن مزودة بهذا الجهاز ، لذلك كان البحـارة يصحبون معهم عـــددا من الأرانب البيضاء الى جوف الغواصة ، فاذا تسمم الهواء ماتت الأرانب فيعرف أن لديهم خمس ساعات قبل أن يسقطوا بدورهم فريسة للاختناق ، اما بالصعود الى سطح الماء باذلين جهد اليائس ، واما بالبقاء فى الأعماق والموت . وقد جرت العادة اثر اتخاذ القرار الثانى ، أن يقتل البحارة بعضهم بعضا بطلقات المسدسات .

انها موهبة نملكها نحن – أنا والأرانب البيضاء – فنشعر بدنو الخطر قبل ان يشعر به البشر بست ساعات .. ان رجال الفواصة يناضلون ويقاومون الجو المسموم ، انهم كانوا يعيشون ست ساعات بعد موت الأرانب البيضاء ، لكنني أعرف ان كل شيء انتهى .

ان المجتمع الحاضر يملك من الوسائل للاحتفاظ بالرقيق ما لم يملكه اليونان من قبل ، انني لا افكر فقط فى الرشاشات وحواجز الأسلاك الشائكة التى يمر فيها تيار كهربائى صاعق ، بل افكر كذلك فى الأساليب التعسفية التى سوف يعمد اليها النظام البيروقراطى للرقابة على الكائن الحى ، وأقصد بطاقات التموين واذن رجال الشرطة للحصول على سرير فى الفندق أو ركوب السيارة أو التنزه فى الشارع او ابدال المسكن . ان اليونان والمصريين ما كانوا ليكبلوا أيدى عبيدهم وأرجلهم بالحديد لو كانت لديهم الوسائل التى يملكها مجتمعنا المتمدين ..

ان روايتى المقبلة ستكون كتابا حقيقيا لا يمت الى الأدب الا من حيث الأسلوب فقط ، اما الأشخاص فانني سأنتقيهم من الحياة الحقيقية . سأنتقى بين مليارين من البشر عشرة أعرفهم ، سأعنى بايراد حوادث لا يمكن للمخلوق البشرى أن ينجو من الوقوع فى مثلها . سأنتقى من بين مليارين من البشر عشرة أعرفهم أكثر من سواهم ، أسرة كاملة ، أسرتى مثلا : ابى وأمى وأنا وأنت وخدم ابى وبعض الأصدقاء والجيران .

وسأل جورج داميان – وكيل النيابة – قائلا : أتعتقد

انني سأحيا فترات مفجعة ؟ أنت تعرف أنني أعيش حياة برجوازية ، لا يمكن أن يعنى بها الجمهور .

ـ يا صديقي العجوز ، ان معظم الناس على هذه الأرض ليسوا مغامرين ، مع ذلك فانهم جميعا يمرون احيانا فى مغامرات ، يعجز الكتاب العاطفيون عن تخيلها .

وكان ايوهان موريتز هو أحد خدم القس كوروجا ، وكانت زوجته سوزانا على جانب عظيم من الجمال حتى ان رئيس شرطة القرية راودها عن نفسها ولكن عبثا . واخيرا سنحت له الفرصة ، فقد تلقى أمرا باعتقال اليهود والمشبوهين فى القرية لارسالهم الى معسكرات العمل ـ وكان ذلك فى بدء نشوب الحرب العالمية الثانية ـ فاستدعى رئيس الشرطة ايوهان موريتز وأرسله باعتبارها مشبوها ومعه اليهودى ماركو جولدنبرج ابن صاحب الحانة . غير أن اسم ايوهان موريتز سجل خطأ مع اليهود فاعتبر يهوديا . وحاول عبثا أن يثبت بعد ذلك أنه مسيحى أرثوذكسى وأرغمت زوجته سوزانا على تطليقه والا صادرت السلطات منزلها باعتبارها زوجة يهودى . وأبلغ موريتز هذا النبأ بغير أن يحاط علما بظروفه مما أحزنه حزنا شديدا ، ثم نقل للعمل على الحدود الرومانية الهنغارية ، فلم تكن أمامه وسيلة الا الفرار الى هنغاريا مع بعض اليهود الذين كان من بينهم طبيب يدعى ابراموفيس .

وفى هنغاريا استطاع الطبيب ابراموفيس واليهود الآخرون أن يهاجروا الى امريكا بينما قبض على ايوهان موريتز بتهمة التجسس ، وحاول عبثا أن يشرح قصته للسلطات الهنغارية ولكنهم عذبوه عذابا أليماأملافىالحصول

على معلومات منه ، ولما يئسوا اودعوه احد معسكرات الاعتقال .

وحدث ان طلب الرايخ الألمانى خمسين الف عامل هنغارى لنقص فى ايدى الألمان العاملة ؛ وكان هذا الطلب شبه أمر موجه الى هنغاريا ، فاحتالت الحكومة الهنغارية على هذا الطلب الذى لا تستطيع رفضه ، فلم ترسل ابناء وطنها ليعملوا شبه مسخرين فى المانيا النازية ، بل لجأت الى المعتقلين تنزع عنهم ما يثبت جنسيتهم وأرسلتهم — ومن بينهم ايوهان مورتيز — باعتبارهم عمالا هنغاريين .

وعندما وصل القطار الذى يقل هؤلاء العمال الهنغاريين المزعومين الى حدود المانيا وجد ايوهان موريتز أن مقصورته قد كتب عليها بالطباشير الأبيض هذه العبارة « العمال الهنغاريون يحيون زملاءهم عمال الرايخ الألمانى الأكبر » وقرأ على المقصورة التالية « العمال الهنغاريون يعملون لنصرة المحور » (أى المانيا وايطاليا واليابان أثناء الحرب العالمية الثانية) .

ولبث القطار فى الحقول الى المساء ، وعند مغيب الشمس انتشر الحراس فى الحقول وراحوا يقطفون أزهارا . ولم ير موريتز من قبل جنودا مسلحين يقطفون الأزهار تحت امرة ضابط يشاركهم مهمتهم . فلما فرغوا عادوا وفى يد كل منهم باقة جميلة ثم زينوا العربات بالأوراق الخضراء والحشائش وأكاليل الزهور والأغصان وكأنهم يقيمون حفلة زفاف للقطار الذى سيدخل الحدود الألمانية .

وفى ألمانيا اشتغل موريتز عاملا فى مصنع للأزرار .

وكان عمله ان يلتقط الصناديق التى تأتيه بطريقة آلية على قضيب حديدى ليضعها على عربة قريبـة منه . وعندما تمتلىء العربة تمضى من تلقاء نفسها لتترك مكانا لعربة أخرى فارغة تأتى بشكل آلى ، ولا يستطيع العامل أن يتوقف عن العمل لحظة والا تكدست الصناديق أمامه واضطرب العمل واتضح اهماله وكسله .

قال له الموظف وهو يشرح له عمله .

ــ ان الانسان الآلى لا يمكنه أن يتبع رغبة الانسان . فعليك اذن أن تسـاير رغبـاته . وتوازن حركاتك مع حركاته . ان هذا طبيعى جدا لأنه هو العامل الكامل .. أما أنت فانك لست كاملا . لا يستطيع الانسان ، أى انسان ، أن يكون عاملا كاملا . أما الآلات فانها وحدها تستطيع أن تكون كذلك . ينبغى أن تمعن النظر فيها لتتعلم كيفية العمل . هـل فهمت ؟ ان الآلات تعلمك الترتيب والنظام والكمال . فاذا حاكيتها غدوت عاملا من الدرجة الأولى .

وفى المصنع أصبح ايوهان موريتز صـديقا لأسير فرنسى اسمه جوزيف . ولم يستمر عمل موريتز فى هذا المصنع ، فقد طلبوه ليعمل مترجما للغات البلقانية فى هيئة أركان العامة والمؤسسات القومية للدراسات العنصرية . وهناك اكتشف أحد علماء الأجناس الألمان أن ايوهان موريتز من عنصر آرى صميم . وكان دليله على ذلك أنفه وجبهته وعينيه وذقنه .. وهكذا أصبح موريتز جنديا فى الجيش الألمانى يحرس صديقه فى الأسر جوزيف وأربعة آخرين .

وفى نفس ذلك الوقت كان رئيس شرطـة قرية

قانتانا فى رومانيا قد تلقى برقية عن فرار ايوهان موريتز من معسكر اعتقاله على الحدود الرومانية الهنغاريه . والمطلوب منه البحث عنه عله يكون قد عاد الى قريته . فاستدعى رئيس الشرطة أم موريتز واراها المستند الرسمى الصادر من السلطات والتى تؤكد أن ابنها يهودى . فصرخت أمه قائلة : لقد أنجبت ايوهان مع مع زوجى وليس مع السلطات . أنا أعرف انه ليس يهوديا .

ولكن رئيس الشرطة رد قائلا : ان وزارة الداخلية تؤكد حرفيا فى هذه النشرة ان موريتز يهودى .

فردت الأم قائلة : الحس هذه النشرة أنت ورؤساؤك .

أما ايوهان موريتز فتزوج من المانية وأنجب منها طفلا . وكانت أنباء انتصار الحلفاء تتزايد يوما عن يوم ، وبدأ الأسير الفرنسى جوزيف يغرى موريتز حارسه وزميله فى الأسر - على الهروب معا لأن هذا من شانه ألا يجعله من مجرمى الحرب . وعندما أعلن موريتز لزوجته الألمانية احتمال انهزام المانيا نفت ذلك بشدة وقالت انها فى هذه الحالة ستقتل نفسها وولدها . أما موريتز فهرب مع أسراه آملا فى العودة مع القوات الحليفة لانقاذ اسرته قبل أن تنفذ زوجته تهديداتها .

أما تريان بن القس كوروجا فكان قد عين فى أحد الوظائف الدبلوماسية خارج رومانيا ، ومن هناك كتب الى والده يقول :

ان روايتى الجديدة تتقدم فى طريق نهايتها . لقد وصلت الى الفصل الرابع ، الى الساعة الثالثة بعد

موت الأرانب البيضاء . ان العبيد الآليين يدمرون كل شيء في طريقهم ، والأنوار تطفأ بعضها في اثر بعض والرجال هائمون في ظلمة قريبة من ظلمة الموت .

وكان تاريخ هذا الخطاب هو ٢٠ اغسطس عام ١٩٤٤ ، وكانت هذه هي نهاية الفصل الثالث من من روايتنا .

واحتل الروس رومانيا ، وانتوى رجال قرية فانتانا مقاومة الغزو الروسي بقوة السلاح ، فعارضهم القس كوروجا ولكنهم أصروا فباركهم القس ثم غادروا القرية ولجأوا الى الغابات ، وعندما سيطر الجيش الأحمر على رومانيا عينوا ماركو جولندبرج — وهو اليهودي الذي اعتقله رئيس شرطة فانتانا مع ايوهان موريتز — رئيسا لمحكمة الشعب بالقرية بعد أن حرروه من الأسر ، وكان أول ما عمله هو أن حكم على القس بالاعدام لأنه بارك عصابات الفاشية . ونفذ هو بنفسه الحكم في القس وفي آخرين رميا بالرصاص ، وكان من بينهم جورج داميان وكيل النيابة . لكن القس لم يمت فأنقذته أم ايوهان موريتز وزوجته الأولى سوزانا ، وسلموه الى قافلة ألمانية كانت تتقهقر . وفي الصباح حكم ماركو على أم ايوهان بالاعدام لأنها أنقذت القس وأعطته للالمان . بينما هربت سوزانا مع ولديها .

أما ايوهان موريتز فكان قد وصل الى منطقة الاحتلال الأمريكية حيث عومل أولا بتكريم في مؤسسة الأونرا الأمريكية في مدينة فيمار وذلك لمساعدته خمسة من الأسرى على الفرار من النازي ، لكنه ما لبث أن استدعى ذات يوم وسأله مدير المؤسسة الأمريكي بصوت قاس :

ـ الست رومانيا ؟ ان الرومانيين أعداء الأمم المتحدة ، وأنت رومانى فانت عدو لنا بصورة آلية ولا تستطيع مؤسسة الأونرا أن تأوى وتطعم رعايا البلاد العدوة . يجب أن تخلى غرفتك .

وفى الوقت نفسه كان تريان قد لجأ هو أيضا الى منطقة الاحتلال الأمريكى بالمانيا بعد أن سجنه الألمان مع زوجته سنة كاملة . وطالب التصريح له بالخروج من المانيا . ولكن الحاكم الأمريكى افهمه أن رومانيا من الدول الأعداء .

ـ لكن رومانيا تقاتل مع الحلفاء ضد المانيا منذ اكثر من عشرة شهور ، وأنت تعرف ذلك كما أعرفه ، لقد قتل ثمانون ألف رومانى فى سبيل قضية الحلفاء ، فهل تعتبرون أولئك الذين يقاتلون فى صفوفكم من أعدائكم ؟.

ولكن ميجر براون كرر قائلا : ان رومانيا دولة عدوة ... وأخرج من مكتبه ورقة وراح يقرؤها بصوت مرتفع . البلاد العدوة رومانيا ، هنغاريا ، فنلندا ، ألمانيا ، اليابان ، ايطاليا ، ان هذا واضح أليس كذلك ؟ انكم معشر الرومانيين أعداء الولايات المتحدة .

وبعد أسبوع قبض عليهما وأودعا معسكرات الاعتقال .

وسألت نورا زوجة تريان ـ بيأس ـ اننى لا اعرف سبب القبض علينا ، ولا يمكن أن يكون هناك سبب .

أجابها تريان : هناك سبب ولا شك ، ولكنه سبب سخيف شاذ من الناحية الانسانية ومعترف بعدالته من وجهة نظر الآلة . ان الغرب ينظر الى الانسان من الوجهة الآلية ، أما الانسان المخلوق من لحم وعظم ، القادر على الشعور والفرح فانه غير موجود ... وعندما يقبض على

شخص او يقتل فانه لا يقبض على شيء حي بل على رقم أو شعار . ولا يمكن لأحد أن يطلب الى آلة معاملة الانسان معاملة تنطبق على مميزاته الشخصية .

واقترب الروس من المدينة ليحتلوها فظن تريان وزوجته ان الأمريكيين سيسلمونها الى الروس ، فقرر تريان أن الانتحار خير من الوقوع فى يد الروس . وهنا قالت زوجته :

وماذا لو بقينا لدى الروس ، قد لا يكون الشيطان شديد السواد كما يصفونه . ان هناك عددا كبيرا من البشر تحت الحكم الشيوعى . ولما كانوا لا زالوا على قيد الحياة فاننا قد نستطيع أن نعيش مثلهم .

قال تريان : انك على حق ، ان فى الدولة الشيوعية بشرا يعيشون ، ولعل حياتهم ليست أكثر مشقة وصعوبة من حياة الرجال فى الغرب .

ويستطرد تريان — او المؤلف الحقيقى فى الواقع — فيقول : ليس فى العالم حقائق موضوعية ، ان كل ما فيه ذاتى ! .

ولم يسلم الأمريكيون تريان وزوجته الى الروس بل نقلوهما الى معسكراتهم فى منطقتهم المحتلة من المانيا . وهناك تقابل تريان مع ايوهان موريتز . وبدأ تريان يشرح آراءه لايوهان قائلا :

— ان حيوانا جديدا ظهر على سطح الأرض فى الآونة الأخيرة . هذا الحيوان الجديد اسمه المواطنون . انهم لا يعيشون فى الغابات ولا فى الأدغال ولكن فى المكاتب . ومع ذلك فانهم أشد قسوة ووحشية من الحيوانات المتوحشة فى الأدغال . لقد ولدوا من اتحاد الرجل مع الآلات . انه

نوع جديد من أبناء السفاح . وهم اقوى الاصول والأجناس الموجودة الآن على سطح الأرض . ان وجههم يشبه وجه الرجال ، بل ان المرء غالبا ما يخلط بينهم ولكن لا يلبث المرء أن يدرك ، بعد حين ، أنهم لا يتصرفون كما يتصرف الرجال بل تصرف الآلات . ان لهم مقاييس واجهزة تشبه الساعات ، بدلا من القلوب وأدمغتهم نوع من الآلة ، فهو بين الآلة والانسان ، ليسوا من هؤلاء ولا من ذاك . ان لهم رغبات الوحوش الضارية مع انهم ليسوا وحوشا ضارية . بل انهم مواطنون . . . انهم سلالة غريبة اكتسحت الأرض . . . انهم عديمو الشعور ، لا يعرفون الكراهية ولا الانتقام . والشفقة غريبة عليهم . انهم يعملون آليا ويجهلون ما هو غير مسجل فى البرامج .

ونقل المعتقلون الى معسكر آخر ، وكان النقل عن طريق القطار . وقال تريان يحدث موريتز : ان قطارنا يشبه القافلة التى كانت تتسلق الجلجثه حيث صلب المسيح . والفرق ان قافلتنا آلية . لقد صعد يسوع على قدميه بين مجرمين حقيقيين . هل تعرف أن يسوع قد صلب بين مجرمين ؟ .

ـ كلا لا أعرف ذلك .

ـ من عادة القضاة اذا أرادوا معاقبة برىء أن يحيطوه بمجرمين . ان الحيلة معروفة منذ القدم . ان سببها هو جذب انتباه الجماهير الى ناحية أخرى ، خلال تنفيذ أحكام الاعدام . . . غير أن الخدعة صبيانية ، فبعد تنفيذ أحكام الاعدام لن يذكر الجمهور الا يسوعا وحده . هذه هى الطريقة التى اتبعت فى كل العصور وهذه نتيجتها . وهذا ما يقع اليوم حتى ولو رفعنا على الصليب بشكل آلى .

وطالت أيام الاعتقال فأرسل موريتز خطابا الى سلطات الاحتلال الأمريكى يقول فيه : اننى انسان ، فاذا كنت لم أسىء الى أحد ، فلا يحق لأحد أن يسجنى ويعذبنى . ان حياتى وظلى ملك لى . ولا يحق لكم — مهما بلغت مصفحاتكم ورشاشاتكم وطائراتكم ومعسكراتكم ونقودكم التى تملكونها — أن تمسوا حياتى وظلى . اننى لم أشته طيلة عمرى الا شيئا قليلا : أن أستطيع العمل ، وأجد المكان الذى آوى اليه مع زوجتى وأولادى وأن يكون لدى ما آكله . فهل من أجل هذه الرغبة تسجنوننى ؟ .

وبعد أن سرد قصة عذابه من بلد الى آخر وكيف كانوا يجعلون اسمه يهوديا فى بلد وآريا فى بلد آخر قال : هل تريدون أنتم ايضا تبديل اسمى ؟ ابداوه . اننى أعرف الآن أن بنى الانسان لم يعد يحق لهم الأسماء التى تطلق عليهم ساعة العماد . لكننى أريد أن ابلغكم الآن شيئا .. اننى لن أستطيع بعد الآن صبرا . أريد أن اعرف السبب الذى من أجله أسجن وأعذب .

وبعد ثلاثة أيام من هذا الخطاب استدعى ايوهان موريتز ليسألوه اذا ما كان يكتب موريتز بحرف التاء أم حرف فى الزاى ، وكان هذا هو كل ماحققوا فيه ! .

وفى هذه الأثناء وصل الى موريتز خطاب ينبئه ان زوجته الألمانية أحرقت نفسها وولدها الذى أنجبته من ايوهان .

أما تريان فكان يكتب الشكوى تلو الشكوى وهو يردد فى قوله ان الرجال الذين يسجنوننى هنا لا يمقتوننى ولا يريدون معاقبتى ، ولا يطلبون موتى . أنهم يريدون فقط أنقاذ العالم .

واستدعاه الضابط الأمريكى أخيرا ليقول له .. اننى مقتنع بأنك لست مذنبا ، وهذه هى المرة الرابعة التى اطلب فيها الى السلطات اطلاق سراحك .. لكنى لم أتلق جوابا . ان أوامر اخلاء السبيل لا يمكن أن تمنح بصوره فردية . ان اطلاق السراح ، لا يمكن ان يقع الا لمجموعات من الأشخاص . قد يبدو أسلوبنا جافا آليا وحسابيا لكنه صحيح .

ـ اذن الاستجواب الذى تعرضت له الآن لا يهمك ؟ .

ـ بل يهمنا ، نحن نريد أن نعرف عن الشخص اسمه الكامل الصحيح ، تاريخ الولادة ، مكانها ، مهنته ... الخ لنسجل تلك المعلومات على بطاقات خاصة وندونها فى احصاءاتنا ، ثم نقسم المساجين الى فئات ونوزع كل شخص على الفئة التى ينتمى اليها .

ـ أولا تجدون أن الغاء الانسان ومعاملته كجزء من فئة عمل غير انسانى ؟ .

ـ بل انه اسلوب عملى سريع علاوة على انه عادل . ان العدالة تسير وفق مناهج العلوم الرياضيةوالفيزيائية. أى بحسب الأساليب الأكثر دقة . ان الشعراء وحدهم وعلماء اللاهوت يستنكرون هذه الوسائل والأساليب . لكن المجتمع المتمدين قد نقح المبادىء اللاهوتية والشعر ، اننا الآن نجتاز حقبة علميـــــة رياضية سليمة ولا يمكن العودة الى الوراء لأسباب عاطفية .

وفكر ايوهان موريتز فى الفرار الى بيته فى رومانيا ولكن تريان حذره لئلا يقتله الحرس البولونى الذى يرتدى ملابس امريكية .

ـ فاذا أخطأك البولنديون فسيقتلك الأمريكان أو الألمان

قبل أن تصل الى رومانيا . انك تلاقى فى طريقك جنــودا نمساويين وتشيكيين وفرنسيين وهنغاريين ، فلا تصل أبدا الى رومانيا . سوف يناوئنك فى الطريق . فاذا تفاديت بنادق أمة ونجوت من جنودها قتلتك الأمة التى تليها ، ان بينك وبين بيتك ، بينك وبين أسرتك يا عزيزى موريتز تقوم أمم العالم . أمم مسلحة تريد قتلك ... ان هذا الجيش الدولى العالمى يقوم بين كل رجلَ وحياته الشخصية الخاصة . ان الانسان الآن لم يعد يسمح له أن يعيش حياته الخــاصة . انه يقتل رميا بالرصاص اذا حاول ذلك . أن المصفحات والرشاشات والأنوار الكاشفة الشائكة قد صنعت من أجل هذا الهدف .

وفجأة التقى ايوهان موريتز بصديقه القديم الدكتور ابراموفيس ــ وهو اليهودى الذى فر معه من رومانيا ــ وكان يدخل الآن فى زى ضابط أمريكى . فظن موريتز أن ساعة الحرية قد دنت . وقال له الطبيب :

ــ اننى الآن فى مركز قوى ، وأنت تجتاز لحظات رديئة من حياتك . ماذا تحتاج ؟ أتريد لفافات أو غذاء أو كساء ؟ اذكر لى ما تريد .

ــ بل أريد الخروج من هنا . أريد العودة الى بلدى ، الى زوجتى وأولادى .

ــ لا تطلب المستحيل . لقد ظللت قرويا شديدالسذاجة والجمود . انك تعتقــد بأن أى ضابط يستطيع اطلاق سجين ما ، لأنه يعتقد أنه غير مذنب . أليس كذلك ؟ لو أن الأمر كذلك لأخلى هذا المعسكر بين عشية وضحاها . ان كل نازى يستطيع ايجاد أدلة على براءته . ان اطلاق السراح لا يتحقق الا بناء على أمر الأركان العــامة فى فرانكفورت ومنه ترسلَ الأوراق الى واشنطن فيحول

القرار منهـــا الى ويسبادن . فتشكل لجنـــة خاصة فى اسلجن وترسله الى برلين . وبذلك يرسل أمر اطـلاق السراح الى برلين ، ويرســــــل فى ذات الوقت الى هيدلبرج . وحين يصل الأمر الى هيدلبرج ترفع البطاقة من المحفوظات فى مئات المـكاتب وعنـدئذ فقط يطلق السراح . لـكن كل هذه المعاملات شـديدة التعقيد ، انها آلة تعمل أوتوماتيكيا .

ان اسمك مسجل فى العالم بأسره فى كل مكان ، فى المكتب الاتحادى للمعلومات فى أمريكا ، وفى القيادة الحليفة العليا بباريس ، وفى لجنة الرقابة فى برلين ، وفى كل المعسكرات والسجون وفى مكاتب البوليس : بوليس الجرائم السياسية ، الشرطة العسكرية ، شرطة المشبوهين ، شرطة الطوارىء ... الخ .

ان كل حركاتك حتى اكثرها تفاهة ولو لم يكن الا نقلك من معسكر الى آخر ـ تحدث حركة وتبديلا فى بطاقتك ، بين مختلف دوائر المحفوظات ، فهل كنت تعرف ذلك ؟ .

لقد قمنا باعتقالات وقائية بحسب الأصناف والطبقات . فاذا احتجنا الى المذنب أو الى مجرم حرب مثلا ، فانه يكون تحت يدنا بدلا من البحث عنه فى كل مكان .... اننا لا نتكلف الا عنـــاء الضغط على زر ، يتعلق بالحروف الأولى من الاسم ، وقبل أن نعد ثلاثة ، تـكون بطاقة الشخص المطلوب بين أيدينا مع صورته وكل المعلومات المتعلقة به : طوله ، وزنه ، لون شعره تاريخ ولادته ومكان الولادة ، عـدد أسنانه ... وعنـدئذ يـكفى أن نرفع السماعة ـ لنبلغ بواسـطة الراديو ـ المعسكر أو السجن الذى يكون فيه رجلنا ، فلا تنقضى ساعات معدودة الا

ويكون الشخص بلحمه ودمه ماثلا امام محكمة نورمبرج الدولية . ان هذا العمل مدهش . انه نتيجة التقدم الفنى الآلى . فكيف تريدهم ان يطلقوا سراحك ؟ ان ذلك يعادل الجنون . انك تشبه خيطا انتظم فى نول للحياكة . ومنذ أن أدخل فى مكانه يتعذر استخراجه وعندئذ ينبغى الانتظار حتى يخرج من تلقاء نفسه منسوجا مع الخيوط الأخرى .

ان كونك مجرما او بريئا مسألة شخصية يمكن أن تهتم بها زوجتك أو أن يهتم بها جيرانك والفلاحون الآخرون فى قريتك ، ان هؤلاء وحدهم يهتمون بمسألتك الشخصية . اما الدول الراقية فانها تنظر الى الأمور نظرة اجمالية . ان رئيس الولايات المتحدة نفسه لا يستطيع اطلاق سراحك . ينبغى أن تنتظر حلول دورك بهدوء . هل تريد سيجارة ؟ .

ومد موريتز يده ليأخذ سيجارة ، لكن العلبة كانت فارغة . وراح الطبيب يبحث عبثا عن علبة أخرى فى جيبه فقال له : سأقدم لك سيجارة فى المرة القادمة .

أما تريان فلجأ الى طريقة أخرى عله يخرج ، لجأ الى الاضراب عن الطعام حتى بلغ به الضعف مبلغا كبيرا وانتابه الغثيان وعندما زاره الطبيب حسبه مجنونا وحاول تريان أن ينفى عن نفسه تهمة الجنون أمام الضابط الطبيب قائلا له :

ــ لست مجنونا أيها الملازم ، فقط أشعر بغثيان رهيب . لا شك أنه لا يمكنك أن تشعر بالغثيان لأن المرء اذا بدا مغمض العينين محكما سد أنفه فانه لا يتعرض لشىء .. هناك عمال يتناولون افطارهم وغذاءهم

وعشاءهم قرب فتحات المجارى العامة او حفر المراحيض ولكن ذلك لا يؤثر فيهم لأنهم الفوه ... ان الألمان كانوا يحرقون جثث المساجين فى معسكرات الاعتقال ، لكنهم ما ان يغلقوا باب الآتون حتى يمضوا لتناول طعامهم ببشر وغبطة دون أن يشعروا بأى غثيان . يوجد هنا رجال صنعوا فراشا من شـــعور النساء اللائى قتلوهن فى معسكرات الاعتقال واستعملوا ذلك الفراش للنوم عليه مع عشيقاتهم ومطارحتهن الهـوى وأنجبت لهن نساؤهم ابناء بعد نومهم معهن على ذلك الفراش ، بعد أن مارسوا تلك الغرائز دون أن يشعروا بأى تقزز او اشمئزاز ... وانتم ايضا لا تخافون الغثيان ولا تشـعرون به مهما عملتم . انني واثق أنـكم لا تتعرضون لأى خطر ، لأن الغثيان ــ وأرجو أن تصدقنى ــ وبال جسيم .

ومن شرفة غرفته رأى تريان الحـــرس يفتشون المعتقلين بحثا عن محظـــورات قد تكون فى حوزتهم . فتشوا أولا ملابسهم ، ثم تحت آباطهم ومؤخـراتهم ، فقال تريان معلقا :

ــ ان التفتيش لم ينته بعد ، ولن ينتهى بسرعة لانه لم يبدأ بعد . لقـد فتشتم بادىء الأمر عن الذهب فى الحقائب والدور والجيوب وبين الملابس وفى الاحـذية والثنيات وفى السراويل الداخلية والآن تبحثون عنه فى أفواه الرجال تحت أباطهم وفى مؤخراتهم ، انكم تبحثون فى كل مكان . على الرجال أن يقفوا عراة أمامكم . ومع ذلك فانها ليست الا البداية ، سوف تنتزعون الجلود غدا بحثا عن الذهب تحتها ، ثم تنتزعون العضلات عن العظام بحثا عن الذهب وبعدئذ تحطمون العظام اذا لم يكن فيها شيء من الذهب ، وأخـيرا تضـغطون أدمغـة الرجال

وتفتشون فى امعائهم ومصارينهم وتمزقونهم اربا ، بحثا عن الذهب وقطع الذهب وخواتم الذهب . ستحطمون القلوب وتجزؤونها بحثا عن الذهب . الذهب الذهب . اننا اليوم فى البداية . انكم لا زلتم تبحثون فوق الجلد . لكن الجلد سينزع والتفتيش سيستمر .

ونقلوا تريان الى مستشفى المجاذيب حيث اضطر — تحت الضغط والارهاب — أن يعدل عن اضرابه . لكنه عندما أعيد الى المعتقل سار نحو الأسلاك الشائكة حيث المنطقة المحظورة وهناك أطلق الحراس عليه النار فوضع لحياته حدا . وهكذا أصبحت زوجته أرملة .

وأخيرا أخلى سبيل ايوهان موريتز ، والتقى بزوجته سوزانا وولديه منها وولد ثالث جاء نتيجة لاستباحة الجنود الروس لها . وأخلى سبيل نورا أرملة تريان آليا ، كما قبضوا عليها من قبل آليا . ولم يكن لديها مال ولا أثواب ولا حلى ولا حتى خاتم زواجها . فمكثت فى المانيا وعملت كأمينة سر مع الملازم الأمريكى لويس . وعرض عليها الملازم الأمريكى الزواج ولكنها رفضت قائلة :

— انك عاجز تماما عن اظهار أية عاطفة ، ولست وحدك العاجز بل ان أى رجل فى حضارتك لا يستطيع انماء عاطفته فى نفسه . ان الحب ، تلك العاطفة البليغة ، لا يمكن أن تكون الا فى مجتمع يؤمن أن الكائن البشرى فرد لا يمكن استبداله . والمجتمع الذى تنتمى اليه يؤمن بشدة أن اى رجل يمكن استبداله برجل آخر ، وأن أى امرأة يمكن استبدالها بامرأة أخرى . وبمثل هذا الاعتقاد لا يمكنكم أن تحبوا .

ان العشاق فى مجتمعى يؤمنون أنهم اذا لم يوفقوا فى كسب عطف المراة المحبوبة فلن يستطيعوا استبدالها بسواها بين كل نساء العالم ؛ لهذا فانهم كثيرا ما يقتتلون في سبيلها . ان الرجل الذى يحبنى حقا . يشعرنى بأننى المرأة الوحيدة التى تستطيع اسعاده ، المخلوقة الوحيدة ... فهل أنت قادر يا سيد لويس على تقديم مثل هذا التوكيد ؟ انك واثق أننى اذا رفضت ، فانك واجد امرأة أخرى تقبل الزواج بك واذا رفضت هى فانك واجد ثالثة ورابعة ، أليس كذلك ؟ .

أجاب : هذا صحيح ولكنى سآسف اذا رفضت الزواج بى .

ـ اذن يجدر بنا يا سيد لويس أن نتابع عمل مكتبنا المقدس .

***

ان الساعة الخامسة والعشرون هى أول الطريق الذى يؤدى فى النهاية الى عالم الدوس هكسلى الطريف . فقد تخيل ألدوس هكسلى عالما فيه كل شىء آلى ومرسوم تسوده الرموز وقوانين الرياضة وتكاد تنعدم فيه الصفات الانسانية وهو عالم ـ على عكس الساعة الخامسة والعشرين ـ معدوم الصلة بعالمنا . انه نهاية الطريق . فالساعة الخامسة والعشرون هى الساعة الحاضرة ، اما العالم الطريف فهو الساعة المقبلة .

وليس غريبا أن يكون فيلسوف وجودى آخر هو نيقولا براديف صاحب مقدمة العالم الطريف ، وفيها يتساءل هذا الفيلسوف عن الوسيلة التى تحول دون تحقيق أمثال هذه المدن المخيفة ، حتى يعيش الانسان في مجتمع أقل « كمالا » لكنه أكثر حرية ، اذا كان ثمة تناقض بين الكمال والحرية .

ان الساعة الخامسة والعشرون تجمع في سطورها بين النقد الساخر الذى وجهه شارلى شابلن فى أفلامه الي النظام الآلى في المجتمع الراسمالى ، وبين النقد المر الذى يوجه الى كل نظام شمولى .

وعيب الساعة الخامسة والعشرين أنها لا تعبر الا عن هذا الجانب النقدى ، عن اليأس ، وعن أمل غامض سحرى ، فى خلاص يأتى من الشرق . انها لا تشترك فى طريق البناء والخلاص . ومن هنا فهى مأساة لا بطولة فيها لأنه لا كفاح فيها ، تشترك فى ذلك مع كل المراثى التى رثت الحضارة الأوروبية وفى مقدمتها مراثى ت . س . اليوت ، وانه لرثاء رائع بليغ ، ولكنه ليس الا رثاء .

حقا ليس هناك من معنى بأن أتوهم بأنى حر فىعقيدتى ورأيى (رغم وسائل الدعاية الحديثة التى تفرض على) فى مجتمع تمنعنى فيه حالتى المادية من أن أكون حرا فى أن أتعلم وأعمل وأعالج ، ولكن ليس من معنى أيضا فى أن أحصل على هذه الحريات الأخيرة لافقد أبسط حرياتى الشخصية . ان أمل الحضارة الوحيد فى الخلاص اليوم هو أن نعرف كيف نوازن بين الحرية والمساواة ، وبين الفرد والجماعة ، فلا يطغى أحدهما على الآخر .

الحب الزوجي

لالبرتو مورافيا

« لسنا نستطيع أن نرى فى هذا اللون من الحب الزوجى الذى يقدمه لنا ألبرتو مورافيا فى قصته تلك لونا عاما يجد فيه جميع النـــاس نفوسهم ، لأنه حب بين زوجين جد مختلفين ، ربما وجد الفنان من حقه أن يبالغ فى اعطائهما صـفات متطرفة لـكى يوضح نفسه وفكرته وان كان يعـلم أن الواقع لا يمثل هذا التطرف المتناقض الا على سـبيل الشـــذوذ ٠ فليدا زوجة جميله ممتلئة كلها غريزة وكلها شـــــهوة ، وهى تدرك ذلك وتحاول أن تقاومه ، ولهذا فهى لا تحب أن تنساق الى غريزتها وشهوتها وترى أن فى الارادة الخيرة خير منقذ لها من غريزتها ، أما الزوج فهو على عكس ذلك تماما ، لا يعتمد فى حيـــاته الا على الارادة الخيرة ولهـــذا فهـو ميال الى الغريزة وما فيهـــا من مباهج ومكاسب ٠ وكان ــ كما يقـــول عن نفسه ــ كاتبا لديه كل ما ييسر له اروع ما يمكن كتابته من ثروة ووقت ومكان هادىء مريح واحسن انواع الأوراق واجود انواع أقلام الحبر

وآخر اختراع للآلات الكاتبة . لديه كل شيء ما عـدا العبقرية ولهذا فانه يحسد الورق الرخيص الذى يخط عليه شاب يتضور جوعا بضعة خطوط بالقلم الرصاص مدفوعا بالهامه وهو جالس في مقهى أو مطعم عام . ومن هنا لم يكن لدى سيلفيو بالديتشي الا ارادته فى أن يكتب ، ولكن ارادته تلك لم تكن شيئا كافيا فقد كان لابد من وجود الالهام أو العبقرية أو الدافع الفريزى ؛ وهو ما يدرك أنه لا يملكه . ولهذا فقد عمل حينا بالنقد ، فلما تحول الى التأليف وجـد نفسه يحسن الأسلوب ولـكنه يفشل في اختيار موضوعه . ومع ذلك فان قصة الحب الزوجى التى يقـدمها لنا لم تفشل أسـلوبا ولا موضوعا ، وذلك لأن كاتبها الحقيقى لم يكن بطلها ؛ انما كان ألبرتو مورافيا نفسه .

***

لست أذكر على وجـه الدقة كيف ولا متى قابلت زوجتى ليدا لاول مرة ولكننى أذكر أنها كانت فى مثل سنى تقريبا ، وبدا لى ان حياتها تشبه حياتى من وجوه كثيرة ، وقد كان هـذا حقيقيا ولـكنه من نواح قليلة وسطحية ، فقد كانت ــ مثلى ــ ثرية ولديهـا فراغ وتتحرك فى نفس بيئتى . ومع ذلك فقد بدت لى هـذه المشابهة ذات أهمية كبرى وكأنما عثرت بذلك على المرأة التى أنشدها . وكانت قد تزوجت من قبل فى ميلان وهى ما تزال صغيرة من رجـل لم تحبه وقـد استمر زواجها سنتين انفصلا بعدها ثم حصلت على طلاقها فى سويسرا . وقد اعترفت لى فى أول مرة تقابلنا فيها بأنها متعبة من الحياة وأنها تبغى حياة الاستقرار . وقد تكشف لى من اعترافها هذا ــ الذى ألقته ببساطة وكأنما

تشير الى برنامج عملى لحياتنا ــ نفس الحالة العقلية التى كنت أعيشها سنوات عديدة ، وقررت فى الحال انها لابد وأن تصبح زوجتي . ورغم أنى لا احسب أن ليدا على درجة كبيرة من الذكاء الا أنها استطاعت أن يكون لها شيء من النفوذ على ، وقد توهمت فى ذلك الوقت اننى انا الذى اغريتها على الزواج منى ولكن استطيع أن اقرر الآن أنها هى التى قررت ذلك وانه بدون ذلك القرار ما كان يمكن لزواجنا أن يتم . وكنا ما نزال فى بدء تعارفنا الذى حسبته سيستمر مدة طويلة ، حين أسلمت نفسها الى ، وتكاد تكون هى التى أرغمتنى على ذلك ، وهذا الاستسلام زاد من اعجابى لها ، بينما كان من الممكن أن يثير احتقارى فى حالات أخرى . وطلبت منها الزواج أخيرا وانا على يقين أنها ستجيب طلبى فى الحال . ولكنى على العكس من ذلك وجدتها ــ لدهشتى ــ تجابهنى بما يكاد يكون رفضا تاما ، كأننى قد خرقت بذلك الطلب قانونا اخلاقيا . واحسست اننى وصلت الى الأعماق المظلمة ليأسى القديم ورأيت أننى يجب الا اجبن الآن عن الانتحار . وبعد مضى عدة أيام اتصلت بى تليفونيا تسألنى بدهشة عن السبب فى عدم رؤيتى لها ، فذهبت اليها حيث رحبت بى وهى تعتب على أننى هجرتها وأننى لم أعطها فرصة للتفكير . واعلنت موافقتها على الزواج . وبعد أسبوعين تزوجنا .

وبعد ذلك بدأت فترة من اسعد فترات حياتى فأحببت ليدا بعنف ومع ذلك فقد كنت خائفا أن افقدها طيلة الوقت ، ولما كنت أعرف أنها جاهلة ، فقد اقترحت عليها أولا أن أقوم بتلقينها برنامجا فى التربية الجمالية ، وأخبرتها انها ستجد لذة فى التعلم كتلك اللذة التى

سأجدها فى التعليم . واكتشفت أنهـا انسانة معقولة للغاية ، فاستطعنا أن نتفاهم على ترتيب جدول لدروسنا وأخذت على نفسى أن أجعلها تقدر كل شىء أعرفه وأحبه. ولست أعرف الى أى حد كانت تتابعنى أو تفهمنى ، ولو أنه أقل بكثير مما اظن . ومع ذلك كانت تشعرنى بانتصارى عندما تقول ببساطة « اننى أحب هذه القطعة الموسيقية .. هذه القصيدة جميلة .. أعد على قراءة هذه الفقرة .. فلنستمع الى هذه الاسطوانة مرة أخرى » وفى الوقت نفسه ، ولكى نشغل ساعات فراغنا ، كنت أقوم بتعليمها الانجليزية ، وقد أصابت تقدما محسوسا فى هذه الناحية لأنها كانت ذات ذاكرة طيبة وميل طبيعى . ولكن كل هذه الدروس والايضاحات كانت تكتسب صفة جذابة بسبب لطفها ومحبتها وارادتها الطيبة . ولهذا فرغم أنها كانت التلميذة وكنت أنا المدرس الا أننى كنت أحس — كلما تقدمت هى — باحساس التلميذ الذى يتقدم فى دروسه . وكان هذا صحيحا لأن الدرس الحقيقى بيننا كان هو الحب ، وكان يبدو لى أننى اكثر سيطرة عليه يوما بعد يوم .

وحين كنت أضطجع فى السرير بجانبها ، كنت كثيرا ما أتأمل جسدها العارى ، وكثيرا ما كنت أحس بالخوف عندما أجده شديد الجمال ، فهو جمال يفوق كل وصف . وكثيرا ما كنت أتحسس فى شفتى أثر القبلة التى طبعتها على شفتيها . وكان على أن أضع فى اعتبارى — وفى وسط سعادتى الكاملة — ارادة زوجتى الطيبة . فحبها لم يكن تلقائيا مثل حبى بل كان حبا اراديا ، فقد كانت لديها رغبة فى أن تسرنى دائما وترضينى دائما بل وأن تمتدحنى ، ولقد رضيت بهذه الارادة الطيبة كدلالة على

محبتها لى ولم اشغل نفسى ـ فى ذلك الوقت ـ بأن أبحث عما تخفيه وراء ذلك ، فقد كنت سعيدا لدرجة اننى تجاوزت عن انانيتى .

ولم اكن قد ذكرت لزوجتى شيئا عن مطامعى الأدبية ، لأننى كنت أحس أنها قد تفهم شيئا منها ، كما أننى لم أحقق منها نجاحا يذكر .

وكنا قد أمضينا الصيف على شاطىء البحر بالريفييرا ، وبدأنا نناقش فى شهر سبتمبر مشروعات الخريف والشتاء . فذكرت لها شيئا عن محاولاتى الأدبية واذا بها تظهر دهشتها قائلة : ولكنك لم تخبرنى بذلك أبدا يا سيلفيو . وحثتنى على أن اريها شيئا مما أكتب . وبدا لى ذلك الوقت أن رأيها ـ رغم جهلها ـ أهم لدى من رأى خير النقاد . وبعد أن أبديت لها شيئا من المعارضة وافقت على أن أقرأ لها احدى قصصى القصيرة التى كتبتها منذ سنتين . وأثناء قراءتى لها وجدت ان قصتى ليست بالرداءة التى كنت أتصورها . ولكنى بعد أن قرأتها قلت لها : هأنت ذى ترين انها قصة فاشلة . فسكتت لحظة كأنما تجمع شتات أفكارها ثم أجابتنى : انك لمخطىء تماما ، انها قصة جيدة رغم ما فيها من نقص . ورغم أننا لا نميل الى تصديق المديح الذى يكيله لنا أقرباؤنا الا أننى أحسست أنها قد أحبت القصة بغض النظر عن قرابتها لى كما أن مديحها كان منطقيا لدرجة أنه لايبدو مجرد اشفاق . فقلت لها أخيرا « اذن أنت تريدننى أن أكتب » لقد مارست الكتابة مدى عشر سنوات ، وعبثا حاولت الحصول على شىء ذى أهمية . ولكن اذا قلت لى استمر ، فاننى سأستمر .

ـ انك تضع مسئولية كبيرة على عاتقى .

ـ تكلميننى كأنما أنا شخص غريب بالنسبة لك .

ـ ولكنى أخبرتك أنك لابد أن تستمر .

ثم نظرت الى « وقالت » بدلا من العودة الى روما ، فلنذهب الى الفيللا التى فى توسكانيا ويمكنك أن تكتب هناك .

ـ ولكنك ستملين الحياة هناك .

ـ ولماذا ؟ ستكون أنت هناك ، كما أننى سأستمتع بتغيير الجو . فالحياة الهادئة لم تتح لى منذ زمن بعيد .

وبعد اسبوع غادرنا الريفييرا الى توسكانيا .

ونظمنا حياتنا من أول يوم ، فكانت الخادم العجوز تحمل لنا الافطار صباحا فى غرفة زوجتى ثم أغادرها الى مكتبى لأكتب ، أو على الأقل محاولا أن أكتب ، حتى الظهر . بينما تصدر زوجتى أوامرها الى الطباخ . وفى الظهر نتناول الغداء معا ثم نحتسى القهوة ثم نصعد لنرتاح قليلا فى غرفتينا ونلتقى من جديد لتناول الشاى ، وبعد ذلك نمشى قليلا بين الحقول على شاطىء قنال معشوشب أو فى الطريق العام المؤدى الى المدينة ، وبعد عودتنا كنت اعطيها درس الانجليزية ثم أقرأ لها أو تقرأ لى هى ان اتسع الوقت ، ثم نتعشى وبعد العشاء نقرأ أو نتناقش ، وأخيرا أذهب مع زوجتى الى غرفتها حيث أنام معها ، والحقيقة أن يومنا كله يفضى الى هذه اللحظة . وكنت أجد زوجتى دائما على استعداد ، سهلة الانقياد ،

كأنما تهبنى وتهب نفسها مكافأة ومتنفسا بعد مثل هـذه الساعات الكثيرة الهادئة . وكان حبنا ينبثق فى هـذا الليل الساكن الممتد من خلال النوافذ المفتوحة ويتقد فى شعلة حية اتقادا طويلا صامتا وواضحا وحيا كأنه شعلة تلك المصابيح الزيتية القديمة التى كانت تضىء يوما ما جنبات هذه الغرف المظلمة . وكنت أدرك فى مثل هذه الليالى معنى العـاطفة الزوجية ـ ذلك الخليط من التقديس العنيف والرغبة المشروعة .

اما الشىء الذى لم يكن على ما يرام فهو عملى . لقد كنت ابغى كتابة قصة طويلة ، وكانت قصة الزواج هى التى تشغلنى ، قصتنا ، قصتى وقصة زوجتى . وكانت فصولها تبدو لى واضـحة كل الوضوح ، ولـكن حين اجلس الى مكتبى وابدأ الـكتابة فان كل شىء يضطرب ويتعطل ، ولما كنت قد اشتغلت بالنقد سابقا فان هـذه الخبرة جعلتنى ادرك بأن عملى لا يتقدم بل يتأخر ، وفى كتاباتى السابقة كان اسلوبى على الأقل ناجحا ، اما الآن فلا الموضوع ولا الأسلوب ناجحان ، وربما كان من الممكن أن أدع عملى ويكفينى حبى لزوجتى لو لم تكن هى التى تدفعنى الى ما أقوم به الآن . وهى تظن ـ لجهلها بشئون الأدب ـ أن الكتابة تأتى بمجرد الارادة . وعندما حاولت أن أعرض أمامها بعض العقبات التى تصادفنى لم تجبنى الا قائلة : « لقد وعدت أن تكتب عنى قصة ، ولابد أن تفى بوعدك » .

وكنت قـد لاحظت أننى فى الصباح ـ وبعد انقضاء الليل مع زوجتى ـ أحس برغبة لا تقاوم فى أن اترك أفكارى مشتتة ، واحس ارتخـاء فى أطرافى . وقـد انتبهت ـ ان صوابا وان خطأ ـ الى أن سبب هذا الميل

الى الكسل هو تفريغ طاقتى الجسدية الذى أحس به بعد اتصالى بزوجتى فى الليلة السابقة . وأدركت أننى لا اقبل على الكتابة لأننى استنفدت كل قواى الهجومية في أحضان زوجتى . فما أعطيه لزوجتى هو نفس المقدار الذى أنتقصه من عملى .

وهكذا كنت أحس أن قوتى الابداعية تمضى ــ كل ليلة ــ من وسط جسدى حتى أنه لم يكن لدى فى اليوم التالى ما يكفى لتغذية ذهنى . ومع ذلك فكلما حان الوقت لأضطجع مع زوجتى أقنعت نفسى بأنى من القوة بحيث أستطيع أن أجمع بين ذلك وبين العمل فى صباح اليوم التالى ، ولكنى ما ألبث أن أعود الى ما كنت عليه عندما يأتى الصباح ، فاذا عاد المساء كان اتصالى بزوجتى مرة أخرى لتعويض احساسى بالهزيمة الذى عانيته في الصباح . ولكنى بعد أن وجدتنى أدور فى هذه الدائرة المفرغة عدة مرات صممت أن أصارح زوجتى ، فاذا كانت حريصة حقا على أن أتمم قصتى فعليها أن تتقبل اعتذارى . وعندما اضطجعنا جنبا الى جنب فى السرير قلت لها :

ــ اسمعى ، لابد أن أقول لك شيئا ما حدثتك به من قبل .

وكان الجو حارا ، وكنا نائمين عريانين على ملاءة السرير ، هى نائمة على ظهرها ويداها معقودتان خلف رأسها فوق الوسادة وأنا بجانبها . فأجابتنى دون أن تحرك شفتيها : حدثنى .

ــ هل تريديننى أن أكتب هذه القصة .

ــ بلا شك .

ـ اذا استمرت الأمور كمـــا هى الآن فلن أنجح فى كتابتها اطلاقا .

ـ وماذا تعنى بقولك « الأمور كما هى الآن » .

فترددت قليلا ثم قلت : اسمعى ، اننا نضطجع معا كل مساء ، اليس كذلك ؟ اننى أحس أن كل القوة التى احتاج اليها لـكتابة هذه القصة تؤخذ منى حين اكـــون معك . واذا استمر الحال على هذا فلن يكون فى مقدورى ان اكتب .

ـ ولكنى أريدك أن تكتب ، اريدك أن تصبح كاتبا .

ـ لماذا .

ـ لأنك كاتب منذ الآن ، ولا يمكن ان تحيا حيـــاة الخمول وتقنع بأن تضطجع معى كل مساء . وان كان ما تقوله صحيحا فلابد أن نغير كل شىء .

ـ كيف .

ـ لن نتصل ببعضنا حتى تتم قصتك ، وعندما تنتهى منها سنستأنف اتصالنا من جديد .

وقبلت فى النهاية عرضها بعد معارضة شكلية ، قائلا لها بأن هذا اقتراحها هى ثم ما لبثت أن قبلتها بحنان وأنا أهمس « سأصبح كاتبا بفضل ذلك » .

وهكذا بدأت كتـــابة قصتى وأنا أحس بأن قوتى الابداعية تزداد يوما بعد يوم . وهكذا حصلت على الالهام بعد الحب . وكنت أكتب كل يوم ما بين عشر صفحات واثنتى عشرة صفحة ثم لا أحس بقية اليوم بأى شىء آخر يهمنى فى حياتى ، ولا حتى محبتى لزوجتى ، واحسب انه لو مرضت فى تلك الفترة لما أحسست الا بقلق لمـــا يترتب على ذلك من تعطيل لعملى .

وهكذا استوعبنى عملى حتى أنى لم اول اهتمامى فى ذلك الوقت بحادث بسيط ولكنه هام . ذلك أن بشرتى شديدة الحساسية ، والحلاقة مشكلة بالنسبة لى .
ولهذا فانى لا أستطيع أن أحلق بنفسى بل لابد من استخدام حلاق لذلك . ولهذا فقد نظمت أمر هذه الحلاقة مع حلاق يأتى لذلك كل صباح ، وقد كان هو الحلاق الوحيد بالقرية . وكان يأتى على دراجته فى تمام الساعة الثانية عشر والنصف بعد أن يكون أغلق دكانه الساعة الثانية عشرة . وكان مجيئه اشارة لى بايقاف عملى . وكان اسمه انطونيو . وهو فى الأربعين من عمره ، وله زوجة وخمسة أطفال ، ولم يكن من أهل القرية بل كان من صقلية . وكانت زوجته تعمل بالحقل ولكنها تترك حقلها يوم السبت لتساعد زوجها فى الحلاقة للزبائن الذين يتكاثرون قبل يوم العطلة الأسبوعية .

وعند مجيئه تقبل الخادم وهى تحمل معها أدوات حلاقتى الخاصة والماء المغلى ، ومع إنى لا أحب لحظة الحلاقة ، الا اننى احببت هذا الحلاق وكنت أطرق معه مواضيع الحديث كما يعن لى ، فكنت أحدثه عن موسم الحصاد أو أسرته او وطنه صقلية ، واذا انفجرت ضاحكا لسبب ما فانه يبعد الموسى عنى وينتظر حتى انتهى من ضحكتى . ومع انى أوليته كل ثقتى الا اننى احسست أننى لم أستطع أن أنفذ الى أعماقه ، ورغم أنه كان فقيرا وله أسرة كبيرة فلم يكن يبدو عليه ان المال يقلقه ، ولم يتحدث عن أسرته باهتمام ولا بغير اكتراث ، ولم يكن يهتم بالسياسة ولم يكن يعتبر مهنته غير وسيلة لكسب عيشه ، ولهذا قلت انه لابد من وجود شىء غامض فى حياة هذا الرجل .

وبينما كان انطونيو يقوم بالحلاقة لي ؛ كانت زوجتي تاتي عادة في الغرفة وتجلس في الشمس عند النافذة المفتوحة ومعها علبة المانكير او كتاب ؛ وكنت احيانا ما اقطع على الحلاق عمله لأسألها عن صحتها أو عن الكتاب الذي بيدها . وفي ذات يوم طلبت زوجتي من الحلاق أن يصفف لها شعرها . وسألته ما اذا كانت له خبرة بتصفيف شعر النساء ، فأجابني بشيء من الفخر ، ان كل فتيات القرية يأتين اليه ليصففن شعورهن ، فدهشت لذلك ولكنه أكد لي أن أقل الفلاحات شأنا يرغبن اليوم في تجعيد شعورهن . وغادرني أنطونيو الى حجرة زوجتي بينما جلست أنا أقرأ كتابا . وبعد ثلاثة ارباع الساعة سمعته يلقي سلامه . وبعد دقائق قليلة جاءتني زوجتي في الغرفة فأقفلت كتابي وتطلعت اليها والى شعرها المصفف وأنا أبدي اعجابي . ولدهشتي وجدت أن زوجتي لا تبادلني مرحي بل دفعتني بعيدا بحركة اشمئزاز وهي تقول : ليس هذا وقت المداعبة . ولم أفهم شيئا بل قلت لها أن انطونيو قد قام بعمله على خير وجه ، واذا ذهبت الى حلبة الرقص بهذه الهيئة فسيعرض الكثيرون الزواج عليك .

– لكني قلت لك انه ليس مجال الضحك الآن .

– لكن لماذا ؟ ماذا حدث ؟ .

– لست أريد هذا الحلاق مرة أخرى .

– لكن لماذا ، انه يحلق على خير الوجوه ، وليس من الضروري أن يصفف شعرك مرة أخرى .

فانفجرت غاضبة : لماذا لا تفهمني ، ان المسألة ليست مسألة مهارته أو عدم مهارته .

ـ اذن ما هى المسألة ؟ .

ـ لقد كان وقحا ؛ لست اريد ان اراه مرة ثانية .

ـ لكنى لا افهم ، فهو رجل محترم جاد له اسرة .

ـ لقد قلت لك انه كان وقحا وهذا يكفى .

وازاء اصرارى لم تجـد بدا من أن تشرح لى كيف أن الحلاق كان يلمس كتفها وذراعها بجسمه أكثر من مرة اثناء تصفيفه شعرها ، وقد لاحظت أن هذه اللمسات لم تكن عفـوا بل كانت تخفى وراءها مأربا ، فقـد كان أنطونيو يبغى من وراء هـذه الحركات اقامة صلة بينه وبينها توحى لها بغرض غير شريف .

ـ ولكن هل أنت على يقين مما حدث ؟ ربما كان ذلك عرضا .

ـ لو أن ما حدث كان مرة واحدة لجاز أن يكون عرضا. أما وقد تكررت عدة مرات طوال الوقت ... كلا لم يكن عرضا .

وترددت أن أسأل سؤالا كان يتردد على شفتى ، ولكنى قلت ضاحكا لأهدئها :

ان هناك ما يغرى القديسين أنفسهم فمابالك بالحلاقين. يا لأنطونيو المسكين . لقد وجدك أمامه جميلة فثار بالرغم منه ، ولا شك أنه كان ينفر مما يحدث له نفورك منه تماما . فلا تلقى بالا الى هذه الهنة . ولست أستطيع أن أنظر نظرة جدية الى ما حدث وذلك لأنى على ثقـة من براءة أنطونيو .

وتكلمت أخيرا قائلة : ان ذلك كله لا يهمنى . ان ما أريد أن أعرفه هو هل أنت على استعداد لطرده ؟ .

ويبدو أن أنانيتي كانت قد بلغت ذروتها فى هـذه اللحظة . ذلك لأنى أعلم انه لا يوجد حلاق آخر فى القرية وانا لا أستطيع ان أحلق بنفسي ولا أن اذهب يوميا الى حلاق آخر . فلست أحب أن يختل النظام اثناء عملى الذى بدأته . ولهـــذا أجبتها بأننى لن اطرد الحـلاق .

وحين غادرتنى كنت مقتنعا بأن رأيى هو الصواب .

والواقع ان حادثه أنطونيو ما استأثرت بانتباهى فى ذلك الوقت على النحو الذى أسردها به الآن ، ولولا الحوادث التى تعاقبت بعد ذلك ماكنت لأذكرها بمثل هذا الاهتمام ، ويبدو أن هـذه هى نفس الطريقة التى بها يكتبون التاريخ ، فمن يكتب التاريخ انما يكتبه وفى ذهنه حوادث معينة قد أثرت على مجراه .

وعنـدما اقبـل انطونيو فى اليوم التالى قام بعمله كالمعتاد . وكان من الممتع أن أدرس الرجل على ضوء جديد . فلاحظت أنه تبدو عليـــه ملامح رب الأسرة النموذجى ، هذا الى أن وجهه كان من القبح بحيث لا يمكن أن يطمع فى أن ترضى به أية سيدة فما بال امرأة فى جمال زوجتى وثرائها . ثم بدا لى أن أسأله قائلا :

ـ لطالما تساءلت يا أنطونيو ما اذا كان رجل مثلك متزوج وله خمسة أطفال ، أن يجـد الوقت والفرصـة لمصاحبة النساء .

فأجاب بغير ان يبتسم ، وهو يتجه نحوى وموسه بيده .

ـ ان الوقت دائما موجود ياسنيور بالديتشى لهـذه

العلاقات بالذات .

واعترف أني قد توقعت اجابة مختلفة ، ودهشت دهشة واضحة ، وقلت معترضا :

ــ ولكن ألا تغار زوجتك .

ــ كل النساء غيورات .

ــ اذن فأنت لست مخلصا .

فنظر نحوى قائلا : معذرة ياسنيور بالديتشي ، فهذا شأنى الخاص .

واحمر وجهى خجلا ، وكدت أقول له : ان هذا شأنى انا أيضا لأنك ضايقت زوجتى ، ولكنى تمالكت أعصابى قائلا : اننى لم أقصد اساءتك يا أنطونيو .
فأجابنى : كلا بالطبع . ثم اردف قائلا : ان كل شخص يحب النساء يا سنيور بالديتشي واذا أتيح لك أن تنفذ الى أدمغة الناس لرأيت أن لكل رجل امرأة أو أكثر . ولكن أحدا لا يتكلم لأن الناس اذا عرفوا فانهم يثرثرون والنساء ــ كما تعلم ــ لا يثقن الا فيمن لا يتكلم .
وهكذا لقننى درسا فى سرية الحب ، وتركنى حائرا لا أعرف اذا ما كان هو نفسه واحدا من هؤلاء الذين

تثق النساء فيهم . ورأيت أن اغير موضوع الحديث ولكن الشك ظل يساورنى حتى انه حين اتى فى العصر الفلاح آنجلو الذى يحاسبنا مرة كل أسبوع ، سألته عن أنطونيو فأفهمنى أنه زير نساء ، وانه لا يتوانى عن معاكسة الجميلة والقبيحة ، المتزوجة والعذراء ، الصغيرة والكبيرة . وعندما انفردت بنفسى ادركت أن أنطونيو رجل داعر . وبدا لى أن الغموض الذى كان

بكتفه انطونيو قد تكشف لي . وهكذا وجدتني انافس دون جوان قرويا ، ومع ذلك فان هذا الكشف الجديد لم تكن نتيجته الا أن أكد لى رأيىالسابق فيما حدث : فأنا ما ازال اعتبر انه قد اتى ما أتاه بالرغم منه ، وأن ماضيه مع النساء هو الذى سهل محاولته .

وعندما قابلت زوجتى فى المساء لم أستطع أن أفاتحها بما اكتشفت ، ولكنى كنت أحس بالاثم لما أخفيه عنها ، ولهذا فعندما رأيتها ذات لحظة شاردة الذهن قلت لها :

ربما كنت ما تزالين تفكرين فى انطونيو واذا أردت أن نتخلص منه فانى سأفعل .

ولو انها طلبت منى الآن أن أطرده لفعلت . ولكنها اجابتنى قائلة :

— أفكر فى الحلاق ؟ كلا .. كلا ، الواقع انى نسيت كل ما يختص به .

وهكذا اتى انطونيو فى صباح اليوم التالى ، وحلق لى ثم مضى كعادته . ومضيت أنا فى عملى الذى كان يستوعبنى فى تلك الأيام ويصرفنى عن كل شيء آخر . أما عن زوجتى فانها لم تعد تهبط وتجلس معى اثناء وجود انطونيو .

وأخيرا أتى اليوم الذى كتبت فيه آخر كلمة وآخر سطر فى آخر صفحة من قصتى . وكنت قد ملأت حوالى مئة صفحة فى مدى عشرين يوما ، ولم أستطع الا أن أحس بأن هذه الصفحات تحوى أروع ما كتبت فى حياتى . ورأيت أن زوجتى — رغم جهلها بشئون الأدب — هى خير حكم على قصتى ، وكنت أدرك أن بقصتى نقائص لأنى لم أعد قراءتها وذلك لاننى كتبتها فى عجلة

ولكنني لم أشك في حيويتها ، وكانت هناك أمامي عقبات اهمها ان المخطوط مضطرب به تقديم وتأخير سيضطرني الى التوقف اثناء قراءته للرجوع الى صفحة غير التى اقرا فيها مما يقلل من جمال السياق ، ولهذا فقد رأيت أن اقوم بنسخها من جديد على الآلة الكاتبة ، وكنت قد أحضرت آلة كاتبة معى من روما ، ولكنى حين بحثت عن الورق تبين لي أنى نسيته بروما ، وكان لابد من الذهاب الى المدينة المجاورة لاحضار ورق آخر من المكتبة هناك . واعلنت لزوجتى رحلتى التى اعتزمت القيام بها صباح اليوم التالى ، ودعوتها من باب المجاملة لمرافقتى، وأقول من باب المجاملة لأن العربة ما كانت تتسع لكلينا . ولهذا شد ما كان ارتياحى عندما أعلنت اعتذارها وسألتنى :

ـ ومتى ستعود ؟ .

ـ سريعا جدا ، ساعة الغداء على أبعد تقدير .

ـ وما العمل اذا ما أتى الحلاق ؟ .

ـ سأعود بالتأكيد قبل مجيئه . فاذا حدث وأتى قبلى فاجعليه ينتظر ..

فلم تجب . ورأيت أن أغير موضوع الحديث . وكنا جالسين الى المائدة . وقد ارتدت ليدا ثوبا أبيض قصيرا رائعا كما تزينت بجواهرها الضخمة الثمينة . واتجهت نحوها قائلا : أنت جميلة جدا يا ليدا . ولم تجبنى ، ولم يبد عليها شيء من الاستياء ، فوضعت يدى على يدها وهمست قائلا : اعطنى قبلة . فرفعت عينيها ونظرت الى وسألتنى ببساطة لا سخرية فيها : هل انتهيت من عملك ؟ فأجبتها كاذبا : كلا ، ولكنى لا أستطيع

ان أنظر اليك بغير أن احبك وبغير أن أرغب في تقبيلك ، فايذهب عملي الي الجحيم . وجذبتها من ذراعها حتى مالت نحوى . وقاومت قليلا ثم أعطتني فجاة القبلة التي طلبتها ، وقبلنا بعضنا ــ وقد انقطعت أنفاسنا ــ في سرعة وكل منا يعتصر شفتى الآخر في عنف كأننا شابان لا خبرة نهما بالحب . وفي غمرة السعادة أخبرتها بأننى قد انتهيت من قصتى ، ولما بدا على وجهها الفرح ، شرحت لها كيف أنها لا تزال تحتاج الى كتابة على الآلة الكاتبة وانني لا أكون قد أنهيتها حقا حتى انتهى من نسخها . فصاحت فرحة : انها لحظة عظيمة . لابد أن نشرب نخب ذلك .

وشربنا وشربت الخادم معنا . ولست أذكر جيدا ما حدث في تلك الليلة ، فقد أخذت أشرح لها موضوع قصتي وكيف اتخذته من شخصيتينا ومن زواجنا . وكان التيار الكهربائي ينقطع عادة لأن وقت حصاد الزيتون قد حان ، فكان التيار يتحول الى المعاصر . ففتحت النافذة لأجد الظلام ممتدا أمامنا . وعند ذلك سمعت صوت زوجتي يقول : ألم يحن وقت النوم . لابد وان الوقت قد تأخر كثيرا .

وربما لم تكن زوجتي تعنى الا بأن يذهب كل منا الى غرفته ، أما أنا فقد رأيت ــ في نشوتي ــ أنها تدعونى دعوة الحب . فاتجهت نحوها قائلا : القمر رائع ، فلماذا لا نسير قليلا ؟ .

وهكذا خرجنا نسير في الليل الصامت العميق ، وأنا أضع يدى حول خصر ليدا حيث يأخذ ردفاها في البروز ، وظللنا نسير حتى شاهدنا منازل الفلاحين في أعلى التل . وظللنا نسير حتى وصلنا الى الأجران ورفعت

نظرى نحو ثلاث كومات ، وكانت احداهما كومة كاملة مصنوعة من القش الجديد الذى يلتمع فى اصفرار ، والاخرى بنية اللون وقشها أكثر قدما اما الثالثه فلم تكن كومة كاملة ، ورايت القمر يلقى ضوءه فى روعة على هده الكومات الثلاث . وواتتنى فكرة — أو بالأحرى رغبة — ذلك أن أتسلق الجرن مع لبدا وأن أدعوها هناك دعوة الحب ، على القش فى ضوء القمر . وبهذا اختم عملى ، وفى نفس الوقت أبدأ حياتى الزوجية . والواقع انى كنت جد مشتاق الى ليدا . فأخبرتها برغبتى فى تسلق الكومة فلم تمانع ، ومضينا نتسلقها معا . ولما وصلنا الى أعلى أخذنا نحدق فى الأرض المتسعة أمامنا وأنا أحتضنها من خصرها ، وفجأة جذبتها نحوى وأنا أهمهم : ليدا أليس هنا أفضل من غرفتك ؟ ولكنها قاومت قائلة : ان القش غير نظيف كما أنه شائك وعملك لم ينته بعد . وعندما تتمه سنأتى هنا ليلا .

وضحكت فى خفة ثم نزلت تعدو أمامى ، وعدوت خلفها حتى أمسكتها ثم قبلتها . وأحسست أن ضحكها قد هدأ كل رغبة فى ، فسرت بجانبها وأنا أقبض على يدها بشدة . وعندما وصلنا الى المنزل قبلت يدها وذهبت الى غرفتى وما لبثت أن استغرقت فى النوم . وفى صباح اليوم التالى ركبت فى عربة انجلو وذهبت الى المدينة وهناك اشتريت الورق الذى أريده ، ثم عدت أدراجى ، ومن نافذة المنزل رأيت ليدا تنتظرنى فلما رأتنى صاحت قائلة : لقد تأخرت ، كم الساعة الآن ؟ .

— انها الواحدة . هذه غلطة انجلو ، فقد تركنى وجلس يتسامر مع بعض أصدقائه . سأصعد لأحلق ثم أهبط ثانية .

وصعدت السلم فى سرعة ودخلت مكتبى فرأيت أنطونيو

ينتظرني . فقلت له : أسرع ، أسرع فالوقت متأخر جدا . ذلك انى كنت شديد الجوع لأنى خرجت بغير أن أتناول افطارى فى الصباح . أما انطونيو فكان يقوم بحركاته ببطء كالمعتاد وأنا أستحثه ان يسرع ، وهو يغطى ذقنى بالصابون ثم يعيد الفرشاة عليها مرة أخرى ، ثم ينحنى نحوى ويبدأ حلاقته ، وبخفته ومهارته أزاح الجزء الأكبر من الصابون عن الخد الأيمن ، وبدأ يفعل المثل فى الخد الأيسر ، وضغط جسده على ذراعى ، ولأول مرة منذ أخذ يحلق لى وجدتنى الاحظ هذه الضغطة ، وتذكرت اتهامات ليدا .

وفجأة ومن خلال اشمئزازى ، أدركت اشمئزاز زوجتى . وانتظرت لحظة آملا أن يبتعد ولكنه لم يفعل ، فتغلب على اشمئزازى فجأة ، وتراجعت الى الوراء بحركة سريعة ، وفى نفس الوقت أحسست بالموسى تقطع جزءا من خدى . وفجأة انصب غضبى على أنطونيو لسبب لا أدرى مصدره . وكان الآن واقفا ينظر الى فى تعجب والموسى فى يده وأنا أصيح فيه : ماذا فعلت ؟ هل أنت مجنون ؟ .

ــ ولكن يا سنيور بالديتشى ، أنت الذى قفزت فجأة .

ــ هذا كذب .

ــ ولكن كيف يمكن أن أجرحك بغير أن تتحرك ، ومع ذلك فليس الأمر خطيرا . انتظر لحظة .

وذهب ليأتى بقطعة قطن بعد أن غمرها فى الكحول . ولكنى صرخت فيه وأنا أخطف قطعة القطن من يده : كيف تقول أن الأمر لا خطورة فيه ، انه جرح كبير .

واتجهت نحو المرآة بينما كان الألم النارى الناتج من وضع الكحول يزيدنى غيظا ، فصحت فيه : أخرج

ولا ترنى وجهك مرة اخرى . لست اريد ان اراك مرة اخرى . هل تفهم ؟ .

ــ ولكن يا سنيور بالديتشى .

ــ هذا يكفى .. أغرب عن وجهى ولا تعد أبدا .. أخرج هل تفهم ؟ .

ــ وهل آتى غدا ؟ .

ــ لا غدا ولا أى يوم آخر .

ــ أمرك .

واتجه نحو الباب واختفى .

وعندما أصبحت وحدى بدأت تخف حدة غضبى . فأخذت الفوطة ومسحت بقايا الصابون التى كانت ماتزال على وجهى ووضعت قطعة أخرى من القطن مبللة بالكحـول واتجهت الى غرفة الطعام حيث كانت زوجتى تنتظرنى . ومضينا نأكل فى صمت ، ثم قلت لها : هل تعرفين ، لقد طردت أنطونيو ؟ .

وبغير أن ترفع عينيها عن صحنها سألتنى : وماذا ستفعل فى أمر حلاقتك ؟ .

ــ سأحاول أن أحلق بنفسى . لست أدرى ما الذى حدث له اليوم . لقد جرحنى جرحا فى طول أصبعى .

ــ وهل وضعت له دواء .

ــ نعم . والواقع أن الجرح كان مجرد سبب لطرده . ذلك أننى لم أعد أحتمله . لقد كنت على حق .

ــ ماذا تعنى ؟ .

ورأيتنى أذكر لها حديث الفلاح آنجلو عن أنطونيو ، ولكن بعد أن غيرت تاريخه فجعلته صباح اليوم .

فغيرت مجرى الحديث قائلة : وهل وجدت الورق ؟

فأجبتها : ليس ما أريده تماما ، ولـكنى سأبدأ بنسخ القصة اليوم . ولاحظت أن ذهنها شارد .

وعندما غادرتنى لتستريح ، ذهبت الى مكتبى . وهناك حاولت أن أنسخ الصفحات الأولى من قصـــتى ، ولكنى كنت مضطربا : أضع الكربون بالمقلوب مرة وأخطىء فى الحـروف مرة أخرى . فذهبت الى السرير لأســتريح بدورى . وعندما استيقظت كانت الفرفة مظلمة ، فلما خرجت منها رأيت أمامى زوجتى ، فتناولنا الشاى معا ثم خرجنا نتمشى معا بين الحقول . وجلسنا فى مكان معشوشب وزوجتى تقص على قصصا عن مغامراتهــــا الفرامية قبل زواجى بها . وأخيرا عدنا وصعدت زوجتى لتغير ملابسها بينما جلست أنا أستمع الى رقصـــة من رقصات موتزار . ورأيت ليدا أمامى فى ثوبها الأبيض القصير الذى كانت ترتديه الليلة الماضية . ثم أوقفت الجرامافون وقـالت : اذن ستبدأ طبـع قصتك هــذا المساء ؟ ونظرت الى نفسها فى المرآة وهى ترتب باقة من الورد فى شعرها . فأجبتها : نعم ، هذا المساء سأعمل الى منتصف الليل على الأقل ، فانى أريد الانتهاء منها فى بضعة أيام . ولاحظتها تسير وهى تقطع الفرفة جيئة وذهابا فى قلق ، فسألتها : ماذا بك ؟ فأجابت فى نغمة قلقة : اننى جوعانة . ألست جوعانا أنت أيضا ؟ .

ـ نعم ، ولكنى لا أريد أن آكل كثـــيرا والا فسرعان ما يراودنى النعاس .

ـ وما رأيك فى هذا الثوب ؟ .

ويبدو أنها ارادت بهذا السؤال أن تغير الحديث . فأجبتها :

ـ انه رائع ، أديرى ظهرك لأراه جيدا .

وعندما استدارت لاحظت أنها لم ترتد المشد هذا المساء ، وكانت عادة ما ترتديه لتحتفظ برشاقتها . ولم أكن احب هذا المشد الذى كان واضحا للعيان وكان صلب الملمس ، فقلت لها : انك لم ترتدى المشد هذا المساء . فأجابت : انني لم أرتده لأننى برمت به ، ولكن كيف لاحظت ذلك ؟ فأجبتها : لأنك كنت ترتدينه بالأمس .

وفى هذه اللحظة أعلنت الخادمة أن العشاء قد أعد ، فجلسنا نأكل ، ولكنى لاحظت أنها لا تأكل . فلما سألتها اجابت بأنها تحس أنها ليست على ما يرام وتود أن تذهب الى غرفتها . وسألتها ما اذا كانت تحس بسخونة فأفهمتنى أنها تحس بتعب نسائى . فطلبت منها أن تأتى وتقبل لى بشفتيها الصفحة الأولى من قصتى لأتفاءل بقبلتها . وبعد أن قبلت الصفحة ودعتها . ثم مضيت الى عملى . ولكنى كنت كلما حاولت أن أقوم بالطبع احسست بتفاهة عملى . وفى غمرة اليأس فكرت أن أنادى على زوجتى . وفتحت باب المكتب وعبر الممر ووجدتنى أمام بابها . وطرقت الباب ولكنى لاحظت انه موروب فقط فدهشت لسبب لا أدريه من هذا الوضع الحذر للباب ، ولم أجد ردا على طرقاتى ، فدفعت الباب بعد أن انتظرت مدة مناسبة ودخلت .

وكانت الغرفة مظلمة فأضأتها ، ووجدت السرير خاليا ولاحظت أن الغرفة تعبق برائحة السجاير وأن بقايا السجاير ما تزال فى المطفأة مما يدل على أن زوجتى غادرت غرفتها منذ لحظات . وانتابنى شعور بالمضايقة ، فاذا كان النوم لم يواتها ورغبت فى الخروج فلماذا لم تطرق بابى وتخبرنى بذلك ؟ ولماذا خرجت وحدها ؟ وخرجت بدورى فى الخلاء أمام الباب . وكان ضوء القمر

قد ذكرنى بالليلة السـابقة التى امضيتها مع زوجتى .
وفجأة عاودتنى الرغبة فى ان احقق الآن ما لم استطع
بالأمس تحقيقه . وبينما انا سائر اذا بى ارى ليدا ،
والواقع انى لمحتها فقط ، لمحت ثوبها الأبيض وعنقهـا
العارى وشعرها الذهبى ، ثم اختفت وتأكدت انها ذاهبة
تجاه أبنية المزرعة ، فانتابتنى النشوة لأنها تتجه ناحية
الجرن ، ناحية المكان الذى أريد أن أتمتع فيه معها كأنما
هى على موعد وهى لا تدرى أن هـذا الموعـد معى ..
ووصلت الى الأبنية وهى تكاد تعـدو ، وعنـدما وصلت
الى هناك بدورى وقفت ، وقد أذهلنى احساس داخلى
لم أستطع له تفسيرا . واستطعت أن أراها الآن تتسلق
المنحدر نحو الجرن حيث تقف كومات القش الثلاث .
وكانت تتسلق متشبثة ببعض الأعشاب النامية ، حتى
لقد خيل لى أنها عنز تتسلق منحدرا بحثا عن الطعام .
وحين وصلت الى القمة ظهر شبح رجل منحنى أمسك
بذراعها وجذب جسمها كله تقريبـا . وعنـدما التفت
الرجل ليسندها عرفت فيه أنطونيو .

وادركت الآن كل شيء . ولم أكن أود مشاهدة المنظر ،
وبالرغم من ذلك فقد وقفت أحدق فى شراهة بعيـون
قلقة . كانت ارض الجرن كأنها مسرح مرتفع أضاءه
القمر . ورأيت الرجل يحاول ان يجذبها نحوه وهى تقاوم،
وسقط ضوء القمر على وجهها . ثم لمحت فمها مفتوحا
نصف فتحة فى ضحكة فاترة تدل على الاشمئزاز وعلى
الرغبة معا . وأوحى لى جسدها المنتصب برقصة . وكان
أنطونيو ما يزال يحاول أن يجذبها نحوه . ووقفت على
اطراف أصابعها . وعاودتنى فكرة الرقصة من جديد .
وسقط ضوء القمر عليهما ، وبدا كأنما يقومان برقصة

معا ، وهو منتصب ساكن وهى تدور حوله ، رقصة بلا موسيقى وبلا قواعد ، ومع ذلك فهى تخضع لوقع مجنون خاص . وأخيرا حملته على أن يفقد توازنه ، واستجاب هو لذلك برغبته ووقعا معا مختفيين فى احدى الكومات . وأسفت لاختفائهما . ولقد لاحظت أننى بالأمس رغبت فى أن استمتع بزوجتى على القش وفى ضوء القمر ورأيت الآن أننى كنت على صـــواب ، ولو أن شـخصا آخر قد احتل مكانى فى اللحظة الأخيرة ، وقد استطعت بغريزتى ان أتكهن بجمال هــذه الضــمة ، ولــكن الضمة تمت بدونى .

ورجعت أعدو الى الفيللا وأنا أفكر فى سباق الحوادث . لقد كانت زوجتى مخلصة فى غضبها من الحلاق ولو أن غضبها المفرط كان يخفى وراءه بداية رغبة وانجذاب لا شعوريين . والواقع أنها حين طلبت منى أن أطرد الحلاق انما كانت تحاول مقاومة نفسها أكثر ممـــــا كانت تحاول مقاومة الحـلاق ، ولـــكنى ــ بأنانيتى ــ لم أدرك ذلك ولم أفكر الا فى راحتى ، وتقبلت هى الوضع بدافع من ارادتها الطيبة . ولكن الرجل الذى كانت تحبه لا شعوريا ظل يأتى المنزل يوميــــا ، وفى أثناء زيارتى للمدينة أعطيتها الفرصة لتعرف حقيقة احتقارهاالحلاق . فلقد أتى قبل وصولى وتفاهمت معه بطريقة ما تفاهما فجائيا وتاما ونهائيا وتواعدا على اللقاء مساء فى نفس المكان الذى حاولت أن أنام معها فيه . وكانت على ثقة من أنى سأكون مشغولا بعملى فى ذلك الوقت ، وكانت تقص على قصص مغامراتها الغــرامية السـابقة بعد أن أعاد لها ذكرياتها هذا التواعد على اللقاء مع أنطونيو . وفى المساء حرصت ألا ترتدى المشد حتى تكون أكثر خفـــة وأكثر

تجردا . ولم تخف قلقها أثناء تناولنا العشاء ، ولابد أننى كنت أعمى ، لأننى لم أدرك أن سبب انعدام شهيتها هو تلك الشهية الأخرى التى كانت لها السيطرة. وخوفا من ألا أتركها فى مثل هذه الحالة حملتنى على الاعتقاد بأنها تعانى اضطرابها الشهرى . وبينما أغلقت على نفسى باب مكتبى كانت هى تنتظر ثلاث ساعات متواليات وهى تدخن سيجارة بعد أخرى . وعندما حان الوقت مضت تعدو الى موعدها،وكانت تلك الرقصة التى شاهدتها هى الانفجار النهائى لشهوتها العنيفة التى كبتت طويلا .

ولقد لاحظت أن فى سلوك زوجتى تصرفات مؤقتة تظهر فجأة من أماكن مجهولة ثم تختفى مرة أخرى كأنهار الصحراء ، فأنا لم أخبر أبدا بمعرفتى بعلاقتها بأنطونيو ، فعد هذا دليلا آخر على ضعفى وعدم قدرتى وعجزى . لقد كان حصولى على كتابتى وعلى زوجتى من خلال الشفقة والعطف والاحسان والارادة الطيبة ، ولا يمكن لهذه العواطف أن تؤدى الى الشعر أو الحب ، بل انها تؤدى الى موضوع انشائى مزخرف ، أو مجرد سعادة فاترة ، فليس من نصيبى أن أقوم بعمل رائع ، ولا من نصيبى تلك الرقصة على الأرض بالجرن . لقد قدر لى أن أكون رجلا عاديا الى الأبد . وفكرت أن اكتب خطابا الى زوجتى ثم انتحر ،ولكنى وجدت ان دموعى قد بللت ما كتبت فشوهته . وأدركت أنه لن تكون لدى الشجاعة أبدا لارساله . وفى هذه اللحظة أدركت ضعف شخصيتى وعجزها وشذوذها وأنانيتها وقد تقبلت شخصيتى هذه بكاملها . وفكرت ان أغير من شخصيتى ما دمت قد عرفتها الليلة ، وهدأتنى هذه الفكرة وقمت

وغسلت عينى المحمرتين ووقفت فى النافذة ، فلمحت زوجتى مقبلة كأنها حيوان برى صغير ، كثعلب أو عرسة عائدة الى حجرها بعد قيامها بغارة على عشة دجاج . ورفعت عينيها نحوى حتى التقت بعينى ،فخفضت رأسها فى الحـال ودخلت المنزل ، وتراجعت أنا بدورى من النافذة وذهبت لأجلس على الـكنبة .

وبعد لحظة فتح الباب ودخلت منه . وأدركت من هذه الحركة العدائية لونا من الدفاع عن نفسها . ولم اتمالك الا أن أبتسم . وسألتنى وهى ما تزال ممسكة بمقبض الباب :

ماذا تفعل .. ألا تعمل ؟ فأجبتها بغير أن أرفع رأسى .. لا . فقالت توضح لى شيئا لم أستفسر عنه : لقد خرجت أتمشى فى المنتزة ، لم أستطع النوم ، لكن ماذا بك ؟ فبذلت جهدا وأنا أقول لها : لقد اكتشفت هـذه الليلة اكتشافا .. اكتشافا حاسما .. سيكون له أثر كبير فى حياتى .

ونظرت اليها .. كانت واقفة بجـوار المـكتب وهى تحدق فى الآلة الكاتبة مقطبة وتنظر نظـرة غاضبة ثم سألت فى صوت مرتفع : أى اكتشـاف ؟ اذن فقـد كانت على استعداد للمجادلة، مما ذكرنى ببعض الحشرات التى التى تتأهب دفاعا عن نفسها فى حالة الخطر وذلك بأن تقف على أرجلها الخلفية . فأجبتها : لقد قرأت قصتى ، انها لا تستحق شيئا . لن أكون كاتبا على الاطلاق .

لقد فكرت منذ ساعة أن أقتل نفسى .

ولاحظت اننى كنت أفكر فيها طوال الوقت ، فرداءة القصة لا تهمنى .. وشعرت بطعنة حادة من الألم عندما لاحظت آثار فعلتها مع انطونيو . فشعرها كان مضطربا،

وكان هناك بعض القش فيه ، وباقة الورد لم يعد لهـا وجود .

وادركت انها ارادت ان تظهر أمامي بهذا المنظر فقد كان باستطاعتها ان تذهب الى غرفتهــا اولا وتغير من هيئتها . وأحسست بألم جديد لهـذه الفكرة بينما كانت تقول : تقتل نفسك ؟ هل انت مجنون ؟ ولمجرد قصة لم تنجح في كتابتها ؟ وترجمت ذلك عقليا الى قولها : لمجرد لحظة نزق ؟ لأنني لم أستطع مقاومة اغراء عارض ؟ ولكنى أجبت : أنا أعرف أني فاشل ولدى البرهان على ذلك فى هذا المخطوط . وعندما قلت ذلك اشرت اليها بلا ارادة بدلا من أن اشير الى المخطوط . وادركت هـذه المرة وخفضت عينيها فى اضطراب . وسمعتها تسأل فى صوت مرتعش على غير توقع : لماذا انت فاشل ؟ انك لم تفكر فى أذن .

– وماذا تستطيعين عمله من أجلى ؟ أنت لا تستطيعين أن تعطينى الموهبة التى أحتاج اليها .

– كلا ، لا أستطيع ، لكنى أحبك .

– وأنا أحبك أيضا ، ولكنى أخشى الا يكون هذا كافيا لتستمر حياتى .

وقالت بصوت عاطفى :

– هنا انهض . هل تعلم ماذا سنفعل الآن ؟ سأذهب لأخلع ملابسي واذهب الى السرير وتستطيع اذ ذاك أن تأتي وتقرأ على قصتك . وسنرى اذا كانت رديئة حقا .

وعندما ذهبت الى مكتبى كنت أقول لنفسى أن ارادتها الطيبة تتغلب الآن ، ولا شك أنها مخلصة فيما تقول . سأقرأ لها قصتى فان امتدحتها فسأعلم أنها تخدعنى طوال الوقت وستظل تخدعنى . أما اذا رات غير ذلك

فسادرك انها تحبني ولو كان هذا النوع من الحب الذي يعتمد على الارادة الطيبة . وتساءلت أي الطرفين عساها تختار . انها اذا قالت بأن قصتي جيدة فسأصرخ فيها قائلا : ان قصتي رديئة . وأنت لست الا عاهرا .

وانتهيت أخيرا من قراءتى وسمعتها تقول : ربما كنت على حق ، فالقصة ليست رائعة ولكنها ليست بالرداءه التي تتصورها انها شيقة لمن يسمعها .

وارتحت الى اجابتها ارتياحا عظيما وأنا أقول لها : الم اقل لك ذلك ؟ .

ـ ولكنها مكتوبة كتابة جيدة .

ـ ولكن الكتابة الجيدة لا تكفى .

ـ ربما لم تجهد نفسك فيها جهدا كافيا . اذا أعدت كتابتها ـ ربما أكثر من مرة اذا تطلب الأمر ذلك ـ فستصل فى النهاية الى ما تريد .

لقد كانت تعتقد أن الارادة الطيبة لها قيمتها فى الفن أكثر مما للفريزة . فأجبتها : « ولكنى أحتاج الى الالهام ، فبغير الالهام لا أستطيع شيئا » .

ـ وهذا هو الخطأ فى تفكيرك . ان الأمور لا تتم بمعجزة فلابد من العمل والتعب .

واستمر نقاشنا مدة حتى قلت لها فى النهاية : لن نتكلم فى هذا الموضوع بعد الآن .

وقبلتها قبلة المساء ثم ذهبت الى مخدعى ونمت نوما عميقا ، كنوم طفل ضربه والده لخطأ اقترفه وصرخ وبكى مدة طويلة ثم عفا عنه . وفى الصباح التالى قمت متأخرا ، وحلقت لنفسى ، وبعد الافطار اقترحت على زوجتى أن

نتمشى قليلا قبل الغداء ، فوافقت وخرجنا معا حتى وصلنا الى أطلال كنيسة صغيرة ومضينا نتسلقها . وبينما نحن نشاهد المناظر المختلفة التفتت ليدا نحوى تقول :

ـ اسمع ، لقد كنت افكر الليلة الماضية فى قصتك ؛ انى أعرف سبب ضعفها .

ـ ما هو .

ـ لقد أردت أن تعبر عنى وعنك ، أليس كذلك ؟ ؛

ـ نعم الى حد ما .

ـ ان وقائعك التى بدات بها كانت خاطئة . أعنى ان الانسان يحس أنك حين كتبت القصة لم تكن تعرفنى المعرفة الكافية ، ولا تعرف نفسك كذلك . ربما تسرعت فى الكتابة عنا وعن علاقتنا ، ولا سيما عنى أنا ، فلم تظهرنى على حقيقتى . لقد تساميت بى كثيرا .

ـ وهل ثمة شيء آخر .

ـ كلا لا شيء آخر ، أظن أنه بعد قليل ، حين نعرف بعضنا أكثر ، يجب أن تعيد نظرك فى القصة مرة أخرى ، كما قلت فى الليلة الماضية وأنا على ثقة أنك ستخرج منها بشيء جيد .

فلم أقل لها شيئا ، كل ما فعلته انى ربت على يدها . ثم همست بهدوء :

ـ سيستغرق ذلك وقتا طويلا .

من أدب الرحلات

مذكرات شاب مصرى يغسل الأطباق فى لندن

أول صلة لى بأدب الرحلات كانت عن طريق سلسلة مؤلفات المرحوم محمد ثابت وكانت بعنوان « جولة فى ربوع ... » ثم يأتى ذكر البلد أو القارة . ومن خلال هذه السلسلة كان أول تعرفى على دول غير مصر ، وكنت

معجبا فى سن مبكرة بهذا الرحالة الذى يطوف ببلاد الدنيا مما غرز فى نفسى هوايتين : أولاهما قراءة أدب الرحلات قديمها وحديثها ، فقرات رحلات لبعض قدامى العرب وبعض الأجانب ، ومنها رحلات الى بلادنا ، وفى مثل هذه الرحلات الأخيرة أنت لا تتعرف على بلدك بقدر ما تتعرف على رأى الرحالة فيه . أما الهواية الأخرى فكانت اثارة الشوق الى القيام برحلات مماثلة .

وكتاب حسين قدرى يوضح ما تطور اليه أدب الرحلات فى أدبنا المعاصر ، فبالرغم من أن مؤلفه قام بعدة رحلات سابقة الى لندن ، الا انه قام برحلته الأخيرة بهدف تدوينها . وهو لا يقصد تعريفنا ببلاد الانجليز ،

بل انها رحلة أكثر تخصصا ، انه يريد أن يقدم لنا عاصمة تلك البلاد من خلال تجربة طالب مصرى لم يذهب للسياحة والفرجة ، بل ذهب للعمل خلال شهور أجازته الصيفية ، وقد تطلب ذلك من المؤلف أن يتخلى عن مهنته الحقيقية وهى مهنة الصحافة ، وأن يتنكر فى شخصية طالب مصرى ليمر بالتجربة كاملة ويقدمها لقرائه . وهى وان كانت رحلة مفيدة للطالب المصرى خاصة ، فانها يمكن أن تكون رحلة ممتعة للقارىء العربى عامة . ومن هذا نرى كيف أصبح أدب الرحلات أكثر تخصصا بحيث يقتصر على مدينة واحدة ومن وجهة نظر فئة معينة ، يتقمص المؤلف شخصيتها خصيصا لكى يحقق هدفه مما يكتب ، وان كانت قدرة الكاتب الأدبية وثقافته الرحبة استطاعت أن تجذب اليه جمهور قراء أوسع .

فالرحلة تصطنع فى بدايتها ـ على الأقل ـ أسلوب القصة . فهى تضعنا فى لندن مباشرة بعد مقدمة وجيزة يقدم لنا فيها المؤلف نفسه : حسين قدرى مع مجموعته المكونة من ثمانى طلبة وطالبتين ، المفروض أنه أستاذهم . وبعد أن تنتهى الفصول الثلاثة الأولى ونحن نرافق المجموعة فى مغامراتها للبحث عن عمل ، نعود فى الفصل الرابع الى ما قبل ذلك كله ، فيذكر لنا المؤلف كيف نشأت لديه فكرة الرحلة أصلا منذ ثلاث سنوات ، ثم ما حدث فى سبيل تنفيذ الفكرة حتى وجد نفسه فى النهاية فى لندن فى الفندق الذى يعمل فيه « بورتر » وترجمتها حمال أو بواب .

أما أسلوب الكتاب فيتميز بالبساطة والتشويق ، واستخدام اللفظ العامى حين يكون أوقع من استخدام

الفصحي في بعض المواضع القليلة ، مثـــال ذلك حين يتحدث عن اختلاط الجنسين علي بعضهما بحيث لم تعد تعرف الولد من البنت فيقول : « البنت عارية والولد ناعم وبايش وانثوى ، والميـــاعة اقتسمها الطـــرفان بالتساوى ... كلاهما مايص ومايع وسايح ونايح ، ولو وقع على الأرض ماحدش حيعرف يلمه ويرجعه زى ماكان (ص ١٠٩) . ومثل قوله : « ناس سهلين جدا أو بسطاء جدا فى تعـاملهم دون عقـــد ولا فيونكات ولا كلاكيع (ص ١٩٩) . كما انه يستخدم اللفظ الذكى فى أكثر من موضع مثال ذلك وصفه مجموعة من الشقراوات بأنهن كن يدخلن الفنـــدق « زرافات وغزالات » اشارة الى التعبير العربى المعروف « زرافات ووحدانا »» . وواضح ان كلمة زرافات الأولى جمع للحيـــوان المعروف باسم الزرافة أما زرافات الثانية بمعنى مجمـــــوعات بضم الزاى . اما الفكاهة فهى تشيع جوا من المرح من أول الكتاب الى آخره .

ومن الطبيعى أن يقارن كل من سافر الى بلد أجنبى بين بلده والبلد الذى سافر اليه . ولهذا فان صيحة مؤلفنا الأثيرة من حين لآخر تكون حينا « يا حلوة يا بلدنا ، يا رخيصة يا بلدنا » . وتكون حينا آخر « يارب يارب يارب ، قبل أن أموت أرى بلدنا وقد وصلت الى واحد على المليون من هذا النظام وهذا الانضباط » . ومعنى هذا ان حسين قدرى يحاول ان يقف موقفا موضوعيا ، وان كان جانب الاعجاب أكثر من جانب النقد ، ومعظم الاعجاب ينصب على النظام والدقة والنظـافة والجمال والأمانة . أما جانب النقد فلعل أكثره ينصب على جانب التحرر الجنسى الذى زاد عن حده الى درجة أن يكون

من مهمة الفندق تدبير الترفيه الجنسى تلبية لرغبة نزلائه ،

ومن المهم ملاحظة ان النظام والدقة ليسا نتيجة الوعظ والارشاد بقدر ما هو نتيجة لتنظيم تكنولوجى لفرض هذا النظام - بحيث يصبح فى النهاية عادة تستمر حتى فى غياب هذه التكنولوجيا . من أبرز الأمثلة على ذلك الضمانات الموضوعة فى الفنادق حتى لا « يصهين » المنوط بهم حفظ الأمن فى الفنادق — لا سيما ليلا — كسلا أو انشغالا . فالمكلف بحفظ الأمن يحمل معه ساعة ذات شكل خاص تشبه المنبه بداخلها شريط ورقى يشبه شريط الآلة الكاتبة وبها فتحة تتسع لمفتاح معين ، وفى أرجاء الفندق الذى يعمل به رحالتنا اثنان وعشرون مفتاحا موزعة من هذا النوع ، وكل مفتاح محفور عليه رقم مسلسل من ١ — ٢٢ . يوضع المفتاح فى الساعة ويديره الحارس فيختم الرقم المحفور على أسنان المفتاح على الشريط الورقى الموجود داخل الساعة كما يختم كذلك الوقت الذى تم فيه المرور على هذا المفتاح . وهذه المفاتيح موزعة على أرجاء الفندق بتسلسل خاص بحيث أنه عند الانتهاء من ختم المفاتيح الاثنين والعشرين جميعها يكون قد تم المرور على كل شبر فى الفندق . ويتم تنفيذ هذه الجولة ثلاث مرات كل ليلة .

وعندما تعرض المؤلف لموضوع أكشاك التليفونات العمومية ، وكيف أن فى كل شارع وفى كل محطة مترو عددا من هذه الأكشاك المتقاربة وكيف أنه حين « يعصلج » رقم معك فانك تطلب رقما مثل رقم ١٦ ، ١٨٨ فى القاهرة ، كل الفرق انهم يردون عليك هناك على الفور وبأدب شديد ويوصلك بالرقم المطلوب ويشكرك

فهو قبل أن يخرج من الخط ولا ينتظر حتى أشكره أنئذ ، ثم يعلق قائلا : عقبالنـــا يارب فى التليفونات ، وفى الأدب .

ولئن كانت الرحلة الى الخارج تجربة مفيدة بغنمها وغرمها لشبابنا ، فقد اتضح من حديث سفيرنا فى لندن (كمال الدين رفعت وقتئذ) مع حسين قدرى أن معظم شبابنا يذهبون الى لنـدن و (أوروبا بوجه عام) جريا وراء الجنس أو المال ، ولكن ما لا يخطر لهم على بال هو أن يستفيدوا اسـتفادة ثقـافية : علمية وفنية ، فـلا يفكرون فى زيارة المتاحف والأماكن الأثرية والتى بدونها تكون الاستفادة من الرحلة فى أضيق الحدود .

ان كتاب مذكرات شاب مصرى يغسل الأطباق كتاب ممتع حقا ، وهو تشويق وتحذير معا لشبابنا اذا هموا بالسفر الى الخارج ، فهو يدلك على ما فى هذه الرحلات من متع وفى الوقت نفسه ينبهك الى أن الحكاية ليست بالسهولة التى يظنها البعض وان كانت ليست بالصعوبة التى يظنها البعض الآخر ، انما هى تحتـاج الى ارادة ولباقة واستعداد قبل السفر بسلاحى اللغة والثقة فى النفس .

لقد أمتعنى كتاب حسين قـدرى بجـدية موضوعه وخفة دم أسلوبه ، وفى مكتبة بيتى زاوية أضع فيهـا الكتب التى يمكن أن أرشـحها للقراءة لأى شخص غير متخصص وأنا واثق انهـا ستحقق له هدفين يندر أن يجتمعا : المتعة والفائدة . ولقد وضعت « كتاب مذكرات شاب مصرى يغسل الاطباق فى لندن » لحسـين قدرى بين هذه المجموعة من الكتب ، مهنئا نفسى بصدوره فى مكتبتنا العربية .

راكبان على السفينة

حسين قدرى يمثل الحلقة المعاصرة فى سلسلة رحالتنا الأدباء ، وللرحلة تاريخ طويل فى مكتبتنا العربية كانت اساسا لكثير من الاكتشافات الجغرافية التى يدين بها العالم للعرب ، كما كانت وسيلة للتعرف على شعوب جديدة ذات عادات مختلفة أوحت لأدبنا الشعبى بصفة خاصة بكثير مما يتميز به على نحو ما نجد فى القصص البحرية فى ألف ليلة وليلة . ويجىء القرن العشرون فنقرأ لهؤلاء الرحالة الرواد أمثال المرحومين أحمد حسنين باشا ومحمد ثابت ثم الدكتور حسين فوزى أطال الله عمره ، ثم تأتى فى نهاية السلسلة حسين قدرى ليمثل لنا الرحالة الأديب فى صورته المعاصرة . فللصحافة أثرها الكبير فيما يقوم به من رحلات وفيما يكتبه فيما بعد عن هذه الرحلات ، وهو أثر لم يكن له وجود فى رحلات روادنا السابقين ، فرحلات حسين قدرى — وان كانت بدافع داخلى كما كانت عند السندباد وكأنما يقول مثله بعد كل رحلة : فاشتاقت نفسى الى السفر والفرجة ... والنفس أمارة بالسوء — أقول انه بالرغم من هذا الدافع الداخلى الذى يبدو انه لا يقاوم عند البعض الا انها فى النهاية تصبح بتكليف من المجلة التى يعمل بها ، ومن ناحية أخرى فان أثر الصحافة يبدو فى أسلوب

الرحلة عند كتابتهـــا لأنه ينشرها على قراء مجلته على حلقات أولا ثم يجمعها فى كتاب فيما بعد . وقد سبق لحسين قدرى أن قدم للمكتبة العربية عدة رحلات هى : رحلة الى جزر الكناريا ، دار المعارف ١٩٧٣ ـ مذكرات شاب مصرى يغسل الأطباق فى لندن ، سلسلة اقرأ ، دار المعـارف ١٩٧٤ ـ رحلة الى دولة ترانزســتور ، دار الشعب ١٩٧٤ . وهو فى كل رحلة يحاول أن يكون موضوعها مبتكرا لم يسبقه اليه أحد ، كما يحرص على أن تلقى رحلته ضوءا على جانب لولاها لظل مجهولا لدى قرائنا .

فموضوع رحلتنا ـ راكبان على السفينة ـ هو صيد السمك فى مناطق اعالى البحار فى المحيط الأطلنطى عبر البحـر الأبيض المتوسط ، وهى رحلة استغرقت ثلاثة شهور تبدأ من الاسكندرية وتنتهى فى الاسكندرية مرورا بجزر الكناريا الأسبانية الجنسية الافريقيـة الموقـع ، وكانت الرحلة على سفينة اسمها برنيس احـدى سفن ثلاث تابعة للشركة المصرية لمصايد أعالى البحار .

وتتسم مقدمة رحلتنا بالتقديم والتأخير ، فهى تبـدأ ببداية الرحلة الفعلية على ظهر السفينة ، فاذا اطمأن الى أن قراءه أصبحوا معه على ســـفينته رجع بنا الى الوراء شهرين ليخبرنا كيف تم تدبير هذه الرحلة ، حتى اذا أشبع فضولنا عاد ستأنف معنا رحلته الغامضة .. الى المجهول على حد تعبيره .

وتتكشف لنا الرحلة عن أول سمة تتسم بهـا وأول هدف من أهدافها وهو **النقد** ، النقد المقنع حينا والسافر أحيـــانا أخرى . فمـا أن تركت السـفينة الرصيف وبدأت تتحرك متراجعة الى الخلف بظهرها لتعدل نفسها

وتتجه بمقدمتهـا فى اتجاه البحر حتى تعطلت فجـأة آلاتها ، وكاد يتسبب ذلك فى كارثة اصطدامها بسفينة اخرى أجنبية راسية فى المياه . وكما تعطلت الماكينات فجأة عادت الى الدوران فجأة ، ولم تـكد تمضى دقائق اخرى حتى تعطلت مرة ثانية مما اضطر القبطان الى اصدار الأوامر بأن تعود السفينة الى داخـل الميناء حتى يتم فحص الماكينات واصلاحها . بينما خرج كبير المهندسين العجوز من غرفة الآلات يصيح راجيا أن تستمر السفينة فى طريقها الى البحر بدعوى أن اصـــلاح العطب لن يستغرق أكثر من عشر دقـائق أخرى ؛ ثم اتضـح أن الاصلاح استغرق اثنتى عشرة ساعة كاملة .

وان القارىء ليتسـاءل كيف يمكن أن يحدث هـذا العطل والسفينة لم تكد تغـادر الميناء ؟ وكيف يطمئن ركابها الى رحلة طويلة فى أعماق المحيط وهذه بدايتها ؟ ولماذا لم يتم الكشف عليها واصلاحها بالدقة المطلوبة من قبل ؟ على اننا سنجد عشرات العيوب ـ والتى سببها الاهمال وعدم الاكتراث ـ فيما بعد .

من ذلك مثلا أن السفينة عليها اثنان وثمانون فردا وبها قاربان فقط للنجاة مفروض أن يتسع كل منهمـا لنصف هذا العدد ، وهى قوارب نجـــاة ساذجة ذات مجاديف يدوية فى ســـفينة حديثة عمرها سنتان فقط تعمل بالمحيط الاطلنطى فى أعالى البحار فى القرن العشرين على حد تعبير المؤلف عن دهشته .

والسفينة التى خرجت فى رحلة صيد تتكلف واحدا وخمسين ألفا من الجنيهات والمفروض أن تعود بحصيلة سمك ٦٨٫٢٠٠ جنيـه ، خرجت وليس بهـا شبكة صيد على أساس أن شبكة صيد ستصلها قبل أن تصل

الى جبل طارق، ومع ذلك فقد وصلتهم الشبكة متأخرة اربعة أيام كل يوم تتكلف ٨٥٠ جنيها أى ٣٤٠٠ جنيه ضاعت على السفينة فى انتظار الشبكة التى حصلت عليها اخيرا « شحاتة » من احدى السفن الأجنبية القريبة .

وتقوم السفينة وبها مئة طن من المياه العذبة ، ومع ذلك تعود وعليها تسعون طنا ، ولا تصرف المياه الا بالتقتير الشديد الذى يضايق ركابها دون سبب معقول حتى اصبح الاستحمام بل الشرب نفسه اخيرا ترفا يتعذر الحصول عليه .

كذلك خرجت السفينة الى الصيد وهى تنقصها ماسورة معينة صغيرة وان كان دورها كبيرا ، فهى الماسورة التى يوصل على طريقها غاز الفريون ٢٢ الى ثلاجات تجميد السمك ، وبغير هذه الماسورة لا يمكن توصيل الغاز الى الثلاجات وبالتالى لا يمكن تثليج السمك .

وهكذا عشرات العيوب التى يكتشفها حسين قدرى اثناء رحلته ويشير اليها بل ويفرد لها صفحات وهو يعددها واحدة بعد الأخرى . وليس كل النقد منصبا على السفينة التى يركبها بل ما يتضح له من عيوب لا تظهر الا فى رحلة كهذه وهو على مثل هذا البعد من الوطن . فهو يفتح الراديو ويسمع احد مطربينا يسرح بحبيبته وبأن الهوى هواه وانه مشغول جدا ببناء قصر عال من أجلها . ويعلق رحالتنا على مثل هذه الأغنية قائلا : فى مثل هذا الفراغ الطويل ، فى الوقت وفى مدى البصر وفى الجو المحيط بنا ، يصبح لدينا متسع من الوقت لنتأمل تفاهة وركاكة الكلام الذى يغنيه مطربونا ،

أما السمة الثـــانية التى تتكشف عنها الرحلة فهى وما تقدمه لنا من معلومات . فالى جانب ما عرفنـاه من أرقام عن تكاليف رحلة السفينة وما يفترض أن تعود به من كمية الأسماك التى تصطادها وما يتوقع عن ذلك من أرباح ، فان رحالتنا يقدم لنا معلومات عن الشبكة التى تستخدمها السفينة ، وهى لا تشبه فى شيء شباك الصيد البدائية المعروفة التى يستخدمها صيادونا فى النيل أو بالقرب من شواطيء الاسكندرية ، ويكفى أن نعرف أن القبطـان يستخدم جهاز رادار يكشف له السمك فى قاع المحيط تحت السفينة وهو فى طريقـه الى مصيره المحتوم داخل الشبكة . وأن طولها يصـل الى خمسين مترا وطول فتحتها خمسة وعشرين مترا بعرض عشرة امتارا وأنهـــا أشبه بالقرطاس .. الخ .. ثم يشرح طريقة الصيد وفرز السمك حتى وضعه فى الثلاجات والجراجات الثلجية وانواع السمك المختلفة التى يتم اصطيادها . وهنا نلمح لمسة انسانية ، ففى اللحظة التى كان يشهد فيها رحالتنـا فرح المشتغلين على السفينة بكمية ما اصطادوه فكر فى الطرف الآخر : السمك لابد وأن يكون حزينا شديد الحزن والكدر . فقد انتهت حياته على هذه الصورة التى لم يكن يتوقعها وهو يمرح ويرتع فى وسط المحيط الهائل ، وكما لا تدرى نفس بأى أرض تموت فلا تدرى سمكة بأى أرض تؤكل .

سمة ثالثة من سمات هذه الرحلة هى قدرة كاتبهـا على تقديم **شخصياته** لا سيما بأبعادها النفسية . فهـو يقدم لنا قبطان السفينة ، عبد السلام داوود وكيف يجمع بين الانسانية والحزم ، وكيف أن موهبة الصيد لديه تأتى بنتائج افضل مما تعلمه الخبراء الأجانب ، حتى أن

سفن الصيد الأجنبية تركت طريقتها العلمية المدروسة التى كانت تصطاد بها وراحت تصطاد بطريقــة الشيخ داوود « الهمايونية » .

ثم يقدم لنا كبير المهندسين العجوز حنا يوسف مينا او حنا يعلم الله ، نسبة الى لازمته التى يكررها : يعلم الله ، نشكر الله ، نحمد الله . ويشير الى ما يشوب شخصيته من شذوذ فى الجنس والطعام .

كما يقدم لنا شخصيات الخبراء الروس الأربعة على السفينة .

اما أهم شخصية صورها فهى شخصية عباس كبير الضباط ومحاولته فرض سلطانه بحق وبغير حق على كل فرد . وكذلك شــخصية الباحث بهجت يارح حبشى وكيف يعتقــــد أن هناك جواسيس من حلف الاطلنطى يطاردونه ويريدونه أن يخطفوا منه جردل المعلومات الذى يجمع به عينات من مياه البحر ويحللها ، وأنه لهذا لا يريد أن ينزل الى البر بل ينتقل من سفينة الى أخرى .

وهو لا يصف هذه الشخصيات بل يقدمها من خلال تصرفاتها ومرافقها ، أى بطريقة درامية وليست تقريرية .

ولعل أهم هذه المواقف والتصرفات هو ما قدمه من بطولات بعض البحــارة ، بطولة شخصيات تحب عملها وتتفانى فيه الى درجة تعريض حياتها للموت . من ذلك مجازفة اخصائى الصيد « جاد محمد جاد » بعمل ثغرة فى الشبكة يتسرب منها السمك حتى يخف وزنها ويمكن رفعها بدلا من أن تتمزق فى الأعماق وتفلت منها حمولتها الثمينة . ومجازفة « محمود الطير » حين انقطع أحــد

السلكين اللذين يربطان الشبكة بالسفينة ، وكان لابد من محاولة ربط السلك الصلب المقطـــوع ، ودون انتظار لتعليمات القبطان قفز بحـــار الصيد « محمود الطير » كبهلوانات السيرك على السلك الصلب الواحد المربوط به الشبكة وراح يحاول ربطها بالسلك الآخر المقطوع . بينما القبطان يصيح به مذعورا أن يرجع « والطـير » ولا هنا ، يمشى على السلك المشدود فوق سطح المحيط بين السفينة والشبكة كبهلوان محترف ، ولو اختل توازنه او انزلقت قدمه لوصل الى قاع الأطلنطى فى ثوان . ولأصبح فى غمضة عين غذاء شهيا لأسماك المحيط المفترسة .. لكن الطير نجح فعلا فى اعادة توصيل الشبكة بسلكها الصلب المقطوع .

وعندما احترق عنبر الماكينات بالسفينة ليـلا حتى اصبحت فى ظلام تام ، انطلق شبان السفينة من البحارة والضباط والمهندسين غير هيابين وهم يحملون المضخات الحمراء يطلقون سائلها حتى اطفأوا الحريق . لكن لوحة توزيع الكهرباء الرئيسية التى تغذى كل مكان فى السفينة كانت قد احترقت ، واذا بمهندس الكهرباء الصغير « ناجى نوار » (٢٢ سنة) يستطيع فى اربع ساعات ــ وبمعاونة الجميع على ضوء البطاريات ــ أن يعيد الكهرباء على السفينة الصغيرة .

سمة رابعـــة تتسم بها رحلتنا ــ بل رحـلات حسين قـدرى بوجه عام ــ هـو عنصر **الفكاهة** الذى يخفف قليلا مما فيها من توتر يلازم بالضرورة أى عمل ينطوى على مغـــــامرة . من ذلك حديثه عن التسول وسط المحيط ، فهناك شحاتون ظراف من نوع جديد مبتكر « بلانصات صيد صغيرة فى كل واحد منها ثلاثة أو أربعة

أفراد فقط وكلب وشوية عيش فينو وبصل توضع على ظهر البلانص بطريقة ظاهرة بحيث يمكن للسفن القريبة أن تراها بوضوح ، من باب اظهار الفقر .. « والهى ما يغلب لكم جدع » فاذا اصطادت سفينة الصيد وسحبت شبكتها اقترب منها أحد هذه البلانصات وراح الذين فوقه يشحتون بعض السمك وهم يعزفون على الجيتار وينشدون أن يبارك الله فى رزق سفينة الصيد ، ويحيون طاقم سفينة الصيد برفع قبعاتهم القش الأسبانية الكبيرة والتلويح بها مع الانحناء ، حتى تحن عليهم السفينة « بشوية » سمك ، وهذه « الشوية » يعنى نحو مئة أو مائتين كيلو جرام مثلا .

وعلى السفينة تتغير القيم فثمة أشياء تبوخ واشياء أخرى ترتفع قيمتها ، وقد رأينا كيف ان بعض أغانينا يصبح لا معنى لها وسخافة فى مثل هذه الظروف ، كما رأينا كيف أصبح الاستحمام أمرا يحلم به الراكبون على السفينة للتقتير الشديد فى كميات المياه المسموح بها . من ذلك أيضا أن الأفلام التى تعرض على السفينة رغم أنها محدودة العدد وقد حفظها البحارة لكثرة تكرار عرضها الا أنهم يقبلون على مشاهدتها لأنه ليس هناك وسيلة أخرى للتسلية . كذلك يخلق ركاب السفينة المناسبات للتسلية ، فما أن علموا مثلا بأن رحالتنا قد أرسل برقية يهنىء فيها ابنته بعيد ميلادها حتى أقاموا حفلا لهذه المناسبة . كذلك فانه لعدم وجود حلاقين على ظهر السفينة الا بحار كان صبى حلاق فى المحلة الكبرى ثم هجر مهنته وجاء ليعمل بحارا ، فان الزبون هو الذى يصبح تحت أمر الحلاق وليس العكس « لأنه محتكر الصنف والمتحكم فى رءوس العباد على ظهر السفينة » .

ولقد أفرد رحالتنا فصلاً عنوانه « حكاية النساء فى سفينة بلا نساء » وأوضح فيه أزمة الجنس عند العاملين على هذه السفينة ومشاكلهم العاطفية ، مشاكل المتزوجين منهم والذين يريدون الزواج ولا يستطيعون لظروفهم أو يؤجلونه ، وكيف تتضخم قيمة المرأة فى مثل هذه الصحراء العاطفية .

كما أفرد فصلا بعنوان « حفلات القلق » عندما اوشكت الرحلة على الانتهاء واوشك موعد وصولها الى أرض الوطن ، فيترك رحالتنا العالم الخارجى الذى اتخمنا به ليتسلل بنا لحظة داخل نفوس هؤلاء القوم قائلا « وترتفع أصواتنا بضحكات نعلم جميعا أنها مجرد أصوات رنانة تخرج من حلوقنا فقط كأنما لتزيل وحشتنا ، ولكنها قطعا ليست صافية وليست من القلب .. والسؤال الذى يشغل ذهن وبال وتفكير كل واحد منا ونداريه عن أنفسنا قبل أن نداريه عن غيرنا ، بالصوت العالى والضحكة الجوفاء : مصر .. يا ترى كيف سنجد الأحوال فى مصر حين نعود » .

وهكذا نجد أن رحلتنا يتراوح أسلوبها بين الأسلوب الوصفى التقريرى والأسلوب التصويرى الدرامى . انها تتأرجح بين الأحداث وتقديم المعلومات ، بين الحركة والسكون أو الاستاتيكية والديناميكية ، فهو بعد أن يقدم وجبة دسمة من المعلومات الشيقة لجدتها ولغرابتها أحيانا ما يلبث أن يجعل رحلته تستأنف حركتها التى أوقفها حينا حتى يلتقط أنفاسه ويقدم ماتيسر من معلومات .

ونحن نجد أن الطابع الروائى يغلب على الجزء الاول من الرحلة بينما يبطىء الايقاع كلما أوغلنا فى الكتاب

حتى ندرك ان رحالتنا نضبت أحداثه ورجع الى مفكرته يلتقط منها معلومة من هنا ومعلومة من هناك ، حتى اذا أوشكت رحلته على النهاية دبت فيها الحيـــــساة مرة اخرى ، وعاد لعنصر الحدث حرارته .

وفى الجزء الذى تلكأ فيه الزمن وتلكأت فيه الأحداث كان لابد وأن يلجأ رحالتنا الى طريقة تشعرنا من حين لآخر بأن الزمن قد مر ، وكان ذلك عن طريق جملة يكررها من حين لآخر كأنها عقرب الساعة هى قوله « أكملنا اليوم الـ ١٠٠ طن الاولى من الصيد » .. « أكملنا اليوم المئه طن الثانية من الصيد » وهكذا نحس ان الزمن قد مر . ويصل الأسلوب التقريرى مداه عنـــدما يعدد الأخطـــاء ويقترح الحلول .

ولئن كان عالم الخــــارج هو الذى يشغل رحالتنا اساسا ، فان هذا لم يمنعه من أن يتسلل من حين لآخر الى العالم الداخلى له ولزملاء رحلته من حين لآخر .

وهكذا قدم لنا حسين قـــدرى رحلة شـــيقة ، مزج فيها بين المتعة والفائدة ، وزاوج فيها بين الفن والعلم ، وكشف لنا فيها ـ كما فعل سلفه السندباد ـ عن مناطق مجهولة وبطولات لا تعلن عن نفسها ولمسات انسانية فى هذه الصحراء العاطفية السابحة وسط محيط متلاطم .

فى المسرح

أوديب مصريا

من الشائع أن أوديب ولد فى الأساطير والملاحم الاغريقية ثم شب على أيدى أعظم شعراء الاغريق التراجيديين أيسخيلوس وسوفوكليس ويوربيدس ، ومنهم استوحى كثير من الأدباء — بل والعلماء — فى شتى لغات العالم هذه الشخصية المثيرة ليضيفوا اليها ويحذفوا منها بما يلائم أذواقهم وذوق عصرهم ، وان احتفظوا بجوهر مأساتها الذى حفظها من الضياع وضمن لها البقاء ما بقيت النفس البشرية بأهوائها المحرمة ونزعاتها المكبوتة ، لا تكاد تعلن عن نفسها الا فى مثل هذه الأعمال الفنية الخالدة لأنها تضرب بجذورها فى الطبقات الجيولوجية السحيقة للنفس البشرية .

ولعل أقدم اشارة لأسطورة أوديب ترد فى النشيد الحادى عشر فى ملحمة الأوديسة لهيرميروس والتى يرجح انها دونت فى أوائل القرن السابع قبل الميلاد . ومن المعروف ان هذه الملحمة تصف يوليسيس بعد سقوط طروادة التى اشترك فى حصارها وهو فى طريق عودته الى زوجته الجميلة بنيلوب وكيف ضل فى البحر اربعين عاما تعرض فيها لمجموعة من المغريات والعقبات لتحول

بينه وبين مواصلة رحلته ، وقد قام هذا الهائم على وجهه بزيارة هاديس (العالم الآخر) حيث التقى هناك بروح أمه فحدثها عن أم أوديب التعسة قائلا : ثم قابلت أم أوديب ابيكاستي الجميلة ، انها فى جهلها ارتكبت اثم الزواج بابنها . فقد قتل أوديب أباه أولا ثم اتخذ أمه زوجة له ، لكن سرعان ما أظهرت الآلهة الحقيقية ، أما أوديب فقد أعدوا له عقابا قاسيا ، تركوه يعانى عذاب الندم وهو ملك على الكديين فى ثيبا التى أحبها ، أما أبيكاستى فقد أذهلها الجزع من فعلتها ، فشنقت نفسها بحبل طويل فى عارضة فى أعلى السقف ، وهكذا هبطت الى قاعات « هاديس » حارس البوابات الجبارة ، تاركة اوديب يعانى آلام اللعنات التى تستطيع أم أن تستنزلها عليه .

غير ان ايمانويل فليكوفسكى يتساءل فى كتابه « أوديب واخناتون » عما اذا كان الاصل الأسطورة جذور تمتد فى وقائع التاريخ أم لا (ايمانويل فليكوفسكى ، أوديب واخناتون ، ترجمة فاروق فريد ، دار الكاتب المصرى ، د . ت . ص ١٣) .

وقد انتهى فليكوفسكى الى أن قصة أوديب مع أم الهول فى طيبة اليونانية ليست الا قصة الفرعون المصرى اخناتون وان طيبة ليست الا طيبة مصر وأم الهول ليست الا أبو الهول مصر . فأوديب اذن مصرى المولد وان كان قد أصبح اغريقى النشأة .

ويعلن فليكوفسكى فى بداية دراسته ان كثيرا من الأساطير ما هى الا ابتكارات تنطبق على نماذج أولية ، ويشتمل هذا النموذج الأولى على ظروف تنطبق على ظروف مولد أوديب . فتكون ظروف الحمل فيه غير

عادية ، وعند مولده تبدأ شتى المحاولات للقضاء عليه ، وعادة ما يبذلها ابوه أو جده لأمه أو الحاكم الاعلى للمملكة . ولكن تنجح خطة تهريبه ويقوم بتربيته أبوان آخران في بلدة بعيدة ولا نسمع شيئا عن طفولته ، ولكن ما ان يبلغ الرجولة حتى يعود أو يذهب الى حيث مملكته مستقبلا ، وبعد أن يحرز انتصارا على ملك أو عملاق أو الاثنين معا يتزوج أميرة عادة ما تكون ابنة من سلفوه على العرش ، ثم يصبح ملكا يستمر حكمه لفترة طويلة بلا كوارث ويشرع القوانين ، ولكن بعد هذا يفقد صلته الطيبة بالآلهة أو برعاياه أو بالاثنين معا ، فيستبعد عن العرش ويبعد عن المدينة ، ثم يموت بعد ذلك موتا عظيما ، وعادة فوق قمة تل . اما ابناؤه ان وجدوا فلا يخلفونه على العرش ولا يدفن جسده ، ومع هذا تقام له مقبرة مقدسة أو أكثر (المرجع السابق ص ١٩ ، ٢٠) .

ثم يجعل فليكوفسكي أبا الهول أول الخيط ، فيعلن ان هذا المخلوق الذى يحرس طيبة فى اقليم بيوتياليس من المخلوقات غير المألوفة لليونان ، فأرض هذا المخلوق الأصلية مصر ، وأبو الهول له وجه انسان وجسد حيوان . ولئن أطلق على أبى الهول الجيزة أثناء حكم الأسرة الثامنة عشرة حورس حامى المدفن ، فقد كانت حاتحور هى التشخيص الأنثوى لحورس واسمها معناه « بنت حورس » ، ويرى عالم المصريات ادوارد نافى ان أم الهول ما هى الا صورة الآلهة حاتحور وهى متأهبة للقتال . بينما يعتقد آخرون لها أن أبا الهول الأنثوى قد ظهر بصورة مفاجئة فى أثناء حكم امنحوتب الثالث وزوجته الملكة تى بالتقريب وهما من الأسرة الثامنة عشرة .

ويصف الأستاذ أ . دسين تحول شكل أبى الهول فى أيام امنحوتب الثالث وزوجته تى . ففى الأزمنة السالفة كان العاهل الحاكم يصور فى هيئة أبى الهول بين الحين والحين . غير انه لم يكن امنحوتب الثالث هو الذى يصور فى هيئة ابى الهول بل عادة ما كانت زوجته «تى» . لقد نحتت الملكة حتشبسوت تماثيل لنفسها هى فى هيئة أبى الهول له لحية تتدلى من ذقنه تمشيا مع العادة القديمة فى تصوير أبى الهول ، وله وجه رجل ، ولكن أبا الهول الملكة « تى » قد نحت له وجه امرأة ، بل والأغرب من ذلك ثديا المرأة لجسم الأسد فى أبى الهول « لها » أجنحة وهى تمزق ضحيتها أو تخنقها .

ويستنتج من ذلك فليكوفسكى ان أم الهول طيبة التى فى اقليم يوتيا ، وهى الفتاة القاسية ذات الأجنحة لم تكن فحسب ضيفا وفد من أرض النيل ، بل كانت بمعنى أدق صورة ظهرت فى طيبة المصرية لأول مرة فى أثناء حكم الملكة « تى » (المرجع السابق ص ٣٦ ، ٣٧) .

ثم يستطرد قائلا ان شعب الاغريق لم يكن هو الشعب الذى نشأت بينه أسطورة أوديب ، بل مثلما حدث لأوديب الذى يبلغ مرحلة الرجولة فى بلد غريب فى قصر يوليبوس ظانا نفسه ابنا لهذا الملك وهو فى الحقيقة لم يكن قد حدث بالضبط لأسطورة أوديب ذاتها ، فقد اتخذت شكلا أدبيا فى أرض الاغريق واعتبر بطلها اغريقيا ، ولكن يبدو أنه لا الأسطورة ولا البطل كانا اغريقيين فى الأصل (المرجع السابق ٤٥) .

ومثلما عاش أوديب بعيدا عن أبويه فان اخناتون

امضى طفولته وصباه بعيدا عن مصر ، فلم يحدث أن ذكر اسمه قط فى نقوش امنحوتب الثالث الكثيرة على عكس ما كنا نتوقعه باعتباره الأمير الوريث للعرش ، ولم يحدث ان رسم هو وابوه معا فى الرسوم المنحوتة . كذلك فانه بعد موت امنحوتب الثالث تقلدت أرملته الملكة « تى » مركزها كرئيسة للدولة لبضعة شهور أو أسابيع ثم ظهر ابنها فجأة على مسرح الأحداث وتسلم مقاليد الحكم حتى ساد الاعتقاد بأنه اغتصب العرش ، وتؤكد لنا الخطابات التى تلقاها اخناتون عقب توليه عرش أبيه من الأمراء الموالين انهم يشيرون الى علاقات صداقة لا يعرفها حق المعرفة الا أمه الملكة « تى » (المرجع السابق ص ٥٤) ويستنتج فليكوفسكى الى أن لقب اخناتون الدائم « ذلك الذى تخلف ليعيش طويلا » دليل على أنه كان مهددا بالموت وهو فى المهد ، ولابد ان ذلك كان نتيجة لنبوءة قد توضح لنا عداءه فيما بعد لكهنة آمون ولآمون نفسه ، كما قد تكون الدافع الرئيسى لما قام به من اصلاح دينى فى المستقبل . ولازالته اسم الاله آمون أينما وجده بما فى ذلك من ظهوره مقترنا باسم أبيه امنحوتب . ويتضح من ذلك انه كان ناقما على هذا الاله ومنتقما منه، اذ كانت نبوءته سببا فى ابعاده عن القصر الملكى ، كما كان ناقما على أبيه ومنتقما منه ، اذ نفذ أمر النبوءة وأبعده من القصر . والمعروف انه عند ازالة اسم شخص متوف يكون مصير روحه « كا » الزوال أيضا وهى فى العالم الآخر . ومن ثم كان ما فعله اخناتون يعادل جريمة القتل فى اعتبار المصريين القدماء ، بل ويعادل ما هو أشنع واقسى ، فالرجل القتيل قد يسترد حياته وهو فى « حدائق النعيم » أما ان يقتل وهو بهذه الحدائق نتيجة لاجراء حدث على الأرض فلن يصبح له وجود على

الاطلاق (المرجع السابق ص ٦٦) وعندما ماتت « تى »
لم يدفنها اخناتون بجوار زوجها اذ امتدت منافسته لابيه
حول امتلاكه أمه الى ما بعد الممات (المرجع السابق ٦٤).

ثم ينتقل فليكوفسكى الى دليل ثالث يؤكد به علاقة
الاسطورة الاغريقية بالتاريخ الفرعونى فيقول ان أوديب
فى الأسطورة اليونانية معناه « ذو القدم المتورمة » وتصور
الرسوم على جدران المدافن فى مدينة أخت آمون
(تل العمارنة) وهى المدينة التى اتخذها اخناتون
عاصمة لملكه ، وعلى الشواهد المقامة عند حدود المدينة ـ
تصور الملك بطريقة لم يسبق لها مثيل .. فرأسه مستطيل
ورقبته نحيفة وبطنه قد تدلى الى أسفل ، ولكن أكثر
التشوهات وضوحا هو الشكل الذى اتخذته فخذاه ،
فهما متورمتان ومنتفختان . ومن المعروف ان لغات
كثيرة تفتقر الى التفرقة بين القدم والساق ، فالكلمة
فى اليونانية القديمة تعنى كلتيهما .

ثم يقارن بين شخصية « آى » أخى الملكة « تى »
وشخصية كريون أخى جوكاستا وهو من تمتع بنفوذ
قوى فى الفترة بعد موت لايوس ووصول أوديب ، وهو
الذى وهب أخته الملكة لاوديب ، ثم كان هو من أجبر
أوديب على التخلى عن العرش ، وهو من حكم البلاد فى
أثناء تربع الشاب أبيتوكليس على العرش كما كان هو من
أصبح ملكا بعد الموت السابق لأوانه للملك ، ويقول
فليكوفسكى ان « أى » قام بنفس الدور أيام اخناتون
بالاضافة الى انه كان والد زوجته نفرتيتى .

ويحاول فليكوفسكى أن يعثر على عراف مصرى فى
مقابل تيريسياس الذى تنبأ بمستقبل أوديب ، فيجده
فى شخص امنحوتب بن جايو ، وان كانت الفاظ الشك

والاحتمال والترجيح تستخدم هنا وفيما بعد بصورة أكثر مما كانت تستخدم من قبل مما يجعلنا نحس أننا لم نعد نقف على أرض صلبة من الحقائق .

وكما تنازل الملك بوليتكيس واتيوكليس ابنا أوديب بعد اعتزال العرش ، كذلك تنازع سمنقرع وتوت عنخ آمون الملك بعد ان اعتزل أخناتون العرش ، وكان مصير سمنقرع اشبه بمصير الأخ المغلوب بوليتكيس .

ثم يستنتج من قراءة كثير من الآثار العلاقة المحرمة بين اخناتون وأمه « تى » ويفسر ذلك بتأثرهما بأخلاقيات الميتانيين الذين كانوا يبيحون مثل هذه العلاقات والذين يرجع نسب « تى » اليهم . وان مصير « تى » كان — مثل مصير جوكاستا — وهو الانتحار . ونورد هنا فقرة من أسلوب الاحتمال والشك المستخدم فى الكتاب والذى يقضى — بدون تبرير — الى نتائج مؤكدة ، يقول فليكوفسكى عن مصير « تى » :

والمصريون القدماء الذين كانت فكرة حياة ما بعد الممات بالنسبة لهم ذات أهمية كبيرة ، «لابد» انهم بالذات قد حرموا تكريم المنتحر فى جنازته ، ومن ثم «ربما» آدى ذلك الى عدم اغداق تكريم مناسب يليق بملكة مثل «تى» هذا! «أن» كانت نهايتها مماثلة لنهايةجوكاستا الاسطورية، ان الأم التى شنقت نفسها قد حرمت روحها نعمة حياة ما بعد الممات برغم انها ملكة وحاملة التاج ذى الريشتين، ويجب عدم بناء مدفن يكتظ بالثروات . . و « يحتمل » أن هذا هو سر نهاية الملكة « تى » ، فهى لم تمنح مدفنا ملكيا ولا حتى مدفنا آخر شبيها بما نقبنا عنه من مقابر نبلاء طيبة أو تل العمارنة ، بل وأخفيت جثتها بعيدا عن الأنظار . «فان كانت» قد انتزعت حياتها بيدها فهى بذلك

قد ارتكبت خطيئة لا تغتفر فى اعتبار المصريين قومها (المرجع السابق ص ١٧٩ — ١٨٠) .

وبدلا من أن يكون التاريخ أصلا للأسطورة فان فليكوفسكى يقلب الوضع فيجعل الأسطورة أصلا للتاريخ بحيث يقول بالنص : « وهكذا قد تشرح الأسطورة التى تحكى قصة جوكاستا وقائع دفن « تى ـ الغريبة » . (ص ١٨٠) .

حتى التفاصيل الصغيرة فان فليكوفسكى يحاول ان يعثر على تشابه بين التاريخ والأسطورة ، مثال ذلك انه قد عثر فى مقبرة توت عنخ آمون على صندوق صغير به خصلة من شعر كستنائى ، وهناك ملحوظة تعرفنا ان هذه الخصلة خصلة الملكة « تى » .. ويوربيدس يجعل جوكاستا تقص شعرها « اننى أقص خصلات شعرى الفضية وأتركها تسقط مع الدمع الغزير لأظهر حزنى ومرارتى » (المرجع السابق ص ١٨٢) . والدوران اللذان قامت بهما انتيجونى فى الأسطورة الاغريقية وهى مصاحبة أبيها المنفى الأعمى ومواراة جثة أخيها القتيل التى حرم أخوها الثانى دفنها ، وزعهما فليكوفسكى على اثنتين من بنات اخناتون .

ومن الممكن ادراك الأصل المصرى الذى نبعت منه مجموعة أساطير طيبة اليونانية من حقيقة واحدة ، وهى ان مشكلة دفن الجثة تحتل المكانة الأولى فى فكرة المسرحية ، اذ ان موضوع مسرحية أوديب فى كولونا وكذلك مسرحية « انتيجونى » و « سبعة ضد طيبة » هو المشكلة التى تثار حول دفن الجثث ، كما كان اهم ما يشغل بال أوديب وهو ملك أن يدفن فى أرض طيبة بعد مماته ، بيد انه لايعود الى طيبة بعد نفيه .

وفى رواية سوفوكليس عن الاسطورة يصر أوديب على أن تتوارى مقبرته عن الأعين ، ويظل مكانها سرا لا يعرفه انسان سوى ملك أرض أتيكا ، ولم يكن مثل هذا التصرف غريبا على أرض مصر حيث كان الملوك يعملون على اخفاء مقابرهم .

ان هذا الانشغال الدائم بالدفن والاهتمام البالغ بالمثوى الأخير لهو ظاهرة مصرية الطابع وليست يونانية .

كما ان كهف انتيجونى (المقبرة) الذى حفر فى الصخرة ليس يونانيا أيضا ، اذ كان اليونان يحرقون جثث موتاهم أو يدفنونها فى الأرض ، ولكن يندر تماما ان ينحتوا مقابرهم فى الصخر ، ومع هذا فالمصريون سواء فى طيبة أو تل العمارنة كانوا ينحتون قبورهم فى الصخر . ومن ثم فان مقبرة فى كهف صخرى تعد امرا غريبا على ارض اليونان (المرجع السابق ص ١٨٩ ، ١٩٩).

هذا ملخص سريع لذلك البحث المقارن وان كان ما من احد أبدا يمكنه معرفة هذه الحقائق على وجه يقينى ، وكلها اجتهادات تقوم على اساس ان معظم الأساطير استمد أصله من التاريخ ، وقد أشرنا الى كثرة استخدام الفاظ الترجيح وان كان يخلص منها الى نتائج يوحى للقارىء انها مؤكدة .

***

ولئن كانت هذه النظرية موضع احتمال وشك ، فانه ما من شك فى ان مصر قد استردت اوديب فى العصر الحديث ، حين بدأ الأديب العربى نهضته واستفاد من خبرات آداب أخرى فى مقدمتها الأدب الأوروبى وما تضمن من أشكال أدبية لم يكن الأدب العربى يمارسها الا بشكل بدائى جدا وفى مقدمتها فن المسرح . والأدب العربى

الحديث لم يستفد من تجـربة الأدب الأوروبى شـكلا فحسب ، بل شكلا ومضمونا ، فقد حاول كتاب المسرح المصرى الحديث أن يعالجوا بدورهم بعض الموضوعات التى عالجهـا كتاب المسرح الأوروبى ، لـكن من وجهـة نظرهم ، فـكما ان قصة اخناتون ـ على النحـو الذى استخلصه لنا فليكوفسكى من قراءته الآثار الفرعونية ، لم تنقل بنصها الى الأساطير الاغريقية ، بل امتزجت بالروح الاغريقية وفى مقدمتها فكرة القـدر التى تسيطر على الأسطورة وتهبها الطابع الاغريقى ، فان قصة أوديب بدورها قد عادت الى الظهـور فى مصر وفى القرن العشرين ـ بعد حوالى أكثر من ثلاثة آلاف عام ـ لتصطبغ بالطابع الاسلامى . ذلك ان أوديب منذ نما فى المسرح الاغريقى لم يتوقف عن رحلته وتجواله فى الزمن متنقـلا من أديب الى أديب ، مطورا شخصيته بما يتفق وذوق العصر والمجتمع الذى يطل منه .

والأربعة الذين عالجوا أوديب فى المسرح المصرى هم توفيق الحكيم (١٩٠٢) وعلى أحمد باكثير (١٩١٠–١٩٦٩) وعلى سالم (١٩٣٦) وفوزى فهمى أحمد . وقد نشر توفيق الحكيم مسرحيته « الملك أوديب » عام ١٩٤٩ بينما نشر على أحمد باكثير مسرحيته « مأساة أوديب » بعد ذلك بقليل ، أما مسرحية على سالم « انت اللى قتلت الوحش » فمثلت ونشرت بعد ذلك بأكثر من عشرين عاما (عام ١٩٧٠) بينما مسرحية فوزى فهمى « عودة الغائب » فقد كتب فى مقدمتها انها ألفت عام ١٩٦٨ ولكنها لم تمثل الا عام ١٩٧٧ ، فهما من جيل تال لكل من جيل توفيق الحكيم وباكثير .

أما توفيق الحكيم فـكان قد قام من قبل بمحاولات

لعرض التراجيديا الاغريقية مدثرة فى غلالة من العقلية العربية بهـــدف احداث اتزان بين العقليتين والأدبين وذلك عندما نشر مسرحية أهل الـكهف عام ١٩٣٦ . والتراجيديا بمعناها الاغريقى هى الصراع بين الانسان وقوى خفية فوق الانسان ، ويرى توفيق الحكيم ان التراجيديا بهذا المعنى تنبع عن شعور دينى ، لان أساسها هو احساس الانسان انه ليس وحده فى الكون (توفيق الحكيم ، الملك أوديب ، مكتبة الآداب ، القـاهرة ، ص ٣٣) . اما فى القرن السابع عشر ، فان التراجيديا اصبحت صراعا بين الانسان ونفسه ، وهكذا بدأ الشعور الدينى فى الانطفاء .

ويعلن توفيق الحكيم انه اختار أوديب لأنه تأملها فأبصر فيها شيئا لم يخطر على بال سوفوكليس ، ابصر فيها صراعا ليس فقط بين الانسان والقدر كمـا رأى الاغريق ومن جاء بعدهم بل أبصر فيها صراعا بين الواقع والحقيقة ، الواقع الرغد الذى كان يعيش فيه أوديب بعد أن أصبح ملك طيبة وزوجا لملـكتها جـوكاستا ، والحقيقة التى وقفت حائلا أمام هذا الواقع حتى هدمته ، وهى أنه كان قد قتل والده دون أن يدرى منذ سبعة عشر عاما . وان جوكاستا التى هى فى الواقع زوجته هى فى الحقيقة « أمه » . فالواقع ابن الحاضر والحقيقة بنت الماضى ، وقد انتصرت الحقيقة على الواقع فانتحرت جوكاستا وفقأ أوديب عينيه .

ولقد تعلم توفيق الحكيم دروسا ممن سبقوه الى معالجة أوديب من ابرزهم أندريه جيد الذى جعل من ايمانه بالانسان مادة خشوع فى النفس فحل ذلك مكان الخشوع للقوى الخفية العليا وهو بذلك يلخص لنا عقيدة الأوروبى

اليوم فى ايمانه بألا شيء فى الكون غير الانسان . أما توفيق الحكيم فقد أبرز ما فى قصد أوديب من تحد للاله أو القوى الخفية وهو ما فى قصة أوديب ـ كما أبرز عواقب هذا التطاول .

ويقول الحكيم ان شعوره بأن « الشرقى » يعيش دائما فى عالمين ، هو الحصن الأخير الذى بقى لنا لنعتصم فيه ضد التفكير الغربى الذى يعيش فى عالم واحد هو عالم الانسان وحده .

ثم يعلن توفيق الحكيم انه اضطر ان يخرج على قاعدة الوحدة فى الزمان والمكان التى تخضع لها التراجيديا الاغريقية لأنه رأى ان جو الأسرة فى حياة أوديب أمر لا ينبغى اغفاله ، وجو الأسرة عند أوديب لا يمكن أن يكون خارج البيت ، بينما حوادث التراجيديا الاغريقية دائما فى ميدان عام أو فى الهواء الطلق .

كما يعلن انه اضطر أيضا ان يجرد القصة من بعض المعتقدات الخرافية التى تأباها العقلية العربية الاسلامية ، فجعل تريزياس هو مدبر الأحداث فى بدايتها وليس وحيا الهيا كما تقول مأساة سوفوكليس . فهو الذى لفق قصة أبى الهول عندما قتل لايوس وعمد الى الفتى الساذج صارع الوحوش فأجلسه على عرش طيبة ، فكان كل ذنب أوديب انه قبل الدور الذى أجبره العراف على لعبه . وهكذا فان أوديب الذى هرب من كورنث لأنه لم يطق الحياة فى أكذوبة ، اذا به يعيش فى طيبة فى أكذوبة أضخم ، وهكذا أصبح انسانا مثل سائر الناس ولن يصبح عظيما الا بمسلكه ونوع موقفه أمام الكارثة . وبذلك لئن جرد توفيق الحكيم أوديب من عظمته الأسطورية ـ وهى هزيمته لأبى الهول ـ فقد اضفى

عليه عظمة أخرى صادرة عن فضيلته البشرية متأثرا فى ذلك بروح الدين الاسلامى الذى يفاخر بأن نبيه العظيم بشر .

وفى الوقت نفسه فان توفيق الحكيم جعل تريزياس هو المجرم الحقيقى لأنه حاول أن يتطاول على الاله فيكون هو : وليس الاله ، منبع الأحداث ومصدر الانقلابات ، ولا يلبث ان تتضح عواقب هذا التطاول وعقابه ، فقد باءت قصة تريزياس بالفشل ، لأن الرجل الذى جلس على عرش طيبة لم يكن الا الطفل الذى أراد اقصاءه منذ عشرين عاما .

وهكذا لئن جرد توفيق الحكيم المأساة من خرافتها ، فقد احتفظ فيها بذلك الصراع بين الانسان والقوى العليا . كما احتفظ بفكرة الانعكاس التى هى حركة هذه المسرحية ، أى ان يتحقق فى النهاية ما حاول البطل الا يقع فيه فى البداية . وان كان قد نقل ثقل الصراع مع القوى العليا وفكرة الانعكاس من أوديب الملك الى تريزياس العراف .

واخيرا يوضح توفيق الحكيم ان الطعن الذى انزله بعينيه لم يكن امعانا فى الكبرياء كما ذهب جيد ، ولا رغبته فى أن يبلغ أوج الشقاء كما بلغ أوج المجد كما ذهب كوكتو ، فهذه كلها — فى رأيه — من قبيل التفسيرات الأدبية والذهنية . لكنه — تمشيا مع بشرية اوديب — يرى انه كان شديد التعلق بأسرته ، عميق الحب لجوكاستا ، وكانت فجيعته فيها وهو يراها على هذه الميتة البشعة اشد مما يحتمل ، وفى لحظة جنونه اقتلع عينيه ، فهو قد فعل بنفسه ما فعل من أجلها وحدها .

اما على أحمد باكثير فكان أكثر امعانا فى تجريد المسرحية مما يعتبره خرافة ، اذ جعل الكاهن الأكبر لوكياس يختلق نبوءاته ثم يعمل على تحقيقها بتدبيره ومكره الى أن تتحقق من بدايتها الى نهايتها . ودافعه الى هذا أحط من دافع تريزياس عند توفيق الحكيم . فقد عال باكثير تصرفات الكاهن الأكبر فى بدايتها الى أن بوليبب ملك كورنث كان ينافس لايوس على زعامة هيلاس ، ويخشى أن يكون لخصمه ولد يرث عرشه وليس له هو وريث ، فرشا الكاهن الأكبر بعشرين ألف ألف اوبول ليفترى وحيا باطلا حتى يحمل لايوس على التخلص من ولده فلا يبقى له وريث . أما الاله الحكيم فحاشى أن يوحى بمثل هذا الاثم (على أحمد باكثير ، مأساة أوديب ، لجنة النشر للجامعيين ، القاهرة ، ص ٢٣) .

وتستمر أحداث قصة أوديب كما نعرفها ولكن ليست تحقيقا لنبوءة وحى الهى بل نتيجة لمؤامرة لوكياس كبير الكهنة .

ومعنى هذا ان باكثير يحول الصراع من صراع بين الانسان وقوى أعلى منه ، الى صراع بين الانسان والانسان فيفقدها الصراع بالمعنى الدينى . ولهذا فانه عندما يتساءل أوديب ساخرا لماذا لم يعلن الوحى أن هناك رجسا فى المدينة من قبل وقد مضى على هذا الزواج الآثم سبعة عشر عاما ، أفكان راضيا عن عمله ثم غضب اليوم ؟ اذن فماذا أثار اليوم غضبه ؟ (المرجع السابق ص ٩٣) ندرك ان باكثير يريد أن يقول انه لو كان هناك وحى الهى حقيقى لأعلن سخطه من أول يوم تم فيه الزواج الآثم . أما أن يقع بعد سبعة عشر عاما وبعد أن أنجب أوديب من أمه ابنين وبنتين فتفسيره ان الأمر كله من تدبير انسان يفترى على الاله .

وفى موقع آخر يقدم باكثير تفسيرا انسانيا وذلك على لسان أوديب حين يعلن للشعب ان الرجس كان موجودا من قبل . فليس اذن هو سبب ما هم فيه من عذاب ، انما السبب ان أموال الأمة تتكدس فى أيدى الكهنة يحتجزونها من دون الشعب الذى يموت جوعا . ولن تزول المجاعة ـ وهى ليست طاعونا عند باكثير ـ الا بمصادرة أموال المعبد وتوزيعها بالعدل ، ومن الطبيعى ان تختلف اذن نهاية أوديب باكثير عن نهاية أوديب سوفوكليس ، فهو لا يفقأ عينيه انما يغادر مدينة طيبة وهو أقرب الى الجنون .

وتتردد فى مسرحية باكثير كثير من التعبيرات الاسلامية أكثر مما تتردد فى مسرحية توفيق الحكيم ، حتى ليخيل الينا ان تريزياس ليس عرافا بل فقيها اسلاميا . كما يرفض باكثير بوضوح فكرة الانسان المسير ويعلن أكثر من مرة على لسان فقيهه تريزياس ان الاله بحكمته خلق الخير والشر ، ومنحنا عقلا نميز به بينهما ، ومعنى هذا ان الانسان هو الذى يصنع قدره وليس العكس .

وهكذا غير باكثير تماما من المفاهيم الأساسية التى تقوم عليها مسرحية سوفوكليس بعد أن أقصى دور القوى العليا عنها . ومما يجدر التنويه به ان املى باكثير مسرحية أخرى بعنوان اخناتون ونفرتيتى ، ولكنه فعل ما فعله سيجموند فرويد الذى تحدث عن كل من أوديب واخناتون ولكن لم يدر بخلده أحدهما أن لأيهما أية علاقة بالآخر على نحو ما فعل ايمانويل فليكوفسكى .

ولقد القى على باكثير ضوءا على طريقة معالجته لمسرحية أوديب فى محاضراته فى فن المسرحية من خلال تجاربه الشخصية التى ألقاها عام ١٩٥٨ على طلبة معهد الدراسات العربية العالية بالقاهرة ونشرت فيما بعد ،

فقال ان المسرحية قد حافظت على شخوص الأسطورة وحوادثها كما هى فى الأصل الا فى بعض التفصيلات الثانوية التى لا تخرج عن اطارها العام ، وان وضعت لكل حادث من حوادثها تفسيرا يختلف فى مداوله الاصلى ، (على أحمد باكثير،محاضرات فى فن المسرحية من خلال تجاربه الشخصيه ، جامعة الدول العربية معهد الدراسات العربية العالية ، القاهرة ١٩٥٨ ، ص ٨٩) .

ونحن لا نوافق باكثير على انه لم يغير الا فى بعض التفصيلات الثانوية التى لا تخرج عن اطارها العام ، لأنه - كما قلنا - غير من المفاهيم الاساسية التى تقوم عليها مسرحية سوفوكليس وأهمها رفضه دور القوى العليا .

غير ان باكثير استطرد قائلا اننا اذا تأملنا مسرحيته وجدنا لها دلالة تعكس واقعنا العربى - وعلى وجه الخصوص الفترة بين حرب فلسطين (١٩٤٨) والثورة المصرية (١٩٥٢) - بدقائقه وتفاصيله « لقد خضنا حرب فلسطين بجيوشنا الستة أو السبعة فماذا كانت النتيجة ؟ » خسرنا الحرب حيث كسبتها اسرائيل فأضيفت الى رقعتها أراض واسعة ، فهل كان ذلك طبيعيا اقتضاه ضعف العرب وقوة اسرائيل أم كانت المسألة كلها مدبرة من قبل - ومتى بدأ هذا التدبير ؟ ألم يبدأ منذ اعلن بلفور وعده المشئوم باقامة وطن قومى لليهود فى فلسطين ؟ فانظروا الآن الى قصة المسرحية ألا ترون فيها مشابه من هذا الذى حدث ؟ لقد أعلن لوكياس نبوءته الكاذبة قبل مولد أوديب ثم وجه الأحداث نحو تحقيق هذه النبوءة حتى تحققت . وكان أوديب هو الذى سعى بنفسه الى خوض غمار التجربة ، متحديا تلك النبوءة حتى وقع فى صميم المأساة طبقا لخطة مرسومة لا يدرى هو عنها

شيئا ، تماما كما سعى العرب الى خوض غمار الحــرب ضد اسرائيل ، متحدين بزعمهم كل القوى التى تناصر اسرائيل حتى وقعوا فى صميم المأساة طبقا لخطة مرسومة لا يدرون عنها شيئا .

وفى حرب فلسطين هدنتان الأولى والثانية أفلا تجدون فى قصة المسرحية مشابها لهما فى ذهاب أوديب الى طيبة مرتين : فى الأولى ليقتل أباه والثـــانية ليتزوج أمه : (المرجع السابق ص ٨٦ ، ٨٧) .

ثم يشبه الطاعون الذى انتشر فى طيبة والذى كان سببه استيلاء المعبد على الأراضى الزراعية حتى لم يبق للشعب فيها الا القليل بالاقطاع الذى كان متحكما فى مصر وغيرها من البلاد العربية والذى كان مسئولا عن كثير من المآسى بلغت قمتها فى حريق القاهرة .

ومصادرة أملاك المعبد وما تلاها من توزيع الأراضى على شعب طيبة يذكرنا بما قامت به الثورة المصرية من المصادرة والتوزيع .

ومن الذى قام بذلك فى الأول ؟ أليس أوديب الذى تجرع قصة المأساة وعانى ذلها وخزيها ؟ .

ومن الذين قاموا بذلك فى الثانية ؟ أليسوا هم الذين اكتووا بحرب فلسطين وعانوا ذل المأساة ؟ .

ومتى جاء الانقاذ فى الحالتين ؟ ألم يجىء حين اشتد الـكرب وعظم الخطب ؟ .

وهكذا تستطيعون أن تمضوا فى استنباط وجوه الشبه بين هذه المأساة كما صورتها المسرحية ، وبين واقعنـــا العربى ، لا على أساس الرمز الجــزئى الذى يخص كل

شخص أو كل حادث فى أحدها بشخص أو حادث فى الآخر ، ولكن على طريقة الرمز الكلى الشائع فى المسرحية كلها ... فقد يرمز الشخص أو الحادث الى أكثر من شخص أو حادث .

ويختم على باكثير القاء الضوء على ما فى مسرحيته « مأساة اوديب » من رمز بقوله :

ان الرمز هنا يتذبذب فيمس وترا هنا ويمس وترا هناك كالسيمفونيه التى يثير توقيعها فى نفسك مختلف المشاعر والاحاسيس دون أن تستطيع على التحديد أن تقول : هذه النغمة تثير كذا وكذا من المشاعر ، وهذه النغمة تثير كذا وكذا من الاحاسيس (المرجع السابق ص ٨٨ ، ٨٩) .

أما معالجة على سالم التى قدمت على مسرح الحكيم بالقاهرة عام ١٩٧٠ ثم نشرتها دار الهلال بعد ذلك . فانها فى حدود علمى المعالجة الوحيدة فى العالم التى يعلن مؤلفها على غلافها انها كوميدية وليست مأساة . ولعل هذا هو السر فى انها باللغة العامية المصرية فى معظمها وليست بالفصحى ، لا لأنها كوميديا فقط — واللهجة العامية انجح فى الاضحاك لأنها أكثر مباشرة وتلغى المسافة بين الممثل والمتفرج — بل لأن مؤلفها حاول أن يلغى البعدين الزمانى والمكانى أيضا . وكانت اللغة العامية أحدى وسائله فى هذا الالغاء .

وفى مقدمة على سالم لمسرحيته « أوديب » أو « انت اللى قتلت الوحش » يشير الى بحث ايمانويل فليكوفسكى الذى عرضنا اليه فى أول هذه الدراسة وردد القول بأن سوفوكليس وان لم يغادر أرض اليونان فقد كان صديقا للمؤرخ اليونانى هيرودت الذى زار مصر كثيرا وكان يسمح

له بمشاهدة طقوس معينة محرم على الشعب أن يراها . ويقول انه ربما لم تكن مسرحية أوديب سوفوكليس سوى اعداد اغريقى لمسرحية مصرية تقدم نفس الاحداث وبتولى اخراجها كهنة آمون فى معابدهم ، ولعلهم كانوا يعرضونها على كبار الشخصيات من زوار مصر كنوع من الاعلام الموجه لتشويه صورة الملك اخناتون بعد أن انتصروا عليه وعلى مبادئه وأعادوا عبادة آمون مرة أخرى .

ويمضى على سالم فى تدعيم رأيه فيشير الى مسرحية جان كوكتو « الآلة الجهنمية » فيرى أن الجو الفرعونى فرض نفسه عليه بحيث لم يستطع التخلص منه فصور ابا الهول على انه فتاة جميلة يرقد على حجرها أنوبيس اله الموتى فى مصر . واندريه جيد فى مسرحيته أوديب يجعل بوليتيس ابن أوديب يغازل أخته أنتيجون ويعرض عليها الحب ؛ وعشق الأخت والزواج منها عادة ملكية فرعونية قديمة . ولهذا كله عاد على سالم بأحداث مسرحيته اوديب الى طيبة مصر القديمة وليس طيبة اليونان ، كما أعطى نفسه الحق فى أن يجردها من كل المفاهيم اليونانية القديمة والتى تتضمن أساسا الانسان وعلاقته بالأقدار والآلهة . هذا هو الاستبعاد الأول ، الاستبعاد المكانى .

أما الاستبعاد الزمانى فيتمثل أولا فى تصوير استخدام أهل طيبة الاختراعات الحديثة كالاذاعة والتليفزيون والتليفون ، ويتمثل الاستبعاد الزمانى الثانى فى شكل المسرحية وطريقة اخراجها ، فقد أستخدم المؤلف فى الفصل الثانى التقدم التكنيكى الذى حققته التجارب المسرحية المعاصرة فى بث حركة سريعة نابضة فى أرجاء المسرحية يتطلبها دائما المسرح الفكرى لدفع الاملال . كما تم الغاء المسافة الزمانية ثالثا ــ وبطريقة اكثر وضوحا ــ فى

الفكرة التى تقوم عليها المسرحية . فالمأساة لم تعد مأساة اوديب ، بل مأساة طيبة وشعبها فهى تستأجر من يحل لها اللغز وتكافئه على هذا بأن تجعله ملكا عليها ، ولكن اذا حدث وتصدى فرد نعمل بطولى مثل انقاذ أمة ، وأفلح فى هذا ، فاننا لا نلبث ان نتبين حقيقة ما فعل . انالانقاذ وهم زائف ، هو فى الحقيقة تأجيل مؤقت للهزيمة . لهذا فان تريزياس يسخر من أسطورة أوديب القديمة قائلا :
هل قرأتم ان ملكا تربع على العرش لمجرد انه حل أحجية، افرضوا ان أوديب غير موجود وسطكم ، فماذا كنتم تفعلون ؟ .

أنقذ أوديب طيبة من الوحش ، أو هكذا قيل على لسان خبراء الدعاية فى المدينة وصدق الناس النبأ وانصرفوا الى أعمالهم اليومية وانقطع أوديب لاختراعاته ومكتشفاته ليبنى أمته على أساس المنجزات المادية وحدها ، بينما ترك حاشيته تخرب نفسيات الشعب ، بدعوى العمل على أن يلتف الشعب حول مليكهم . وهنا كمنت المأساة ، فلا فائدة من الاختراعات والاكتشافات ما لم يصحبها بناء الانسان ، والكارثة ان ما يحدث هو هدم الانسان . لذلك يعود الوحش من جديد الى الظهور . وحين يطالب الناس أوديب بملاقاته من جديد يجيبهم بأنه سيلبى طلبهم ويحل اللغز ويقتل الوحش ، ولكن حين يموت ماذا هم فاعلون . لذلك يذهب شعب طيبة لملاقاة الوحش فيلاقى الهزيمة . وحين يتساءل أوديب عن سبب الهزيمة مع انه طور طيبة آلاف السنين واخترع للناس كل ما يصنعه الانسان فى المستقبل ، يرد عليه تريزياس قائلا : واخترعت ايضا يا مولاى أسوأ اختراع فى التاريخ . « الخوف » الاختراع الوحيد الذى يفسد كل الاختراعات الأخرى . ويعلن ان اللغز الحقيقى هو

ان يحرر الانسان من الخوف والتملق والشك من أجل كل الطاقات الابداعية بداخله . ومن يحل هذا اللغز هو الذى يستحق ببساطة لقب الحاكم .

وهكذا غير على سالم الأسطورة تماما . فأحالها الى كوميديا وان كانت روح المأساة تتغلغل فى أحداثها واصبحت وقائع المأساة القديمة مجرد أصداء باهتة تنبعث من ماض قديم . مجرد أداة يطوعها المؤلف المسرحى ليعكس قلقه وقلق عصره ومجتمعه ويقدم خلالها رؤيته وكلمته .

ونأتى أخيرا الى صياغة فوزى فهمى فى مسرحيته « عودة الغائب » ، فنجد انه ظل محتفظا بروح المأساة ولهذا فانه كتبها بالعربية بل بأسلوب أقرب الى روح الشعر من حيث التقديم والتأخير والسجع المتناثر خلال الحوار . أما الصراع فليس صراعا بين الانسان والقدر ، ولا بين الحقيقة والواقع ... الخ لكنه صراع اجتماعى فى جوهره . الشعب أحد طرفيه وأوديب يتزعم هذا الطرف لأنه يحقق أحلام الشعب ويدافع عن حقوقه . « هو فى تاريخ طيبة ليس له مثيل ، ملك يدفع بعيدا عنه المنافع الشخصية وينتزع الثروات من الأرض لا لنفسه بل لكل الناس ، أمر لم تعتده طيبة ... » (فوزى فهمى أحمد ، عودة الغائب ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، مسرحيات مختارة ، ١٩٧٧ ، ص ٢٨) .

أما الطرف الآخر فهم أعداء الشعب وعلى راسهم كريون أخو الملكة والعراف تريزياس ، ويعبر كريون عن موقف هذا الطرف حين يعلن قائلا : ان ما اسوقه هو حصاد تجربة عشتها ، فأنا من بيت حكم ، ألفت التعامل مع هذه الجماهير ... انهم لا يثقون بنا .. انهم يعلمون

اننا فوقهم .. نحن غيرهم .. وهم دائما أعداء لمن يحكم . (المرجع السابق ص ٣١) .

وهؤلاء كانوا يريدون من أوديب أن يملك ولا يحكم ، لا يهمهم أن تحبهم الجماهير بل ان تطيعهم . وكانوا يعتقدون ان قتل لايوس تم نتيجة تدبيرهم ، لكن النتيجة جاءت على غير ما دبروا ، فبدلا من أن يخلوا لهم الجو ويحققوا مطامعهم ، حل أوديب اللغز فأصبح من حقه أن يحل محل الملك المقتول ويتزوج زوجته .

ولئن كان أوديب فى الفصل الأول « التعرف » يتعرف على حقيقة ما ارتكبه بما لا يختلف كثيرا عما فى مسرحية سوفوكل ، فان فى الفصل الثانى « القرار » نجده يتخذ قرارا مخالفا تماما لما اتخذه أوديب سوفوكل ، لأنه لا يفعل ما فعله سلفه حين فقأ عينيه وتخلى عن عرش طيبة ، فمعنى هذا انه تخلى عن شعب طيبة وتركه نهبا لمستغليه . ثم لماذا يفعل بنفسه هذا ولم يخطىء لا هو ولا أمه لأنهما ليسا أشرارا ، وسيثبتان لأنفسهما وان بعدهما بأنهما حقا أبرياء وأنهما محيا الضلال من حياتهما لحظة تبيناه . ثم أنهما ليسا مسئولين عما جرى لهما .

وهكذا قرر أوديب ألا يدع العمر يضيع فى باطل وان يغرق راسه بما اراده لهـــا : صنع مستقبل الناس الطيبين أهل طيبة (المرجع السابق ص ٥٦) . وبذلك فان أوديب « فوزى فهمى » يدين أوديب « سوفوكل » بانه أضاع عمره فى باطل وانه تحمل مسئوليةلاذنبله فيها .

ونتيجة لهذه المقدمة اتخذ اوديب قراره : انه لن

يعلن حقيقة قصته ، لأن اعلانها معناه ان يحطم المتلصصون سرحه ويعرفوا جرحه ليعودوا بطيبة الى الوراء ، الى ما قبل اليقظة من الرقاد حيث الأشباح تعود ، ويفرخ السر ويباح ، وتعامل كرامة الناس بالنعال (المرجع السابق ص ٥٨) .

وعندما تؤكد امه جوكاستا بان جريمتهما لا يمكن ان تغفر يقاطعها بالا جريمة هنـــاك . من اجل ذلك قررا أن يظلا زوجين امام النـــاس ولـكنهما امام نفسيهما سيكونان أما وابنا (المرجع السابق ص ٦٠) .

ويحاول كريون المندفع التآمر على اوديب فيحرق رجاله الحقول ويحطمون السدود ولكن مؤامرته تفشل . فيشير عليه تريزياس الخبيث ان يشترى مجلس الشيوخ ليقف أعضاؤه ضد مشاريع اوديب فيعزلونه عمن حوله ويجعلونه وحيدا .

اما جوكاستا فانها تشفق على ابنها وتغرى وصيفتها اوريجانيا بان تكون زوجته مدعية ان سرطانا خبيثا يحول بينهـا وبين أوديب بأمر من الاطباء . وقـد اتضح ان اوريجانيا تحب أوديب لأنها تحب فيه وطنهـا فى ثوبه الجديد .

وعندما يشي كريون لاخته جوكاستا بالعـــلاقة غير الشرعية بين اوديب وأوريجانيا يفلت منها لسانها معلنة ان أوديب ابن دمها . وحين ينتشر الطاعون يجدها كريون وتريزياس فرصة ذهبية لهما . فتريزياس ما يزال يعمل بكهانته ، فيطالب أوديب ان يرحل لانه قاتل ابيه ومعاشر امه فأسراره ليست بمنأى عن سكان الأوليمب ، لكن أوديب يتصدى له معلنا أن ظل سكان الأوليمب على الأرض رغيف وسلام بينما تريزياس يخضب بالموت أرض طيبة ، ويطالبه

بأن يمرغ اطماعه فى الوحل والا يجعل موت البشر سلاحه مستثمرا زمن الضيق ، ويتحسر أوديب على ضيعة الآمال فى عالم الاحقاد (المرجع السابق ص ١١٦) . ويشيع تريزياس فى طيبة ان سبب الدمار وجود من ارتكب معصية فى طيبة ويجب التخلص منه ، فيرد أوديب ردا منطقيا : فالعقاب فى الشرائع لمن ارتكب الخطأ ولا يمكن للآلهة أن تساوم ولا ترضى ان يدفع شعب دمه المسفوك عقابا لمن ارتكب الخطأ . بل العقاب يحتمله مرتكب الخطأ والا فالآلهة اذن آلهة ظالمة .

لكن أوديب يضطر فى النهاية الى أن يعلن أن حجب الحقيقة عن الشعب هو خطيئته ، ولكن الكورس يبرىء أوديب معلنا انه ليس هناك لعنة بل هناك مؤامرة ، وان هذه المؤامرة تتستر فى ظل المعبد . ولكن الكورس يعود فيعاتب أوديب معلنا : كتمت عنا جرحك ونحن شعبك ، صار صمتك وحشا آخر يترصد بنا ، أوديب أنت بسقطتك وصمتك لست لنا (المرجع السابق ص ١٣٤) .

حينئذ يستجيب أوديب لرغبة شعبه معلنا ان الديمقراطية لن تنحنى أمام سلطته . فلتصنع طيبة مصيرها ولتمارس حريتها ولتعلم ان أمامها الطريق غير مفروش بالورود ... « أيها الطيبون انا لا أخالف اجماعكم ، أنتم ترفضوننى وهذا حقكم ، كى لا تبقى حريتكم وهما وشعارا مرفوعا .. لكن الانتصار الحقيقى لكم هو أن تستمروا بهذا القدر من الشجاعة فى ممارسة حريتكم أمام مواقف أخرى مماثلة ... وداعا وأنا اترككم أحرارا من ذلك الخوف » . ثم يصرح بمعارضته لسلفه أوديب سوفوكل : أما أنا فقد كان على أن أفقأ عينى كما تحكى قصتى ، لكن هأنذا أصد بكل ارادتى عن نفسى فقء

العينين فانا احلم بالحصب لا بالعقم ، المرجع السابق ص ١٣٦) . فاذا كان أوديب على سالم قد علم الناس الخوف فان أوديب فوزى فهمى قد حررهم منه .

ويبدو ان فوزى فهمى يسقط على أسطورة أوديب موضوعا معاصرا . وان كان فى الواقع موضوعا جديدا قديما لأنه يتصل بأساليب الحكم فى كل عصر وفى كل مكان . ونحن نلاحظ انه احتفظ من ناحيـــة الموضوع بجانب من الأسطورة القديمة وتخلى عن جانب آخر أبرزه الصراع مع القدر الذى حل محله الصراع الاجتماعى . اما من ناحية الشكل فكان أكثر احتفاظا بالشكل الاغريقى للمسرحية اذ احتفظ بالـــكورس وبروح الشـــعر وبالشخصيات الرئيسية وبزمانها ومكانها ولكنه قسمها الى ثلاثة فصول .

وهكذا استرد ادباء مصر ـ ومن مختلف الأجيال ـ اوديبهم بعد أن تغرب طويلا ؛ ووجدوا فى شخصيته طواعية لأن يؤقلموه مع عقائدهم حينا ومع همومهم حينا آخر ؛ فارتدت ثيابنا وتحدثت بلغتنا ، ولا غرابة فأوديب شخصية خصبة تلاقت مع مواهب خصبة .

فن الكتابة المسرحية

اخذت تتكون منذ منتصف هذا القرن مكتبة عربيه عن الفن المسرحى ، سواء عن طريق التأليف او الترجمة .

وقد قام المرحوم الأستاذ درينى خشبة بأكبر عبء فى ترجمة الكتب الخاصة بهذا الفن ، فترجم كتابا فى الفن المسرحى لادوارد كريج ، وعلم المسرحية لالاردس نيكول ، واعداد الممثل لستانسلافسكى ونشرت هذه الترجمات فى مشروع الألف كتاب بوزارة التربية والتعليم ، كما أنه قام بترجمة كتاب حياتى فى الفن لستانسلافسكى ونشرته دار الشرق ، وترجم أيضا كتاب فن كتابة المسرحية تأليف لاجوس أجرى ونشرته مؤسسة فرانكلين .

والواقع أن هذا الكتاب لا يقتصر على شرح اصول مادة بناء المسرحية وطريقة كتابتها وما ينبغى أن يتوافر فيها من القواعد والاصول بل هو — كما يقول مؤلفه — يعرض العمليات الداخلية التى يقوم بها الذهن الانسانى فى صراعه المحتوم سواء أكان ذلك فى الاقصوصة أم القصة الطويلة أم القصة الاذاعية أم القصة السينمائية أم فى المسرحية . ولهذا فهو كتاب فى فن الكتابة وليس فى فن الكتابة المسرحية فقط .

يقول المؤلف : نحن نعلم ان هناك قوانين للاكل ،

والمشي والتنفس والتصوير الموسيقى والرقص والطيران وبناء الجسور والقناطر ، كما نعلم أن ثمة أصولا وقواعد لكل مظهر من مظاهر الحياة وكل مظهر من مظاهر الطبيعة . فليت شعري لماذا تكون الكتابة هي الشيء الوحيد الذي يشذ على هذا كله فلا تكون لها قوانينها . لا شك أن القول باستحالة وجود قوانين لكتابة المسرحية أمر غير مقبول ولا معقول .

وقسم المؤلف موضوعه الى أربعة أبواب هي :

١ ـ الفكرة الأساسية للقطعة الأدبية ويسميها المؤلف المقدمة المنطقية .

٢ ـ الشخصية المسرحية .

٣ ـ الصراع .

٤ ـ عموميات وتشمل موضوعات أقل اهمية من السابقة .

الفكرة الاساسية للقطعة الأدبية

ويحسن أن تكون واضحة ، كما يجب أن تشتمل على عناصر الصراع اللازمة وعوامل الحركة النابضة ، فالفكرة الأساسية في « روميو وجولييت » مثلا أن الحب العظيم يتحدى كل شيء يقف في سبيله ولو كان الموت نفسه ، وفي الملك لير : الثقة العمياء تؤدي بصاحبها الى الدمار . وعطيل : الغيرة تقضي على نفسها وعلى موضوع حبها . والأشباح : الآباء يأكلون الحصرم والأبناء يضرسون . ثم يورد المؤلف عددا من الأفكار التي تصلح أساسا لقصة أو مسرحية على شرط أن يقتنع بها المؤلف . فلن يمكن أن تدب الحياة في الفكرة الأساسية الا حينما يدافع

الكاتب عن هـذا الجانب أو ذاك من المشـكلة الرئيسية فلابد أن يكون لديه شيء يريد أن يقوله .

والفكرة السيئة المهوشة لا تنتج الا مسرحية سيئة أو مهوشة ، كما يوصى المؤلف الا يتخذ المؤلف المسرحى فـكرتين أساسيتين والا تعرض للفشـل وأربك المسرح والممثلين والمتفرجين جميعا .

وليس هناك فكرة أساسية واحـدة يمـكن ان تكون بالضرورة حقيقة عالمية شاملة . فالفقر لا يؤدى دائمـا الى الجريمة . لكنك اذا اخترت هذه الفـكرة فهو يؤدى الى الجريمة فى هذه الحالة .

ولا يجب أن تبرز الفكرة الاساسيه بحيث تجعـل شخصيات العمل الأدبى مجـــرد دمى ، والعـوامل المتصارعة مجرد أدوات آلية ، بل يجب أن تكون الفكرة منطوية فى أحشاء البذرة الأصلية . كما يجب أن نعلم انه لا المقدمة المنطقية ولا أى جزء آخر من المسرحية يصح أن تكون له حياته المستقلة المنبعثة من ذاته دون سائر الأجزاء الأخرى ، بل يجب أن تمتزج سائر الأجزاء لتبدو كلا منسجما فى توازن تام .

الشخصية :

كل شيء فى الوجود له ثلاثة أبعاد هى الطول والعرض والارتفاع ، وللشخصية أيضا ثلاثة أبعـاد هى كيانها الجسمانى وكيانها الاجتماعى وكيانها النفسى ، وبدون معرفة هذه الأبعاد الثلاثة لا نستطيع أن نقدر الـكائن البشرى حق قدره .

وليس يكفى أن ندرس شخصا ما فنعرف هل هو فظ خشن أو مؤدب دمث أو ورع متدين أو ملحد بل يجب

ان نعرف لماذا هو كذلك ؟ ولماذا تتغير أخلاقه ؟ بل لماذا يجب ان تتغير اخلاقه ؟ .

أما ناحية الكيان الجسمانى فلا شك أن الشخص القبيح ينظر الى الدنيا نظرة تختلف عن الشخص الجميل أو الأعرج أو الأعمى او الأصم او الطويل او القصير ... والمريض يقدر الصحة كما لا يقدرها السليم . ولهذا كان كياننا الجسمانى أشد أبعادنا الثلاثة جلاء وهو يؤثر على تطورنا الذهنى ويصلح أساسا لمركبات النقص والاستعلاء فينا .

وكياننا الاجتماعى هو بعدنا الثانى ، فشخصية الفقير غير شخصية الغنى ، واختلاف البيئة والأصدقاء من اسس اختلاف الشخصية .

اما كياننا النفسى فهو ثمرة بعدينا الآخرين ، واثرهما المشترك هو الذى يحيى فينا مطامعنا ويسبب هزائمنا وخيبة آمالنا ويكون مركبات النقص فينا ومن هنا كان كياننا النفسى متمما لكياننا الجسمانى والاجتماعى .

ثم يذكر المؤلف بالتفصيل عناصر كل بعد من هذه الأبعاد الثلاثة ، فعناصر الكيان الجسمانى مثلا : الجنس (أنثى أو ذكر) ، السن ، الطول والوزن ، لون الشعر والعينين والجلد ، الهيئة ، المظهر ..

ومن الواجب أن تعرف الشخصية التى تتناولها معرفة دقيقة تفصيلية لكى تعلم كيف يتصرف صاحبها فى موقف معين مرسوم ، وأى شىء من الأشياء الى تحدث فى مسرحيتك يجب أن تنبثق مباشرة من الشخصيات التى وقع عليها الاختيار لاقامة الدليل على الفكرة الأساسية للرواية ، ويجب أن تكون هذه الشخصيات

من القوة بما يكفي لاقامة الحجة على صـــدق مقدمتك بطريقة طبيعية معقولة يقبلها المتفرجون لا بطريقة تحكمية تريد أن تفرضها على غيرك فرضا .

ويوصي المؤلف الكتاب ان يهتموا بوجوب استمرار تنمية شخصياتهم المسرحية وعدم وقوفها عند نقطة بعينها لا تنمو بعدها أبدا . والنماء هو رد الفعل الذى تظهره الشخصية للنضال الذى يكتنفها . والشخصية يمكن أن تنمو بقيامها بالخطوة الصحيحة او بالخطوة الخاطئة على السواء . الا أنها يجب أن تنمو اذا أردنا لها أن تكون شخصية روائية صحيحة . وكل مسرحية جيدة تخوض من قطب الى قطب أي من أحد طرفيها الى الطرف الآخر .

ولابد فى كل مسرحية من وجود شخصية محورية تكون هي البطل الاول أي الشخص الذى يتولى القيادة فى اية حركة أو قضية . ونماء الشخصية المحورية لا يمكن أن يكون شاملا كنمو الشخصيات الروائية الأخرى ، فلا نستطيع مثلا ان ننتقل من الكراهية الى الحب أو العكس، ولهذا يكون تطور الشخصية المحورية فى نطاق انسيق من نطاق تطور خصومها . وسبب ذلك ان الشخصية المحورية قد وصلت الى قرار حاسم قبل أن تبدأ القصة . ثم أنه الشخص الذى يجبر الآخرين على النماء والتطور . ففى كل رواية لا يرتفع الستار الا حينما يكون صاحب الشخصية المحورية قد وصل الى نقطة تحول فى حياته . ومن المقطوع به أن تبدأ قصتك ــ أو مسرحيتك ــ من وسطها وليس من مبدئها بأى حال من الأحوال .

وأى انسان يعارض هذا البطل هو خصمه . وبدون هاتين الشخصيتين لا يمكن أن توجد مسرحية لأنه لا يمكن

ان يوجد فيها ما يدفع قصة المسرحية الى الأمام او ما يثير فيها الصراع .

وقوة الارادة فى الشخصية من أهم العوامل التى تكون مبعثا الصراع فيها ، اما الشخصية الضعيفة الارادة فهى شخصية شديدة الخطر على المسرحية .

ومن أهم اعمال الكاتب المسرحى أن ينسق شخصياته، اى أن يحسن توزيع الأدوار على تلك الشخصيات ، بحيث لا يجعل شخصيات المسرحية من نمط واحد والا فشلت المسرحية .

الصراع :

الصراع فى كل مسرحية هو روحها ، وهو ينبع من الشخصية ، وهو أربعة أنواع : الصراع الساكن ، والصراع الواثب ، والصراع الصاعد الذى لا يكف عن الحركة المتدرجة ، والصراع الذى يدلك من طرف خفى على ما ينتظر حدوثه .

أما الصراع الساكن فسببه وجود شخصيات لا تستطيع الحسم فى الأمور ، ولسنا نستطيع ان ننتظر صراعا من رجل لا يريد شيئا ولا يعرف ماذا يريد . اما الصراع الواثب فيحدث فجأة وفى قفزات كما فى الميلودراما حيث الافتعال والسطحية والعواطف الثائرة التى تثور لاتفه الأسباب . اما احسن أنواع الصراع فهى الصراع الصاعد ويليه الذى لا يكف عن الحركة المتدرجة . واذا تساوى الخصوم فى المسرحية قوة كان الصراع شائقا لأنه ناشب بين أكفاء متساوين أما اذا كان بين ضعيف وقوى فقدنا استمتاعنا بالمسرحية ، كما لو كانت الملاكمة بين قوى وضعيف .

ويؤكد المؤلف فى أكثر من موضع أن المسرحية ليست

محاكاة للحياة او صورة منها ، لكنها جوهرها ولبابها ، فيجب أن نركز كل ما هو هام فيها ونكثفه . كما ان الانتقال فى المسرحية يختلف عن الانتقال فى الحياة الواقعية ، فقد يحدث الانتقال فى وقت قصير جدا دون ان يفطن الى ذلك صاحب الشخصية ، وعلى المؤلف أن يرينا أنه موجود فى ذهن هذه الشخصية .

عموميات :

ولابد للمسرحية فى مجموعها أن تتصاعد باستمرار حتى تصل الى قمة تكون أوج الرواية كلها ، ويكون المشهد الذى يتم فيه ذلك أكثر توترا من اى مشهد سواه ، على الا يضر ذلك بأى مشهد سابق .

كذلك يصحح المؤلف الفكرة الخاطئة التى تزعم أن من واجبات الكاتب المسرحى أن يقوم بعرض موضوع الرواية والكشف عن شخصياتها فى مستهل الرواية والواقع أن العرض نفسه جزء من الرواية فى مجموعها وليس مجرد أداة .

أما الحوار فيجب أن يكشف لنا عن الشخصية ، وكل كلام يجب أن يكون ثمرة لمقومات المتكلم الثلاثة ، أى أبعاد شخصيته الثلاثة : الجسمانية والاجتماعية والنفسية ، فتعرف عنه من هو ، ويوحى الينا بما عسى أن يصير اليه فى المستقبل .

والحوار ينمو من الشخصية ومن الصراع ، كما انه يحمل الفعل أى يقوم بأداء الموضوع وشرحه . ولابد من الاقتصاد فى استعمال الكلمات ، فالفن ميدان انتخابى وليس مجال النقل الفوتوغرافى ، وكثرة الكلام تطمس الفكرة . كما ان الشخصيات يجب أن تتكلم بلغة البيئة

التى تعيش فيها . ولا تسمح لبطلك الأول بأن يلقى خطبة متلا والا اقشعر الجمهور وفرج عن نفسه بالضحك عليك . والنكات من أجل النكات فقط تتلف استمرار الموضوع وتمزق أوصاله . واذا ذكرت أشياء عديدة كان عليك أن تدخر أهمها لتذكرها بعد الأشياء الأقل اهمية . ويجب أن يكون الأسلوب واللهجة متفقين مع شخصيات الرواية . والحوار هو الواسطة التى تحمل مسرحيتك الى الى الأسماع ، لكنه ليس هو المقصود بالذات .

ان الحوار الجيد هو ثمرة لشخصية أحسن اختيارها وسمح لها بالنماء نماء منطقيـــا الى أن يكون الصراع الصاعد قد أقام الدليل على صحة المقدمة .

ويتحدث المؤلف عن دخول الشخصيات وخروجها فى المسرح فيقول أنهمـــا جزء من اطار الرواية كالأبواب والنوافذ للمنزل ، ويجب أن يساعدا على تطور الصراع ، وأن يكونا جزءا من الشخصية أثناء قيامها بالكشف عن ذاتها .

هذا عرض سريع مختصر جدا لهذا الكتاب القيم موضوعا ومنهجا ، ولم يكن دور الأستاذ درينى خشبة مجرد دور المترجم بل أنه قام بدور الأستاذ الذى يناقش ويعلق ، وقد سجل فى نهاية الكتاب ثبتا بالمصطلحات التى قام بترجمتها ليستفيد بها غيره .

فهـــرســت

شكوى الموظف الفصيح :

صفحة

حبر على ورق :

من الآداب العالمية :

من ادب الرحلات :

من المسرح :

رقم الايداع بدار الكتب والوثائق القومية ٢٤٨١ / ٨٠

الترقيم الدولى ٧ ـ ٦٣ ـ ٧٠٣١ ISBN

وكلاء اشتراكات مجلات دار الهلال

جدة – ص . ب رقم ٤٩٣
السيد هاشم علي نحاس
المملكة العربية السعودية

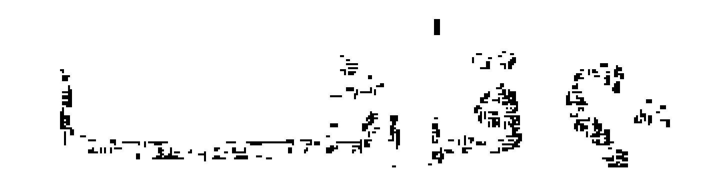
انجلترا : THE ARABIC PUBLICATIONS
7. Bishopsthrope Road
London S.E. 26
ENGLAND

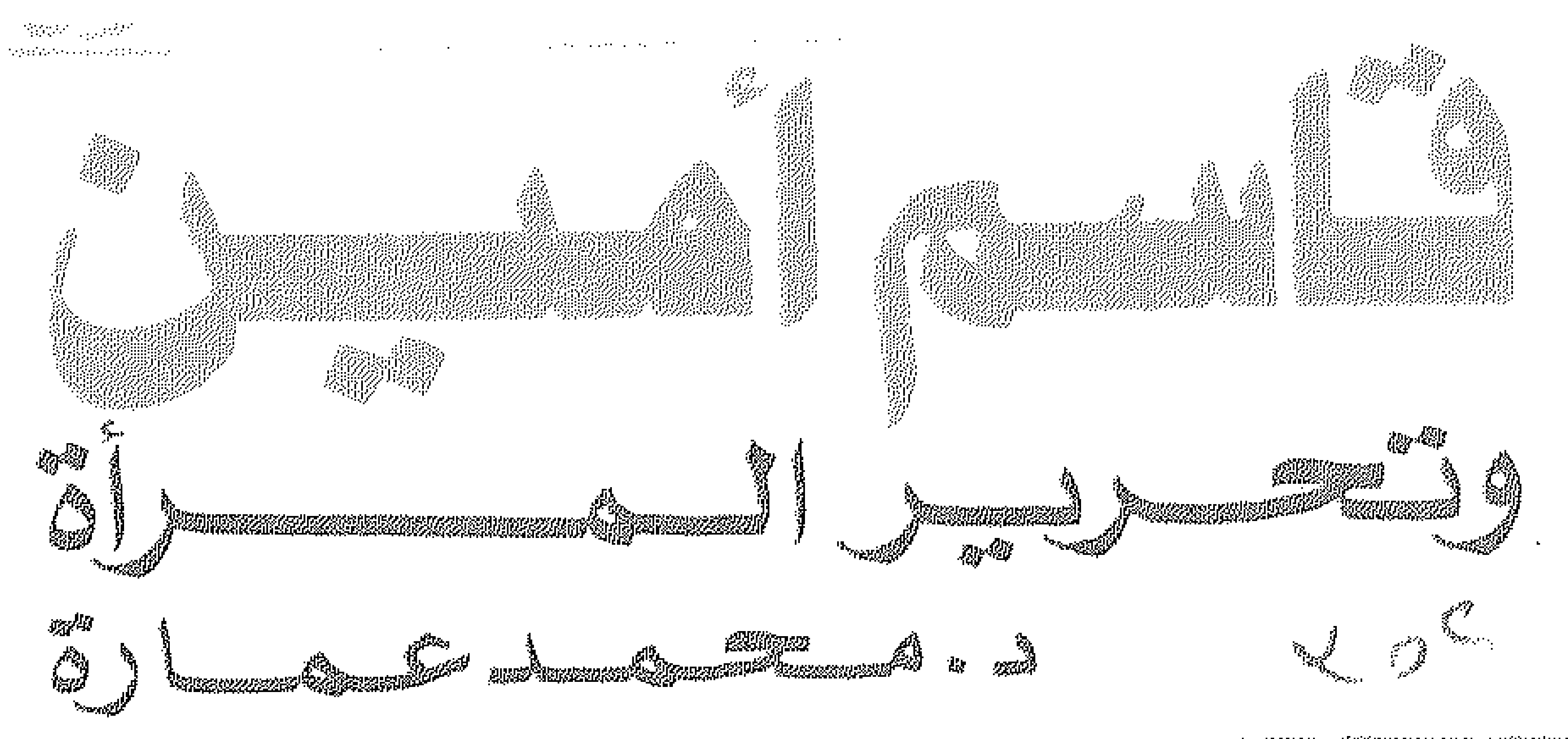
البرازيل : M. Miguel Maccul Cury.
B. 25 de Maroc, 994
Caixa Postal 7406,
Sao Paulo. BRASIL.

هذا الكتاب

زيد بن عبيد موظف توفي اخيرا بعد احالته على المعاش بقليل .
وقد عثر في احد ادراج مكتبه على تسعين شكوى - وكان سلفه الفلاح الفصيح قد رفع منذ اكثر من خمسة الاف عام تسع شكاوى فقط كانت كافية للنظر في موضوع شكواه وانصافه - اما موظفنا الفصيح فانه لم يكترث بارسال ما تعب في كتابته ، ربما لاعتقاده ، ان ارسالها او عدم ارسالها يتساويان . وهي شكاوى مرسله الى جهات مختلفة واشخاص متباينين ، منهم الاحياء ومنهم الاموات ومنهم من لم يولد بعد ... منهم ناظر مدرسة ابتدائية ومدير مكتب بريد ورؤساء وزارات ورؤساء دول عربية واجنبية .

وكتابنا هذا يتضمن نماذج من هذه الشكاوى الطريفه تعقبها ثلاث جولات : جولة في الادب العالمي ، واخرى في ادب الرحلة عندنا ، وثالثة في عالم المسرح ، لنجد انفسنا في نهاية رحلة ثقافية ممتعة يقدمها لنا مؤلف استفاد بفنه القصصي في تقديم مادته الجذابة ، وبفنه النقدي في اضفاء لمسة ساخرة على هذه المادة .




قاسم أمين
وتحرير المرأة
د. محمد عمارة

كتاب الهلال

KITAB AL-HILAL

سلسلة شهرية تصدر عن « دار الهلال »

رئيسة مجلس الإدارة : أمينة السعيد

نائب رئيس مجلس الإدارة : صبري أبو المجد

رئيس التحرير : د. حسين مؤنس

سكرتير التحرير : عايدة عياد

العدد ٣٥٢ – جمادى الأولى ١٤٠٠ – ابريل ١٩٨٠

No. 352 — April 1980

مركز الادارة

دار الهلال ١٦ محمد عز العرب

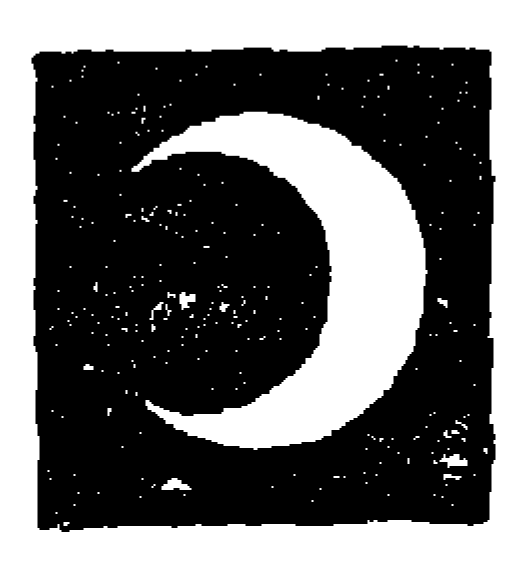
تليفون ٢٠٦١٠ (عشرة خطوط)

الاشتراكات

قيمة الاشتراك السنوى – ١٢ عددا – فى جمهورية مصر العربية جنيهان مصريان بالبريد العادى . وبلاد اتحادى البريد العربى والافريقى وباكستان ثلاثة ونصف جنيه مصرى بالبريد الجوى . وفى سائر انحاء العالم سبعة دولارات بالبريد العادى وخمسة عشر دولارا بالبريد الجوى .

والقيمة تسدد مقدما لقسم الاشتراكات بدار الهلال فى ج. م. ع. بحوالة بريدية غير حكومية وباقى بلاد العالم بشيك مصرفى لامر مؤسسة دار الهلال وتضاف رسوم البريد المسجل على الاسعار الموضحة اعلاه عند الطلب .

كتاب الهلال



سلسلة شهرية لنشر الثقافة بين الجميع

الغلاف بريشـــــــــة
الفنان أحمـد الوردجى

دكتور محمد عمارة

قاسم أمين
وتحرير المرأة

دار الهلال

تقديم

ليست الريادة هى المعيار الوحيد الذى يكسب المفكر والمصلح مكانا عاليا وهاما فى حركة تطور المجتمع الذى يعيش فيه ، وان تكن لها ميزاتها ووزنها وتكاليفها التى تضفى على أصحابها الكثير من المجد والتقدير .

وفيما يتعلق بارتياد المفكرين والمصلحين فى شرقنا العربى الاسلامى ، فى العصر الحديث ، لميدان الدعوة الى تحرير المرأة المسلمة والشرقية ، هناك خلاف قائم بين عدد من الذين عرضوا بالتأريخ لذلك الحدث الذى حاول به هؤلاء المفكرون والمصلحون أن يتخطوا بالمرأة نطاق حريم العصور « المملوكية ــ العثمانية » المظلمة الى أعتاب ورحاب الاستنارة واليقظة والتفتح التى افاءها على الشرق عصر التنوير الذى بدأته مصر فى عهد محمد على (١٨٠٥ ــ ١٨٤٨ م) ، وقادت الشرق الى ساحاته منذ ذلك التاريخ .

فهناك من يرى ان فضل الريادة فى هذه الدعوة ، الى تحرير المرأة معقود لقاسم أمين ، وان أول صيحة لهذا التحرير هى صيحة قاسم أمين ، فى كتابيه (تحرير المرأة) و (المرأة الجديدة) (١) ومؤدى هذا الرأى ان الدعوة الى

(١) د. محمد حسين هيكل (تراجم مصرية وغربية) ص ١٥٢ ـ طبعة القاهرة ـ مطبعة مصر ـ بدون تاريخ .

تحرير المرأة لم تعرفهـــا مجتمعاتنا الشرقية ، ومصر بالذات ، قبل تاريخ صـــدور كتـاب (تحرير المرأة) فى سنة ١٨٩٩ م ٠

وهنـاك من يرى ان الأتراك العثمانيين كانوا أسبق من المصريين فى سلوك هذا السبيل ، وان الآستانة قد ارتفعت فيها هذه الصيحة قبل القاهرة ، وان صحيفة (الجوائب) قد شهدت دعوة صاحبها أحمد فارس الشدياق (١٨٠٤ ـ ١٨٨٨ م) الى تحرير المرأة قبل أن يولد قاسم أمين .. ويعللون سبق الأتراك الى هذا الميدان « بكثرة اختلاطهم بالأجانب ، وسبقهم فى الاطـلاع على أسـباب التمـدن الحديث » (٢) .

واذا ما كان السؤال : أيهما أسبق فى الدعوة لتحرير المرأة : أحمد فارس الشـدياق ؟ أم قاسم أمين ؟ فان البداهة تعطى السبق للشدياق .. فهو قد عاش ومات قبل أن يكتب قاسم عن المرأة وتحـــريرها ، وصحيفة (الجوائب) قد صدرت (١٨٦٠ م ـ ١٢٧٧ هـ) أى قبل مولد قاسم أمين بنحو اربع سنوات ..

ولـكننا لن نعثر على الحقيقة فى قضية الريادة لهذه الدعوة اذا نحن وقفنا عنـد هذه الحـدود التى يرسمها أصحاب هذا الخلاف .. ذلك ان هناك وقائع آخرى نراها هامة وضرورية لمن يريد الوصول الى كلمـة سواء فى هذا الموضوع .

فأولا : كانت مصر ، فى ظل الدولة المدنية الحديثة ، التى قـاد انشاءها محمد على أسبق الى حركة التمـدن

---

(٢) « الهلال » تأبين قاسم أمين ٠ انظر ص ٦ من تقديم الناشر لكتاب قاسم أمين (أسباب ونتائج وأخلاق ومواعظ) طبعة الاسكندرية سنة ١٩١٣ م ٠

الحديث بكل مناحيها واشكالها ــ ومنهــا الدعوة لتحرير المراة ــ من المجتمع العثمانى ، ولقـــد بدات انعكاسات التجربة المصرية تعمل عملهــا وتحدث تاثيراتها فى الدولة العثمانية ذاتها ؛ حتى قيل : « ان النهضة العثمانية ، بـكل فروعها . مسبوقة فى مصر ؛ ومقتبسة عنها (٣) . » فالريادة هنا لمصر ، لا للأتراك العثمانيين .. وذلك اذا أخذنا قضية التمدن الحديث والدخول الى عصر النهضة والتنوير على وجه الاجمال .

وثانيا : اذا نحن أردنا التأريخ لنشأة المدارس العربية والوطنية التى قامت لتعليم البنات بعض الفنون والعلوم ، وهى تلك التى أنشأها محمــد على للتمريض ، وغيره من الفنون .. وهو تاريخ ســـابق على صــدور (الجوائب) فى ستينات ذلك القرن بثلاثة عقود تقريبا .

واذا نحن نقبنا فى الفـكر العصرى الذى شهدته مصر فى ظل تلك الدولة الحديثة ومجتمعها ، وجدنا الدعوة ؛ غير المباشرة ، الى تحرير المرأة وتعليمها معلنة فى كتاب رفاعة الطهطاوى (١٨٠١ ــ ١٨٧٣ م) « تخليص الابريز فى تلخيص باريز » وتاريخ تأليفه ســـــابق على أكتوبر سنة ١٨٣٠ م ، وطبعته الأولى قد صدرت سنة ١٨٣٤ م (٤) وهو قد ترجم الى التركية فى ذلك التاريخ .

كما نجد الدعوة الى تقريب الفروق بين حق المراة وحق الرجل فى التعليم تظهر فى مداولات (لجنة تنظيم التعليم) التى كان الطهطاوى عضوا بهــا ، فتقترح هذه اللجنــة فى سنة ١٨٣٦ م « العمل لتعليم البنات فى مصر » تعليما

---

(٣) الاعمال الكاملة لعبد الرحمن الكواكبى ، دراسة وتحقيق دكتور محمد عمارة . ص ٣٥٢ ، طبعة بيروت سنة ١٩٧٥ م .

(٤) « الاعمال الكاملة لرفاعة الطهطاوى » دراسة وتحقيق دكتـــور محمد عمارة ، ج ١ ص ٧٨ . طبعة بيروت سنة ١٩٧٣ .

يتخطى حدود الضرورات العملية التى كانت تحكم مناهج المدارس التى كانت قائمة للبنات فى ذلك التاريخ .

وهكذا تسبق مصر ويسبق المصريون الأتراك فى الدعوة الى تعليم المرأة وتغيير أوضاعها .. ويسبق الطهطاوى الشدياق ، وغيره ، فى ارتياد هذا الميدان .. ثم يأتى كتابه (المرشد الأمين لتربية البنات والبنين) الذى كتبه فى بداية السبعينات بتكليف من (ديوان المدارس) كى يدرس فى مدارس البنات .. يأتى حاويا لـــكثير من الآراء ووجهات النظر التى يمثل مجموعها أول بناء فكرى شبه متكامل يكرسه مفكر عربى لقضية تحرير المرأة فى عصرنا الحديث .

تلك هي قضية الريادة فى هذا الميدان .. فهى لمصر محمد على ، وليست لتركيا آل عثمان .. وهى للطهطاوى ، وليست لأحمد فارس الشدياق أو قاسم أمين .

***

ولكن .. تبقى لقاسم أمين ، فى هذا الميدان ، ميزة ينفرد بها عن كل من عداه من المفكرين والمصلحين الذين أسهموا بسهم فى هذا السبيل .. فكل من عدا قاسم أمين كان حديثهم عن تحرير المرأة والنهوض بها امرا من أمور كثيرة تناولوها فيما أبدعوا من أفكار وآثار .. اما قاسم أمين فهو الوحيد من بين كل هؤلاء الذى وهب كل جهوده وجميع آثاره ـ تقريبا ـ لهذه الدعوة ، حتى لقد ذهب علما عليها ورمزا لها ، تتداعى قضاياها وحجج أصحابها اذا ذكر اسمه فى أى وقت وأى مجال .

بل ان كل الجوانب الأخرى التى مثلت وتمثل القسمات المتعددة لفكر قاسم أمين وموقفـــه الاصلاحى ، وهى الجوانب التي ستكشف عنها دراستنا هذه للمرة الأولى ،

انما جاءت من خلال دراسته لهذه القضية ودعوته قومه لهذا الأمر الخطير .

- فمنهجه الاجتماعى فى البحث .. ومذهبه فى رؤية التاريخ وتطور المجتمعات .
- وانتماؤه الاجتماعى والفكرى .. والمجتمع الذى بشر به .
- وموقفه من « التمدن الاسلامى » وفهمه لهذا التمدن .
- ودعوته فى الاصلاح الاجتماعى .. والتربوى ..
- وموقفه من تبلور الشخصية المصرية الحديثة .. ومزاجه المعتدل فى الوطنية .. وتقييمه لتجربة مصر الحديثة ..

كل هذه القسمات ، وغيرها ، فى فكر قاسم امين ومذهبه الاصلاحى ، قد تبدت من خلال حديثه عن القضية الأساسية التى نذر نفسه لها .. وهى قضية المرأة الشرقية والمسلمة ، والعمل على الانتقال بها من ظلمات جاهلية العصور الوسطى الى أنوار تحضر العصر الحديث .

فاذا لم تكن ريادته ريادة سبق .. واذا لم يكن سبقه سبق زمان وتاريخ .. فان له الريادة فى تكريس كل جهده الفكرى لهذه القضية قبل غيرها ، بل ودون غيرها — تقريبا — من قضايا الاصلاح ..

واذا كانت هذه الدراسة التى نقدمها عن قاسم أمين ستضع ، من خلال فصولها القادمة ، فكر القارىء والباحث على حقائق وقسمات فى فكره لم يلتفت اليها كثير من دارسيه ، فان الفضل فى ذلك — بعد المنهج

العلمي الذى نتناول به دراسة فكره ـ يعود الى مجيء هذه الدراسة ثمرة للنظرة الشاملة لأعماله الفكرية الكاملة ، خصوصا وانها الدراسة الأولى التى تهتم كثيرا برصد تطوره الفكرى . بعد أن يسرت لنا تلك المهمة ترجمة كتابه « المصريون » الذى رد به على الدوق الفرنسى « داركور » .. والذى كان أول كتاب يؤلفه قاسم أمين .

لقد ظل هذا الكتاب الهام بعيدا عن قراء العربية منذ صدوره بالفرنسية سنة ١٨٩٤ م حتى تاريخ تقديمنا له بالعربية ، ضمن أعماله الكاملة سنة ١٩٧٦ م .. ومن هنا كان الجديد الذى تقدمه هذه الدراسة عن فكر قاسم أمين ، مرتبطا ونابعا من الجديد الذى قدمته طبعتنا المحققة لأعماله الكاملة منذ خمس سنوات .

فاليوم قد أتيحت لقراء العربية نصوص قاسم أمين وأعماله الكاملة للمرة الأولى .

واليوم قد أتيحت للغة العربية فرصة امتلاك نص كتابه « المصريون » لأول مرة .

واليوم تتاح لقراء العربية امكانية رصد جوانب فكره وقسمات مذهبه الاصلاحى .

وهى الأمور التى نرجو أن يكون قد حالفنا فى انجازها التوفيق .

دكتور
محمد عمارة

بطاقة حياة

(ان اللذة التى تجعل للحياه قيمه ، ليست حيازه الذهب ، ولا شرف النسب ، ولا علو المنصب ، ولا شيئا من الاشياء التى يجرى وراءها الناس عاده ·· وانما هى أن يكون الانسان قوه عامله ذات اثر خالد فى العالم ··)

قاسم امين

في هذه « البطـاقة » نكتف المعـالم الهامة والبارزة في حياة قاسم أمين ، وذلك حتى تكون سطورها « شريطا » يعرض ، في ايجاز شديد ، حقائق هذه الحياة وتطورات صاحبها في حيـاته الخـاصة والعـامة .. فهي ليست « ترجمة » ـ بالمعنى المتعارف عليه ـ لحياته ، وانما هي « بطاقة » لهذه الحياة تكثف معالمها البارزة في عدد من النقاط :

ـ ١ ـ

★ ولد قاسم أمين لأب تركي عثماني وأم مصرية من صعيد مصر .. فوالده محمد بك أمين كان قبل مجيئه الى مصر واستقراره بهـــا ، الوالي التركي على اقليم « كردستان » احدى ولايات الدولة العثمانية في ذلك التاريخ .

وعندما ثارت « كردستان » ضد الدولة العثمانية ، واعلنت استقلالها وانفصالها عن الآستانة ، كان واليها محمد بك أمين في الآستانة ، فظل بها ، حتى منحته الدولة ، عوضا عن امارته ، اقطاعات في مصر ، باقليم « البحيرة » ، قرب مدينة « دمنهور » ، فنشأت علاقته

بمصر ، وقرر الاقامة بهـــا ، وكان ذلك فى بداية حكم الخديوى اسماعيل .

★ وفى مصر تزوج محمد بك أمين احدى بنات أسرة مصرية من صعيد مصر ، هى ابنة أحمد بك خطاب ، شقيق ابراهيم خطاب باشا .

★ وفى مصر كذلك التحق محمد بك أمين بالجيش المصرى على عهد الخديوى اسماعيل ، رقيه ارتقى حتى بلغ رتبة « أميرالاى » وشـــغل مركز قائد ســلاح « المرابطين » .

★ وهناك ما يرجح ان تاريخ ميلاد قاسم أمين ـ وهو الابن الأكبر لهـــذه الأسرة ـ كان فى أول ديسمبر سنة ١٨٦٣ م (٥) . وهناك خلاف فى محل ميلاده .. هل هو الاسكندرية ؟ أم ضاحية « طرة » القريبة من القاهرة ؟ .. ولعل الأم كانت تقيم بالاسكندرية ، على حين كان عمل الأب فى « طرة » ، ومن هنـا نشأت أسـباب اللبس والاختلاف .

★ وفى الاسكندرية قضى قاسم امين اولى سنواته فى التعليم .. فلقـــد دخل مدرسة « رأس التين » الابتدائية ، وكانت يومئذ مدرسة أبناء الارستقراطية من أبناء الأتراك والشراكسة والأثرياء .

★ وبعد حصول قاسم على شهادة الابتدائية انتقلت الأسرة من الاسكندرية . واستقر بها المقام فى القاهرة ،

---

(٥) يخطىء كل من : سركيس فى معجم المطبوعات العربية والمعربة « ومحمد رضا كحالة فى « معجم المؤلفين » و « الموسوعة العربية الميسرة » فى تحديد سنة ميلاده ، فيجعلونها سنة ١٨٦٥ م .. ولكن الزركلى فى « الاعلام » ، وكذلك كتاب ترجمته وأصدقاؤه ومعاصروه يجعلونها سنة ١٨٦٣

وسكنت فى حى الأرستقراطية القاهرية يومئذ ، حى « الحلمية » .. والتحق قاسم بالمدرسة التجهيزية ـ الخديوية ـ والمدارس التجهيزية فى ذلك العصر تقابل المدارس الثانوية هذه الأيام .. وفى هذه المدرسة دخل قاسم أمين القسم الفرنسي .

★ وبعد المرحلة التجهيزية التحق قاسم بمدرسة الحقوق والادارة ـ وهى مدرسة عليا كانت البديل لكلية الحقوق فى غياب الجامعات ـ ومنها حصل على « الليسانس » ، وهو فى العشرين من عمره ، سنة ١٨٨١ م .. وكان أول خريجيها فى ذلك العام .

★ وكان قاسم أحد طلاب الحقوق الذين اقتربوا من حلقة جمال الدين الأفغانى ومدرسته الفكرية التى ازدهرت بمصر فى ذلك التاريخ .

ـ ٢ ـ

★ اتجه قاسم أمين ، بعد تخرجه وحصوله على الليسانس ، الى العمل بالمحاماة .. وكانت لوالده صلات وثيقة مع المحامى الكبير مصطفى فهمى باشا ـ الذى تولى فيما بعد رئاسة الوزارة فى ظل الاحتلال الانجليزى لمصر ـ فالتحق قاسم بالعمل فى مكتب مصطفى فهمى للمحاماة .

★ ولم تطل مدة عمل قاسم بمكتب مصطفى فهمى باشا للمحاماة .. ففى نفس العام ـ ١٨٨١ م ـ سافر فى بعثة دراسية الى فرنسا ، وهناك انتظم فى جامعة « مونبلييه » .. وبعد دراسة استمرت فيها أربع سنوات أنهى دراسته القانونية بتفوق فى سنة ١٨٨٥ م .

★ واثناء مقـام قاسم امين بباريس ، حدثت بمصر احداث الثورة العرابية التى قادها وشارك فيهـا عديد من تلامذة جمال الدين الأفغانى ، والحزب الوطنى الذى كونه بمصر سرا فى أواخر السبعينات .. ثم انتهت هذه الثورة بالتدخل الانجليزى المسلح ، واحتلال انجلترا لمصر ، ومحاكمة زعماء الثورة ونفيهم من البلاد .

★ ثم استقر المقام بالأفغانى ــ بعد فك اقامته الجبرية بالهند ــ وكذلك بمحمد عبده ــ بعد نفيه من مصر ــ استقر بهما المقام بباريس منذ سنة ١٨٨٣ م ، وهنـاك أصدرا مجلة « العروة الوثقى » لســـان حال لتنظيم « العروة الوثقى » السرى الذى انتشرت فروعه من مصر الى الهند . والذى قام أساسا لمناهضة الزحف الانجليزى على الشرق ، ولمناوأة احتلالهم مصر بالذات .

وفى تلك الفترة عادت صلات قاسم أمين مع الأفغانى ومدرسته ، فكان « المترجم » الخاص بالامام محمد عبده فى باريس .

★ وفى فرنسا قرأ قاسم لمفكرى أوربا الـكبار ، ومن بين الذين قرأهم : نيتشة (١٨٤٤ ــ ١٩٠٠ م) وداروين (١٨٠٩ ــ ١٨٨٢ م) وماركس (١٨١٨ ــ ١٨٨٣ م) .

وفى فرنسا كذلك حاول قـاسم أمين الاقتراب من المجتمع الفرنسى واقامة الصلات الوثيقة مع نمط حياة الفرنسيين الاجتمـــاعى .. غير ان طبيعته الشرقية الخجولة ، وسمة الانعزالية التى ميزت شـخصيته لم تمكنه من الذهاب بعيدا فى هذا المضمار ..

فهناك صداقة ، بل وحب ، قد نمـــا بينه وبين « سلافا » ، تلك الفتاة الفرنسية التى زاملته فى الدراسه بجامعة مونبلييه .. ولكن هذه الصداقة وذلك الحب قد

ظل « رومانسيا » ، وكانت أهم آثاره تلك المشاعر النبيلة التى بدات تتولد فى نفس قاسم نحو المرأة منذ ذلك الحين ، وتلك الأحلام الوردية التى بدات وظلت تراوده عن قيام المرأة بدور الوحى والحافز والمساعد فى حياة الرجل ، ومن ثم المجتمع ، بدلا من بقائها قيدا يشد خطو الرجل والأمة الى الوراء .. لقد بدأ يحلم بالانسانة التى تجمع بين جمال الأنثى وعقل الرجل ؟! .

كما وقف هذا الخجل الشرقى وتلك المحافظة والانعزالية ، اللذين تحلت بهما طبيعة قاسم أمين ، حائلا بينه وبين الانسجام مع مرح ذلك المجتمع وما كان لرجاله بنسائه من علاقات لم تكن مستساغة عند أغلب الشرقيين الذين ذهبوا الى باريس فى ذلك التاريخ .

فقاسم ذهب الى باريس بعد رحلة الطهطاوى اليها بخمس وخمسين عاما ، والثانى كان شيخا أزهريا ، وواعظا بالجيش ، وامام الدين للبعثة الدراسية التى ذهبت تتعلم هناك .. ومع فارق الزمن وفارق الثقافة والبيئة .. فقد كان الطهطاوى أكثر تقبلا وتفهما لعادات الفرنسيين الاجتماعية وعلاقاتهم الأسرية ، وأقل محافظة فى تقييمه لحفلاتهم واختلاط رجالهم بنسائهم من قاسم أمين ! .

فالطهطاوى ينفى أن يكون سفور المرأة الفرنسية مفضيا ، بالتبعية والحتم ، الى التبذل والخروج عن مقتضيات العفاف .. فالفرنسيون يحافظون ــ مثلنا ــ على « العرض » ويسمونه شرفا ، بل « ويقسمون به عند المهمات ، واذا عاهدوا عليه ، وفوا بعهودهم ! » .. « هم مثل العرب فى هذا الأمر .. » أما حدوث « اللخبطة » ــ كما يقول ــ بالنسبة لعفة النساء ، فليس مبعثه السفور

أو الاختلاط ، بل ولا شيوع العشق في المجتمع الفرنسي ؛ لأن منشأ « العفة » أو « اللخبطة » انما يعود الى « التربية الجيدة والخسيسة ؛ والتعود على محبة واحد دون غيره ، وعدم التشريك في المحبة . والالتئام بين الزوجين » .. ومن ثم فان الفرنسيين « تقل فيهم دناءة النفس » فيما يتعلق بعلاقات الرجال مع النساء ! (٦) .

تلك كانت انطباعات الطهطاوى عن هــذا الجانب من جوانب المجتمع الفرنسي .

أما قاسم امين فانه كان اكثر تحفظا فى التقييم لهذا الجانب من حياة الفرنسيين ، فهو يكتب عنه فيقول : « .. يضم المجتمع الأوروبى الرجال والنساء دائما ، فيسهل الاتصال بينهم ، وتنشأ فيما بينهم علاقات الفة وصداقة وحب ؛ وهذا الاختــــــلاط بين الجنسين فى الاجتماعات يسبغ عليها عذوبة ورقة . فالسحر الذى تشيعه المرأة فى كل مكان توجد فيه ، شيء ممتع ونفاذ كعطر الزهور . وفى مثل هــذه الاجتماعات ينعم المرء دائما بالمرح ، وغالبا ما يتودد للغير ، ويخرج فى النهاية مفعم القلب بالرضا ! » .

ثم يستطرد متحدثا عن تجربته الذاتية مع هذا النمط من الحفــلات الباريسية فيقول : « وقد اتيح لى تقييم هذا السحر الفـــــريد ، وكان شأنى شأن الآخرين فى الاحساس بقدره ، وخاصة فى وجود امرأة تجمع حصافة الفــكر الى جمال الجسد . وقد رمت بى طبيعتى الخجولة بين الاضطراب والحيرة أكثر من مرة غير ان هذا لم يقلل من حبى لهذه اللقاءات الشيقةالتى يهتم فيها الجميع بخلق جو

(٦) « الاعمال الـكاملة لرفاعة الطهطاوى » جـ ١ ص ١٠٩ ، ١١٠ .

البهجة و الاستمتاع به ! .. » (٧) .

★ وفى صيف سـنة ١٨٨٥ م عاد قاسم أمين الى القاهرة ، وذلك بعد أن عمل هناك مع استاذه « لرنود » ـ عقب التخرج ـ عدة شهور .

ـ ٣ ـ

★ ويوم احتفال قاسم أمين بعيـد ميـلاده الثانى والعشرين ـ أول ديسمبر سنة ١٨٨٥ م ـ صدر قرار تعيينه بالقضـاء ، فى النيابة المختلطة .. فبدأ طريقه لتحقيق طموحه ، وخاصة ما يتعـلق منه باثبات جدارة المصرى ونديته للأوروبى فى تولى الوظائف العـامة والنهوض بأعبائها .. وبوجه أخص فى حقـل مؤسسة قضائية وطنية تـكون موضع ثقة المقيمين بمصر ، أجانب ومصريين على حد سواء .

★ وبعد شهور من عودة قاسم الى أرض الوطن توفى والده محمد بك أمين .

★ وفى ٢٢ سبتمبر سنة ١٨٨٧ م نقـل من النيابة المختلطة الى قسم قضايا الحكومة .

★ وفى يونيو سنة ١٨٨٩ م رقى الى منصب رئيس نيابة « بنى سويف » ، بصعيد مصر .. وهناك بدأ يطبق مفاهيمه وآراءه فى فلسفة العقاب ودوره فى الاصـلاح الاجتماعى .. فلقد وجد الـكثيرين من الذين وضعتهم الادارة الحكومية ، ظلما ، فى سجن « بنى سويف » ففك قيود أغلبهم وأطلق سراحهم ! .

(٧) « الاعمال الكاملة لقاسم أمين » دراسة وتحقيق دكتور محمـد عمارة ، جـ ١ ص ٢٩٢ . طبعة بيروت سنة ١٩٧٦ م .

★ وفى سنة ١٨٩١ م انتقل رئيسا لنيابة « طنطا » .. حيث واجهته هناك حادثة هامة وقف ازاءها يبحث عن خيار بين ما يفرضه عليه القانون وما تدعوه اليه الوطنية والوفاء لمدرسة الأفغانى التى انتسب الى فكرها ومنح رجالها الحب والاعجاب منذ عهد صباه ..

فلقد وقع عبد الله نديم (١٨٤٣ – ١٨٩٦ م) – أبرز زعماء الثورة العرابية واصلب قادتها – فى قبضة الشرطة، وذلك بعد اختفاء أسطورى دام تسع سنوات .. وجىء به الى رئيس النيابة قاسم أمين ؟! .. فأكرم لقاءه ، وأعطاه مالا من عنده ، وهيأ له فى محبسه اقصى ما يمكن من ظروف الرعاية والراحة .. ثم قرر أن يقوم بالسعى لدى المسئولين فى العاصمة كى يفرجوا عنه ويطلقوا سراحه . فسافر الى القاهرة يلتمس له العفو .. وبعد حملة صحفية ، تبنت هذا المطلب ، قررت الوزارة العفو عن عبد الله نديم مع ابعاده الى الشام فى ١٢ أكتوبر سنه ١٨٩١ م ، بعد منحه مبلغ مائة وخمسين جنيها ! .

ونفس الصنيع كان يكرره قاسم امين مع الطلبة المقبوض عليهم فى المظاهرات ! بل كان يخفى بعضهم حتى يستصدر لهم العفو من السلطات ! .

★ وفى ٢٦ يونيو سنة ١٨٩٢ م عين قاسم أمين نائب قاض فى محكمة الاستئناف .. ثم رقى بعد عامين من ذلك التاريخ الى منصب مستشار ، وكان يومئذ فى الحادية والثلاثين من عمره .

★ ولقد عرفت عنه طوال مدة عمله بالقضاء دعوته الى جعل القضاء المصرى والمحاكم الأهلية الوطنية جهة التقاضى والمحاكمة بالنسبة للأجانب الذين يعيشون بمصر – باستثناء احوالهم الشخصية – وذلك حتى تزول

الازدواجية القضائية التي فرضتها على مصر امتيازات الأجانب ونفوذ الاستعمار .

★ وخارج نطاق العمل القضائي امتد نشاط قاسم امين .. فكتب في صحيفة « المؤيد » عددا من المقالات دون توقيع .. وأصدر كتابه « المصريون » ــ بالفرنسية ــ سنة ١٨٩٤ م .. يرد به هجـــوم الدوق الفرنسى « داركور » على مصر والمصريين .. كما أصدر « تحرير المرأة » سنة ١٨٩٩ م ، و «المرأة الجديدة» سنة ١٩٠٠ م .

كذلك شارك فى نشاط « الجمعية الخيرية الاسلامية » ، وكانت تنشىء المدارس للفقــراء ، وتنهض بضروب من الخدمة والمساعدات للمعوزين والمنكوبين .

وفى ١٢ أكتوبر سنة ١٩٠٦ م تولى سكرتارية الاجتماع الذى عقد بمنزل سعد زغلول باشا ، والذى صدر عنه البيان الشهير الموجه للأمة يدعوها للاســهام فى انشاء الجامعة الأهلية المصرية .. وعندما تخلى سعد زغلول عن رئاسة اللجنــة التى نيط بهــــا أمر الدعوة لانشاء الجامعة ، بعد تعيينه ناظرا ــ (وزيرا) ــ للمعارف ، تولى رئاسة اللجنة بدلا منه قاسم أمين .. وكانت آخر أعماله العامة ذلك الخطاب الذى ألقاه « بالمنوفية » ، بمنزل حسن زايد ، عن الجامعة والتعليم الجامعى المرجو لمصر والمصريين .. فلقد ألقى خطابه فى ١٥ ابريل سنة ١٩٠٨ م ، وفارق الحياة فجأة بعد ذلك التاريخ بأسبوع ، أى فى ليلة ٢٣ ابريل سنة ١٩٠٨ م .. وكانت مصر تستعد للاحتفال بافتتاح الجامعة التى نهض فى سبيل قيامها بدور عظيم .

ــ ٤ ــ

★ اما منزل قاسم امين وحيــاته الاسرية فلقــد كانا

متسقين مع مزاجه الهادىء وروحه الفنانة واحساسه الرقيق .. فهو قد تزوج فى سنة ١٨٩٤ م من زينب ، ابنة أمير البحر التركى أمين توفيق .. وكان صديقا لوالد قاسم أمين .. وكانت قد أشرفت على تربية زوجته هذه ، فى طفولتها وصباها ، مربية انجليزية .. وكان قاسم يقضى مع زوجته ويخصها من وقته بساعتين يوميا ، وبشكل منتظم من الخامسة الى السابعة مساء ! .

ولقد أنجب بنتيه : زينب ، التى أحضر لها مربية فرنسية .. وجلسن ، التى أحضر لها مربية انجليزية .

★ أما مكتبته فكانت تشغل من منزله ثلاث غرف .. ومع كتبه كان يقضى ، يوميا وبانتظام ثلاث ساعات ، من السابعة حتى العاشرة مساء ! .

★ أما أجازته الصيفية فكان يقضيها مع أسرته بتركيا ، حيث كان لوالد زوجته منزل هناك .

***

هكذا كانت حياة قاسم أمين ، وكانت شخصيته .. فنان وأديب نحا نحو الاصلاح الاجتماعى .. ومفكر يحترم رأيه ، ويدافع عنه باصرار ، ويتصدى لأعتى الموجات وأعنف الأعاصير التى سببها له موقفه من قضية المرأة ودعوته الى تحريرها ــ بدءا من تحريم دخوله الى قصر الخديوى بعد اصدار « تحرير المرأة » ، الى النقد والتهجم والسباب والاتهامات التى كيلت له من أغلب قطاعات الفكر ودوائر الثقافة وجمهرة الكتاب .. الى سعى فئات وأفراد من العامة والبلهاء والمتعصبين الى ازعاج حياته الأسرية الهادئة ، ظنا منهم ان دعوته الى تحرير المرأة تبيح لهم اقتحام منزله والطلب الى زوجته مخالطة من يريد الاختلاط ؟! .

ومع كل ذلك ، ومثله كثير ، عاش قاسم عمره القصير — بمقاييس السنوات — بروح الفنـــــان ، فأعطاه عمقا ومنحه أبعادا تخطت به حدود الزمن والسنوات .

وكما يقول الدكتور محمد حسين هيكل : لقد كانت « روح قاسم أمين روح أديب .. كانت الروح العصبية الحساسة الثائرة ، التى لا تعرف الطمأنينة ، ولا تستريح الى السكون ، وكانت الروح المشوقة التى لا تعرف الانزواء فى كن للبحث والتنقيب حيث تنسى نفسها وتستبدل بكنها ما فى حياة الكون وحركته من نشاط وجمال . بل كانت عيونه الواسعة تريد أن ترى جدة الوجود الدائمة تتكرر مناظرها فتطبع على صفحات نفسه وحيا والهاما أكثر مما تؤدى المباحث الجافة منطقا وجدلا . وكانت هذه المناظر تذكى شعوره الحساس بجمال الحياة ، وتدعوه الى الحرص على متاعه بها وعلى دعوته غيره لهذا المتاع ، وذلك لا يؤتاه الا رجل فن جميل لا يقف عند التلذذ لنفسه بنعم الحياة ، بل يعبر لغيره عن معانى هذه النعم ! » (٨) .

هكذا كان قاسم أمين — يرحمه الله .

---

(٨) « تراجم مصريه وغربية » ص ١٥٢ .

قسمات المنهج الاجتماعى

(ان أهم عامل له أثر فى حال الامة هو : حالتهـا الاقتصادية ·· وهى لا تتغير بارادة شخص أو مـائة شخص ، أو اصدار قانون أو مائة قانون ·· بل بتغيير الاسباب التى أوجدتها ··

ولقد نظم الاسلام توزيع الثروة ، وأعلن اشتراك الفقراء فى ملكية أمـــوال الاغنياء ، فحل المشـــكلة الاجتماعية بنوع فريد من الجمــــاعية ، واشتراكية سماوية سبقت أكثر النظم السياسية ثورية بأكثر من الف عـــام ·

ان النوع الانسانى ، فى كل مكان ، هو نفســه ، بأخطائه ومواطن ضعفه ، وأيضا بعظمته وزهوه ·· والحركة المستمرة الى جهة الترقى هى قانون الحياة الانسانية ·· ولن يقف ماضينا ولا حاضرنا حـائلا بيننا وبين التقــدم حسب هذا القانون الذى يســود الكون كله ··)

قاسم أمين

من المعالم الهامة والايجابية فى فكر قاسم أمين وآثاره ان روح الفنان والأديب التى ملـكت عليه كيانه ، وحددت رؤيته لـكثير من القضـــايا والأشياء لم تطغ عنده على قوانين المنهج الاجتماعى الذى التزمه الى حد كبير فى درس وعلاج قضايا الاصلاح التى عرض لها .. بل اننا نستطيع أن نقول : انه كان من أبرز كتابنا ومصلحينا الذين وعوا بدور المنهج الاجتماعى فى البحث وأهميته فى قيادة الباحث والمفكر الى أسلم النتائج وأصـدق المقولات .

فهو يرفض مسلك أولئك الباحثين والمصلحين الذين يكتفون من البضاعة بما هو نظرى ومنمق وبراق ، بصرف النظر عن الواقع الذى يطبقون اصلاحاتهم فيه .. وينبه الى عقم ذلك المذهب السهل الميسور لكل من يحسن التخطيط على الأوراق ، ثم يدعو الى أن يكون الفـكر وخطط الاصلاح مدروسة فى ضوء امكانات الواقع الذى نرجو له التغيير والتطوير .. يقول :

« نحن نفهم ان رجلا يعيش فى عالم الخيال ، يكتب فى مكتبته على ورقة : ان ليس على النساء الا ان يقرن فى بيوتهن خاليات البال تحت كفالة وحماية الرجال ! .

نحن نفهم ذلك ، لأن الورق يتحمل كل شيء ! .
وانما يجد الصعوبة رجل اعتاد أن يحل النظريات ويختبرها بقياسها الى الواقع ، فانه اذا أراد مثلا أن يحصل لنفسه رأيا فى : ما هى حقوق النساء التى نحن بصددها ؟ يجب عليه :

أولا : أن يسوق نظره الى الوقائع التى تمر أمامه ، أعنى أن يطبق نظريته على الوقائع ويتصورها فى ذهنه منفذة معمولا بها فى مدينة ثم فى اقليم ... ذلك عمل ليس بالسهل ، لأنه يحتاج الى معلومات جمة ومشاهدات كثيرة .

فاذا توفر له ذلك كله لم يتيسر له أن يحكم فى المسألة حكما قاطعا ، لأنه يعلم أن رأيه قائم على مقدمات ظنية ، فلا تكون نتائجها الا تقريبية ، لذلك تراه دائما على طريق البحث ، لا يركن الى ما وصل اليه جهده الا ليضعه قاعدة لعمل مؤقت ، ولا يأنف من تعديل رأيه بحسب ما يقتضيه الحال ويظهره العمل » (٩) .

فهو فى هذا النص الهام يحدد متطلبات المنهج الاجتماعى فى البحث والدراسة ..

١ ــ فلابد من دراسة الواقع ، قبل التخطيط .

٢ ــ ولابد من أن يكون الواقع ماثلا فى الذهن ونحن نضع التخطيط ، ماثلا بمعطياته القائمة ، وماثلا متخيلا فى حال تطبيق التخطيط عليه وتنفيذه فيه .

٣ ــ ولابد وأن تكون الدراسة والتصور شاملة ومحيطا بالواقع ككل ، وبدءا من الجزء وانتهاء بالكل .

٤ ــ ولابد من اختبار مدى صدق المقدمات ، لأنها

---

(٩) « الاعمال الكاملة لقاسم أمين » ج ٢ ص ١٦٢ ، ١٦٣ .

ظنية وفروض لا تثمر المطلق والنهـــائى ، بل النسبى والتقريبى .

٥ ـ ولذلك كله فلابد من أن يكون البحث عمـــلا مستمرا ، كي نضع فى اعتبارنا المعطيات الجديدة التى تثمرها دراسة الواقع بعد التطبيق ، وهى المعطيات التى تسهم فى اختبار صدق المقدمات ، وتحدث التعديلات فى النتائج التى يصل اليهـا الباحثون .. فنسبية المعرفة هنا تتطلب من الباحث أن « لا يأنف من تعديل رأيه بحسب ما يقتضيه الحال ويظهره العمل ! » .

وقاسم أمين لم يحدد هـذا المنهج لأنه نقله عن الفـكر الأوروبى الذى درسه واستفاد منه .. لم يقف عند حدود الفهم والنقل ، بل لقد طبق هذا المنهج فى بحثه لـكل القضايا الاصلاحية التى عرض لها .

فهـو عنـدما قرأ هجوم « دوق داركور » على مصر والمصريين ، انفعل غضبا حتى أصابته الحمى ! ولم يجد علاجا لمرضه الا أن يرد هجوم الدوق .. ولـكنه خلع انفعالاته ، بل وجاهد للحـــد من تأثير روابطه القومية والوطنية على فكره وتقييمه لواقع مصر قدر الامكان ـ وان كان لم ينجح.. وما كان له ولا لغيره أن ينجح فى طلب ما هو مستحيل ! لكنه حاول وبلغ قدرا من النجاح حققته محاولته الواعيـــة هـذه .. وعبر عن منهجه الذى اهتم بدراسة الواقع ، رغم الانفعال وحساسيات الموضوع ، فقال : « لقد أطلت التأمل فى أبناء وطنى، بل لقد بذلت جهدا أكبر مما يبذله الأجنبى فى دراستهم والتعرف عليهم ، واعتقد انني نجحت فى أن اكتشف أعماق وجدانهم » (١٠) .

---

(١٠) المصدر السابق . جـ ١ ص ٣٤٢ .

ووعى قاسم أمين بضرورة دراسة الواقع وتحكيم معطياته فى التخطيط والتنظير هو الذى جعله يفرق بين الأبحاث الجادة التى تستحق الاحترام وبين الانطباعات التى يكتبها عن مصر أولئك « السياح » العابرون للسبيل ، والباحثون ـ الى جانب المتعة ـ عن القصص الغريب والنبأ العجيب ، بصرف النظر عن الحقيقة والواقع فى المجتمع الذى عنه يكتبون . . فيصف هذا اللون من التأليف بقوله : « اننى أعرف ، بخبرتى ، ذلك المنهج الذى يتبعه الأوروبيون فى تأليف كتبهم . فهم يعتمدون على ما يقدمه لهم التراجمة من مواد ، وكلما كانت هذه المواد رهيبة شديدة الغرابة ، كلما غلا ثمنها ، دون أن ننسى ما تقدمه هذه المواد من ضمان لنجاح الكتاب ! » (١١) .

وهو فى نقده لكتاب « دوق داركور » عن مصر والمصريين يصنف هذا الهجوم فى هذا اللون من ألوان التأليف ، فيقول : « اننى أفهم تمام الفهم دوق داركور . لقد أمضى الشتاء فى رحلة لم تنقصها المتعة ! ، وطالع عدداً من قصص كتاب الرحلات ، مهتما أكثر بمن أساءوا فى كتاباتهم الى الاسلام ـ الذى يكرهه من أعماق قلبه ـ ورأى من شرفة فندق « نيو أوتيل » ، وعبر نافذة السيارة التى كان يتجول بها ، مجموعات من السكان الفقراء ذوى المظهر البسيط ، وبهذه الطريقة ألف كتابه ؟! » (١٢) .

فهذا المنهج الذى يهمل دراسة الواقع هو منهج مرفوض ، ونتائجه مرفوضة ، من قاسم أمين .

وفى الأفكار الاصلاحية التى تمنى قاسم أمين تطبيقها

(١١) المصدر السابق . جـ ١ ص ٢٥٤ .
(١٢) المصدر السابق . جـ ١ ص ٢٥٥ .

فى عالم الادب العربى نطـالع كذلك ايمـانه بهذا المنهج الاجتماعى ، مطبقا على هذا الحقل .. فهو يدعو الى العمل على اعادة المكانة المفقودة الى هذا الأدب .. مكانته القـديمة التى كانت له عصر ازدهاره وازدهار حضارة أهله ، وذلك بواسطة اصلاحين أساسيين هما :

١ ــ أن يصبح هــذا الأدب انعـكاسا للتغـيرات التى يشهدها الواقع المعاصر .

٢ ــ وان يطوع هذا الأدب لما جد فى المجتمعات الجديدة من عادات تعبيرية لم يعرفها الأسلاف ، لابد وأن تفرض أساليب جديدة للمعالجات .

وهو يعبر عن أفكاره تلك فيقول : « ان الأمر فى حاجة الى عبقرى يستطيع بنشـاطه ومواهبه أن يعيد للأدب مكانته التى كانت له قديما فى المجتمعات الاسـلامية ، فيجعله يعكس هذه التغيرات التى ينبض بهـا وضعنا الحالى ، ويطوعه لعادات جديدة »(١٣) .

بل ان اهتمام قاسم أمين ــ المنهجى ــ بالواقع لا يقف عند هذه الحدود ، فهو يدعو ــ مثلا فى ميدان التربية ــ لأن نتخطى حدود الفهم النظرى للواقع ، ونمارس القيم ممارسة عملية .. يدعو الى معرفة تـكون ثمرة للخبرة والممارسة ، ولا يكتفى أصحابها بالتحصيل والاستيعاب .. فيتحدث عن هذه القضية ، من خلال نقده للواقع السائد فى ميدان التربية عند المصريين فيقول :

« ومن الأسف أن المصرى لا يزال يظن أن تربية الطفل عبارة عن وضعه فى المدرسة ، وانه متى علم ولده ما كان يجهله من العلوم فقد أحسن تربيته وقام بما يجب عليه ،

(١٣) المصدر السابق . ج ١ ص ٣٣٠ .

مع أن التعليم هو فى الحقيقة أقل فروع التربية شأنا وفائدة .

نعم .. انه قد يكون من النافع ان الولد يعرف القراءة والكتابة والحساب ويتعلم الجغرافية والتاريخ والهندسة ، والفلسفة اذا شئت . ولو انى أعتقد ان التعليم النظرى لا يفيد الغلام فائدة محسوسة ، خصوصا اذا كان فى السن الذى يتلقى فيه العلوم العالية .

ولكن يجب على الآباء أن يعلموا ان التعليم وحده لا يفيد شيئا اذا لم يكن مصحوبا بتربية قوية ... وذلك بتعويد الطفل لا على أن يفهم أن هذا الطيب طيبا وذاك الخبيث خبيثا ، بل على أن يعمل الطيب ما قدر ويجتنب الخبيث ما استطاع لأن ادراك الحسن حسنا والقبيح قبيحا أمر سهل .. فالتمييز بين الفضيلة والرذيلة ليس بالشىء المهم فى فن التربية ، ولكن كله ينحصر فى اكتشاف واظهار وتنمية جميع الملكات الطيبة المخلوقة فينا ، أو غرسها فى نفوسنا ، وتقويتها واحيائها حتى تمسك فى النفس بجذورها فلا تستطيع قوة قلعها بعد ذلك أبدا .. والتربية بهذا المعنى لا يمكن أن تكتسب فى المدارس والمكاتب والقراءة والحفظ ، بل تجب ممارستها ! » (١٤) .

***

ولو ان قسمات المنهج الاجتماعى لدى قاسم أمين وقفت عند هذه الملامح والحدود لكان ذلك كافيا فى انتزاع الاعجاب به والاكبار له ، خصوصا اذا نحن راعينا عصره وظروف مجتمعه ، ولكنه لم يقف بقسمات هذا المنهج عند تلك الحدود ، وذلك لسبب بسيط وعميق ،

(١٤) المصدر السابق . ج ١ ص ٢١٠ ، ٢١١ .

هو أن ذلك المنهج الاجتماعى ، الذى تحدثنا عنه ، والذى آمن به قاسم امين وطبقه فى دراسته لقضايا الاصلاح التى عرض لها .. أن هذا المنهج كان ثمرة لايمانه العلمى بأن الكون بأسره انما يخضع لنظام صارم وتحكمه قوانين لا تختلف ثمراتها .. فهناك وحدة فى قوانين الكون ونظمه .. وهناك وحدة فى قوانين تطور الانسان عبر كل العصور وفى كل البيئات وهناك وحدة فى قوانين تطور المجتمعات .

وهذه النظرة العلمية تدخل المجتمعات الشرقية فى دائرة التطور البشرى العام ، وترفض موقف أولئك الذين يريدون استثناء هذه المجتمعات من التأثر بنهضات الآخرين بحجة الزعم بأنها ذات خصوصية تستعصى على قبول القوانين العامة والموحدة لتطور الكون والمجتمع والانسان .

وقاسم أمين لا يطرح هذه القضية كأمر فكرى ونظرى مجرد ، وانما ينبه الى أن وعيها هو أمر ضرورى لنا ونحن نعالج كتابة التاريخ وتفسير أحداثه ، وأيضا ونحن نعالج قضايا الانسان المعاصر واصلاح عيوب مجتمعاته ، فكما تحكم القوانين العلمية الظواهر الطبيعية كذلك فان للظواهر التاريخية والاجتماعية والانسانية قوانينها التى تحكمها ، والتى لابد من وعيها ،لمن يتصدى لهذه الظواهر بالدراسة والعلاج . يقول ، بصدد الحديث عن مهمة المؤرخ والمصلح .. ذلك « ان المؤرخ يشرح أطوار أمة فى زمن من عمرها ، بتعريف أخلاقها وعوائدها ونظاماتها وتربيتها ووسائل معيشتها ، وحالتيها الاقتصادية والسياسية ، داخلا وخارجا ، وما هى عليه من درجة الأفكار والعلوم والآداب والفنون ، ويبين من خلال ذلك

ما طرأ عليها من الحوادث المهمة .. ولا يعتنى الا قليلا بسرد الحوادث ـ كما يفعله مؤرخونا ـ وبهذه الطريقة صار التاريخ من أهم العلوم التى موضوعها الانسان الاجتماعى » .

هكذا يحدد المنهج الاجتماعى فى كتابة التاريخ .. فليست الحوادث والوقائع هى الأسباب ، بل هى المسببات ، والقاعدة التى تثمر ما نسميه « تاريخا » هى الأحوال الاقتصادية والسياسية والفكرية والعادات والتقاليد ووسائل المعيشة .. الخ .. الخ .. أما كتابة التاريخ كركام من الأحداث ـ على عادة مؤرخينا ، كما يقول ـ فهو منهج خاطىء يخرج التاريخ عن مكانه الطبيعى كواحد « من أهم العلوم التى موضوعها الانسان الاجتماعى ! » .

وكما يجب ذلك على المؤرخ ، يجب أيضا على الساسة والمصلحين وكل المشتغلين بالمسائل العامة .. « فكما يفعل المؤرخ فى الماضى يفعل الكتاب المشتغلون بالأحوال العمومية فى الحال ، فيدرسون زمانهم درسا تاما ، ويقفون على كيفية ارتباط حالهم بماضيهم وأخلاقهم وعوائدهم ومعتقداتهم وسياستهم ، حتى يتبين لهم ما هم عليه بكيفية لا تقبل الشك .

ان هذه الأمور انما هى العلل التى أنتجت تلك الحالة ، وان تغييرها لا يكون بالصدفة ، وانما هو بتغيير يحدث فى تلك العوامل المؤثرة ، اذ السبب والمسبب دائما متلازمان ، عقلا وعادة ، متى وجد أحدهما وجد الآخر حتما . وهذا نظام المولى سبحانه وتعالى فى العالم كله ، فليس فى الكون شىء وجد بلا موجد وسبب ، واضح أو خفى ، معروف الآن أو يكشفه المستقبل » .

وبعد هذا التأكد على أن تطور المجتمعات وتغييرها أنما تحكمه قوانين تتطلب تغيير الأسباب والقواعد المتحكمة اذا شئنا تغيير المسببات والابنية العلوية والتابعة ـ ينبه قاسم أمين الى ان خفاء هذا القانون فى الظواهر الانسانية لا يعنى تخلفه فيها ، لأنه عام ، حتى وان تميزت هذه الظواهر بأسباب لا تجعله واضحا وجليا كما هو حاله فى ظواهر الطبيعة .

« ان هذا القانون الالهى وان كان لا يظهر بوضوح تام فى علوم الهيئة الاجتماعية ، كما هو ظاهر فى العلوم الطبيعية :

أولا : لأن معارفنا المختصة بالمجتمع الانسانى هى ، فى الحقيقة ، فى أول نشأتها ، وعلى حداثة عهدها .

وثانيا : لأن الحادثة الاجتماعية لا تتكون من سبب واحد ، بل يشترك فى مقدماتها عدة أسباب متنوعة .

وثالثا : لأنها تظهر دائما انها تحت ارادتنا ، وان لنا سلطة فى ايجادها وتعديلها .

ولكن يكون من الخطأ الجسيم ان نعتقد ان الجسم الاجتماعى ليس خاضعا لذلك القانون العام كغيره » .

ثم يستطرد ليؤكد على ان هذه الحقيقة العلمية قد قررها الله فى قرآنه ، فيذكر أن آية (ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم) (١٥) هى أساس لذلك القانون ، وبها يظهر للقارىء كيف توافقت شريعتنا مع العلم فى هذه القضية ، كما تتفق معه دائما لو كان القائمون بشئونها رجال أكفاء يخدمونها بجد ويفهمونها باصابة وادراك ! » (١٦) .

---

(١٥) الرعد : ١١ .

(١٦) المصدر السابق . ج ١ ص ٢٠٩ .

ولقد كان طبيعيا أن يؤمن قاسم أمين بالتطور والتقدم كقانون علمى ، ليس فى نطاق الظواهر الطبيعية فقط كما اشتهر عند تشارلز داروين (١٨٠٩ - ١٨٨٢ م) فى ذلك العصر ، بل وفى الظواهر الخاصة بالحياة الانسانية ، ذلك « ان هذا التغير والتحول ، بل الحركة المستمرة الى جهة الترقى ، هى قانون الحياة الانسانية ، التى خلقها الله ووهبها أعظم وسائل الارتقاء . وبهذا القانون خرج الانسان من المعيشة البهيمية ، التى لا يزال عليها اخواننا المتوحشون من سكان افريقيا وأمريكا ، ممن وصفهم العلماء بأنهم قردة متمدنة عندما شاهدوا ان المسافة بينهم وبين الحيوانات البهم أقل من المسافة التى بينهم وبين اناس أمة متمدنة ! » (١٧) .

ولقد استفاد قاسم أمين من ايمانه بقانون التطور ، ووحدته وفاعليته الأزلية الأبدية ، فاستخدم حقائقه أسلحة فى الصراع ضد فكرية الغرب الاستعمارى الذى حاول ، فى سبيل السيطرة علينا والاستغلال لنا ، ان يوهمنا ان قانون التطور والتقدم والارتقاء ، فى المجتمعات ، انما مجال صلاحياته وصلاحه هو المجتمعات الغربية المتقدمة ، أما نحن الشرقيين فاننا ومجتمعاتنا خارجون عن ميدان تطبيق هذا القانون ؟! ..

رد قاسم أمين هذه الفرية عندما تحدث عن « ان تاريخ تأسيس الدول فى العالم موضوع تأملات متصلة ، وهو يؤكد حقا ان النوع الانسانى ، فى كل مكان ، هو نفسه ، بأخطائه ومواطن ضعفه وبؤسه ، وأيضا بعظمته وزهوه ، والقانون الأبدى الذى يحول المادة يحول أيضا البشر

---

(١٧) المصدر السابق . ج ١ ص ٢٠٩ .

والانظمة ، ولا تستطيع قوة مقاومة هذا القانون الذى لا مهرب منه ، والذى يحكم حركة التقدم البشرى . والانسانية تعبر عن نفسها فى كل مكان بنفس الطريقة ، وتتبع نفس المسيرة .

وقد بدأت الشعوب حياتها بالحرية ، وستنتهى الى الحرية . غير انها فيما بين هاتين الفترتين مقضى عليها أن تعانى محنة الاستبداد ، الذى يبدو أنه ضرورى لاختبارها . ما أسعد الدول التى يكتب لها ، بعد هذه المحنة ، البقاء ! » (١٨) .

وقاسم أمين لم يكن بذلك يفند ترهات مفكرى الغرب الاستعماريين وحدهم ، بل وينقض حجج القوى الوطنية المحلية التى تمادى التطور على وهم أن بالامكان ايقاف قانونه عن العمل ، والعودة الى الماضى أو الحفاظ على بقايا آثاره التى تشد المجتمعات الشرقية الى الوراء ..

وهو فى سبيل الرد على هؤلاء وهؤلاء يمضى متسائلا ليقول : « .. انى ــ بكل حسن نية ــ لا أرى لماذا يقف ماضينا ــ كما أرى ، أو حاضرنا ، كما يراه دوق داركور ــ مهما كان سيئا ، حائلا بيننا وبين التقدم حسب قانون التطور نحو الكمال ، وهو القانون الذى يسود حركة الكون كله ؟! » (١٩) .

وكما أثمر ايمان قاسم أمين بهذا المنهج الاجتماعى تلك الثمرة التى جعلته يرى الأسباب فى علاقاتها بالمسببات ، والتى جعلته يشير الى السبل العامية المثلى فى دراسة ظواهر التاريخ والمجتمع والانسان ، فهى أيضا قد أثمرت تحذيره من الظن بأن التغييرات التى تحدث فى الأبنية

---

(١٨) المصدر السابق . جـ ١ ص ٢٧٧ .
(١٩) المصدر السابق . جـ ١ ص ٢٥٦ .

العلوية للظواهر الاجتماعية قادرة على احداث تطــور حقيقى فى هذه الظواهر .. فتغيير الواقع الاجتماعى هو الذى يحدث التغيير الحقيقى ، وليس تغيير القوانين والقيادات هو الفاعل الحقيقى فى تلك المجتمعات .. وعن هذه الحقيقة الهامة يقول : « ان حالة الأمة ، فى السعادة والشقاء أو التقدم والتأخر ، لبست حالة توجد أو تتغير بحكم الصدفة ، بل انها نتيجة لازمة لا تتغير الا اذا تغير ما بنفس تلك الأمة .. والحالة الاجتماعية متى عرف كيف وجدت يعرف كيف تزول ، فهى لا تتغير أبداً الا بحال آخر ، بمعنى ان أرادة شخص أو مائة شخص أو اصدار قانون أو مائة قانون ، كل ذلك لا يؤثر فيها بشىء محسوس ! » (٢٠) .

تلك كانت درجة ايمــان قاسم أمين بأهمية القــاعدة المــادية للظاهرة الاجتماعية ، وكيف ان تغييرها هوالسبيل الحقيقى لاحداث التغييرات الحقيقية والتطــورات ذات القيمة التى يسعى الانسان لانجازها كى يتطور بمجتمعه وواقعه الى الأمام .

***

بل لقد خطا قاسم أمين فى هذا السبيل ، الى الأمام ، خطوات أكثر تحديداً وأشد عمقا وأنضج فى باب الايمان بالمنهج الاجتماعى فى البحث والدرس والاصــــلاح .. فوجدناه يركز على أهمية العامل الاقتصادى والأسباب الاقتصادية ، ويبرز دورها المتميز فى تحـديد الصورة العامة للظاهرة ، ويؤكد على فعـــاليتها فى التطور اذا ما شملها التغيير والتطوير .

فهو عندما فكر فى كتابة مقالاته التى نشرها فى «المؤيد»

(٢٠) المصدر السابق . ج ١ ص ١٩٠ .

حدد منهجه ، ونبه على ان عينه ستكون أكثر تركيزا على العوامل المؤثرة فى المجتمع ، بهدف القــاء الضوء على السبل الحقيقية للتغيير المنشود .. وبصدد حديثه عن منهجه هذا كتب يقول : « .. شرعت فى هذا العمل .. باحثا عن حالتنا الراهنة ، لا من جهة السياسة ، فانى لست مشتغلا بها الا من حيث كونى مصريا أحب الوقوف على الحوادث التى تجرى فى وطنى ــ وللسياسة الآن قائمون ، والحمد لله ، بخدمتها واستخدامها أكثر مما يحتاج اليه الحال ! ، بل من الجهات الأخرى ، كالمعيشة الاقتصادية والتربية والعوائد والدين .. » (٢١) :

فهو هنا يضع عامل الاقتصاد و « المعيشة الاقتصادية » قبل عوامل : التربية ، والعوائد ، والدين .

وفى موطن آخر يزيد هــذا الموقف حسما ووضوحا عندما يقول : « ان أهم عامل له أثر فى حال الأمة هى حالتهــا الاقتصــادية ... ومن الأسف هــذه الحــال الاقتصادية ليس فى امكان أحد من الناس ان يحكم عليها ويديرها كيف يشاء » (٢٢) .

وهو هنا يشير ــ بعد تقريره ان الحالة الاقتصادية هى أهم العوامل تأثيرا فى حالة الأمة والمجتمع ــ يشير الى ان لهذا العامل قوانينه العلمية التى لابد من الوعى بها ، لأن تصور تغييرها بالأهواء أو التصرفات الذاتية والعلوية أمر خارج عن الامكان .

فاذا انتقل للحديث عن المرأة وجــدناه ينبه الى دور العامل الاقتصادى فى أوضاعها الراهنة ، ان سلبا وان ايجابا .

---

(٢١) المصدر السابق . جـ ١ ص ١٩١ .
(٢٢) المصدر السابق . جـ ٢ ص ١٦٩ .

فللعامل الاقتصـــادى الدور الأغلب فى انحراف المرأة الخلقى وتفريطها فى عفتها وسلوكها المسلك المشين ، ولذلك فانه يمكن أن يقال : « اننا لو بحثنا عن السبب الذى قد يحمل تلك المرأة المسكينة التى تبذل نفسها فى ظلام الليل لأول طالب ـ وما أكبر هذه المذلة على المرأة ـ اوجدناه فى الأغلب شدة الحاجة الى زهيد من الذهب والفضة . وقلما كان الباعث على ذلك الميل الى تحصيل اللذة .. » (٢٣) .

كما يبصر العلاقة بين الوضع الاقتصـــادى لطبقة من الطبقات وموقف هذه الطبقة من ظاهرة تعدد الزوجات مثلا .. فالتعدد لا ينتشر فى الأوساط الريفية التى لا ينتج أهلها ما يسد رمقهم ، كما ينتشر فى أوساط الأثرياء الذين ورثوا الثروة والجهــــل والتخلف والبحث عن اللذات .. يقول قاسم أمين :

« وأستطيع ان أؤكد ان حالات تعـدد الزوجات نادرة فى مصر . ونتحدث عن الريف فى البداية ، فالفـــلاح متمسك بالزوجة الواحدة ، بشكل جذرى ، وسبب هذا انه يكسب ما يكاد ينقذه من الموت جوعا . أما فى المدن فقد بقى بعض رجال النظام القديم المتزوجين بأكثر من واحدة ! .. » (٢٤) .

فللتعدد ، وجودا وعدما ، قلة وكثرة ، عـلاقة وثيقة بالوضع الاقتصادى لـكل طبقة من الطبقات أو فئة من الفئات .

***

هكذا يتكشف لنا قاسم أمين عن مفـكر ومصلح امتاز

(٢٣) المصدر السابق . ج ٢ ص ٢١ .
(٢٤) المصدر السابق . ج ١ ص ٢٨٨ .

بالايمان والاستخدام لذلك المنهج الاجتماعى الذى اعانه على دراسة المعضلات التى عرض لها بالدرس والاصلاح .

فهو قد أكد على ضرورة الربط بين الفروض والأفكار والنظريات وبين الواقع والممارسة والتطبيق ... وذهب فى ذلك مذاهب تكشف عن عمق وأصالة علمية كبيرة .

وهو قد وعى القوانين التى تحكم الظواهر ، طبيعية كانت أو اجتماعية أو انسانية .. واستخدم وعيه فى تسديد خطاه كباحث ومصلح ، وفى رد سهام الاعداء الذين كانوا يناصبون وطنه وأمته العداء .

وهو ، أخيرا ، قد أدرك أهمية القاعدة المادية للمجتمع وحالته الاقتصادية على وجه الخصوص ، ودور هذه الحالة فى أية عملية للتغيير أو التطوير يراد بها الانتقال بهذا المجتمع خطوة أو خطوات الى الأمام .

المجتمع الذى بشربه

(ان التربية هى : راس مال لا يفنى ! ..

وحياة كل أمة مرتبطة بماليتها .. والتجـــــارة هى علم الثروة الدقيقى ... وليس الغرض أن يجمع الانسان المال حبا فى المال ، بل المراد أن يكون لديه طموح شريف الى العلاء .

والاستبداد أصل كل فساد فى الاخلاق ... والحرية الحقيقية تحتمل ابـــداء كل رأى ، ونشر كل مذهب ، وترويج كل فكر ...

فكم من الزمن يمر علينا قبل ان نبلغ هذه الدرجة من الحـرية ؟! ..)

قاسم أمين

كان قاسم أمين واحـدا من المصلحين البـارزين فى مدرسة الاستنارة واليقظة والتنوير فى مصر والشرق العربى والاسلامى ، تلك المدرسة التى تكونت أول ما تكونت بمصر فى النصف الأول من القرن التاسع عشر ، ورائدها هو رفاعة رافع الطهطاوى (١٨٠١ - ١٨٧٣ م) .

وكان الموقف الاجتماعى لهـذه المدرسـة يستهدف التطور بالمجتمع من مرحلة الاقطاع ، والانتقال به الى المرحلة البورجوازية ، بـكل ما تعنى هذه المرحلة من استنارة ومواءمة بين تدين الشرق وعلمـانية الغرب وعقلانيته - مستفيدين فى ذلك بما للاسلام من مواقف ومبادىء تنتصر للعقل وترفض الكهنوت والسلطة الدينية - وبـكل ما تعنى هذه المرحلة البورجوازية كذلك من اعلاء لشأن « العمل » ونقد لقيم التبطل التى تميزت بها مجتمعات الاقطاع وكبـار الملاك ، والدعوة الى اشاعة التنافس والطموح ، وتنبيه الناس الى أهمية التجارة والصناعة وتكوين الشركات ، وخوض غمـار المنافسة والمخاطرة فى هذه الميادين ضد أوروبا التى كانت تزحف لنهب ثروات المجتمعات الشرقية ، سواء فى صورة شركات وجاليات ومغامرين ، أو فى ظل جيوش وسلطات احتلال

تحمى وتقنن ذلك النهب والاستنزاف .. (٢٥) .

ومن هنا فاننا نجـد لدى مصلحى مدرسـة التنوير هذه ، عندما يكون حديثهم عن الموقف الاجتماعى ، قاسما مشتركا يتمثل فى أمرين محددين :

أولهما : نقد بقايا المجتمع الاقطاعى القائم ، وتسفيه قيمه ، والازراء على الاعراف التى سادت مجتمعات كبار الملاك .. وكان كثير منهم بمصر يومئـــذ من المتمصرين والشراكسة والأتراك .

وثانيهما : الدعوة الى احلال قيم المجتمع البورجوازى ـ وكانت هى الأكثر تقدما بالنسبة لمجتمع الاقطاع وكبار الملاك ـ الدعوة الى احلالها كبديل لقيم المجتمع القديم .

ونحن اذا نظرنا فى الفكر الاجتماعى لقاسم أمين ، وبحثنا عن نوعية المجتمع الذى بشر به مواطنيه ، وجدناه يدعو الى هذين الأمرين المحددين بوضوح وجلاء .

فهو يوجه نقده الى المجتمع القائم ، ويعيب عليه ضعف طبقة البورجوازية ، التجارية والصناعية ، فيه .. ويسفه من الهالات التى يحيط بهذا هذا المجتمع فئة الموظفين ، لأنهم بلا سند اقتصادى يضمن لهم لقمة العيش اذا ما تأخرت عنهم المرتبات ! ومن ثم فلا دور لهم فى الانتاج والتطور الاقتصـادى للمجتمع الذى يخـــدمون حكومته .. ويوجه سـهامه الى الوضع المزرى لطبقة كبـار المـلاك الذين أغرقوا أنفسهم فى التبطل وكبلوا طاقاتهم بالسفه والتبذير بعد أن أغرقوا ممتلكاتهم الزراعية فى الديون .

يوجه قاسم أمين انتقاداته هذه فيقول :

(٢٥) انظر الفصل الذى كتبناه عن الفكر الاجتماعى لرفاعة الطهطاوى، فى تقديمنا لاعماله الكاملة جـ ١ ص ١٧٥ ـ ٢٠٠ .

« ان مصر بلدة فقيرة جدا ، نصف أهلهـــــا ، وهم الفلاحون ، يعيشون بالشيء التافه الذى يقى الحى من الموت جوعا ، والنصف الآخر ينقسم الى قسمين :

الاول : يشمل التجار والصناع .. وهؤلاء ليس فيهم شخص واحد يقال عنه : انه مالى ملى ! .

والآخر : يحتوى على الموظفين وأرباب المعاشات ــ وهم الطبقة المتظاهرة بحالة اليسار ، نوعا ما ، فى معيشتهم ، ولكن أغلبهم أن حيل بينهم وبين مرتبهم شهرا واحدا وقعوا فى العسرة والضنك الشديد ! .

أما أرباب الأطيـــان ، من الذوات والعمد والمشائخ والأعيان فى البلاد ، فحالهم كحال « رابيل » ، المؤلف الفرنساوى المشهور ، اذ قال فى وصيته : « انى لا أملك شيئا ، وعلى ديون كثـــيرة ، وأوصى ببقية ما أملك للفقراء » !! والبلد التى يكون أهلها فقراء ، مثلنـــا ، لا يمكنها ، ما دام فقرها ، ان تؤمل خيرا فى المستقبل ، لأن حياة كل مملكة مرتبطة بماليتها ، اذ بالمال يتم كل شيء ، وبغير المال لا يتم شيء مطلقا ! » . (٢٦) .

وفى موطن آخر يسلط هجـومه على قيم الـكسل والتبطل والزهو والتواكل التى تسود المجتمع القديم ، ويعلل انتشار هذه القيم المنــــاهضة للطموح والمنافسة بسيادة الاستبداد السياسى الذى قهر ملـكات النـاس وكره اليهم استثمار طاقاتهم عندما أيقنوا ان المستبدين هم الذين يجنون ثمار الطموح والاجتهـــاد ، وساعد الاستبداد فى ذلك سوء التربية وانتشار الفكر الضـار والمعوق لتطور المجتمعات .

يتحدث قاسم أمين فى ذلك عنـدما يعرض لمـكان

(٢٦) المصدر السابق ، ج ١ ص ١٩١ ، ١٩٢ .

الانسان المصرى من « العمل » و « الطموح » فيقول :
« ان المصرى طماع ـ (طموح) ـ كفيره ، وليس عنده من الزهد ما ليس لغيره ، ولـكنه مع ذلك لا يحب الشغل ولا ينشط لعمل فيه رزقه . فهو اذن يحب أن تمطره السماء ذهبا وان تنبته الأرض فضة ، يحب أن يكون اغنى الناس ، على شرط أن لا يتعب جسمه ولا يجهد فكره ! .. والسبب فى سقوطه هذا أمران :

الأول : سوء معاملة الحكومات السابقة له ، فانهـا بغدرها وظلمها أضاعت الأمانة والثقة اللتين بدونهما لا تظهر الابتكارات الشخصية ، ففقد المصريون بذلك ملـكة الاقدام على العمل والمخاطرة فى الشغل .

والثانى : سـوء تربيته ، فان عـدم تشغيل الجسم وتحريك الأعضاء والجلوس ساعات ، بل وأياما ، على المقاعد والمراتب والمصاطب ، وعدم التعود على استعمال وظيفة المخ ، وترك النظر فى الأشياء ، مع شدة التمسك بالأقوال والأمثال المثبطة للهمم المميتة للعزائم ، وتـكرار سماع القصص والأحاديث التى وضعت فى الأصل لتسلية الفقير وازالة الأحزان عن الضعفاء قليلى الحول والحيلة .. ولكن غشيتنا جهـالتنا ، وألفيناها قـد اتفقت مع كسلنا وخمولنـــا فنشرناها وروجناها ، وحشيناها ووشيناها ، حتى تشربت بها أرواحنا وعقولنا ! » (٢٧).

***

وبدلا من هذه القيم التى كانت لها السيادة والانتشار فى ذلك المجتمع الاقطاعى ، بشر قاسم ، كغيره من مصلحى مدرسة التنوير ، بقيم المجتمع الجديد .. فهاجم الزهد والقناعة والرضا بالقليل ، ودعا الى الطموح وطلب المزيد

(٢٧) المصدر السابق ، ج ١ ص ١٩٧ ، ١٩٨ .

والمزيد مما هو مشروع .. وقال وكتب مؤكدا ان « من البـــــديهى ان الانسان لا يشتغل ليعيش فقط عيشة الـكفاف ، لأنه او كان هذا داعى الفطرة البشرية لمـا كان التنافس فى المزيد . فعلى الانسـان أن يسعى ، والحالة هذه ، لتحسين حالته المـادية والأدبية ، فان كان يكسب فى اليوم قرشين ، فعليه أن يجتهد فى توصيلها الى خمسة ، ثم الى عشرة ، وهكذا ...

وليس الغرض .. من تحسين الحال ، على هـذه الطريقة ، أن يجمع الانسان المال حبا فى المال ، بل المراد أن يكون عند كل واحد طموح شريف الى العلاء ، ولا يكون له ذلك الا اذا سعى فى استزادة موارد كسبه ، ليتسنى له أن يحسن غذاءه وملبسه ومسكنه ، وأن يستعمل ما يزيد بعد ذلك عن حاجاته المادية فى ترقية عقله وتربية أولاده بالرياضة والتعليم والســـياحة ، وأن يأتى من الأفعال النـــــافعة لهيئة المجتمع ما يغبط غـيره على فعله .. » (٢٨) .

وفى مواجهـة القيم التى تمجد التبطـل والـكسل و « الراحة » ، يبشر قاسم أمين « بالعمل » المنتج ، وذلك من خلال نقده لتكالب الناس على « العمل » كموظفين فى الجهاز الحكومى ، مع انه « لو تذكر النـــاس أن الشرف والمجد لا يصادفان فى طائفة الموظفين الا بنسبة قليلة جدا ، وان كل انسان قادر على أن يرقى نفسه بنفسه ، وان يعلو على أكبر ذلك فى الدنيا بفضيلته وعلمه . لمـا رأى ورأوا فى انفصاله من خدمة الحكومة الا حادثة اعتيادية لا تزيده ولا تنقصه شيئا ! .. »(٢٩).

(٢٨) المصدر السابق . ج ١ ص ١٩٦ ، ١٩٧ .
(٢٩) المصدر السابق . ج ١ ص ٢٤٢ ، ٢٤٣ .

والتعليم .. يعلم قاسم أمين قومه بأنه أكثر من معارف مجردة تطلب لذاتها ، فان له دورا فى تنميه الحياة .. بل لقد تحدث عنه على أنه « استثمار » رابح بمعاييس « الاستثمارات » والارباح .. ومن هنـــا كان « كل ما يصرف فى ســـبيل التعليم والتربية ، كاندراسه ومطالعة الكتب والجـرائد والسياحة ، لازم .. انه لا يجوز مطلقـــا الاستغناء عن صرف الأموال فى هذا السبيل ، كما لا يمكن الاستغناء عن الغذاء الذى هو قوام الحياة .. لأن التربية هى رأس مال لا يفنى ، أما المـال فمـــا أقرب ضياعه ، وخصـــوصا فى يد الغبى الجاهل ! » (٣٠) .

***

وكما سبقت اشارتنا فلقد كانت قيم المجتمع الاقطاعى تعلى من قدر كبار المـلاك بالوراثة ، والأثرياء بالوراثة ، وترفع شأنهم الأدبى والاجتماعى فوق شأن التجـــار والبورجوازيه التجارية التى يعمل أهلها بايديهم وينمون ثرواتهم وثروة المجتمع .. ولذلك وجدنا قاسم أمين يسفه من فكر كبـــار المـلاك ويسخر من « شرفهم ونبلهم » المزعومين ، ويعلى من قدر هذه البورجوازية التجارية التى كانت فى دور النشأة والتكوين ، فيتحدث كيف « كان المصريون ، الى عهد غير بعيد ، ينظرون الى التجارة بعين الاحتقار ، ويحسبون انهـــا مهنة لا تتفق مع الشرف والاعتبار ، والى الآن لا يزال هذا الزعم منبسطا على عقول بعض الأمراء والذوات الذين متى توشحوا الكساوى الموشاة بالذهب ، ووضعوا النشانات على صدورهم ، وعلقوا فى منـــاطقهم السيوف تجر على جوانبهم الى

(٣٠) المصدر السابق . ج ١ ص ٢٠٦ .

الأرض ، تخيلوا انهم من انسانية أخرى أعلا من انسانية هؤلاء التجار الذين يشتغلون بأيديهم ... وهم يرون كل خدمة غير « أميريه » وكل حرفة حرة وكل عمل لا يتعلق بالحكومة هى أشياء لا يليق الاشتغال بها . ولهذا كله لم يشتغل منا حتى الآن بالتجارة الا فئة قليلة ، برهنت على ارادة واقدام واصالة رأى تستحق علبها ثناء الامة المصرية بأسرها .

ولو قارن أى انسان ، لم يعمه الجهـل ، بين هؤلاء التجار الذين دخلوا ميدان الحياة ... وبين أولئك الذين منبع ثروتهم ، فى الأغلب ، العطايا والمنح التى كانت تمطر عليهم بسبب كلمة وافقت المزاج ، أو لسبب خدمة خصوصية أو خلق مقبول أو رذيلة محبوبة لرأى اى فريق يحق له أن يعجب بنفسه أو يحتقره الآخر ! » (٣١).

ولقد كان قاسم أمين يعى جيدا ان ضعف البورجوازية التجارية الوطنية يترك المجال فسيحا وسـهلا للنشاط التجارى الذى يقوم به الاجانب والنازحون الى بلادنا ، فأخذ ينبه قومه الى قيمة التجارة كحرفة ، بل وكعلم من أشرف العـلوم ، لدى الدول الأوروبية المتقـدمة والاستعمارية ، ويستنفر أبناء وطنه لمزاحمة الأوروبيين فى هذا الميدان .. فأهاب « بالآباء أن يعدوا أبناءهم الى غاية الوصول الى السعادة ، وأن يفتحوا امامهم أبواب الآمال ، لأنهـا أبواب الثروة الحقيقية ، وأن يعطوهم الوسائل للحصول عليها ، وأول شىء يجب أن يلتفتوا اليه اليوم هو التجارة .

ان الأوروبيين يجمعون الأموال الهـائلة ... « لأنهم فهموا ان التجارة هى علم الثروة ، وهى علم حقيقى

(٣١) المصدر السابق . ج ١ ص ١٩٨ ، ١٩٩ .

لا يقل فى الفضل عن أشرف العلوم ، ويدرس فى المدارس ، ويتمم بالاختبار والعمل (٣٢) .. وأنت أيها المصرى البطال ، ابن البلاد ، وادرى بما فيها ، ولك فيها القريب والحبيب ، فلماذا لا تفعل كما يفعل الغرباء النازحون الى بلادنا ؟! » (٣٣) .

كما يلمس دور المصالح الاقتصادية ، والتجارية منها خاصة ، فى الصراع العالمى بين الدول الاستعمارية المتنافسة ، ويورد نبوءة الساسة بقيام الحرب العالمية الأولى ، وذلك قبل حدوثها بما يقرب من العشرين عاما ؟! .. وذلك عندما يكتب فيقول :

« ان أمم اوروبا قد وجهت التفاتها الى المسائل الاقتصادية واعتناءها بها كل الاعتناء ، فأنشأت نظارة ــ (وزارة) ــ للتجارة ، وللصناعة ، وللمستعمرات ، واكثرت من انشاء المدارس التجارية والصناعية ، وتهافتت على وسائل الاستعمار ، وصارت كل أمة تزاحم الأخرى فى هذا السبيل ... حتى ان رجال السياسة صاروا يعتبرون انه لابد من الحرب يوما بين انجلترا وألمانيا ، لأن المنافسة بين الأمتين فى جميع أنحاء الدنيا أوصلتهما الى درجة أعتقاد ان احداهما لا يمكن أن تستمر فى طريقها الا اذا سحقت الأخرى ! » .

ثم يستطرد ليقرع الأسماع بأن البلاد الضعيفة المستعمرة ، ومنها مصر ، هى موضوع التنافس والصراع المحتدم بين هذه القوى الاستعمارية ، وان النهضة هى سبيل افلاتها من مصيرها الأليم ، فيقول : « اننا نحن المصريين لا شغل لنا الا التفرج على المتنافسين ...

(٣٢) المصدر السابق . جـ ١ ص ٢٠٠ .
(٣٣) المصدر السابق . جـ ١ ص ١٩٥ .

والحقيقة اننا نحن موضوع تنازعهن ، وسبب مشاكلهن ؛ نحن اللقمة الدسـمة التى يريد كل منهما ـ (الانجليز والالمان) ـ أن يبتلعها فى جوفه ! » (٣٤) .

ان قاسم أمين يدعو الى مجتمع يكثر فيه الأثرياء الذين يحصلون ثرواتهم بالعمل ليل نهار ، ويتمنى لمجتمعه ان يكون مثـل تلك المجتمعات التى توصلت أممها « الى اقتناء الثروة ، وكثر فيها الأغنياء الماليون الذين أصبحوا يتعاملون بالملايين ، كما نحن نتعامل بالعشرات والمئات ! » .

ثم يضيف متحفظا على طرق جمع الثروة ، فينبه ان طريق العمل يجب أن يكون هو السبيل لتحصيلها ، قائلا : « ... ولـكن الشيء المهم ، الذى أرجو ملاحظته ، هو ان كل ثروة من هذه الثروات الهائلة هى نتيجة عمل صاحبها .. انه يشتغل ليكسب ، يشتغل دائمـا ، يشتغل فى النهار ، ويفكر فى شغله بالليل ! » (٣٥) .

فهو داعية للتطور الرأسمالى ، ومناضل من أجل ازالة العوائق الاقطاعية من طريق هذا التطور ، ومبشر بقيم المجتمع البورجوازى .. ولقد كان هذا الطريق ، بالنسبة لمجتمعه وعصره ، من أكثر الطرق قدرة على تنمية المجتمع وتطويره وتقدمه فى ذلك التاريخ .

***

واذا كانت هذه هى الدعوة التى بشر بها قاسم امين فيما يتعلق بالقاعدة المادية للمجتمع الذى نقده ، والذى بشر به ، فانه قد صنع ، فى اطار البناء الفـوقى للمجتمع ، ما يتسق مع هذه الدعوة كل الاتساق .. فهو قد هاجم الاستبداد ، الذى كان سمة للحكم الشرقى

(٣٤) المصدر السابق . جـ ١ ص ١٩٢ .
(٣٥) المصدر السابق . جـ ١ ص ١٩٢ ، ١٩٣ .

ألفردى الاقطاعى .. ودعا الى الحرية كما عرفتهـا المجتمعات البورجوازية الليبرالية فى أوروبا ، وطالب بالحياة النيابية فى وقت مبكر جدا ، اذا ما قيس بالأصوات التى ارتفعت بهذا المطلب بعد هزيمة الثورة العرابية واحتلال الانجليز للبلاد .

فهو يتحدث عن « ان الاستبداد أصل كل فساد فى الأخلاق » .. (٣٦) .

ويطالب بأن تكون الحرية فى الاعتقاد ، وفى التعبير عن المعتقدات مصونة ومكفولة ، بل ومقدسة ، مهما تكن الآراء والمعتقدات التى يعتنقها الناس ويعبرون عنها .. يقول : ذلك لأن الحرية الحقيقية تحتمل ابداء كل رأى ، ونشر كل مذهب ، وترويج كل فكر ... فى البلاد الحرة قد يجاهر الانسان بأنه لا وطن له ، ويكفر بالله ورسله ، ويطعن فى شرائع قومه وآدابهم وعاداتهم ، ويهزأ بالمبادىء التى تقوم عليها حياتهم العائلية والاجتماعية ، يقول ويكتب ما شاء فى ذلك ، ولا يفكر أحد ، ولو كان من ألد خصومه فى الرأى ، أن ينقص شيئا من احترامه لشخصه ، متى كان قوله صادرا عن نية حسنة واعتقاد صحيح » .

ثم يتساءل : « كم من الزمن يمر على مصر قبل أن تبلغ هذه الدرجة من الحرية ؟! » (٣٧) .

وهو ينبه الى أمر هام جدا عندما يربط بين احترام المجتمع للفضيلة ومقته للرذيلة وبين قيام رأى عام قوى فى هذا المجتمع ، اذ « لا يمكن أن تصير الفضيلة مطلوبة مرغوبا فيها ، والرذيلة ممقوتة مبغضة الى النفوس الا اذا أحس الناس بقوة حكم الرأى العام وسلامته ! » (٣٨) .

(٣٦) المصدر السابق . ج ١ ص ٢٢٠ .
(٣٧) المصدر السابق . ج ١ ص ١٦٤ ، ١٦٥ .
(٣٨) المصدر السابق . ج ١ ص ٢٢٦ .

فلا المواعظ والخطب ، ولا الوصايا والتحذيرات بفاعلة شيئا ذا قيمة فى اعلاء شأن الفضيلة وخفض منزلة الرذيلة كما يفعل ذلك قيام الرأى العام صاحب الحكم القوى والسليم ! .

ثم يتوج قاسم أمين فكره الديمقراطى بالدعوة الى الارتقاء من المجالس البلديه والمجلس التشريعىالاستشارى الذى أقامته سلطات الاحتلال الانجليزى بديلا عن المجلس النيابى الذى حلته بعد هزيمة الثورة العرابية .. يدعو قاسم أمين الى الارتقاء خطوات من هذا النظام الذى مرت عليه عشر سنوات ، الى نظام المجلس التشريعى البرلمانى غير الاستشارى .. فيكتب فى سنة ١٨٩٤ م قائلا : « لقد اكتسب اليوم المجلس التشريعى ثقة كبيره لا يمكن نكرانها ، حتى ان قادتنا يستلهمونه أفكارهم . كما باتت كثرة من المصريين المعتدلين ، وأنا واحد منهم ، ترى ان هذه السنوات العشر تمثل تدريبا كافيا ، وان مصر بعد ألفتها للتمثيل القومى قد أصبحت جديرة بأن يكون لها مجلس نواب لا يكون استشاريا فقط ، لقد نضجت مصر بما يتيح لها عمل هذا الاصلاح . غير اننا نود بالطبع نظاما تكون فيه الغلبة للمعرفة الواعية ، لا للكم العددى .. » (٣٩) .

***

هكذا فكر ، وكتب قاسم أمين .. وهكذا نلتقى فى آثاره الفكرية بما يؤكد انه كان ناقدا للمجتمع الاقطاعى ، مهاجما لقيمه .. مبشرا بقيم المجتمع البورجوازى ، وداعيا الى فتح الطريق امام المجتمع المصرى كى يدخل الى رحابه ، بعد أن يخلف وراء ظهره مجتمع الاقطاع وكبار الملاك .

---

(٣٩) المصدر السابق . ج ١ ص ٣٤٥ ، ٣٤٦ .

التطور الفكرى

(● ان ديننا قد أوصى بأن يكون للرجال مجتمعهم الذى لا تدخله امرأة واحدة ، وان يجتمع النساء دون ان يقبل بينهن رجل واحد ، وذلك حمايه لهمـــا من الضعف وقضاء على مصدر الشر ! » ·

● ليس فى الشريعة نص يوجب الحجـاب ··· وانما هى عادة أخذناها عن بعض الامم ·· وان نساء العرب والقرى المصرية ، مع اختلاطهن بالرجـــال على ما يشبه الاختلاط فى أوربا ، أقل ميلا للفساد من ساكنات المدن المحجبات ··· ان المرأة التى تخـالط الرجال تكون أبعـد عن الافكار السيئة من المـــرأة المحجـوبة ! » ·

● اننى لا أفهم ان يقيم الانسان دعوى لتحصـيل الطلاق ، فتلاقى الارواح لا يمكن أن يـكون مـــادة للتقاضى ! ··

● ان وضع الطلاق تحت سلطة القاضى أدعى الى تضييق دائرته ، وأدنى الى المحافظـــة على نظـــام الزواج ! ···)

قاسم أمين

عندما أصدر قاسم أمين كتاب « تحرير المرأة » سنة ١٨٩٩ م أحدث ضجة كبرى فى المجتمع المصرى والمجتمعات الشرقية ، بل لعله قد أحدث أكبر وأهم معركة فكرية قامت فى الشرق من حول كتاب فى القـــرن الذى ظهر فيه .

ولقد صدرت للرد عليه مجموعة كبيرة من الكتب ، فضلا عن الفصول والدراسات والمقالات ، بل لقد صدرت صحف متخصصة تفرغت ، تقريبا ، للجدل فى موضوع الـكتاب ، ان بالتأييد أو المعارضة والتفنيد .

ولقد كانت القضـــايا الرئيسـية التى أثارت الجدل أكثر من غيرها ـ من بين قضايا « تحرير المرأة » ـ هى :

١ ـ ما أثاره الـكتاب عن الحجاب الذى كان يسود عالم المرأة فى ذلك الحين .

٢ ـ ما دعا اليه من ضرورة تقييد الحق المطلق الممنوح للرجل فى انهاء رابطة الزوجية بالطلاق .

٣ ـ نقده لنظام تعدد الزوجات ، والدعوة الى ضبطه وتقييده .

وكان وراء الاهتمام بهذه القضـايا ، أكثر من غيرها ، تمثيلها لأهم عيوب النظام الأسرى السائد ، ولابرزمشاكل

المراة الشرقية ، ولأخطر القيود التى تحد من امكانيات تطورها وتحررها وكذلك ــ وهو هام جدا ــ العــلاقة الوثيقة بين هذه القضايا ، والبحث فيها ، وبين الشريعة الاسلامية .. ذلك ان الجدل حول أية قضية ذات علاقة بالدين أو الشريعة الاســلامية انمــا ينقل ، وعلى الفور ، هذا الجدل من النطاق الضيق والخاص الى الساحات العامة التى تتواجد فيها وتشــارك أوسع الجماهير ، بصرف النظر عن القدرة على استكناه حقائق الأمور والصلاح للادلاء بما هو صواب من الآراء ! ..

ونحن نعتقد ان خصوم قاسم امين وكتابه «تحرير المرأة» لو فكروا ، أو فكر واحد منهم ، فى ترجمة كتــابه « المصريون » عن الفرنسية الى العربية ــ وهو الذى صدر قبل (تحرير المرأة) بخمس سنوات لـكان الذى يرد على قاسم أمين فى (تحرير المرأة) هو قاسم أمين فى « المصريون » ؟! .. وبالذات فيمــا يتعلق بالقضايا الأساسية الثلاثة التى أثارت الجدل والعراك .

ذلك ان قاسم أمين قد قدم فى « تحرير المرأة » الآراء التى كان ينقضها ويفندها فى « المصريون » ، ومن ثم فاننا عندما نقرأ كتــابه « المصريون » يخيل الينا أن الذين يتحدثون ويبرهنون ويجادلون هم خصوم قاسم أمين ، وبالذات فيما يتعلق بالحجاب ، والطـــلاق ، وتعدد الزوجات !! ..

وهذا هو الأمر الذى دعانا لأن نعقد هذا الفصل عن التطور الفكرى لقاسم أمين .. والذى يدعونا للتساؤل : كيف لم يلتفت الى هذه الحقيقة ، لا خصومه فقط سنة ١٨٩٩ م ، بل ولا أحد من دارسيه بعد ذلك التاريخ ؟! .

صحيح ان البعض قد أشار الى ان قاسم قد (فصل)

فى « تحرير المرأة » بعض ما أجمله فى « المصريون » (٤٠)، كما أشار آخرون الى ان حماسه لبعض الآراء فى « المصريون » قد استبدل بالروح الهادئة والمنطق الموضوعى فى « تحرير المرأة » و « المرأة الجديدة » .. ولكننا نعتقد ان هذا التشخيص غير كاف ، بل وغير دقيق ، حتى لقد خيل الينا ان دارسيه الذين لم يقفوا عند هذا التطور الفكرى الجذرى الذى حدث لقاسم أمين ، اما انهم لم يقرأوا « المصريون » ، أو انهم قرأوا قراءة العابر المتعجل الذى لا تستوقفه أبرز المعالم فى هذا الكتاب ؟! ..

ولتوضيح هذه الحقيقة الهامة .. لننظر فى فكر قاسم أمين فى كتابيه هذين ـ « المصريون » و « تحرير المرأة » ـ خاصة ما تعلق منه بهذه القضايا الثلاث :

الحجاب والمجتمع الانفصالى

يدافع قاسم أمين فى كتابه « المصريون » سنة ١٨٩٤ م عن نظام الحجاب السائد لعالم المرأة الشرقية على عصره ، ويمتدح النظام الصارم الذى جعل المجتمع الشرقى مجتمعا انفصاليا ، يحرم فيه اختلاط الرجال بالنساء ، ويهاجم تحرر المرأة الأوروبية ، ويغالى فى تصوير مساوىء الاختلاط فى أوروبا ، ويدمغ الرجل والمرأة الأوروبية ، غالبا ، بالتحلل والافتقار الى العفة وصيانة الأعراض .. يقدم فى هذه القضية كل ما قدمه خصومه فيها عندما أصدر « تحرير المرأة » فى سنة ١٨٩٩ م ! .

---

(٤٠) « الهلال » تأبين قاسم أمين . انظر مقدمة الناشر لكتاب « أسباب ونتائج » ص ١٣ .

فهو لايرى فى المجتمع الشرقى ، وما يتميز به من فصل بين الرجال والنساء ، أية قيود تحرم المرأة من حق أو تمنع عنها أى شيء نافع لها أو للمجتمع .. بل يرى ان المساواة متحققة تماما بين الرجال والنساء ، ذلك « أن كل ما نستطيع أن نفعله نحن الرجال تستطيع النساء فعله ، بل ويفعلنه ، وكل ما هو مباح لنا مباح لهن ، وكذلك فان كل محرم علينا محرم عليهن أيضا ، ولما كان محرم علينا ، نحن الرجال ، أن ندخل فى مجتمع النساء فيبدو لى ، من الطبيعى ، أن يقع نفس التحريم على نسائنا . واننى أكرر ، من وجهة النظر هذه ، ان وضع الرجل هنا مشابه لوضع المرأة تماما ! » (٤١) .

ثم يقرر ان هذا المجتمع الانفصالى ، الذى كان سائدا يومئذ ، هو التطبيق الأمثل لوصايا وتعاليم الدين ، « لأن ديننا .. قد أوصى بأن يكون للرجال مجتمعهم الذى لا تدخله امرأة واحدة ، وأن يجتمع النساء دون أن يقل بينهن رجل واحد . لقد أراد بذلك حماية الرجل والمرأة مما ينطوى عليه صدرهما من ضعف ، والقضاء الجذرى على مصدر الشر ! » (٤٢) .

نعم .. هذا هو كلام قاسم أمين ؟! .. هو كلامه فى « المصريون » سنة ١٨٩٤ م .. وهو أيضا مضمون كلام خصومه عند صدور « تحرير المرأة » سنة ١٨٩٩ م ! ..

ثم يهاجم عادات الأوربيين فيما يتعلق بالاختلاط ، متهما اياهم بالتحلل الخلقى ، مصورا أن نتائج الاختلاط غالبا ما تنتهى بفقدان المرأة عفتها وتفريط الرجل فى عرضه .. يقول :

« اننى أعرف انه يجب تكوين رأى سليم فى الجنس

---

(٤١) المصدر السابق . ج ١ ص ٢٧٩ .

(٤٢) المصدر السابق . ج ١ ص ٢٩٣ .

اللطيف ، وان النساء اللاتى يعرفن ابداء جمالهن يعرفن كذلك الدفاع عن أنفسهن ، غير أنا لا نصادف كل يوم قلاعا حصينة ، فبعد المعارك الكبرى تدق ساعة الاستسلام ، المسألة مسألة صبر ، و « استراتيجية وتكتيك » ! ثم انه حيث يفشل محارب ينتصر آخر أكثر مهارة منه ، والمهم هو البحث عن الظروف الملائمة للنجاح ، والانطلاق فى الهجوم الحاسم ، فى اللحظة المناسبة ، لا قبلها ولا بعدها ! » (٤٣) .

وهو لا يعرض هذه الصورة التى تجعل من الاختلاط وتحرر المرأة الاوروبية عملا مكرسا ، أساسا ، لشيوع التحلل والاستمتاع الحرام .. لا يعرضها بوصفها انحرافا أصاب المجتمع الأوروبى ، وخرج به عن فكره المتمسك بالعفة والشرف ، بل يرى فى هذه الصورة التطبيق لفكر الاوروبيين فى هذا الموضوع .. فيقول :

« يبدو من أفكار الأوروبيين ان استمتاع المرء بالسعادة وحده هو زعم مرفوض ، بل ان الرجل المتزوج من امرأة جميلة يرتكب حماقة اذا رغب فى الاستئثار بها ، ان عليه أن يتيح لها أن تعاونه ، وتدلى بدلوها فى ارضاء أصدقائه ، وهو يفهم أن يمزح اصدقاؤه معها وأن يحاولوا الظفر بقلبها ، ويوجهوا اليها عبارات الغزل المتصلة ، دون أن يقلق الزوج أو يسىء النظر اليهم ، فهم فى الواقع فتيان شجعان ، وبعضهم أصدقاء منذ الطفولة ، ولا شىء مما يفعلونه يعد جادا أو خطرا ، والأمر ، كما يرى ، مجرد دعابة ، ولا شىء غير ذلك ! كما يمنح الزوج فى نفس الوقت اهتماما لزوجات الآخرين ، ويخاطبهن بنفس اللغة ، ويقول لهن نفس المجاملات ، ويوجه اليهن نفس

---

(٤٣) المصدر السابق . جـ ١ ص ٢٩٣ ، ٢٩٤ .

عبارات الغزل ، تلك هى متعة اللقاءات المشتركة ! »(٤٤).

ثم يقارن بين موقفنا نحن الشرقيين من هذه القضية وعاداتنا وتقاليدنا ، وبين موقف الأوروبيين وعاداتهم وتقاليدهم عندما يقول :

« انه على نقيض العادات الأوروبية ، التى يبدو انها خلقت لنشر المتعة على الأرض .. تبدو عاداتنا نحن مستلهمة من الفضيلة ... ان فى العالم الاسلامى مفكرين متحررين وملاحدة ومتشككين وماديين ، وهناك الذين تبنوا العادات الأوروبية فى كل تفاصيل حياتهم ، غير أنه لا يوجد ولن يوجد مسلمون يقبلون الزواج فى ظل العادات الأوروبية ، ويجب لقبولهم هذه العادات أن ينتظروا حتى تسود العالم كله النظرية الفوضوية عن العلاقات الزوجية المتحررة من جميع القيود ...

ان عليهم أن يعترفوا كذلك بأننا حين نتزوج نحمل الى نسائنا روحا ما زالت نقية ، وقلبا ما زال مكتمل الحنان ، وحواس اكثر نداوة مما يفعلون هم ساعة زواجهم . فالزواج عندنا بداية ، فى حين انه عندهم ، تقريبا ، دائما نهاية ! .. » (٤٥) .

هكذا كتب قاسم أمين فى كتابه « المصريون » سنة ١٨٩٤ م .

١ ـ فحبذ الحجاب للمرأة الشرقية ، ودافع عن المجتمع الشرقى الانفصالى .. ورأى فى ذلك التطبيق الأمين لتعاليم الاسلام ، والتحقيق للمساواة الحقة بين الرجال والنساء ! ..

٢ ـ ووجه سهام نقده وهجومه الى الاختلاط فى

(٤٤) المصدر السابق . ج ١ ص ٢٩٢ .
(٤٥) المصدر السابق . ج ١ ص ٢٩٤ ، ٢٩٥ .

أوروبا ، وعمم على مجتمعاتها تلك الصورة التى ربما كانت خاصة بشريحة هامشية فى تلك المجتمعات .

٣ – وخلص الى أن الشرق والمرأة الشرقية ليست لديها قضية ولا مشكلة تستحق البحث والدعوة الى التغيير .. وان المشكلة هناك لدى أوروبا التى أباحت الاختلاط ففقدت النعيم الذى ينعم به الشرقيون ؟! ..

والآن .. ماذا كتب قاسم أمين عن هذه القضية فى « تحرير المرأة » سنة ١٨٩٩ م ؟! ..

فى « تحرير المرأة » ينقض قاسم أمين ما قرره من قبل من ان الحجاب ميزة للمجتمعات الشرقية ، يرتبط فيها بتعاليم الاسلام .. ويراه « عادة » مرت بمجتمعات عديدة ، ومنها مجتمعات أوروبية ، ويقرر أن تطور هذه « العادة » بل واندثارها أمر ممكن وخاضع لما تخضع له غيرها من « العادات » .. يقول : وذلك « لأن الحجاب دور من الأدوار التاريخية لحياة المرأة فى العالم . قال « لاروس » تحت كلمة « خمار » : « كانت نساء اليونان يستعملن الخمار اذا خرجن ، ويخفين وجوههن بطرف منه ، كما هو الآن عند الأمم الشرقية » . وقال « ترك الدين المسيحى للنساء خمارهن وحافظ عليه عندما دخل فى البلاد ، فكن يغطين رءوسهن اذا خرجن فى الطريق وفى وقت الصلاة ، وكانت النساء تستعملن الخمار فى القرون الوسطى ، خصوصا فى القرن التاسع ، فكان الخمار يحيط بأكتاف المرأة ويجر على الأرض تقريبا ، واستمر كذلك الى القرن الثالث عشر ، حيث صارت النساء تخفف منه الى ان صار ، كما هو الآن ، نسيجا خفيفا يستعمل لحماية الوجه من التراب والبرد . ولكن

بقي بعد ذلك بزمن فى أسبانيا وفى بلاد امريكا التى كانت تابعة لها » (٤٦) .

ثم سار — فى « تحرير المرأة » — مواصلا موقفه الفكرى الجديد ، فنفى أن يكون هذا الحجاب تنفيذا لتعاليم الاسلام ، فهو « عادة » لا « شرع » .. فقال : « .. ان الأوامر الالهية يجب الاذعان لهما دون بحث ولا مناقشة ولكننا لا نجد نصا فى الشريعة يوجب الحجاب ، على هذه الطريقة المعهودة ، وانما هى عادة عرضت عليهم من مخالطة بعض الأمم فاستحسنوها وأخذوا بها وبالغوا فيها وألبسوها لباس الدين .. والدين براء منها » (٤٧) .

ثم رايناه يطلب موقفا وسطا ، لا هو تبرج الغرب ومغالاته في عرض مفاتن المرأة ، ولا هو الحجاب الشرقى ومنع اختلاط الرجال بالنساء ، فيقول : « ان الغربيين قد غلوا فى اباحة التكشف للنساء الى درجة يصعب معها أن تتصون المرأة من التعرض لمثارات الشهوة ، ولا ترضاه عاطفة الحياء ، وقد تغالينا نحن فى طلب التحجب والتحرج من ظهور النساء لأعين الرجل ... وبين هذين الطرفين وسط ، هو الحجاب الشرعى ، وهوالذىأدعواليه»(٤٨).

ومعروف أن الحجاب الشرعى لا علاقة له بمنع الاختلاط ، اذ هو يعنى ستر جسم المرأة ومفاتنها ، عدا الوجه والكفين .. وبعد ان كان قاسم أمين يدافع — فى « المصريون » — عن المجتمع الانفصالى ، ويراه التنفيذ لتعاليم الدين الاسلامى ، أخذ يهاجم هذا المجتمع الانفصالى ، ويستنكر امكانية ممارسة المرأة لواجباتها

---

(٤٦) المصدر السابق . ج ٢ ص ٤٤ .
(٤٧) المصدر السابق . ج ٢ ص ٤٥ .
(٤٨) المصدر السابق . ج ٢ ص ٤٣ .

ومهماتها فى الحياة طالما ساد الانفصال بين الجنسين فى المجتمع ، اذ « كيف يمكن لامرأة محجوبة أن تتخذ صناعة أو تجارة للتعيش منها ان كانت فقيرة ؟! .. ان الضرورة احالت الثبات على هذا الضرب من الحجاب عند اغلب الطبقات من المسلمين ، كما نشاهده فى الخادمات والعاملات وسكان القرى ، حتى من أهل الطبقة المتوسطة، بل وبعض أهل العلياء من أهل البادية والقرى ، والكل مسلمون ، بل قد يكون الدين أمكن فيهم منه فى أهل المدن ! » (٤٩) .

وبعد ان كان الاختلاط عنده شراكا يستخدمها الرجل للايقاع بالمرأة فى حبائل الحب والعشق والمتعة ، أخذ ينفى هذا الفهم السطحى ، ويرى قطاعات المجتمع التى يلعب الاختلاط والتحرر فى حياتها دورا انتاجيا ونضاليا فى سبيل العيش ، ويدرك رقى أخلاق هذه القطاعات حتى عن الشرائح التى تتستر بمباذلها خلف الحجاب ! فكتب مقررا « ان نساء العرب ونساء القرى المصرية ، مع اختلاطهن بالرجال على ما يشبه الاختلاط فى أوروبا تقريبا ، أقل ميلا للفساد من ساكنات المدن اللائى لا يمنعهن الحجاب من مطاوعة الشهوات والانغماس فى المفاسد . وهذا مما يحمل على الاعتقاد بأن المرأة التى تخالط الرجال تكون أبعد عن الأفكار السيئة من المرأة المحجوبة ! » (٥٠).

هكذا حسم القضية هذا الحسم الجديد ! .

وبعد الصورة التى قدمها ــ فى « المصريون » ــ للمرأة الأوروبية والغربية ، صورة العاشقة الفانية ، والفريسة التى لا تلبث ان تستسلم ، سريعا أو بعد زمن ، لاغراء

---

(٤٩) المصدر السابق . جـ ٢ ص ٤٨ .
(٥٠) المصدر السابق . جـ ٢ ص ٥٩ .

الرجل الساعي لاقتناصها ، عاد قـاسم امين عن رأيه هذا في نساء الافرنج ، فرأى انهن « يحـــافظن على ظواهرهن ، على العموم » .. (٥١) وأثنى على تمتع المرأة الأمريكية بحريتها ، وتحدث باعجاب عن الاختلاط هناك « فنساء أمريكا هن أكثر نساء الأرض تمتعا بالحرية ، واكثرهن اختلاطا بالرجال ، حتى ان البنات في صباهن يتعلمن مع الصبيان في مدرسة واحدة ، فتقعد البنت بجانب الصبى لتلقى العلوم ! » (٥٢) .

ومع هذا الاختلاط في الغرب ، نهضت المرأة ، ونهضت الأمة .. « فكل مطـــلع على حركات النساء الغربيات وأعمالهن لا يشك في انهن يأتين من الأعمـــال العظيمة ما لا قوام للمدنية بدونه ! » (٥٣) .

تلك هي قضية الحجاب .. وموقف قاسم امين منها .. موقفه القديم كمـــا صوره في كتابه « المصريون » سنة ١٨٩٤ م ، وموقفه الجديد ، والمناقض جذريا لموقفه القـديم ، والذى عرضه في كتـابه « تحـرير المرأة » سنة ١٨٩٩ م .

***

تقييد الطـلاق

والقضية الثانية التي نقدمها مثلا حيا وواضحا للتطور الفـكرى الذى مر به قاسم امين ، هي قضية الموقف من « الطلاق » .. وهل هو حق مطلق للرجل ؟ .. أم ان الأمر يستدعى تقييد هذا الحق ووضع الضوابط على هذا الاطلاق ؟ ..

---

(٥١) المصدر السابق . ج ٢ ص ٣٩ .
(٥٢) المصدر السابق . ج ٢ ص ٥٩ .
(٥٣) المصدر السابق . ج ٢ ص ٨٠ .

ذلك ان قاسم أمين ، فى كتابه « المصريون » ، يدافع عن بقاء الحرية الكاملة ، وغير المقيدة ، للرجل ليوقع الطلاق ويفصم عرى العلاقة الزوجية عندما يقرر ذلك ويراه السبيل لما يتصوره صوابا .. وهو هنا يستنكر الآراء الاصلاحية التى يرى أصحابها ضرورة جعل الطلاق بحكم من القاضى بعد بذله الجهد - بواسطة التحكيم - لاصلاح ذات البين .. وهو يصور موقفه هذا عندما يقول :

« .. غالبا ما يكون الطلاق علاجا أسوأ من الداء ، غير ان له ، كجميع الأدوية ، موهبة الشفاء فى بعض الأحيان ، انه عملية بتر يذعن لها المصاب كارها دائما ، مطلقا صرخات الألم ، ولكنها مع ذلك تنقذه من الموت .

وقد رأى المشرع الاسلامى من الضرورى ترك هذه المسألة الخطيرة فى يد الزوجين يتصرفان فيها بحريتهما، فالمسألة تتعلق بحياتهما وبسعادتهما وبمستقبلهما ، وذلك أهم ما يمكن أن يكون ركيزة لفكرهما وهما يتوليان بأنفسهما مهمة اصدار الحكم على مصيرهما الذاتى .

اننى لا أفهم أن يقيم الانسان دعوى ليحصل على الطلاق فتلاقى الأرواح لا يمكن أن يكون مادة للتقاضى ، كالتنازع على برميل نبيذ أو جدار مشترك . أية محكمة تلك التى تزعم قدرتها على توجيه قلبى وشد وثاقه ، وهو المتقلب كثير النزوات ؟! وماذا يعرف هؤلاء القضاة ؟! ان موضوع هذه القضية هو شخصيتى الصعبة المعقدة التى تحتاج عدة سنوات من عبقرى مثل « زولا » لكى يفهمها ويحللها ويحكم عليها ! » (٥٤) .

ولكن قاسم أمين يعود عن موقفه هذا ، ويتبنى الرأى

(٥٤) المصدر السابق . ج ١ ص ٢٨٩ ، ٢٩٠ .

المعاكس لرأيه الذى اسلفناه ، وأن يكون بالتدريج ، فيبدأ بالشكوى من مضار الاسراف القائم والحاصل فى استخدام الرجال لحقهم المطلق فى الطلاق .. فهو قد أصبح « أهم الأسباب الهادمة لاحترام العائلة » .. ومع ذلك « اعتاد أهل بلادنا استعماله بطريقة شائنة جدا ، لا يمكن أن يرضاها الشرع أو يسلم بها العقل .. » (٥٥) .

ثم بعد ذلك يحسم الموقف ، فيدعو الى تقييد الاطلاق الذى يتمتع به الرجل فى ايقاع الطلاق ، وينقض ، فى « تحرير المرأة » ، منطقه فى « المصريون » ، فتتبدل المواقف ، ويرفع خصومه فى سنة ١٨٩٩ م نفس حججه هو فى سنة ١٨٩٤ م ! نعم .. يطلب قاسم أمين ، فى « تحرير المرأة » ، أن توضع القيود على الطلاق .. وذلك من مثل :

١ ــ قيد الارادة الواضحة والنية الحقيقية على فصم عرى الزوجية .

٢ ــ قيد الاشهاد على وقوع الطلاق .

٣ ــ قيد التحكيم الذى حدده القرآن بهدف محاولة الاصلاح .

٤ ــ قيد جعل ايقاع الطلاق من اختصاص القضاء .

وفى هذا الأمر يكتب ليقول :

« .. يجب أن يفهم ان الطلاق انما هو عمل يقصد به رفع قيد الزواج ، وهذا يفرض حتما وجود نية حقيقية عند الزوج وارادة واضحة فى انه انما يريد الانفصال من زوجته .. وأن لمريد الاصلاح ان يبحث فى كتب الشرع كلها ويقف على آراء الفقهاء مهما كانت ، خصوصا اذا

(٥٥) المصدر السابق . ج ١ ص ٢٢٥ .

كان قصده مخو فساد عظيم صار ضرره عاما ... فلم لا يجوز ، مع ظهور الفساد فى الأخلاق والضعف فى العقول وعدم المبالاه بالمقاصد أن يؤخذ بقول بعض الأئمة من ان الاشهاد شرط فى صحة الطلاق ، كما هو شرط فى صحة الزواج ، كما ذكره « الطبرسى » ، وكما تشير اليه الآية الواردة فى سورة الطـــــلاق ، حيث جاء فى آخرها : (واشهدوا ذوى عدل منكم) ، (٥٦) أليس هذا أمرا صريحا بالاشهاد ، يشمل كل ما أتى قبله من طلاق ورجعة وامساك وفراق ؟ أليس قصد الشارع أن يكون للطـلاق واقعة حال مشهور لدى العموم ليسهل اثباته ؟ لم لا نقرر ان وجود الشهود وقت الطلاق ركن بدونه لا يكون الطلاق صحيحا ؟ .. نظن ان فى الأخذ بهذا الحـكم موافقة لآية من كتاب الله ، ورعاية لمصلحة الناس ، وما يدرينا أن الله سبحانه وتعالى قد أطلع على ما تصل اليه الأمة فى زمان كزماننا هذا ، فأنزل تلك الآية الكريمة لتكون نظاما لنا نرجع اليه عند مسيس الحـاجة ، كما هو شـأننا اليوم » .

ثم يستطرد قاسم أمين ليصوغ مشروعا بقانون يقترحه على الحكومة لتقييد الطلاق ، فيقول :

« ... بل ان أرادت الحكومة أن تفعل خيرا للأمة فعليها أن تضع نظاما للطلاق على الوجه الآتى :

المادة الأولى : كل زوج يريد أن يطلق زوجته فعليه أن يحضر أمام القاضى الشرعى أو المأذون الذى يقيم فى دائرة اختصاصه ، ويخبره بالشقاق الذى بينه وبين زوجته .

المادة الثانية : « يجب على القاضى أو المأذون أن يرشد الزوج الى ما ورد فى الكتاب والسنة مما يدل على ان

(٥٦) الطلاق : ٢ .

الطلاق ممقوت عند الله ، وينصحه ، ويبين له تبعة الأمر الذى سيقدم عليه ، ويأمره أن يتروى مدة أسبوع .

المادة الثالثة : اذا أصر الزوج ، بعد مضى الأسبوع ، على نية الطلاق . فعلى القاضى او المأذون أن يبعث حكما من أهل الزوج وحكما من أهل الزوجة ، أو عدلين من الأجانب ان لم يكن لهما أقارب ليصلحا بينهما .

المادة الرابعة : اذا لم ينجح الحكمان فى الاصلاح بين الزوجين فعليهما أن يقدما تقريرا للقاضى أو المأذون ، وعند ذلك يأذن القاضى أو المأذون للزوج فى الطلاق .

المادة الخامسة : لا يصح الطـلاق الا اذا وقع أمام القاضى أو المأذون ، وعند ذلك يأذن القاضى أو المأذون للزوج فى الطلاق .

المادة الخامسة : لا يصبح الطلاق الا اذا وقع أمام القاضى أو المأذون ، وبحضور شاهدين ، ولا يقبل اثباته الا بوثيقة رسمية ... وليس فى هذا تعد على حق من حقوق الزوج ، وانما هو وسيلة للتروى والتبصر اتخذت لمصلحة المرأة وأولادها ، بل ولمصلحة الزوج نفسه ! .. ان وضع الطلاق تحت سلطة القاضى ادعى الى تضييق دائرته وأدنى الى المحافظة على نظام الزواج » (٥٧) .

هكذا استدار فكر قاسم أمين دورة كاملة ، فتبنى سنة ١٨٩٩ م فكر خصومه فى سنة ١٨٩٤ م ، كما تبنى خصومه فى سنة ١٨٩٩ م فكره هو فى سنة ١٨٩٤ ؟! ..

---

(٥٧) المصدر السابق • ج ٢ ص ١٠١ ـ ١٠٤ •

تعدد الزوجات

والقضية الثالثة التي نقدمها ضمن الأمثلة والأدلة على تطور فكر قاسم أمين هي موقفه من « تعدد الزوجات » .. فعلى الرغم من ان كلا من كتـــابيه « المصريون » و « تحرير المرأة » يشترط قيام الضرورة لجواز التعدد والتزوج بأكثر من زوجة واحدة ، الا انه في « تحرير المرأة » كان أكثر ميلا لتغليب منع التعدد على اباحته وتجويزه ، كما كان كذلك أكثر تنبيها على مضاره ومخاطره .. بل لقد تحدث في « المصريون » عن أمور نفى أن تكون مخاطر اجتماعية سببها التعدد ، ثم عاد في « تحرير المرأة » فرآها خطرا يجب لأجلها منع هذا النظام .

فهو في « المصريون » يتحدث عن موقف الشرع الاسلامي من التعدد فيذهب الى ان الشرع الاسلامي يتحدث الينا ، عن التعدد ، قائلا : « من الناحية المبدئية تزوجوا بامرأة واحدة ، انني أنصحكم بذلك من أجل راحتكم ، فاذا حدث حادث حطم ، لسبب من الأسباب ، حياتكم الزوجية ، فتستطيعون أخذ زوجة ثانية ، ويمكن لكم ان ساء حظكم اتخاذ زوجة ثالثة أو رابعة . ولكن ، فليكن معلوما لكم أنني لا أبيح لكم ذلك الا اذا كنتم مضطرين اليه وخاضعين لضرورات محددة .. وانني أفرض عليكم ... ان تعاملوا هؤلاء النساء جميعا ، في كل الأمور ، بعدالة كاملة ومساواة دقيقة ، وأن تكون هذه النسوة جميعا زوجاتكم على نفس المستوى ، وان تقوموا بكل نفقاتهن ، وأن يكون الأطفال الذين يضعنهن أولادكم ، فتسهرون على تعليمهم جميعا بنفس الاهتمام واليقظة .. فاذا أحسستم القدرة على أداء هذه الواجبات العديدة

والمتنوعة ، واذا وجدتم انفســـكم فى حالة ضرورة تحتم الخضوع لها فتزوجوا بأكثر من واحدة ، والا فلا تأخذوا الا زوجه واحدة ، وهذا أفضل .. » .

كما يعرض قاسم أمين ، فى هذا الـكتاب . نراى الذين ينادون بمنع التعدد أو تقييده تقييدا شديدا ، لأنه قد اصبح مصدرا لشيوع العداوة والبغضاء بين الاخوة المولودين من أمهات عده ، فيرفض هذه الحجة ، ويقول « يتخيل الناس ، بصفة عامة ، ان الأطفال الذين يولدون من أمهات مختلفة يحدث لهم ، بالضرورة ، أن يتبادلوا الكراهية ، وأن يتعاركوا صبحا ومساء ، ومع ذلك فان هذا لا يحدث ، والمسألة مسألة تعود !! » (٥٨) .

وبعد ذلك نرى فكره يتطور عندما يعرض القضية فى « تحرير المرأة » تطورا ملحوظا .. فهو يقول : « .. لا يعذر رجل يتزوج أكثر من امرأة ، اللهم الا فى حالة الضرورة المطلقة ... وغاية ما يستفاد من آية التحليل ــ (فانكحوا ما طاب لـكم من النساء مثنى وثلاث ورباع ، فان خفتم الا تعدلوا فواحدة ، أو ما ملـكت أيمانكم ، ذلك أدنى ألا تعولوا) .. (٥٩) ــ انما هو حل تعدد الزوجات اذا أمن الجور . وهذا الحلال ، كسائر أنواع الحلال ، تعتريه الأحكام الشرعية الأخرى ، من المنع والـكراهية وغيرها ، بحسب ما يترتب عليه من المفاسد والمصالح ، فاذا غلب على الناس الجـور بين الزوجات ، كمـا هو مشاهد فى أزماننا ، أو نشأ عن تعدد الزوجات فساد فى العائلات ، وتعد للحدود الشرعية الواجب التزامها ، وقيام العداوة بين أعضاء العائلة الواحدة ، وشيوع ذلك

(٥٨) المصدر السابق . ج ١ ص ٨٥ ــ ٨٧ .
(٥٩) النساء : ٣ .

الى حد يكاد يكون عاما ، جاز للحاكم ، رعاية للمصلحة العامة ، ان يمنع تعدد الزوجات ، بشرط أو بغير شرط ، على حسب ما يراه موافقا لمصلحة الأمة .. » (٦٠) .

فهو هنا يتحدث عن قيام فساد فى العائلات وعداوة بين أعضائها بسبب التعدد ، وهو ما كان ينكره من قبل .. وهو هنا يتحدث عن جواز اصدار تشريع يمنع التعدد مطلقا اذا غلبت المفاسد الناشئة عنه فى المجتمع . ولا يترك القضية برمتها للموقف الفردى والتصرف الفردى كما كان عليه موقفه فى كتاب « المصريون » .

وهو تطور ملحوظ فى فكره حيال هذا الموضوع .

هكذا أصاب التطور فكر قاسم أمين ما بين سنة ١٨٩٤م ، عندما أصدر رده على دوف دراكور وما بين سنة ١٨٩٩ م عندما أصدر « تحرير المرأة » .. وهو التطور الذى سقنا عليه الأدلة ، وقدمنا النماذج والأمثلة التى تبرهن عليه فيما تقدم من صفحات .

لكن ، يبقى سؤال هام لابد من الاجابة عليه .. وهو :

لماذا كان هذا التطور الفكرى ، عند قاسم أمين أساسا وبالدرجة الأولى ، فى تحديد رأى الشرع الاسلامى من القضايا التى كانت مثارة يومئذ بين الباحثين فى قضايا الأسرة والمرأة وشئونهما ؟ وبالتحديد فى قضايا : الحجاب ، والطلاق ، وتعدد الزوجات ؟ .

اننا لا نلحظ تطورا فكريا بارزا فى آرائه الأخرى ، مثل آرائه فى : الأدب ، واللغة ، والسياسة ، والاجتماع ، والاقتصاد ، والمنهج ، والحضارة .. الخ .. الخ .. الخ .. والذى لاحظناه هو أن التطور الملحوظ كاد أن يقتصر على الآراء التى حواها كل من « المصريون »

(٦٠) المصدر السابق . جـ ٢ ص ٩٢ ، ٩٣ .

و « تحرير المراة » باعتبارها رأى الشرع الاسلامى فى مشاكل الأسرة وعلاجها .

واهمية هذا السؤال ، ومن ثم أهمية الاجابة عليه ، تكمن فى ذلك الرأى والموقف الذى أبديناه من قبل عندما كتبنا الدراسة التى قدمنا بها (للأعمال الكاملة للامام محمد عبده) فقلنا يومها : اننا مع القائلين بأن للامام محمد عبده مشاركة فى تأليف كتاب « تحرير المرأة » ، ولقد قدمنا أدلتنا التى تثبت ان الفصول التى عرضت لرأى الشرع فى قضايا الحجاب والزواج والطلاق وتعدد الزوجات ، بهذا الكتاب ، هى للأستاذ الامام ، وليست لقاسم أمين .

لقد رأينا ذلك ، وكتبنا عنه صفحات أثبتناها كذلك فى التقديم للأعمال الكاملة لقاسم أمين .. ونحن نود أن نضيف هنا :

ان هذه الدراسة التى قدمناها ، فى هذا الفصل ، عن التطور الفكرى لقاسم أمين ، هى دليل جديد يدعم ذلك الرأى الذى سبق لنا أن قررناه .

ذلك ان جوهر الحجة التى قدمناها ، ودللنا عليها يومئذ ، هو أن الفكر الاسلامى المتخصص الذى قدم فى هذه الفصول هو من صنع امام مجتهد فى الاسلام ، ولم يكن فى ذلك العصر أقدر من الشيخ محمد عبده على الادلاء بهذه الاجتهادات واصدار هذه الأحكام ، وان هذا الميدان ليس ميدان قاسم أمين .

كما ان جوهر حجة خصوم هذا الرأى كان ان قاسم امين ليس غريبا عن الشريعة الاسلامية ومباحثها ، فلقد درسها كرجل قانون ضليع .

ولكن .. بعد دراستنا هذه عن تطوره الفكرى ..

لنا أن نسأل : هل درس قاسم الشريعة بين سنتى ١٨٩٤ م و ١٨٩٩ م ؟! .. أم قبل ذلك بكثير ؟! .. ان المعلوم انه تخرج من مدرسة الحقوق سنة ١٨٨١ م ، وأنهى دراسته القانونية فى فرنسا سنة ١٨٨٥ م .. ومنذ ذلك التاريخ وهو يمارس وظائف القضـــاء ، فى النيابة او مستشارا فى محـــكمة الاستئناف .. فاذا ما جاء فى سنة ١٨٩٤ م وقدم لنا فى كتابه « المصريون » تلك الآراء التى قال عنها انها آراء الشرع الاســلامى فى الحجاب والطلاق وتعدد الزوجات ، كنا مطالبين بأن نقول : ان هذه ثمرة دراسة قاسم أمين للشرع الاسلامى ، وفهمه له فى تلك المباحث .. واذا ما قدم لنا فى « تحرير المرأة » آراء الشرع الاسلامى ، فى هذه القضايا ، على نحو مناقض لما فى « المصريون » كان لنا ، ان لم يكن علينا ، أن نؤيد ونزكى قول من قال : ان الفصول التى حواها « تحرير المرأة » عن رأى الشرع فى هــذه القضايا انما هى للأستاذ الامام محمد عبده ، أسهم بها مع قاسم أمين فى تأليف هذا الكتاب .

ومن هنا نستطيع أن نقول : ان هذه الصفحات التى قدمناها عن التطور الفكرى لقاسم أمين ، هى دليل جديد يضاف الى الأدلة التى سبق ان قدمناها ونحن نقدم لأعمال محمد عبده على وجهة النظر هذه فيما يتعلق بكتاب « تحرير المرأة » .. والفضل فى اضافة هــذا الدليل الجديد يعود ، فى الأساس الى استنادنا فى دراستنا هذه ، التى نقدمها ، على كتاب « المصريون » ، الــذى ترجم عن الفرنسية للمرة الأولى ، والــذى كان الدليل الأول على هذا التطور الفكرى القائم فى آثار قاسم امين ..

حـــريـــة المـــــرأة

(هناك تلازم بين الحـــالة السياسية والحـــالة العائلية ··· فشكل الحكومة يؤثر فى الآداب المنزلية، والآداب المنزلية تؤثر فى الهيئة الاجتماعية ··· ففى الشرق نجد المرأة فى رق الرجـــل ، والرجل فى رق الحكومة ·· وحيثما تتمتع النساء بحريتهن الشخصية يتمتع الرجـــال بحريتهم الســياسية ، فالحالتـــان مرتبطتان ارتباطا كليا ·

وافتقار المرأة المســلمة الى الاســـتقلال بكسب ضروريات حياتها هو السبب الذى جر ضياع حقوقها ، فلقد استأثر الرجل بكل حق ، ونظر اليها نظرته الى حيوان لطيف ، يكفيــه لوازمه كى يتسلى به ! ··)

قاسم امين

ان التعميم فى الحكم على الميراث العربى والشرقى فيما يتعلق بحقوق المرأة والنظرة اليها وتقييم دورها فى المجتمع وعلاقتها بالرجل ، ذلك الميراث الذى واجهه قاسم امين ومعاصروه عندما فكروا فى دخول هذا الميدان من ميادين الاصلاح الاجتماعى .. ان التعميم فى الحكم على هذا الميراث هو خطأ كبير ..

ذلك ان تراث العرب والشرق قد اشتمل على تيارين رئيسيين تمايزا الى حد كبير فى هذا الموضوع .. فحيثما كانت هناك حركات فكرية عقلانية أو ثورية أو تقدمية ، وجدنا للمرأة فى صفوفها دورا ملحوظا ، نسبيا ، ووجدنا فى فكر هذه الحركات والتيارات حديثا مشوبا بالكثير من الاحترام للمرأة ودورها فى الحياة .. نجد ذلك عند المعتزلة ، والخوارج ، وبعض فرق الشيعة .

وحيثما كانت السيادة للفكر المتخلف ، والمهام الأولى للحركات الفكرية هى التبرير لمظالم الحكم واضفاء الشرعية على تصرفات المستبدين بالسلطة والسلطان كان الاحتقار للمرأة ، والنظر اليها كسلعة من سلع المتعة ، ومخلوق جميل وضعيف قد خلقه الله كى تتزين به القصور ويستمتع به الرجال ..

ولما كانت الغلبة والسيادة ، ان فى الزمن طولا أو فى الصوت قوة وعلوا ، كانت من نصيب ذلك المفهوم الثانى والتقييم الأخير ، فلقد أصبحت ألوان تراثنا الفكرى مليئة بكل ما يحقر المرأة ويغض من شأنها ، ورسخ ذلك فى فكرية المجتمع الشرقى ، خصوصا بعد أن طال ليل العصور « المملوكية ـ العثمانية » ، حتى لقد غابت من الميراث الفكرى الذى كان الناس يتداولونه أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر تلك القسمة الأخرى فى تراثنا ، التى تنصف المرأة وتضع اعتبارا لدورها الايجابى فى الحياة .

ومن هنا نستطيع أن نتخيل : اى ميراث فكرى كان يطالعه جيل قاسم أمين عن المرأة وحظها من الحرية ونصيبها من المساواة ؟! .. وهذا التخيل أمر ضرورى ، لا لتقييم العمل الفكرى والتطبيقى الذى بذله وانجزه قاسم أمين ، فى ذلك الميدان ، التقييم الذى يستحقه فحسب ، بل ولادراك : لماذا كانت أحلام قاسم أمين وجيله فى هذا الميدان متواضعة جدا ، عندما ننظر لها الآن فى ضوء ما انجزته حركة تحرير المرأة فعلا ، فضلا عن الآمال التى لا زالت تسعى فى سبيل تحقيقها على هذا الدرب الطويل .

ونحن نستطيع أن نكتشف ملامح تلك الفكرية المتخلفة التى ورثها ذلك الجيل ، فى هذا الموضوع ، بالاشارة الى نصين يعبر كل منهما عن فكرة وموقف حددهما المجتمع من المرأة .

أولهما : يعبر عن المقولة القائلة « بأن موت المرأة خير من حياتها » ، وان بطن الأرض أكرم لها وللحياة من

ظهرها !! .. ويعبر عن هذه المقولة أبو بكر الخوارزمى (٩٣٥ ـ ٩٩٣ م) عندما يكتب الى رئيس « بهراء » معزيا فى وفاة ابنته ، فيقول :

« ... ولولا ما ذكرته من سترها ، ووقفت عليه من غرائب أمرها ، لكنت الى التهنئة أقرب من التعزية ! فان ستر العورات من الحسنات ، ودفن البنات من المكرمات ! ونحن فى زمان اذا قدم أحدنا فيه الحرمة ، فقد استكمل النعمة ، واذا زف كريمة الى القبر ، فقد بلغ أمنيته من الصهر ! قال الشاعر :

ولم أر نعمة شملت كريما
كنعمة عورة سترت بقبر

وقال آخر :

تهوى حياتى وأهوى موتها شفقا
والموت أكرم نزال على الحرم

وقال آخر :

وددت بنيتى وودت انى
وضعت بنيتى فى لحد قبرى

وقال آخر :

ومن غاية المجد والمكرمات
بقاء البنين وموت البنات

وقال آخر :

سميتها اذ ولدت : تموت
والقبر صهر ضامن وبيت !! (٦١)

وثانيهما : ـ أى ثانى النصين ـ هو المعبر عن سيادة المجتمع الانفصالى ، وصرامة هذا الفصل بين الرجال

(٦١) «الهلال» تأبين قاسم أمين . انظر مقدمة ناشر « أسباب ونتائج » ص ٤ ، ٥ .

والنساء .. ويعبر أبو العلاء المعرى (٩٧٣ ـ ١٠٥٧ م) عن هذه المقولة عندما يقول :

اذا بلغ الوليد لديك عشرا
فلا يدخل على الحرم الوليد
وان خالفتنى وأضعت نصحى
فأنت ، وان رزقت حجى ، بليد
الا ان النساء حبال غى
بهن يضيع الشرف التليد ! (٦٢)

تلك كانت مواريث الفكر ، عن المرأة ، التى واجهها قاسم أمين وجيل قاسم أمين .. ومن ثم فنحن نستطيع ان نبصر عمق قاسم أمين عندما ربط بين تخلف المرأة وعبوديتها وبين سيادة النظم المستبدة ، فى فترات طويلة ، حياة الشرق ومجتمعاته .. فلا الاسلام ، ولا طبيعة الأشياء ، ولا خصائص ضعف المرأة وقصورها ، هى التى ميزت بين الرجال وبين النساء وقسمت شئون الحياة بينهم تلك القسمة غير العادلة ، وانما هو الاستبداد الذى جعل من المرأة احدى فرائسه ، فكبلها بالقيود والأغلال .. ومن ثم فان تحررها مرتبط بتحرر الرجل من الاستبداد ، أى بتحرر المجتمع ككل .. وهو يعبر عن هذه الفكرة الهامة عندما يتحدث عن « أن مبدأ تشكيل الحكومة كان على صورة العائلة ، والحكومة التى تؤسس على السلطة الاستبدادية لا ينتظر منها أن تعمل على اكتساب المرأة حقوقها وحريتها .. فهناك تلازم بين الحالة السياسية والحالة العائلية فى كل بلد ، ففى كل مكان حط الرجل من منزلة المرأة وعاملها معاملة الرقيق

(٦٢) « لزوم مالا يلزم » جـ ١ ص ٢٤٧ . تحقيق أمين عبد العزيز الخانجى . طبعة القاهرة سنة ١٩٢٤ م .

حط بنفسه وافقدها وجدان الحرية ، وبالعكس ، فى البلاد التى تتمتع فيها النساء بحريتهن الشخصية يتمتع الرجال بحريتهم السياسية ، فالحالتان مرتبطتان ارتباطا كليا .

وآن للسائل أن يسأل : أى الحالتين أثرت فى الأخرى ؟ نقول : انهما متفاعلتان ، وان لكل منهما تأثيرا فى مقابلتها ، وبعبارة أخرى : ان شكل الحكومة يؤثر فى الآداب المنزلية والآداب المنزلية تؤثر فى الهيئة الاجتماعية .

انظر الى البلاد الشرقية ، تجد ان المرأة فى رق الرجل ، والرجل فى رق الحاكم ، فهو ظالم فى بيته مظلوم اذا خرج منه ! ثم انظر الى البلاد الأورباوية ، تجد ان حكوماتها مؤسسة على الحرية واحترام الحقوق الشخصية ، فارتفع شأن النساء فيها الى درجة عالية من الاعتبار وحرية الفكر والعمل ! » (٦٣) .

وحقيقة أخرى على جانب كبير من الأهمية ، والعمق أيضا ، وعاها قاسم أمين ، عندما أدرك أن افتقار المرأة الى « الاستقلال الاقتصادى » ، وبعدها عن ميادين العمل المنتج فى المجتمع جعلها تابعة وخاضعة لمن يسد رمقها ويضمن لها مقومات الحياة وضرورياتها .. وادراك قاسم أمين لهذه الحقيقة هو امتداد للمنهج الاجتماعى الذى استخدمه فى دراسة المجتمع وتفسير التاريخ .. وهو يعبر عنها عندما يتحدث عن عمل المرأة ودوره فى تحريرها ، اذ « لو تبصر المسلمون لعلموا ان اعفاء المرأة من أول واجب عليها ، وهو التأهل لكسب ضروريات الحياة

---

(٦٣) « الأعمال الكاملة لقاسم أمين » . ج ٢ ص ١٢٥ ، ١٢٦ .

بنفسها ، هو السبب الذى جر ضياع حقوقها ، فان الرجل لما كان مسئولا عن كل شيء استأثر بالحق فى التمتع بكل حق ، ولم يبق للمرأة حظ فى نظره الا كما يكون لحيوان لطيف يوفيه صاحبه ما يكفيه من لوازمه تفضلا منه ، على أن يتسلى به ! » (٦٤) .

ذلك هو الميراث الفكرى ، المعبر عن الواقع العملى ، أى وجها العملة المجسدة لوضع المرأة فى المجتمع الشرقى عندما نادى بتحريرها قاسم امين .

وذلك هو تقييمه للأسباب الجوهرية لذلك الوضع المتخلف الذى كانت عليه النساء فى مجتمعه الذى عاش فيه .

***

ونحن نستطيع ، دون تفصيل يطيل بنا الحديث ، أن نستدعى الى الأذهان صورة امرأة ذلك العصر ، كما رآها قاسم أمين .

فهى ، اجتماعيا ، لا وجود لها لعزلتها عن المجتمع وقبوعها خلف جدران الحريم .. وكما يقول قاسم أمين : فانه « ليس بين الأمهات الا عدد قليل جدا يعرف القراءة والكتابة ، وليس واحدة لها المام ، ولو سطحيا ، بمقدمات أى علم من العلوم أو فن من الفنون ، وهى فوق ذلك جاهلة بكل أحوال الدنيا ، ولا تدرى شيئا من المعاملات والتجارة ولا من نظامات وقوانين البلاد التى تسكنها ، فضلا عن الالمام بأى شيء من أحوال البلاد الأخرى ، وهى مع رفيقاتها من النساء عالم مستقل بذاته لا يجمعه بعالم الرجال فكر أو عمل ، وأمة داخل الأمة لها أخلاقها وعوائدها ومعتقداتها . وفى الحقيقة : انهن

(٦٤) المصدر السابق ، ج ٢ ص ٢٣ .

آثار عتيقة لأجيال مضت وبقايا أزمنة بعيدة ... باقيات على ما كن عليه فى تلك الأوقات ! » (٦٥) .

ولم يكن حال المرأة داخل المنزل بالخير كله ، فلم تكن ، كما قد يتوهم البعض ، ملكة لمملـكة المنزل ، وانما كانت مخلوقا ضعيفا قد اعد ويعد للاستمتاع اولا وقبل كل شيء .. وعن حالتها المعنوية هذه يقول قاسم أمين :

« وأما من الناحية المعنوية ، فهى — (أى المرأة) — مخلوق متكاسل ، ذات طبيعة تاملية ، وبعيدة عن الفاعلية ، تكثر الحديث والضحك ، تحب دينها ، لكنها لا تمارسه ! ، ليس لهـا مثل أعلى ، وتتاقلم مع الحياة الواقعية ، وهى زوجة نموذجية ، وأم حانية ، لـكنها محدودة المواهب فى التدبير المنزلى ! » .

فهى مخلوق ذبلت مواهبه وامكانياته من طول تعطلها وحرمانها من التدرب على ممارسة ما خلقها له الخالق سبحانه ! .. ولقد بقيت لها من هذه المواهب والامكانيات ما كان متعلقا منها « بالشكل » ، فهى على قدر لا بأس به من الجمال « يتجلى على وجه الخصوص فى نسب أعضائها . ومتانة الجسد وتماسكه ، كم تنتشى العيون التى تتطلع الى فـــلاحة جميلة تمشى مستقيمة بارزة النهدين مثقلة القوام ممتلئة العينين بالأحلام ، طويلة تقريبا ، فى كفيها وقدميها دقة رائعة ! .. أما ما تتميز به حقا فهو عيناها الواسعتان السوداوان الحانيتان حتى ليحسبها المرء عينى « ملاك » ، والمعبرتان ، حتى ليفهمهما المرء قبل أن تتحدث هى ! » (٦٦) .

---

(٦٥) المصدر السابق . ج ١ ص ٢٢٧ .

(٦٦) المصدر السابق . ج ١ ص ٢٧٨ ، ٢٧٩ .

وعلى عظم الضجة وضخامة الرفض الذين قـوبلت بهما صيحات قاسم أمين ، فان مطـالب الرجل كانت متواضعة ، بل شديده التواضع ، اذا ما قيست بمـا يجب لتحرير امرأة حقا من انجازات واصلاحات . ولـكن هذه المطالب كانت تمثل ثورة حقيقية وتغييرا جذريا فى فكر المجتمع واعرافه بالقياس الى واقع المراه الذى اشرنا الى الملمح العام من ملامحه .

ففى التعليم : لم يطلب قاسم أمين مساواة بين المرأة والرجل فى جميع مراحله .. بل طلب لها فقط المساواة به فى التعليم الابتدائى !! .. وعبر عن مطلبه المتواضع هذا عندما قال :

« .. ولست ممن يطلب المساواة بين المرأة والرجل فى التعليم ، فذلك غير ضرورى ، وانما أطلب الآن ، ولا أتردد فى الطلب ، ان توجد هذه المساواة فى التعليم الابتدائى على الأقل ، وأن يعتنى بتعليمهن الى هذا الحد مثل ما يعتنى بتعليم البنين » .

وهو لا ينسى فى حديثه عن تعليم المرأة أن يميز بين التعليم الجاد الذى يطلبه لها ، وهو الذى يصبح فى حياتها قوة تغير سلبيتها فتجعلها ايجابية، ويطورها بتطور مجتمعها ، وبين ذلك التعليم الذى ليس له من التعليم سوى المظهر والقشور .. ولذلك فهو ينتقد ما كان موجودا يومها من « تعليم » تتلقاه المرأة ، كى تظـل به « متعة » أكثر جودة ... فيقول :

« .. أما ما يتعلمه بعض البنات الآن فأراه غير كاف ، لأنهن يتعلمن القراءة والـكتابة بالعربية وبلغة أجنبية ، وشيئا من الخياطة والتطريز ، والموسيقى ، ولا يتعلمن من العلوم ما يستفدن منه فائدة يلتفت اليها، وربما زادتهن

تلك المعارف غرورا بأنفسهن ، فتظن الواحدة منهن انها متى عرفت أن تقول : نهارك سعيد ، باللغة الفرنساوية ، فقد فاقت أترابها ، وارتفع شأنها ، وسما عقلهـــا ، ولا تتنازل بعد ذلك لأن تشتغل بعمل من الأعمال المنزلية ، فتقضي حياتها فى تلاوة أقاصيص وحكايات قلما تفيــد الا فى اثارة صور من الخيالات تطوف بها وتتمثل لها عالما لطيفا تسرح فيه طرفها وهى شاخصة الى دخان السيجارة التى تقبض عليها ! ..

أكثر ما تعرفه المرأة ، التى يقال الآن انها متعلمة ، هو القراءة والكتابة ، وهذه واسطة من وسائط التعليم وليست غاية ينتهى اليها ، وما بقى من معارفها فهى قشور تجمعها الحافظة فى ريعان العمر ثم تنفلت منهـا واحدة بعد واحدة حتى لا يبقى شىء . أين هذه القشور من الحقائق العلمية التى يتغذى منها العقل ويتقوى على مطاردة الوهم ؟! » (٦٧) .

ذلك هو حال تعليم من كن يتعلمن يومئذ من البنات .. وهذا هو رأى قاسم فى هذا التعليم .. ومطلبه فى تعليم النساء .

وفى الحجاب : لم يطلب قاسم سفور المرأة على النحو الذى كان عليه أمرها فى أوروبا يومئذ ، ولا على النحو الذى وصل اليه أمرها هذه الأيام .. وهو كذلك لم يطلب اباحة خلوة المرأة بالرجل الواحد ، وهو غريب عنها ، ليس بمحرم لها .. وانما طالب فقط بكسر أسوار عزلة المرأة عن المجتمع ، وتحريرها من الحجاب المعوق لها عن العمل وممارسة وظائفهـا العامة والطبيعة الضرورية ، وحبذ الوقوف بالحجاب عند ما هو شرعى منه وفق آراء

---

(٦٧) المصدر السابق . جـ ٢ ص ٣٦ ، ٣٧ .

الفقهاء ، ونادى بالاختلاط الذي تحتمه ضرورات العمل ومقتضياته في معترك كسب الرزق والحياة .. وعن هذا المطلب المتواضع يقول :

« ربما يتوهم ناظر انني أرى الآن رفع الحجاب بالمرة ، لكن الحقيقة غير ذلك ، فانني لا ازال أدافع عن الحجاب، واعتبره أصلا من أصول الآداب التي يلزم التمسك بها ، غير أنني أطلب أن يكون منطبقا على ما جاء في الشريعة الاسلامية ، وهو على ما في تلك الشريعة يخالف ما تعارفه الناس عندنا ، لما عرض عليهم من حب المغالاة في الاحتياط ، والمبالغة فيما يظنونه عملا بالأحكام ، حتى تجاوزوا حدود الشريعة وأضروا بمنافع الأمة .

والذي أراه في هذا الموضوع هو أن الغربيين قد غلوا في اباحة التكشف للنساء الى درجة يصعب معها أن تتصون المرأة من التعرض لمثارات الشهوة ، ولا ترضاه عاطفة الحياء ، وقد تغالينا نحن في طلب التحجب والتحرج من ظهور النساء لأعين الرجال حتى صيرنا المرأة أداة من الأدوات أو متاعا من المقتنيات ، وحرمناها من كل المزايا العقلية والأدبية التي أعدت لها بمقتضى الفطرة الانسانية، وبين هذين الطرفين وسط ، هو الحجاب الشرعي ، وهو الذي ادعو اليه .. » (٦٨) .

والحجاب الشرعي هو كشف المرأة وجهها وكفيها عند كل الفقهاء ، وأجزاء أخرى من بعض أطرافها الأخرى ، عند نفر منهم ، كما تحدث عن ذلك قاسم أمين .

وفي العمل : تدرج موقف قاسم أمين وترقى تبعا لتطوره الفكري ازاء تحرير المرأة .. وهو هنا قد مر بمراحل ثلاث :

---

(٦٨) المصدر السابق . ج ٢ ص ٤٣ .

أ ـ ففي البداية : وهي مرحلة كتابه « المصريون » سنة ١٨٩٤ م كان يطلب تعليم المرأة ، ويطلب كذلك أن تظل في البيت ، خاصا بها ومختصة به ، وينتقد اشتغالها ، لا « بالوظائف العمومية » ، بل « وبالأعمال المدنية » التي يقوم بها الرجال ... وهو في التعبير عن هذه الفكرة يقول :

« انني لا أرى الفائدة التي يمكن أن تجنيها النساء بممارسة حرف الرجال ، بينما ارى كل ما سوف يفقدنه ، فان هذه الحرف سوف تجرفهن عن المهام التي يبدو انهن خلقن من أجلها ، كما ان هذه الأعمال لن تجعلهن اكثر فائده للمجتمع ، ولن تزيد من سحرهن ، بل على العكس من ذلك . ان مشهد الأم المتفانية يملؤني حنانا ، كما يحرك سروري منظر الزوجة التي تعني ببيتها ، في حين اني لا أشعر بأية عاطفة حين أرى امرأة تهل على في خطى الرجال ، ممسكة كتابا في يدها ، وتهز ذراعي في عنف ، وهي تصيح بي : « كيف حالك يا عزيزي ؟ » بل لعلي أشعر بشيء غير بعيد عن النفور .

هل السيدات المؤلفات والسياسيات ـ (ولست أتحدث الا عمن اتخذن حرفة الأدب وتجارته) ـ هل هن حقيقة نساء ؟ وما هي أوجه الشبه بين هذه الكائنات اللاتي رأين كل شيء ، وقرأن كل شيء ، وفعلن كل شيء ، واللاتي لم تعد وجوههن تحمر ، وبين تلك الملائكة اللاتي ما يكدن يرسلن نظرة أو لفظة أو لمسة كف حتى تبتل عيوننا بالدمع وتفعم قلوبنا بالنشوة ؟! .

انني أحتقر ادعاء النساء وتحذلقهن ، ولكنني نصير متحمس لأخذ المرأة قدرا نسبيا من التعليم . انني أنعى تربية النساء المصريات وسط الجهل المطلق ، يجب أن

تعرف المرأة دائما ما يكفى لسكى تلقن أبناءها مبسادىء الأخلاق والفضيلة ، ولتقدم لهم شرحا علميا للأشياء التى تحيط بهم ، يجب أن تعرف دائما كيف تجيب ، دون أن تخطىء ، على تساؤلات الطفولة التى لا تنقطع .. (٦٩) .

٢ ــ وفى المرحلة الشسانية : مرحلة كتساب « تحرير المرأة » سنة ١٨٩٩ م ، يبقى قاسم أمين على موقفه الرافض تولى المرأة « الوظائف العمومية » ، ولكنه يتطور خطوة فيطلب لها أن تمارس ، مثل الرجل « جميع الأعمال المدنية » .. علاوة على شئونها الخاصة .. ويعبر عن موقفه الجديد هذا بقوله :

« ان الناظر فى الأحوال التى فضلت فيها شريعتنا الرجل على المرأة ، مثل الخلافة والامامة ، والشهادة فى بعض الأحوال ، لا يجد واحدة منهسا تتعلق بعيشتها الخصوصية وحريتها ، وان الشارع لم يراع فى هسذه المسائل القليلة الا عدم الخروج بالمرأة عن وظيفتها فى العائلة ، وحصر الوظائف العمسومية فى الرجال ، وهو تقسيم طبيعى جرى على مقتضاه ، الى الآن ، التمدن فى أوروبا ــ (لم تسكن المرأة الأوروبية قد نالت حقوقها السياسية بعد) ــ ولا يوجد فيه شىء يمنع من ترقية المرأة والوصول بها الى أعلى مرتبة تستحقها ، وما من عاقل يدرك الفرض الصحيح من تلك الحقوق العظيمة التى خولتها الشريعة الاسلامية الى المرأة فى جميع الأعمال المدنية ــ ومنهسا أهليتها لأن تكون وصية على رجل ــ يستحسن ما يخالفها من عوائدنا التى تؤدى الى حرمان

---

(٦٩) المصدر السابق . جـ ١ ص ٢٨١ ، ٢٨٢ .

المرأة بالفعل من استعمال هذه الحقوق » .. (٧٠) .

وقاسم امين يرى أهلية المرأة المصرية ، اذا تعلمت ، لاجادة كل « الاعمال المدنية » التي تجيدها المرأة الغربية.. كما يرى في ذلك عاملا هاما ينمي ثروة المجتمع ويدفع بتطوره الى الأمام ، فالمرأة عندنا طاقة معطلة واستثمار غير مستغل ، بل لقـــد أصبحت عالة على ثمرة عمل الرجال .. « فلأن النساء ، في كل بلد ، يقدرن بنصف سكانه ، على الأقل ، فبقاؤهن في الجهـــل حرمان من الانتفاع بأعمال نصف عدد الأمة وفيه من الضرر الجسيم ما لا يخفى .

ولا شيء يمنع المرأة المصرية من أن تشتغل ، مثـــل الغربية ، بالعلوم والآداب والفنون الجميلة والتجـــارة والصناعة ، الا جهلها واهمال تربيتها . ولو أخذ بيدها الى مجتمع الاحياء ، ووجهت عزيمتها الى مجاراتهم في الأعمال الحيوية ، واستعملت مداركها وقواها العقلية والجسمية لصارت نفسا حية فعـــــالة تنتج بقـــدر ما تستهلك ، لا كما هي اليوم عالة لا تعيش الا بعمل غيرها ، ولـكان ذلك خيرا لوطنها ، لما ينتج عنه من ازدياد الثروة العامة والثمرات العقلية فيه .. » (٧١) .

٢ ـ وفي المرحلة الثالثة : من تطوره الفكري، ازاء هذه القضية ، مرحلة « المرأة الجديدة » سنة ١٩٠٠ م ، يبقى قاسم أمين على موقفه من قضية اشتغال المرأة « بالأشغال العمومية والوظائف العامة » أي العمل السياسي ووظائفه العليا ، ولكنه يتقدم فكريا عن ذي قبل ، عندما يعلل للفروق القائمة بين الجنسين ، والتي أهلت الرجل ، دون

(٧٠) المصدر السابق . جـ ٢ ص ١٨٢ .
(٧١) المصدر السابق . جـ ٢ ص ٢٠ ، ٢١ .

المرأة ، لهذه الوظائف السياسية العليا ، فبعد أن كان يرى ذلك تقسيما فطريا وأبديا للعمل ، نشأ عن طبيعة كل جنس من الجنسين ، أصبح يراه ثمرة لتأهل الرجل ومرانه ، وهو الأمر الذى حرمت منه المرأة وأبعدت عنه قرونا طويلة ، ومن ثم يعلق صلاح دخولها هذه الميادين على اكتسابها هذه المؤهلات وذلك المران ، وهما فى الامكان ، ولذلك فهو يرى أن حرمانها من هذه الوظائف السياسية العليا هو أمر مؤقت سيزول بزوال ما له من اسباب .. أما عبارته المعبرة عن فكرته هذه ، فهى التى يقول فيها :

« انى ما طلبت ولا أطلب المساواة بين المرأة والرجل فى شىء من المزايا والحقوق السياسية ، لا لأنى أعتقد ان الحجر على المرأة أن تتناول الأشغال العمومية ، حجرا عاما مؤبدا ، هو مبدأ لازم للنظام الاجتماعى ، بل لأنى أرى اننا لا نزال الى الآن فى احتياج كبير لرجال يحسنون القيام بالأعمال العمومية ، وان المرأة المصرية ليست مستعدة اليوم لشىء مطلقا ، ويلزمها أن تقضى أعواما فى تربية عقلها بالعلم والتجارب حتى تتهيأ الى مسابقة الرجال فى ميدان الحياة العمومية .. » (٧٢) .

هكذا رأى قاسم أمين قضية « عمل المرأة » .. وهكذا تطور فكره ازاءها ما بين سنة ١٨٩٤ م وسنة ١٩٠٠ م .

***

والآن .. لقد آن الأوان لنسأل هذا السؤال :

اية امرأة تلك التى ركز قاسم أمين حديثه عنها ؟؟ .

وبنت اية طبقة من طبقات الأمة تلك التى سعى لتحريرها ؟؟ .

(٧٢) المصدر السابق . جـ ٢ ص ١٦١ .

لقد سبق لنا واثبتنا ان قاسم امين كان داعية مصلحا يبشر بقيم المجتمع البورجوازى ، ويدعو لفتح الطريق أمام مصر كى تتطور فتخلف عصر الاقطاع وراءها وتدخل الى رحاب التنوير البورجوازى ... والآن نقول : ان المرأة التى شغلت قضايا تحريرها عقل قاسم أمين ، هى ، فى الأساس ، المرأة البورجوازية ، امرأة الطبقة التى كان ينتمى اليها ، بنت الطبقة الوسطى ، التى كانت متميزة عن بنات الارستقراطية الاقطاعية وكبار الملاك الذين يغلب عليهم الانتماء التركى والشركسى والانتساب لعناصر المتمصرين .. والتى كانت متميزة كذلك عن بنات الفلاحين .

ولم يكن اهتمام قاسم أمين بنساء الطبقة الوسطى تعصبا لطبقته الاجتماعية ، ولا انغلاقا على عالم خاص به من الناحية الاجتماعية ، فهو بالتأكيد مصلح كان ينظر للأمة ككل ، وان غلبت عليه رؤية لونها انتماؤه الاجتماعى .. ولكن مبعث هذا الاهتمام انه لم يكن يعلق أية آمال على نساء الارستقراطية الزراعية ، فهن مثل طبقتهن غرباء عن روح هذه الأمة وقضاياها المصرية ، يعشن كطبقتهن على هامش هذا المجتمع ، ولا صلة بينهما الا صلة الاستغلال الاقطاعى واستنزاف ريع الأرض من الفلاح .

أما المرأة الفلاحة والتاجرة والممارسة لحرفة من الحرف .. فلقد رآها قاسم أمين عضوا عاملا فى المجتمع وطاقة منتجة .. صحيح انها لا تقرأ ولا تكتب .. صحيح انها غير « متعلمة » .. ولكن انخراطها فى الحياة العامة مع الرجل ، وفى مساواة له ، قد جعلها « مثقفة » بالخبرة

والتجربة ، فهى ليست قيدا على تطور المجتمع الى الأمام ، وان تكن لديها طاقات أخرى كامنة يستطيع التعليم أن يطلقها من عقالها .. ان بينها وبين الرجل ، فى طبقتها ، مساواة الى حد كبير ! .

أما امرأة الطبقة الوسطى فانها كانت موضع أمل ، بل عليها - مثل طبقتها - تعلق الكثير من الآمال فى قيادة نهضة الأمة وتطورها .. ومع ذلك فهى وان « تعلمت » الا انها بمقاييس « الثقافة » دون امرأة الريف والحرفيين والتجار - فهى الطاقة المعطلة حقا وتماما من بين النساء اللاتى تتعلق بهن آمال المصلحين ... ومن ثم فان اتخاذ قضية تحريرها محورا لقضية تحرير المرأة عموما هو أمر له ما يبرره ، خصوصا من مصلح مثل قاسم أمين .

ونحن نستطيع أن نتأكد من صدق تحليلنا هذا اذا قرأنا بعض عبارات قاسم أمين .

فهو فى المقارنة بين امرأة الطبقة الوسطى والمرأة الفلاحة يقول : « تساوت النساء عندنا فى الجهل مساواة غير محبوبة ، ولا يظهر اختلافهن الا فى الملبس والحلى . بل يمكن أن يقال : انه كلما ارتفعت المرأة مرتبة فى اليسر زاد جهلها ، وان آخر طبقة من نساء الأمة ، وهى التى تسكن الأرياف ، هى أكملهن عقلا ، بنسبة حالها .

المرأة الفلاحة تعرف كل ما يعرفه الرجل الفلاح ، مداركهما فى مستوى واحد ، لا يزيد احدهما عن الآخر تقريبا . مع أننا نرى المرأة فى هذه الطبقات تربت عقولهم واستنارت بالعلوم ، ولم تتبعهم نساؤهم فى هذه الحركة ، بل وقفن فى الطريق . وهذا الاختلاف هو أكبر سبب فى شقاء الرجل والمرأة معا » (٧٣) .

---

(٧٣) المصدر السابق . ج ٢ ص ٢٥ .

ثم يعرض لذات القضية ، وهو يتحدث عن «الحجاب»، فيقول :

« واذا أراد القارىء أن يتبين صحة ما أسلفته من مضار الحجاب ، على وجه لا يبقى للريب معه مجال ، فما عليه الا أن يقارن بين امرأة من أهله تعلمت وبين أخرى من أهل القرى أو من المتجرات فى المدن لم يسبق لها تعليم ، فانه يجد الأولى تحسن القراءة والكتابة وتتكلم بلغة أجنبية وتلعب « البيانو » ، ولكنها جاهلة بأطوار الحياة ، بحيث لو استقلت بنفسها لعجزت عن تدبير أمرها وتقويم حياتها ، وان الثانية ، مع جهلها ، قد أحرزت معارف كثيرة اكتسبتها من المعاملات والاختبار وممارسة الأعمال والدعاوى والحوادث التى مرت عليها ، وان كل ذلك قد أفادها اختبارا عظيما ، فاذا تعاملتا غلبت الثانية الأولى ! » (٧٤) .

فالتعليم لبنت الطبقة الوسطى لم يفدها الثقـافة والمعارف والخبرات .. بينما اكتسبت الفلاحة والتاجرة الثقافة والمعارف والخبرات الخاصة بالحياة من العمل .. وما ذلك الا لأن الأولى تعيش مجتمعا انفصاليا عزلها فيه الحجاب عن مصدر المعرفة الحقة ، بينما تساوت الثانية مع رجل طبقتها ، فخاضا معا غمار الحياة .

***

تلك هى أفكار قاسم أمين عن مشاكل المرأة الشرقية .. وآراؤه فى اصلاح أمرها .

وهذه هى المرأة التى من أجلها أطلق صيحة النهضة والتحرير .

---

(٧٤) المصدر السابق . ج ٢ ص ٥٧ .

فى التمدن الإسلامى

(يجب أن نرجع الى التمـدن الاسلامى القديم ، لا لننسخ منه صورة ونحتذى مثال ما كان فيـه ، بل لانه يحتوى على كثير من أصول حالتنا الحاضرة .. لقد انتفعت به الانسـانية ، واستكملت ما كان ناقصا منها فى بعض ادوارها .. ولكن كثيرا مـن ظواهره لا يمـكن ان يدخـل فى نظام معيشـتنا الاجتماعية الحالية .

ان علينا ان نزنه بميزان العقل ، ونتدبر فى أسباب ارتقاء الامة الاسلامية وأسباب انحطاطها ، ونستخلص من ذلك قاعدة يمكننا ان نقيم عليها بناء ننتفع به اليوم وفى ما يستقبل من الزمان .

وعلينا كذلك ان نربى أولادنا على ان يعرفوا شئون المدنية الغربية ويقفـوا على أصولها وفروعهـا وآثـارها ..)

قاسم أمين

نعنى « بالتمدن الاسلامى » ، هنـــا ، تلك الآراء والنظرات التى أبداها قاسم أمين عندما عرض « للدين » الاسلامى ، و « الحضـــارة » الاسلامية ، وموقفه من القضية الهامة التى طرحت فى عصره عندما اختلف الناس فى الاجابة على سؤال : هل نعود ـ ونحن ننهض ونستيقظ ـ الى منابعنا الاسلامية نستوحيها ونحتذيها ؟ أم نجعل وطننا قطعة من أوروبا فـكرا وقيما وحضارة وعلما وعملا ؟ .

وقاسم أمين لم يكن مصلحا اسلاميا ، وخلفيته الفكرية الاسلامية لا تؤهله لأن يكون كاتبا اسلاميا فضلا عن ان يكون مصلحا اسلاميا .. بل ان طبيعته الخاصة وتكوينه الذاتى كانا ينأيان به عن ان يكون الـكاتب المتخصص والمهتم بأمور الدين ، ولـكنه كان ، مع ذلك ، غيـورا على الاسلام ، تستفزه حملات خصومه عليه تحت ستار الحملة على المسلمين ، أو حملات خصوم المسلمين عليهم تحت اعلام الحملة على الاسلام .. ولقد كانت هـذه البضاعة رائجة فى عصره ، لأنه كان يشهد المد الاستعمارى الأوروبى على الشرق ، وهو المد الذى استعان على الغزو ببعض أسلحة الغزوة الصليبية فى العصر الوسيط .

ولعل ذلك هو الذى جعل أغلب حديث قاسم أمين فى الاسلام ، ودفاعه عنه يأتى فى كتابه « المصريون » الذى رد به هجوم دوق داركور على مصر والمصريين المسلمين .. وفى هذا الكتاب يوضح قاسم أمين طبيعته ومزاجه حيال هذا المبحث ، فيقول :

« لست أحب الخوض فى حديث عن الدين ، لأسباب تتعلق بطبيعتى الخاصة ، وبحرصى على مراعاة اللياقة العامة ، غير ان على فى هذه المرة أن أفعل ما أكره ، لأن موضوع الدين قد سيطر على جميع أجزاء كتاب داركور ، بل اننى لأكاد أعتقد انه هو الذى كان حافزا على وضع كتابه ، ولهذا فانى استأذنه فى أن أخصص له بدورى عدة سطور » (٧٥) .

ونحن اذا ذهبنا نطالع آراء قاسم أمين ونظراته الاسلامية فاننا نستطيع ، فى نهاية المطاف ، أن نخرج بحصيلة يمكن بلورتها فى عدد من النظرات والتقييمات ، منها ما هو صائب ومنها ما جاوزه الصواب .

١ ــ فهناك ذلك التقييم الذى قدمه قاسم أمين لشخصية الانسان المسلم ومكوناته الذاتية ومزاجه الحضارى ، وهو تقييم نختلف معه فيه ، ونراه قدتخلى ، وهو يخطه ، عن عنصر هام من عناصر منهجه الاجتماعى .. فهو فى المنهج يؤمن بوحدة القوانين التى تحكم التطور فى الظواهر الطبيعية والاجتماعية والانسانية ، ويؤكد ــ كما سبق وعرضنا ــ على ان القوانين التى حكمت وحتمت تطور المجتمعات الأوروبية ورقيها لابد لها وأن تفعل فعلها عندنا نحن الشرقيين .. ولكنه فى نظراته الاسلامية سلك سبيلا مناقضا لمعطيات هذا

(٧٥) المصدر السابق . جـ ١ ص ٢٩٦ .

المنهج فتراه يقدم للشخصية الاسلامية صورة تتبدى لها فيها قسمات خاصة تجعلها عصية على التقدم والتطور والارتقاء ، وتجعل منها نسيجا انسانيا مختلفا اختلافا جذريا عن غيرها من الشخصيات ، فالأمر هنا يتعدى التمايز النابع من اختلاف الشخصية القومية الى ما هو ادخل فى التغاير « الطبيعى » بين المسلم وغير المسلم .

والذى نعتقده سببا فى ذلك ، هو ان قاسم أمين قد جعل ما هو « واقع » « طبيعى وأبدى » وليس « عارضا » يتغير ويتبدل بتغير الأسباب وتبدلها .

فهو ، مثلا يقول : « ان للمسلم أفكارا عن كل شىء تختلف عن افكار الأوروبى عن هذه الأشياء ، حتى ان ما يلائم أحدهما لا يلائم الثانى الا نادرا » (٧٦) .

وانطلاقا من هذه المقولة يصور « شخصية المسلم » تصويرا يضع يدنا على ملامح « شخصية صوفية » متواكلة وانعزالية ، لا تربطها أية روابط بالواقع فى الحياة ، حتى ان أحدنا اذا ذهب يبحث عن ملامح هذه الصورة فى نفسه أو جيرانه ، بل وفى ذوات جماهير الناس فى عصر قاسم أمين ، فانه سيعود دون أن يجد لتلك الشخصية علاقة وثيقة بنا نحن جماهير المسلمين . . ويكفى لتبيان صدق قولنا هذا أن نقرأ تعريفه لشخصية المسلم ، حيث يقول :

« المسلم : أولا لا ينتظر سعادته فى هذه الحياة ، ان له ، أيا كان فكره ، عالما خياليا تذهب اليه أحلامه طواعية ، ويفضله على الواقع مهما كان ساخرا ، فهو ، عامة ، لا يبالى كثيرا بكل ما يجتذب الأوروبى ويستحوذ على مشاعره . واذا كانت الأطعمة الفاخرة والعروض

(٧٦) المصدر السابق . ج ١ ص ٣٠٥ .

السحرية الجذابة ، واللقاءات الجماعية الممتعة تحتل مكانا كبيرا فى حيـاة الغربيين ، فانهـا قليلة التأثير على وجدان المسلم .

وكما ان المسلم ، عامة ، لا يقدر السعادة التى يبحث غيره عنها فى هذا العالم ، فانه لا يؤمن بامكان تحققها على الارض ، ومن هنا يعتكف فى عالم أحلامه التى تمثل له المتع الوحيدة الخالصة الجديرة بشغل فكره ، عزوفا عن الثروة وألقاب التكريم ومنابع اللذة التى يعدها أشياء عابرة خادعة كأنما وجدت لتحرفه عن الطريق القويم ، وهذا ما يجعله يبدو جادا صموتا سوداوى المزاج .

وهو يخشى ممارسة الوظائف العامة خشية محاسبته على أعماله ومساءلته عن وســائل الاداء ، ويهرب من العالم ، لأنه يعد اغراءاته حافلة بالمخاطر ، ولا يهوى كثرة الكسب حرصا على ضمان شرف الوسائل ، وهو فى الواقع يحمل احتقارا عميقا لهذا المعدن الخسيس — (الذهب — النقد) — ولعله لهذا ينفقه دون ندم ، وقد ضاعت ثروات كثرة من المســلمين فى اندفاعهم لنجدة اخوانهم ، فهل هناك دليل أكبر من هذا على ازدرائهم للنقود ؟ .. واذا كان كثير من المســلمين يقترضون بالربا ، فلست أعرف مسلما واحدا يقرض ويأخذ ربا على ذلك . ولعل الشىء الذى لا يكاد يصدق هو أنه لا يرى فى اللذة الجنسية الا اشباعا سـفيها لاحدى الحاجات الجسدية ، حتى ان فنون الهوى التى أبدعها العشاق العباقرة ، والتى يهتم بهـا الغربيون ، لا تحدث أثرا فى نفوس المسلمين الانقياء ! » (٧٧) .

هكذا صور قاسم « الشخصية العامة » « لعامة »

---

(٧٧) المصدر السابق . ج ١ ص ٣٠٨ ، ٣٠٩ .

المسلمين .. وهى صورة أقل ما يقال فى نقدها : أنها أخذت ما هو جزئى ونادر وشاذ فجعلته عاما وصورته على أنه القسمات الاساسية للشخصية الاسلامية ، ومن هنا جاءت أشبه ما تكون بصورة يرسمها « سائح » عابر سبيل ، رغم انها قد جاءت فى كتاب يرد به قاسم على « سائح » وينتقد فيه منهج « السائحين » فى رسم الصور وتأليف المعلومات وتأليف الكتب عن المواطن التى فيها يسيحون ! .

٢ ـ اما الاسلام ، كدين ، فان فهم قاسم أمين له كان فهما بسيطا وجيدا فى ذات الوقت .. فهو يرى ان الكثير مما أضيف الى الدين ، بمرور العصور ، الدين منه برىء ، فالجانب « الدينى » فى « الحضارة الاسلامية » محدود ومحدد ، لأن الاسلام ، كدين ، عند قاسم أمين ، هو حركة اصلاح للمسيحية وتقويم لانحرافات وتحريفات الديانات التى سبقته الى الظهور ، وبعبارته هو : « يستطيع المتأمل المنصف أن يرى ان مهمة محمد صلى الله عليه وسلم ، كانت دينية بأقل مما كانت سياسية ، فمن وجهة النظر الدينية البحتة ، أراد النبى ، ببساطة ، اصلاح المسيحية ، بانقاذ وحدانية الله التى غرقت فى الثالوث الغامض والعصى على التفسير ، كما أراد ادانة الخرافات السوقية والأشكال الرمزية المستعارة من الوثنية الرومانية والاغريقية » (٧٨) .

هكذا ، ببساطة وعمق ، الاسلام كدين .

وعلى الذين يلتمسون هذا الدين البسيط أن يذهبوا الى مصدره الأوثق : القرآن ، ثم الى قلة من الاحاديث الصحيحة التى تجمع عدة شروط : شرط الصحة رواية

(٧٨) المصدر السابق . ج ١ ص ٢٩٩ .

.. وشرط تعلقها بأمور الدين ، بأن تكون تفسيرا لمجمل في القرآن مثلا .. وشرط موافقتها لمنطق القرآن وروح آياته .. اما ما عدا ذلك من الأحاديث ، حتى ما صح منها ولكن كان موضوعه الاخلاق أو شئون الدنيا ، فهو ليس من الدين .. ذلك « ان أقوال النبى لا تشكل جزءا من الدين ، ومن الطبيعى أن ننحى من هذه الاقوال تلك المحادثات الأليفة والنصائح الخلقية ، والحكم الفلسفية التى تتضمن ، دون شك ، نصائح قيمة ، ولكنها لا تشكل التزامات وواجبات دينية .. كما يجب أن ننحى ايضا كل ما ليس له علاقة بالفقه والتشريع ، وتبقى بعد ذلك الأحاديث القليلة التى تفسر أو تكمل التوجيهات التى يتضمنها القرآن الكريم ، والتى لا تعد جزءا من الدين الا بعد تحقق جاد من روايتها عنه أو بملاحظة تطابقها مع نص القرآن أو روحه .. » (٧٩) .

وبسبب من بساطة هذا الدين كانت سماحته مع العلم والعلماء ، حتى من اختلف مع أصوله ومعطياته ، اذ « لم يحدث فى أية لحظة من تاريخ ديننا الاسلامى ان ثارت حرب ضد العلم ، وقد عانى من أشد النظريات مادية ، فلم يسىء أبدا معاملة واحد من العلماء ، وقد أذن لكل المعتقدات ان تحيا جنبا الى جنب » (٨٠) .

ومن هنا ، ولهذا الفهم المستنير الذى فهم به قاسم أمين الدين الاسلامى ، كانت اشارته الهامة الى تلك الامكانيات الغير محدودة المفتوحة أمام انتشار الاسلام فى أوروبا .. فالنهضة والاستنارة والعقلانية التى سادت وتسود المجتمعات الأوروبية لا يتلاءم مع أهلها الا دين

---

(٧٩) المصدر السابق . ج ١ ص ٣٢٦ .
(٨٠) المصدر السابق . ج ١ ص ٣٢٥ .

يتميز بهذه البساطة والعقـــلانية والبعد عن الخرافة والاقتصاد في الغيبيات .. وهذا الدين هو الاسلام .

ولقد كان قاسم أمين ، برأيه هذا ، يشارك عددا من المستشرقين والأوروبيين الذين دخلوا الاسلام ، وآخرين منهم لم يسلموا ولكنهم رأوا ان الاصـــلاح الدينى البروتستانتى هو استعارة واستفادة جزئية من روح الاسلام وتعاليمه ، وان خط سير أوروبا نحو المزيد من الاستنارة والعقلانية سـيدفع بمستنيريها شيئا فشيئا الى الاسلام .

أما عباراته التى صاغ فيهـا فكرته هذه فهى التى تقول :

« اننى أبعد ما أكون عن التعصب ، غير اننى أعتقد ان الاسلام هو أفضل راية يمكن أن تجمع حولها البشرية كلها متحدة فى عقيدة واحدة ، ذلك ان الاسلام ببساطته ، وباختفاء الصوفية من نصوصه ، وبايجابيته الخلقية ، وامكان تلاؤمه ببساطة أصيلة مع كل التطورات، وبتسامحه الكبير الذى يتميز به ، يجمع ، فى رأيى ، مؤهلات تـكفى لترشيح نفسه ليكون دين العالم كله . وذلك هو ما أعتقد انه الحلم الذى كان يطمح اليه القرآن ، والذى أوشك أن يتحقق فى احدى اللحظات ، ذلك انه دين الفطرة فى شكله البسيط ، المؤهل لارضاء الجزء الأعظم من البشرية التى لا تستطيع ، رغم كل شىء ، أن تقبل الحياة دون أن يعشش فى وجدانها أمل خيالى رائع ! (٨١) ... ان الاسلام الذى ظل طويلا يمثل القوة والنور فى العالم كله ، ما يزال يملك ذخيرة ثقافية وعظمة خلقيـة تتيح له أن يصل حلقات السلسلة المحطومة ، وأن يعيد ايقـــاد

(٨١) المصدر السابق . ج ١ ص ٣٢٨ .

الشعلات المنطفئة ! .. » (٨٢) .

هذا عن الاسلام كدين .

٣ ـ ويدرك قاسم أمين كيف شوه الواقع البائس تلك الصورة الجميلة لحقيقة دين الاسلام .. وهذا الواقع البائس يتمثل عنده فى « الفقهاء ورجال الدين » .

صحيح ان الاسلام ليس به « سلطة دينية » ، ومن ثم فليس به ما يسمى « رجل الدين » ، وكما يقول : « فاننا لا نملك هذه المؤسسة الهائلة المهيبة التى تسمى الكنيسة ، وليس هناك شيء يمثل السلطة الدينية وسطنا . ان كل مسلم هو نفسه سلطان روحه . وليس لعلمائنا أو شيوخنا أية شخصية عامة أو دينية ، وليس لهم من السلطة الا ما نعترف به نحن لمعارفهم » (٨٣) .

ولكن هذا المبدأ الاسلامى الجوهرى الرائع شيء والتطبيق الواقعى شيء آخر ، فكما قلدنا الأمم والديانات الأخرى فى أمور كثيرة ، قلدناهم فى ظهور فئة من «علماء» الدين ، امتهنوا الدين مهنة ، فتحولوا ، عمليا الى « رجال » دين ! .. ثم كان لهم ، تاريخيا ، الدور المعوق للتقدم الحضارى للمسلمين كما يقول قاسم أمين مصورا الدور السلبى الذى لعبه نفر من الفقهاء فى تاريخنا الحضارى .. « فلقد أسست المدنية الاسلامية على الأساس الدينى والأساس العلمى .. ولكن لما كان العلم فى تلك الأوقات فى أول نشأته ، وكانت أصوله ضروبا من الظنون لا يؤيد أكثرها بشيء من التجارب ، كانت قوة العلم ضعيفة بجانب قوة الدين ، فتغلب الفقهاء على رجال العلم ، ووضعوهم تحت مراقبتهم ، وزجوا بانفسهم فى

(٨٢) المصدر السابق . ج ١ ص ٢٣٨ .
(٨٣) المصدر السابق . ج ١ ص ٢٦٠ .

المسائل العلمية ، وانتقدوها ... وما زالوا يطعنون على رجال العلم ويرمونهم بالزندقة والكفر حتى نفر الكل من دراسة العلم وهجروه ؛ وانتهى بهم الحال الى الاعتقاد بأن العلوم جميعها باطلة الا العلوم الدينية ، بل غلوا فى دينهم وشطوا فى رأيهم حتى قالوا فى العلوم الدينية نفسها انها لابد ان تقف عند حد لا يجوز لاحد أن يتجاوزه ، فقرروا ان ما وضعه بعض الفقهاء هو الحق الأبدى الذى لا يجوز لاحد أن يخالفه ! » (٨٤) .

واذا كان التطور قد أصاب الكثير من مناحى حياتنا منذ مطلع القرن التاسع عشر ، وفعل فعله فى عدد عديد من الدوائر الفكرية ، فلقد ظل التخلف والجمود طابع الكثير من فقهائنا وشيوخنا ومذهب مراكز التوجيه الدينى الرسمية .. وقاسم أمين يصور عالم بعض هؤلاء الشيوخ والفقهاء عندما يقول :

« ... ذلك هو الحال الذى تردى فيه بعض شيوخنا ، الذين كان عليهم ان يقدموا لنا وصفا تفصيليا عن السماء والجنة والنار توحى لنا دقته بالايمان بمعرفتهم لها معرفة حقيقية ، بينما هم يجهلون كل شىء عن الارض ! .. وليس فى هذا ما يثير الدهشة ، ذلك انهم بدلا من ان ينظروا الى العلم السماوى بوصفه قمة جميع العلوم ، نجدهم لايجمعون المعارف الأولية التى يعيها تلميذ المدرسة الابتدائية ، ولا يوسعون أبدا نطاق دراساتهم ، ولذلك فان هؤلاء الشيوخ هم كتب رائعة ناطقة ، لكنهم فقدوا منذ وقت طويل ملكة التحليل والتعليم ، وهؤلاء الجهلة هم الذين يدعون فهم الفلسفة الدينية وقدرتهم على تفسيرها ، وينصبون من أنفسهم حماة الرسالة النبوية ،

(٨٤) المصدر السابق . جـ ٢ ص ٢٠٤ .

ويدعون السهر على حفظ الدين وعلى نقـــائه وحسن تطبيقه .. أن هؤلاء ليسوا الا ادعياء شديدى الوقاحة ، يخنقون الذكاء ويحولون بين الفكر وبين البحث ، ويدسون الوصايا الزائفة ، ويبتكرون الحيل للافلات من قسم او التحرر من أحد الواجبات الدينية ... انني اعلن ، مع ذلك ، ضرورة ادخال اصلاح محـدد يتمثل فى تزويد المرشحين للدراسات الدينية بمعـارف منطقية وعلمية ، حتى يستطيعوا بوسـاطة التعليم أن ينتزعوا من عقول بعض المسلمين جميع المعتقدات السيئة التى تهدد بخنق الدين ، وان يرشدوهم الى طريق العـودة الى بساطة قواعد الاسلام الخمسة ، فقد كانت وحدها كفيلة بنشر الاسلام فى جميع أرجاء العالم ، وما نزال وحدها قادرة على انقاذه من كارثة مدمرة .. » (٨٥) .

٤ ـ أما الحضارة الاسلامية ، وبالذات التنظيم السياسى فى هذه الحضارة ، فلقد اختلف ازاءه موقف قاسم أمين ، أو تغير وتطور فى تقييمه لهذا الجانب من جوانبها .. ولقد كان تعرضه لهذا الجانب الهام يأتى بمناسبة الحديث عن صلاح هذه الحضارة التاريخية كبديل للتخلف وأيضا كبديل للأخذ بالنمط الأوروبى الذى جاء الى الشرق فى ركاب الغزاة ؟ .

فنحن نلمح قاسم أمين فى مرحلة كتابه « المصريون » سنة ١٨٩٤ م يميل الى وجود « تنظيم ونظام سياسى اسلامى » ، كقسمة فى حضارتنا الاسلامية ، وهو يرجع ازدهار المسلمين وحضارتهم الى تطابق نظامهم السياسى مع تعاليم دينهم ، فلما أهملوا تعـاليم الدين انهار كل البناء .. فالعيب هنا ، كما يراه ، ليس فى النظامات

(٨٥) المصدر السابق . ج ١ ص ٢٢٦ ـ ٢٢٨

السياسية .. فهو يقرر « ان المسلمين عرفوا العظمة حين كان لهم تنظيم سياسى اسلامى ، وخاصه حين كانت حياتهم وسلوكهم متطابقتين مع الأخـــلاقيات والوصايا الاسلامية التى بدأت مأساتهم يوم ابتعدوا عنها . ولو كان لى أن أحدد أسباب تخلف العالم الاسلامى لوضعت اهمال تنفيذ التعاليم الدينية على رأس العوامل الهـامة لذلك .. » (٨٦) .

ولـكنه يرجع عن هذا الرأى فى مرحلة كتابيه « تحرير المرأة » سنة ١٨٦٩ م و « المرأة الجديدة » سنة ١٩٠٠ م فينكر أن يكون المسلمون قد عرفوا النظامات السياسيه أصلا فى مجتمعاتهم وتاريخهم ، ويرجع انهيار حضارتهم وشيوع الاستبداد بالمرأة فى تاريخهم الى افتقادهم هـذه النظامات .. فيقول مثلا :

« تجردت الجمعيات الاسلامية — (أى المجتمعات) — على اختلاف الأزمان والأماكن من النظامات السياسية التى تحدد حقوق الحاكم والمحكوم ، وتخول للمحكومين مطالبة الحاكمين بالوقوف عند الحـــدود المقررة لهم بمقتضى الشريعة والنظام ، بل أخذت حكومتها الشكل الاستبدادى دائما .. وأساء حكامها فى التصرف .. بل لعبوا بالدين نفسه فى أغلب الأزمنة ، ولا يستثنى منهم الا عدد قليل لا يـكاد يذكر بالنسبة الى غالبيتهم .. » (٨٧) .

ثم يعود الى تقرير الفكرة فى مرحلة تالية ومكان آخر فيقول :

« .. واما من جهة النظامات السياسية ، فاننا مهما دققنا البحث فى التاريخ — (الاسلامى) — لا نجد عند

(٨٦) المصدر السابق . ج ١ ص ٣٠٦ .
(٨٧) المصدر السابق . ج ٢ ص ١٦ .

اهل تلك العصور ما يستحق أن يسمى نظاما ، فـان شكل حكومتهم كان عبارة عن خليفة أو سلطان غير مقيد ، يحكم موظفين غير مقيدين ... ربما يقال : ان هذا الخليفة كان يولى بعد أن بايعه أفراد الأمة ، وان هذا يدل على ان سلطة الخليفة مستمدة من الشعب الذى هو صاحب الأمر .

ونحن لا ننكر هذا ، ولكن هذه السلطة التى لا يتمتع بها الشعب الا بضع دقائق هى سلطة لفظية ، أما فى الحقيقة فالخليفة هو وحده صاحب الأمر .

ومن الغريب ان المسلمين فى جميع أزمان تمدنهم لم يبلغوا مبلغ الأمة اليونانية ، ولم يتوصلوا الى ما وصلت اليه الأمة اليونانية من جهة وضع النظامات اللازمة لحفظ مصالح الأمة وحريتهـا ، فقـد كان لتلك الأمم جمعيات نيابية ومجالس سياسية تشترك بها مع الحاكم فى ادارة شئونها .

واغرب من هذا ان أمراء المسلمين وفقهائهم لم يفكروا فى وضع قانون يبين الأعمال التى وجدوا انها تستحق العقاب ويحددوا العقوبات عليها ، بل تركوا حق التعذير الى الحاكم يتصرف فيه كيف يشـــاء ، مع ان بيـان الجرائم وعقابها هو من أوليات أصول العدالة .

ولست محتاجا ان أقول : انهم ما كانوا يعرفون شيئا من العلوم السياسية والاجتماعية والاقتصادية ... فاذا كانت حالتهم السياسية هى كما ترى فما الذى يطلب منا أن نستعيره منها ؟! » (٨٨) .

ونحن نعتقد ان هذا التقييم الذى اعطاه قاسم أمين لقسمة النظامات السياسية فى حضارتنا هو تقييم ظالم

(٨٨) المصدر السابق . ج ٢ ص ٢٠٦ ، ٢٠٧ .

وغريب قد جانب صاحبه الصواب .. كما نعتقد ان اهم الأسباب التى تكمن وراء ذلك هى :

ا ــ انه لم يفرق ويميز بين « الحضـــــارة » وبين « التاريخ » .. ففى حضارتنا فكر سياسى ، وضع قواعد للشورى ، وأشار الى هيئات تنهض بمهام اختيار الحاكم والرقابة عليه ، وحدد قواعد الفصل بين السلطات ، وأعطى توصيفا وتحديدا رائعا للجرائم والعقوبات .

ويكفى أن ندل على خطأ قاسم أمين ، هنا ، وهو ينفى أن يكون المسلمون قد وضعوا قانونا يحـــــدد الجرائم والعقوبات ، بما قاله هو نفسه عن هذا القانون وعن الفقه الاسلامى ، عندما أشار فى كتاب « المصريون » الى أصالة هذا الفقـــــه ، ووصفه بأنه « أعظم نصب اقامة العقل البشرى » ونفى أن يكون منقولا عن القانون الرومانى ، واكد « انه يستمد أصالته من آيات القرآن وأحاديث الرسول » (٨٩) .

لكن قاسم أمين نظر فى « التاريخ » ، والتاريخ السياسى بالذات ، فوجد قسمة الاستبداد الفردى بالحكم تغطى المساحات الشاسعة من قرون الحكم الاسلامى والبـــلاد الاسلامية ، ثم هو لم يميز بين تراث هذه الأمة الحضارى وابداعها فى السياسة والنظم السياسية والتشريع وبين حيلولة النظم الاستبدادية بين هذه النظم وبين التطبيق .

ب ــ لم يلتفت قاسم أمين الى دراسة الحركات الفكرية والتيارات الثورية واحزاب المعارضة التى استمرت طوال عصور التاريخ الاسلامى تجاهد كى تضع فى التطبيق ثمرات اجتهاد هذه الأمة الفكرى فى القانون والشورى والعدل الاجتماعى .. ولو انه التفت الى دراسة هـــذه

(٨٩) المصدر السابق . ج ١ ص ٣١٩ .

القسمة لرأى أشياء أخرى مشرقة تقف انى جانب ظلمات الحكم الاستبدادى الذى عرفه هذا التاريخ .

جـ ـ وأخيرا .. فلو أتيحت له فرصة الاطلاع على تراث هذه الأمة فى الفكر الاقتصادى ، وما كتبه علماؤها فى (الأموال والخراج) لرأى جذورا عميقة لأكثر النظريات الحديثة جنوحا نحو العدل والانصاف ، ولما قال : ان المسلمين « لم يعرفوا شيئا من العلوم السياسية والاجتماعية والاقتصادية ! » .

بل لو قد أطلع على قوائم عناوين تراثنا فى الفكر السياسى والاقتصادى ـ قوائم العناوين فقط ـ لتردد قبل أن يصدر هذه الأحكام ؟! .

ه ـ أما قسمة « الفكر الاجتماعى » فى الحضارة الاسلامية والتمدن الاسلامى فان قاسم أمين يعجب بها كل الاعجاب ، كما ان رؤيته لها تستحق هى الأخرى منا التقدير والاعجاب .

فهو يرى ان الاسلام يتميز بالانحياز الى « نوع من الجماعية » و «الاشتراكية» قد أقامه على رفض «الفردية» التى أشعلت بغضاء الصراع الطبقى فى المجتمعات الأوروبية ، وعلى استبدال هذه « الفردية » بتقرير « اشتراك » الفقراء فى الأموال التى هى فى حوزة الأغنياء .. وبسبب من هذه الفلسفة التى هى محور الموقف الاجتماعى للاسلام فان « العمل » هو المعيار الوحيد للكسب والحيازة والدخل الاقتصادى ، وان الشعار ـ الاشتراكى ـ القائل : « من كل حسب عمله » ، هو شعار اسلامى تماما ومقبول من المسلمين بالتأكيد .. وبسبب من هذه الفلسفة أيضا فان الاسلام يرفض الحواجز الطبقية التى عرفتها وتعرفها المجتمعات التى

فرقتها الملكية والامتيازات الى طبقات ثابتة ، كما يرفض ان تكون الوراثة أو الثروة معيارا يحل محل العمل فى كسب الجاه و النفوذ .

« فالاسلام لم يعرف قط امتيازات الميلاد او الثروة . وقد سبق بهذا أكثر النظم السياسية ثورية بأكثر من ألف عام .. فليس من العدالة ان تكون صدفة الميلاد فى احدى البيئات مصدرا لوضع متميز .. لقد كان المبدأ القيم عند بعض الاقتصاديين ، والقائل : (من كل حسب عمله) وسيبقى ، دائما شعارنا ، اننا جميعا ابناء أعمالنا .. لقد نظم الاسلام توزيع الثروة ، وأعلن اشتراك الفقراء فى ملكية أموال الأغنياء . وهذا ـ كما هو واضح ـ حل للمشكلة الاجتماعية بواسطة نوع فريد من الجماعية .

أولا ترى فى مثل هذا الدستور ما يوفق بين المصالح ، وما يهدىء جميع الخواطر ؟ اليست هذه الاشتراكية أكثر سموا وأقرب الى الواقع العملى من تلك النظم التى تتحدث عنها أوروبا ، والتى يتجلى قصورها وصعوبة تنفيذها ؟ .. اننى أشهد فى أوروبا نفوسا حائرة ، وعقولا قلقة ، وصراعات بين الطبقات تتزايد حدتها ، فيرتعد الأغنياء ، ويصرخ الفقراء ، وتتراءى أعراض زلزال هائل رهيب .. ان أى مجتمع اسلامى لا يمكن أن يقوم الا على تنظيم ديمقراطى ، فهو ينهض على أساس فكرة المساواة والاخاء .. ولا يعبأ بآداب المجتمعات الشكلية ، فى أوروبا ، والتى تفصل بين الأغنياء والفقراء ، بين النبلاء والعامة . فالكل داخلٌ فى الكل ، وامتزاج الطبقات كاملٌ .

أو يمكن بعد أن يعرف الانسان كل ذلك ان يتذوق

شيئا آخر ويحبه ؟! » (٩٠) .

فهو هنا لا يسوى بين « جماعية الاسلام واشتراكيته » وبين نظيرهما فى الفكر الأوروبى ، بل يميز بينهما ، ويفضل المنطلق الاسلامى لتنظيم المجتمع على أساس من فلسفته — فلسفة الاسلام — فى هذا الميدان .

٦ — وأخيرا .. نأتى الى تلك النقطة الهامة فى فكر قاسم أمين عن « التمدن الاسلامى » .. والخاصة بالموقف من « نوع » الحضارة التى يدعو اليها قومه ، ويحبذ أن تكون طريقهم لتجاوز التخلف « المملوكى — العثمانى » ، ويشير باعتمادها نمطا للتقدم والتطور .

فمعلوم أن عصر قاسم أمين كان استمرارا لعصر اليقظة والنهضة والتجديد الذى بدأ منذ مطلع القرن التاسع عشر .. ومعلوم كذلك ان دعاة النهضة كانت تتوزعهم دعوتان أساسيتان :

الأولى : ترمى الى الأخذ بنمط الحضارة الغربية كاملا ، وتستهدف جعل مصر — ومن ثم الشرق — قطعة من أوروبا .

والثانية : ترمى الى الاستفادة من « أدوات » النهضة والحضارة الأوروبية ، مع جعل منطلقاتنا عربية اسلامية ، وطابعنا عربيا اسلاميا ، وبناء حضارة عربية اسلامية معاصرة ومتطورة ، تتميز كثيرا عن حضارة الأوروبيين .

ولقد بدأ قاسم أمين ميالا ، وان يكن فى تردد شديد ، الى التيار الثانى ، ثم عاد فانخرط تماما فى سلك دعاة التيار الأول .

فهو فى مرحلة كتابه « المصريون » سنة ١٨٩٤ م يقارن بين الحضارة الأوروبية وبين الحضارة الاسلامية ، ثم

(٩٠) المصدر السابق . جـ ١ ص ٢٥٩ — ٢٦٢ .

يحكم بأن الظفر انما هو من نصيب الحضارة الاسلامية الأصيلة .. يقول : انه « اذا كانت توجد اليوم حضارة اسلامية خالصة الى جانب الحضارة الأوروبية ، فان الأصالة هى الظافرة ! » (٩١) .

ثم يعود فيتردد فى الاختيار بين الحضارتين ، وخاصة عندما يكون المقام خاصا بالحديث عن « الاختبارات » والبدائل المطروحة أمام النهضة المصرية .. يتردد ، ولكنه ينبه الى أن مصر قد اختارت ، بالفعل ، النمط الأوروبى ، وان العودة عنه تكاد تدخل فى عداد المستحيلات .. ذلك ان امام مصر « طريقان : العودة الى تقاليد الاسلام ، أو محاكاة أوروبا . وقد اختارت الطريق الثانى .

وليس على ان أحكم على جدارة هذا الاختيار . لقد مضت فى اثر حركة الحضارة الأوروبية التى تجتاح كل مكان ، والتى تبدو استحالة مقاومتها .. انها قد خطت اليوم بعيدا فى هذا الطريق حتى ليصعب عليها الارتداد عنه ، ان مصر تتحول الى بلد أوروبى بطريقة تثير الدهشة ، وقد اخذت ادارتها وابنيتها وآثارها وشوارعها وعاداتها ولغتها وأدبها وذوقها وغذاؤها وثيابها تتسم كلها بطابع أوروبى ، انها تهتم بكل ما تكتبه أوروبا أو تفعله ، وتجد كل الأفكار التى تحرك حماس أوروبا صداها هنا » .. (٩٢) .

وفى مرحلة كتاب « المراة الجديدة » سنة ١٩٠٠ م يحسم قاسم أمين هذا التردد ، وذلك عندما يقرر ان التمدن الاسلامى ليس فيه ، حضاريا ، ما يصلح للعطاء المعاصر ، وان دراستنا له يجب أن تستهدف الدراسة

---

(٩١) المصدر السابق . جـ ١ ص ٣٠٥ .
(٩٢) المصدر السابق . جـ ١ ص ٢٦٣ .

التاريخية ، التقييم ، وكشف الجذور ، والاستفادة من الأخطاء حتى لا تتكرر .. اما طريق اليوم والغد فلا علاقة له بهذا النمط الحضارى الذى ساد فى تلك العصور .. يقول :

« انه يجب على كل مسلم ان يدرس التمدن الاسلامى ويقف على ظواهره وخفاياه ، لأنه يحتوى على كثير من اصول حالتنا الحاضرة ، ويجب عليه أن يعجب به لأنه عمل انتفعت به الانسانية وكملت به ما كان ناقصا منها فى بعض أدوارها ، ولكن كثيرا من ظواهر هذا التمدن لا يمكن ان يدخل فى نظام معيشتنا الاجتماعية الحالية ... يجب علينا أن نلتفت الى التمدن الاسلامى القديم ، ونرجع اليه، ولكن لا لننسخ منه صورة ونحتذى مثال ما كان فيه سواء بسواء ، بل لكى نزن ذلك التمدن بميزان العقل ونتدبر فى أسباب ارتقاء الأمة الاسلامية وأسباب انحطاطها ونستخلص من ذلك قاعدة يمكننا أن نقيم عليها بناء ننتفع به اليوم وفى ما يستقبل من الزمان .. » .

ثم يزيد الأمر وضوحا عندما يقول :

« ان تمسكنا بالماضى الى هذا الحد هو من الأهواء التى يجب أن ننهض جميعا لمحاربتها ، لأنه ميل يجرنا الى التدنى والتقهقر ، ولا يوجد سبب فى بقاء هذا الميل فى نفوسنا الا شعورنا بأننا ضعاف عاجزون عن انشاء حالة خاصة بنا تليق بزماننا ويمكن أن تستقيم بها مصالحنا ، فهو صورة من صور الاتكال على الغير ، كأن كلامنا يناجى نفسه قائلا لها : اتركى الفكر والعمل والعناء، واستريحى فليس فى الامكان أن نأتى بأبدع مما كان ؟ .

هذا هو الداء الذى يلزم أن نبادر الى علاجه ، وليس

له من دواء الا أن نربى أولادنا على أن يعرفوا شـــئون المدنية الغربية ويقفوا على أصلها و فروعهاوآثارها!»(٩٣).

***

تلك هى أفكار قاسم أمين ونظراته فيما سماه « التمدن الاسلامى » .. وهى أفكار ونظريات جمعت بين ما هو خطأ وما هو صواب ، وشهد بعضها تطورا من الصواب الى الخطأ أو من الخطأ الى الصواب ! .

(٩٣) المصدر السابق . جـ ٢ ص ٢٠٥ ، ٢٠٦ ، ٢٠٣ ، ٢٠٤ ، ٢٠٩ .

مصــــر..
والمصــرية..
والمصــريون

(ان المصريين ـ مسلمين واقباطا ـ ينتمون الى جنس واحد ·· والمصرى لا يرهب الموت ولا الآلام ، غير أنه يحتمل بعض الاهانات ، لان السلطة افقدته وعيه حتى ظن أنه مخلوق لمعاناة نزواتها !·· أنه لا تنقصه القوة الجسدية ، ولا الطاقة المعنوية ·· ان ما يحتاج اليه هو النهوض والتوجيه السليم لكى يصبح قوة عظمى ··

وليس يباح لانسان يحترم نفسه ان يخجل من وطنه ، ولا أن يغضب عليه الا كما يغضب الولد من أبيه غضبا ممزوجا بالأسف والحنو ··)

قاسم امين

يؤمن قاسم امين بأن المصريين شعب واحد متحد .. فليس بين مسلميه ومسيحييه فروق عرقية قديمة ، لأن المسلمين المصريين هم أقباط أسلموا وليسوا وافدين من شبه الجزيرة العربية كما يظن بعض السذج من الجاهلين أو سيئى النية ! .

وهو يؤمن كذلك ان اختلاف المصريين فى الدين لم يكن له تأثير فى يوم من الأيام على وحدتهم الوطنية الراسخة ، تلك الوحدة القائمة على قسمات الوطنية بمعناها الحديث والمصالح الوطنية الواحدة التى تجمعهم جميعا بصرف النظر عن اختلاف المعتقدات .. فعنده ان « من المؤكد أن المصريين المسلمين الذين نراهم فى المدن ، وخاصة فى الريف ، ليسوا من نسل العرب ، وليسوا عربا الا باللغة والدين ، وتكفى ملاحظتهم للاقتناع بأنهم نفس النماذج القبطية ، واننى أومن ــ وهو ما تؤكده الملاحظة أيضا ــ ان المسلمين المصريين ليسوا الا أقباطا اعتنقوا الدين الاسلامى .

ويشكل المسلمون والأقباط ــ رغم اختلاف الدين ــ كلا متناسقا يتحدث نفس اللغة ، ويرتدى نفس الثياب ، ويمارس نفس العادات . ولم يحدث قط منذ بدأوا

يعيشون معا جنبا الى جنب ان وقع بينهم خلاف جاد .
لقد ربطت المآسي المشتركة بينهم بعاطفة وطنية ، جعلتهم يرتفعون بمصلحة الجماعة فـوق الاختـلافات الدينية ، ويكفى أن نذكر هؤلاء الذين يتمنون فصم وحدتنا ، بان الأقباط أثناء ثورة عرابى كانوا يسيرون مع المسلمين يدا فى يد ، وانه لم يطف بخيـال مسلم أيامها أن يحرك القلق فى قلب قبطى ، بينما وصف المسلمون الأتراك والشركس بأنهم أعداء مصر ! » (٩٤) .

فنحن هنا بازاء شعب واحد ، تربط أبناءه جميعا روابط الوطنية بمعناها الحديث .

وقاسم أمين يدرك دور النهضة الحديثة التى شهدتها مصر منذ حكم محمـد على فى تكوين هـذا « الوطن » المصرى الحديث .. ففى ظل هذه النهضة قامت « الدولة المدنية » الحديثة ، وبرزت « حقوق المواطنة » لـكل المصريين كرباط يعاو على غيره من الروابط الاعتقادية .. وفى ظلها كذلك أطلق العنان ، الى حد كبير ، لملـكات الانسان المصرى فأبدع وأثبت جدارته بميراثه الحضارى العريق فى كل الميادين .. وبسبب كل ذلك عرف الانسان المصرى معنى الافتخار الوطنى والاعتزاز بالوطن ، مما جعله يقارن نفسه ووطنه بأرقى الأوطان دون أن تحول عقد النقص بينه وبين الاعتزاز بمـــا له من طاقات وما أحرز ويحرز من انجازات .

« .. فيوم تشكل الوطن المصرى ، أو وطن المصريين على يد محمد على الطيبة ، لم يبخل المصريون بدمهم فى سبيل أن يضفوا على وطنهم اروع بريق ممكن .. ان المصرى ليس جبانا البتة ، وانه لا يرهب الموت

(٩٤) المصدر السابق . جـ ١ ص ٢٥٧ ، ٢٥٨ .

ولا الآلام ، غير أنه يحتمل بعض الاهانات ، لأن السلطة أفقدته وعيه ، حتى ظن أنه مخلوق لمعاناة نزواتها . انه لا تنقصه القوة الجسدية ، كما لا تعوزه الطـــاقة المعنوية ، ان ما يحتاج اليه هو النهوض ، والتوجيه السليم لــكى يصبح قوة عظمى » (٩٥) .

وان تلك الاهانات والمظـــــالم التى توقعها السلطة الجائرة بالانسان المصرى ، يجب ـ فى راى قاسم أمين ـ ان لا تجعل آثارها السلبية عيوننا وبصائرنا تضل وتزيغ عن ادراك الجـــوهر الحقيقى والرائع لــذلك الانسان المصرى الأصيل .. فلقد يستخفى هذا الجوهر تحت مظاهر الفقر والآلام ، ولكنه أبدا لا يغيب ولا يذوب ولا يزول .. « صحيح اننا ما نزال نعرف شقاء كبيرا فى ريفنا ، فالفلاحون والأطفال يعيشون فى حالة حرمان من النظافة وفى املاق مثير للشفقة .. غير انه تحت هذه القشرة من وحل الفقــــر يتجلى الجسد نظيفا دائما ، بفضل الوضوء خمس مرات كل يوم ، وغالبا ما تشمخ فوق هذا الجسد ـ كما تشمخ الزهرة ـ راس ذكية ! » (٩٦) .

ولقد دعت هذه النظرة الموضوعية والرؤية العميقة قاسم أمين الى أن يدعو قومه الى التمييز ما بين النقد الموجه للواقع بهدف اصلاحه وتطويره ، وما بين ذلك النقد الهادف الى الاســـتعلاء على الوطن والبراءة من الانتساب الى « المصرية » .. فقال قولته الرائعة :

« انه لا يباح لانسان يحترم نفسه أن يخجل من وطنه ،

---

(٩٥) المصدر السابق . جـ ١ ص ٢٦٤ ، ٢٦٥ .

(٩٦) المصدر السابق . جـ ١ ص ٢٥٦ .

ولا ان يغضب عليه ألا كما يغضب الولد من أبيه غضبا ممزوجا بالأسف والحنو ! » .

وهذا « الغضب » يعنى عنده أن ننهض نحن « بانتقاد عيوبنا بنفسنا ، وعدم اخفاء شيء منها ، حتى لا نغفل عن تلافيها ، اذ ذلك أولى من ان يلقيها يوما فى وجهنا عدو لنا ! » (٩٧) .

اما هؤلاء الذين يتخذون سبيل الاستعلاء على الوطن واهله : محتجين بأن لهم أصولا ـ تركية أو عربية ـ غير مصرية فان قاسم أمين يسخر منهم ويهاجمهم ، ويراهم خارجين على الواجب الذى يقتضي احترام جوهريات القومية وقسماتها الأساسية .. يقول : ذلك « لأن أهم شيء يحفظ الأمم ويزيد رفعة شأنهـا هو احترام جملة امورها الجوهرية الأساسية ، مثل : الدين ، والوطن ، والسلطة العمومية ، والعائلة ، والعلم ، والفضيلة ، وكل عمل شريف أو جميل أو نافع ...

ونحن معـــاشر المصريين ، ويا للأسف ! ، لا نحترم وطننا ، ولا نعرفه، وكثيرا ما نتكلم عنه بالاستخفاف والاحتقار ونحكم عليه كما نسمع من الأجانب الذين لا يمكن أن يعرفوه كوطن لهم بحال من الأحوال . وفاتنا ان كل عيب منسوب له هو منسوب فى الحقيقة لنا ، حتى ان كلمة (فلاح) ، التى كان الأتراك يستعملونها فى مقام الذم عندما كانوا يتكلمون عن كل ما هو مصرى ، اتخذها المصريون عنوانا على احتقار بعضهم بعضا .

ومن هذا القبيل أيضا نرى بعض الأشخاص الذين ولدوا فى هذه الديار من آباء ولدوا فيها ، بعد أن ترك أجدادهم بلادهم ، ولم يبق لهم أمل فى العـــودة اليها ،

---

(٩٧) المصدر السابق . جـ ١ ص ٣٢٤ .

يجتهدون دائما أن يثبتوا انهم من أصل تركى أو سورى أو عربى ، ولا يكادون يعترفون ــ وخصوصا امام الأجانب ــ انهم من أبناء البلاد التى يرتعون فى خيراتها ويعيشون من نعيمها .

وبديهى ان المصريين لو كانوا يحترمون وطنهم لما تجاسر احد على تبرئة نفسه من الانتساب اليه كما يدفع المتهم نسبة الجناية اليه عنه ! » (٩٨) .

وهذا الحس المصرى الصادق الذى تميز به قاسم أمين ، لا تجد فيه شائبة تشير الى أصله التركى ــ كما هو واضح من عباراته السالفة ــ بل انه يؤكد ان التعلق « بالتركية والأتراك » هو محض وهم ، لأن العناصر التركية التى استقرت بمصر قد ذبل دورها ، وفقدت دورها المستقل فى المجتمع ، « فهذا الجنس قد انكمش الآن ، أو ذاب فى المصريين » (٩٩) .

كما ان هذا الحس الوطنى الصادق لم يجعله يتخذ الموقف « المتعصب » الذى ينكر مزايا الآخرين .. فهو يذكر لبعض الأوروبيين الذين خدموا مصر ، فضلهم فى تنوير أهلها وخدمة مرافقها ومشاركتها السراء والضراء (١٠٠) .

ويذكر للأتراك ــ رغم مأساة احتلالهم للبلاد وظلمهم لأهلها ــ ما استفادته منهم « الأمة المصرية » ، فلقد « وجدت فيهم انسانية راقية ، فاقتبست منهم بالمعاشرة والمصاهرة : النظافة ، وترتيب المسكن ، والتفنن فى

---

(٩٨) المصدر السابق . ج ١ ص ٢٢٣ ، ٢٢٤ .
(٩٩) المصدر السابق . ج ١ ص ٢٥٨ .
(١٠٠) المصدر السابق . ج ١ ص ٢٥٨ .

الملبس والمأكل ، وكثيرا من العادات الحسنة والصفات الأدبية .. » .

ويلفت النظر الى ظاهرة تفضيل المصريين الزواج من التركيات ، ويرجعه الى نظافة المرأة التركية وذكائها وكفاءتها كزوجة (١٠١) .

وكما وجه نقده لنفر من المصريين المنحدرين من أصول غير مصرية ، والى نفر من الأوروبيين الذين كان همهم الأول « جمع الثروات فى أسرع وقت ممكن والرحيل بها بعد ذلك » عن مصر ، دون ان « تجتذبهم الحركات العلمية والأدبية » تراه كذلك قد تنبه للدور « الطفيلى » الذى قام به اليهود فى استنزاف ثروة الوطن دون أن يضيفوا اليه انتاجا يوازى ما يحصلونه من أرباح ، فيقول عنهم : ان « اليهود يشكلون أكثر أجزاء السكان — (فى مصر) — استفادة ، فهم — عدا استثناءات قليلة — لا ينتجون شيئا ، ويجنون مع ذلك أرباحا كثيرة » (١٠٢) .

وهو بذلك يدرك وينبه الى حقيقة انهم انما يهتمون بالكسب من المهن « الوسيطة » و « السمسرة » و « العمولات » ، ولا يقبلون على المخاطرة بتوظيف أموالهم فى مشاريع الانتاج .

***

وبسبب من ذلك المفهوم الحديث الذى أعطاه قاسم امين لمصطلح « الوطنية » .. ولتحديده ان الوطن المصرى قد تكونت لأهله خصائص المواطنة وعلائقها فى ظل النهضة الحديثة التى أقامتها تجربة محمد على .. لكل ذلك كان

---

(١٠١) المصدر السابق . ج ١ ص ١٦٦ .
(١٠٢) المصدر السابق . ج ١ ص ٢٥٨ .

تقييمه لهذه التجربة أمرا يستحق منا القسناء بعض الأضواء .

ويزيد ذلك الأمر اهمية ان قاسم امين هو واحد من مدرسة الامام محمد عبده الفكرية ، ولقد كانت لمحمد عبده آراء فى محمد على وتجربته شوهت الكثير من ايجابيات تلك التجربة ، بسبب ذلك الصراع الذى قام بين الأستاذ الامام وتياره الفكرى وبين الخديوى عباس حلمى والأسرة الحاكمة .. ومع ذلك فان قاسم أمين قد قيم تجربة محمد على تقييما ايجابيا ، وكان منصفا فى عرض منجزاتها الوطنية كل الانصاف .

فهو يرى فيها المرحلة التاريخية التى ظهر فيها « الوطن المصرى الحديث » .. والمناخ الصالح الذى اظهر الطاقات الحضارية الكامنة للعنصر الوطنى المصرى .. ويرى فى القسمة الاستبدادية وحكم الفرد الذى ظل يمارسه محمد على السلبية الأساسية التى شابت روعة هذه التجربة الحضارية .

ثم هو يفرق ويميز بين تجربة مصر فى عهد محمد على ، وبين ما أصاب هذه التجربة ، بعده ، على يد خلفائه الذين فرطوا فى الميراث الفنى الذى خلفه لهم مؤسس هذه التجربة .. وان كان لا ينسى أن يذكر للخديوى اسماعيل فضله على التعليم والرى والانشاءات ، وانجازاته الشورية والدستورية ، وهو الفضل والانجازات التى غطاها التبذير وما جره على مصر من ديون خلقت التكأة للأجنبى كى يطمع فى احتلال البلاد .

كما استطرد قاسم أمين ، فى تقييمه تجربة مصر الحديثة ، الى الحديث عن الثورة العرابية (١٨٨١ ـ ١٨٨٢ م) ، فرآها ـ وهو الاصلاحى الرافض للثورة

كطريق للتغيير — خطـــأ دفع اليه تعجل الأمة تحقيق الاصلاح لطول عهدها بالظلم والاستبداد ! (١٠٣) .

انه ليكفى فى الدلالة على الموقف الايجابى ، لقاسم امين ، فى تقييم فترة تأسيس مصر الحديثة هذه انه قد حكم بالادانة على كل فترات تاريخهـــا ما بين عصر ازدهارها زمن الحكم العربى الزاهر ، وهذا العصر الذى قام فيه حكم محمد على .. وهو فى كل ذلك يقول :

« لقد استغلت مصر بواسطة وحوش ذات وجوه آدمية من كل البلاد ومن كل الأنواع .. فى الفترة الحـزينة الممتدة بين وضع مصر المتألق تحت حكم العرب وعصر النهضة الذى افتتحه محمد على . لقد أخذت السلطة منذ ايام محمد على تصبح أكثر انتظاما واعتدالا ، ففتحت المدارس ، وانتظم التجنيد فى الجيش ، وانشئت الأساطيل ، وتفتحت حياة جديدة أمام التجارة والصناعة والزراعة ، وأخذت تتطـــور جميعا ، وحفرت القنوات ، وعبدت الطرق ، وفى كلمة واحدة : أقيمت حكومة حقيقية .

صحيح ان بعض أعمال العنف والابتزاز كانت ترتكب من آن لآخر ، غير ان الناس كانوا سريعى المغفرة لمحمد على ، وكانت الانجازات الطيبة التى يحققها والتى يريد تحقيقها تغفر له هفواته الصغيرة ، وكان ينظر اليه كوالد شديد القسوة ، لا يدرك الفارق بين التأديب واساءة المعاملة ! .

وخلال حكمه الطويل تهيأ المصريون لدراسة العـلوم والفنون ولحكم أنفسهم بأنفسهم ، وكانت التجربة فى

---

(١٠٣) المصدر السابق . جـ ١ ص ٢٧٣ ، ٢٧٤ .

صالحهم ولخيرهم .. وقد أدهشوا العالم الذى ذهل وهو يراهم يحاربون بشجاعة وينتصرون ! .. (١٠٤) .

« ان مصر قد أيقظها ـ بعنف ـ من نعاسها الثقيل رجل عظيم منذ نصف قرن ، وأذاقها رحيق العلوم ، فأخذت تتمثله فى نشوة ، ومن يومها وهى مقبلة على التعليم ، وقد أخذت تلمح مستقبلها المشرق ، وهى تتجه اليه فى خطى وئيدة ، ولكنها ثابتة ودؤوبة .. » (١٠٥) .

***

هكذا امتلأت مشاعر قاسم أمين بالحب لمصر ، وطنه الوحيد .. وهكذا كان تقييمه للفترة التاريخية التى نشأ فيها « الوطن » المصرى و « الوطنية » المصرية بمعناهما الحديث .. ولعل فى نصوصه الواضحة والحاسمة التى قدمناها هنا ما ينفى أية شبهات يحاول البعض القاءها على هذا الجانب من تفكيره .

---

(١٠٤) المصدر السابق . جـ ١ ص ٢٧٣ .
(١٠٥) المصدر السابق . جـ ١ ص ٣٣٨ .

فى الوطنية

(ان التمدن الأوروبى يطأ بقدمه جميع انحاء المسكونة ، ويستولى على منابع الثروة فيها ، بقوة العقل أو بالعنف ·· واذا صادف أمة متوحشة أبادها أو اجلاها عن ديارها ·· واذا صادف امة كامتنا ، لها نوع من المدنية ودين وشرائع وأخلاق ، عاملها بالمعروف ··· لكن لا يمضى زمن طويل حتى ترى هؤلاء القادمين قد وضعوا أيديهم على اهم اسباب الثروة · ولا سبيل أمامنا للنجاة الا أن نستعد لهذا القتال ، مستجمعين من القوة ما يساوى القوة التى تهاجمها ·

ان أمام مصر عقبة رهيبة هى أوروبا ·· لقد حاربناها طويلا من اجل استعادة مكاننا فى العالم ··)

قاسم امين

كان قاسم امين واحدا من ابناء المدرسة السياسية التى تكونت من حول الامام محمد عبده .. يؤمن ابناؤها « بالاصلاح » طريقا للتقدم والتطور ، ويرفضون «الثورة» .. ويعلقون الآمال على « الصفوة المستنيرة » و « النخبة المختارة » وليس على « انعامة والجماهير » .. وهذه « الصفوة » عندهم معيارها « الاستنارة الفكرية » ، وليس الوضع الطبقى والثروة المالية والجاه الموروث .

وفى ظل الاحتلال البريطانى لمصر ، كانت هذه المدرسة تتعامل مع سلطاته كأمر واقع لابد لمن يريد « الاصلاح » أن يتعامل معها ويدخل واياها فى علاقات .. وبسبب من منهج « الاصلاح التدريجى » الذى اتبعته هذه المدرسة فانها لم تطرح قضية « الجلاء الفورى » للمحتل عن البلاد كشعار لها ، لأنها كانت تؤمن بأن « الصفوة » التى لابد منها لتسلم السلطة من المحتل لم تتكون بعد ، ومن ثم كانت ترى أن « الجلاء الفورى » ـ حتى مع افتراض تحققه ـ سينقل السلطة الكاملة الى الخديوى ـ وهم يناوؤن حكمه وأسرته الى حد ما ـ أو الى الدولة العثمانية ، وهم ضد عودة سلطانها الى مصر ، لأنهم يؤمنون بالوطنية المصرية والذاتية المصرية المستقلة ،

وبعضهم يؤمن « بالقومية » المصرية بالمعنى العصرى والحديث .

ومن هنا مثلت هذه المدرسة ، فى السياسة ، تيارا معتدلا .. تهادن مع الاحتلال وتعامل معه ، على أمل الاستفادة من الوسائل الحديثة والاصلاحات العصرية التى اراد المحتل بتطبيقها تحقيق مصالحه ، على أمل الاستفادة من هذه الوسائل والاصلاحات فى تكوين هذه « الصفوة » المستنيرة ، ومناواة التيار الفكرى المتخلف والمتمسك بفكرية العصور « المملوكية ـ العثمانية » فى فهم الأدب والدين وتفسير ظواهر الحياة .

اى أن هذه المدرسة السياسية المعتدلة قد تميزت عن التيار الوطنى الداعى الى « الجلاء الفورى » .. وهو تيار مصطفى كامل (١٨٧٤ ـ ١٩٠٨ م) والحزب الوطنى .. وهو الذى كان أكثر شعبية وأقرب الى « الثورية »، وأصدق فى التعبير عن الموقف الوطنى السليم .. كما تميزت كذلك عن فئة المستسلمين للاحتلال ، واليائسين من حصول مصر على الاستقلال ، والمرتبطين بقوات الغزو وجهازه ارتباط التبعية والعمالة .

كان قاسم أمين واحدا من أبناء هذه المدرسة السياسية المعتدلة .. وان لم تكن السياسة ، بمعناها الشائع ، شغله الأول والأهم .

وهو يحدد بنفسه انه من فئة « المعتدلين » عند حديثه عن ضرورة قيام مجلس تشريعى نيابى حقيقى ، فيقول : لقد « باتت كثرة من المصريين المعتدلين ، وانا واحد منهم » تطلب قيام هذا المجلس ، ثم يضع تحفظ هذه المدرسة المعتدلة فيقول : « غير اننا نود ، بالطبع ، نظاما

فيه الغلبة للمعرفة الواعية ، لا للـكم العددى ! » (١٠٦) .

ولقد فرض هذا « الاعتدال » على هذه المدرسة أن ترفض أسلوب « الاثارة الشـــورية » الذى استخدمه مصطفى كامل فى بعث الروح الوطنية واذكائها فى نفوس المصريين .. فكان محمد عبده يصف خطب مصطفى كامل بأنها « نوبات صرع ! » .. كما نجد امتعاض قاسم أمين من كثرة الحديث عن « الوطنية » ، ودخوله فى كل شىء فى البلاد ، على حين ان ذلك ـ من وجهة نظره ـ ليس ضروريا لاثبات حبنا للوطن اليوم ، كما لم يكن ضروريا لاثبات حب الوطن عند الآباء والأجداد .. « فمنذا الذى ينكر على المصريين تقدمهم فى الاحساس الوطنى ؟.. عاش آباؤنا ، وتعلموا ، واشتغلوا بالصناعة والتجارة ، وخدموا أمتهم ، وفتحوا البلاد وحاربوا الأمم ، ولم نسمع عنهم أنهم كانوا يحبـــون وطنهم ويتهمون خصـــومهم بالخيانة . أما الآن فايما قرأت وفى أى مكان وجدت لا اسمع الا : حب الوطن ، والغيرة الوطنية ، والتفانى فى خدمة الوطن ، والجريدة الوطنية ، والمدرسة الوطنية، وحزب الوطن . والبيوت التجارية والمحـال الصناعية والصيدليات وعيادات المرضى التى تشغل وتبيع وتربح لخدمة الوطن . صار حب الوطن دينا جديدا ، من اعتنقه ربح ومن بعد عنه خسر ، صار كعصارة الطماطم يوضع فى كل شىء ليكسبه ذوقا حامضا يجعل تناوله ســـهلا مقبولا ؟! » (١٠٧) .

ونحن نود أن ننبه الى أن « خطـأ » هـذا الموقف « المعتدل » فى السياسة وفى الوطنية ، يجب أن لا يختلط

(١٠٦) المصدر السابق . جـ ١ ص ٣٤٥ ، ٣٤٦ .
(١٠٧) المصدر السابق . جـ ١ ص ١٧٣ ، ١٧٤ .

« بالخيانة » و « العمالة » للاستعمار ، كما يحلو للبعض أن يحكم على مصلحى هذه المدرسة الفكرية التى انتمى اليها قاسم أمين .. فهناك من الأدلة على « زيف » هـذا الاتهام الكثير والكثير .. (١٠٨) ..

واذا كانت هذه الصفحات ليست بالمـكان المناسب لتفصيل الموقف السياسى والوطنى لهذه المدرسة ، فاننا نهتم بأن نشير هنا الى موقف قاسم أمين من الصراع الذى شهده عصره بين مصر وبين الاستعمار .

لقد ادرك قاسم أمين ، على نحو جيد ، أن بين مصر وبين أوروبا صراعا حضاريا ، ومن ثم وطنيا ، يضرب بجذوره فى أعمـاق التاريخ ، وحدد ، على نحو ناضج وحاسم ، أن العقبة أمام تطور مصر ، وبلوغها المـكان الطبيعى التى تأهلت له ، هى أوروبا !! .

« .. أن امام مصر عقبة رهيبة هى : أوروبا ! » ..

لقد أخذ تأثير أوروبا يتزايد فى مصر منذ عهد سعيد ــ (١٨٥٤ ــ ١٨٦٣ م) حتى أصبح له فى عصر اسماعيل ــ (١٨٦٣ ــ ١٨٧٩ م) ــ سيطرة حقيقية علينا ، اذ باتت كل أفعالنا ولفتاتنا خاضعة للأوامر الصادرة من مجالس وزراء باريس ولندن وبرلين ، وأضحى وزراؤنا يميلون مرة الى اليمين ، ومرة الى اليسار ، خاضعين دائما لأوروبا .. أن أوروبا استخدمت دائما هذه السيطرة ضد مصر ... ولقد آن الأوان لتـدرك أوروبا ان المصريين قد عانوا وما يزالون يعانون بسببها ، وان العدالة تفرض عليهـا

---

(١٠٨) انظر الفصل الذى كتبناه فى التقديم « للاعمـال الكاملة للامام محمد عبده » تحت عنوان : « الاصلاح .. فالثورة .. فالاصلاح » . ج ١ ص ٣٣ ـ ١٠٠ طبعة بيروت ، المؤسسة العربية للدراسات والنشر ، سنة ١٩٧٢ م .

واجب اصلاح ما أفسدته .. وفى انتظار الوقت الذى تعترف فيه بخطأ سياستها الماضية .. أسجل : ان أوروبا كانت العقبة الوحيدة الكبرى التى كنا نحاربها من أجل استعادة مكاننا فى العالم ! .. » (۱۰۹) .

هذا عن أوروبا ، بشكل اجمالى وعام ، أما انجلترا التى أصبحت المحتل الذى انفرد باستعمار مصر ، فان قاسم أمين يقف منها موقف « الناصح » لها بأن تأخذ بيد مصر ، وفاء « بالواجب » عليها ، ويعلق عليها «الآمال» فى أن تساعد فى تطور مصر الى الامام ، ويثنى على ما تحقق فى ظل احتلالها من « تقدم » فى عدد من الميادين .. ولكنه يستنفر قومه الى النهوض ، محذرا اياهم من ترك بلادهم تنفرد بها فئات الاستغلال والاستنزاف والنهب الاستعمارى ، فهو « « يأمل » فى الانجليز ، ولكنه يطلب « المشاركة » ، ويحدد أن قانون « البقاء للأقوى والأصلح » هو الحكم فى هذا الصراع بين المصريين وبين الاستعمار !! .

فهو يطلب « ان تحمل انجلترا مسئولية مستقبل مصر ، ما دامت تمسك مصيرها بين يديها » ويأمل ان لا يسمح « اخلاص انجلترا » بعودة « الفساد الدكتاتورى » مرة أخرى الى البلاد ، ويرى ان مصر « قد بدأت تنتظم بالفعل فى طريق الحضارة » (۱۱۰) وانه قد أصبحت لديها « حكومة أمينة ومهيبة وذات مشاعر أبوية » (۱۱۱) وان مصر قد دخلت « عصر النظام والحرية » (۱۱۲) ..

(۱۰۹) المصدر السابق . جـ ۱ ص ۳۳۹ ، ۳٤۱ .
(۱۱۰) المصدر السابق . جـ ۱ ص ۲۳٤ ، ۳٤٤ .
(۱۱۱) المصدر السابق . جـ ۱ ص ۲۷٤ .
(۱۱۲) المصدر السابق . جـ ۱ ص ۳٥٥ .

وينقذ أن كل هذه الانجازات انما هى من فعل الانجليز ، وان الكثير منها قد تم فى وجه معارضة التيار المحافظ والجامد المناصر للقديم ، « فكل ما وجد فى مصر من الحرية والنظام والعدل ، لم يوجد ولم يستمر الا بعمل الأجنبى ، وعلى رغم أهلها ! » (١١٣) .

ولكنه لا ينسى ان « يتحفظ » بعض التحفظ على ذلك الاسراف الذى يتجلى فى تقييمه لدور الاستعمار فى مصر ، وهو الاسراف الذى يجـافى الحقيقة ، او يعرض جانبا واحدا من جوانبها ، فيتساءل قائلا : لكن ، « هل يعنى هذا ان لدينا حكومة كاملة ؟ وان كل شيء على أحسن ما يرام ؟؟ » ـ (وننبه الى أن الاجابة بنعم كانت موقف الفئة العميلة والمستسلمة) ـ ثم يجيب : « .. الحق ، أن لا .. فمـا يزال امامنا عمل كبير ، وما يزال علينا أن نعيد تنظيم ادارة الأقاليم التى بقيت مأوى لعقلية النظام القديم .. اننى أعلن حكومتى ، أيضا ، بالحاجة الى تمثيل وطنى حقيقى ، وان يكن فى صورة مبسطة ! » (١١٤) .

وبالطبع فنحن نؤمن بأن هذا الموقف « الوطنى المعتدل » لم يكن هو أصح المواقف ولا اجداها فى ذلك التاريخ .. ولكننا لا نود أن نظلم قاسم أمين اذا تركنا القـارىء يتصور ان آماله فى التقدم بمصر قد كانت معقودة فقط على اصلاحات الانجليز فى ادارتها ومرافقها ، فلقد كانت آمال الرجل معلقة ايضا ، بل وبالدرجة الأولى ، على نهضة المصريين لدخول حلبة الصراع ضـد الأجانب وانتزاع مواقعهم فى بلادهم بجدارة ، والاستبسال فى

---

(١١٣) المصدر السابق . جـ ١ ص ١٨٠ .
(١١٤) المصدر السابق . جـ ١ ص ٢٧٥ .

سبيل الفوز في هذا الصراع ، الذى حذرهم مغبة الاخفاق فيه .. انه يحدد جانبى الصورة كما رآها يومئذ، ايجابياتها التى دخلت الى الواقع المصرى ، والمخاطر المحدقة بأبناء البلاد وثرواتها ومصيرها .. فيقول :

« انى لا اجد فى ماضيها ــ « مصر » ــ عصرا انتشرت فيه المعارف ، وظهر فيه الشعور بالروابط الوطنيه ، وانبث الامن والنظام فى أنحاء البلاد ، وتهيأت الاسباب للتقدم ، مثل العصر الذى نعيش فيه الآن .

ولكنها ، من جهة أخرى ، لم يمر عليها زمن صارت فيه حياتها معرضة للخطر مثل ما هى فى هذا الزمن ، فان تمدن الأمم الغربية يتقدم بسرعة البخار والكهرباء، حتى فاض من منبعه الى جميع أنحاء المسكونة .. وكلما دخل فى مكان استولى على منابع الثروة فيه ، من رزاعة وصناعة وتجارة .. وأن أضر بجميع من حوله من سكان البقاع الأصليين ، فانه انما يسعى الى السعادة .. يطلبها أنى وجدها ، وبأى طريقة يزى النجاح فيها ، وهو فى الغالب يستعمل قوة عقله ، فاذا دعت الحال الى العنف واستعمال القوة لجأ اليهما ... وهو لا يطلب الفخار والمجد .. بل المنفعة .. وتحصيل الثروة من بلاد تحتوى على كنوز لا يعرف أهلها قيمتها وطرق الانتفاع بها .. فان صادفوا أمة متوحشة ابادوا أهلها وأهلكوهم ، أو أجلوهم عن أرضهم ، كما حصل فى امريكا واستراليا ، وكما هو حاصل الآن فى افريقيا ... وان صادفوا أمة كأمتنا ، دخل فيها نوع من المدنية من قبل ، ولها ماض ودين وشرائع وأخلاق وعوائد وشىء من النظامات الابتدائية ، خالطوا أهلها وتعاملوا معهم

وعاشروهم بالمعروف ، ولكن لا يمضى زمن طويل الا وترى هؤلاء القادمين قد وضعوا أيديهم على أهم أسباب الثروة .. وكلما تقدموا فى البلاد تأخر ساكنوها . هذا ما سماه « داروين » : قانون التزاحم فى الحياة .. فلا سبيل للنجاة من الاضمحلال والفناء الا طريق واحدة لا مندوحة عنها ، وهى ان تستعد الأمة لهذا القتال ! ، وتأخذ له أهبتها ، وتستجمع من القوة ما يساوى القوة التى تهاجمها من أى نوع كانت .. » (١١٥) .

فهو موقف « وطنى معتدل » ، اذا يبالغ فى تقييم انجازات الاستعمار الانجليزى فى مصر ، أو على الأقل يسلط الضوء أكثر من اللازم على بعض القسمات ، لا كل القسمات ... ولكنه يستنفز أمته « للقتال » دون ثرواتها وكنوزها التى هى الهدف الأول والأساسى فى هذا الصراع الضارى والتاريخى بينها وبين الأوروبيين .

وهو لذلك ، أيضا ، يدعو الى جعل « الاحساس الوطنى » أحد أسس ثلاثة لابد أن يقوم عليها نظام « التربية » عندنا .. ومعه : الأساس الدينى .. والوازع النفسى وتنمية الضمير .. (١١٦) .

***

وهناك حقيقة أخرى ، وأخيرة ، فى « الموقف الوطنى » لقاسم أمين — تتعلق « بتطور » موقفه هذا فى سنوات حياته الأخيرة .. ذلك انه — مع آخرين من أبناء تلك المدرسة المعتدلة — قد شعروا بأن الاستعمار يستفيد من موقفهم هذا أكثر مما يتيح لهم ولآمالهم وأهدافهم

(١١٥) المصدر السابق . ج ٢ ص ٦٩ ، ٧٠ .
(١١٦) المصدر السابق . ج ١ ص ٢١٥ — ٢١٧ .

الاستفادة من أسلوبه العصرى وبرامجه فى الاصلاح ..
كما شعروا بأن عددا من اصـــــلاحاته التى كانوا قد استبشروا بها خيرا قد عادت وتعود نتائجهـا الايجابية للاستعمار ، ولم يبق منها للوطن سوى جوانبها السلبية ، فديون الأجانب ونفقات قوات الاحتـــلال ونمو ثروات التجار والمغامرين والمستثمرين الأوروبيين قد التهمت أغلب عوائد اصلاحات الرى والزراعة والرواج التجارى فى البلاد .. ولم يبق لأبناء الوطن الا الفتات ... وخلق فئة من الموظفين تخدم جهاز الدولة الجديد أصبح هو العائد الاساسى والثمرة المؤكدة لبرامج التعليم .. ولم تحدث اضافة حقيقية لمعارف الأمة وقدرات أبنائهـــــا العقلية ... بل لقد عاد الامام محمد عبده ، فى مرضه الأخير ، فأثنى على نظام التعليم الذى أقامه محمد على ، وفضله على اصلاحات الانجليز التعليمية ، بعد ان كان قد علق عليها الآمال (١١٧) .

وهذا التطور الذى نقول انه قد حدث فى « الموقف الوطنى » لقاسم أمين ، يتجلى لنا اذا نحن تذكرنا حديثه الذى سبق واوردناه ، والذى انتقد فيه النمط الذى سلكه مصطفى كامل فى الدعوة الى الوطنية ، ثم قارناه بالعبارات الرائعة والعميقة التى سطرها فى مذكراته عندما شيعت مصر جثمان الزعيم العظيم مصطفى كامل فى ١١ فبراير سنة ١٩٠٨ م .. وهى العبارات التى يقول فيها قاسم أمين :

« ١١ فبراير سنة ١٩٠٨ م .. يوم الاحتفال بجنازة مصطفى كامل ، هى المرة الثانية التى رايت فيها قلب

---

(١١٧) « الأعمال الكاملة للامام محمد عبده » • دراســـة وتحقيق دكتور محمد عمارة • جـ ١ ص ١٦٤ ، ١٦٥ • وجـ ٣ ص ١٧٠ ـ ١٧٢ •

مصر يخفق .. المرة الأولى كانت يوم تنفيـــــذ حكم « دنشواى » .. لقد اتحد يومها شعور الناس .. ولكنه بقى مكتوما فى النفوس .. اما يوم الاحتفال بجنازه صاحب « اللواء » فقد ظهر ذلك الشعور ساطعا فى فوه جماله ، وانفجر بفرقعة هائلة سمع دويها فى العاصمة ، ووصل صدى دويها الى جميع انحاء القطر .

هذا الاحساس الجديد ، هذا المولود الحديث ، الذى خرج من أحشاء الأمة ، من دمها واعصابها ، هو الأمل الذى يبتسم فى وجوهنا البائسة ، هو الشعاع الذى يرسل حرارته الى قلوبنا الجـــامدة البـــارده ، هو المستقبل ! » (١١٨) .

فنحن هنا نشعر ان قاسم أمين يبايع مصطفى كامل ومذهبه فى الوطنية ومسلكه فى البعث الوطنى ، وهو هنا يحيى هذا « الانفجار » الوطنى الهائل الذى جاء يبعث الدفء والحرارة فى « القلوب الجامدة الباردة » التى نأت عن مواقع الوطنيـــة الثائرة ولهيب حرارة الحـــركة الوطنية الجديدة .

وكما كانت خيبة الآمال فى اصلاحات المستعمر سببا فى ذلك التطور .. فلقد كان من أسبابه ــ كما نعتقد : تعاظم التيار الوطنى الذى قاده مصطفى كامل والحزب الوطنى .. وأيضا اخلاص هذا النفر من أبناء مدرسة الاعتدال الوطنى لقضية بلادهم ... ذلك الاخلاص الذى دفعهم لتطوير مواقفهم وتعديل مشاعرهم عندما لم يحقق لهم « الاعتـــدال » ما أملوه لخـــير الوطن وتحـــرره من الاستعمار .

(١١٨) « الاعمال الكاملة لقاسم امين » ج ١ ص ١٨٣ .

أعمـاله الفـكرية

(الأعمال الكاملة لقاسم أمين) التى جمعناها وحققناها وقدمنا لها بدراسة مستفيضة والتى قدمنـــاها لقراء العربية ، سنة ١٩٧٦ م ، هى حلقة فى تلك السلسلة التى بدأنا اخراجها منذ سنة ١٩٦٨ م . سلسلة « الأعمال الكاملة » لاعلام عصر اليقظة العربية والبعث الحضـارى الحديث لأمتنا العربية وفكرنا الاسلامى المستنير .

وفى هذه السلسلة ، صدرت :

١ ـ « الأعمال الكاملة لجمال الدين الأفغانى » .. ونحن نعيد طبعها الآن ، مرة أخرى ، كى تتضمن تلك النصوص التى اكتشفناها بعد صدور الطبعة الأولى ، وفى مقدمتها تلك النصوص التى كانت منسوبة ، خطأ ، للامام محمد عبده .. وهى نصـــوص ستجعل طبعتها الجديدة تأتى فى أربع مجلدات ، بعد ان كانت طبعتها الأولى فى مجلد واحد .

٢ ـ « الأعمال الكاملة لعبد الرحمن الكواكبى » .. ولقد صدرت طبعتها الثانية ، حاوية نصوصا ووثائق لم تنشر للكواكبى من قبل ، وحاوية كذلك التعديلات والاضافات التى أدخلهـــا على كتابه « طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد » قبل وفاته .

٣ ــ « الأعمال الكاملة للامام محمد عبده » .. ولقد اكتمل صدورها بظهور جزئها السادس والأخير .. ونفدت طبعتها الأولى .. ويعاد الآن طبعها مع زيادات وتنقيحات.

٤ ــ « الأعمـــال الكاملة لرفاعة الطهطاوى » .. وصدورها يقترب الآن من الاكتمال .

٥ ــ « الأعمال الكاملة لعلى مبارك » .. ولقد صدر مجلدها الأول ..

فأعمال قاسم أمين ، اذا ، هى حلقة فى هذه السلسلة، التى نرجو لها النمو كى تضع بين يدى مفكرينا وباحثينا وقرائنا الثمرات العقلية الفذه والبارزة التى صنعت عصر نهضتنا الحـديث ، والتى لا تزال فاعله ، ومؤثرة فى حركتنا الفكرية حتى الآن . وهو انجاز نعلق على استمراره واكتماله أهمية كبرى ، لشدة حاجة حركتنا الفـكرية اليه ، وحتى لا نكون بدعا بين الأمم المتحضرة والناهضة صاحبة التراث ، حيث تهتم معظمها بجمع آثار مفكريها الـكبار ، وتحقيقها والتقديم لهـا ، وتغيب من دائرة اهتمامنا هذه المهمة الأساسية ، رغم غناها الفكرى وشدة حاجتنا الى وصل خيوط تطورنا الثقافى وتأصيل القيم الفكرية المشرقة فى واقعنا الثقافى الذى نعيش فيه .

***

واذا كان لابد هنا من كلمات عن النصوص التى تكون « الأعمال الكاملة لقاسم أمين » فاننا نقول : ان مفردات نصوص هذه الأعمال هى :

١ ــ « كلمات » .. وهى الخواطر واللمحات التى كتبها قاسم أمين فى « مفكرته الخاصة » ، والتى كانت بمثابة « مذكرات نفسية خاصة » .. كتبها لنفسه ، وأودعهـا

خلاصة مركزة لمجموعة من أفكاره ، صاغها فى أسلوب جاء غاية فى الرشاقة والجمال .

وكان قاسم أمين قد قرأ صفحات من هذه الـ « الكلمات » لصديقه أحمد لطفى السيد باشا (١٨٧٢ ــ ١٩٦٣ م) فلما توفى قاسم سعى لطفى السيد الى الأسرة ، بواسطة سعد زغلول باشا (١٨٦٠ ــ ١٩٢٧ م) حتى حصل عليها، وقام بمراجعتها مع محمد عاطف بركات (١٨٦١ ــ ١٩٢٤ م) ثم نشرتها جريدة لطفى السيد ــ « الجريدة » ــ سنة ١٩٠٨ م .

***

٢ ــ « أسباب ونتائج » .. وهى خمس عشرة مقالة نشرها قاسم أمين ، دون توقيع ، فى صحيفة الشيخ على يوسف « المؤيد » ما بين سنة ١٨٩٥ م وسنة ١٨٩٨ م .. مقدمة وأربع عشرة مقالة ، عالج فيها عددا من القضايا الاقتصادية والاجتماعية والتربوية التى تهم دعاة الاصلاح .

***

٣ ــ « أخلاق ومواعظ » .. وهى مثل « أسباب ونتائج » ، مقالات خمسة كتبها فى « المؤيد » فى نفس الفترة الزمنية ــ ١٨٩٥ ــ ١٨٩٨ م ــ دون توقيع ، وقصرها على علاج مشاكل « الموظف والوظيفة والتوظف » فى عصر كان التسابق فيه على العمل « الميرى » ظاهرة سلبية تحول بين خيرة الشباب وبين العمل المنتج ، وتنمى فى هذا الشباب أخلاقيات التواكل والارتزاق .

***

٤ ــ « المصريون .. رد على دوق دراكور » .. وهو

الكتاب الذى أصدره بالفرنسية قاسم أمين سنة ١٨٩٤ م ردا على الكاتب الفرنسى « دوق داركور » الذى أصدر كتابا عن مصر والمصريين سنة ١٨٩٣ م امتلأ بالتهجم عليهم وحاول فيه الطعن على الاسلام والمسلمين .

ولقد قال قاسم أمين عن ملابسات كتابته لهذا الرد : « اننى حين قرأت كتاب دوق داركور مرضت عشرة أيام، وقد قلت ذلك لجميع أصدقائى ، قبل أن يرد على خاطرى فكرة الرد عليه . لقد وجدته بالغ القسوة ، وأحزننى انه حاول انتزاع جميع آمالى ، غير اننى أخذت استرد هدوئى شيئا فشيئا ، وبعدها شرعت أطيل التفكير فى كل ما كتبه عنا ، وتأملت جميع المشاكل التى وضعها وحلها ، وخلعت عنى صفتى المزدوجة ، كمصرى مسلم ، لأحالل الموقف فى حياد تام ودون انفعال أو تحيز ، ولم استرشد بغير الرغبة فى معرفة الحقيقة ، حتى أستطيع أن أعبر هنا عن عواطفى كما يفعله اجنبى يعرف عن مصر كل ما أعرف ، ويقيمها بطريقة محايدة » .

ولقد ظل هذا الكتاب الذى يمثل قسمة متميزة فى فكر قاسم أمين ومرحلة فى تطوره الفكرى حيال بعض القضايا الهامة ، ظل بعيدا عن اللغة العربية ، حبيس أصله الفرنسى ، حتى تقديمنا له فى أعماله الكاملة .

ولقد كان ذلك سببا من أسباب مجىء أغلب الدراسات التى كتبت عن قاسم أمين غير وافية برسم ملامحه الفكرية المتكاملة ، وبعيدة عن ادراك تطوره الفكرى .. وهما الأمران اللذان تحققهما ، ضمن ما تحقق ، الدراسة التى قدمناها عنه هنا .

أما انجاز ترجمة هذا الكتاب فهو للصديق الأستاذ

محمد البخارى .. ولنــــا فيه التحقيقات والتعليقات والترجمة الموجزة لما ذكر في نصه من أسماء الاعلام .

***

٥ ــ « تحرير المرأة » .. وهو أكثر كتب قاسم امين شهرة وذيوعا .. بل أشهر كتاب عربى صدر فى عصره .. صدر سنة ١٨٩٩ م فأثار أول معركة فكرية كبرى سببها كتاب منذ مطلع عصر نهضتنا فى بداية القرن الماضى .

ولقد سبق لنا أن عرضنا ، ونحن نقدم للأعمال الكاملة للامام محمد عبده ، الى أن للأستاذ الامام دورا فى تأليف هذا الــكتاب ، وقدمنا فى ذلك المقام أدلتنا على أن رأى الشرع الاسلامى فى قضــــــايا : الحجاب ، والزواج ، والطلاق ، وتعدد الزوجات ، الذى تضمنه « تحرير المرأة » هو للأستاذ الامام .

***

٦ ــ « المرأة الجديدة » .. وهو الكتاب الذى أصدره قاسم أمين سنة ١٩٠٠ م ، وركز فيه جهده للرد على الاعتراضات التى قدمت ، فى الـكتب والرســــــائل والصحف والمجلات والمنتديات ، ضــــد كتابه « تحرير المرأة » .. كما ضمنه تطويرا أكثر جراة فى عدد من القضايا التى تناولها فى « تحرير المرأة » فى تواضع أو على استحياء .

***

٧ ــ « انشاء الجامعة » .. وهى كلمة لقاسم امين خطبها فى اجتماع من الاجتماعات التى عقـــدت سنة ١٩٠٨ م للتحضير لانشاء الجامعة المصرية .. عرض فيها لأهمية التعليم الجامعي ودوره في خلق العلماء والمفكرين والمتخصصين .

٨ ــ « الامام محمد عبده » .. « أخــلاقه وفضائله وامامته » .. وهو خطاب قاسم أمين الذى ألقاه فى ٢٠ أغسطس سنة ١٩٠٥ م باجتماع تأبين الأستاذ الامام، فى ذكرى مرور أربعين يوما على وفاته ، وفيه عرض لمكانة الامام ، ودوره فى الفــــكر العربى الاسلامى ، والمدرسة الفكرية التى تكونت من حوله .

تلك هى مفردات « الأعمال الكاملة لقاسم أمين » .. وهى الأعمال التى جمعناها ، وحققناها ، وقدمنا بين يديها بدراسة مستفيضة عن حياته ، وفكره ، ومكانه من حركتنا الفكرية فى عصر نهضتنا الحديث .. ولقــــد صدرت طبعتها الأولى عن (المؤسسة العربية للدراسات والنشر) ببيروت سنة ١٩٧٦ م .. وهو جهد نرجو أن يكون قد حالفنا فيه توفيق واهب التوفيق .

كلمات

دونها قاسم أمين فى مفكرته الخاصة ...

فجاءت : اية من آيات الخواطر الصادقة مع النفس ..

ونموذجا راقيا للمذكرات التى يوحيها القلب وتسكبها العاطفة ..

وصورة من صور الشاعرية التى سطرها قلمه الرشيق ..)

● الحرية : (١١٩) .

الحرية الحقيقية تحتمل ابداء كل رأى ، ونشر كل مذهب ، وترويج كل فكر .

***

● لا يغرنك المرتقى السهل اذا كان المنحدر وعرا .

● ان الذى مدحك بما ليس فيك انما هو مخاطب غيرك .

---

(١١٩) العناوين الفرعية التى وضعت لفقرات هذه « الكلمات » من انشائنا نحن وليست من وضع قاسم أمين .

● رب كلمة بتجرعها حليم مخافة ما هو شر منها .

***

● اذا استشارك عدوك فأخلص له النصيحة ، لأنه باستشارتك قد خرج من عداوتك ودخل فى مودتك .

***

● فى مصر : كل من يعرف القراءة والكتابة يسمى فاضلا ، فاذا درس شيئا من العلم صار عالما مفضالا ، فاذا امتاز ببعض الحذق أو اظهاره عد من النوابغ .

● **الايمان :**

ليس الايمـــــان مسألة عقلية أو علمية ، فأنا نرى بين العلماء من يصدق كما نرى بين الجهلاء من يكذب ، وانما الايمان مسألة شعور صرف ، شعور يجعل صاحبه يرى نفسه محتاجا اليه الى حد انه يستحيل عليه أن يعيش بدونه .

***

● **بين العلم والدين :**

تعصب أهل الدين ، وغرور أهل العلم ، هما منشأ الخلاف الظاهر بين الدين والعلم . وليس بصحيح أنه يوجد بينهما خلاف حقيقى، لا فى الحال ولا فى الاستقبال، ما دام موضوع العلم هو معرفة الحقائق المؤسسة على الاستقراء . فمهما كثرت معارف الانسان لا تملأ كل فكره ـ بعد كل اكتشاف يحققه العلم يبحث عن اكتشاف آخر، وفى نهاية كل مسألة يحلها تظهر مسألة جديدة تطالبه بحلها . الآن وغدا يشتغل عقـــــل الانسان بالعلم ، أى بمعرفة الحوادث الثابتة ، ولا يمنعه ذلك من التفكر فى

المجهول الذى يحيط بها من كل طرف ، هذا المجهول الذى كان ويكون بعد الذى لا قرار له ولا حد لا فى الزمان ولا فى المكان هو دائرة اختصاص الدين .

***

● **العشق :**

لا شيء يشبه العشق فى عنفوان نشأته ، اذا هجم هذا المستبد القاهر ارتعدت له الفرائص وحصر اللسان واختبل العقل وخلا الطريق أمامه فوصل الى القلب بوثبة واحدة أو بوثبات متعددة ، ومتى احتله تمدد فيه وانتشر وملأه برمته ، فلا يقبل منافسا أو منازعا أو شريكا أو ضيفا بجانبه ، بل يستأثر وحده بالنفس فيلهيها عن شواغلها وينسيها حاجاتها ، ويفرق بينها وبين أميالها ، ويذهب همومها وأحزانها ، ولا يطمئن الا اذا قطعت العلاقات مع غيره ، وأصبحت كلها له كأنها ولدت معه فى يوم واحد وتفنى معه فى ساعة واحدة ، لاتعرف ماضيها ولا تبالى بمستقبلها ، فاذا تمكن منها على هذه الحال وقبض على زمامها رضيت بعجزها ، وشكرته على أسرها ، واغتبطت برقها ، ووجدت باتصالها بنفس أخرى قوة وفرحا وسعادة لم تر مثلها .

العاشق عنده ما يكفيه ، سماؤه صافية مهما تراكمت عليها السحب ، ومائدته فاخرة وان لم يكن عليها غير الخبز والملح ، تنتابه الحوادث ولا تترك به أثرا ، لأنه لا يعبأ بها ، سارة أو ضارة ، ويقاوم الحياة بجرأة عجيبة لأنه يشعر بأن فى جسمه روحين وفى صدره قلبين .

***

ان كان فى الوجود انسان يستحق أن يحسد على نعمته فهو العاشق .

كل عشق شريف . فان كان بين شريفين زاد فى قيمتهما ورفع من قدرهمـــا ، وان كان بين وضيعين اكسبهما شرفا وقتيا ، حتى اذا زال العشق سقطت قيمتهما وانحطت مرتبتهما ورجعا الى أصلهما .

***

ليس ما يكتب على أبواب الأمكنة دائما صحيحا . فقد يكون بين سكان البيمارستان من هو أعقل من هذا الذى تراه سائرا فى الطريق متمتعا بحريته . كذلك بيوت المومسات قد تقفل أبوابها على نساء فيهن من هى أوفر حشمة وأدبا وأكثر بعدا عن الشهوة من كثير من المخدرات أللاتى تنحنى الرؤوس أمامهن .

يشعر العاشق بلذة ساحرة اذا كان محبوبا ، واذا كان غير محبوب فيجـــد فى أمله لذة أخرى مشابهة للسكر ، من تنبه فى الأعصاب وسرعة فى دورة الدم وانفعـالات شديدة فى النفس ، وبالاجمـال من زيادة محسوسة فى مبلغ الحياة ، كلاعب القمار يتمتع بارضاء شهوته فى الربح أو فى الخسارة .

***

● من اختبارى لأرباب الأفكار الذين اختلطت بهم يظهر لى ان الحمية عندهم سطحية لا تذكيها نار لتوقد فى القلب — حمية ألفـــاظ متى انتشرت عادت هباء لا تترك أثرا بعدها .

● **الـكاتب :**

فى الـكتب والجرائد والمجلات أرى الـكاتب يعتمد على التملق لجمهور القراء أكثر من عنايته بابداء فكره .

ولكن الكاتب المحب لفنه ينشر أفكاره كما هى ، ينشر الحقيقة منزهة عن الزيادة والنقصان لا يقبل أن يبدل فيها أو يغير منها أو يتنازل عن حرف مراعاة لأى أمر كان . هو العاشق الذى يعتقد الكمال فيما يحبه ولا يتصور وجود شىء يعادله ، ولا يبالى بذم الناس ، بل يجد فيه نوعا من حماسة الغضب منبها لأعصابه منشطا لقواه مغريا له على الاستمرار والثبات .

***

● كلما أردت أن أتخيل السعادة تمثلت أمامى صورة امرأة حائزة لجمال المرأة وعقل الرجل .

***

● بعد سن الأربعين يبتدىء العاقل يرى ان المطلق ليس له وجود ذاتى ، وان الثروات الجميلة التى نحبها ونقدمها كالخير والحق والعدل لا يمكن أن توجد فى الخارج الا مختلطة بنقيضاتها .

● **الخطيئة :**

لابد أن تكون الغاية النهائية للتربية الأدبية هى العفو عن الخطيئة ـ العفو عن أكبر خطيئة ، العفو عن كل خطيئة .

هل المخطىء مسئول أو غير مسئول ؟ وما هى درجة مسئوليته ؟ مسألة عظيمة يجب على من يريد الحكم على غيره أن يحلها ، لكن حلها يكاد يكون محالا ، اذ لا يستطيع أحد أن يلم بجميع العوامل التى تتركب منها الذات الانسانية بوجهيها : الأدبى ، والمادى ،

والقليل الذى يعلمه من ذلك يبين ان سلطة الارادة على النفس محدودة وخاضعة لمؤثرات كثيرة شديدة تتنازعها وتقارعها وتضعف قوتها على نسبة مجهولة ومقدار لا يصل الى تقديره عقلنا ، وكل تاريخ الانسان فى الماضى يدل على انه لم يكن متولدا عن الحيوان المفترس مباشرة فهو مشابه له فى شره وأطماعه وشهواته ، خلق عليل النفس كما هو مريض الجسم ، خالق على أن تكون صحته الجسمية والعقلية صدفة سعيدة وعارضا موقتا .

فالخطيئة هى الشيء المعتاد الذى لا محل للاستغراب منه ، هى الحال الطبيعية الملازمة لغريزة الانسان ، هى الميراث الذى تركه آدم وحواء لأولادهما التعساء من يوم أن اقتربا من الشجرة المحرمة وذاقا ثمرتها التى يتخيل لى انها كانت ألذ من كل ما أبيح لهما . من ذلك اليوم البعيد لوثت الخطيئة طبيعتهما ، وانتقلت منهما الى ذريتهما جيلا بعد جيل . ذلك هو الحمل الثقيل الذى تئن تحته أرواحنا الملتهبة شوقا الى الفضيلة العاجزة عن الحصول على اليسير منها الا بمقاساة أصعب المجهودات ، حتى هذا النزر القليل لا سبيل الى بلوغه الا بتمرين طويل يتخلله حتما سقوط متكرر فى الخطيئة يكون منه الدرس المفيد لاتقائه فى المستقبل .

وأخيرا فان العفو هو الوسيلة الوحيدة التى ربما تنفع لاصلاح المذنب ، فقلما توجد طبيعة مهما كانت يابسة لا يمكن أن تلين اذا هى عولجت .

***

● أمر لا تدرى متى يفشاك لا يمنعك مانع من أن تستعد له قبل أن يفجأك .

● لا تصحبوا الأشرار فانهم يمنون عليكم بالسلامة منهم .

***

● **في اللغة :**

لا أدري ما هي غاية الكتاب الذين اذا ارادوا التعبير عن اختراع جديد يجهدون أنفسهم في البحث عن كلمة عربية تقابل الكلمة الاجنبية المصطلح عليها ، كاستعمالهم مثلا كلمة السيارة بدلا من كلمة الأوتوموبيل . ان كان المقصد تقريب المعنى الى الذهن فالكلمة الأجنبية التي اعتادها الناس تقوم بالوظيفة المطلوبة منها على وجه أتم من الكلمة العربية ، وان كان مقصدهم اثبات ان اللغة العربية لا تحتاج الى اللغات الأخرى فقد كلفوا أنفسهم امرا مستحيلا . اذ لم يوجد ولن توجد لغة مستقلة عن غيرها مكتفية بنفسها .

يظهر ان باب الاجتهاد أغلق في اللغة كما اقفل في التشريع ، فقد صار من المقـــرر بيننا ان اللغة العربية وسعت وتسع كل شيء ! .

لـكي يكون هذا الاعتقاد صحيحا يجب أن نفرض ان هذه اللغة نتيجة معجزة ، فظهرت كاملة من يوم وجودها في العالم ، وهذا يناقضه قيام الدليل على ان جميع اللغات خاضعة لقوانين التحول والرقي العام ، وتابعة في أطوارها لسير الانسانية ، فهي اذن مظهر من مظاهر غريزتها الطبيعية التي لا تزال تنتج وتبدع كما فعلت في الماضي . ولا أدري لماذا يريد قومنا أن يستعبدوا من اللغة العربية الكلمات الفصيحة وطرق التعبير الجميلة التي نسمعها أحيانا في لغة العامة بحجة انها لم ترد على لسان العرب .

نحن خلفاء العرب فى لغتهم ، فكل ما تخترعه ملكاتنا فى اللغة يعد عربيا بالطبع .

***

لم أر بين جميع من عرفتهم شخصيا الذى يقرأ كل ما يقع تحت نظره من غير لحن . أليس هذا برهانا كافيا على وجوب اصلاح اللغة العربية .

لى رأى فى الاعراب أذكره هنا بوجه الاجمال ، وهو أن تبقى أواخر الكلمات ساكنة لا تتحرك بأى عامل من العوامل ، بهذه الطريقة ، وهى طريقة جميع اللغات الافرنجية واللغة التركية أيضا ، يمكن حذف قواعد النواصب والجوازم والحال والاشتغال الخ . بدون أن يترتب عليه اخلال باللغة ، اذ تبقى مفرداتها كما هى .

فى اللغات الأخرى يقرأ الانسان ليفهم ، أما فى اللغة العربية فانه يفهم ليقرأ فاذا أراد أن يقرأ الكلمة المركبة من هذه الأحرف الثلاثة « ع ل م » يمكنه أن يقرأها علم (١٢٠) أو علم (١٢١) أو علم (١٢٢) أو علم (١٢٣) أو علم (١٢٤) أو علم (١٢٥) . ولا يستطيع أن يختار واحدة من هذه الطرق الا بعد أن يفهم معنى الجملة فهى التى تعين على النطق الصحيح . لذلك كانت القراءة عندنا من أصعب الفنون .

---

(١٢٠) بفتح العين وكسر اللام .
(١٢١) بضم العين وكسر اللام .
(١٢٢) بكسر العين اللام وسكون اللام .
(١٢٢) بكسر العين وسكون اللام .
(١٢٤) بفتح العين واللام المشددة .
(١٢٥) بضم العين وكسر اللام المشددة .

كان المؤلفون فى القرون الوسطى هم ابن سينا (١٢٦) وابن رشد (١٢٧) وابن مسكويه (١٢٨) واضرابهم . كانت اللغة العربية لغة الأدب والعلم والفلسفة ، لذلك كانت أوسع وأغنى لغات العالم ، ثم مرت عليها القرون الطويلة وهى واقفة فى مكانها لا تتقدم خطوة الى الامام ، واللغات الأوروبية أخذت تتحول وترتقى كلما تقدم أهلها فى الآداب والعلوم حتى أصبحت النموذج المطلوب فى السهولة والايضاح والدقة والحركة والرشاقة — صارت أنفس جوهرة فى تاج التمدن الحديث .

رغما عن هذا قد أجمع قومنا على ان لغتنا لا تزال حتى الآن حافظة مركزها الأول ، ويزعمون انها سيدة اللغات ، كما أجمع عامتنا على أن مصر أم الدنيا .

● الابتكار :

الشعراء والكتاب والعلماء عندنا لا يعبرون عن أفكارهم فى ما يكتبون ، وانما فى عقولهم مخازن تحفظ ما يدخل فيها بالقراءة والسماع ، ومستودعات لأفكار غيرهم يتعاملون بهذه البضاعة التى ليست لهم ، ولا يضيفون أو يعلقون عليها شيئا من أنفسهم . كل عملهم محصور

---

(١٢٦) أبو على الحسين بن عبدالله بن سينا « ٩٨٠ — ١٠٣٦ م » فيلسوف وطبيب شهير فى التراث الاسلامى ، لقب بالشيخ الرئيس . وهو صاحب نزعة اشراقية فى الفلسفة .

(١٢٧) أبو الوليد بن أحمد بن رشد « ١١٢٦ — ١١٩٨ م » فيلسوف قرطبة ، الشارح الاكبر لآثار أرسطو ، وأبرز فلاسفة التيار المشائى المسلمين .

(١٢٨) أبو على الخازن « المتوفى سنة ١٠٣٠ م » فيلسوف وأديب ومؤرخ وعالم بالكيمياء . وله فى الاخلاق كتاب « تهذيب الاخلاق » وفى التاريخ « تجارب الامم » وغيرهما كثير .

فى تكرار أفكار الغير التى حفظوها كما يحفظ الأطفال القرآن ، فاذا سمعهم العامة أو قرأوا كلامهم صفقوا ومدحوا وصاحوا !! فلان ما أحلاه ! علان ليس فى العالم مثله ! .

● طلب الحقيقة لذاتها :

طلب العلم عندنا وسيلة لمزاولة صناعة أو للالتحاق بوظيفة ، أى لكسب المال ، أما حب الحقيقة والاستغراق فى تحصيلها والشوق الى اكتشاف المجهول ومغالبة الصعوبة والاهتمام بترقية النفس ، وبالاجمال التعليم للتعلم فلا فائدة فيه ، والفائدة كل الفائدة فى هذا الذى لا فائدة فيه .

● صحافتنا :

اذا قرأت الجرائد تجدها جميعا متحدة فى موضوعها متشابهة فى تحريرها بحيث لا تكاد تشعر باختلاف بين احداها والأخرى ، واذا اجتمعت فى اليوم بعشرين رجلا من معارفك تسمع من التسعة عشر الآخرين ما سمعته من الأول ، ولا تجد فى الجريدة التى تقرأها أو تسمع من الصاحب الذى تقابله فكرة غريبة أو تعبيرا جديدا أو أسلوبا مبتدعا ، لا تجد النابغة الذى يدهشك ويجذبك بعجائب جنونه .

***

● يوجد عدة طرق للتعبير عن كل فكرة ، احسنها طريقة واحدة : هى التى يجدها الكاتب المجيد .

• خلود الانسان :

عقل الانسان المحدود لا يسع غير المحدود ، وعلمه القليل لا يصل الى ادراك المجهول الذى لا نهاية له ، لذلك تراه متى ترك دائرة معلوماته الحسية دخل فى عالم الظلام وسار كالأعمى يتخبط يمينا وشمالا ، لا فرق فى ذلك بين الغبى الجاهل والذكى العالم .

***

المقلد فى ايمانه مقصر يحمل عقيدته كما تحمل الوردة فى عروة الملابس ، والمنكر مجـــازف جاوز حد العقل والعلم ، وابغض منهما من يخادع بدينه فيقول : ان كان الله غير موجود ما خسرت أكثر من غيرى وان كان موجودا ربحت مع الرابحين ، لذلك أومن به ! هذا هو المحتال الذى لا يصان أحد ــ حتى الاله ــ من نصبه .

• الاخلاق :

الفضيلة والرذيلة يتنازعان السلطة على نفس الانسان فى جميع أدوار حياته ، فتارة تخضع للأولى وتارة تغلب عليها الثانية ، ولا يوجد رجل مهما بلغ من التربية والعلم يكون آمنا من السقوط يوما فى الرذيلة ، كما لا يوجد رجل مهما أحاطت به الرذيلة الا وفيه استعداد لأن يأتى يوما بأفضل الأعمال .

وحقيقة الأمر ان أخلاق الانسان ليست شيئا يتم دفعة واحدة ، وليس لها حد تقف عنده . انما هى فى تحليل وتركيب ، فى تكون مستمر ، يعتريها الانحلال زمنا وتعود بعده الى التماسك .

الانسان أسير الشهوات ما دام حيـا ، وانما تختلف شهواته باختلاف سنه ، فشهوة اللعب عنـد الطفـل ، وشهوة الحب عند الشاب ، وشهوة الطمع عنـد رجل الأربعين ، وشهوة السلطة عند شيخ الستين ، جميعها شهوات تعرض صاحبها للهفوات واقتراف الخطايا ، متى وقع فيها أحدنا يجب عليه ألا يترك نفسه الى تصرفها ، ولا يستصعب الخلاص منها ، ولا ييأس من نفسه بل عليه أن يقاومها كما يقاوم المريض علته ، عليه أن يوجه ارادته الى مصارعتها والتغلب عليها ، عليه أن يحول فكره عن الأمس الذى كان فيه قبيحا وينظر الى غده الذى يكون فيه جميلا .

لا يطلب الـكمال من المرء وانما يطلب منه أن يكون فى كل يوم أحسن منه فى اليوم الذى مضى .

فى ميدان الحرب لا يكون ثبات الجأش الا عند الرجل الذى حضر وقائع سابقة ووقف أمام العدو وقاتل يوما مهاجما ويوما مدافعا ، كذلك الحـال فى جهاد النفس لا تجد ثبات الجنان الا عند الرجل الذى عرض نفسه الى استهواء الشهوات وخدائع اللذات ، فاذا اختبرها بالتجربة وتغلب عليها بعـد ذلك كسب قوة الحكم على نفسه التى هى الفضيلة الحقيقية ، خلافا للرجل الذى احتجب عن جواذب الشهوات فانه متى وجد أمام فرص مرغبة فيها لا يقاوم سلطانها الا قليلا ، واذا سلم فى نفسه مرة لا يستطيع الخلاص منها .

***

● بعد سن الأربعين كل زلة خطرة .

● عين الطماع حينما تبصر شيئًا تشتهيه ، لها نظرة تحيط به وتحويه برمته وتحوزه وتفعل فى نفسك ما يفعله الاختطاف الحقيقى . هذه النظرة رايتها كثيرا عند المعتاد لعب القمار .

***

● يوجد اناس متى رايتهم أو سمعتهم تشعر بنقص فى خلقهم كأنهم صنعوا بغاية السرعة فلم ينالوا حظهم من الاتقان المعهود .

***

● لا تكمل أخلاق المرء الا اذا استوى عنده مدح الناس وذمهم اياه .

● اصحاب النفوس الكبار :

زارنى أشهر أديب يكتب الآن فى مصر باللغة العربية ، وكان فى يدى كتاب فرنسوى يشتمل على حكم ومواعظ موضوعه فى جمل مستقلة لا ارتباط بينها ، فقرأ فيه عبارة هذه ترجمتها : « انى أخشى ما أتمنى » . فقال : كيف يخشى الانسان الشيء الذى يتمناه ، فأجبته : كل انسان يخشى ما يكره ، وليس كل انسان يخشى ما يتمنى ، وانما هذه صفة يختص بها ذوو النفوس الممتازة ، وتكون سببا لشقائهم ، يرى الواحد منهم وردة جميلة فى البستان فيتمنى أن يقطفها ، ولكن يبعده عنها ما حولها من الشوك ، يشتهى تفاحة جميلة تعجبه بلونها البديع ورائحتها الزكية ، ولكنه يخشى الدودة الكبيرة التى ربما تصادف أسنانه وقت أن يعض عليها فيلقيها على الأرض وهو يشتهيها ، يلاقى المرأة التى كان يراها فى مخيلته مثال الجمال ، فيود أن يلقى نفسه تحت أقدامها ويعطيها

قلبه وحياته ، ولـكنه يخشى أن تكون كاذبة كغيرها ، يتمنى صديقا ويخشى أن يجده خائنا . يتمنى ... كل شيء ، ويخشى ان لا يجد فيه كل ما تخيله . وهكذا يقضى حياته بين الأمل والخوف من تحققه ، وتنتهى به الحال الى أن يرى ان السلامة فى ترك الأمانى .

***

● كل مباحثة مفيدة اذا كان الغرض منهـــا اظهار الحقيقة ، ولكنك لا تجد الا شـــخصا يريد أن يعلمك ما ليس له به من علم ولا يصغى الى شيء مما تقوله لأنه ليس مشتغلا الا بما يقوله .

***

● **الوحدة :**

وجدت السآمة غالبا فى الاجتماعات ، وما شعرت بها فى الوحدة . اشتاق الى الناس فاذا اختلطت بهم رأيت وسمعت ما يزهدنى فيهم فأفر منهم وأرجع ملتجئا الى نفسى فأجد فيها الراحة والسكون .

● **الصديق والعدو :**

من الذى يحب صاحبه أو قريبه أو مواطنه أكثر ؟ أهو الذى يكشف الستار عن عيوبه ويظهـرها له كما هى ؟ أم الذى يغض البصر عن نقائصه ويخفيها عليه ويمدحه ليسره ؟ لا شك ان الأول هو الصديق المكروه والثانى هو العدو المحبوب .

● الرياء :

من الناس من اذا أراد أن يفعل الخير انتهز الوقت المناسب لاعلانه ، فاذا رأى شهودا وضع يده فى جيبه وأخرج كيسه وعد النقود ووضعها ببطء فى يد صاحبه بعد أن يراها الحاضرون ، ولكيلا يبقى عندهم شك فى مقدارها يقول لمن تفضل بمساعدته : خذ هذه الجنيهات العشرة ، فاذا خرج هذا المسكين التفت الى من حوله وشرح لهم عواطفه وحنوه واعتياده عمل البر ، ثم كلما اجتمع فى نهاره بواحد من معارفه أوجد مناسبة ليقص عليه خبر هذا الحادث العظيم . هذا الرجل أراد فعل الخير لنفسه فاستعمل صاحب الحاجة وسيلة لذلك .

ومنهم من يريد فعل الخير فيقبل على المحتاج ويفتح له قلبه ويصغى الى شكواه ويشاركه فى آلمه ويحزن لحزنه ثم يبذل له من عبارات التسلية وكلمات النصح ما يقوى عزيمته ، فاذا قدم اليه مساعدة مادية دسها فى وسط الكلام والمحاورة وهو مضطرب خجل خائف أن يجرح احساسا شريفا . يحتال فى انتخاب طرق العرض ويعتذر عن عمله ، فاذا قبل منه شعر بفرح كمن يكون وقع فى ورطة ثم تخلص منها . ذلك هو المحسن الذى يعرف أن للنفس حياء يجب احترامه كما أن فى الجسم ما ينبغى غض النظر عنه .

فعل الخير حسن وأحسن منه ستره .

● التجارب :

أقل مراتب العلم ما تعلمه الانسان من الكتب والأساتذة ، وأعظمها ما تعلمه بتجاربه الشخصية فى الأشياء والناس .

● فى الأمة الضعيفة المستعبدة حرف النفى (لا) قليل الاستعمال .

***

● العقوبة فى التربية :

من مرورى فى المدارس والمكاتب أحفظ تذكارا ثابتا لا يزول أبدا ــ وهو الخوف من الضرب ــ فى الكتاب ضرب بالعصى على الأرجل أو الكتف أو الرأس أو أى مكان آخر من الجسم ، وفى المدارس بالنيلة المزفتة والفلقة ضرب يبقى أثره مدة أيام ــ كنت أذهب الى محل التعليم مصحوبا باضطراب فى العقل وخفقان فى القلب وارتعاش فى الجسم ، وبعكس ذلك أرى الآن الأطفال يذهبون الى المدارس راضين مسرورين ــ نتيجة منع الضرب فيها ودخول الألعاب الرياضية .

● الحريه :

الحرية الحقيقية تحتمل ابداء كل رأى ونشر كل مذهب وترويج كل فكر .

فى البلاد الحرة قد يجاهر الانسان بأن لا وطن له ، ويكفر بالله ورسله ، ويطعن على شرائع قومه وآدابهم وعاداتهم ، ويهزأ بالمبادىء التى تقوم عليها حياتهم العائلية والاجتماعية . يقول ويكتب ما شاء فى ذلك ولا يفكر أحد ، ولو كان من الد خصومه فى الرأى ، أن ينقص شيئا من احترامه لشخصه متى كان قوله صادرا عن نية حسنة واعتقاد صحيح . كم من الزمن يمر على مصر قبل أن تبلغ هذه الدرجة من الحرية ؟ .

العبقرية :

يظهر لى ان الارتقاء في الانسان تابع على الخصوص لجهـــازه العصبى ، فأكثر الناس استعدادا للرقى هم العصبيون الذين تبلغ منهم الانفعالات النفسية مبلغا عظيما وتهتز أعصابهم المتوترة بملامسة الحوادث فيظهر أثرها فيهم بكثرة وشدة ، أولئك هم السعداء التعساء الذين يتمتعون ويتألمون ، أولئك هم الســـــابقون فى ميدان الحياة ، تراهم فى الصف الأول مخـــاطرين بأنفسهم ، يتنافسون فيما بينهم فى مصادمة كل صعوبة ، من بينهم تنتخب القدرة الحكمية خيرهم وتوحى اليه أسرارها فيصير شاعرا بليغا أو وليا طاهرا أو فيلسوفا حكيما أو نبيا كريما ».

الفنون الجميلة :

لعل أكبر الأسباب فى انحطاط الأمة المصرية تأخرها فى الفنون الجميلة : التمثيل والتصوير والموســيقى ، هذه الفنون ترمى جميعها على اختلاف موضوعها الى غاية واحدة هى تربية النفس على حب الجمال والكمال ، فاهمالها هو نقص فى تهذيب الحواس والشعور .

***

دخلنا قصر اللوفر ، وكنا أربعة من المصريين ، لنمتع النظر بأبدع ما جادت به قرائح أعاظم الرجال فى العالم ، فبعد ان تجولنا فى غرفتين جلس أحدنا على أحد الكراسى قائلا : أنا اكتفيت بما رأيت ، وها أنا منتظركم هنا. وقال الثانى : اتبعكما لأنى أحب المشى ، واعتبر هذه الزيارة رياضة لجسمى ، وسار معنا شاخصا أمامه لا يلتفت الى اليمين ولا الى اليسار ، وما زال كذلك حتى وصلنا قاعة

المصاغ والحلى ، وحينئذ تنبهت حواسه وصار ينظر الى الذهب ثم صاح : (هذا ألطف ما فى هذه الدار) ! وصلنا الى تمثال الهة الجمال الفريدة فى العالم أجمع ، فسألت دليلنا : ماذا تساوى هذه الصورة اذا عرضت للبيع ؟ فقال : انها تساوى ثروة أغنى رجل فى العالم ، تساوى كل ما يملكه الانسان ، تساوى ما يقدره لها حائزها ويطلبه ثمنا لها اذ لا حد لقيمتها .

● الأتراك :

مهما كان الرأى فى حكم الاتراك لمصر فلا ريب عندى ان الأمة المصرية استفادت منهم كثيرا ، وجدت فيهم انسانية راقية فاقتبست منهم بالمعـــاشرة والمصاهرة النظافة وترتيب المسكن والتفنن فى الملبس والمأكل وكثيرا من العادات الحسنة والصفات الأدبية .

واذا كان التعليم قرب ما بين الرجال من المسافة فهى لا تزال الى الآن بعيدة بين المرأة التركية والمرأة المصرية حتى أنك لترى الرجال المهذبين يتهافتون على طلب الزواج بالأولى بقدر ابتعادهم عن الثانية ــ واليوم وجد المصريون والأتراك أمامهم انسانية أرقى ، اختلطت بهم اختلاطا كبيرا ، فأخذوا يقلدون الأوروبيين فى جميع شـــئون حياتهم ، ولا أرى ان هذا التقليد سيكون له أثر حميد فى انقاذ أمتنا من الحال التى هى فيه الآن .

● الرأى العام :

اذا رأيت الرأى العام يرمى أحد رجال الحـــــكومة بالخيانة ، ساخطا عليه ، شديد الرغبة فى سقوطه ، فاعلم انه غالبا رجل طاهر وعامل نافع .

واذا رايت الراى العام معاديا لكاتب ، واعد له خصوما يتسابقون الى نقض افكاره وهدم مذهبه ، وعلى الخصوص اذا رأيتهم ذهبوا فى مطاعنهم الى السب والقذف ، فتحقق انه طعن الباطل طعنة مميتة ونصر عليه الحق .

ما هو الرأى العام ؟ .

اليس هو في كثير من الأحوال هذا الجمهور الأبله ، عدو التغيير ، خادم الباطل ، ومعين الظالم ؟ .

لو انتظر المصلحون دائما رضاء الرأى العام لما تغير العالم عما كان عليه من زمن آدم وحواء .

• اللذة : ومضة لا تتكرر :

صنف الطعام الذى أعجبك ، أو قطعة الغناء التى أطربتك ، أو ليلة الأنس التى راقتك مع محبوبتك ، أو غروب الشمس البديع الذى خفق لأجله قلبك ، اذا قصدت تكراره فانك لا تستطيع أن تجد السرور الذى شعرت به لأول مرة ، فلا تحاول أن تنال ذلك فى اعادته .

• الجبان المدعى :

قبيل الغروب وقف بنا « وابور النيل » الذى كان يحملنا بجانب غيط مزروع ، وكان يشتغل فيه رجلان لمح أحدهما ثعبانا غليظا قصيرا ففر وهو يصيح (ثعبان ثعبان ثعبان) .

أما الآخر فتقدم اليه حاملا فأسه وضربه بها عدة ضربات حتى قضى عليه ، ثم تركه فى مكانه ، وأخذ

سلاحه وعاد الى عمله ، ولم يتكلم فى أثناء ذلك بكلمة ، وحينئذ تحرك زميله ومشى محترسا على أطراف قدميه شاخصا الى الحيوان ، واقترب منه بطيئا بطيئا ، ولما وصل اليه لمسه بطرف الفأس التى كانت فى يده وقلبه مرة ثم مرة أخرى حتى اذا تحقق انه مات صاح (يا ابن الكلب !) وطعنه بالفأس طعنة قوية .

ولما رأى الثعبان لا يتحرك أمسكه من ذنبه وصعد به الى الجسر ، وكان فى هذه الساعة عامرا بالمارة ، فاستوقف الأطفال والنساء والرجال وصار يقص الواقعة عليهم قائلا : (هجم علينا فقتلناه) وفى آخر الرواية يلقى الثعبان على هذا الجمع فيفرقهم وتصيح النساء ويهرب الأطفال فيضحك هذا البطل الباسل من هذا الجبن ، وما زال كذلك حتى جاء الظلام فانصرفوا جميعا ، وهو فى مقدمتهم حاملا فريسته . أليس هو الحال دائما فى جميع مظاهر الحياة الدنيا : ترفع من رجال العمل عن حب الظهور ، وجزاة من رجال القول على اغتصاب أعمال غيرهم والتبجح بها ! .

● سحر المطبعة :

يفعل الكلام المطبوع فى نفس الجاهل فعل السحر فيستولى على عقله ، فاذا روى عن كتاب قال لنفى كل شبهة : هذا مدون فى الكتب ، واذا نقل عن جريدة قال : هذا مذكور فى الجرنال .

فاذا اعترضت عليه بأن الخبر يحتمل الصدق وان الخطأ جائز على صاحب الكتاب أو الجرنال ، أجابك :

نعم : ولكن لابد ان يكون الـكاتب تحرى عن الحقيقة قبل النشر لأن صناعته تقضى عليه بذلك .

***

● توجد كلمات الصقها الـكتاب بعضها ببعض من قرون طويلة ، فحيث تكون احداها تكون الأخرى ، حتى ملت طول العشرة ، كالعالم العلامة ، والحسيب النسيب، والصديق الحميم ، والسيدة المصونة . فاما طلاق يرد اليها حرية الاقتران بكلمات أخرى ، واما على الأقل حيلولة مؤقتة تستريح فى أثنائهـا من هـذه الشركة القهرية .

***

● **الذوق :**

من اعظم ما يصـاب به المرء أن يحـرم من الذوق السليم .

الذوق السليم هو هذا الاحساس الفطرى الذى ينمو ويتهذب بالتربية ، هو الشـعاع اللطيف الذى يهـدى صاحبه الى أن يقول ويفعل ما يناسب المقـام ويجتنب ما لا يناسبه .

وعكسه هو الذوق المصطلح عليه بين جماعة الظرفاء عندنا ، هم على يقين من ان الذوق لم يخرج من مصر .

يقصد الناس التياترات لرؤية الحوادث الغريبة وسماع القصص المضحكة أو المبكية ، والعاقل يكتفى بما يراه حوله ويسمعه ، يتفرج مجـانا على وقائع لم تبلغهـا مخيلة المؤلفين ولا مهارة الممثلين .

● صفاقة ؟

كان خمسة من ارباب المعاشات ، خمسة شيوخ ، مروا على فروع الادارة المصرية القديمة وتقلبوا فى مناصبها العالية من مديرية الى مجلس الاحكام الى ديوان الأوقاف الى السكك الحديدية ، اختاروا بيت احدهم ، اكبرهم رتبة ، وصاروا يجتمعون فيه من الصبح الى الظهر ومن العصر الى بعد الغروب ، جالسين على الكراسى فى بستان عتيق مهمل ، ولكنه واسع الأرجاء ، تطاول أشجاره السماء ، هواؤه معطر بروائح الزهور ، لا يصل اليه شيء من ضوضاء الطريق ، ولا يسمع فيه غير تغريد الطيور ، ماذا كانوا يقولون ويفعلون ؟ كانوا يقضون الأيام الباقية من عمرهم مؤتنسين بهذا الاجتماع ، مكتفين به لسد فراغ حياتهم ، وفى بعض الاحيان يلعبون النرد ، فيتقدم منهم اثنان الى ميدان المبارزة ، ويلتف حولهما الباقون للفرجة ، واذ ذاك ترتفع أصواتهم — شيش يك — بنج جهار — خانه — اضرب — ويتناقشون بحدة ، هذا يضحك لأنه غالب والآخر يغضب لأنه مغلوب ، فاذا انتهوا من اللعب أخذوا يتحادثون ويذكرون ماضى حياتهم وسيرتهم فى أعمالهم بالتفصيل والتدقيق فى تواريخ السنين والشهور ، ويخرجون من أعماق حافظتهم الأمينة حوادث مهمة ووقائع غريبة رأوها أو سمعوها أيام حكم الخديويين السابقين ، يروونها ويكررونها مرات كلما عرضت لذلك مناسبة ، ويتخلل هذا الحديث تهكم بقواعد الادارة الحديثة واستهزاء برجال الحكومة الحالية وملاحظات على فساد أخلاق هذا الجيل وعلى اختلال الأمن وضياع احترام الصغير للكبير والوضيع للرفيع والمحكوم للحاكم ، وذلك بعبارات وألفاظ هادئة مجردة عن حدة الشهوات

والتأثر ، سوى نوع من التألم كان يبدو أثره أحيانا على وجوههم . وهناك موضوع كان يتردد فى غالب الاحيان فى حديثهم ، هو تقدير سن كل واحد منهم ، متى طرقوه جرهم الى مناقشات شديدة وعمليات حسابية طويلة وخلط فى الارقام والوقائع وعوج فى الراى واباء للحق ومغالطات ظاهرة ، كانوا هم أنفسهم أول من يضحك منها بصوت عال ضخم يسمع دويه من مسافة بعيدة ، ومهما بلغ جهدهم فى الفحص والأخذ والرد فقد بقيت هذه المسألة غامضة ، وظل كل منهم حافظا مركزه متمسكا بزعمه . وفى يوم حضروا كعادتهم الى بيت زميلهم فوجدوه قد مات فى الليل فنقلوا مركز اجتماعهم فى اليوم التالى الى بيت أحدهم ، واستمروا هم الاربعة على حانهم المعهودة ، ولكن نفوسهم كانت تشعر دائما ببعض الحزن كأن روح فقيدهم كانت تطوف حولهم وتشكو اليهم انفرادها وتدعوهم الى الانضمام اليها ، فلبى ثلاثة منهم هذا النداء المستمر ، وماتوا واحدا بعد الآخر فى مدة قصيرة ، وبقى خامسهم الى الآن منفردا كئيبا لا يتكلم ولا يخرج من بيته ، لا يدرى ماذا يصنع بحياته ، ويرقب الموت الذى يخلصه منها .

***

● ليس نقدا :

أتعرف حسين بك ؟ .

ــ لا ــ ؟

رجل خفيف ولطيف لا تغيب البشاشة عن وجهه ولم يره أحد قط غير مبتسم . اذا قال لك : نهارك سعيد ، ضحك ، واذا أخبرته ان الهواء طيب ضحك ، واذا سمع

ان زيداً مات ضحك ، زينة المجالس ، وأنيس النوادى ، يرى نفسه مكلفا بوظيفة السرور فيها ومنوطا بنشر التفريح حوله ، يستخدم كل شىء لتسلية نفسه وأصحابه فيجد فى أهم الحوادث موضوعا للتنكيت ، وفى أحسن الرجال محلا للسخرية . لو ضحيت حياتك فى أشرف الأعمال لابد ان يفتش فيها عن الجهة التى يتخذها واسطة للاستهزاء وجعلها أضحوكة للناس .

بين هـذا الهذيان القبيح والانتقـــاد الهزلى الصحيح فرق عظيم ، الانتقاد الهزلى الصحيح يصــــدر عن علم وشعور وذوق سليم ينظر الى موضع العيوب فى الانسان وجهات الضعف فى الحوادث فيبتسم بسكون ولطف ، واذا علا صوته للضحك فليس الان الضحك غايته بل يعده وسيلة للفت النظر الى شىء يحزنه وأمر يبكيه .

غرضه الاصلاح فيجاهد فيه بالطريقة التى يراهامناسبة لاستعداده الطبيعى . لا يحقر احساسا شريفا ولا يصغر عملا كبيرا وانما يحارب الرذائل والدنايا ويلحق بهـــــا أخف ما يمكن من الضرر ، فى هذا الأسلوب نبغ عدد كبير من الكتاب والشعراء والقصصيين فى أوروبا ، وعدوا من أعظم رجال الأدب والفلسفة .

***

● **تحايل :**

اخبرنى موظف فى الأزهر ، لا يخفى عليه شىء من اسرار الطلبة ، انه كلما أراد واحد ممن فسدت أخلاقه منهم أن

يسير وراء شهوته ذهب الى أخذ البيوت العمومية وعقد على امرأة بحضور شاهدين على مهر خمسة قروش أو ما يقرب من ذلك ، فاذا قضى شهوته طلقهـا وخرج معتقداً انه برىء من كل ذنب .

***

● سئل ح . بك ـ ما رأيك فى كتاب « تحـــرير المرأة » ؟ .

فأجاب : ردىء ! .. هل قرأته ؟ ـ لا ـ اما يجب ان تطلع عليه قبل الحكم برداءته ؟ ـ ما قرأت ولا اقرأ كتابا يخالف رأيى ! .

***

● أخلاق جديدة عند الشبان : علمت ان بعضهم يحمل قوائم تشتمل على معـلومات مفصلة عن البنات اللاتى يرشحون أنفسهم لخطبتهن ، وعلى الخصوص عن حالتهن المالية وحال بيوتهن ، فيرصدون فيها ما تملكه من الأطيان والأماكن وقيمة ما تساويه ومقدار ريعهـا وسن والدها والأمراض التى يكون مصابا بها وعدد الورثة الذين يتركهم بعد موته الخ معلومات لا يفـكر فى جمعها أشد المرابين احتياطا اذا أقرض مبلغا جسيما بدون تأمين .

● **الحجاب الفتنة :**

رأيت يوما فى شارع الدواوين امرأة تمشى وأمامهـا خادم ، يظهر من هيئتها انها من عائلة كبيرة ، طويلة القامة ممتلئة الجسم ، عمرها بين العشرين والثـلاثين ، فى وسطها حزام من الجلد مشـدود على خصر رفيع وملاءة منطبقة على جسمها انطباقا تاما ، الجزء الأسفل بارز عند

الأرداف ومرسوم تحت ستار الملاءة باعتدال جميل ، والقسم الأعلى غير مستور ، وانما الملاءة مشبوكة فى راسها مسدولة على كتفيها وذراعيها الى المرفقين ، على وجهها قطعة من الموسلين الرقيق أقل عرضا من الوجه ، تحجب فاها وذقنها حجابا لطيفا شفافا كما تحجب قطع السحاب الرفيع شكل القمر ، وتترك العيون والحواجب والجبهة والشعر الى منتصف الراس مكشوفة . كانت تمشي خطوات مرتبة يهتز معها جسمها مائجا كما تفعل الراقصة على المرسح ، وكانت تخفض جفونهـا بحركة بطيئة وترفعها كذلك وترسل الى المارة نظرات دعابة ورخاوة وحنان واستسلام ، وبالاجمال كان مجموعها تحريضا مهيجا لحواسهم ! .

● كتبت والدة من قدماء المصريين على قبر ابنها : « من انتهك حرمة هذا القبر فليكن آخر من يموت ممن يحبهم ! » . كلمة خرجت من نفس ذاقت آلام الحياة بجميع أنواعها ودرجاتها ، كلمة يفزع من هولها كل من فارق عزيزا محبوبا .

***

● لا فرق بين من يفشى سرا أؤتمن عليه وبين من يختلس مالا أودع عنده .

***

● **الزواج :**

المصريون الذين يفهمون ان للزواج معنى غير مجرد الاستمتاع الموقت هم تابعون لقانون الحب والأمانة والاخلاص لنسائهم وأولادهم ، قانون أعلى من مبادىء حب الذات التى وضعها بعض فقهائهم .

ما دام الطـلاق متروكا الى رأى الزوج يستحيل ان يثبت فى نفوس الرجال والنساء ان أساس الزواج فكرة الاستمرار والمعاشرة الى آخر الحياة .

***

الزواج عندنا حيازة رجل لامراة يوما أو شهرا أو سنة أو عدة سنين حيازة تنتهى بمجرد ارادة الرجل ، ولا فرق بينها وبين الحيازة غير الشرعية ما جاز للرجل أن يدفع زوجته الى الباب ويقول لها : اخرجى .

***

● السآمة علامة النفس الشريفة .

***

● **التربية :**

يولد الانسان شريرا خبيثا قاسيا محتالا كذوبا . الولد الصغير لا يعرف الا نفسه ولا يرى الا نفسه ولا يحب الا نفسه ولا يتألم الا من نفسه ، وفيه أثرة هائلة لا حد لها . هذه العيوب تنمو مع الطفل ، وتبقى فيه حتى يصل الى سن الرجال ، فيتعلم كيف يخفيها ، يحسن ظاهره ويستر باطنه . أعظم ما تنتجه التربية الجيـــــدة اذا استمرت بلا انقطاع هو أن تقطع من النفس فروع هـذه الشـجرة الخبيثة ، ولكنها لا تستطيع أن تقلع جذورها .

***

● **الوطنية :**

من ذا الذى ينكر على المصريين تقدمهم فى الاحساس الوطنى ؟ عاش آباؤنا وتعلموا واشـــــتغلوا بالصناعة

والتجارة ، وخدموا أمتهم ، وفتحوا البـــلاد وحاربوا الامم ، ولم نسمع عنهم انهم كانوا يحبون وطنهم ويتهمون خصومهم بالخيانة ، أما الآن فأيما قرأت وفى أى مكان وجدت لا أسمع الا حب الوطن والغيرة الوطنية والتفانى فى خدمة الوطن والجريدة الوطنية والمدرسة الوطنية وحزب الوطن ، والبيوت التجارية والمحـال الصناعية والصيدليات وعيادات المرضى التى تشغل وتبيع وتعالج وتربح لخدمة الوطن . صار حب الوطن دينا جديدا من اعتنقه ربح ومن بعد عنه خسر ، صار كعصارة الطماطم يوضع فى كل شىء ليكسبه ذوقا حامضا يجعل تناوله سهلا مقبولا ! .

● التقلب :

أردنا أن نحصى تقلبـــات أحد معـــارفنا فى آرائه العمومية ، فوجدنا انه كان عرابيا ، فلما انتهت الثورة بالفشل صار يطلب السجن والشنق لشركائه وأصحابه ! وكان من المقربين عند أحد رؤساء الحكومة السابقين ، فلما ترك الحكومة تخلى عنه وانضم الى أعدائه ، وصار اكثرهم سفاهة فى الطعن عليه ! وهو كما يعرف جميع زوايا قصر عابدين لا يجهل شيئا من قصر الدوبارة ! كان يتودد الى أحد أصحاب الجرائد ، ويمده بأفكاره وأخباره ، ثم قطع كل علاقة به وتحول الى أشد خصومه! وأخيرا اشـــترك فى تأسيس جريدتين مبدأ كل منهما مخالف للآخر ! ومن المؤكد ان خاتمة حيـــاته ستكون حميدة ، لانه متى شعر بقرب ملاقاة ربه تقرب اليه بالدعاء والصلاة ! .

● اللذة الحقيقية :

اللذة التى تجعل للحياة قيمة ليست حيازة الذهب ولا شرف النسب ولا علو المنصب ، ولا شىء من الاشياء التى يجرى وراءها الناس عادة ، وانمـــا هى أن يكون الانسان قوة عاملة ذات اثر خالد فى العالم .

● البلاغة :

الكاتب الحقيقى يجتنب استعمال المترادفات ، فـلا يأتى باسمين مختلفين لمعنى واحد فى مكان واحد ، لان ذلك يكون حشوا فى الـكلام مستهجنا ودليلا على فقر فى الفـكر والخيال ، ولكن اذا كان المقال يستدعى ذكر عدة معان متقاربة يجمعها معنى واحد فاستعمال المترادفات الموضوعة لها حسن ، وقد يكون مطـلوبا اذا كان لازما لتسهيل فهمها أو اظهار الفروق التى بينها . كـذلك الكاتب المجيد لا يضع صفة بجانب الاسم الا اذا اقتضى الحال أن يميزه بصفة مطابقة للواقع ، على ان الأعتماد على ذكر الصفات والمبالغة فيها بقصد التاثير هو اقل درجات فن الكتابة ، ويفضلها بكثير طريقة الكتاب الغربيين الذين يعولون فى الوصف على ذكر الوقائع وشرح ظروفها وتحليلها تحليلا دقيقا ، او تشريح الانسان وفتح جوفه وكشف ما خفى من اعصابه وسبر غور احشائه والتسمع على نفسه لادراك ما يدب فيها من النزعات والخـواطر والأميال والحركات ، ويوصف منظر الشىء بهيكله التام بأجزائه كلها ليحدث فى نفس القارىء او السامع صورة كاملة وشعورا تاما وأثرا باقيا .

● جنازة :

ما رأيت جنازة مسلم الا أخجلنى منظرها . هـــذه الجمال التى تحمل الفواكه ويلتف حولهـــا الأطفال والرعاع ويتشاجرون على اختطاف ما يلقى لهم منها على الأرض ، وهذه الجاموسة المسكينة التى يزفها الجائعون والشحاذون ويتضاربون على قسمتها قبل أن تموت ، وهؤلاء الفقهاء الذين يجر بعضهم بعضا وليس فيهم الا الأعمى والأعرج والأعور ، ويمشون بسرعة غير منتظمة ، لابسين ثيابا قذرة ، صائحين بأصوات مزعجة ، كلمات تخرج من حناجر مختنقة بنغمات شنيعة ، وهذا النعش المحمول الذى يتخبط فيه الميت ويلتفت تارة الى جهة اليمين وتارة الى جهة الشمال ، وأحيانا يطير فى السماء ان كان من الأولياء المقربين ! .

وهؤلاء النسوة اللاتى صبغن ايديهن ووجـوههن ، وعفرن بالتراب رؤوسهن ، يمشين وراء النعش مشيرات بالمناديل اليه باشارات مريعة مصحوبة بألفاظ مرتلة ، ما هـذا كله ؟ امجمع مجـانين ؟ أم نفر بهم مس من الشياطين ؟ ألعوبة أطفال ؟ أم معرض كرنفال ؟! .

فى الجنـازة التى تمر فى الطريق شيء من جميع ذلك ، ولا ينقصها الا أمر واحد وضعت لأجله هو : اظهار الاحترام للميت بالصمت والسكون .

***

لما كنت فى الآستانة توفى فى الليل بغتة رجل كان بيته ملاصقا لبيتنا ، فلم اسمع عويلا ، ولم نشعر بحركة غير اعتيادية ، وفى الضحى خرج النعش ونقل الميت الى

القرافة مشيعا بأقاربه وأصـــحابه من الرجال فقط ، ومشيت معهم فلم يرتفع صوت واحد منهم بتلاوة القرآن أو بذكر الله او بالصلاة على النبى ، بل كانوا يسيرون صامتين خاشـــعين مطأطئين رؤوسهم ، فلما انتهوا من دفنه عاد أهل الميت الى بيتهم وأغلقوا الباب كعادتهم .

● **شراهة :**

دعينا للعشاء عند م . باشا ، وكنا ستة أو سبعة من الأصحاب ، مسرورين باجتماعنـــا ، مستعدين للتمتع بمسامره ودية مجرده عن التكلف ، وبينما نحن متجهون الى قاعة الطعام اذ دخل علينا زائر من المشايخ ، فاضطر صاحب المنزل الى ان يدعوه الى الاكل معنا ، فدخل أمامنا ، واختـــــار لنفسه أحسن مكان ، وكان أول الجالسين . جلس على الكرسى القرفصاء فانفتح قفطانه وظهرت سراويله ، ثم برم كم القفطان والقميص الذى تحته برما محكما فانكشف الساعد الى المرفق ، فتمثل لى جالسا فى مكان من الميضاء يستعد للوضوء ! اشتغل بالأكل ولم ينطق بـكلمة أو يصغ لحديث ، ولما كان بعيدا عن المائدة كان كلما يتناول شيئا من الطعام يسقط بعضه الى ملابسه ، وكان يلقى العظام على مفرش المائدة ، فلما امتلأ بطنه أخذ ينكش أسنانه ويخرج منها فضلات الأكل فيقذفها من فمه بقوة يمينا وشمالا .

وبينما نحن شاخصون الى حركات هذا الشيخ صاح أحدنا ــ آه يا عينى ــ وقام واضعا يده على عينه فالتففنا حوله وسألناه الخبر ، فأخبرنا بأن قطعة من العظم دخلت فى عينيه ، فتأملنا فلم نجد فيها أثرا ، فضحك وقال : انها نفذت فيها وخرجت من الجانب الآخر ! .

● الشكل والجوهر :

كلما راي الناس ان حالتهم العمومية أصبحت على غير ما يحبون ظنوا ان العيب في النظام لا في الرجال ، وفكروا في وضع فواعد جديدة للسياسة والادارة والقضاء ، مؤملين ان يجدوا الاصلاح الكبير .

مثلهم كساكن بيت ضعضعت جسمه الرطوبة فأراد أن يتخلص منها فغير اثاث البيت ورتبه على غير الشكل الأول — تعب ضائع .

❊❊❊

● الرغبة والاستعداد :

بنتي الصغيرة التي عمرها خمس سنين تظن أنه يمكنها أن تأتي بنفسها كل ما تراني أعمله ، فاذا أمسكتها من يديها ورفعتها من الأرض لأقبلها تقول لي : أنا أيضا أرفعك ، وتمسكني بيديها من افخاذي وتجهد نفسها حتى يحتقن وجهها لتحملني كما حملتها .

واذا رات ان رجلا عبر قناة ماء بوثبة تحفزت لتفعل مثله ، تظن أن كل ما ترغبه جائز سهل . كذلك الرجل الجاهل ، يخيل له أنه كفء لأصعب الأعمال ، ومستحق لأصعب المناصب ، ومساو لأرقى الرجال ، يظن أنه منح استعدادا فطريا يجعله قديرا على كل شيء ، يظن أنه يطيق كل ما يريد .

❊❊❊

● عرس :

كنت في ليلة فرح ، وكانت الحفلة من افخم واجمل

ما رايت من نوعها ، أنفق فيها الذهب بلا حساب .
وعند العاشرة دخل العروس ، وصدحت الموسيقى اعلانا بذلك ، فقلت لصديق كان جالسا بجانبى : هذا اعلان لعامة الحاضرين بأمر سيتم بين الزوجين ، كان من حسن الذوق أن يبقى مستورا . وما أحسن ما اعتاده الغربيون ، فان الزوجين منهم يكونان مع المدعوين اذا بهما قد اختفيا عن أعين الحاضرين بدون ان يشعر بهما أحد ، ويغيبان عدة أسابيع ، فوافقنى صديقى على ذلك ثم قال : أتريد أن اقص عليك لهذه المناسبة شيئا رايته بعينى ؟ قلت : نعم ، فقال :

كان سنى لا يتجاوز تسع سنين ، ولا تزال صوره الواقعة التى سأقصها الآن محفوظة فى ذاكرتى كما لو كانت حصلت منذ أسبوع . كان المنزل المقابل لمنزلنا يستعد شيئا فشيئا لحفلة كبيرة ، نصبوا من أجلها سرادقا واسعا ، ووضعوا فيه الكراسى المذهبة ، وعلقوا البيارق والنجف ، وكل يوم يمر يزيد فى رونق الزينة وترتيبها ، فلما جاءت الليلة الكبيرة أضيئت الشموع ، وصدحت نغمات الموسيقى ، وتقاطرت وفود الرجال والنساء الى البيت ، يدخلون فيه أفواجا ، فيجلس الرجال فى الصيوان ، وتختفى النساء فى بيت الحريم الذى كانت تسطع فيه الأنوار وتخرج من نوافذه . ونحن سكان هذا الشارع الصغار عشرين أو ثلاثين طفلا من كل سن كنا أول المتفرجين وأكثرهم تمتعا ، فرحين بهذه المناظر البراقة والأنوار الذهبية والاضواء المنتشرة ، نجلس ونقوم ونجرى ونضحك ونتشاجر سكارى من ضوضاء الأصوات وضياء الأنوار .

فلما زف العروس بعد العشاء على الطريقة المعهودة ،

دخل الى البيت ودخل وراءه بعض الأولاد وكنت من بينهم ، فرأيت سلم المنزل وفسحة الدور الأول مملوءة بالنساء وهن يتزاحمن للوصول الى الصف الأول ليشاهدن العروس داخلا . وكان احد اقاربه ماشيا أمامه ، فصار يدفعهن بيديه ليخلي له الطريق حتى وصل الى غرفة عروسه ، فأدخل فيهـا واقفل الباب عليه ، وحينئذ وقف النسوة امام الباب كأنهن يترقبن حادثا كبيرا ، وهذا لم يمنعهن من المحادثة والمجادلة والضحك على شكل غير منتظم يستحيل معه التمييز بين من تقول ومن تسمع ، ومن حين الى حين تنادي احـداهن : « هس يا ستات » ، وتستمر هي في الكلام أكثر من غيرها . ما الزمن الذي مضى ونحن على هذا الحال ؟ لا أدري . ثم سمعت صياحا متكررا أتى من داخل الغرفة ، فازداد القلق والاضطراب بين جماعة النساء ، وما زال يتضاعف حتى أدى بهن الى الدق على الباب ، وبعد برهة فتح الرجل الباب وظهر عاري الرأس بارق العينين محتقن الوجه ، وتكلم مع أمه وأم زوجه كلاما شديدا مصحوبا باشارات الغضب ، ومن وقت لآخر كان يقول : ماذا أصنع .. لا أقدر .. ! وبعد مداولة صغيرة رجع ودخلت وراءه المرأتان ، وتبعه الجيش الذي كان واقفـا وراء الباب مدفوعا كالسيل ، وقد جريت معهم حتى صرت قريبا من السرير ، فرأيت العجوزين قعدتا على صـدر البنت ، وقبضت احداهما على ذراعيها ، والأخرى على فخذيها ، فزاد صياح البنت ، وبكاؤها ، وتقدم الرجل وبيده خرقة بيضاء ، رأيتهـا بعد ذلك ملوثة بالدم ، فخرجت هاربا من هذا المنظر الشنيع ، لا أشك انهم ذبحوها ! .

● التحرر :

فى عهد الاستبداد ، فى الوقت الذى كانت فيه كلمة محمد على او اسماعيل تسكفى لاعدام من يغضب عليه أو ارساله الى البحر الأبيض ، فى تلك الأيام السوداء التى كانت فيها حياة الانسان وحريته وأمواله مهددة بأنواع الخطر ، ولم يكن لأحد مهما كان مقامه فى الوجود ضمانة تحميه ، فى ذلك العهد ظهر أفراد وجدوا من شعورهم ما دفعهم الى صد ارادة الحاكم والتصريح بآرائهم .

واليوم زالت اسباب الخوف من الحاكم ، فهل زادت قدرة الناس على المجاهرة بالحق والتصريح بآرائهم ؟ من ينظر نظرا سطحيا يظن اننا بلغنا من استقلال الرأى مبلغا لا ينافسنا فيه أحد ، حيث لا يجد من الأمة أدنى أثر للخوف من الحكومة ، بل يرى بالعكس ان الاستخفاف بها صار عاما ، وانه لم يبق بين جميع طبقات الموظفين شخص محترم ، اللهم الا اذا كان جاويش البوليس أو خفير الترعة ! .

ولكنه اذا حقق النظر لا يلبث ان يرى حرية الانتقاد لم تستعمل الى الآن فى أعمال الحكومة الا الآن هذه النغمة الجديدة تطرب آذان السامعين وتفتح قلوبهم وجيوبهم .

أما المسائل الأخرى : الدينية والاجتماعية والمتعلقة بالأحوال الشخصية والعادات والأخلاق ، فلم يتجه فكر الباحثين الى انتقادها ، فهل لم ير احد منهم فيها عيبا ينتقد ؟ كلا ! وانما هم يرون العيوب ولا يجرأون على أظهارها .

● المشروعات الخيرية :

قال أحد أعيان الأقاليم : فى هذه الأيام كثرت فيها الاكتتابات للجمعيات الخيرية والمدارس والكتاتيب والمستشفيات ولا يمد يده احد من الامراء والذوات وكبار الموظفين والاغنياء المقيمين فى العاصمة للاشتراك فيها ويتحمل جزءا من مغارمها ، يجب على عمد القرى واعيانها أن ينشئوا جمعية للدفاع عن أموالهم ، يسمونها جمعية منكوبى المشروعات الخيريه ! .

● كلما قدرت على أن أقوم بخدمة طلبها منى صديق أسفت على خسارته وعددته عدوا جديدا .

● قادتنا :

ليس فى مصر عالم محيط بجميع العلم الانسانى ، وليس بيننا من اختص بفرع مخصوص فى العلم ووقف نفسه على الالمام بجميع ما يتعلق به ، ولم يظهر منا فيلسوف اكتسب شهرة عامة ولا كاتب ذاع صيته ، مثال هؤلاء هم قادة الرأى العام عند الأمم الأخرى والمرشدون الى طرق نجاحها والمديرون لحركة تقدمها ، فاذا عدمتهم أمة حل محلهم الناصحون الجاهلون والسياسيون المشعوذون ـ والحقيقة المجردة عن الأوهام والأغراض ان كل ما وجد فى مصر من الحرية والنظام والعدل لم يوجد ولم يستمر الا بعمل الأجنبى وعلى رغم أهلها .

***

طالب وظيفة :

زارنى أحد أصحابى ، وكان يرافقه شاب من اقاربه

اتم فى هذه السنة دروسه ، وطلب منى ان اتوسط له ليحصل على وظيفة ، فمددت يدى الى هـذا الشاب مسرورا فوضع فيها يدا فاترة وسحبها بسرعة . أشرت عليه بالجلوس على كرسى فاستحسن أن يجلس على «الكنبا» التى أردت أن أخص قريبة بها ، وقبل أن يجلس شمر بنطلونه بعد ان تحقق من انتظام ثناياه ثم قعد ووضع رجلا على الأخرى . سألته عن الوظيفة التى يرغبهـــا فعلمت انه يريد أن يعين فى وظيفة مرتبهـــا خمسة وعشرون جنيها فى الشهر ، فأفهمته انه يطلب المحال ، وان لوائح الحكومة لا تجيز هذا الطلب ، فلم يقتنع ، وأخذ يقيم الأدلة على ان الحكومة اذا شاءت يمكنها ان تعينه بطـــريقة استثنائية ، فقلت له : ولكن ما هى المسوغات التى تحمل الحكومة على تقرير الاستثناء الذى تطلب ان تتمتع به ؟ فقـال : كفاءتى ، فقطعت عليـه الـكلام ، وكررت له أن طلبه غير مقبول ، فحول وجهه عنى وأخذ يفتل شاربه بحـركة عصبية ثم التفت الى وقال : « ممنون ، نهارك سعيد »! ، وخرج ، وتبعه قريبه بعد أن اعتذر لى بكلمتين ، فلما خرجا سرح فكرى فيما سمعت ورأيت ، وتأملت فى حال هذا الشاب ، ووردت على خاطرى أحوال أخرى وقعت من أمثاله معى ومع غيرى ، أحوال تنذر بوجود حالة ادبية سيئة عند الكثير مع شبابنا ، تجعلهم صنفا خاصا لا يشبهون معها شبيبة الجيل المـاضى التى عاشرت كثيرا من فرادها ، ولا الشبيبة التى عرفتها فى البلاد الغربية واختلطت بها زمنا . هذه الواقعة حركت فى نفسى حياتى الماضية ، ومثلت فى ذاكرتى صور شبان محبوبين متحلين بالآداب والحياء والتواضع والانقياد ، وكانوا مع ذلك لا ينقصون

من جهة المعارف عما يتحصله الشباب فى هذه الأيام ، وانما الفرق هو ان الشيء القليل الذى يتعلمه الشاب فى هذا الزمن يتورم فى مخه حتى يسد فراغه ويجعله يتخبل انه يحمل كنوز السماوات والأرض .

***

● **العبقرية :**

العقل والجنون شيئان متضادان ، ولكن حدودهما متجاورة مختلطة . وفى الحقيقة لا يعرف أحدا أين ينتهى العقل وانى يبتدىء الجنون . ان كان التوازن بين قوى النفس هو علامة العقل ، فالنبوغ فى المدارك والخيال يكون غالبا نتيجة اختلال فى هذا التوازن .

يظهر أثر ذلك عند الكثير من أعاظم الرجال يشذون فى الأخلاق أو نوب عصبية أو ولوع بالاعتقادات الباطلة والخرافات الصبيانية او افراط معيب فى تطلب الشهوات أو بالانفراد عن الناس والتوحش أو بزيغ فى الحواس عن القوانين الطبيعية أو بأى أمر آخر يكون عنده مخالفا أو زائدا عما تشاهد عند متوسطى الحال فى الذكاء والاحساس .

ربما كان الابداع فى الاختراع والتاليف وما يستلزمه من احتقان المخ واشغال الذهن وحصر الفكر وتأثر الأعصاب والجهد فى توليد المعانى من أسباب تعاظم هذا الشذوذ الذى يجعل النابغة انسانا غريبا زائدا من جهة وناقصا من جهة أخرى .

***

● معاقبة الشر بالشر اضافة شر الى شر .

● مصطفى كامل :

١١ فبراير سنة ١٩٠٨ ، يوم الاحتفال بجنازة مصطفى كامل ، هي المرة الثانية التى رأيت فيها قلب مصر يخفق . المرة الأولى كانت يوم تنفيذ حكم دنشواى :

رايت عند كل شخص تقابلت معه قلبا مجروحا ، وزورا مخنوقا ، ودهشة عصبية بادية فى الأيدى وفى الأصوات ، كان الحزن على جميع الوجوه ، حزن ساكن مستسلم للقوة ، مختلط بشىء من الدهشة والذهول ، ترى الناس يتكلمون بصوت خافت ، وعبارات متقطعة ، وهيئة يائسة ، منظرهم يشبه منظر قوم مجتمعين فى دار ميت ، كأنما كانت أرواح المشنوقين تطوف فى كل المدينة .

ولكن هذا الاتحاد فى الشعور بقى مكتوما فى النفوس ، لم يجد سبيلا يخرج منه ، فلم يبرز بروزا واضحا حتى يراه كل انسان .

أما فى يوم الاحتفال بجنازة صاحب « اللواء » فقد ظهر ذلك الشعور ساطعا فى قوة جماله ، وانفجر بفرقعة هائلة سمع دويها فى العاصمة ، ووصل صدى دويها الى جميع أنحاء القطر .

هذا الاحساس الجديد ، هذا المولود الحديث الذى خرج من أحشاء الأمة ، من دمها وأعصابها ، هو الأمل الذى يبتسم فى وجوهنا اليائسة ، هو الشعاع الذى يرسل حرارته الى قلوبنا الجامدة الباردة ، هو المستقبل ! .

فهرس

صفحة

رقم الايداع بدار الكتب والوثائق القومية ٢٤٨٢/٨٠
الترقيم الدولى ٥ ـ ٦٤ ـ ٧٠٣١ ISBN

وكلاء اشتراكات مجلات دار الهلال

جدة ـ ص . ب رقم ٤٩٣
السيد هاشم على نحاس
المملكة العربية السعودية

انجلترا :

THE ARABIC PUBLICATIONS
7. Bishopsthrope Road
London S.E. 26
ENGLAND

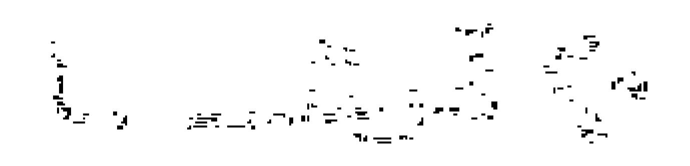
البرازيل :

M. Miguel Maccul Cury.
B. 25 de Maroc, 994
Caixa Postal 7406,
Sao Paulo. BRASIL.

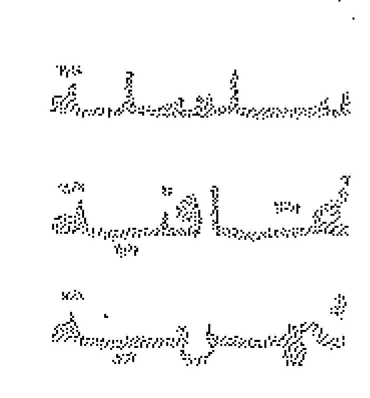
لم يؤلف قاسم امين في حياته الا كتابين : « تحرير المراة » ثم « المراة الجديدة » والكتابان صغيران ، والكلام فيهما مرسل في بساطة وهدوء وتواضع . ولكن هذا الكلام الهادىء البسيط احدث اكبر ثورة اجتماعية عرفها تاريخ العرب الحديث : ثورة تحرير المراة العربية وخروجها من قيود العصور المظلمة لكي تتمتع بحريتها التي وهبها الله اياها ثم ليفيد منها المجتمع ، لان اى مجتمع سليم لا يمكن ان ينهض ويتقدم اذا كانت نساؤه مقيدات حبيسات لا يفيد منهن احد .

وقد اثار قاسم امين ـ ذلك القاضي الوديع ـ بكلامه عاصفة ، لان البديهيات التي قالها كانت بالنسبة لاهل العصر جراة وخروجا على التقاليد والنظم وقواعد الحشمة والاداب حتى لقد ذهب نفر من المحتجين عليه وطلبوا مقابلة حرمه زاعمين ان هذا حقهم بحسب كلامه نفسه ، وحاول ان يقنعهم بانه طالب بحرية المراة ولم يطالب بالفوضى وتخريب المجتمع ..

هذا كله هو موضوع الكتاب الذى نقدمه ضمن سلسلة كتاب الهلال هذا الشهر ، انه دراسة لقاسم امين وآرائه في تحرير المراة على ضوء قواعد الاسلام نفسه ، ود. محمد عمارة باحث متمكن في الاسلاميات وعقل مجدد في كل ما يتعلق بالفكر العربي الاسلامي ، وكتاب الهلال اذ ينشر هذا الكتاب يساهم مساهمة ايجابية في مناقشة قضايا العصر ، لانه لازال هناك من بيننا من يرون ان قاسما امينا كان على خطا وانه اضر بالمجتمع العربي بآرائه ، وهم ينسون ان المراة كان لابد ان تتحرر حتى لو لم يكتب قاسم امين كتابيه هذين .



كتاب الهلال



سلسلة
ثقافية
شهرية

أولادنا.. والأمراض النفسية

د. كلير فهيم

٢٥٣

كتاب الهلال

KITAB AL-HILAL

سلسلة شهرية تصدر عن « دار الهلال »

رئيسة مجلس الإدارة : أمينة السعيد

نائب رئيس مجلس الإدارة : صبري أبو المجد

رئيس التحرير : د. حسين مؤنس

سكرتير التحرير : عايد عياد

العدد ٣٥٣ – جمادي الثانية ١٤٠٠ – مايو ١٩٨٠

No. 353 — May 1980

مركز الادارة

دار الهلال ١٦ محمد عز العرب

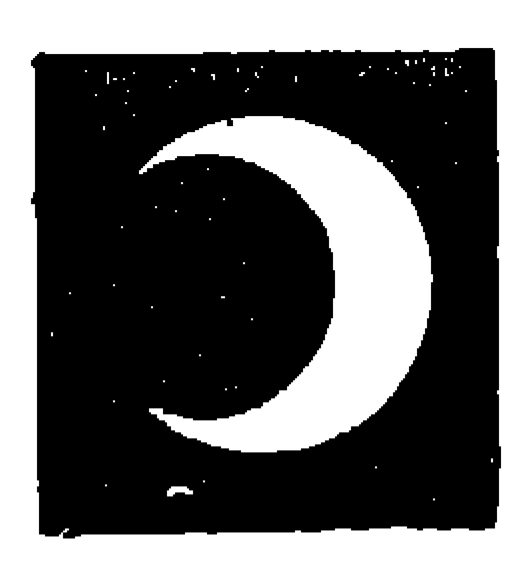
تليفون ٢٠٦١٠ (عشرة خطوط)

الاشتراكات

قيمة الاشتراك السنوي – ١٢ عددا – في جمهورية مصر العربية جنيهان مصريان بالبريد العادى • وبلاد اتحادى البريد العربي والافريقي وباكستان ثلاثة ونصف جنيه مصرى بالبريد الجوى • وفي سائر انحاء العالم سبعة دولارات بالبريد العادي وخمسة عشر دولارا بالبريد الجوى •

والقيمة تسدد مقدما لقسم الاشتراكات بدار الهلال فى ج. م. ع. بحوالة بريدية غير حكومية وباقى بلاد العالم بشيك مصرفى لامر مؤسسة دار الهلال وتضاف رسوم البريد المسجل على الاسعار الموضحة اعلاه عند الطلب •

كتاب الهلال



سلسلة شهرية لنشر الثقافة بين الجميع

الغـــلاف بريشــــة :
الفنانة سميحة حسنين

د. كلير فهيم

أولادنا..

والأمراض النفسية

دار الهلال

الإهـــداء

ـ اليك يا ذات ينابيع الحنـــان المتفجرة من قلبك الـكبير الذى غمرت به الكثيرين من ابناء هذا الوطن المجيد ...

ـ اليك يا من احتضنت أطفال مصر جميعا ووجهت كل العـــاملين فى مختلف ميادين الطفولة الى أن الطفل المصرى هو الأساس الذى يجب أن نبدأ به من أجل اقامة مجتمع قوى متماسك ..

ـ اليك يا سيدة مصر الأولى ..

« جيهان السادات »

اهدى اليك كتابى هذا تقديرا لك واعترافا بجليل أعمالك فى سبيل توفير نشأة سوية لأطفالنا كى يشبوا فى طريق مملوء بالنور والسلام والرفاهية .

د . كلير فهيم

مقدمة

حياة الأطفـــال عنـــد من يعنيهم تنشئتهم ، تخيط الانسان بجو يدعو الى التأمل والتعمق ، تملأ نفسه أملا يتجدد، لأنه يستطيع أن يتلمس عن كثب النفس الانسانية فى ليونتها وحيويتها وجمالهـــا . على أن هـــذه المتعة الزاخرة بالحيوية المتدفقة بالجمال فى أرقى ابداعه ، لا يظفر بها ، الا من آمن فعلا بأن الطفل وحياة الطفل ينبغى أن يكون لها من رعايتها نصيب كبير ، اذا كنا جادين فى النهوض من الأساس بمهامها . ومما يؤسف له أن هـــذا الجانب لا يدركه كثيرون ممن يتعاملون مع الطفل سواء فى البيت أو فى المدرسة لأنهم يعجـــزون عن الحياة فى دنياه ، ويستخفون بمـــا يجرى فيها ، فيقومون بهذا العمل على نسق آلى ، ولا يعنيهم من عملهم الا أنهم يؤدون واجبا مفروضا عليهم دون ايمـــان به ، أو ادراك له ، فلا تكون له فى نفوسهم هذه النشوة التى هى نعم الجزاء عما يتكبده الذى يقبل على عمله — فى عقيدة وايمان — من جهد وعناء .

وقد خطا المشتغلون بدراسة الطفـــولة فى مختلف مجالاتها ومراحلها خطوات لم تيسر لهم حل الـــكثير من مشكلاتها فحسب ، وانما أدت كذلك الى ما نلمسه من

وعى مطرد الزيادة والعمق ، لأهمية اثر هذه المرحلة فى حياة الفرد . فان تنشئة الطفولة لم تعد عملا تلقائيا يمكن ان يقوم به جميع الناس فى جميع المجالات دون عون ولكنها توجيه مستنير ، لتوفير النظرة السليمة لدى الوالدين نحو مشكلات الطفولة فى نطاقها الواسع ، وذلك عن طريق تزويدهم بآراء المتخصصين والاستعانة بخبراتهم .

وغايتى من هذا الكتاب بيان فائدة الطب النفسى والعلاج النفسى فى حل ازمات الأطفال والمراهقين ، وتوضيح مدى تكفل العلاج النفسى للأطفال بمساعدة المعنيين بأزمات الناشئين عن طريق تمكينهم من الفهم المستنير واعطاء التفسيرات النفسية لمظاهر الانحراف والجنوح . فالعلاج النفسى للأطفال هو الذى يصل بالمربى الى معرفة أنواع السلوك المستهجن الناتج عن اضطراب فى القوى النفسية ، ويوصله أيضا الى العثور على أصل هذا النوع من السلوك ومصدره فى اللاشعور . ويلى ذلك الخطوة التالية وهى هداية المربى او الوالد الى أنجع الوسائل لاعادة الطفل أو المراهق المضطرب أو الجانح الى سواء السبيل ، بحيث يتلاءم مع الأوضاع الاجتماعية السوية .

***

فى الجزء الأول من كتابى هذا قمت بايضاح مشاكل الطفل النفسية والسلوكية ، وأسبابها ، وأعراضها وعلاجها وطرق الوقاية منها . وفى هذا الجزء يتضح الى أى مدى تعتمد حياة الطفل فى كل مراحلها على ضرورة تزويده بجرعات كافية مشبعة من الغذاء الوجدانى الهام من بداية حياته .. وهو الحب .. حيث

ان الحرمان من الحب كثيرا ما يلوث النفس بالقسوة الحيوانية ويدفع المحروم الى انحراف سلوكه والى ارتكاب أبشع الجرائم .

***

وفي الجزء الثاني من الكتاب عرضت بعض الحالات النفسية التى قابلتنى فى أثناء ممارستى لمهنتى كطبيبة نفسية ، كي أوضح للآباء والأمهات أن الاضطرابات النفسية لأبنائهم مصدرها الظروف البيئية التى يعيشون فيها وهم أبطالها ، حيث يرتكبون أخطاء تربوية دون قصد فيكون لها أسوأ الأثر على حياة أبنائهم المستقبلية . كما أني قمت فى نهاية كل مشكلة عرضتها فى هذا الجزء بايضاح دور الوالدين لتجنب مثل هذه الأخطاء . وأرجو أن يفهمهما الوالدان ومن ثم يحاولان تجنبها حتى ينشأ أبناؤهم فى حياة آمنة مستقرة تقيهم من الاضطرابات النفسية والسلوكية فى المستقبل .

ان الأغلبية الساحقة من المتاعب النفسية تحدث خلال السنوات الأولى من عمر الانسان ، وكثيرا ما تأتى نتيجة لأشياء صغيرة تصدر من الوالدين دون قصد ، ولا ينتبهان اليها ، غير أنها تصيب الطفل بهزة تتسرب الى عقله الباطن وتلوذ بتلافيفه ، حيث تبقى فى مكانها مختفية لتسيطر على حياته من بعيد ، ترسم له طريق العذاب فى كبره ، مما يدفعه الى الانحراف ، أو يقوده الى الجنون ، ما لم يتدخل الطب النفسى فى الوقت المناسب ، وينتزع أصول المتاعب من العقل الباطن ويطفو بها الى العقل الواعى حيث تذوب سمومها وينتهى أمرها .

فالطبيب النفسى اشبه بالرجل الذى يحاول أن يحفر

بئرا بملقاط صغير .. وأنا أحاول أن أحفر بئرا فى نفس كل مريض يدخل عيادتى حتى أصل الى أعماقه .. الى عقله الباطن .. لأستخرج الجـــرثومة التى ترقد فيه ، والتى تسبب له مرضــه .. وليس فى يده من أدوات الحفر الا الملقاط الصغير الذى صنعه أطباء النفس على مر الأجيال ، وهى عملية تستمر شهورا وقد تستمر مدى حياة المريض وحياة الطبيب .

ومع ذلك فهى تعطى المريض فرصــة للتنفيس عمــا بصدره ، والشعور بأن هناك انسانا يهتم بأمره ، وهذا فى ذاته باعث على اطمئنانه ، والاطمئنان خطــوة أولى وحتمية لرؤية المشاكل على أبعادها الحقيقية ، فيستطيع أن يرى البذرة التى نبتت منها المشكلة ، والأرض التى نبتت فيها ، والعوامل التى ساعدت على ثباتها . وبذلك يستطيع أن يستنبط أكثر الوسائل فاعلية لحلهــا ، ثم يتجنب حدوث غيرها فيما بعد .

واخيرا اذا استطاع هــذا الـكتاب أن يوضح اهمية الطب النفسى للأطفال والعــلاج النفسى فى حل أزمات الأطفال والمراهقين من ناحيــة ، وأن يلقى الضوء أمام الآباء والأمهات ليهتدوا الى كيفية تنشئة أبنائهم تنشئة نفسية سليمة حاليا ، لوقايتهم من الاضطرابات النفسية مستقبلا ، كى ينعموا بحياة سعيدة هانئة دائما من ناحية أخرى .. فاذا استطاع أن يفعل هذا ؛ أو شيئا منه ، فذلك ما رجوت ، وما قصدت اليه .

الجزء الاول :

الاضطرابات النفسية عند الأطفال وعلاجها

يتجه الطب الحديث فى العصر الحالى الى توجيه العناية لحماية ورعاية الناحية الجسمية للطفل . وفى سبيل تحقيق ذلك بذلت الجهود لحمايته مما يهدده من الأمراض الجسمية المعدية والوراثية كشلل الأطفال وروماتيزم القلب والدفتريا عن طريق تحصينه ضد هذه الأمراض .

وقد تحقق له ذلك أخيرا . ولكن مما يدعو للأسف أنه لم يبذل الا القليل من الجهد لتحقيق الصحة النفسية والعقلية للطفل ، وعلى الرغم مما يتجه اليه نشاط المراكز الاجتماعية ومراكز الطفولة والأمومة والعيادات النفسية لتوجيه الوالدين الى كيفية تنشئة الطفل التنشئة النفسية السليمة ، الا أن عدد الأطفال المضطربين نفسيا فى تزايد مستمر .

فالاضطرابات النفسية عند الأطفل ، كانت الى عهد قريب مهملة ولم تحظ بالعناية الكافية كمشكلة تدعو الى الاهتمام ، وفى أغلب الأحيان يلفظ الطفل المضطرب نفسيا أو سلوكيا من المدرسة العادية لأنه غير قابل للتعليم ، أو يقيد فى مدرسة خاصة لتعليم الأطفال المتخلفين عقليا والمصابين فى المخ .

وقد بدأت العناية فى السنوات الأخيرة تتجه نحو انشاء الميادات النفسية للأطفال حيث يتردد عليها عدد كبير منها أطفال المدارس المضطربين نفسيا ، وهذا العدد فى تزايد مستمر .

وقد ذهب فرويد الى أن الأسباب الجذرية للاضطراب النفسى للطفل ترجع الى اضطراب العلاقة بين الوالدين والطفل فى حياته الأولى ، وهذا الرأى ما زال شائعا حتى الآن بين القائمين والمهتمين برعاية الطفل ، ولكن الذى يذهب اليه حاليا الاخصائيون النفسيون والأطباء النفسيون هو أن الاضطراب النفسى والعقلى للطفل ينتج من ثلاثة مؤثرات :

١ ــ عوامل الاستعداد الجسمى والوراثى .

٢ ــ المؤثرات داخل الأسرة وتشمل أيضا المؤثرات الفردية .

٣ ــ الضغوط التى يتعرض لها الطفل فى كل مرحلة من حياته .

***

والطفل السعيد الحظ هو الطفل الذى يتمتع بوراثة طيبة ، ورعاية مناسبة من والدين يكون لهما القدرة على فهم حاجاته النفسية فى حياته الأولى ، مع عدم تعرضه الا الى أقل ما يمكن من الضغوط فى مراحل النمو المختلفة .

ومما يدعو الى الملاحظة حاليا أن هذه العوامل الثلاثة يبدو انها اتحدت وتآمرت ضد النمو الانفعالى السليم للطفل المصرى وذلك لما يأتى :

أولا : هناك عدد كبير من الأطفال يولدون غير كاملين ،

ويتعرضون لصعوبات فى الولادة ، والبعض الآخر يعانون من مضـاعفات الحمى أو غيرها من الأمراض الفيروسية المعدية . وكذلك قد ينشأ بعض الأطفال فى اسر يعانى والداهم انفسهم من اضطرابات عقلية أو نفسية مما يؤدى الى اصابتهم بالاضطراب النفسى .

ثانيا : نظرا لأن المجتمع فى العصر الحـالى أصبح متجها نحو المدنية والتطور ، وأصبح عمل المرأة من القيم الهامة فى المجتمع الجديد ، مما دفعها الى قضاء فترة من الوقت خارج المنزل وكانت من قبل تقضيها كلهـا مع أسرتها وأبنائها ـ فى المرحلة الأولى من الطفولة التى يحتاج فيها الطفل الى وجود أمه بجانبه ، فهذا الاتجاه يهدد الترابط الأسرى وينعكس أثره على العلاقات داخل الأسرة مما يؤدى فى النهـاية الى ظهور الاضطرابات النفسية بين الأطفال .

ثالثا : أصبح الأطفال فى مجتمعنا الحالى المتطور ، لديهم القدرة على معرفة العـالم المحيط بهم بواسطة التليفزيون ، وكثير مما يراه ويسمعه الأطفال من اشتعال الحـروب ، واستخدام العنف والقسـوة ، والثورات الاجتماعية ، يتأثر به الأطفال ، وتصبح النتيجة النهائية ممارستهم العنف والقسـوة فى جميع المواقف التى يتعرضون اليها .. فكلما كثرت مشاهدة الطفل للقسوة والعنف أصبح هو نفسه عنيفا وقاسيا .

ممـا سبق يتبين أن الاضطرابات النفسية للأطفـال تنتج من عوامل متعددة يتعرض لها الأطفال فى المراحل الأولى من حياتهم .. وسوف أعرض فى هذا الجزء من الكتاب باختصار اهم الاضطرابات النفسية التى تصيب الطفل وطرق علاجها والوقاية منها .

الإنطوائية عند الأطفال

كثير من الأطفال يشبون منطوين على انفسهم خجولين ، يعتمدون اعتمادا كاملا على والديهم ويلتصقون بهم ، لا يعرفون كيف يواجهون الحياة منفردين ، وتظهر كل هذه العيوب واضحة حين يبلغ الطفل سن دخوله المدرسة ، فى السن التى يجب أن يتصرف فيها مستقبلا ، وأن يواجه الحياة خارج البيت ، والأشياء التى لم يتعودها ، ومن المفروض عندما يصل الى هذه السن أن يكون قد تهيأ لأن يكون مستقلا ومستعدا لمواجهة المواقف المختلفة .

ولكن الذى يحدث أن تجد الأم نفسها أمام طفل خجول ، خائف ، متردد ، منطو ، ملتصق بها ، ويمسك بطرف ثوبها ويعجز تماما عن أن يقف موقفا ايجابيا فى حياته الجديدة . أما الأسباب التى تؤدى بالأطفال الى الانطواء والخجل والاعتماد على الآخرين وعدم القدرة على الاجابة على الأسئلة او الاستعانة بالمدرسة على فهم الأشياء الغامضة ، تلك الأسباب هى :

(١) قسوة الاب :

ان الأب الذى يسلك سلوكا عدوانيا فى البيت مع الزوجة والأولاد يسبب مخاوف غامضة للطفل ويشعره

بأن من واجبه أن يكون مستعدا للدفاع عن نفسه ضد العنف والعدوانية والخشونة لأن العراك المستمر بين الأب والأم يشعر الطفل بعدم الأمان ويخيفه من العناصر العدوانية التى تكمن داخل طبيعته .

(٢) مخاوف الأم :

يتأثر الطفل بمخاوف الأم وقلقها الزائد عليه ، فتجعله يخشى أن يخوض التجارب الجديدة .. ان الأم تحب طفلها وهو أثمن ما لديهـا ، ولذلك تشعر بأن عليها أن تحميه وأن تحول دون انطلاقه ، ومن الطبيعى أن تفعل كل أم ذلك . ولكن الحمـاية الزائدة تجعلها تشعر بأن طفلها سوف يتعرض للأذى فى كل لحظـة .. وبدون قصد تملأ الطفل بشعور بأن هناك مئات من الأشياء غير المرئية التى يمتلىء بها العالم والتى تشكل خطرا عليه . ان مثل هذا الطفل يشعر بأن المكان الوحيد الذى يشعر فيه بالاطمئنان هو الى جوار امه . ان مثل هذا الطفل يشعر بالخوف ولا يستطيع أن يعبر الطريق بمفرده أو يستمتع بالجرى أو اللعب أو بالسباحة فى البحر . انه يتوقع فى كل لحظة أن يصاب بأذى .. فيظل منطويا بعيدا عن محاولة شىء من ذلك أو مما يشابهه .

(٣) عدم الاختلاط بالأطفال الآخرين :

أحيانا يصل خوف الأم على طفلها الى درجة تؤدى الى منعه من الاختلاط واللعب مع الأطفال الآخرين ، خوفا عليه من تعلم بعض السلوك غير المرضى أو تعلم بعض الألفاظ غير اللائقة ، فيصبح طفلا منطويا ، يفضل العزلة ، ويخشى الاندماج فى أى لعبة مع الأطفال الآخرين ، وينمو هذا السلوك فى داخله الى أن تظهر مساوىء هذا الاتجاه

حين يصبح فى مرحلة يشعر فيهـا برغبته وحاجته الى الاختلاط وعدم قدرته على تنفيذ ذلك .. فيصاب نتيجة لذلك بالقلق النفسى والاكتئاب ، والشعور بالنقص وعدم الرضا عن نفسه وعن الآخرين ويبدا الشعور بالملل والسأم من الحياة وأحيانا عدم الرغبة فيها .. كل ذلك يرجع الى الانطواء الذى غرست جذوره فى الطفـولة والذى يؤدى الى عدم الثقة بالنفس والأنانية وعدم القدرة على الاعتماد على النفس ومواجهة الحياة .

العــــلاج

ينبغى توفير الجو الهادىء للأطفـــال فى البيت وأن لا نعرضهم للمواقف التى تؤثر فى نفوسهم وتشـــعرهم بالقلق والخوف وعدم الاطمئنان . ويتحقق ذلك بتجنب القسوة فى معاملتهم ، والمشاحنات التى كثيرا ما تقوم بين الوالدين ، لأن ذلك يجعلهم قلقين يخشون الاختلاط بالآخرين ويفضلون الانطواء ، وعدم مواجهة الحياة بثقة واطمئنان .

كذلك ينبغى على الأم اخفاء قلقها الزائد ولهفتها على طفلها ، وأن تتيح له الفرصة ليعتمد على نفسه وأن يواجه بعض المواقف التى تؤذيه بهدوء وثقة ، فكل انسان لديه غريزة طبيعية يولد بها تدفعه الى المحافظة على نفسه وتجنب المخاطرة ، فالطفل يستطيع أن يحافظ على نفسه أمام الخطر بغــــريزته الطبيعية التى تجعله يتمسك بالحياة .

كذلك على الأم أن تتيح للطفل حياة اجتماعية مناسبة له حيث يلتقى بأبناء جيله ، ويكتسب من صداقتهم له

الشـعور بوجوده وانسانيته . ان ذلك يســاعده على الاحساس بالسعادة والثقة والانطلاق ويقيه من الانطواء والانزواء والخوف واليأس .

فالشخص الذى تتاح له فى طفولته فرصة الاستمتاع بالحياة الاجتماعية السليمة ، وتهيأ له أسباب الاختلاط بالناس وعقد الصــــداقات ، مثل هذا الشخص من المستحيل تقريبا أن يصاب بالاضطراب النفسى أو العقلى حتى لو كان تعسا فى أسرته ، فوجوده خارج البيت بين أقرانه أو مشاركته لأبنــاء جيله وممارسة الأنشطة المختلفة ، يزوده بالطمـأنينة النفسية التى يفتقدها فى بيته وتعوضه خسارته فى أسرته الصـغيرة بالـكسب العظيم الذى يجنيه مع اسرة المجتمع الكبيرة .

واخيرا فانه فى يد الأم مفتاح السعادة أو الشقاء ، مفتاح الثقة أو الخوف ، مفتاح الأمل او اليأس ، فعليها أن توفر لطفلها السعادة والثقــــة والأمل كى تسعد به ويسعد به الوطن مستقبلا .

الشعور بالنقص وضعف الثقة بالنفس

لا يخلو الانسان من عدم الشعور بالنقص لسبب ما ، ويؤدى ذلك الى الاضـــطراب النفسى اذا كان اتجــاه الشخص سلبيا تجاه هذا النقص . أما الشخص الايجابى فانه يلجأ الى مواجهـــة المشكلة بطريقة ايجابية سليمة فيعوض نقصه بالتفوق والنبوغ فى النواحى السليمة فى الشخصية ، وقد يلجـــأ الى تدريب العضو الضعيف وعلاجه .

امثلة :

أ ــ كان نابليون قصير القــامة وقد عوض هذا النقص بالتفوق العسكرى .

ب ــ كان طه حسين ضريرا وقد عوض هذا النقص بالتفوق الذهنى الأدبى .

أما اذا كانت الشخصية التى تشـــعر بالنقص تتجه اتجاها سلبيا ، انطوى الشخص على نفسه وأصبح ضعيف الشخصية مترددا لا يستطيع البت فى أموره وقضــــاء حاجاته بسهولة ، وقـــد تظهر اعراض مرضية نفسية نتيجة لهذا الشعور مثل : التبول اللاارادى ، التهتهة ، القىء الهستيرى ، أو اى أعراض هستيرية اخرى .

العوامل التى تؤدى الى الشعور بالنقص وعدم الثقة بالنفس :

(١) العوامل الطبيعية للشعور بالنقص :

يلاحظ أن مجموع الظروف المحيطة بالأطفال تجعلهم عادة يشعرون بشىء من النقص ، فالطفل بطبيعته نتيجة لصغر سنه وجسمه ، ولضعفه واعتماده على والديه ، ونظرا لقصور ادراكه ، يشعر بأن امه واباه بنوع خاص مخلوقان قويان عظيمان ، وبالتـــــالى يشعر بأنه فرد ضعيف . ولذا نلاحظ أن نفس الطفل تتوق لأن يكبر ، وتتعطش للنمو وكسب القوة . فهو يقلد أمه واباه فى كل أمر تقريبا لأنه يريد أن يكبر مثلهما ، وهو يفرح لأى ظاهرة عنده من مظاهر النمو . فكأن ضعف الطفل وقوة من حوله يشعرانه بضآلته ونقصه وضعفه ، ويتضاعف أثر هذا الشعور بفعل بعض التغيرات الحادثة فى مجال حياته كتكرار الحوادث التى تقع بفعل القضاء والقدر أو بسبب معاملة الوالدين .

(٢) القصور الجسمانى والعقلى :

أ ـ الضعف العام : يؤثر ضعف الحيوية على ثقـــة الطفل بنفسه وذلك لعدم قدرته على عمل ما هو مطلوب منه ، وهو يجد صــعوبة التوافق والانسجام مع نظرائه ويشعر بأن الحيـــاة صعبة وأنه مكروه من جميع من حوله . ويمكن مساعدة هذا الطفل لو عرفنا سبب هذا الضعف .. فقد يكون سوء التغذية وفقدان الشهية ، وتسوس الأسنان ، والتهاب اللوز المزمن .. وكلهـا عوامل لا تبدو فى شكل مرض يقعد الطفل ولكنها تضعف من حيويته فلا يستطيع أن يجـــارى زملاءه فى اللعب

ولا يستطيع ان يؤدى واجباته كاملة . فاذا عولج السبب وأعطى الطفل المقويات والفيتامينات زال عنه الضعف واكتسب حيوية تساعده على التوافق وتجنبه الشعور بالنقص وعدم الثقة بالنفس .

ب ـ التشوهات الخلقية والعيوب الجسمية : قد يكون لدى الطفل بالاضافة الى ضعفه الطبيعى نقص جسمانى خاص كالشلل أو العرج أو النحافة أو البدانة او فرط القصر أو فرط الطول أو فقدان أحد الأطراف ، او وجود علامة خلقية كبيرة تشوه منظره ، وكلها عوامل تسبب للطفل الشعور بالنقص ، وتتوقف صحة الطفل النفسية على اتجاه الأبوين نحو هذه المشكلة : فاذا كان اتجاه الأبوين ايجابيا بقبول الطفل على ما خلق عليه ، مع محاولة تنمية القدرات السليمة الأخرى فانهما يساعدان الطفل كثيرا على التوافق مع المجتمع ، وبذلك يلجأ الطفل الى التعويض عن نفسه والتوافق مع بيئته .

اما اذا كان اتجاه الأبوين سلبيا عن طريق السخرية ، او العطف الزائد الذى من شأنه أن يركز انتباه الطفل على عاهته فيلجأ الطفل الى حلول مرضية مختلفة كالتبول اللا ارادى ـ التهتهة ، أو يصبح شخصا راكدا ، منزويا ، غير ميال للنشاط ، او شخصا ناقما ثائرا يتجه فى كثير من الأحيان بنقمته وثورته ضد المجتمع وأنظمته وآدابه وتقاليده .

(ج) فقدان الحواس أو ضعفها :

ا ـ النظر : قد يسبب ضعف النظر لدى الطفل الشعور بالنقص نتيجة كثرة الأخطاء وعدم ميله للقراءة

والـكتابة .. ويسهل علاج هذه الحالة بعمل النظارات اللازمة ووضع الطفل فى مقدمة الفصل ، أما فى حالة فقد البصر كلية فيوضع الطفل فى المعهد الخاص بذلك حيث تستعمل حاسة اللمس فى القراءة والـكتابة بطريقة برايل .

٢ ــ السمع : تعتبر حاسة الســـــمع ــ من أهم الحواس للتفاهم مع الناس ، كما يجد صعوبة فى التعبير عما بنفسه وعما يريد . لذلك فالأطفال الصم والبـكم يكونون أكثر تعرضا للشعور بالنقص وفقد الثقة بالنفس عن الأطفال العميان .. واذا كان ضعف السمع بسيطا سبب ذلك عدم قدرة الطفل على التركيز وسبب اخطاء فى الفهم وارتباكا للطفل ويمكن مساعدة الطفل فى هذه الحالة باستعمال سماعة خاصة به .. اما الأطفال الصم والبكم فيتم توجيههم بالحاقهم بالمعهد الخاص بهم وهم يتعلمون فهم الـكلام عن طريق حركات الشفاة ويتعلمون التفاهم والتعبير عن طريق الاشـــارات أو تقليد حركات الشفاه مع وضع اليد على الحنجرة للتـأكد من صحة الأصوات .

(د) التأخر الدراسي :

يؤدى وضع الطفل فى فصل لا يتناسب مع ذكائه الى شعوره بالنقص واضطرابه نفسيا ، لعجزه عن متـابعة الدروس وتفوق زملائه عليه . كما أن وجوده فى سنة دراسية كل أطفالها أصغر منه فى السن ، قد يشعره بالبؤس فيفقد احترام نفسه وتقـــديره اياها . ومن الجائز أن يكون تأخر الطفـل دراسيا هو كثرة تنقلات الوالدين من جهة الى اخرى وبالتالى كثرة تنقل الطفل

من مدرسة الى أخرى ، وارتباكه فى تحصيله العقلى تبعا لذلك . فاذا حدث هذا التأخر ، وكان ذكاء الطفل يسمح له بالتقدم فيحسن مساعدته حتى يصل الى المستوى المناسب له ، ثم يترك بعد ذلك ليشق طريقه بنفسه .

ويحسن ان يقف الطفل على الأسباب التى أدت الى تأخره ، فكثيرا ما تغيب هذه الأسباب عن ذهن الطفل بل عن ذهن الوالدين . ووقوف الطفل والوالدين والمعلمين على عوامل تأخر الطفل يجعلهم أقدر على التحكم فيها . ومن الجائز أن يكون الطفل مصابا بقصور حقيقى فى استعداده الذهنى ، وفى هذه الحالة ينبغى وضعه فى فصل دراسى يتناسب مع مستواه العقلى ، كى نجنبه الشعور بالعجز وفقد الثقة بالنفس .

(٣) اثر الموازنات :

مما يزيد احساس الطفل بالنقص أن نحط من قيمته بالموازنة . فكثيرا ما يوازن الآباء بين طفل وطفل آخر بقصد دفع الطفل المتأخر الى العمل والنشاط ، وهذا النوع من الموازنات يأتى غالبا بأسوأ النتائج . لذلك ينبغى ان تكون القاعدة هى عدم الموازنة وأن يستبدل النقد والتوبيخ والزجر بتشجيع الطفل واشعاره بما فيه من النواحى الطيبة وابراز هذه النواحى بصورة راسخة محسوسة . كذلك ينبغى المساواة فى المعاملة بينه وبين اخوته قدر الامكان لاعادة الثقة فى البيئة المحيطة واعادة الثقة فى الذات .

(٤) عدم اعتماد الطفل على نفسه :

ولعل من أكبر أخطاء الوالدين أنهم لا يتركون الأطفال يفكرون لأنفسهم ، أو يعملون لأنفسهم . فبعض الآباء

يتدخلون فى تفكير الطفل وحديثه وعمله ولعبه بمناسبة وبغير مناسبة . وواجبنا أن نترك الطفل يعتمد على نفسه ويكسب كثيرا من خبراته بنفسه ، فنتركه يلعب، ويتسلق، ويجرى ، ويقفز ، ويبحث عن الأشياء ويجرب .. الى غير ذلك ... فالحماية الزائدة للطفل تحرمه من ممارسة النشاط الطبيعى الذى يستمد منه الثقة بالنفس ويتعلم منه خبرات كثيرة فى الحياة .. فبقاء الطفل معتمدا على غيره فى شئونه الخاصة ، المأكل والملبس وحرية الخروج وغير ذلك بالرغم من بلوغه سن مناسبة يفقده الثقة بالنفس (السن المناسبة للسماح للطفل بالاعتماد على النفس والاستقلال هو خلال المرحلة الابتدائية) .

(٥) السلطة الوالدية :

الشدة الزائدة والقسوة والعقاب لأتفه الأسباب واصرار الوالدين على الطاعة العمياء بدون مناقشة او تفاهم ، تفقد الطفل أهم سلاح يجب أن نسلحه به ، وهو الثقة بالنفس وخصوصا فى حالات العقاب بالضرب .

(٦) العلاقات بين الوالدين :

اذا كان الجو الأسرى مليئا بالمحبة والعطف والهدوء والثبات يكون الطفل فى الغالب مطمئنا على نفسه ، واثقا من نفسه ، يظهر دائما بمظهر الاستقرار والثبات ، بعكس الطفل الذى ينشأ فى أسرة تسودها الاضطرابات والخلافات والمنازعات بين أفرادها ، ففى هذه الحالة يشعر الطفل بعدم الأمان والاستقرار ، ويؤدى ذلك الى فقدانه الثقة بنفسه نتيجة لفقدانه اطمئنانه الى الجو المنزلى .

فليكن المنزل متصفا بالطمأنينة والثبات والاتزان ، كى يستطيع الطفل أن ينمو معتمدا على نفسه .

مظاهر الشعور بالنقص وضعف الثقة بالنفس :

أهم هذه المظاهر : الجبن والانكماش والتردد ، وتوقع الشر ، وعدم الاهتمام بالعمل والخوف منه ، واحيانا يكون من مظاهره التشدد والمبالغة فى الرغبة فى الاتقان للوصول الى درجة الكمال . وهذا الاندفاع للكمال يدل على ما تحته من خوف من نقد الآخرين . ومن مظاهره كذلك أحلام اليقظة ، وسوء السلوك ، والمبالغة فى التظاهر بطيب الخلق ، والحالات العصبية والمرضية كالتهتهة ، والتبول ، وبعض حالات الشلل الهستيرى ، وغير ذلك .. ومعنى هذا ان ضعف الثقة بالنفس ــ مع اختلاف العوامل التى تؤدى الى ظهوره ــ قد يؤدى الى أساليب انسحابية أو سلبية كالكسل أو الانزواء أو الجبن وما الى ذلك . وقد يؤدى الى أساليب تعويضية كالنقد والسخرية والتحكم والوقار المصطنع وما الى ذلك ، وقد تظهر هذه الأساليب السلوكية المتنوعة فى صور مرضية .

العلاج

ولعلاج شعور الطفل بالنقص وعدم الثقة بالنفس ، يتحتم دراسة العوامل التى تؤدى الى ظهور هذه الأعراض ثم تعديل سلوك الوالدين والمربين تعديلا يترتب عليه معاملة الطفل المعاملة المؤدية الى عودة الثقة الى نفسه واختفاء شعوره بالنقص .

واخيرا فان شعوره بتقدير الكبار من أفراد أسرته لما

يفعل ، ينبه فيه خير ما عنده ويبعث لديه الحماس للقيام بخير ما يستطيع . أما اذا لقى الاستهانة والتحقير أو الاشاحة وعدم الاكتراث فلن يثبت ذلك فى نفسه الا الشعور بالمرارة والعجز ، ذلك ان قدرات الطفل تتغذى وتنمو على التشجيع ولكنها تضمر وتموت بالتقريع والتثبيط والاهمال ، ولا يعنى هذا الا ينتقد الطفل أو يراجع اذا أخطأ ، والا يحفظ من التعرض لأخطار يؤذيه التعرض لها فعلا .. ولكن ما أبعد الفارق بين المراجعة فى رفق والوقاية فى هلع أو الاشاحة فى اهمال وازدراء أو اللوم فى تحقير وعنف .

ان الكبار الذين تعوزهم الثقة بالنفس كانوا أطفالا لم يحاطوا بالفهم والمساندة والتشجيع ولم تسعد قلوبهم بكلمة ثناء قط . وان قوة الخلق والشخصية والشجاعة والعزم والأمانة والاتزان والثقة بالنفس والرغبة فى أن يكون الانسان خيرا ، انما تنبت كلها من شعوره كطفل بدفء الجو الذى يعيش فيه ومن خبرته بأنه موضع الحب والثقة والاحترام . وأن جهوده تلقى من المساندة والتشجيع ثم من الثناء والتقدير ما تستحق .

وما أكثر ما يعرض للأسرة من فرص لتنمية هذه الفضائل فى صغارهم كل يوم .

القلق النفسى فى الطفولــــة

القلق النفسى هو حالة من التوتر المصحوب بالخوف وتوقع الخطر .

انواع القلق :

قلق طبيعي : اى الذى ينتج عن متـــــاعب خارجية واضحة ، ومقدار القلق هنا مناسب لمقدار المتاعب ويزول بزوال السبب .

عصاب القلق ، اى الذى يرجع إلى الصراع النفسى ولا يزول بزوال السبب ولــكن يحتاج الى العـــــلاج النفسى : كالخوف من الظلام أو العفاريت أو الخيالات .

القلق الثانوى : أى الذى يصاحب الأمراض النفسية الأخرى كالوسواس القهرى ، أو الذى يصاحب بعض الأمراض العقلية المبتدئة كالفصام ، وهذه الحـــالات تحتاج الى علاج المرض الأصلى ، وسبب القلق فيهـــا هو مقاومة بعض الأعراض كالوسواس .

القلق النفسى والطفل :

قد يبدو غريبا للـكثيرين من الناس ان يسمعوا أن الطفل الصغير يمكن أن يعانى من القلق . صحيح أن الطفل الصغير لا يستطيع أن يفهم ما يدور حوله عن طريق الادراك

الذهنى ، ولكن وسيلة الطفل الى المعرفة فى هذه الفترة المبكرة من الحياة هى الشعور . ولايضاح ذلك نقول ان الطفل يستطيع عن طريق شعوره أن يميز فى نغمة صوت أمه بين الرضى والهدوء أو الغضب والقلق والانزعاج ، ويستجيب لكل حالة من هذه الحالات بما يلائمها ، وذلك قبل أن يكون قد وصل الى المرحلة التى يستطيع ان يفهم فيها ما يسمع من كلام .

شعور الطفل اذن هو وسيلة فى اكتساب المعرفة والخبرة ، وهو أيضا وسيلته الى الطمأنينة او الى القلق، فلو أحس الطفل بالجوع وأعلن عن ذلك بالبكاء ثم لم يقدم له الطعام فانه يستمر فى بكائه فترة من الوقت . فاذا استطالت هذه الفترة فانه يبدأ يشعر بأنه مهمل وان لا أحد يهتم به او يعنى بأمره . وقد لا يكون هذا صحيحا دائما ، ولكن هذا شعوره على أى حال . وهو شعور يبعث فى نفسه الانزعاج والقلق ، لأن طمأنينته فى هذه الفترة المبكرة من الحياة تتوقف الى حد كبير على شعوره بأنه موضع القبول والاهتمام والحب ، وهذه حاجة اساسية لا يستطيع الطفل الاستغناء عنها ولابد أن تلقى الاشباع والا أحس بالضياع .

أسباب القلق النفسى :

بمضى الوقت تدخل فى حياة الطفل أمور كثيرة تثير فى نفسه القلق . وتستطيع الأم الفطنة أن تلمح تعبير القلق على وجه طفلها فتحاول أن تعرف السبب فيه فتتجنبه أو تعالجه وفيما يلى أكثر الأسباب شيوعا لقلق الطفل :

١ ــ **التهديد المستمر للطفل : وذلك عن طريق سماعه**

التهديد الذى يوجه اليه باسراف كلما اتى أمرا لا يرضى عنه الوالدان . ولا شك أن الهدف الرئيسى من عملية التنشئة للصغار هو أن يشبوا وقد تشبعوا بالقيم والمعايير التى يبيحها المجتمع الذى يعيشون فيه ، ولا شك أن تشبعهم هذا لا يتم بسرعة ، ولكنه عملية طويلة تستغرق السنوات الطوال وتتم على مراحل تكمل كل منها الأخرى . كما أنها عملية تقتضى من الوالدين الصبر الطويل والفهم العميق . ولكن من الملاحظ أن الكثيرين من الوالدين ، مع الأسف يظنون انهم يختصرون الطريق فى تنشئة أطفالهم ، بالتهديد عن طريق ترديدهم العبارات التى تحمل معنى التهديد والتى يرجو الكبار أن تؤدى الى النتيجة المرجوة منها ، عن طريق ما تثيره فى نفس الطفل من خوف . مثال ذلك : « اذا فعلت كذا فلن أحبك » أو « فسأرميك فى الشارع » أو « أسلمك للشرطة » . وما الى ذلك من العبارات .

وبديهى أن الكبار لا يقصدون فى واقع الأمر شيئا من هذا الذى يرددونه على مسامع الطفل ولكن الطفل لايعرف أنهم لا يقصدون ما يقولون ، انه يعتقد أنهم صادقون ، وأنهم يعنون كل كلمة يقولونها ، ومن ثم يستجيب لها على هذا الأساس ، فتكن النتيجة أن تمتلىء نفس الطفل بالخوف والانزعاج والقلق .

٢ ــ تكرار تعرض الطفل لمواقف الخوف والخطر والقسوة والعنف فيصبح القلق والخوف من مكونات الشخصية ، ويحدث ذلك عندما يكون أحد الأبوين قاسيا أو كارها للطفل ، يعاقبه ويهدده كثيرا بدرجة تجعل الطفل فى خوف دائم .

٣ ــ اذا كان أحد الأبوين مصابا بالقلق ينتقل هذا

القلق الى الأطفال نتيجة لتصرفات الأم أو الأب المضطربة.

٤ ـ اذا تعرض الطفل الى صعوبات متكررة فى الحياة أو فشل فشلا متكررا دون أن يجد من يساعده ويوجهه أو يشجعه ، كل هذا يؤدى الى الشعور بالقلق باستمرار حتى تزول الأسباب .

٥ ـ يحدث القلق فى مواقف الصراع ، ويكون الخوف فى هذه الحالة مصدر دوافع نفسية غير مرغوب فيها .

مظاهر القلق النفسى للطفل :

ان الكبار اذا اجتاحهم القلق والانزعاج استطاعوا أن يعبروا عنه فى كثير من الأحيان بطريق مباشر ، وان كان هذا الطريق المباشر يتعذر عليهم أحيانا. فيأخذ تعبيرهم عنه صورة غير مباشرة يفهم مدلولها بعد الفحص المتأنى . اما الأطفال فان تعبيرهم عن القلق والانزعاج يكون دائما غير مباشر :

١ ـ من أكثر الوسائل شيوعا فى تعبير الطفل عن القلق سهولة البكاء وكثرته ، فالطفل الهادىء الآمن ليس من السهل أن يبكى ولكن الطفل القلق يبكى لأقل شىء واذا بدأ البكاء فانه يستمر فيه فترة أطول مما ينتظر .

٢ ـ كثرة الحركة وعدم الاستقرار : ان الطفل القلق قلما يستقر فى مكان ، انه دائم الحركة دون أن يكون لهذه الحركة هدف واضح كما هو الحال فى نشاط الطفولة عادة .

٣ ـ اضطراب النوم : الطفل القلق ينام نوعا عميقا كعادة الأطفال ولكنه كثير الحركة ،

في نفسه من أسباب الخوف التى تحاول أن تجد لهـا مخرجا حتى أثناء النوم .

٤ ــ تناول الطعام : تقل شهية الطفل للطعام ، فلا يقبل على طعامه بانشراح ، كما يضطرب هضمه ونظامه في عملية التفريغ فيصاب بالامساك أو الاسهال ، وان كان الامساك هو الحالة الغالبة ، وقد يصاب أيضا بقيء لا يرجع الى سبب عضوى ويكون سببه حالة الطفل النفسية التى يغلب عليها القلق .

٥ ــ سلوك الطفل : يدفع القلق الطفل الى هدوء غير طبيعى ، فينصرف عن اللعب ويميل الى الانزواء ويبدو وكأنه مهموم وغير مستمتع بالحياة . أو قد يدفعه القلق بأن يكون كثير الحركة ، غير مستقر ، كثير الأخطاء فى تصرفاته مما يعرضه للعقاب فيزداد قلقه وتزداد حالته غير المستقرة بالتالى .

وكذلك يظهر القلق النفسى فى الأيدى المرتعشة الباردة المبتلة بالعرق وفى استمرار عادة مص الأصابع وقرض الأظافر أو يهز جسمه أو ظهور حركات عصبية لا ارادية بالوجه .

العــلاج

أيما كانت الصورة التى يبدو فيها الطفل فانهــا تعبير عن حاجته الى الحب والحنان ، وأية محاولة لعــلاج الصورة الظاهرية للقلق بعيدا عن مدلولهـــا الحقيقى فان مآلها الى الفشل . والعلاج المجدى الوحيد هو اعطاء الطفل الحب بأمانة وسخاء واشعاره بأنه موضع التقدير والقبول واتاحة الفرصة له لـكى يكون آمنا سعيدا .

الكذب عند الأطفال

الكذب هو أن يقول الطفل كلاما غير صحيح ، مع معرفته التامة بذلك ، بغرض المنفعة الخاصة أو تجنب العقاب . والطفل قبل الرابعة قد يقول كلاما غير صحيح ولكنه لا يعتبر كذبا وذلك للأسباب الآتية :

١ ـ عجز اللغة وعدم القدرة على التعبير : فقد يعبر الطفل عن أى رجل يراه بكلمة بابا ، فحين يعبر انه رأى والده ، فهذا ليس كذبا ولكنه عجز عن التعبير وعدم فهم من الكبار لما يقصده الطفل .

٢ ـ عدم القدرة على التمييز بين الخيال والواقع : ويحدث ذلك أثناء اللعب الايهامى اذ يتخيل الطفل اشياء كثيرة ثم يقولها كأنها حقيقة أو واقع فيقول أنه رأى فيلا ولكن عند سؤاله بهدوء وبدون قلق يمكننا أن نجعله يفرق بين الفيل الحقيقى والفيل الخيالى .

٣ ـ التفسير الخاطىء للأمور : وذلك عندما يرى الطفل شيئا أو حادثا ويفسره بشكل خاطىء كأن يرى مناقشة بين شخصين فيقول انهما يتشاجران ، وهذه ليست اكاذيب لأنه لا يعلم انه يكذب كما انه لا يقصد من وراء كذبه منفعة .

اسباب الكذب عند الأطفال :

١ ـ البيئة : يتعلم الطفل قول الصدق من البيئة اذا كان الكبار المحيطون به يراعون الصدق فى أقوالهم وأعمالهم ووعودهم .. ولكن اذا نشأ الطفل فى بيئة تتصف بالخداع وعدم الصدق والتشكك فى صدق الآخرين ، فأغلب الظن أنه سيتعلم نفس الاتجاهات السلوكية والأساليب فى مواجهة مواقف الحياة وتحقيق اهدافه .

٢ ـ الاستعداد للكذب : هناك استعدادان يهيئان الطفل للكذب : أولهما قدرة اللسان ولباقته ، وثانيهما خصوبة الخيال ونشاطه . هذان الاستعدادان ينشطان اذا نشأ الطفل فى وسط لا يساعد على تكوين اتجاه الصدق ، فمع تقليده لمن حوله ممن لا يقولون الصدق ويلجأون الى الطرق الملتوية وانتحال المعاذير الواهية والكذب ، مما يدربه منذ طفولته على الكذب .

٣ ـ سوء سلوك الوالدين : يلجأ بعض الآباء الى الزج بأبنائهم فى مواقف يضطرون فيها الى الكذب ، وهذا أمر لا يتفق مع أصول التربية السليمة .. كأن يطلب من الابن أن يرد كذبا على السائل عن أبيه تليفونيا بأنه غير موجود . ان الطفل فى هذا الموقف يشعر بأنه أرغم فعلا على الكذب ، وأن الكذب مقبول والا لما لجأ اليه مثله الأعلى : الوالد أو الوالدة ، كما أنه يشعر بالظلم عند عقابه عندما يكذب هو فى أمر من أموره ، كما يشعر بقسوة الكبار الذين يستحلون لأنفسهم سلوكا لا يسمحون له به .

٤ ـ المبالغة فى تنشئة الطفل : يلجأ بعض الآباء الى التضييق على الطفل فى كل صغيرة وكبيرة وفى كل عبارة

يقولها ويصرون على ان تكون صادقة ، وفقا لما ينشدون فيه من صدق . هذا الأسلوب الصارم لا يغرس فى الطفل صفة الصدق بل بالعكس قد يدفع الطفل الى الكذب كمحاولة للمظهر الذى يطلبه الوالدان ، كما أنه لا يجدى كوسيلة لاقلاع الطفل عن الكذب .

مما سبق نرى ان الكذب صفة أو سلوك مكتسب ، نتعلمه كما نتعلم الصدق وليس صفة نظرية أو سلوكا موروثا . والكذب عادة عرض ظاهرى له دوافع وقوى نفسية تجيش فى نفس الفرد سواء أكان طفلا أم بالغا . وقد يظهر الكذب بجانب الأعراض الأخرى كالسرقة أو شدة الحساسية أو الخوف ، الى غير ذلك من الأعراض .

أنواع الكذب عند الاطفال :

١ ـ الكذب الخيالى : كل الأطفال يمرون بفترة فى صغرهم لا يفرقون فيها بين الحقيقة والخيال .. وهو أقرب ما يكون الى اللعب . كما أنه أحيانا يكون تعبيرا عن أحلام الطفل .. أحلام اليقظة التى تظهر فيها آمال ورغبات الطفل ، تلك الآمال والرغبات التى لا يمكنه أن يفصح عنها بأسلوب واقعى .. وواجب الآباء تهيئة الفرصة للأطفال ليعبروا عن انفسهم فى هذا الأسلوب الخيالى ، وفى نفس الوقت يجب عليهم أن يبصروهم ويساعدوهم على التفرقة بين الواقع والخيال .

٢ ـ الكذب الادعائى : يلجأ بعض الأطفال الذين يعانون من الشعور بالنقص الى تغطية هذا الشعور بالمبالغة فيما يملكون أو فى صفاتهم أو صفات ذويهم بهدف الشعور بالمركز فى وسط أقرانهم وبهدف النزوع

للسيطرة عليهم ومن أمثلة ذلك الادعاء أن والده يشغل مركزا مرموقا أو أنه يعمل فى مهنة بعيدة كل البعد عن حقيقة مهنته وذلك لمجرد التظاهر وتعظيم الذات .. أو أن يخترع مغامرات تبدو فيها شجاعته ، ليشعر بأهميته عند أصدقائه ، ويحدث هذا النوع من الكذب لجذب الانتباه وخصوصا اذا فقد الطفل الاعجاب والاهتمام الكافى .

ويلجأ الأطفال للكذب لاستدرار العطف .. عن طريق تمارض الطفل وادعائه كذبا بأنه مريض .. أو بمحاولة ايهام الغير بأنه مغمى عليه .. ويحدث ذلك للأطفال الذين لم ينالوا درجة معقولة من العطف من الوالدين فى طفولتهم .. وأيضا للمدللين فى الصغر ممن تغيرت معاملة الوالدين لهم على أساس أنهم لم يعودوا بعد اطفالا صغارا .. بل جاوزوا سن الخامسة مثلا .

كما يلجأ الأطفال الى الكذب الادعائى .. فيتهمون الغير بتعذيبهم أو ضربهم أو اضطهادهم .. كأن يدعى تلميذ أن المدرس أو المدرسة دائمة الاضطهاد له .. وهو بذلك يحاول أن يستدر عطف الوالدين .. ويجد لنفسه سببا ليبرر عدم نجاحه فى دروسه .

هذا النوع من الكذب يجب الاسراع فى علاجه بتفهم الحاجات النفسية التى يخدمها الكذب ومحاولة اشباعها بالطرق الواقعية المعقولة ، والا نشأ الطفل على المبالغة فى كل شىء واختلاق الأقاويل مما يؤثر على مكانته الاجتماعية فى الكبر .

٣ ــ الكذب الفرضى : قد يكذب الطفل بفرض تحقيق غرض شخصى ، ومن الأمثلة الشائعة لهذا النوع أن يطلب الطفل من أبيه بعض النقود مدعيا أن والديه

أرسلته لاحضارها منه لقضـــــاء بعض حوائج المنزل ، والواقع أن الطفل يريدها لنفسه لشراء بعض الحلوى .

٤ ـ الكذب الاستحواذى : فى هذا النوع نجد الطفل يستحوذ على الأشـــياء .. كالنقود .. أو الحلوى أو اللعب .. فاذا ما سألته : هل معه نقود ؟ أجاب : لا ، فى حين أن معه ما يكفيه ويزيد .. أو قد يدعى ضياع لعبة ليشترى له والده غيرها .. بهدف الاستحواذ على أكبر قدر ممكن من اللعب .

ان الطفل الذى يعامل بقسوة من والديه ومن يفقد الثقة فيهم ، أو الذى يتصف والداه بالمبالغة فى رقابته دائما فى سبيل تحقيق رغباته يشعر بالحاجة الى امتلاك أكبر قدر ممكن من الأشياء وهو يكذب فى سبيل تحقيق ذلك .

٥ ـ الكذب الانتقامى : يكذب الطفل لاسقاط اللوم على شخص ما يكرهه أو يغار منه ، ويحدث ذلك عادة بسبب التفرقة فى المعاملة بين الاخوة ، فالطفل الذى يشعر بأن له أخا منفصلا عنه ، يلجأ الى الكذب فيتهمه باتهامات يترتب عليها عقابه أو سوء سمعته .

ويحدث الكذب الانتقامى بشكل واضح فى مجتمعنا بين الفتيات ، فتكذب احداهن متهمة أختا لها تغار منها ، بأنها على علاقة بفتى الجيران . أو قد تلجأ فتاة الى اتهام فتى بمحاولة التقرب منها ، وذلك لما فى التقاليد الشرقية من حساسية نحو علاقة الفتى بالفتاة ، وقد يكون السبب الدافع للانتقام هو العكس تماما . اى لعدم قيام الفتى بالاهتمام بها واظهار اعجابه بها أو لانه يظهر اعجابه بزميلة تغار هى منها .

لذلك فانه يجب على الآباء ورجال التربية أن يقابلوا مثل هذه الاتهامات بالحذر الشديد ، لأن أغلبها له دوافع نفسية انتقامية .

٦ ــ الكذب الدفاعي : هو أكثر أنواع الكذب شيوعا ويلجأ اليه الأطفال جميعا خوفا مما قد يقع عليهم من عقوبة .. ويزداد الكذب كلما كانت معاملة الطفل على أخطائه معاملة قاسية .. لذلك فان الآباء الذين يلجأون الى ضرب أطفالهم وعقابهم بهدف أن يقولوا الصدق ، انما يدفعون أبناءهم الى الكذب ، كما يلجأ الطفل الى الكذب اذا شعر بأن قول الصدق سيكون سببا فى ضياع شيء أو ميزة منه .

٧ ــ الكذب الوقائى : ويطلق عليه أيضا كذب الاخلاص ، وفي هذه الحالة يكذب الطفل عادة على اصحاب السلطة عليه كالآباء والمدرسين ، ليحمى أخاه او زميله من عقوبة قد توقع عليه ، ويلاحظ هذا فى مدارس البنين أكثر منه فى مدارس البنات ، وفى المدارس الثانوية أكثر منه فى المدارس الابتدائية . وذلك لأن الكذب الوقائى مظهر من مظاهر الولاء للجماعة ، والولاء للجماعة يقوى فى دور المراهقة ويكون عادة فى البنين أكثر تبكيرا منه عند البنات .

٨ ــ كذب التقليد : وكثيرا ما يكذب الطفل تقليدا لوالديه ، ولمن حوله ، اذ يلاحظ فى حالات كثيرة أن الوالدين نفسيهما يكذب الواحد منهما على الآخر ، فتتكون فى الاولاد طبيعة الكذب .

٩ ــ الكذب العنادى : وفيه يكذب الطفل لمجردالسرور الناشيء من تحدى السلطة ، خصوصا اذا كانت شديدة الرقابة والضغط ، قليلة الحنان .

١٠ ـ الكذب المزمن أو المرضى : هو حالة مرضية قد يجد الطفل نفسه مدفوعا حيالها الكذب لا شعوريا .. فيكذب فى أغلب المواقف ويعرف عنه أنه كاذب دائما .. ويكون الطفل عادة غير ناجح فى حياته المدرسية ، ويعانى شعورا شديدا بالنقص .. ومن شدة الشعور بالنقص مع العجز فى النجاح يلجأ الى الكذب ليحقق رغبته الشديدة فى النجاح أو فى تحقيق أهدافه كطفل .

علاج الكذب عند الاطفال

١ ـ يجب أن ندرك ان الكذب عرض قد يكون مصحوبا بأمراض أخرى كالسرقة أو شدة الحساسية أو العصبية الزائدة ونوبات الغضب ، لذلك فان علاج هذه الحالة يجب أن يبحث عن الدوافع والحاجات النفسية التى تسببت فى ظهور هذا العرض أو هذه الأعراض .

٢ ـ يجب ان نتبين هل الكذب عارض أم انه متكرر مزمن ؟ وما الدافع فى كل ما سبق أن أسلفنا ؟ .

٣ ـ ينبغى الاقلاع نهائيا عن علاج الكذب بالعقاب والتهديد والتشهير والسخرية . ان العقاب والتهديد لن يردعا الطفل عن الكذب بل سيتسببان فى أعراض أخرى ، كما ان التشهير والسخرية لهما أثر ضار للغاية على شخصية الطفل .

٤ ـ ان العلاج يجب أن يبدأ بالبيئة التى يعيش فيها الطفل ، من حيث أسلوب المعاملة والحياة الاجتماعية للطفل . يجب أن تساعد الطفل على الحصول على استجابات طيبة مع الأصدقاء والراشدين .. وبمعنى آخر

يجب ان نشبع فى الطفل الحاجات النفسية الضرورية وهى الشعور بأنه محبوب والشعور بالثقة فى النفس .

٥ ـ يجب ان نتيح للطفل فرصا للمغــــامرة المعقولة والاستمتاع بحياة مشوقة .

٦ ـ يجب أن يدرك كل من فى البيئة، لا سيما الوالدان، ان الطفل يتقمص سلوك من حوله ، ومن ثم يجب أن نكون قدوة للأطفال .

٧ ـ يجب أن يشعر الطفل بأنه يعيش فى بيئة مرنة متسامحة .

واخيرا ، ينبغى اشباع حاجات الطفــل النفسية وأن ندرك متى يمكنه ان يفرق بين الواقع والخيال ، فنبصره بأهمية الأمانة والصدق فيما يقوله ويفعله ونشجعه على ذلك ، مع عدم المبالغة والقلق على تنشئة الطفــل على الصدق ، فان الطفل اذا نشأ فى بيئة شعارها الصدق قولا وفعلا فانه ينشأ صادقا وأمينا ، ولا يعانى الشعور بالنقص ، ومن ثم لا يلجأ الى التعــويض أو المراوغة أو الانتقام أو العناد عن طريق الكذب .

السـرقـة عند الأطفال

الطفل يشعر بالحاجة الى الملكية شعورا تلقائيا فى سن مبكرة جدا ، وقد يظهر هـــذا الشعور فى الفترة الأخيرة من السنة الأولى . ان تشجيع الآباء لشعور الطفل بالملكية من غير مبالغة يســـاعد على غرس الاتجاهات الايجابية نحو احترام ملكية الغير ، وينمى فى نفوسهم قيما واتجاهات سلوكية نحو الأمانة ذلك أن الطفل الذى لم يدرب منذ طفولته فى محيط الأسرة ليفرق بين حاجياته وحاجيات غيره ، قد يصعب عليه فى الكبر خصوصا فى سن الطفولة المتقدمة أو المراهقة ، أن يميز بين ما يحق له وما لا يحق له بل يصبح أكثر ميلا الى الاعتداء على حقوق وملكية غيره من أقرانه فيسرق ممتلكات غيره .

أنواع السرقة

١ – سرقة ذكية أو غبية :

السرقة الذكية تكون بأن يستولى الشخص على ما يريده بطريقة يصعب اكتشافها .

السرقة الغبية ليس فيها الحـــرص الكافى ويكتشف السارق بسهولة .

٢ ـ سرقة عارضة أو سرقة معتادة :

السرقة العارضة : فيهـــــا يخضع الشخص للاغراء او التحريض مرة أو مرات قليلة ثم يرجع عنها .

السرقة المعتادة : تكون عادة مدبرة ومتكررة ولا يمكن الشخص الرجوع عنها .

٣ ـ السرقة للحاجة والسرقة للمباهاة :

السرقة للحاجة : وهى لأشياء يحتاجها الطفل ومحروم منها .

السرقة للمباهاة : يسرق الطفل لمجرد المباهاة والتفاخر أمام أصدقائه .

٤ ـ سرقة فردية وسرقة جماعية :

السرقة الفردية : أن يقوم الطفل بمفرده بالسرقة دون شريك معه .

السرقة الجماعية : يحدد فيها دور الطفـــل فى هذه العملية ، هل هو واضع الخطة أو زعيم عصابة أو هو أحد التــابعين أو أن دوره الحــراسة فقط لملاحظـــة رجال الشرطة .

دوافع السرقة عند الأطفال

(١) حب التملك مع عدم القـــدرة على ضبط النفس ويظهر ذلك فى حالتين :

أ ـ حالة الحماية الزائدة واللين الزائد :

اذ أن الطفل فى هذه الحالة لم تتح له الفرصة لتعلم الأصول للتحكم فى رغباته ، فهو لا يعرف ما يجب أخذه

وما لا يجب اخذه فالام التى تحب طفلها اكثر من اللازم لا تظهر أى استياء أو ضيق اذا استولى طفلها على شيء لا يخصه : فيكبر الطفل وليس لديه التمييز الكافى ، وما دام يمكنه الحصول على كل شيء بريده فى محيط الأسرة فانه يستغل ذلك فى المدرسة أيضا أو أى مكان آخر .

ب ـ فى حالة الحرمان الزائد :

وخاصة فى البيئات الفقيرة حيث يحرم الأطفال من الألعاب والأدوات اللازمة ويصبح من الصعب على الطفل أن يقاوم الاغراء لاشباع رغبته فى الحصول على هذه الأشياء ، كما أن الطفل الجائع لا يستطيع مقاومة الاغراء للطعام .

(٢) البيئة المنزلية السيئة :

قد يكون الوالد منحرف السلوك أو مدمنا للخمر ، او محترفا فن السرقة وقد تشجع الأم طفلها على أخذ أشياء من الناس سواء بالتسول أو السرقة . أو قد يكون الوالدان أنفسهما فى حالة فقر شديد أو تأخر عقلى ولا يمكنهما توفير مطالب الطفل الأولية كالطعام ، وفى هذه الحالة يلجأ الطفل الى السرقة للحصول عليه .

(٣) الرغبة فى الظهور الاجتماعى :

أ ـ يريد الطفل أن يظهر فى المدرسة بمظهر مناسب لزملائه ولا يريد أن يقل عنهم ، ويريد أن يشترك فى الرحلات والمشروعات ، فاذا رفض الأبوان اعطاء الطفل المبالغ اللازمة ، فقد يلجأ الطفل الى الحصول عليها من الأبوين بطريق السرقة .

ب ـ الطفل الذى يشعر أنه غير محبوب فى المدرسة ، يلجأ الى السرقة لشراء الهـدايا والأشياء المختلفة لزملائه لعله يحصل على صداقتهم وحبهم ، وقد يستعين بالنقود لشراء أشياء يقدرها ويحبها أصدقاؤه وهو نفسه لا يحتاج اليها .

حـ ـ أو قد يريد الطفل أن يثبت لأصدقائه وزملائه بطولاته ومغامراته فى السرقة فيسرق مثلا ليؤكد ما قاله قبل ذلك لهم .

(٤) الانتقام من الوالدين وبديل الوالد :

كثير من حالات السرقة من الوالد أو المربى (مصدر السلطة أيا كان) ارتكبت عقب شعور الطفل بمرارة لعقابه الشديد على ذنب تافه ورغبة فى الانتقام من السلطة الظالمة فيسرق الطفل أشياء ويعلم أن الأب يقـــدرها كثيرا ، وقد يتصرف فيها أو يتلفها بالرغم من أنهـــا لا أهمية لها عند الطفل . وكذلك الغيرة والمرارة والرغبة فى الانتقام تدفعه الى السرقة من الأبوين والأخوة فهو يسرق ما يعتبره حقا له .

(٥) الشعور بالحرمان من الحب :

يخلق هذا الشعور رغبة قوية فى الحصول على الحب أو ما يرمز له ، فالطفل يربط فى ذهنه بين اعطاء الهدايا والطعام وبين اعطاء الحب ، فاذا حرم من الحب حاول أن يسرق الطعام او أشياء أخرى ، خصوصا من الشخص الذى يريد منه الحب بالذات ، كرمز يعبر به عن رغبته الداخلية ، وقد ينتقل ذلك الى سرقة الأشياء التى ترتبط فى ذهنه بمعنى الحب من أى شخص أو سرقة أى شىء من الأشخاص البديلين للأم والأب .

(٦) حب المخاطرة أو المغامرة :

قد يتأثر الأطفال تأثيرا كبيرا بقصص المغامرات وأفلام السينما عن العصابات والسرقات ، وتنشأ بينهم قيم تختلف عن قيم المجتمع فيعتبرون السارق شجاعا وعظيما ، كما يعتبرون الشخص الأمين جبانا أو خائفا فيتفنن هؤلاء الأشخاص فى تجنب القبض عليهم والهرب من العدالة ويجدون فى ذلك الاحساس بلذة الانتصار .

٧ ــ بعض الأعراض النفسية : يصاحبها ، كعرض من أعراضها ، السرقة ، وذلك مثل ما يحدث فى :

أ ــ مرض الهستريا : حيث يصاب الشخص الهستيرى بنوبات خارجة عن ارادته فيقوم بسرقة أشياء، وقد لا يتذكر الشخص كيف تمت هذه السرقة وقد يندم عليها . وقد لوحظ ان مثل هذه الحالات تزيد فى حالة الفتيات المراهقات : فيصبن بنوبات تجوال فى المحلات وأخذ بضائع نسائية فى غفلة من أصحابها . ويمكن علاج هذه الحالات نفسيا ولا تعود الحالة لهذا العمل فى أغلب الأحيان ، وقد لوحظ أيضا أن هذه النوبات تكون عادة فى فترة العادة الشهرية أو قبلها بقليل .

ب ــ الصرع : الشخص الصرعى يكون عادة مندفعا وقدرته على ضبط النفس محدودة فقد يسرق فى نوبة من نوبات الاندفاع أو فى نوبة نفسية حركية كجزء من الحركات الأتوماتيكية ، وكذلك فى الحالات التى يتجول الأطفال بلا هدف لمدة أيام طويلة . وقد يدفعه الجوع الى سرقة الطعام ، وقد يدفعه البرد فيسرق الملابس وتكون السرقة فى هذه الحالات سهلة الاكتشاف كما يظهر على الطفل علامات غيبوبة ونسيان . وقد تحدث أيضا كجزء من العمليات اللاشعورية التى تحدث بعد نوبة الصرع الكبرى .

حـ ـ الضعف العقلى : وخصوصا الناتج عن الحمى المخية الشوكية وقد يسرق الطفل بتحريض من الـكبار المجرمين ويمنعه التمييز بين الخطأ والصواب عن معارضة هؤلاء المجرمين ، وقد يؤدى الانحراف السلوكى الناتج عن الحمى الشوكية الى السرقة .

دراسة حالات السرقة :

عند دراسة حالة من حالات السرقة يجب :

١ ـ التأكد من سـبب السرقة ، هل هى عارضة أم متكررة ؟ .

٢ ـ التأكد من درجة ذكاء الطفـل وهل هو ضـعيف العقل وواقع تحت تأثير وتوجيه ولد آخر .. أم انه ذكى ويسرق تلقائيا أو تحت تأثير زعيم له فى هذا المجال ؟.

٣ ـ هل الطفل يقلد آخرين فى هذا السلوك ؟ .

٤ ـ هل السرقة تؤدى وظيفة نفسية فى حياة الطفل وتسد بعض الحـاجات البيولوجية أو النفسية كاثبـات الذات أو الشعور بالتقدير ، أم للانتقام من الغير ، أو بسبب الغيرة أو غير ذلك من الدوافع النفسية . وبمعنى آخر يجب أن نصل الى معرفة الوظيفة التى تؤديهـا السرقة .

واجب الآباء لمنع السرقة

١ ـ يجب أن يعيش الأبنـاء فى وسط عائلى يتمتع بالدفء العاطفى المتبادل بين الأباء والأبناء .

٢ ـ توفير الضروريات اللازمة للطفل من مأكل وملبس وخلافه .

٣ ـ مساعدة الطفل على الشعور بالانتماء والاندماج في جماعات سوية فى المدرسة والنادى والمنزل .

٤ ـ مساعدة الأطفال على التخلص من الطاقة الزائدة والانفعال عن طريق المشاركة فى أنشطة جماعية واللعب والهوايات كالموسيقى والأشغال الفنية .

ه ـ ينبغى تنمية سلوك الأمانة بالطرق الآتية :

١ ـ خلق الشعور بالملكية عند الطفل منذ سنيه الأولى بأن يخصص للطفل دولاب خاص أو مكان خاص .. وأشياء يمتلكها .

٢ ـ اعطاء الطفل مصروف منظم يتناسب مع سنه ووسطه الاجتماعى .

٣ ـ المرونة والتسامح فى حالات السرقة الفردية العابرة التى تحدث فى حالات الصغار .

٤ ـ عدم الالحاح على الطفل بالاعتراف ، لأن ذلك يدفعه الى الكذب وقد يجد أنه نجح فى الكذب .. فيتمادى فى سلوك السرقة .

٦ ـ يجب ان نشبع الأطفال بالحب والصداقة مع الحزم والمعاملة والقدوة الحسنة ، لأن الطفل لا يسرق من يحبهم أو يشعر بصداقتهم .

وأخيرا اذا شئنا ان ينشأ أبناؤنا على الثقة والاطمئنان ، وأن يتجهوا الى العمل البناء فى تعاون وإيثار ، وأن يجدوا السعادة فى البذل والعطاء فلنعلمهم الحب أولا : الحب الواعى المستنير ، الضوء الذى يهدى ، لا النار التى تحرق ، حب الايثار لا الاثرة ، حب العطاء لا الأخذ ، حب التضحية والبذل ، حتى نمهد لهم السبل ليكونوا الأطفال الذين نسعد بهم ويفخر الوطن بأعمالهم ، وبذلك نبعدهم عن طريق الانحراف ، لاحساسهم بالاطمئنان والسعادة وعدم الحرمان .

الغيرة عند الأطفال

الغيرة احدى المشاعر الطبيعية الموجودة عند الانسان كالحب والألم ، ويجب أن تقبلها الأسرة كحقيقة واقعة ولا تسمح فى نفس الوقت بنموها ، فالقليل من الغيرة يفيد الطفل ، فهى حافز يحثه على التفوق ، ولكن الكثير منها يفسد الحياة ويصيب الشخصية بضرر بالغ . وما السلوك العدوانى والأنانية ، والارتباك والانزواء الا آثار الغيرة على سلوك بعض الأطفال . ولا يخلو طفل من اظهار الغيرة بين الحين والحين ، وهذا لا يسبب اشكالا اذا فهمنا الموقف وعالجناه علاجا حكيما ، غير أن الغيرة قد تصبح عادة من عادات السلوك تظهر عند أول مثير ، وهنا تصبح مشكلة .

أسباب الغيرة غير الطبيعية :

لتلك الغيرة أسباب متعددة أهمها :

١ ــ ضعف الثقة بالنفس : ترجع الغيرة فى معظم الأحوال الى ضعف الثقة بين الطفل وبين من حوله فتكون عاملا مساعدا على ظهور الغيرة فى الوقت المناسب .

وأقسى أنواع الغيرة كذلك هو ما ينشأ عن شعور بالنقص مصحوب بشعور عدم امكان التغلب عليه ، كنقص

فى الجمال ، أو نقص فى القدرة الجسمية أو الحسية أو العقلية ، لهذا نجد أن المعرضين للغيرة معرضون للشعور بالنقص ، كما ان المعرضين للشعور بالنقص معرضون أيضا للشعور الشديد بالغيرة ، وتكون كل من الغيرة والشعور بالنقص ، حلقة متصلة الأجزاء يؤثر كل جزء منها فى الآخر .

٢ — ولادة طفل جديد : يلاحظ أن الطفل فى أول حياته تجاب له عادة كل طلباته ويسترعى فى العادة انتباه الجميع ، ويشعر بأن كل شىء له وكل مهم له وكل امتياز له . ولكن الذى يحدث هو أن العناية التى كانت تغدق عليه من الكبار قد تتوقف عنه فجأة أو بالتدريج كلما نما . وقد تتجه الى المولود الجديد أو الى أى شخص آخر فى الأسرة . هذا التغيير قد يترتب عليه فقد الطفل ثقته ببيئته ولا سيما أمه . وفقد الثقة فى نفسه تبعا لذلك . اذ يشعر بأنه غير مرغوب فيه وبذلك يبدأ شعوره بالقلق وشعوره بالكراهية لبيئته والميل الى الانتقام منها أو الابتعاد عنها أو شعوره بالنزوع الى سلوك يترتب عليه جلب العناية اليه مرة أخرى كالبكاء أو التبول اللاارادى أو المرض ، وكلما كثرت الامتيازات التى تعطى للطفل ، زادت الغيرة عند انقاصها منه باعطائها لطفل آخر . ولذلك كان الطفل الذى يتمتع بامتياز معين هو أكثر الناس استعدادا للغيرة . وذلك كالطفل الأول أو الأخير او الوحيد او الذكر الأول أو من يشبه ذلك من الأطفال الذين يمثلون مركزا يعطيهم فرص التمتع بامتياز واضح .

٣ — توجيه العناية الفائقة الى والد الطفل : يؤدى ذلك أحيانا الى شعور الطفل بالغيرة ، وذلك لأن الطفل

فى سنواته الأولى كان يتمتع كما يبدو له بعنـــاية أمه كلها ، ثم يلحظ أن الوالد يأخذ كثيرا من هذه العناية ، فتبدو عليه علامات الغيرة واضحة أو غير واضـحة ـ ويحدث أحيانا أن يتغيب الوالد عن المنزل مدة طويلة وبمجرد عودته تنصرف الأم انصرافا كليا فيغار الطفل ـ والغيرة من الأب سببها أن الطفـــل ينازع والده المركز الذى يرغب فيه لنفسه عند الأم .

٤ ـ الموازنة الصريحة بين الأطفال وبعضهم سواء فى المنزل أو فى المدرسة وتفضيل واحد عن الآخر ، يؤدى الى شعور الطفل بالنقص واضعاف الثقة بالنفس لدرجة تجعله عرضة لهذا الشعور . وتقوم الموازنات عادة حول جمال الخلقة أو القدرة العقلية أو القدرة الاجتماعية ، أو ما الى ذلك مما قد لا يجد الطفل لنفسه حيلة فى التغلب عليها .

٥ ـ اختلاف معاملة بعض الأسر الابن اختلافا تاما عن معاملة البنت يخلق الغرور فى الأبناء ، ويثير حفيظة البنات ، وينمى عندهن غيرة تكبت وتظهر أعراضها فى صور أخرى فى مستقبل حياتهن ككراهية الرجال عامة وعدم الثقة بهم وغير ذلك من المظاهر .

٦ ـ اغداق امتيازات كثيرة على الطفل العليل : كامداده باللعب واعطائه النقود والشيكولاتة وغير ذلك مما لا علاقة له بعلاج المرض نفسه ، وهذا يثير الغـــيرة فى الاخوة الأصحاء ، وتبدو مظاهرها فى تمنى المرض ، وكراهية الطفل المريض ، الى غير ذلك من مظاهر الغيرة الظاهرة او المستترة .

ما هى مظاهر الغيرة غير الطبيعية ؟

١ ـ مظاهر انفعالية : ان الغيرة شعور مؤلم يجعل صاحبه قلقا ، نافما لا يستريح لنجاح غيره وتجده فوق ذلك قليل التعامل مع الناس ، لا يسهل انسجامه معهم ولا يميل الى التعاون أو الاخذ والعطاء ، أنانيا ، يهتم بحقوقه اكثر مما يلتفت لواجباته . يميل أحيانا الى الانزواء والى نوع من الهجوم والتشاجر ، أو الايقاع بغيره . ويشعر عادة فوق ذلك بأنه مظلوم سيء الحظ ، وأن الناس يعملون عادة ضده ، مما يجعله قلقا ، مبالغا فى الحذر من الناس والبعد عنهم . ويلاحظ أن الأساس فى الغيرة فى أغلب الأحيان هو القلق والخوف ، وضعف الثقة بالنفس .

٢ ـ مظاهر سلوكية : تتفاوت من الضعف الواضح الى مظاهر مقنعة ، وقد تبدو هذه المظاهر من الطفل عندما يرى نفسه بعيـــدا عن والديه ، فيتسبب غضبه عليهما بشكل أو بآخر . وربما صب غضبه وغيرته أثناء لعبه مع عروسة يسميها باسم اخيه الأصغر الذى يثير غيرته . واذا لم يستطع الطفل التعبير عن نفسه بهذه الطريقة ربما اتجه الى الكذب أو الكلام بدون سبب أو تجاهل الآخرين وبخاصة الأفراد الذين يثيرون غيرته . وربما ظهرت الغيرة فى شكل اضطراب فى النوم أو اضطراب فى السلوك . وربما اخذ الطفل يتكلم بصوت عال ليجذب اهتمام الناس اليه ، ربما انطوى على نفسه يجتر آلام غيرته أو اتصف بالطاعة الشديدة فينافس الطفل الذى يغار منه فى هذا المجال ، فيتفوق عليه فى طاعة الوالدين فيحقق لنفسه شيئا يخفف من متاعبه .

علاج الغيرة عند الأطفال :

في أغلب الأحيان يكون علاج القلق والخوف وضعف الثقة بالنفس ، بالاتجاه دائما الى زيادة الثقة بالنفس من مختلف النواحي زيادة تخفف من النقص وتقلل من صدمة الشعور بعدم الرضى ، وتزيد من الاخذ والعطاء ، وتزيد من القدرة على التعاون الاجتماعى ، واذا تم هذا تم كسر الحلقة المفرغة التى تربط بين الغيرة وضعف الثقة بالنفس .

واجب الآباء لمنع الغيرة :

١ ـ كى تمنع الغيرة الشديدة فى حالات ولادة طفل جديد ، يستحسن أن يمهد الوالدان لاستقبال المولود الجديد ، يجب عليهما أن يحببا المولود الجديد له بشتى الوسائل حتى اذا ما جاء المولود شعر أنه شيئ محببا الى نفسه ، لا دخيل يريد أن ينتزع حب والديه انتزاعا . كما يجب على الوالدين ان يقتصدوا فى اظهار محبتهما وعطفهما المبالغ على المولود الجديد ، فان ذلك مما يزكى نار الغيرة فى صدر أخيه أو أخته .

وينبغى عندما يولد الطفل عدم اهمال الكبير واعطاء الصغير عناية أكثر مما يلزمه . فيجب الا يعطى المولود الا القدر الذى يحتاجه وهو لا يحتاج الى كثير . والذى يضير الطفل الكبير عادة كثرة حمل المولود وكثرةالالتصاق الجسمى الذى يضر المولود اكثر مما يفيده .

فواجبنا اذن تهيئة عقل الطفل الى حادث الولادة ، وكذلك يجب فطامه وجدانيا تدريجيا بقدر الامكان . فلا يحرم حرمانا فجائيا من الامتياز الذى سيفدق مثله على أخيه أو أخته .

٢ ـ يجب على الآباء أن يقلعوا عن الموازنات الصريحة وعن خلق الجو الذي يشعر بالموازنة ، ويجب اعتبار كل طفل شخصية مستقلة لها مزايا واستعداداتها الخاصة بها . فاذا نجح طفل فى عمل ما فيكفى أن يشجع عرضا دون موازنة بغيره . فكل طفل مهما خاب فان له ناحية طبية يمكن كشفها وابرازها والاعتزاز بها ، وبذلك يمكن أن يزول الشعور بالخيبة المؤدى الى الشعور بالذلة والضعف .

وتبعا للموازنات بين الأخ واخيه أو التلميذ وزميله ، يمكن الموازنة بين الطفل ونفسه فى أوقات مختلفة ، فان تقدم فى وقت ما عما كان عليه فى وقت سابق ، فهذا كاف لتشجيعه ، واذا كانت المدرسة أو الأسرة تعنى بالهوايات فيحسن أن يكون لدى الأولاد هوايات مختلفة كالموسيقى والتصوير وجمع الطوابع .. الخ . وبذلك يتفوق كل فى ناحيته ويوازن نفسه بنفسه .

٣ ـ ينبغى المساواة فى المعاملة بين الابن والابنة لأن التفرقة تثير الغيرة ، وتؤدى الى الشعور بكراهية البنات للجنس الآخر فى المستقبل .

٤ ـ عدم اغداق امتيازات كثيرة على الطفل العليل : فان هذا يثير الغيرة فى الأخوة الأصحاء ، وتبدو مظاهرها فى تمنى المرض وكراهية الطفل المريض الى غير ذلك من مظاهر الغيرة الظاهرة والمستترة . ولذلك لا يجوز اعطاء الطفل أى امتياز أكثر من العناية التى يتطلبها المرض .

٥ ـ لا يجوز أن يبهر الوالدان بما يقوم به بعض الأطفال من المبالغة فى طاعتهم ومسايرة آرائهم والعمل على ارضائهم ، والاعجاب بهم والتظاهر بالحب لهم ، الى

غير ذلك . ولا يجوز لهم ان يزيدوا من تقدير هذا الفريق على حساب الفريق الآخر صاحب الراى الجرىء الحر ..
هذا الموقف من الأبناء كثير الانتشار وهو من أسباب غرس بذور الغيرة والحقد بين الأخوة ، وتنشئة بعض الأولاد على النقمة على السلطة والمجتمع عن طريق التحول من النقمة على الوالدين وبعض أفراد الأسرة الى السلطة والمجتمع .

وأخيرا ، ينبغى مهما كانت الفروق العرضية الدائمة بين الأخوة أو الزملاء ، فلا يجـــــوز استثارة الموازنات الفردية المؤدية الى الغيرة . وهذا لا يمنع بالطبع اجراء المباريات بين تلاميذ المدارس بين آن وآخر مما يحفزهم لبذل الجهد ، ويخلق الفرص أحيانا لتعويد التلاميذ تقبل الفشل المؤقت بصدر رحب .

الخوف عند الأطفال

الخوف الطبيعي والمرض :

الخوف حالة طبيعية انفعالية يشعر بها الانسان فى بعض المواقف ويسلك فيها سلوكا يبعده عادة عن مصادر الضرر ؛ وهذا كله ينشأ عن استعداد فطرى اوجده الخالق فى الانسان والحيوان . فالخوف هو الذى يدفعنا لحماية أنفسنا والمحافظة عليها . فاذا كنا لا نخاف النار مثلا فقد تحرقنا ، واذا كنا لا نخاف الحشرات والحيوانات الضارية فقد تقتلنا .

وهناك أيضا الخوف من الغضب ، وخوف الانسان على سمعته ، وما الى ذلك ـ ومن الطبيعى أن تقترن الحالة الشعورية الانفعالية ـ وهى الخوف ـ بالسلوك الملائم وهو الخلاص من الخطر . فالخوف أمر طبيعى معقول ضرورى يؤدى الى حماية الفرد مما يجوز أن يسبب له ضررا ، وجميع الطرق الوقائية التى نتخذها لحماية أنفسنا من عوادى الطبيعة او المرض أو سخط المجتمع أو غير ذلك تدل على نوع من الخوف نسميه الحـــذر او الحيطة ، ويصح أن نسميه الخوف الواقى ، ومما لا شك فيه انه فى درجاته المعتدلة صفة طيبة يجب الاتصاف بها .

أما الخوف الكثير المتكرر الوقوع لأى سبب فيكون

خوفا مرضيا ، ولذلك فان تضخم الخوف ، فى موقف ما زيادة عن النسبة المعتدلة التى يتطلبها هذا الموقف عادة ، يعد امرا غير طبيعى . فاذا وجدنا طفـــلا فى السابعة يخاف الصراصير أو القطط او يخاف الظـلام فاننا نعد هذا أمرا غير عادى . واذا وجدنا طفلا فى الثالثة يخاف الظلام قليلا فاننا نعد هذا أمرا عاديا .

لذلك فان تضخم الخوف فى موقف ما تضخما خارجا من الحد المعقول ، وكذلك تكرر الخوف تكرارا خارجا عما هو مألوف يعد أمرا مرضيا يحتـــاج الى تأمل وفحص وعلاج .

نرى مما نقدم أن لدينا خوفا معتدلا من حيث درجته ومبلغ تكرره واكتمال حلقاته من انفعال وسلوك ، ولدينا خوف مرضى ، وهو ما يشذ عن هذه النواحى الثلاث . والخوف الطبيعى المعتدل مفيد لسلام الفرد . وأما ماعدا ذلك فهو ضار لشخصية الفرد وسلوكه ، ويكون من مظاهره الانطواء وعدم الجرأة ، والتهتهة وغير ذلك من الخصال المعطلة للنمو .

مخاوف الأطفال ومصادر تكوينها :

تنقسم مخاوف الأطفـــال بحسب موضوعاتها الى : حسية وغير حسية .

فموضوعات الأولى : يمكن ادراكها بالحواس كالخوف من الشحاذ أو الشرطى مثلا أو بعض انواع الحيـــوان والحشرات كالحصان أو القـــرد أو الصرصار أو غير ذلك .

أما النوع الثانى : فهى المخاوف غير الحسية كالخوف من الموت ، والخوف من جهنم أو العفاريت أو الغيلان أو

غير ذلك ، وكذلك الخوف من الظلام في حالة الأطفال .

ويختلف ما يثير خوف الطفل باختلاف سنه ، فهو فى الشهور الأولى يفزع من أى توتر حاد كالضوء الشديد والصوت العالى ، ولكنه لا يميز الأشخاص جيدا . فهو لا يفزع لمقدم الطبيب ، ولكن قد يبكى اذا وضع الطبيب السماعة الباردة على صدره ، بينما ينعكس هذا تماما عند طفل أكبر منه فهو قد يتحمل برودة السماعة ولكنه يفزع لقدوم الطبيب ــ لا كطبيب طبعا ــ ولكن كشخص غريب عنه .

والطفل فى سن الثانية حتى الخامسة يبدأ فى الخوف من الحيوانات وخصوصا اذا صاحبتها تجربة مفزعة كعضة أو نباح عال مفاجىء ، وهو يفزع من الشخص الغريب عنه . وقد يرهبه الظلام فهو يعنى المجهول ، والطفل فى هذه السن يخشى مايجهله بالاضافة الى أن تركه فى الظلام يشعره بالوحدة ويبعده عمن يحبه ويألفه . وكلما كبر الطفل قلت مخاوفه وبدأ يدرك المعقول واللامعقول كسبب للخوف . فهو لا يخاف الظلام ما دام لم يضره ، وسوف يألف الشخص الغريب بسهولة اكثر . ولكن سوف تصاحب هذه السن مخاوف من نوع آخر ، وهى مخاوف حقيقية جدا مررنا بها جميعا . وهى الخوف من الرسوب فى المدرسة ، والخوف من تأنيب المدرس ومن فقدان ماء الوجه اذا تسلم شهادة مرصعة « بالكعك الأحمر ! » .

كل هذه المخاوف طبيعية جدا ولو تركت للزمن لتلاشت بقليل من حكمة الوالدين ، وينتج عن هذا طفل

سليم النفسية شجاع فى حدود المعقول ، وحذر أيضا فى حدود المعقول .

أبو رجل مسلوخة :

مما يقوى الخوف فى نفوس الأطفل « استثارته لحفظ النظام » أو دفعه لعمل معين أو منعه من القيام بلعب أو احداث ضوضاء أو غير ذلك . فكثيرا ما نخوف الطفل ليقلع عن اللعب والحـــركة ، ليهدأ المنزل حتى يتمكن الوالد مثلا من النوم أو من تركيز انتباهه فيما يشغله ، وفرق بين أن يقلع الطفل عن لعبته ونشاطه خوفا من العقاب ، وأن يفعل ذلك ليؤدى خدمة لوالده ، وما دام المقصود هو هدوء الجو فيمكن توجيه الطفل للعب فى مكان آخر أو لنوع من اللعب أكثر هدوءا أو غير ذلك .

وكثيرا ما يهدد الطفل الصـــــغير فى مثل الأحوال السابقة بأن يقال له : « اذا لم تكف عن عمل كذا سيأخذك العسكرى أو الشحاذ أو الزبال أو أبو رجل مسلوخة ! » أو التهديد بوضعه فى غرفة الفيران . وتكون النتيجة أحد أمرين : اما أن الطفل لا يقلع عما يفعل ، ولا تتوقع عليه العقوبة ، فيكتشف بذلك ضعف الوالدين وعدم تحقيقهم لوعيدهم ، ويدرك مبلغ قوته عليهم تبعا لذلك . واما أن يخضع للأمر ، ويهدأ ، ويشل نشاطه ، ويشب جبانا خضــــوعا لغير سبب معقول ، والنتيجة وبال فى الحالتين .

تخويف الأبناء للضحك والتسلية :

تخويف الأبناء للضحك والتسلية من جانب الكبار ، وهذا أمر متكرر الوقوع ، فخوف الطفل من القرد مثــلا قد يكون مثارا للضحك عند الكبار من أخوة وخدم ،

واحيـــانا من الآباء انفسهم ، وما دام الأمر للضحك والتسلية فلا غرابة أن يندفع فيه بعض الـكبار لسرورهم الخاص على حساب تألم الصغار وانزعاجهم . وليس هناك اقسى من أن يجلس الوالد أمام ابنه ويثير خوفه ، والولد يصرخ والوالد يضحك . من المحتمل جدا أن يكون لتكرار مثل هذه المواقف تأثيراته السيئة فى علاقة الطفـــل بوالده ، وفى شخصية الطفل وفى سلوكه بوجه عام .

خوف الآباء أنفسهم :

ولعل اشد مثيرات الخوف ذات الاثر الثابت هى خوف الآباء انفسهم ، فحالات الخوف كغيرها من الحالات الانفعالية تنتقل من فرد الى آخر بالتأثير مما يطلق عليه احيانا « عدوى الخوف » وفى هذا المقام يجب أن نذكر ان الوالدين فى كثير من الأحيـــان يعانون انفسهم من مخاوف لا يحبون مواجهتها أو الاعتراف بوجودها ، مثل الخوف من الظلام أو الخوف من الوحدة ، وقد ذكرت هذين النوعين من المخاوف بصفة خاصة لأنها أكثر أنواع المخاوف انتشارا بين الأطفال ، ولأننا اذا وجهنا السؤال للوالدين الذين يشكون من خوف صغارهم من الظـلام أو من الوحدة ، لتبينا فى كثير من الأحيان أن الـكبار أنفسهم يعانون من مثل هـذه المخاوف ، وفى هـذه الحالات ، كما فى كثير من الحالات التى تتشابه فيهـا مشكلات الصغار مع مشكلات موجودة لدى الـكبار ، لا يجوز أن نسرع فنلقى اللوم على الوراثة :

أولا : ان هذه الصفات ليست من الصفات التى يمكن ان تنتقل بالوراثة .

ثانيا : لأن مرد السبب الى الوراثة يعنى ضمنا أن يقف

الآباء من المشكلة موقفا سلبيا ، اذ ما عسى ان يصنع المرء مع عيب وراثى .

خوف الآباء على الأبناء :

وكثيرا ما يحدث أن يبدى بعض الآباء والأمهات خوفا وقلقا على أبنائهم ، وتنتقل هذه الحالة عادة الى الأبناء فيصبحون قلقين على أنفسهم ، فاذا جرح الطفل جرحا صغيرا ، أو وقع على الأرض ، أو ارتفعت درجة حرارته نجد الأم فى حالة ذعر وتظهر – بتأثر شديد – كل علامات الخوف من جرى وارتباك واصفرار الوجه وغير ذلك . ينتج من هذا ان الطفل يصاب بذعر ، وبعد أن كان لا يشعر بأى ألم أو بألم قليل يمكنه تحمله ، يصير عادة غير قادر على تحمل الألم ، وفى العـــادة نجد أن الأسرة التى يقلق فيها الآباء على أبنائهم ينمو الطفل فيها وهو سريع التأثر شديد الحساسية لأقل الم ، شديد الاهتمام بنفسه ، فاذا أصابه جرح صغير تألم وبكى وبالغ فى الاهتمام به ، واذا أصابه صداع خفيف اعتكف .. الخ . وبهذه الطريقة يتضاعف مظهر المرض الخفيف الذى قد يكون لديه .

فلتكن اذن خطة الآباء والأمهات اذا أصاب أبناءهم شىء ما أن يكونوا عمليين فيلتزموا الهدوء ، ويضبطوا انفعالاتهم ويقللوا من جزعهم ويقوموا بعمل ايجابى هادىء لتخفيف الاصابة وعلاجها .

الخوف من الظلام :

وهنالك نوع من الخوف فى غاية الخطورة ، وهـــو الخوف من المسائل المجهـــولة غير الحقيقية ، أو التى

لا يمكن للطفل ادراكها حسيا ، كالقول : جهنم والموت .
والخوف من مثل هذه الأمور يكون عادة أعمق اثرا فى حياة الطفل من الخوف من المحسوسات . والواجب هو عدم اثارتها اطلاقا واذا كانت موجودة فيجب البحث عن سبب تكوينها ، وازالتهـا من أساسها ، مع شرح حقيقتها ، بقدر الامكان ، بما يلائم عقل الطفـل ، أو السماح له على الأقل بالتحدث فيها وعدم كبتها باعطاء الموقف الصحيح ازاءها .

الخوف من الموت :

يصاب كثير من الأطفال بالخوف من الموت بدرجات مختلفة ويكون سببه احيانا : أن يعيش الطفل مع كبار يخاف احدهم من الموت بشكل بارز أو قد يكون سببه أن يموت للطفل قريب أو رفيق له به صلة شـديدة .
والسبب الأصلى لهـذا ان موت القريب المهم يهز فى الطفل ثقته فى بيئته التى يحتمى بها وينتمى اليها هزا عنيفا ، فتصبح دنياه فى نظره خلوا من الأمن .

علاج الخوف عند الأطفال :

الخوف يفسد الحيـاة ويجعل منهـا عبئا يصعب احتماله ، والحياة يمكن أن تكون سارة وبهيجة ، ويمكن ان نستمد منها الكثير من ألوان المتعة لو خلت نفوسنا من معظم هذه المخاوف أو لو تحررنا منها .

فالطفل الذى يخاف لا يسهل عليه تكوين الأصدقاء ويفضل أن يبقى مع نفسه ، وليس من العسير علينا أن نتبين السبب فى ذلك ، فان العالم الخارجى للطفل الوجل ليس مصدر أمان وطمأنينة ، ولذلك فانه يتجنبه

لانه بذلك انما يقى نفسه الدخول فى مشـــاكل جديدة تجعله يشعر بالعبء والتعاسة .

واجب الآباء لمنع الخوف :

١ ـ يجب على الوالدين الامتناع عن استغلال شعور طفلهما بضعفه وقلة حيلته واستعداده الطبيعى للخيالات الواسعة ، وعليهما أن يبحثـــا عن طريق آخر لالزامه بطاعتهما ، وليكن هذا الطريق هو الحزم والحب .

٢ ـ الامتناع عن تهديد الطفل وتخويفه ثم شغله عن المخاوف باعطائه فرصا أكثر للخروج من المنزل للاختلاط مع الأطفال فى مثل سنه ، فكلمـــا زاد انشغاله قل اهتمامه بالمخاوف والعفاريت .

٣ ـ اذا كان الطفل يخاف من الظلام فيمكن أن ينام الطفل فى غرفة بها ضوء ، ويقال الضوء ليلة بعد أخرى، ولا مانع من أن يحتفظ بمصباح « سهارى » ولا مانع من « بطارية » يحتفظ بها الطفل تحت وسادته يضيئها اذا شعر بالحاجة الى ذلك. ثم يفهم الطفل بالدليل المحسوس وبالمناقشة ان الظلام لا يدعو لـكل هذا الخوف . ومن اهم العوامل التى تساعد على زوال الخوف من الظلام أن يكون الكبار أنفسهم ممن لا يخافون من الظـلام . ويجب أن يراعى لوقاية الطفل أو علاجه من الخوف من الظلام نوع القصص التى تحكى له قبل النوم مباشرة ، فيجب أن تخلو بقدر الامكان من عناصر الازعاج .

٤ ـ ينبغى على الآباء والأمهات الا يهددوا الطفل بالعفاريت أو برجال الشرطة او أبو رجل مسلوخة الخ .. مع تجنب الأفلام والقصص الخيالية العنيفة ، فالطفل

لديه ما يكتبه من تخيلاته الذهنية .

٥ ـ يجب على الوالدين ان يعملوا على أن تنتهى بسرعة اية معركة قد تنشب حول الطعام ، أو بسبب الابتلال ليلا ، مع تجنب اشعاره بالاجرام من أجل الأخطاء الصغيرة . فالتهديد بعدم الرضا عنه ، أو عدم حبه ، هو اصعب ما يستطيع أن يتحمله لأنه يزيد من احساسه بعدم الاطمئنان .

٦ ـ في حالة الخوف من حيوان ما ، ويكثر ذلك عادة بين الأطفال حتى ولو لم يمر الطفل بأى تجربة قاسية . فاذا كان الطفل يخاف الكلاب مثلا ، فيستحسن أن نساعده على تربية كلب صغير فيطعمه ويتعهده ويحميه ويلاعبه ويلاحظ نموه يوما بعد يوم ، الى غير ذلك ، وتدريجيا يزول الخوف منه .

٧ ـ وفى حالة الخوف من الموت ، فللحصول على بعض الوقاية للأطفال من هذا النوع من الخوف ، يحسن أن يكون بالمنزل أو فى حجرة الطفل بعض الحيوانات ، ولابد أن يموت بعضها فيدرك الطفل الموت بذلك ، ادراكا طبيعيا هادئا خاليا مما يحيط بموت الانسان عادة من انفعالات ، وكذلك يجب ألا يحاط الموت ـ بقدر الامكان ـ بما يحاط به من تقاليد تثير فى الأطفال رعبا شديدا ، دون أن يدركوا ذلك غالبا . واذا لم يكن بد من متابعة هذه التقاليد ، فيحسن ابعاد الطفل عن جوها الى أن تنتهى . على انه من الخطأ الفاحش اذا مات للطفل قريب محاولة التمويه عليه وعدم ايقافه على الحقيقة بجو غير عادى يثير الشكوك والحيرة لدى الطفل وحيرته . والحيرة اشد أثرا على نفس الطفل من الصدمة الناشئة عن المواجهة المؤلمة للواقع .

٨ ـ وفي حالة الخوف من الدواء ، من اهم العوامل التى يجب تاكيدها أن الخوف ينتقل بالايحاء والمشاركة الوجدانية ، ولنتذكر أن ايحاء السلوك أقوى من ايحاء الالفاظ . فاذا أردت لاطفالك الا يخافوا الدواء مثلا ، فلا معنى لأن تظهر علامات التألم وانت تأخذ الدواء ، في الوقت الذى تعطى فيه الطفل دواء ثم تطلب التجلد ازاءه فعليك أنت أولا الا تخاف هذه الاشياء ، وان كنت تخافها فلتروض نفسك علي تحملها ، واذا استحال عليك ذلك فاستر خوفك عن اطفالك .

واخيرا علي الآباء أن يتذكروا كذلك ان اغلب الاخطاء في تربية الطفل ، سببها ان المرء ينسى ما كان فيه في عالم الطفولة بسرعة وسهولة . فعالم الأطفال عالم دقيق حساس سريع التأثر ، شديد الانفعال ، قليل الادراك والخبرة ، ضئيل الحيلة ، وهذه من أهم العوامل التى تسهل احتمال نمو الخوف بصورة غير سوية .

الميول العدوانية عند الأطفال

ان عالم الصغير يختلف أليوم عن عالمه بالأمس ، وهو فى ذلك انما يساير الزمن ، فنحن اليوم نواجه بمشكلات لم يكن لأجدادنا عهد بها من قبل ـ لذلك وجب ان تختلف نظرة آباء الأمس بصدد حقوق الطفولة ومشكلاتها ، فاذا ما أتى الطفل عملا أثار غضبهم ، والأطفال كثيرا ما يقومون فى اعمار مختلفة بأعمال تسبب على أقل تقدير مضايقة من حولهم من الكبار ، وينبغى أن ننتظر من الوالدين اليوم أن يهدفا الى التعمق وراء مظاهر السلوك لتلمس دوافعه ، حتى يتسنى لهما اختيار الأسلوب الذى يعالج المشكلة من الأساس .

فالغضب والعناد والميل الى التشاجر وتحطيم الأشياء وتمزيقها والقسوة والميل الى اشعال النار عند الأطفال ، كلها تعتبر سلوكا عاديا ، ولكن عندما تلازم هذه الأعراض الطفل لسن متقدمة وبصورة عنيفة ، فانها تكون أعراضا لسوء تكيفه ، وقد تكون علامة خطيرة تنبىء بأعراض المرض النفسى فى الكبر .

فكلما كانت سن الطفل صغيرة من ٣ ــ ٥ سنوات اتجهت الأعراض الى الاختفاء بمرور الوقت أى كلما تقدم فى السن ، ولكن اذا كانت الأعراض لا تزال مستمرة

بعد سن الخامسة ، كلما اتجهت الى الثبات وأصبحت مشكلة سلوكية . ولذلك فانه يمكننا أن نغض النظر عن هذه الأعراض الانفعالية للصغار دون الخامسة ، ويجب أن نهتم بها بعد الخامسة وننظر لها على انها أعراض وعلامات لسوء التكيف الذى يتخذ صفة الاستمرار فى السلوك المنحرف . وفى نفس الوقت يجب أن نفرق بين سوء التكيف الذى يتخذ صفة الاستمرار فى السلوك والانفعال المبالغ فيه ، وسوء التكيف أو الانفعال الذى يحدث عرضا كنتيجة لصدمة من الصدمات أو الظروف غير الملائمة فى البيت أو المدرسة .

١ ـ نوبات الغضب والعناد والميل الى التشاجر عند الأطفال :

يتطور انفعال الغضب عند الأطفال قبل سن الخامسة مع تطور نموهم .. ففى الفترة بين الشهر السادس والسنة الثالثة من حياة الطفل نجده يغضب ويثور اذا لم تحقق له رغباته خصوصا الفسيولوجية ، أو اذا ترك وحيدا فى الحجرة أو اذا فشل فى جذب انتباه من حوله ليلعبوا معه أو ينشغلوا به ـ كما أنه قد يثور أيضا عندما تغسل له وجهه ، أو أثناء الاستحمام أو خلع ملابسه ، وتتفاوت مظاهر الغضب عند الأطفال دون الخامسة من ضرب الأرض بالقدمين والرفس والقفز والضرب والارتماء بالجسم على الأرض ، ويصاحب هذه الأعراض عادة البكاء والصراخ ، وقد يعانى بعض الأطفال من تصلب أعضاء الجسم والتوتر الشديد أثناء نوبات الغضب ، أو قد يلجأون الى العض على الانامل .

واغلب أسباب غضب الأطفال قبل سن الخامسة

ترجع الى علاقة الطفل بوالديه واخوته وتحكمهم في تصرفاته ، وفرضهم رغبات معينة عليه تتصل بذهابه الى الفراش أو تناول الطعام أو تنظيف أسنانه او باتباع عادات صحية تتصل بغسل يديه بعد التبول والتبرز ، وتمشيط الشعر أو تكليفه بقضـــاء بعض الأمور فى المنزل .

مظاهر الغضب عند الأطفال فوق الخامسة :

لقد بينت احدى الدراسات العلمية أن مظاهر الغضب تختلف باختلاف سن الطفل . فالأطفال من سن ٣ ـ ٥ سنوات تعتريهم نوبات الغضب ويلجأون بذلك الى جذب الانتباه اليهم ، ومن سن ٥ ـ ٧ سنوات يظهرون غضبهم احيانا فى صورة التشنج بالبكاء والعصيان .

أما الأطفال بين السابعة والحادية عشرة فيظهرون غضبهم بالعناد وانهياج والملل أو بالاكتئاب والخمول ، والشكوى من الشعور بالاجهاد والتعب السريع .

ويمكن تلخيص اساليب الغضب عند الأطفال بوجه عام فى أسلوبين : الأول ايجابى ويتميز بالثورة أو الصراخ او الغضب او اتلاف الأشياء الى غير ذلك من أساليب الانفعال الايجابية . اما الأسلوب « الثانى » فهو اسلوب سلبى يتميز بالانســـحاب أو الانزواء او التجهم أو الاضراب عن الأكل او الأخـذ والعطاء الى غير ذلك من الأساليب السلبية ، وهو أحد أنواع الانفعال لأنه يعتمد على الكبت ، بعكس الأسلوب الايجابى الذى يفرغ فيه الطفل الغاضب شحنة الغضب ويعبر عنهـــا بصورة ظاهره ؛ تعطى البيئة فرصة للتفاهم معه والوصول الى حل مرض أو تفهمه انه مخطىء فى غضبه .

العوامل التى تساعد على ظهور نوبات الغضب والعناد والتشاجر عند الأطفال :

١ ـ الخلافات الأسرية : ان العائلات التى تسودها المؤثرات الانفعالية وتعانى من مشكلات السيطرة أو الخضوع بين الزوجين ، أو عدم القدرة على التغلب على الاختلافات بين الزوجين ، وعدم التعاون والخلاف بينهما حول تربية الطفل ، تلك العائلات تتأثر فيها الصحة النفسية للطفل تأثرا كبيرا ويؤدى به ذلك الى التوتر والانفعال الذى قد يأخذ صورة نوبات غضب أو تماد أو تشاجر .

٢ ـ تعدد السلطات الضابطة لسلوك الطفل : كثيرا ما يؤدى تعدد السلطات الضابطة لسلوك الطفل الى ارتباك الطفل وثورته وغضبه ويحدث ذلك عادة للأطفال الذين يعيشون فى بيئة تشمل الجد والأخوال والأم أو الأب أو كليهما . ويكون لكل منهما سلطة توجيه الطفل أو نقده ، فالطفل فى مثل هذه الأجواء العائلية يشعر بالارتباك وبتعدد السلطة الضابطة ، وبخاصة اذا كان الأب بعيدا عن المنزل أو متوفيا أو كان قد طلق الأم ، فيشعر بأنه لا ينتمى الى والد كبقية الأولاد ، وتأخذ صورة الارتباك هيئة نوبات غضب وتماد .

٣ ـ السلطة الضابطة المتغيرة : ان السلطة الضابطة المتغيرة ، كأن يكون الأب فى صف الطفل ، يجيب رغباته وتكون الأم على نقيضه أو العكس ، تؤدى بالطفل الى نوبات الغضب كلما رفض له أحد الابوين طلبا ثم الانحياز الى الآخر ، كما أنه اذا طلب الطفل من احد الأبوين طلبا وامتنع عن اجابته ، ثم صرخ الطفل وغضب

فاجيب الى طلبه ، فانه يلجأ الى الغضب والصراخ كلما رفض له طلب . وقد يلجأ الى هذا الأسلوب المرضى للتوافق والتكيف فى مواقف الحياة فى الكبر .

٤ ـ عصبية الآباء وثورتهم لأتفه الأسباب أو شجارهم وعدم التوافق بين الأب والأم الى عصبية الأطفال وثورتهم وغضبهم أيضا لأتفه الأسباب ، وان كانت هناك حالات تؤدي فيها عصبية الآباء الى سكون الأطفال وسلبيتهم وانزوائهم وجنوحهم الى أحلام اليقظة .

٥ ـ التدليل والحماية الزائدة : كما تؤدى قسوة الآباء وعصبيتهم وثورتهم لأتفه الأسباب الى نوبات الغضب المرضية . ان التدليل واجابة كل رغبات الطفل فى صغره يجعله يعتاد أن تستجيب له البيئة دائما بتلبية رغباته حتى فى كبره . وبمعنى آخر ان التدليل لا يتيح للطفل أن يتعلم ضبط نزعاته ، لأنه لم يحدث فى حياته الأولى ان وجد ضرورة لذلك ، ومن ثم ينشأ على نظام ضعيف لضبط النزعات ، فيستجيب استجابة فجة لأى نزعة أو رغبة فى نفسه ، ويجد نفسه مدفوعا بقوة لا شعورية بدائية لتحقيق رغباته ، فان لم تتحقق ثار ثورة عنيفة ، حتى لو أراد أن يصطنع سلوكا مغايرا متمشيا مع ثقافة المجتمع والبيئة .

مما سبق يمكننا أن نقرر أن التدليل والمبالغة فى اجابة رغبات الطفل يؤدى به الى نوبات الغضب تماما كما يؤدى به الضبط المبالغ فيه ، والقسر على اتباع ما تفرضه البيئة والثقافة ، بدرجة مبالغ فيها .

٦ ـ الضعف العام والتشوهات الخلقية : يؤثر الضعف العام والتشوهات الخلقية على شعور الطفل بالنسبة للمجتمع الخارجى ، فيشعر بالنقص والعجز

وضعف الثقة بالنفس . وذلك لعدم قدرته على عمل ما هو مطلوب منه ، وهو يجد صعوبة فى التوافق ويشعر بأن الحياة صعبة وأنه مكروها من جميع الناس فيزداد توتره الداخلى ، ويظهر هذا فى صورة نوبات غضب وثورة لأتفه الأسباب .

علاج نوبات الغضب والعناد والتشاجر :

رغم أن الغالبية العظمى من أعراض الغضب والعناد والتشاجر فى السن المبكرة يعتبر سلوكا طبيعيا ، فان العلاج ينحصر فى توجيه الآباء للأساليب التربوية الواجب اتباعها فى مثل هذه المواقف ، على أساس فهم سيكولوجية الطفل وأساليب اشباع حاجاته النفسية للحب والأمن والطمأنينة والتقدير واثبات الذات ، ولذلك يجب أن توجه عناية خاصة عندما تستمر هذه الأعراض كأساليب سلوكية اذا ما تجاوزت سن الطفل الطفولة الأولى أى بعد الخامسة أو السادسة .

كيف يبدأ العلاج ؟

يجب أن يبدأ العلاج أولا بدراسة الحالة الصحية للطفل ، فأحيانا يكون سبب سرعة الغضب والتشاجر راجعا الى اختلال فى الغدد الدرقية ، أو الضعف العام ، أو سوء التغذية وغيرها من الأسباب الجسمية التى قد تؤدى الى الغضب والتشاجر والعناد .

هذا كما أن الأطفال ذوى العاهات ، ان لم يعاملوا معاملة تحقق لهم الشعور بالتقدير وتعويض النقص فانهم كثيرا ما يصبحون مشكلة وخصوصا اذا كانت البيئة تعاملهم بالعطف الزائد أو تعيرهم بما يعانون منه من نقص .

هذا كما يجب دراسة حالة الطفل النفسية عن طريق دراسة علاقاته بالأسرة وأسلوب التربية الذى يعامل به سواء فى المنزل أو فى المدرسة . حتى نكون فكرة صحيحة عن آثرها عليه ومدى ملاءمتها له ، كما يجب أن ندرس كيف يشغل الطفل أوقات فراغه ، أو هل هو مرهق ارهاقا شديدا بالدراسة فى المدرسة ثم بالدروس الخصوصية بحيث لا يجد وقتا للراحه والاستجمام أو الترويح عن النفس ، كما هو الحال فى كثير من العائلات القلقة على مستقبل الابن .

فى ضوء هذه الدراسة تنظم حياة الطفل وتوجه أسرته توجيها تربويا يحقق للطفل اشباع حاجاته النفسية ، واثبات وجوده وذاته بأسلوب سوى يفتح امامه مجالات للتعرف على حياة تنمى استعداداته الفطرية وقدراته ومهاراته .

واجب الآباء لمنع نوبات الغضب والعناد والتشاجر :

١ ـ يجب على الآباء الاقلال كلما أمكن من التدخل فى أعمال الأطفال وحركاتهم ، حتى لا يشعروا بكابوس الكبار ويثوروا غضبا أو يلجأوا الى الفساد ، وحتى لا يلجأوا الى استعمال نفس اساليب الآباء مع اخوتهم واخواتهم من الأطفال فيتشاجرون .

٢ ـ يجب على الآباء أن يقلعوا عن عصبيتهم وثورتهم لأتفه الأسباب أمام الأبناء وأن يعملوا جهدهم لضبط النفس قدر الامكان حتى لا يقلدهم الأطفال ، فالطفل السوى هو الذى ينشأ فى منزل يسوده الانشراح وعدم الخوف من الآباء .

٣ـ لا يجوز أن نعبث بممتلكات الطفل أو نسمح

لغيره من الأطفال بذلك ، كما لا يجوز أن نحرمه منها لمجرد غضبنا منه لسبب ما ، وفى نفس الوقت الا نظهر أمامه الضعف أو التراخى أو الاهمال ، أو الشدة من احد الأبوين والليونة أو التدليل من الآخر ، فكلما كانت سياستنا مع الأطفال ثابتة ومرنة وبدون قلق ، منعنا نوبات الغضب والعناد والتشاجر عند الأطفال . وفى نفس الوقت لا يجوز ان نجيب الطفل لرغباته لمجرد صراخه أو غضبه أو عناده ، بل يجب أن نثنيه عن هذا الاسلوب فى السيطرة على البيئة ، ونعوده على التفاهم والمرونة فى الأخذ والعطاء .

٤ ـ يجب على الآباء الا يستخدموا طفلا من أبنائهم كوسيلة للتسلية فى الأسرة أو عند حضور الضيوف ، كما لا يجب استثارة الغيرة بين الأطفال وذلك بمقارنة طفل بطفل آخر مما يدفعهم الى الغضب والتشاجر .

٥ ـ يجب على الآباء شغل أوقات فراغ أطفالهم وتشجيعهم على اللعب مع أقرانهم ليتعلموا الأخذ والعطاء وليستنفدوا الطاقة الجسمية الزائدة عندهم والتى زودتهم بها الطبيعة كى يتحركوا كثيرا ويتمرنوا على الحياة .

٦ ـ عند تشاجر الأطفال يحسن كلما أمكن تركهم ليحلوا مشاكلهم بأنفسهم ، واذا كانت هناك ضرورة للتدخل من الكبار فيجب ان تكون للتوجيه والنصح الهادىء دون تحيز لأحد الأطفال .

واخيرا فان الدراسات العلمية اثبتت ان كثيرا من حالات الغضب والعناد والتشاجر عند الأطفال مرجعها في الغالب الآباء أنفسهم ، اى أن الآباء كثيرا ما يكونون

مصدر هذه المشاكل بسلوكهم الذى يتسم بالحزم المبالغ
فيه والسيطرة الكاملة على الطفـل ورغبتهم فى اطاعة
اوامرهم طاعة عمياء ، وبثورتهم فى المنزل لأتفه الأسباب،
مثل هؤلاء الآباء يجب ان يدركوا أنه من الواجب اصلاح
انفسهم حتى يمكن اصلاح أبنائهم وعلاجهم من مشاكلهم
النفسية والسلوكية كالغضب والعناد والتشاجر .

الهروب عنــد الاطفــال

ان شعور الطفل بأنه يتمتع بكامل الرضى والعطف من ابويه مصدر راحته النفسية ومبعث طمأنينته ، وهمـا عاملان جوهريان لتقدم شخصيته وسيرها نحـو النمو السليم والسلوك السوى ، فلا يكفى الطفل ان نوفر له الغذاء والنظافة فقط ، بل ينبغى الى جانب هذا وذاك ـ ان لم يكن قبلهما أن نوفر له الطمأنينة النفسية التى يستمدها من شعوره باهتمام والديه به وعطفهما عليه وحبهما له وتقديرهما . فاذا فقد الطفل هذا الشعور لجأ الى التعبير عن قلقه بالسلوك المنحرف الذى يظهر بصور متعددة منها ظاهرة « الهروب » . لذلك علينا تبين السبب أو الدافع الخفى المستتر وراء السلوك الغريب أو المنحرف حتى يمكننا قبل ضياع الفرص أن نضع الأمور فى نصابها ، بما يكفل تحقيق حاجات الطفل النفسية ، ويوثق العلاقة بيننا وبينه ، وفى الوقت نفسه نكسبه خبرات شخصية مباشرة .

١ ـ الهروب من المدرسة :

ان المهمة الأولى للمدرسة التى تقدر مسئولياتها وتعى رسالتها ، العمل على توفير الشعور بالطمأنينة لأطفالهـا ومنحهم قدرا مناسبا من الحرية يتيح لهم أن يمارسوا

ويختبروا بانفسهم الأمر الذى يثير عنـــــدهم اليقظة الذهنية ، فيشعرون بما حولهم ويحسون احساسا واعيا بما يحيط بهم ــ حينئذ يتفـــاعل التحصيل العلمى مع شخصية المتعلمين الصغار وهذه الغاية التى يصبو اليها كل من الأسرة والمدرسة .

أما اذا لم تقم المدرسة برسالتها نحو اشباع حاجة الطفل الى عطف وحب الكبار وتقـــديرهم له وشعوره بالانتماء بصورة تحقق حاجته للشعور بالاطمئنان ، عن طريق اتصال المدرسة بالمنزل حتى يمكن اجراء التعديلات اللازمة لحل الصعوبات البسيطة التى تطرأ من آن الى آخر ، فان اهمال ذلك سوف يعرض التلميذ للصراعات النفسية التى تنتج من اختلاف الأسرة فى اتجاه التربية عن المدرسة ، فيصبح التلميذ فى حيرة لا يعلم فى أى اتجاه يسير ، وأخيرا تحل هذه الصراعات بالانحراف فى السلوك كالهـــروب من المدرسة أو المنزل ، والكسل والخمول وأحلام اليقظة ، وسهولة الانزلاق الى مســاوىء مثل التدخين أو الشره الى غير ذلك من ضروب الانحراف مما يتطلب ازدياد الحاجة الى المجهود العنيف اللازم حتى يواصل التلميذ عمله ، الى غير ذلك من الظواهر العديدة التى تدل على عدم الاستقرار النفسى الداخلى للتلميذ .

اسباب الهروب من المدرسة :

١ ــ كراهية الطفل للدراسة : ويحدث ذلك فى أغلب الأحيان عندما يكون ذكاء الطفل محدودا أو متأخر عقليا ، ولا سيما اذا كان فى فصل أعلى من مستواه ، أو طلب منه الوصول الى مستوى اكبر من قدرته فيشعر بالضيق

لعدم امكانه فهم الدروس أو استيعابها ، وسرعان ما يختلق المعاذير للتخلص من الذهاب الى المدرسة . وقد يلجأ بعض الأطفال الى الخروج من المنزل فى الميعاد أيضا ، لايهام الأسرة انه كان فى المدرسة ، فى حين انه كان يذهب الى أماكن أخرى أكثر تسلية وملائمة لمزاجه وقدرته .

وفى بعض الأحيان يعانى الطفل المتفوق شعورا بالضيق لتفاهة الدروس ، ويصور له الغرور أن غيابه لبضعة أيام لن يؤثر فى تحصيله الدراسي ، فيتغيب عن المدرسة تبعا لذلك .

٢ ـ الخوف من العقاب : قد يخاف الطفل من ضرب المدرس له أو عقابه أو تأنيبه أو سخريته منه ، فعندما يكون فى طريقه الى المدرسة ويتذكر احتمال العقاب يغير طريقه الى مكان آخر غير المدرسة ، يمكن أن يلعب ويتسلى فيه . وفى بعض الأحيان ، بسبب ارتباك المنزل أو اهمال الأم ، لا يتمكن الطفل من الوصول الى المدرسة فى الوقت المناسب ويتأخر عن ميعاد بدء الدراسة ، فيعاقب على ذلك غالبا ، فاذا تكرر التأخير وتكرر العقاب فيفضل الطفل فى حالة التأخير الا يذهب الى المدرسة .

٣ ـ التحريض : قد يحرض بعض الزملاء التلميذ لكى يقفز من السور مثلا كنوع من المغامرة الجريئة ويخشى التلميذ أن يتهم بالجبن فيطيع زملائه فى انحرافهم ، ومن السهل اصلاح هذه الحالة بالمناقشة الهادئة مع الاقناع .

٤ ـ اتجاه الأبوين بالنسبة للتعليم : بعض الآباء يحتقرون أو يحقرون مستوى التعليم الحالى بالنسبة لما كان في زمانهم ، وبذلك يفقد الطفل الثقة والاحترام

للمدرسة . وبعض الآباء لا يهتمون بالمواظبة والمحافظة على المواعيد فيمنعون الطفل من الذهاب الى المدرسة لأتفه الأسباب كوجود زوار أو الرغبة فى عمل رحلة أو زيارة للأقارب أو لحاجة الأم لمساعدة الطفل والأعمال المنزلية . وفى الريف وفى المجتمعات الفقيرة يحتاج الوالدان لمساعدة ابنائهم فى العمل فى الحقل او فى المنزل فيمنعون الأبناء من الذهاب الى المدرسة ، وبذلك يبعثون فى نفس الطفل الاستهتار بالدراسة فيلجأ للغياب كلما شعر بعدم الرغبة فى الذهاب الى المدرسة ، وبعض الآباء يكتفون بأن يتعلم الطفل القراءة والكتابة ثم يرسلونه للعمل ليساعد فى تكاليف الحياة . وفى حالات الفقر الشديد يصبح نقص الملابس والأحذية سببا يمنع الطفل من الذهاب الى المدرسة . وأحيانا يستغل بعض الآباء أطفالهم فى التسول والسرقة .

٥ ــ الرغبة فى المغامرة واكتشاف العالم : عندما تكون الحياة المدرسية جافة خالية من الرحلات والترفيه يشعر الأطفال برغبة شديدة فى التجوال لرؤية الحدائق والأماكن المختلفة ، وخاصة عندما يشعرون بعدم قدرتهم على متابعة الدروس ، فالمغامرة تعطيهم شعورا بالأهمية ليعوضوا النقص الذى يشعرون به فى المدرسة . -

(٢) الهروب من المنزل : ان البيت المستمتع بجو عائلى هانىء ، هو البيت الذى يمد أصحابه بالطمأنينة ودفء الشعور ، ويتيح لهم حرية فردية ينظمها التفكير التعاونى والرغبة فى رعاية حقوق الغير ، هو البيت الذى تقوم فيه المعاملة على اساس من الزمالة والتقدير ، وهو ايضا المكان الذى يجد فيه أصحابه الصدر الرحب

الذى يجمع بين العطف والحزم ، والقلب الكبير الذى فيه متسع للتسامح ، والعقل الراجح الذى يحسن التوجيه وأداء النصيحة .

فالبيت الهانىء هو المكان الذى يجد فيه الطفل نموا طبيعيا سليما من جميع الوجوه : جسميا وعقليا واجتماعيا ، وهو أيضا المكان الذى تتفتح فيه الاستعدادات الكامنة لدم الطفل فتتكشف له قدراته ، ويطمئن الى نفسه والى من حوله .

اما البيت المضطرب ، فلا يصلح بأية حال لتنشئة الانسان الصغير ، مهما يتوفر المال والجاه وغير ذلك من وسائل التعويض المادى — فالبيت المضطرب لا يخرج منه الا انسان مضطرب التفكير ، معتل الاحساس ، تعوزه سلامة النظرة الى نفسه والى غيره ، ولن يكون هذا الفرد سعيدا ولا مواطنا نافعا قط . « وفيما يلى الأسباب التى تؤدى الى هروب الطفل من المنزل » :

١ — شعور الطفل بالتعاسة أو الشقاء بالمنزل ، والظروف المنزلية السيئة المضطربة تدفع الطفل الى محاولة التخلص من هذه الحياة والهروب منها .

٢ — اذا ارتكب الطفل خطأ يعلم أن له عقابا شديدا ، دون تفاهم مع الوالدين وعدم احساس بالاطمئنان اليهم ، لجأ الى الهروب من المنزل وهو يذهب عادة الى أحد الأقارب الذى يسعد معهم كى يحميه من غضب الوالدين وسوء معاملتهم له .

٣ — الغضب من سوء المعاملة أو اعتقاد الطفل انه مظلوم أو حرم من شيء أعطى لأخوته ، وفي هذه الحالة

يهدف الطفل الى الانتقام من الأبوين مع الأمل ان يشعروا بقيمته اذا غاب عنهم .

٤ ـ الحقد والغيرة التى تنتج من سوء معاملة أفراد الأسرة للطفل تجعله فى حالة مستمرة من التفكير فى الهروب من هذا الجـــو الذى لا يوفر له الاحساس بالطمأنينة ، ويبث فيه الحقد على من فيه ، فاذا وجد فرصة سانحة نفذ ما كان يفكر فيه .

٥ ـ يكثر هروب الطفـــل فى « حالة غياب أحد الوالدين » لسبب ما ، كما يحدث فى حالات الأطفـال اليتامى او المتبنين ، وتفكير الطفل فى هذه الحالة أنه يريد أن يجد والديه فيبحث عنهما على غير هدى .

٦ ـ الأمل فى عمل أو ربح أو شهرة ، يدفع هذا الأمل الكثير من المراهقين الى ترك منازلهم للبحث عن هذه الأهـداف ، وقـد يـكون ذلك بدون علم الأبوين أو رضاهم ، أما فى الحالات التى يكون فيها الوالدان على علم بذلك ، فلا يسمى هروبا بل يسمى هجرة ويكثر هذا فى المجتمعات الفقيرة .

٧ ـ التخلف العقلى : تجذب الأضواء والأشياء المغرية فى الشوارع بعض ضعاف العقول فيخرجون اليهـــا ويسيرون فى الشوارع دون هدف معين حتى يضلوا الطريق .

٨ ـ الصرع : كتجوال المريض فى الشوارع فى حالة فقدان الوعى أثناء النوبات بدون وعى ، ولا يتذكر المريض شيئا مما حدث .

٩ ـ المرض العقلى : كمرض الفصام وفيه قد يطيع المريض هاتفا يدعوه الى الذهاب الى أماكن مختلفة أو هدف معين أحيانا .

علاج الهروب عند الاطفال

يتوقف العلاج على ظروف كل حالة ويجب مراعاة الآتى :

١ ـ التأكد من صحة الطفل الجسمية ومن سلامة حواسة التى قد تؤثر علي تحصيله الدراسى ، وعدم وجود أية عاهات جسمية تكون سببا فى شقاء الطفل فى المدرسة أو المنزل .

٢ ـ التأكد من ملائمة ذكاء الطفل للفصل الذى يوجد به ، والتنبيه على المدرسة بوضع الطفل فى الفصل المناسب لقدراته التحصيلية .

٣ ـ البحث عن أسباب التعاسة في المدرسة أو فى المنزل والتعرف على اتجاه المدرسين أو الزملاء نحو الطفل ومحاولة علاج المواقف التي تحتاج الى تعديل .

٤ ـ العمل على ايجاد وسائل اغراء فى المدرسة كالألعاب المختلفة والرحلات المدرسية وأوجه النشاط المختلفة مع العمل على تنمية الهوايات لدى الأطفال .

٥ ـ تصحيح اتجاه الأبوين نحو الدراسة والتعليم وتوضيح اهمية المواظبة .

٦ ـ تشجيع الاشتراك فى النوادى والرحلات .

٧ — توفير اسس الصحة النفسية للأطفال بالمنزل وبالمدرسة ، مما يكفل لهم الشعور بالأمن والطمأنينة فى علاقاتهم الأساسية مع من يحيطون بهم .

٨ — توفير المسكن المناسب لكل أسرة يساعد الطفل على الشعور بقيمته وبمكانته فى الحياة ، كما يعلمه احترام ملكيته الخاصة ويعطيه الاحساس بالانتماء للأسرة ولا سيما حين يتوفر احساسه بالطمأنينة لمن حوله .

٩ — توعية الآباء والأمهات بطرق التربية الصحيحة بكل الوسائل المكنة لمناقشة مشاكل الأطفال فى كل أسرة والتوعية بما يتبع لتوفير الاستقرار والهدوء النفسى للأطفال فى المنزل والمدرسة .

١٠ — انشاء مدارس خاصة لضعاف العقول وذوى العاهات ووضع كل طفل في المكان المناسب له لحمايته من التشرد والانحراف ، وتأهيلهم للحياة السوية .

الجزء الثانى

عرض بعض حالات نفسية للأطفال

البيت المستمتع بجو عائلى هانىء ، هو البيت الذى يمد أصحابه بالطمأنينة ودفء الشعور ويتيح لهم حرية فردية ، ينظمها التفكير التعاونى والرغبة فى رعاية حقوق الغير .

البيت للطفل بمثابة الارض للبذرة ، فالأرض الطيبة تنمو فيها البذرة نموا طبيعيا سليما ، وتنتشر انتشارا يعطى أكبر انتاج تستطيعه هذه البذرة . كذلك البيت الهانىء ، هو المكان الذى ينمو فيه الطفل نموا طبيعيا سليما من جميع الوجوه : جسميا ، وعقليا واجتماعيا ، وهو أيضا المكان الذى تتفتح فيه الاستعدادات الكامنة لدى الطفل ، فتتكشف له قدراته ، ويطمئن الى نفسه والى من حوله . وبعبارة موجزة البيت الهانىء هو البيت الذى يكسب الطفل ما يؤهله لمواجهة الحياة خارج البيت،وهو أيضا المدرسة الأولى للمرانة الاجتماعية. فاذا خطا الطفل الخطوة التالية وخرج من البيت لينضم الى المدرسة ويصبح عضوا فى أسرتها ، اقبل عليها مرحبا لأن الجو العائلى فى البيت مهد له السبيل لكى

يقيم علاقاته بالغير على أساس من الطمأنينة والتعاون .

وكما أن الأرض الضعيفة تسيء للبذرة ، كذلك البيت المضطرب ، لا يصلح بأية حال لتنشئة الطفل ، مهما توفر المال والجاه وغير ذلك من وسائل التعويض المادى ، فالبيت المضطرب لا يخرج منه الا انسان مضطرب التفكير ، معتل الاحساس ، تعوزه سلامة النظرة الى نفسه والى الغير ، ولن يكون هذا الفرد سعيدا ولا مواطنا نافعا قط . بل ان عددا غير قليل من الأسر - فى بلادنا - يعانى كثيرا من هذا النوع من التفكير المضطرب والشعور المعتل الذى يؤدى فى نهاية الأمر الى الانحراف فى السلوك وارتكاب أسوأ الأفعال فى حق الأسرة من ناحية والوطن من ناحية أخرى .

وفيما يلى قصة توضح تأثير التفكك العائلى فى اتجاه أفرادها الى الانحراف فى السلوك :

كان تلميذ فى الحادية عشرة من عمره يسرق كل ما تصل اليه يداه من نقود يجدها فى المنزل ، وأحيانا يسرق أقلام زملائه بالمدرسة ، الأمر الذى أدى الى عقابه من مدرسيه مرات متعددة ، وعلى الرغم من ذلك لم يقلع عن هذه العادة الضارة الأمر الذى أدى الى تحويله الى العلاج .

وبدراسة حالة هذا التلميذ تبين أنه نشأ فى اسرة مفككة غير متعاونة يسود جوها دائما الخلافات الاسرية التى لا تنتهى ، يضاف الى ذلك أيضا أن الأب كان تاجرا يغيب عن المنزل طول اليوم ، ليس على وفاق مع زوجته ، مدمن الخمر ، يترك متجره كل ليلة حوالى السابعة مساء ثم يذهب لشرب الخمر ويحتسيه بشراهة وينفق

في سبيل ذلك الكثير دون حساب ، غير عابىء بنفسه ولا بمستقبل أبنائه .

كان الأب يحكم أهل بيته بدكتاتورية لا تقبل المراجعة ، الكلمة دائما كلمته ، والرغبة دائما رغبته ، والويل لمن يناقش حقه في فرض ارادته ، لأنه كما يعتقد فى نفسه أقوى وأعقل وأبعد نظــرا من الناس كلهم ، وكرامته الشــامخة كالجبل الأشم لا تقبل أن ينزل الى مدارك الاعتذار عن غلطة أو الرجوع فى رأى أو مجرد مناقشة حكم أو امر يصدره او رغبة يبديها .

أما الأم فكانت مثقفة ثقافة محدودة ، لا تزيد عن مستوى الرابعة الابتدائية كانت امرأة سلبية لا تجرؤ على انوقوف أمام زوجها ولو فى أبسط الأمور ، تجيب رغباته حرفيا ، ولا تهتز ولو قليلا لألوان بطشه وسيطرته التامة على حياتهم ، كانهم عرائس خشبية يحرك خيوطهــا بأصابعه الصلبة . كان الاب يترك مصروف البيت للأم ويراقب تصرفاتها فى كل ما تصرفه ، كانت مقترة للغاية لا تعطى أولادها مصروفا معقولا ، ولا تعنى بملبس أولادها لأنها لا تصرف كثيرا على ملبسهم . كانت الأم تعانى من الخوف من المستقبل تدخر كل ما فى وســعها خشية أن ينهار زوجها ماليا لادمانه الخمر وعدم قدرتها على اقناعه بالتوقف عن هذا الادمان .

كان الابن يرى أقرانه فى المدرسة يلبسون أفخــر الثياب ويصرفون كثيرا فى شراء الحلوى والأكل من كانتين المدرسة وهو غير قادر على مجاراتهم ، يرغب فى الاشتراك فى فريق الكشافة والأم ترفض ، لأنها لا تريد أن تعطيه تكاليف ملابس الكشافة . الأم تعكس كراهيتها للأب على الابن بسوء معاملته وحرمانه مما يرغب .

لجأ الابن اخيرا نتيجة هذا الحرمان الى سرقة ما تصل اليه يداه من نقود فى المنزل ليجارى أقرانه فى الشراء من الكانتين والتدخين ويتباهى بذلك امامهم . وكان يسرق كتب أقرانه ويبيعها بأبخس الأثمان لمكتبة مجاورة للمدرسة ، ويسرق الكراسات ويبيعها أيضا .

كان الابن هو آخر العنقود ، ولم يكن فى العنقود ذكر سواه ، فقد كانت الأم لا تنجب الا اناثا ، أنجبت سبع اناث خلال خمسة عشر عاما ، كانت منهن اثنتان احداهما زهقت أنفاسها قبل أن ترى النور ، والثانية أخمدت روحها بسبب اصابتها بحمى نتيجة اهمال الأم . أماالبنات الخمس الأخريات فقد عشن وملأن حياة والديهما ، ومع ذلك فقد كانا يشعران بحاجاتهما الى ابن ذكر يعتمدان عليه فى شيخوختهما لرعاية هذا القطيع من البنات .

واخيرا وصل هذا الابن آخر العنقود ففرحا بمقدمه ، وكانا يرغبان فى تنشئته افضل تنشئة ، الأمر الذى كان يحتم فى بعض الأحيان سوء معاملة والده له خوفا عليه من الانحراف ، يضربه بقسوة كى يذاكر دروسه خوفا من فشله فى الدراسة .

كان الابن متوسط الذكاء ، متعثرا فى دراسته ، مصابا بعض الشيء باللعثمة فى الكلام ، التلاميذ فى الفصل يضحكون عليه ويسخرون منه ، وكذلك كان المدرس يهزأ به ويقلده فى لعثمته فيضحك باقى الأولاد فى الفصل ، الأمر الذى أدى الى كراهية التلميذ الى كل من بالفصل ، وكذلك كراهية بعض مدرسيه الذين يسخرون منه ، واخيرا لجأ الى سرقة كتب الأولاد، وخاصة كتب الحساب لكراهيته الشديدة لتلك المادة ولمدرسها .

تكررت السرقات وبدات الشكوى منه تزداد وأخيرا

ابلغت المدرسة اسرته بهذا الانحراف ونصحتها بضرورة علاجه من هذا الداء قبل أن يستفحل ويزداد ولتجنب مضاعفات هذا الداء فيما بعد فى مستقبل حياته .

التعليق :

ان هذا الطفل نشأ فى جو أسرى غير صالح من اب قاس ، عنيف ، مدمن خمر ، لا يقدر احاسيس ابنائه ، وأم جاهلة مقترة تحرم ابنائها من كل ما يحتاجون اليه من الوسائل التى تبعث السعادة الى نفوسهم ، يضاف الى ذلك الخلافات المستمرة التى كانت تقوم بين والديه نتيجة اسراف الوالد فى ادمان الخمر وعدم تقديره لمستقبل أبنائه ، فكان هذا الابن فى هذا الجو الخانق بالحقد والكراهية لا يشعر بالدفء العاطفى لا من الأب ولا من الأم ، ولذلك كان يعانى من الشعور بالقلق النفسى والشعور بالنقص خاصة ان ملابسه ومصروفه أقل من أقرانه ، الأمر الذى دفعه الى السرقة لاثبات ذاته .

يضاف الى ذلك أن طفولة هذا الابن ، كانت لفترة طويلة تدليلا لأنه الولد الوحيد وباقى أخواته بنات . وفى فترة التدليل كانت كل رغباته تجاب ، وبمعنى آخر انه درج لعدة سنوات على أن تجاب رغباته ومن ثم لم يتعلم مقاومة اية رغبة ، ثم فجأة تغيرت المعاملة بعد دخوله المدارس ، وبعد أن كان مركزه فى العائلة ممتازا أصبح يعاقب بالضرب الشديد ويحرم من الشعور بالتقدير والمشاركة الوجدانية ، فكان يحاول بالسرقة تحقيق رغباته التى كان قد اعتاد على تحقيقها فى طفولته .

ونظرا لتعثر الابن فى دراسته ولعثمته فى الكلام كان غير متقدم فى المدرسة وغير محبوب من مدرسيه وأقرانه ، مما أدى الى القسوة فى معاملته والاستهزاء به من المدرسين ومن أقرانه دون مراعاة لأحاسيسه المضطربة ، الأمر الذى أدى فى النهاية الى التجائه الى سرقة كتب وأقلام وكراسات التلاميذ ثم بيعها بأرخص الأثمان ، وذلك انتقاما منهم لكراهيته لهم .

ومع ذلك فقد أمكن علاج الطفل النفسى وبتوجيه الوالدين الى ضرورة فهم حاجته النفسية واشباعها مع توفير الجو الأسرى الهادىء الذى يشعر فيه بالحب والعطف والطمأنينة ، الذى يساعده على الاحساس بالانتماء وانقاذه من الانحراف السلوكى ، وقمت كذلك بالاتصال بالمدرسة ووضحت للمدرس حاجة هذا الطفل الى فهمه وتقديره وتشجيعه كى يساعده على التخلص من داء السرقة واللعثمة فى الكلام ، فهذه جميعها سببها اضطراب الابن نفسيا لاحساسه بالغضب وفقد الثقة بالنفس لسوء معاملته فى المنزل وفى المدرسة .

ولحسن حظ هذا الابن ، ان استجابت الأسرة والمدرسة للتوجيه ، وبذلا ما فى وسعهما لمساعدة هذا التلميذ لتخليصه مما يعانيه من انحراف فى السلوك ، ثم بدأ ينتظم فى المدرسة ، وظهر تفوقه فى دراسته وكان مصيره النجاح فى نهاية العام ، وبذا أنقذه العلاج الطبى النفسى من تدمير مستقبله وتوجيهه الى طريق السلام الذى يؤهله الى أن يهدأ نفسيا ويطمئن داخليا ، فينجح فى أعماله فتسعد الأسرة به ويفخر الوطن بأعماله .

مما سبق نرى أن الانحراف السلوكى للطفل سببه افتقاده الاحساس بالحب والحنان والدفء الأسرى فيفقد

الاحساس بالانتماء الى اسرة ، وبذلك يسهل انزلاقه الى مهاوى الرذيلة والانحراف فى السلوك . لذلك فان توفير الجو الأسرى الصالح يساعد الطفل على أن يحيا فى جو خاص به ، كله أمن وطمأنينة وعطف مستنير وتفاهم متبادل ، يتعاون الوالدان على تهيئته له لأنه حق من حقوقه بل وشرط من الشروط الأساسية التى تنهض بالطفل نهوضا شاملا ، فنشاهد تقدمه فى النواحى الجسمية والذهنية والنفسية معا فى نفس الوقت .

وكذلك فان دور المدرسة لا يقل أهمية عن دور الأسرة فى مساعدة الطفل على الاحساس بالاطمئنان ودفء الاحساس الداخلى وذلك عن طريق فهم الحاجات النفسية لتلاميذها ومساعدتهم على توفير الثقة بالنفس وعدم الشعور بالنقص عن طريق التشجيع والفهم لمشاعرهم .

ولذلك فباشتراك المدرسة والأسرة وتعاونهما معا ؛ يمكن خلق جيل صالح متفوق ، قوى ، مكافح ، له من الصفات النبيلة التى تساعد على توفير مستقبل سعيد منتج وحياة مستقرة هانئة فيما بعد .

انتقمت من والديها.. بتمزيق ملابسها

نالت التنشئة السليمة للطفل قسطا وافرا من اهتمام الدراسات الحديثة ونتائجها واصبحت المؤلفات والكتب المترجمة فى متناول من يعنى بالبحث عنها ، بقصد تتبع ما يجرى فى عالم الطفولة ـ لا من حيث أصول تنشئة الطفل فحسب ، بل ايضا من حيث أسباب مشكلات الطفولة والعوامل المؤثرة فى انحراف السلوك ، والوسائل التى تساعد على اعادة الهدوء والاستقرار الى نفس الطفل ونفوس من يشرفون على تربيته فى البيت والمدرسة والمجتمع . وعلى الرغم من توفر هذه الكتب المؤلفة والمترجمة ، التى تدور حول تفهم الحياة العقلية والانفعالية عند المولود الحديث ، والطفل ، والمراهق ، والشاب ، فاننا لا نزال حتى الآن ، نلمس الاستخفاف بمسئولية اعداد الأبناء اعدادا يساعدهم على الانخراط فى الحياة ، فى ثقة واقدام ..

ان عالم الصغير يختلف اليوم عن عالمه بالأمس وهو فى ذلك انما يساير الزمن . فنحن نواجه مشكلات لم يكن لاجدادنا عهد بها من قبل ، لذلك وجب أن تختلف نظرة آباء اليوم عن نظرة آباء الأمس بصدد حقوق الطفولة ومشكلاتها ، فاذا ما أتى الطفل عملا اثار غضبهم ـ

والأطفال كثيرا ما يقومون فى أعمار مختلفة بأعمال تسبب على أقل تقدير مضايقة من حولهم من الكبار ــ لم يكن فى هذا ما يبرر سخطهم ويدفعهم الى توقيع العقـــوبات القاسية عليهم على العكس من ذلك ينبغى أن ننتظر من اب وأم اليوم أن يهدفا الى البحث وراء مظاهر السلوك لتلمس دوافعه ، حتى يتسنى لهما اختيار الأسلوب الذى يعالج المشكلة من الأساس ، وسأضرب لذلك مثلا لاوضح ما أقصد .

كانت أولى الأبناء الذين رزق بهم والداها ، فاستأثرت فى خـــــلال السنوات الأولى من عمرها بغاية حبهما وحنانهما ، وبفضل يسرهما المالى ودخلهما الوفير تنعمت بكافة ألوان الرخاء والرفاهية ولكن هذا العهد الذهبى لم يستمر .

كانت فى العـام السادس من عمرها ، محبـوبة من مدرساتها بالمدرسة منسجمة مع باقى الأطفـــال الذين فى سنها ، وهى فى البيت أيضا لطيفة المعشر محبوبة من الجميع ، يميل الخدم الى مداعبتها لأنها تقبل المداعبة وتردها فى حدود الأدب .

ثم حملت الأم للمرة الثانية وأنجبت صبيا تحققت به آمالها الدفينة فى أن يكون لها ابن ذكر يقف بجوارها فى مواجهة الحياة ، ويعين أباه فى شيخوخته ويخفف عنه أعباء العمل . وجاء الطفل لطيفا حلو الشمائل ، فاستحوذ على قلب أمه ، ولم يترك بذلك القلب مكانا ولو صغيرا لأخته الكبرى التى ظلت الى حين قرة عين والديها .

وبعد أن كانت تجلس على عرش المحبة فى أسرتها ، أصبحت تجد نفسها محرومة من جميع ما كانت تتمتع به من قبل ، انشغل الوالدان بالطفل الجديد بل عن كل

شيء ســـــواه ، فاذا خرج مع مربيته للنزهــة يودع بعبارات الوله والهيـــــام ، واذا رجع يقابل بالترحيب والاكرام ، وعندما يضحك يعم الحبور أهل البيت كلهم وعندما يبكي يشيع الذعر .

ووجدت الابنة الصغيرة بأنها لم تعد مرغوبا فيها ولم يعد أحد يحس بوجودها ، وأن الأحباب القدامى قـد انصرفوا عنها فدفعها ذلك الموقف الى التمرد على أمها ، وعصيان أوامرها ورغباتها على سبيل الانتقام لنفسها من المرأة التي هجرتها وأغلقت أبواب قلبها دونها .

استاءت الأم من تصرفاتها وعبرت عن ذلك بضربهـــا وحرمانها من أشياء تعرف أنها تحبها ، كذلك الأب ، ثار غضبا الى حد دفعه الى ضرب الطفلة ضربا قاسيا . ثم أخذت الأعمال المثيرة للغضب تتكرر من الطفلة فيتكرر معها استياء الأب والأم ، كل على طريقته ولكن على غير جدوى . والطفـــلة لم ترتدع ، بل أخذت تتمادى فى أعمالها المثيرة ، وتغيرت أخلاقها فأصبحت شرسة المزاج ، عنيدة ، مكابرة ، لا تخضع للأوامر ، ولا تحترم رغبات الـكبار بل كانت تأتي بأعمال تثير غضبهم ، التي تبلورت آخر الأمر الى حادثة لجأت فيها الى قص بنطلونات بدل الأب وتمزيق فســـاتين الأم ، الأمر الذي دفعهما الى الالتجاء الى المشورة الطبية النفسية وطلب العلاج .

وبدراسة الحالة تبين أن الطفلة كانت رقيقة الشعور وتستمتع بحب وحنان والديها ، وبولادة الطفل الجديد انصرف الوالدان عنها كلية ووجهـــا كل اهتمامهما الى الابن الصغير وكل منهما يعتبر أنه أدى واجبه كاملا نحو الابنة اليقظة الحساسة بما وفرا لها من مأكل وملبس . هذا السلوك من جانب الأبوين فيه تجـــاهل لشخصية

الطفلة الأمر الذى سبب لها الآلام والشعور بالقلق فاضطرت الى اعلان احتجاجها ، بطريقتها الخاصة ، لتنبههما الى أنها شخصية يقظة تفكر ولها حقوق تتعدى نواحى المأكل والملبس بكثير .

اصيبت الطفلة بطعنة نفسية كبيرة حين تلفتت حولها فوجدت والديها تخليا عنها وأنزلاها عن عرشها دون وجه حق ؛ ولم تجد من والدها العوض عن الجوع العاطفى الشديد الذى أصابها بانشغال امها عنها ، فتضاعفت المرارة فى نفسها . هذه المرارة التى الجأت الطفلة الى التعبير عنها بالانطواء على نفسها ، وبالعناد والمكابرة والمشاكسة وكراهية من حولها ، الأمر الذى أدى فى النهاية الى حادثة قص بنطلونات والدها وتمزيق فساتين والدتها .

ومما زاد فى احساسها بالعذاب ضربها وعقابها من والدها ومن المدرسات بالمدرسة . حينئذ تأكدت انها مخلوق غير مرغوب فيه بعكس أخيها الذى يستمتع بكل شيء ، فأصبحت انسانة ينقصها الاحساس بالاخاء ، لا تنتمى الى أحد ولا أحد ينتمى اليها ، هذا الشعور القاتل الذى كثيرا ما يدعو صاحبه الى ارتكاب أبشع الأعمال .

بعد دراسة الحالة والظروف التى ادت الى اصابة الطفلة بالاضطراب النفسي أوضحت للأبوين الأخطاء التربوية التي ارتكباها فى حقها وقمت بتوجيههم الى كيفية التعامل معها واعادة ثقتها بنفسها واحساسها بالانتماء . وبعد فترة علاج قصيرة بدأ سلوك الطفلة يعتدل ، وتوقفت عن الأعمال المثيرة ، والمشاكسة والعناد ، وبدأت المدرسات فى المدرسة يلاحظن التغيير الواضح فى سلوكها ، وأصبحت محبوبة من الجميع فى المدرسة وفى

المنزل ، نتيجة العلاج واتجـــــاه المنزل والمدرسة نحـو تشجيعها واشباعها بالحب والحنــان والرعاية النفسية التي حرمت منها فترة طويلة .

التعليق :

هذه قصة طفلة تحدث أمثالها في كثير من الاسر وسوف اوضح الأخطــاء التربوية التي ارتكبت في حق هذه الطفلة :

١ ــ اغراق الحب والحنان للطفلة في طفولتها الأولى واستجابة كل طلباتها دون حساب ثم توقف هذا الاهتمام الزائد فجأة .

٢ ــ تحول اهتمام الوالدين الى الطفل الجديد بصورة مبالغ فيها أمام الطفلة دون مراعاة شعورها أطلاقا في أي تصرف يقومان به .

٣ ــ اعتقاد الوالدين الخاطيء بأنه طالما لا ينقص الطفلة المأكل والمشرب والملبس ، فان واجبهما نحوها أصبح كاملا دون تقصير .

٤ ــ بالرغم من تكرار سلوك الطفلة غير المرضي والتجائها الى المشاكسة والعناد والتدمير ، الأمر الذي ادى الى نفاد صبر كل من الأم والأب ، لم يهتم أحدهما بسؤال نفسه أو سؤال زميله ، ترى لماذا تتعمد الابنة العبث بملابسها وتسلك هذا السلوك غير المرضي ، هذا السؤال لم يخطر مطلقا على بال أحدهما .

٥ ــ التجاء الوالدين الى القسوة والعنف والضرب في معاملتها دون محاولة فهم حاجاتها النفسية .

٦ ــ التجاؤهمـــــا الى تحريض المدرسات على عقابها

وضربها عند تقصيرها او سوء سلوكها ، الأمر الذى أدى فى النهاية الى احساسها بأنها مكروهة من الجميع وبأنها لا تنتمى الى احد ولا أحد ينتمى اليها ، مما أدى فى النهاية الى ارتكابها أسوأ الأعمال .

ان الطفل فى اى سن مهما تكن صغيرة ، يعنيه أن يثبت وجوده ، فيتعمد ان يوجه انتباه الآخرين الى قدراته ومهاراته ــ فاذا فهمه وقدره ممن حوله ، كان ذلك مصدر اطمئنان له ومبعث هدوء لمن يهتمون بأمره ، هذا الاطمئنان وذلك الهدوء نستطيع جميعا ان نخلقهما فى بيوتنا لو أننا ادركنا ان تنشئة الأبناء أمر يحتاج الى الاستعانة بما يجرى فى عالم الطفولة ، بقصد الوقوف على أنواع الشعور لحياة أبنائنا فى جميع الأعمار ، والتعرف على حاجاتهم وتفهم ما يدق علينا من مظاهر سلوكهم . هذا اللون من الثقافة على ضآلة تكاليفه له أثر كبير ، فحسبنا أنه يعيننا على توجيه أبنائنا توجيها مستنيرا وترجمة سلوكهم ترجمة صحيحة يتوفر معهما الهدوء فى أركان بيوتنا .

ليس يكفى الطفل أن يوفر له الغذاء والنظافة والملبس فقط ، بل ينبغى الى جانب هذا وذاك ــ ان لم يكن قبلهما ــ أن نوفر الطمأنينة النفسية التى يستمدها من شعوره باهتمام والديه به وعطفهما عليه وحبهما وتقديرهما له .

لذلك ، علينا أن نتبين السبب أو الدافع الخفى المستتر وراء السلوك الغريب أو المنحرف ، حيث يمكننا قبل ضياع الفرص أن نضع الأمور فى نصابها ، بما يكفل تحقيق حاجات الطفل النفسية ، ويوثق العلاقة بيننا وبينه ، وفى ذاته تكسبه خبرات شخصية مباشرة .

ان العلاج فن وأهم عناصر هـــذا الفن هى البصيرة وصدق الالهام أو الحدس ، واذا كان هذا صحيحا فى العلاج بوجه عام ، فهو أصح وأكثر انطباقا على العلاج النفسى ، فبقدر ادراك المعالج لمشكلات الشباب المشتركة ونفاذ بصيرته يكون نجـــاحه فى مهمته ، وتوفيقه فى العلاج . ومما لا خلاف عليه أن مهارة المعـــالج النفسى والمامه بأصول العلاج النفسى من عوامل تمكينه وزيادة حظه من التوفيق ، فاذا ما تزود المعـــالج فوق هذا كله بالدراية بخفايا الحيل النفسية التى أماط اللثام عنهـــا العلاج النفسى فانه يبلغ من التوفيق غاية مداه .

وكذلك ينبغى على المعالج النفسى الا ينزلق وراء المظاهر السطحية لسلوك الطفل أو الفتى فيسمى لصا ومتشردا وسارقا ، مكتفين بالوقائع الظاهرية وشكوى الوالدين . بل يجب البحث والتـــــدقيق كى نصل الى البواعث الحقيقية التى يجهلها الشاب نفسه كما يجهلها والداه ، كما ينبغى ألا نعتقد ــ بجهالة ــ أن الفتى ملتو حيث يصر على كتمان ما فى نفسه مع أن المسكين ليس أكثر منـــا علما بما نرهقه بالسؤال عنه ونصر على التصريح به لنا .

وفيما يلى حالة تبين لنا الأهمية القصوى للثقـــافة

النفسية ، واهمية معرفة اصول ومبادىء العلاج النفسى ووسائله الأولية ، حتى بالنسبة للأطفال الأصحاء نفسيا وجسميا .

جاءت الأم ومعها ابنها البالغ من العمر ثلاثة عشر عاما ، ولما استقبلتها فى عيادتى اخذت تشكو من سوء سلوكه وبلغ من ضيقها به أن أصرت على أن تحيله الى احدى الاصلاحيات .

وعلى حسب عادتى ، بدات بمقابلة الأم أولا على انفراد ، وكانت سيدة نحيفة متوسطة الطول ، صغيرة الملامح ، نفاذة النظرات ، فياضة الحيوية ، ثابتة الجنان ، عرفت خشونة الحياة منذ طفولتها ، ورغم رخاء الحالة المادية بعد زواجها الا أن علاقتها العاطفية مع زوجها لم تكن على ما يرام ، وبعد سماعى القصة من الأم ، قابلت الفتى . دخل الصبى ، والحق أنه ترك فى نفسى منذ الوهلة الأولى أثرا طيبا ، فمظهره ليس فيه ما يدل على نقيض ذلك تماما كما يبدو نموذجا حسنا للمهذبين من الطبقة المتوسطة .

وأول ما لفت نظرى فيه انه أطول بكثير عن المفروض فى سنه . ولكن رغم طوله المفرط لم يكن هزيلا ، وكان قوى العود ، وكان وجهه فوق جسمه النامى مستديرا كوجوه الأطفال الصغار . ولاحظت أنه شديد العناية بتصفيف شعره الأسود اللامع ، والقيت نظرة خاطفة على يديه فوجدتهما يماثلان وجهه فى شدة النظافة ، وكان أنيقا فى ملبسه يبدو واثقا من نفسه .

وبدأ الفتى بتحية مهذبة ثم بدأ يسرد تاريخ حياته وتفاصيل حادث الهروب والسرقة ووصف حياته الاسرية .

نشأ الفتى فى أسرة ، العلاقة فيهـــا بين أبويه غير منسجمة لأن التفاهم بينهما كان متعــذرا فى مناسبات كثيرة لاختلاف وجهتى نظرهمـــا فى معظم الأمور ، وكانت الأم أسرع الى الفضب من أبيه .

تزوجت الأم منـــذ خمسة عشر عاما من رئيس عمال فى أحد المصـــــانع وكانت تشتغل فى احدى مؤسسات القطاع العام . كانت الأم اسرع الى انفضب من الأب ، وحينما تغضب الأم يغادر الأب المنزل ولا يعود اليه الا بعد ساعات طويلة وأحيانا بعد ايام قليلة ، وتكون الأم قلقة جدا لغيابه .

كانت علاقة الفتى بأبويه بين الحب والبغض ، فحينما يشتد عليه غضب الأم يتجه بعواطفه نحو الأب ، وعندما يأبى الوالد أن يحميه عند خروجه لصيد السمك يتذمر ويسخط ويشكو لأمه ، فكان حب الفتى لأمه أكثر من حبه لأبيه .

كان للفتى أخت أصغر منه بعامين ، وكانت العـــلاقة بينهما ليست على ما يرام وكثيرا ما كان يغضبها ، وكانت الأم دائما تنحاز الى صف الفتاة كلما اختلفا معا .

كانت أخته متفوقة عنه دراسيا ، أما هو فكان يكره الذهاب الى المدرسة ويتمنى ان يهجـــــرها ليشتغل ميكانيكيا .

وفى مساء أحد الأيام السابق لهروبه ، قدمت الأم الى الفتاة مبلغا من النقود كى تبتاع فستانا جديدا . ولم يخطر لها أن تعطيه مبلغا مماثلا ليشترى حذاء لنفسه ، مع أن حاجته هو لحذاء جديد كانت أشد من احتياج أخته الى الفستان ، ولما غضب لم تستطع أمه أن تتبين لغضبه مبررا .

وفى اليوم التالى طلبت الأم من ابنها قبل أن تذهب الى عملها أن يشترى بعض الحاجيات اللازمة للمنزل ، وبعد أن عاد الى المنزل وأحضر ما طلبته أمه منه ، طرأت بذهنه فكرة الذهاب الى جهة مجـــــاورة حيث أشجار المانجو كى يحضر لوالدته البعض منها ، وقد عرف طريق هذا المــكان من والده عندما كان يصاحب والده أحيانا كلما خرج للتمشية ، وكان يمر بهذه الجهة .

وأخذ معه نقود أخته من الحصالة وبعض السندوتشات التى أعدها لهذا الفرض،وتوجه الى المحطة منتظرا القطار الذى سيوصله ثم استقل القطار ووصل الى المكان الذى يرغبه ، ومع الأسف لم يجد بالأشجار أنواع الثمار التى كان يرغب فى احضارها معه ، لأنها لم تنضج بعد ، ثم بدأ الخوف يتسرب الى نفسه لبعده عن المنزل فترة طويلة. وخشى من نتيجة عودته متأخرا ، فأخذ يجوس خــلال المزرعة هائما ، الى أن ساد الظــلام وأخذ المطر يتساقط ، ثم اضطر الى قضاء ليلته أخيرا فى حظيرة وجدها هناك ، وكان يرتجف فى هذه الليلة خوفا من أن يكتشف وجوده أحد أصحاب المزرعة راقدا بمفرده فوق كومة كبيرة من القش .

كان فى أول الليل يخشى أن يستغرقه النوم فلا ينهض فى ساعة مبــكرة ويــكتشفه المزارع نائما فى حظيرته ، فأدى هذا الخاطر الى قلقه طول الليلة . وما أن ظهرت أول تباشير الصباح حتى غادر الحظيرة وبقى مختفيا بين الأشجار رغم استمرار المطر فى ذلك اليوم ، خشية أن يضبطه أحد اذا دخل الحظيرة ، وقضى الليلة التالية فى نفس المكان .

وفى الصباح فكر فى العودة الى البيت لشدة الجوع

الذى كان يعانيه ، ولم يكن يشعر بأى ندم أثناء عودته ، أما الخوف من العاقبة فلم يشعر به الا حينما اقترب من البيت .

ولما دخل البيت ، لم يجد هناك احدا سوى أخته ، فأخبرته أن أمها ستعود بعد قليل من عماها ، وان والديه ساخطان عليه سخطا شديدا بسبب هروبه . وترك اخته ودخل الحمام لأنه كان بحاجة شديدة الى تنظيف نفسه ، ثم ارتدى ثيابا نظيفة ونزل الى الشارع ليقابل أمه عند عودتها . فلما اقبلت وأبصرته لم توبخه بكلام كثير بل كان كل ما قالته له بهدوء « أنت ولد عاق وغير مطيع وينبغى أن أدخلك الاصلاحية » .

وفى اليوم التالى توجهت الأم بصحبة ابنها الى عيادتى لأخذ المشورة ولتحويله لاحدى الاصلاحيات أوالمؤسسات .

وبعد أن روت لى قصتها قابلت الفتى وروى لى التفاصيل السابق ذكرها ، فأطلعت الأم على المبررات التى ادت الى سلوك الفتى هذا السلوك وهروبه من المنزل وسرقة نقود أخته ، وأوضحت لها أنه فى حاجة الى العلاج النفسى ولا داعى لادخاله الاصلاحية وسوف يؤدى العلاج النفسى الى أحسن النتائج .

وفى خلال فترة قصيرة لا تزيد عن ثلاثة شهور ، بدأ الفتى يستقر نفسيا ، وتوقف عن عمليات الهروب والسرقة المتكررة ، وبدأ ينتظم فى دراسته وأصبح محبوبا ومرغوبا من الجميع فى البيت والمدرسة .

التعليق :

ان الفتى لا يبدو عليه دليل على المرض ، وليس هناك

ما يدعو للقول بوجود اســـتعداد فطرى للتشرد لديه ، وكذلك ليس فى وسعنا أن نعلل هروبه بالخوف من توقيع عقوبة معينة عليه ، أو نتيجة لشعور حاد بالقلق ، وليس لدينا فى الوقت نفسه الا حقيقة واحدة مقطوع بها ألا وهى تفسير الفتى لمسلكه كله على أنه تحقيق لرغبة استولت عليه فى أن يأتى لأمه بشىء من ثمار المانجو الذى تحبه ، وهذا هو التفسير الواضح لســـــــلوكه غير السوى كما أوضحه هو .

ولكن يجب أن ننظر الى الموضوع من زاوية اخرى ، فليس هناك ما يدعو للاعتقـــــاد بأن الفتى كان مشغول الفؤاد بحبه المفرط لأمه فى ذلك الوقت ، بل الحقيقة ـ وباعترافه هو ايضا ـ أنه كان عندئذ ـ ساخطا عليها منذ الليلة السابقة لأنها فى اعتقاده تحيزت لأخته وفضلتها عليه ، فأعطتها نقودا تشترى بها فستانا جديدا ـ وهو يرى أنه أولى منها واحوج الى شراء حذاء ، فحقد عليها وأراد أن ينتقم ويبتعد عنها بالهرب .

يضاف الى ذلك أنه لجأ الى سرقة نقود اخته المخصصة لشراء فستانها ، كى يحرمها من شرائه لاحساسه بالظلم الذى يعانى منه .

ومن الملاحظ أيضــــا أن الفتى غادر البيت متقمصا شخصية والده الذى كان من عادته مغادرة البيت اذا نجم شقاق أو شحناء بينه وبين الأم ويظل بعيدا عنه ساعات طويلة ، فقام الفتى بمثل ما يقوم به الأب .

وهذا السلوك التقمصى لشخصية الأب ، أتاح للفتى ان ينتقم من امه بما سببه لها من قلق لغيابه ، كمـــا كانت تقلق فى غياب والده بالخارج .

ومما يتسق مع الرغبة فى الانتقام من امه ومن اخته

انه استولى على نقودهما ، وأما عدم مساسه بنقود أبيه على الرغم من معرفته بمكانها فيتسق تماما مع فكرة تقمصه لشخصية أبيه .

وبهذه السرقة أصاب عصفورا آخر اضافيا علاوة على العصافير السابقة التى أصابها بحجر واحد ، اعنى أنه سوى حسابه مع اخته . فسلبها النقود التى اخذتها من امها الليلة السابقة بقصد شراء فستان جديد ، ورآها تضعها فى حصالتها ، وفقدانها لهذه النقود يترتب عليه أن تضيع فرصة اقتناء فستان جديد لها قبل أن يحصل هو على حذاء له .

ومع ذلك فلم يذكر أيا من هذه التفسيرات بوضوح اثناء العلاج النفسي وأنه كان راغبا فى الانتقام ، وأن تقمصه شخصية أبيه يتيح له ان يقلده فى الطريقة التى يتبعها الأب لازعاج الأم وتنغيصها . وفى الوقت نفسه مظهره برىء أو طبيعي يخفى به هذه الرغبة القبيحة من رقابة الشعور الأخلاقية الكافية ، فغطى رغبته فى الانتقام بقناع من الطيبة والمحبة نحو أمه وهو قناع تقبله الأخلاق وترضى عنه ، وبهذا يكون السلوك المنحرف من الفتى عرضا يوفق بين القوتين المتعارضتين ، وهما حب الأم والوازع الأخلاقى من جهة ، والرغبة فى معاقبة الأم وتنغيصها من جهة اخرى .

وتحليل هذه الحالة يضيف الكثير الى معرفتنا بأسرار الانحراف العادية التى تبدو على كثيرين من الصغار والشباب ، ويبدو لنا أنها مجهولة السبب غير مفهومة ، ولا سيما ان بعض الشباب المنحرف فى هذه الحالة قد يكون فيما عداها سويا مهذبا .

وينبغى ايضا الا ننزلق وراء المظاهر السطحية ،

فنحسب الولد لصا ومتشردا مكتفين بالوقائع الظاهرية وبشكوى الوالدين ، بل يجب البحث والتدقيق كي نصل الى البواعث الحقيقية التي يجهلها الصبي نفسه كما يجهلها والداه ، ولا نعتقد بحال ان الفتى ملتو خبيث يصر على كتمان ما في نفسه ، مع ان المسكين ليس أكثر منا علما بما نرهقه بالسؤال عنه ونصر على التصريح به لنا .

وهذه الحالة تبين الأهمية القصوى لدراية الوالدين والمربين عامة بمبادىء التحليل النفسي لمعرفة ما وراء السلوك المنحرف .

فالسلوك غير الاجباري دليل على أن العمليات النفسية شعورية ولا شعوريه ، ليست في حالة وفاق ، فمثلا سرقة النقود التي أقدم عليها الفتى في الحالة السابقة ، وهربه من البيت ، أنهما مظهران للانحراف ناتجان عن قوى نفسية لم تستطع الحصول على اشباع بصورة مقبولة اجتماعيا . فاضطر الفتى الى أن يسلك سلوكا لا يقبله المجتمع ، ولذا وصف هذا السلوك بأنه غير اجتماعي ، أو سلوك منحرف .

فالتشرد والسرقة وما اليهما ، انما هي أعراض للانحراف ، شأنها في ذلك ارتفاع درجة الحرارة والآلام والأورام التي تعتبر اعراضا للأمراض المزمنة . وبطبيعة الحال اذا اكتفى الطبيب بعلاج الأعراض الظاهرية ، كان مقصرا لأن فاعلية علاجه لا تمتد طبعا الى المرض النفسي .

وهكذا ايضا يمكن أن يكون موقفنا من اعادة تربية الطفل المنحرف ، فمن الواجب عند قيامنا باعادة التربية أن تعنى بادراك اسباب الانحراف أكثر من اهتمامنا بأعراض الانحراف . ومن أكثر الناس خلطا في هذا

الأمر الوالدان لأنهما بوسائل الاصلاح والتاديب والعقاب ينصرفان غالبا الى كبت السلوك غير الاجتماعى الذى هو مظهر الانحراف أو المرض ، ويخيل اليهما أن اختفاء هذا السلوك المستهجن معناه ان المشكلة قد انتهت ، والحقيقة أن اختفاء العرض ليس دليلا على زوال المرض ، فقد يتخذ المرض لنفسه أعراضا جديدة مختلفة عن الأولى ، وعندما يحال بين أحدى العمليات النفسية وبين الظهور أو التحقيق أو الاشباع ، تظل هذه الطاقة النفسية كامنة تتربص الفرص للتنفيس عن نفسها من سبيل لا تعترضه الحوائل ، وبالتالى يظهر عرض جديد للانحراف نظنه انحرافا جديدا وهو فى الواقع صورة جديدة أو لون جديد أو قناع جديد للانحراف القديم .

واخيرا ينبغى دائما البحث عن الأسباب الحقيقية للانحراف وألا نكتفى بالبحث عن المثيرات المباشرة للانحراف ، فالمهمة الأساسية للعلاج النفسى هى اعادة تربية المنحرف وليست القضاء على المظاهر السائدة للانحراف ، فهما أشبه بانتزاع الحشائش الضارة من جذورها ، لا مجرد اختفائها من فوق سطح الأرض لأنها فى هذه الحالة ستعود الى الظهور ، وفهم هذه المسالة ضرورى للقضاء على كثير جدا من الأوهام المسيطرة على الناس فى تربية الأطفال والشبان . ويفسر لنا فى الوقت نفسه علة فشل العلاج فى كثير من الأحيان ، كما يفشل علاج الصداع الناجم عن تعب فى الكبد بتعاطى اقراص مسكنة كالاسبرين مثلا ، دون أن يعالج سبب تعب الكبد .

واحب ان أنبه فى الختام الى أن النظرية القديمة التى تعالج الانحراف بالقسوة المفرطة خطأ ، وكذلك النظرية

الحديثة جدا التى تعالج الانحـــراف بالرقة المفرطة والتدليل خطأ ايضا . اما الواجب أن يعالج المنحرف كما يعالج المريض ، فنفهم سر انحراف وتاريخ انحرافه وأطواره التى مر بها . وعلى ضوء هذا كله نتيح له بطريق العلاج النفسى تقمص شـــخصية جديدة وبناء نفس جديدة تختلف عن الأولى وتسير فى الطريق السوى الذى يرضاه لنفسه ويرضى به المجتمع .

هذا هو طريق العـــلاج النفسى لأزمات الشباب وانحراف الأطفال ، علاج أساسه العلم والفهم لا القسوة الفاشمة أو الحنان المفرط .

أنقذها العلاج النفسى من الضياع

كانت فى السادسة عشرة من عمرها ، الابنة الوحيدة لأبوين يتمتعان بقدر وافر من الجاه والمال ولكنهما مفرطان فى تدينهما لدرجة التزمت الشديد ، لا يؤمنان الا بحرفية الطقوس الدينية ولا يسمحان لتفكيرهما وتصرفاتهما بأن يسايرا روح العصر ويتطورا بتطور الحياة المتجددة ، ولم يكن لديهما سوى ابنتهما « تهانى » ، تركز عليها اهتمامهما وأحاطاها منذ البداية بنطاق حديدى من الصلابة والجمود . كانا حريصين فى توجيههما على أن تبدو دائما بصورة وقورة محترمة أمام الجميع فى المنزل وفى المدرسة دون الافراط فى الضحك والمرح والجرى حتى لا تكون معرضة لنقد أى انسان ، وأن تكون حسنة السيرة والسلوك فى المدرسة كى تكون سمعتها طيبة فى كل مكان .

تفتحت عيناها على الحياة وهى تجد نفسها ممنوعة تماما من من الضحك بصوت عالٍ وعدم مسايرة الأطفال فى لعبهم فى مرحلة طفولتها ، وعدم الاختلاط والتزاور مع زميلاتها فى المدرسة ومرحلة الدراسة . كانت أمها توصلها الى المدرسة ، ومن المدرسة تعود بها الى البيت لتقضى بقية النهار حبيسة بين الجدران لا هم لها الا

المذاكرة والويل لهـــا اذا حاولت أن تحيد عن النظـام الموضوع لها والذى حدده والداها ، لا تشترك فى أى رحلة ترفيهية تقوم بها المدرسة ولا فى أى انشـــطة اجتماعية مهما كان نوعها .

كانت لا تجرؤ على المعارضة لأن أهلهـــا الحريصين دائما على حبها وسعادتها قد علموها أن تقبل أوامرهم بصبر لا يحتمل الجدل وأن تسلم لهما حياتها ، ينظمونها لها بلا مناقشة او اعتراض .

مرت حياتها بهذه الصورة الى أن دخلت الى المرحلة الثانوية ـ مرحلة المراهقة ـ كان دخولها فى هذه المرحلة دافعا الى مزيد من التشدد حماية لها من الجنوح المألوف فى فترة العمر التى تمر بها . وبقدر ما كانا يحبانها ويسهران على راحتها ، كانا فى ذات الوقت يقسوان من حيث لا يعلمان ، اذ كانا يحرمان عليها ارتداء الملابس الحديثة التى تلبسها زميلاتها من البنات ، ويفرضان عليها الفساتين غير المتمشية مع العصر ، فتبدو بين الأخريات غريبة وشاذة ، وتقاسى من زميلاتها لواذع السخرية وتحتمل كل هذا العذاب وهى راضية صامتة .

كانت على الرغم مما تعانيه نفسيا من احساس بالألم والعذاب والحرمان مجتهدة مجدة متفوقة على زميلاتها ، من المتــــازات فى جميع المواد ، تمتدحها المدرسات وتفخر بنشاطها العلمى ناظرة المدرسة وتغدق عليهـــا الجوائز فى كل مناسبة لتفوقها الملحوظ .

كان الوالدان يسعدان بهـذا التفـوق ويشعران أن طريقتهما فى التنشئة سليمة ، فاستمرا فى مراقبـــة تصرفاتها والتشديد فى معاملتها .

وفى أحد الأيام وفجأة تغير سلوك الفتاة فى المنزل وفى المدرسة ، وأصبحت فى حالة مختلفة تماما عن حالتها الأولى : تتكلم كثيرا ،وتضحك بدون سبب ، وتثير الشغب فى الفصل وتهرج بكلام غير مفهوم وغير مترابط لا معنى له ، تهمل واجباتها بصورة ملحوظة غير مهتمة بعواقب هذا الاهمال . أخذ هذا السلوك يتكرر بصورة ملحوظة ، الأمر الذى أدى الى غضب المدرسين والمدرسات عليها وانتهى الأمر باستدعاء ولى أمرها للتفاهم فى أمر سلوك « تهانى » الذى أصبح لا يطاق .

توجهت الأم لمقابلة ناظرة المدرسة وهددتها بفصل ابنتها من المدرسة ان لم يحاولوا تقويمها وتعليمها أصول الأخلاق والسلوك الكريم حيث أن سلوكها أصبح غير محتمل .

تألمت الأم ألما شديدا حين سمعت هذا التهديد الذى يمس مستقبل واخلاق ابنتها ، التى كانت حريصة دائما فى أن تكون مثلا أعلى فى كل النواحى بما توجهه اليها من النصح والارشاد والرعاية والملاحظة الدقيقة فى كل تصرفاتها . عادت الأم الى المنزل وهى مشحونة بشحنة كبيرة من الغضب والسخط على ابنتها التى خيبت آمالها فيها ، وعرضت سمعتها للسوء فى المدرسة مما أدى الى خجل الأم أمام الجميع نتيجة هذا السلوك .

دخلت الأم المنزل ووجدت الفتاة على حالها من الكلام بمفردها بألفاظ ليس لها اى معنى وغير مفهومة ، فهجمت عليها بقسوة وأخذت تضربها ضربا مبرحا بيديها وتشد شعرها وتركلها بقدميها وتقذف برأسها بالجدار

مرات متعددة كأنها تريد أن تنتقم منها لما سببته لها من ازعاج . اخذت الفتاة تصرخ وتبكى الى ان فقدت الوعى وسقطت على الأرض مغشيا عليها فاقدة القدرة على النطق والحركة وحتى على البكاء . فى هذه اللحظة فقط انزعجت الأم واضطربت وبدا عليها الذعر والخوف والقلق والاحساس بالذنب ؛ وكأن غشاوة ازيلت من امام عينيها ؛ وبدأت ترى الأمور بصورة مختلفة ، فأخذت تحاول أن تعيد اليها صوابها وتوقظها . وبعد فترة طويلة من هذه المحاولات بدأت الفتاة تتحرك بساعدها والدها لوضعها على السرير حيث استغرقت فى نوم عميق .

وفى فجر اليوم التالى قامت الفتاة تصرخ وتبكى وتستغيث بصوت عال ، وتوجهت نحو الباب تريد الخروج لعدم رغبتها البقاء فى المنزل ، وحاولت فتح الباب الا ان امها توجهت على الفور نحوها تمنعها وتهدىء من روعها ؛ الا ان الفتاة كانت تبكى بصوت عال وغير متقبلة لأى نوع من التفاهم . أخذ الوالدان يحاولان تهدئتها بكل الوسائل ولكن بدون جدوى . وفى اليوم التالى توجها الى طبيب يجاورهم فى السكن فوصف لها بعض الأدوية ولكن بدون جدوى .

استمر الوالدان يتوجهان بابنتهما من طبيب الى آخر ومع ذلك لم يبد عليها أى علامات التحسن ، وانقطعت عن الذهاب الى المدرسة وفقدت شهيتها للطعام واصبحت فى حالة هزال ملحوظ الى أن اشار عليهما أحد الأطباء بضرورة عرضها على طبيب نفسى لشدة حاجتها الى ذلك ، وفى نفس اليوم توجهت الى عيادتى لفحصها وعلاجها .

بدأت بمقابلة الأم أولا بمفردها ، وكانت تبدو قلقة

مضطربة ، فى نظراتها الخوف وعدم الاستقرار ، ومع ذلك كانت تحاول ان تخفف قلقها بمحاولة البطء في الكلام والهدوء والاتزان المبالغ فيه . بدأت تسرد قصة ابنتها بصوت منخفض هادىء دون انفعال ، وأخفت ذكر قسوتها وضربها المبرح لابنتها ، ربما خجلا من نفسها لمعاملة ابنتها بهذه الطريقة غير الانسانية . وبعد ان سردت القصة كاملة طلبت منى بحرارة أن أساعدها على شفاء ابنتها الوحيدة ولا سيما أنها سمعت عنى الكثير من ناحية قدرتى وخبرتى فى شفاء مثل هذه الحالات .

وبعد أن انتهت الأم من حديثها خرجت من مكتبى ودخلت ابنتها « تهانى » كانت فتاة تبدو أصغر من سنها نحيلة القوام ، غير مهندمة فى ملبسها ، يبدو على وجهها سمات الحزن والكآبة والقلق ، نظراتها وحركاتها تتسم بالتردد الممتزج بقدر واضح من الشك والتوجس ، شديدة الخجل ، عديمة الثقة بالناس وبنفسها .

بدأت بسؤالها عن مشكلتها ، وبعد فترة تردد بدأت تقص على أحداث قصتها كاملة والدموع الفزيرة تنهمر من مقلتيها أثناء سردها الأحداث التى مرت بها . وكان يؤلمها ألما شديدا احساسها بأنها غير قادرة على مواصلة الدراسة وذلك من شدة الصداع الذى فشل الأطباء فى أن يخففوا عليها حدته ، وكذلك كانت تشعر بأن نظرها غير سليم فهى غير قادرة على الرؤية الواضحة ، وهى تبرر ذلك بسبب قسوة أمها فى قذف رأسها بالجدار عدة مرات ، بعدها فقدت الوعى .

كانت تبكى بكاء مرا لأنها كانت فتاة مجتهدة ، من المتفوقات المجدات فى الدراسة ، وأصبحت الآن غير قادرة على الاستمرار فى الدراسة من شدة ما تعانيه من

صداع وعدم قدرة على التركيز وضعف فى البصر واحساس بالاختناق والضيق ، والأرق ليلا ، واحساسها بأنها فى عالم غير هذا العالم ، وأن هذه الأعراض تزداد فى حدتها منذ ثلاثة شهور ، وقد حار الأطباء فى علاجها ، وخابت العقاقير الطبية المختلفة فى تخفيفها وبتأثير هذه المتاعب فقدت شهيتها للطعام ، وامتنعت عن الأكل ، فأصابها الهزال ونحل جسدها فوق نحوله الأصلى .

وبعد انتهاء مقابلتى للفتاة ، بعثت فى نفسها الاطمئنان بأنها سوف تعود الى حالتها الطبيعية بانتظامها فى تعاطى الادوية والمواظبة على الجلسات النفسية .

وضحت للأم العوامل المختلفة التى أدت الى اضطراب « تهانى » نفسيا : من حياة التزمت وسوء المعاملة وعدم تقدير احساس الفتاة فى سن المراهقة ، وعدم فهم الوالدين والمدرسة لأعراض الاضطراب النفسى الذى كانت تعانى منه ، الأمر الذى ادى الى السخرية منها والسخط عليها والقسوة فى ضربها ، وطلبت من الأم التعاون الكامل فى العلاج وحسن معاملتها وتخفيف حياة التزمت التى فرضتها عليها .

وبعد فترة علاج استمرت شهرين من جلسات نفسية وتوجيه وارشاد للوالدين عن كيفية معاملتها ، أمكن للفتاة أن تتحسن تدريجيا ، ويعود اليها اتزانها النفسى ، وانتظامها بالمدرسة ، وعودة ظهور تفوقها على زميلاتها بصورة اكثر استقرارا ، لا سيما حين بدأ الوالدان يخففان من القيود التى كانت تحيط بحياتها من قبل .

التعليق :

ان قصة « تهانى » تمثل قصة العديد من الفتيات اللاتى يلجأن الى العلاج النفسى نتيجة حياة التزمت وعدم فهم المحيطين وادراكهم بأعراض الاضطراب النفسى للمبادرة بالعلاج .

ففى مشكلة « تهانى » نتيجة للحياة المتزمتة والقيود القاسية التى فرضت عليها ، والصراعات النفسية التى كانت تعانى منها ، أصابها الاضطراب النفسى وظهر بصورة أعراض نفسية واضطراب فى السلوك ، وخلط فى التفكير والكلام ، الأمر الذى أدى الى سوء معاملتها من المدرسات والناظرة ، والقسوة فى معاملتها من والديها لعدم ادراك الجميع أن هذه الأعراض فى حاجة الى علاج سريع لتجنب المضاعفات المحتمل ظهورها بعد ذلك .

لقد تعرضت الفتاة الى كل انواع السخط والاهانة والضرب ، مما زاد الحالة سوءا ، واصبحت فى حالة نفسية تزداد سوءا ، ولم ينقذها من الضياع الا التجاؤها الى العلاج الطبى النفسى . واذا كان التوفيق قد خان الأطباء الباطنيين فى التشخيص والعلاج ، فهذا أمر طبيعى لأن الخط الفاصل بين الانهيارات الذهنية والانهيارات النفسية فى معظم الحالات يختفى تماما الا عن العين المتخصصة .

وأخيرا فانى انادى من الأعماق واناشد الأهالى والمسئولين بالمدارس بأن يبادروا عند ظهور اعراض السلوك غير السليم أو الاضطراب فى الأفكار والكلام بارسال من يعانون من هذه الأعراض الى العلاج الطبى النفسى بأسرع

ما يمكن ، فهو الطريق الوحيد الذى يمكنهم عن طريقه الوصول بأبنائهم الى الشـــفاء الـكامل فى اقصر وقت ممكن ، ولعدم ضياع مستقبلهم .

فالطب النفسي هو الوسيلة الفعـــالة التى بواسطتها يستطيع الفرد أن يتخلص من متاعبه ويهنأ بحياة سعيدة هادئة منتجة .

قص شعر أخته لعدم فهم حاجاته النفسية

في يوم من أيام العمل المرهق بالعيادة ، بينما كنت اعد نفسي لمغادرة العيادة والعودة الى المنزل ، دق جرس التليفون فبادرت برفع السماعة ، واذا بصوت امرأة فيه شيء من التوتر والعصبية تسأل عن مواعيد العيادة وتحديد اقرب موعد لفحص ابنها البالغ من العمر خمس سنوات، لأنها قلقة ولا تستطيع الانتظار لميعاد بعيد .

وفى الميعاد المحـــدد جاءت السيدة يرافقها ابنها ، وطلبت مقابلتها بمفردها أولا كعادتى فى الفحص الطبى النفسى لأى طفـــل ، كى أعطى الأم الفـــرصة كى تفرغ ما بداخلها من شحنة انفعالية دون قيود .

كانت امرأة فى حوالى الخامسة والثلاثين من عمرها ، انيقة فى مظهرها ، جميلة فى تقاطيعها ، يبدو أنها تعتنى الى حد كبير بالمظاهر ، ومع ذلك كانت تبدو قلقة ، غير مستقرة متوترة داخليا ، يتخلل كلامها بحة فى صوتها من شدة الأنفعال . ثم بادرت تقدم شكواها من ابنها البالغ من العمر خمس سنوات ، اذ أنه يأتى بأفعال وسلوك غير طبيعى من تخريب وتكسير وافساد واتلاف ، واخيرا لجأ الى قص شعر أخته التى تصغره بعام واحد مرتين ، كما كان دائم الـكتابة على جدران حجرات المنزل مما يشوه ويكدر المنزل الذى تبذل كثيرا من الجهد من اجل المحافظة

على مظهره . وكان الطفل دائما ينكر أنه أتى بهذه الافعال ، ولكن بعد الملاينة والتحايل ، كان يعترف . وكانت الأم فى كل مرة يسلك مثل هذا السلوك تضربه ضربا مبرحا ، وتحرمه من الخروج من المنزل يوما أو يومين . وكان يقلع عن سلوكه ، ولكن لا يمر اسبوع واحد الا ويعود ثانية لمثل هذا السلوك بل وأسوأ منه ، وقد وصفته الأم بأنه طفل عصبى متوتر كثير العناد والاعتداء على أخته ، يميل ميلا شديدا الى التخريب .

وبعد ان انتهت الأم من سرد شكواها من الطفل وعدم رضاها عن تصرفاته ، انصرفت من غرفة المكتب ، ثم اقبل الطفل مترددا خائفا ، ويبدو انه اكبر من سنه ، تظهر على ملامح وجهه الذكاء مع الخوف ، أنيقا ، نظيفا ، معتنى بمظهره . جلس معى فترة مترددا خائفا . قدمت نفسى اليه ووعدته بالمساعدة ، كى أبعث فى نفسه الطمأنينة ، محاولة ادماجه والتعامل معه دون خوف أو تردد . وبعد فترة قصيرة بدأ الطفل ينطلق فى الكلام بذكاء يفوق سنه ، ويعبر تعبيرات تبين انه يعانى من سوء معاملة والديه وقسوتهما عليه التى لا تتوقف ، وضربه بشدة ، وتفضيل أخته عليه فى معظم الأحوال ، وحرمانه من ملذات كثيرة وأشياء يفضلها واعطائها لأخته مما ادى الى زيادة كراهيته لها ولهم ، الأمر الذى أدى الى قص شعرها وفى نهاية المقابلة وعدته بمساعدته .

وبدراسة الحالة تبين انه كان الطفل الأول للأسرة ، وكانت الطفلة الثانية هى أخته التى تبلغ الرابعة من العمر ـ كان الوالدان دائما على خلاف لعدم التفاهم والانسجام بينهما من بداية الزواج الذى تم نتيجة لظروف اسرية دون احساس الطرفين بالرضى الكامل عن هذا الزواج ،

الأمر الذى ادى الى استمرار الخـــلافات والمشاحنات بينهما ، والتى تسبب فى زيادة الشحنة الانفعالية لـكل منهما مما يؤدى فى النهاية الى صب غضبهما على الأطفال ولا سيما الطفل (المطلوب علاجه) لـكثرة ما كان يرتكبه من أخطاء فى السلوك أو تخريب أو نوبات غضب شديدة .

يضاف الى ذلك أنهما كانا يفضـــلان الابنة الصغرى لاعتقادهما أنها أهدأ وأجمل واكثر طاعة منه لأوامرهما ، الأمر الذى كان فى النهاية يؤدى الى اغراقها بالهـــدايا واللعب وحرمان أخيها لسوء سلوكه الذى أدى فى النهاية الى ارتكاب أخطاء فى تصرفاته بالنسبة لأخته عن طريق قص شعرها ، وكذلك استمرار اتجاهه الى الـكتابة على جدران حجرات المنزل .

استمر علاج الطفل شهرين عن طريق الأدوية والجلسات النفسية التى كانت تشمل علاج الطفل وعلاج الوالدين نفسيا كل على حدة ، وتوجيههما الى كيفية معاملة الطفل وفهم حاجاته النفسية التى هو فى أشد الحاجة اليها ، وذلك لتجنب السلوك المنحرف الذى يعتبر فى نظرهما غير طبيعى ، وبتغيير أسلوب المعاملة الذى كان الوالدان يستعملانه معه . بدأ الطفل يهدأ نفسيا ويطمئن الى من حوله بتحسن معاملة والديه له ، وبدأ يتمكن تدريجيا من التوقف عن الأعمــــال غير المرضية التى تسبب غضب الوالدين منه ، وبدأ يحب أخته ولا يحقد عليها بعد أن لجأ الوالدان الى العدل فى معاملتهما .

التعليق :

ان سلوك الطفـل غير المرضى وعدم تـكيفه مع بيئته الأسرية التى يعيش فيهـــا يرجع الى الأسلوب الخاطىء

الذى استخدمه الوالدان معه ، ولا سيما الأم ، فقد تبين انها كانت تؤمن بتربية الطفل بقضيب من حديد ، لذلك فانها كانت فظة وقاسية معه . والواقع ان الأم كانت تعانى الكثير من القلق النفسى والشعور بالنقص ، كانت حريصة بدرجة مبالغ فيها على أن ينشأ أولادها نشأة صالحة ، وكانت تعتقد أن أسلوب الحزم والشدة والقسوة هو الأسلوب الصحيح للتنشئة ، وكذلك كان هذا الحرص على المحافظة على نظام المنزل ومظهره الى درجة مبالغ فيها أيضا .

يضاف الى ذلك ان الطفل نشأ فى أسرة غير متحابة لوجود الخلافات المستمرة بين الوالدين وعدم انسجامهما معا ، والتراشق بالألفاظ النابية دون عمل أى حساب لاحترام مشاعر الأطفال ، الذين يلجأون الى الصراع منذ تعرضهم لهـــذه المواقف غير المرضية والتى تؤدى فى النهاية الى غرس القلق والخوف وعدم الاطمئنان فى نفوس الأطفال .

ومن العوامل التى أدت الى ظهور كراهية الطفل لأخته وحقده عليها احساسه بالغيرة منها لتفضيلها فى مواقف كثيرة ، الأمر الذى كان يؤدى فى معظم الأحوال الى رغبته فى ايذائها وأخيرا اتجاهه الى قص شعرها .

يضاف الى ذلك أن الطفل كان مفتقدا الى وسائل أو لعب تشغله وتساعده على التخريب السليم ، الأمر الذى دفعه الى أن يكتب على جدران المنزل .

العوامل السابقة دفعت الطفـــل الى سلوك التخريب كتعبير غير مباشر عن عدم الرضى عمن حوله وحرمانه من عطف وحب والديه له ولا سيما لقسوتهما فى معاملته لأى

خطأ يرتكبه مهما كان بسيطا وتسامحهما مع أخته مهما اخطأت .

الاطفال والميل للتخريب :

ان الأطفـــال فى صغرهم بل وفى كبرهم يميلون الى التخريب ليس لأنهم مخربون ولكن لأنهم متعطشون لكسب الخبرة ، مدفوعين بحب اســـتطلاع طبيعي يدفعهم الى التخريب وتحسس كل ما حولهم فى البيئة . وان منع الطفل من اشباع هذه الميول الطبيعية وعدم مساعدته بطريقة تحول تخريب ما حوله لا يحقق نضوجه النضج السليم ولا سيما على نمو عقليته .

والطفل الذى يقص شعر أخته والذى يكتب على جدران المنزل فى الواقع يفعل ذلك لافتقاره لوسائل أفضل تشغله وتساعده على التخريب السليم ، بمجرد ان اكتشفت الأم ذلك كان يمكنها بأسلوب كله عطف وحب أن تنبهه وتقدم له مقصا ومجموعة من ورق الجرائد وتعلمه كيف يقص الورق وتغريه بأن يقص الصـــور الموجـودة فى الجرائد مثلا .

كما كان يجب أن تقدم له طباشير وسبورة ليكتب عليها ، بدلا من الكتابة على الجدران وتستميله الى أن يحافظ على منزله نظيفا جميلا ، هذا كما كان يجب أن تساعد الطفل دائما على أن يشغل وقتـــه اما فى ألعـــاب تسلية تزيد خبراته ، أو فى ناد ليلعب مع أخواته ، أو فى مساعدتها فى الأعمال المنزلية بحيث تستفيد من طاقته الزائدة فى عمل مفيد يساعده على اكتساب الخبرات التى تشبع فيه حب الاستطلاع .

ان العقاب ليس وسيلة لوضع حد للتخريب ، بل قد يكون دافعـــا لزيادة الاتلاف والتخريب ، ان استعمال الأسلوب العلمى فى اشباع حاجات الطفـــل للمعرفة واستنفاد الطاقة والنشاط الزائد عنده بأسلوب نافع ، هما الطريق لوضع حد للتخريب واكتساب المعرفة .

مص الإصبع .. ظاهرة لاضطراب الطفل نفسيًا

ان الطفل مهما كان صغيرا، يعنيه ان يقرر ذاته ، يتعمد ان يوجه انتباه الآخرين الى قدراته ومهاراته ، فاذا فهم وقدر ممن حوله كان ذلك مصدر اطمئنان له ومبعث هدوء لمن يهتمون بأمره ـ هذا الاطمئنان وذلك الهدوء نستطيع جميعا أن نخلقهما لو أننا أدركنا أن تنشئة الأبناء أمر يحتاج الى الاستعانة بما يجرى فى عالم الطفولة ، بقصد الوقوف على أنواع الشعور لحياة أبنائنا فى جميع الأعمال والتعرف على حاجاتهم وتفهم ما يدق علينا من مظاهر سلوكهم . هذا اللون من الثقافة على ضآلة تكاليفه له أثر بعيد ، فحسبنا أن يعيننا على توجيه ابنائنا ، وتوجيه سلوكهم توجيها مفيدا وترجمة صحيحة توفر معها الهدوء فى أركان بيوتنا .

وفيما يلى قصة طفلة فقدت الاحساس بالاطمئنان والهدوء فلجأت الى سلوك غير مرض كتعبير لما بداخلها من توتر واضطراب وعدم استقرار ، الأمر الذى ادى فى النهاية الى حاجتها الى العلاج الطبى النفسى .

لجأت الى الأم ومعها طفلتها « حنان » البالغة من العمر تسع سنوات بقصد علاجها من مظاهر غير مرضية فى سلوكها . قمت بمقابلة الأم أولا وبمفردها كعادتى فى

الفحص الطبى النفسي ، كي تستطيع الام ان تفرغ شحنتها الانفعالية دون قيود لوجود ابنتها معها . كانت الأم امرأة في حوالي الاربعين من العمر لها طلعـــة اخاذة ، مربعـة الوجه ، في عينيها سحر ، وفى نظراتها قلق وحزن وعدم استقرار . أخذت تسرد على مشكلة ابنتها « حنان » حيث انها أصبحت غير مطيعة ، عنيدة ، لا تبالي بشيء لا تحترم احدا ، واهم مظهــر مرضي كان يزعج الأم ويقلقها هو استمرارها فى عض اصبعها ســواء فى المنزل أو فى المدرسة ، فأدى ذلك الى احتقارها من جميع اقرانهـا في المدرسة واخوتها فى البيت ومعايرتها بهذا الفعــل بطريقة تسيء اليها وتجرح من احساسها .

ومن حديث الأم ، تبين ان حنان أصغر أخوتها ، كانت محبوبة من مدرساتها بالمدرسة ومنسجمة مع باقى الأطفال الذين فى مثل سنهــا ، وهى فى البيت أيضا كانت لطيفة المعشر مع أخوتها .. ولكن فجأة وبدون مقدمات ، بدأ سلوكها يتغير الى مظاهر غير مرضية واهمها التجاؤها الى مص الاصبع بصفة مستمرة .

تبين أيضا ان اهتمامات الأم والأب كانت موجهـــة للأخوة الأكبر منها لانهم جميعا فى المدارس فى سنوات تستدعى العناية التامة بهم . فالأخ الأكبر فى الجـامعة والأخ الثانى فى الترتيب كان فى الثانوية العامة ، وكان الأخ الثالث فى الاعدادية . أما الطفلة « حنان » فـكانت لا تزال فى السنة الخامسة الابتدائية فلم تهتم العـائلة بملابسها أو طلباتها قدر عنايتها بأخوتها ، فكانت حنان تعانى من الغيرة الشديدة من أخوتها ومن الحرمان الشديد من عطف وحب والديها ، ومن الشدة التى كانت تعامل بها من والديها . فبدات تظهر عليهـا اعراض تنبيء بأن

الطفلة تعانى من توتر داخلى يظهر عليها بصور مختلفة ومظاهر غير مرضية فى سلوكها ، كمص الأصبع والميل الى العزلة والخجل والانكماش أحيانا ، والثورة والعناد احيانا اخرى ، وعدم القدرة على المحافظة على حقوقها ، وشدة حساسيتها ، وقد أدى ذلك بالطفلة الى الشعور بعدم القبول وعدم الثقة بالنفس ، وبالتالى كانت تعانى من عدم القدرة على التركيز فى الدراسة ، واهمالها القيام بواجباتها المدرسية ، الأمر الذى كان يؤدى فى النهاية الى عقابها بالضرب أو الحبس أو الحرمان .

كانت الأم تلجأ فى معظم الأحوال الى ضربها بقسوة كى تقلع عن عملية وضع الاصبع فى فمها ، وتخيفها بأن هذه العادة ستشوه شكل أصابعها ، وستشوه فمها وسقف حلقها بهدف دفعها الى الاقلاع عنها ، ولكن دون جدوى . واستفحل الأمر وازداد سرحانها ، وأصبحت فى معظم الأوقات تبدو كأنها بلهاء .

وبعد أن سردت الأم قصتها ، وتبينت الظروف الأسرية التى عاشت فيها حنان ، انصرفت الأم من غرفة مكتبى ، وبعد فترة وجيزة دخلت « حنان » فى خوف وتردد ، كان يبدو عليها الهزال والاعتلال فى صحتها ، ويبدو على وجهها سمة من الألم مع الخجل فى شحوب .

رفضت الكلام فى بادىء الأمر ، ولم تجب على أى أسئلة موجهة اليها ، وتدريجيا بدأت حنان تتكلم وتجيب اجابات مختصرة ، وبعد ذلك استرسلت فى الكلام . كانت تجيب على الأسئلة بذكاء مختلط بقلق وخوف ، كانت تشكو من سوء معاملة أخوتها ووالديها ومدرساتها وأقرانها فى المدرسة ، وكانت تكره الذهاب الى المدرسة لسوء معاملة الجميع لها ولا سيما معلمة الفصل

التي تقسو في ضربها عنـــدما تخطىء ، أو اذا لم تؤد الواجب الذى يصعب عليها فهمه ولا تجد من يشرحه لها فى المنزل . وأظهرت غيرتها من اهتمام والديها بأخوتها واهمالها اياها كلية . وعدم محاولتهما مساعدتها فى عمل الواجب ، الأمر الذى كان يؤدى فى النهاية الى عقابها وضربها بشدة .

وقرب نهاية المقـابلة طلبت منى أن أوصي والدتهـــا بمساعدتها وعدم ضربها فوعدتها بذلك . وقمت فعــلا بتوجيه الأم ، وتوضيح الأخطاء التى ارتكبتها فى حق ابنتها وافهمتها أنها فى حاجة الى علاج نفسى مع ضرورة حضور الوالد أيضا فى كل مرة . وقمت بارسال خطاب الى المدرسة كى تتعاون معى فى علاج هــذه الطفلة مع تشجيعها وعدم ضربها .

وبعد فترة علاج قصيرة ، وتوجيه الوالدين الى كيفية معاملتهـــــا مع مراعاة احاسيسها وتوفير الجو الأسرى الهادىء الذى يبعث فى نفسها الاطمئنان والثقة ، توقفت حنان عن مص أصبعها ، وهدات نفسيا وبدأت تختلط بأقرانها فى المدرسة ، وتقدمت فى الدراسة ، الأمر الذى لفت نظر مدرستها فأخذت تشجعها بدورها ، وكذلك بدأت حنان تهتم بنفسها وبمظهرها ، وتحسنت شهيتها للأكل مما أدى الى تحسن صحتها ، وأخيرا نجاحها بتفوق فى آخر العام .

التعليق :

قصة هذه الطفلة توضع الاضطراب النفسى الذى كانت تعاني منه لحرمانها من حسن المعـــاملة في الأسرة وفي

المدرسة لاهمال أبويها لشئونها وانصرافهما الى الاهتمام بأخوتها ، حيث أن كلا منهما يعتبر أنه أدى واجبه كاملا نحوها بما يوفران لها من أكل وملبس . هذا السلوك من جانب الأبوين فيه تجاهل لشخصية الطفلة ، الأمر الذى سبب لها الألم والشعور بالقلق ، فظهر فى صورة الأعراض المرضية التى سبق ذكرها (منها ظاهرة مص الاصبع) وقد أرادت الطفلة بذلك أن تنبه والديها بأنها شخصية يقظة تفكر ولها حقوق كأخوتها تتعدى موضوعات الأكل والملبس بقدر كبير .

وهنا ظاهرة مص الأصبع ليست الا وسيلة سلبية انسحابية تواجه بها الفتاة مشاكلها ، وهو عرض من أعراض الاضطراب النفسى الذى كانت تعانى منه . ومص الأصبع فى الشهور الأولى أو السنة الأولى فى الطفولة عملية عادية يلجأ اليها كل الأطفال بمص الطفل أصابع اليد أو الرجل ويحس لذة لقدرته على ذلك . ولكن مص الأصابع قد يستمر الى سن متقدمة كالعاشرة واحيانا الثانية عشرة ، أو الخامسة عشرة ، ومص الأصبع فى هذا السن ما هو الا عرض من اعراض الاضطراب النفسى .. يصاحبه أحيانا الاغراق فى أحلام اليقظة ، والسرحان ، والاكتئاب . كما يزداد هذا العرض عند مواجهة المشاكل وعند الفشل فى الدراسة . ولا يجدى عادة تحذير الأباء للطفل وتنبيهه له بالاقلاع عن هذه العادة .

ولذا ينبغى علاج مص الأصابع فى أية حالة مع علاج الحالة النفسية والأسرية التى يعيش فيها الطفل عامة ، وخصوصا علاقة الطفل بوالديه وأخوته ومدرسيه . وذلك يهدف الى محاولة اشباع الحاجات النفسية

الأساسية للطفل : كالشـــعور بأنه محبوب والشعور بالتقدير والاحساس بالانتماء . هذا كما يمكن أن نشغل الطفل بنشاط يدوى يحـــول بينه وبين وضع يديه فى فمه ، ويشده بلذة الانتاج والهواية .

أما استعمال العقاب والتوبيخ كعلاج لمص الأصابع فانه يعقد الحالة ويزيد من اضطراب الطفـــل نفسيا ، وقد لا يؤدى الى الاقلاع عن هذه العادة .

الطلاق .. صخرة يتحطم عليها الاستقرار النفسي للأبناء

ان الاضطرابات النفسية للأطفال ، والانحراف فى سلوك بعضهم وقيامهم بأفعال لا ترضى المحيطين ، ثم فشلهم فى النهاية فى الدراسة . بالتحليل النفسى لأولئك الأبناء تكشفت العقد التى أوجدتها التربية المنزلية الخاطئة ، وأدت بعد تضخمها فى العقل الباطن الى الانفجار فى صورة تتعارض تماما مع ما جبلت عليه الطفولة من براءة وطيبة . فالخطأ دائما من الكبار ، وفى غالبية الأحيان ان لم يكن فى كلها ، يقع الخطأ بحسن نية دون أدنى رغبة فى تدمير الأبناء ، نتيجة للجهل بأصول التربية الملائمة لنفسية الأبناء والكفيلة بمنحهم الشخصية المتكاملة القديرة على منحهم الحماية من الانزلاق الى مهاوى الانحراف ، الذى يدفعهم فى بعض الأحيان الى سلوك غير مرض ، نتيجة لانفجار العقد المختزنة منذ طفولتهم فى عقلهم الباطن .

وفيما يلى قصة فتاة انحرف سلوكها وفشلت فى دراستها نتيجة الحياة الأسرية غير المستقرة ، وجهل الوالدين بأصول التنشئة النفسية لأبنائهم .

فى يوم من أيام الربيع وقرب حلول موعد الامتحانات ، جاء الوالد ترافقه ابنته ، يطلب مشورتى فى مشكلة ابنته

التى تكرر رسوبها فى الثانوية العامة مرات ، يضاف الى ذلك ما ترتكبه من افعـــال غير مرضية من الهياج ، والعناد ، وضرب أخوتها بعنف وبقسوة ، والتصميم على تنفيذ رغباتها مهمـــا كانت خاطئة ، الى غير ذلك من انحراف فى سلوكها ، الأمر الذى دفعه الى الالتجـــاء للعلاج الطبى النفسى .

وبعد مقابلة من الوالد والابنة « صفاء » على انفراد ، تبين ما يلى :

نشأت صفاء فى حياة اسرية غير موفقة، كثيرة الخلافات والحقد بين الزوجين ، عاشت طفولة سيئة مبعثرة ، خلت من كل حنان أو استقرار ، كانت الثمرة الثالثة لزواج تم دون انسجام أو توافق بين والديها . والد قاس، مسيطر، غير متفاهم ، عنيد ، كلمته هى النافذة على الجميع دون نقاش لاعتقاده أن له من التفكير السليم والعقـل الراجح اللذين يؤهلانه للتصرف السليم فى كل أموره .

أما الأم فكانت امراة غير متعلمة ، سيئة التصرف ، لا تستطيع ان تدبر الأمور بحكمة ، عصبية ، عنيدة ، دائمة الشجار مع من فى البيت (الزوج والبنات الثلاث). ضاقت الحياة بالزوج ، ولم يستطع الاستمرار فى هذا الجو الأسرى غير المريح ، الذى يبعث الضيق فى نفسه وفى نفس بناته الثلاث ، فاضطر الى الزواج من فتاة أخرى تعرف عليها فى عمله بعد طلاق الزوجة الأولى .

اخذت الأم صفاء واخوتها بعد طلاقها الى بيت أبيها . كان جد صفاء مسنا فظا قاسيا كان لا يلقاها وهى صغيرة الا نهرها ، وصب عليها غضبه لأنها كانت فى الرابعة من العمر وأصغر اخواتها واكثرهن حركة ونشاطا ، الأمر الذى كان يؤدى فى معظم الأحوال الى ضربها ضربا مبرحا

وعقابها بأقصى أنواع العقاب كى تقلع عن الحركة واللعب .

كانت الأم تضطر أن تتحمل كل هـذه الأوضاع دون تعليق لظروفها التى تعانى منها خوفا من أن يغضب عليها والدها ولا تجد مأوى آخر ، وأحيانا كانت الأم تصب غضبها وضيقها على بناتها من سوء معـاملة وقسوة ، فيزداد ألمهم النفسى وانحرافهم السلوكى .

وهكذا عاشت صفاء فى مناخ غير صحى من الناحية النفسية وعانت الكثير من الحياة المؤلمة غير المستقرة الى ان انتهت فترة حضانتها مع أمها ، وضمها الأب الى حضانته عندما بلغت السن القانونية لذلك . وكان قد سبق وضم اخوتها اليه فى الوقت المناسب .

خرجت صفاء من منزل جدها الى زوجة والدها التى استقبلتها بنظرات باردة ، حذرة ، شرسة ، وطلبت منها أن تكون مطيعة حسنة السلوك كأخواتها والا ستضطر الى طردها وعودتها الى جدها . صـدمت من هذا التهديد البعيد عن كل حب وحنان والذى يبشر بعقوبات لاستمرار العذاب والألم ، بحثت عن والدها فلم تجده فى بيته كان ضئيلا جدا أمام زوجته الثانية .

كانت دائما تشكو له من تصرفات صفاء غير المرضية والفاظها غير الكريمة ، فينهال عليها ضربا بقسوة دون رحمة كى يرضى زوجته التى تقوم برعاية بناته الثلاث ، اذ كانت تهدده دائما بترك البيت ان لم يعاقب بناته أشد العقاب عند مخالفتهن أوامرها . .

عاشت صفاء فى هذا الجو القاتم ، وخنقت كل بقايا المرح عندها ، لتنمو فى أرض واقعها مشاعر الحزن ولكنه كان حزنا بلا صبر ، تلوك مرارة أكبر من عمرها ، تشعر

انها مكروهة ، مطرودة ، وتتساءل لماذا جاءت الى عالم ليس فيه من يريدها .

استمرت على هذه الحياة الى أن وصلت الى الثالثة الثانوية ، وهنا بدات كوامن الاضطرابات الداخلية تطفو وتظهر فوق السطح فى صورة فشل فى الدراسة ، ونوبات هياج ، وبكاء . أحبت الموت وعشقته كأمل وحيد لخلاصها من هذا العـــذاب ، وشيئا فشيئا أصبحت مشغولة به ، تسأل عن كنهه وعن سره ، والطـرق السهلة التى تؤدى اليه ، ثم حاولت الانتحـــــار مرات ولـكنها فشلت فى تحفيقه .

واخيرا لجأ الآب بعد تكرار هذه الأحداث الى استجابة طلب صفاء وسمح لها بقضاء بضعة أيام بين آن وآخر عند خالتها التى رحبت بذلك ، وخالتها سيدة فى الخمسين من عمرها ، محرومة من الأطفال ، يقضى زوجها النهـار بأكمله فى عمله ، فوجدت فى صفاء من يؤنس وحدتها ويملأ عليها حياتها .

كانت صفاء لاضطرابها النفسى وتوترها الداخلى لا تجد الراحة أيضا طرف خالتها لأنها بالتعامل معها وجدتهـــا سيدة قلقة ، عصبية ، متوترة ، شديدة الحرص على حفظ نظام البيت ، وكثيرا ما كانت توجه صــــفاء الى بعض النصائح بشىء من الحـــزم المختلط بالحنان ، فكانت صفاء غير راضية ، ثائرة ، حاقدة ، غاضبة أحيانا معها فيؤدى ذلك الى ضيق خالتها بها ، فتعود الى منزل أبيها وتعانى من زوجته وسوء معاملتها لهـــا وتكرار الثورات والتحديات الأمر الذى ادى فى النهاية الى فشلها فى دراستها والتجاء والدها الى العلاج الطبى النفسى .

كانت الفتاة منتظمة فى حضور الجلسات النفسية ،

وكان والدها حريصا على التزامها بذلك رغبة منه فى علاجها كى تهدأ الأوضاع فى البيت وتتوقف المشـاكل المستمرة ، ولكى يطمئن على مستقبلها فى الدراسة .

وفى احدى الجلسات ، وبعد أن اطمأنت الى طلبت مشورتى فى رغبتها فى الزواج من رجل فى سن والدها متزوج وله أربعة أطفال ، صديق للأسرة ، ويتردد عليهم ، فأراد أن ينقذها مما تعانى منه من عذاب حيث كان على علم بما يحدث دائما بينها وبين زوجة والدها ، قبلت عرضه للتخلص من النار التى تحرقها فى هذا المناخ الذى تشوبه المشاحنات الدائمة . قبلت هذا العرض داخليـا دون أن تعطيـــه جوابا وطلبت منى المشورة فى هذه الناحية ، علما بأن أخلاقه من العصبية والحدة لأتفـه الأسباب كوالدها تماما فى هذه الناحية ، وهو غير موفق فى زواجه الحالى وسوف يتزوجها ويعيش فى احدى الدول العربية التى يعمل بها حاليا ويحضر الى مصر فى الأجازات فقط ليرى زوجته أولاده .

وبتقدم علاجها النفسى ، بدأت تهدأ وتستقر نفسيا وأخذ تفكيرها يكون أكثر حكمة واتزانا ، أدركت أن هذا الزواج غير صالح لاعتبارات متعددة منها فرق السن ، ووجود أولاده وزوجة أخرى فى حياته ، يضاف الى ذلك شدة عصبيته وسهولة اثارته ، وكلها عوامل سوف تعوق استقرار وهدوء حياتها مستقبلا .

وأخيرا اقتنعت بضرورة الاســـتمرار فى الدراسة والعمل المنتج الذى سوف يؤهلها للنجاح ودخول الجامعة حيث تكون أمامها الفرص التى سوف تسمح لها بالتعرف على آخرين ، ربما تجد بينهم من يصلح زوجا ، فتبنى حياتها على اساس من التوافق الفـــكرى والنفسى

والاجتماعى ، فتهنأ بحياتها هادئة مستقرة بعيدة عما ينغصها .

واقتنعت كذلك بأن عليها أن تتحمل الحياة مع خالتها وزوجة ابيها وتتعامل مع الجميع بالمحبة والود كي تتمكن من النجاح فى حياتها الدراسية التى عليها سوف تبنى مستقبلها .

واخيرا استقرت نفسيا وهدأ جو الأسرة من المشاحنات ، مع استمرار توجيهى للوالد ولزوجة أبيها وكذلك لخالتها الذين كانوا يحضرون معها في بعض الأحيان كل منهم بدوره حسب طلبى أثناء العلاج .

تقدمت لامتحان الثانوية العامة ، وكان التوفيق بجانبها حيث أنها حصلت على مجموع عال يؤهلها الى دخول احدى كليات الجامعة ، فأعاد ذلك النجاح الثقة الى نفسها وبدأت تحس بوجودها كانسان يستطيع أن يعيش وأن يكافح وأن ينجح .

التعليق :

هذه قصة فتاة قاست حياة صعبة ناتجة عن عدم انسجام الوالدين الذى كانت نهايته الطلاق ، وكانت النتيجة لذلك أن اضطربت نفسيا وأصابها الانهيار الى الدرجة التى كانت تفضل فيها الموت لعدم قدرتها على الاحساس بوجودها أو بوجود من يحس بها .

ومع العلاج عادت اليها الحياة وأشرقت بنورها على نفسيتها ، ونجحت فى تحقيق أهدافها ، اما العوامل التى أدت الى انهيارها نفسيا فهى :

١ ــ حيــاة أسرية غير مستقرة فى طفــولتها ، انتهت بالطلاق .

٢ ــ القسوة فى معاملتها من جميع من عاشت معهم : والدها ، والدتها ، جدها ، زوجة أبيها وكذلك خالتها ، دون أى محاولة منهم لفهمها ومساعدتها .

٣ ــ قسوة الأب وعدم محاولته فهمها ومساعدتها .

فعلى الآباء ان يتمهلوا ويصبروا ويحاولوا خلق جو أسرى هادىء لأبنائهم مع ضرورة التمهل والتدقيق وحسن الاختيـــار قبل الزواج والتأكد من التوافق الذهنى والنفسى والاجتماعى ، كى لا تفشل الحيـــاة الزوجية وتنتهى « بالطلاق » الذى يعتبر الصدمة الكبرى التى يعانى منها الأطفال وتصبح حياتهم سلسلة من المتاعب النفسية التى تنتهى الى المرض النفسى أو العقـــلى أو الانحراف فى السلوك أو التشرد فان لم يعالجوا نفسيا ويوجهوا توجيها سليما تكون نهايتهم دخول المصحات العقلية أو السجون أو مؤسسات الأحداث .

وأخيرا فلنفهم أطفالنا ونساعدهم ، ونقدر مشاعرهم ، ونوجههم فى رفق ونساعدهم على عبور نهر الحياة فى أمان واطمئنان حتى ينجحوا ويوفقوا فى حياتهم فنسعد بهم ويفخر الوطن بأعمالهم .

هل عناد الطفل.. ظاهرة مرضية ؟

من الأهداف الأولية للتنشئة النفسية للطفل اعداد الفرد بحيث تتوافر له الشجاعة على مواجهة الواقع ، ثم القدرة على حل ما يعرض له من مشكلات بدلا من التهرب منها ، متنبها الى أن التفاهم هو وسيلة التعامل مع الغير ، ومدركا أن الشعور بالحياة هو فى الكفاح المتصل حتى ينجح .

والطريق الذى ينتهى بالفرد الى الهناءة والاستقرار النفسى ، وحرية التفكير والاستقلال فى التنفيذ ، الطريق الذى ينتهى بالفرد الى اكتساب هذه القيم الرفيعة من السلوك ، لا يمكن أن يكون بالارهاب ، لأن الارهاب والعنف والقسوة يشل التفكير ويعطل التعبير ، ويقيد النشاط ، ويولد الضغط ثم الانفجار أو الانهيار . وكل هذه الأمور مجتمعة تهدد هناءة الفرد ، لأنها تفسد عليه هدوءه النفسى ، وتعبث بصحة عقله ، فوق ما تسبب من تأخر فى وجوه نشاطه الجسمى والذهنى معا . اذن فالارهاب لا يمكن ــ بأى حال ــ أن يساهم فى تعبيد الطريق الذى ينتهى بالفرد الى التفكير الحر ، والسلوك المستقل ، والقدرة على التكيف مع مقتضيات الحياة

الاجتماعية أو التغلب على ما قد يتحداه من أزمات ، وهذه أمور لازمة للحياة المتطلعة المستقرة .

انما هنـــاك عوامل أخرى أكثر انسجاما مع النفس البشرية هى التى تستطيع أن تساهم فى تعبيد الطريق ، فمثلا توفير الشعور بالطمأنينة ، والثقة بالنفس من الزم الاشياء التى يؤمن بها الفـــرد سـعادته ونجـاحه فى المستقبل . وهذا التوفير للشـعور بالطمـأنينة والثقة بالنفس هو شعور داخلى يساهم فى بناء شخصية الفرد منذ اليوم الأول من ولادته ، ويطرد نمو هـذا الشعور الداخلى ـ الذى لا غناء عنه ـ خـــلال مرحلة الطفولة المبكرة ، ومن هنا كان الاهتمام بتعيين الحاجات النفسية للطفولة ومبلغ العناية بتوفيرها للطفل فى الفترة المبكرة من حياته، يعتبر كلاهما عملا فيه تدعيم لبناء الشخصية، أبعد ما يكون عن التدليل .

كانت طفلة جميلة فى السادسة من العمر فى منتهى الصحة والنشاط والمرح ، وحيـــدة ، وسيمة للغاية ، مدللة ، يحيطها الكبار بحبهم ويكثرون من اطرائها ، تقضى معظم وقتها مع الكبار ولا تختلط بأطفال فى سنها الا نادرا ، اذ كان والداها يسكنان منزلا مستقلا ، قليلا التزاور مع الأقارب ولا يزوران الجيران لأن الأب والأم كلاهمـــا يعمل وليس لديهمـا وقت للزيارات الاجتماعية .

الأم تتصف بأنها شديدة الحزم مع ابنتها ، وعودتها منذ طفولتها ان تطيع الاوامر دون أية مناقشة ، ممنوعة تماما من الضحك بصوت عال والافراط فى المرح والجرى

بحجة أنه سلوك غير حميد ، وكانت محرومة من ممارسة الأنشطة الاجتماعية المدرسية التى تجرى عادة فى نطاق المدرسة وخارجها ، مثل الرحلات والحفلات ، فكانت زميلاتهـــا يستمتعن بوقتهن ، أما هى فكانت تعانى من الحرمان من هـــذا النوع من الاستمتاع حسب رغبــة أمها .

وتدريجيا بدأت الطفلة تظهر عنادها ، بل وصلت بهــا الدرجة الى أن ترفض المطالب التى تطلبها منها أمها ، وقد لجأت الأم فى بادىء الأمر الى عقاب ابنتها ، ولكن بمرور الوقت أصبحت الابنة لا تهتم بأية مطالب ولا تبالى بأى توبيخ ، وترفض باصرار اجابة طلبــات الأم ، مما أزعج الأم لدرجة كبيرة . وأخيرا لجأت للمشورة الطبية النفسية للعلاج ، خوفا من تمادى هذه الظـــــاهرة واستفحالها مما يؤدى فى النهاية الى انحراف سلوكها وعدم القدرة على التحكم لوقف هذا السلوك المنحرف .

ومن أمثلة عناد الطفلة ، ان العناد وصل الى رفض الطعام ، ففى كل صباح كانت تتناول قبل افطارها كوبا من اللبن بالكاكاو ، وكانت معتادة الا تترك مقعدها على مائدة الطعام الا اذا انتهت من افطارها ، وفجأة امتنعت عن تناول اللبن ، وكانت تجلس حوالى الساعة على المائدة تنظر الى اللبن والكاكاو وترفض تنفيذ أوامر الأم بشدة، دون ابداء أى سبب . واضطرت الأم فى آخر الأمر الى منعها من ارتداء ملابسها والخروج فى نزهة ، اذ كان الوقت فى أثناء الأجازة الصيفية وأمرت الفتاة بالذهاب الى سريرها لتنام . وفعلا ذهبت الفتاة لسريرها وهى

تبكى ، ثم بدأت بعد ذلك بالغناء وهى فى السرير بصوت عال ، وبعد فترة من الصراع والشجار مع الأم ، رضخت الفتاة لشرب اللبن والكاكاو ، فذهبت الأم ووضعته مرة ثانية على النار ليصبح دافئا ، وقدمته للفتاة ، فبدأت تشربه وهى فى السرير ، ثم سكبت بعضه على الفراش والأغطية ، ثم قالت للأم « أنا عملت كده عن قصد » ، فنهرتها الأم ، وصممت على أن تشرب باقى الكوب وأن تقوم بتنظيف البقع التى سببها سكبها للبن والكاكاو على أغطية الفراش ، وصممت الأم على ذلك ، وضاع جزء كبير من الصباح بين عناد الطفلة وتصميم الأم ، مما أفقد الأم صبرها وعطلها عن عملها .

وموضوع اللبن والكاكاو ما هو الا مثل من أمثلة كثيرة تتكرر طول النهار فى مناسبات مختلفة .

التعليق :

ان هذه الطفلة تتحدى البيئة المحيطة بها ، والأطفال جميعا يمرون بفترة من عمرهم يميلون فيها الى اثبات الذات ، واحدى وسائل اثبات الذات عندهم العناد وتحدي البيئة ، ويمكن ان تقرر أن الطفل الذى لا يمر بفترة يثبت فيها شخصيته طفل غير سوى .

والعناد خصوصا غير المبالغ فيه مرحلة من مراحل النمو النفسي للطفل ، يساعد الطفل على الاستقرار واكتشافه لنفسه وانه شخص له ذات مستقلة عن الكبار . وهذا الاكتشاف يكسبه صفات الفردية والشجاعة والاستقلال ، وبمرور الوقت يكتشف الطفل ان العناد والتحدى ليسا هما الطريق السوى لتحقيق مطالبه وللأخذ والعطاء مع الكبار بما يحق له الرضا عن ذاته ورضا الكبار عنه ، فيتعلم العادات الاجتماعية السوية فى الأخذ والعطاء ، ويكتشف أن التعاون والتفاهم يفتحان له آفاقا جديدة فى اللذة والخبرات والمهارات الجديدة ، خصوصا لو كان الأبوان يعاملان الطفل بشيء من المرونة ويؤمنا بالتفاهم مع الحزم المقرون بالعطف .

والطفل ينتقل عادة من مرحلة العناد والتحدى الى مرحلة الاستقلال النفسي فى الفترة من الرابعـــة الى السادسة من عمره . وكلما كان الأبوان على درجة معقولة من الصبر والتعاون والفهم لنفسية الطفل ، ساعدا الطفل على اجتياز هـذه المرحلة . والعكس بالعكس فالأبوان اللذان يبالغان فى الحزم والآمر والنهى والارهاب قد يثبتان فى الطفل أسلوب العنـاد والتحدى لاثبات ذاته ، فيعوقه ذلك على التقدم واكتشاف الطرق السوية لاثبات الذات ، والتخلى عن الأساليب الطفلية للشعور بالسيطرة والشخصية والاستقلال الذاتى ، لذلك فان البيئة لها أكبر الأثر على شخصية الطفل ودرجة نمائه .

وفى الحالة التى عرضتها ، نجد أن الام فى منتهى الحزم وتتعامل مع الطفـلة بأسلوب صارم كله أوامر وتهديد ، ناسية أن الطفلة وأى طفل يعتبر أسلوب سلوك الوالدين مثالا لما يجب أن يكون عليه سلوكه ، ومن ثم فلا غرابة عندما يقلد طفل أباه أو أمه أو اى واحد من افراد البيئة التى حوله فى سلوكه . فالكبار قدوة للأطفال فى أسلوب تعاملهم مع الموقف . ان الطفلة لجأت الى العناد والتصميم والعزم ، تماما كالأم التى تتبع التصميم والعزم فى سلوكها مع الطفلة . وقد وصلت الطفلة من الاقتناع بهذا الأسلوب فى السلوك ــ أسلوب الأم ــ لدرجة من العناد يجعلها تتقبل أى نوع من العقاب فى سبيل تنفيذ ما فى ذهنها لاثبات وجودها ، وللدفاع عن هذا الوجود ، فكيف يمكننا أن نتوقع من طفلة الطاعة، وكل حركاتها وسكناتها تتحكم فيها الأم بالامر .

ان شهية الطفل احيانا لا تقبل ما اعتاد عليه كل صباح كشرب اللبن ، فلماذا لا تكون الأم مرنة من وقت لآخر ، ولماذا تكون اسلوب تعاملها معتمدا على تحقيق تعاون الطفل ، وعلى مساعدته على اثبات ذاته بالاستجابة لبعض طلباته ما دامت فى متناول اليد ومعقولة . ان ارغام الطفل على الطاعة ليس الطريق الوحيد لحل مشاكلنا مع الأطفال . ان المرونة والأخذ والعطاء مع الأطفال فى جو من الدفء يحول بين الأطفال وبين العناد المرضى . اما العناد الخفيف فيجب أن نغض النظر عنه ونستجيب فيه لرغبات الطفل ما دام لا يضر .

واخيرا فعلى الأم أن تكسب طفلها الى جانبها عن طريق التقدير والتفاهم ، وعليها ان تتجنب استخدام أسلوب التهديد والتحدى والا فهى الخاسرة ان فعلت ، فضلا عن ان ذلك يؤثر فى العلاقة التى بينها وبينه ، تلك العلاقة التى يجب أن تقوم دائما على أساس من الاحترام والنظام المتبادلين حتى لا يكون هناك عناد أو تحد أو احتجاج من جانب الطفل ، وحتى يعتبر والديه دائما مصدر هناءته وراحته فيركن اليهما ، وينتفع من توجيهاتهما وخبراتهما ويقبل عليها برضى .

"الخبرة الشخصية للطفل"

الطفل الطبيعي يتفجر نشاطا وحساسية وخيالا وتلهفا على اختيار ما يجذب نظره أو ينبه عنده حاسة أخرى من حواسه ، ولذلك يشعر برغبة لا نقاوم فى أن يتحرك ويتلمس بيده ، كما يشعر برغبة لا تحد فى التعبير عما يحسه بتخيله ، وفى اثبات وجوده وأهميته لمن حوله .

صادفتنى سيدة متوسطة الحال ، يبدو عليها التعب ولا أغالى اذا قلت الانهاك ، تعبر نظراتها عن قلق ، وتنهداتها عن شعور بالضيق وعدم الرضى . وتتلخص قصة هذه السيدة فى أنها مضطرة الى الاقامة مع ذويها ، بسبب ارتفاع أجور المساكن . وابنها ـ الذى يبلغ سن المدرسة بعد ، أصبح وجوده مرهقا لأفراد الأسرة ، اذ أن الشكوى منه لا تكاد تنقطع ، والخسائر بسببه تكاد لا تعرف حدا تقف عنده ، فهو تارة يعبث بممتلكات غيره ، وتارة أخرى يصب زجاجة الحبر على بعض الأشياء ذات القيمة فيفسدها ، هذا الى جانب العناد المستمر ، وعدم الرغبة فى التعاون مما يحمل الأم على أن تشتد فى معاملته ، ولكن دون جدوى .

وفى بعض الأحيان يلجأ الى غرف المنزل ويقوم ببعثرة محتوياتها فى جميع أنحـــاء الغرفة ، ويــكسر بعض الزجاجات أو العلب ، ويقلب البعض الآخــر فيــلوث ملابسه والأرض بمحتوياتها ، الأمر الذى يدعو الأم فى آخر الأمر الى عقابه وضربه عند رؤيتهـــا هذه المناظر العابثة التى تدعوها الى الثورة عليه ، طالبة اليه الا يعود الى مثل هذا العمل مرة أخرى والا فالويل له كل الويل ، ولكن دون جدوى .

وشعرت هذه السيدة ازاء ذلك بحرج كبير الى درجة اضطرت ذات يوم أن تلجأ الى لتأخذ مشورتى فى هــذه الناحية ، حيث أنها أصبحت فى حالة نفسية مضطربة ولا تعلم كيفية التصرف لحرجها من سوء سلوك ابنها ، حتى أنها صممت على أن تبحث عن ســـكن مستقل ، ولو كان ذلك فى حى يقل عن الحى الذى نشأت فيه ؛ وبايجار فيه شىء من الارهاق لميزانيتها ، وذلك شفقة منها على ابنها وحرصها على علاقته بذويها .

والواقع ـ ان هذا الحل الذى اختارته السيدة وهو الانتقال بابنها الى مسكن آخر مستقل ، لا يحل المشكلة الا حــلا جزئيا وشــكليا فقط جزئيا لأنه سيعفيهـــا من الحرج الذى تشعر به كلما تسبب الطفــــل فى ازعاج ذويها أو افساد أشياء لها قيمتها ، وحلا شكليا ، لأن انتقال الأم بطفلها الى مسكن آخر مستقل لن يغير من سلوكه ، فالسلوك الذى كان فى البيت الـكبير مصدرا للشكوى سيظل كذلك فى المسكن المستقل ، مصدرا لنفس الشكوى الأولى ، الأمر الذى يحمل الأم على أن

تكون أكثر شدة ، دون جدوى ، فكلما زادت هي شدة زاد هو عنفا ، لأن الأم هنا تعالج الصورة الظاهرة لسلوك الطفـــــل لا السبب أو الدافع الذى يحمله على هذا السلوك . بالضبط كمن يأخذ مسكنا لتخفيف الصداع دون الانتباه الى تبين السبب الذى يؤدى اليه . ذلك لأن الطفل الطبيعى يتفجر نشاطا وحساسية ، خيالا وتلهفا على اختيار ما يجذب نظره أو ينبه عنده حاسة اخرى من حواسه . فالطفل فى هذه السن يشعر برغبة ـ تكاد لا تقاوم فى أن يتحرك ويلمس بيده ويعمل بنفسه ـ يشعر برغبة قوية لا يمكن أن يحد منها للتعبير عمــا يحسه ويتخيله ولمحاكاة ما يسمعه وما يراه فى البيئة التى يقيم فيها . يشعر أيضا برغبة ملحة فى أن يثبت وجوده وأهميته لمن حوله . فاذا كانت هذه هى طبيعة الطفولة فى تلك السن ، فلا يحل المشكلة أن تزيد الأم ، شدة أو تنتقل الى مسكن آخر مستقل .

فالأم التى تفكر بهذه الطريقة لحل هذا الموقف ، تخطىء فى حق طفلها أكبر الخطأ ، وهى تدل بفعلتها هذه على جهل بطبيعة الدوافع التى تحرك الطفل فى سن الثالثة أو الرابعة من عمره ـ فالطفل فى هذه السن يكون كثير الحركة ، دائب والنشاط متعطشا للتعرف على كل شىء، فهو يمضى متنقلا من ركن الى آخر ومن حجرة الى أخرى وفقا لما يجذبه ويستهويه ، يمسك ويفحص كل ما يلقاه فى طريقه وقد يسقط منه فيحدث سقوطه دويا مزعجا ، فضلا عما فيه من الخسارة والتلف ، دون أن يخطر بباله

قط ان مثل هذا العمل مما يزعجه أو يضايقه لاستغراقه فى التعرف على كل ما يصادفه .

والأم الحكيمة المستنيرة هى التى تقدر دوافع ابنها على حقيقتها ، فتعرف انه انما يتأثر – فى هذه السن – بعوامل طبيعية ملحة ، تضطره الى هذا السلوك اضطرارا وتدفعه دفعا لا يقاوم ، فان نشاطه الجسمى يدفعه الى الحركة والتنقل ، ونشاطه العقلى يحفزه الى السؤال ومحاولة معرفة كل شىء عن طريق اللمس والفحص ، فهذه هى طريقته الخاصة للتعرف على مكونات البيئة التى يعيش فيها ، يتنقل من هنا الى هنا ، باحثا منقبا ، لا يكاد يدع شيئا دون أن يلمسه أو يســـأل عنه ، يريد أن يعرف ويعرف ويعرف ، فاذا لم يجد السبيل أمامه سهلا الى اشباع رغبته فى المعرفة ، أضطر الى ارضاء هذا الدافع الى حب المعرفة المتيقظة فى نفسه ، وفقا لطريقته الخاصة ، فتكون هذه النتيجة التى تعكر عليه وعلى والدته الهدوء والصفاء ، فضلا عن الخسائر المتتالية .

ركن الطفل :

الأم الحكيمة وهى أمام طفلها تدرك أنها أمام انسان له دنياه الخاصة وعالمه الذى يحيا فيه ، فتعمل على أن تهيىء له فى الأعمار المختلفة الجو الذى يشبع نزعاته وينظم نشاطه ويزيد من عمليات التفتح واليقظة عنده . ولعل خير ما تفعله هو أن تعد له ركنا خاصا ، اذا لم يكن غرفة خاصة به ، وبعض الخامات الطبيعية كالماء والصلصال والمستهلكات البسيطة كالعلب الفارغة وبعض اللعب المناسبة التى لا تقبل الكسر مثل اللعب المحشوة أو اللعب القابلة للحمل والتركيب أو البناء ، أو اللعب المصنوعة من المطاط ، وتتركه فيها حرا طليقا يفكر ويختبر ويلهو فى مرح وطمأنينة وسوف ترى بعد قليل فرقا كبيرا فى حالته النفسية ، وكذا فى حالتها هى ايضا ، دون أن تقطع عليها تلك المنغصات الصغيرة هدوؤها ، بين الحين والحين ، كما أن الطفل سينصرف الى لعبه قانعا راضيا ، وسيستغرقه اللهو بها فلا يفكر فى أن نعبث بأى شىء آخر ، وذلك دون أمر أو نهى من جانب الأم .

الام وأسئلة الطفل :

دور الأم لا ينتهى بتوفير ركن للطفل يلعب فيه ويمارس فيه حب الاستطلاع والمعرفة واشباع رغبته فى ذلك ، بل ان مهمتها تظل بعيدة عن الكمال اذا لم تروض نفسها على الصبر ، فتضحى بالوقت والجهد لتجيب على الأسئلة التى يوجهها اليها طفلها ، وقد يعينها على ذلك تقديرها لحقوق الطفل له وفهمها لدوافع السلوك فتجيب على اسئلته راغبة راضية ، فى أسلوب يشبع شغف الطفل ويخفف من قلقه فى حالة التشكك . وبذا يأنس الطفل الى امه ، وتزيد الرابطة التى تجمعهما عمقا ومتانة .

ومن واجب الأم أن تحرص على تنمية هذه الرابطة فتغذيها بالثقة كلما استطاعت الى ذلك سبيلا ، فليست الأم الموفقة هى التى يطيعها طفلها طاعة عمياء ، وانما هى التى يستجيب طفلها اليها راضيا لما وضعت فى نفسه من روح الثقة به والاطمئنان اليها ، وليس أجمل من علاقة الأم بأبنائها من هذه الثقة التى توحى على الدوام باحترامها ، وتعينهم على الاستنارة بتوجيهاتها والاستفادة من تجاربها .

ان رسالة الأم فى بيتها رسالة دقيقة متشعبة النواحى ثقيلة التبعات . ولكن الأم الحكيمة تعرف أن تدقيقها فى اداء هذه الرسالة هو فى ذاته خير جزاء على ما تبذل من جهد وتضحية ، وحسبها فى هذا أن تشعر على الدوام انها خلقت بيتا فيه هدوء وطمانينة .

كيف نوفر الصحة النفسية لأبنائنا؟

ان الطفل الذى كان يعيش فى المجتمع القديم المحدود الهادىء المستقر نسبيا بطبيعة الحال ، كان عادة يجد فرصة مواتية وميسرة لتلبية حاجاته النفسية فى حب وقبول وأمن وطمأنينة ، كما أن عوامل الحياة نفسها وفى مقدمتها تفرغ الأم لتربية أطفالها كانت تساعد الوالدين على أن يعيشوا فى رضى وهدوء وأقرب الى ابنائهم والى الشعور بحاجاتهم ، وادراك هذه الحاجات وتلبيتها فى تلقائية سهلة تضفى على العلاقة بين الصغار والكبار حبا طبيعيا تنمو خلاله شخصية الصغار فى اتجاهها السليم .

أما طفل القرن العشرين الذى أصبح مجتمعه هو العالم كله ، والذى كثيرا ما يفتقد وجود أمه الساعات الطويلة كل يوم ، فقد افتقد أساسا هذا الهدوء المستقر الذى كان أخوه فى الماضى ينعم به ، كما باعدت ظروف المجتمع الجديد بينه وبين الكبار الى حد ما ، وساد جو العلاقة بينهم جو من التوتر فرضته أشياء لم يكن لهاوجود من قبل ، وكان من نتيجة هذا كله أن تعذرت نوعا ، لطفل اليوم ، تلبية الحاجات النفسية التى تملأ حياته دفئا

وامنا ، وهى بعد الحاجات التى كانت ميسرة لطفل الأمس .

وحيث أن الطفولة هى أشد المراحل أهمية بوجه عام، اذ يتقرر خلالها نوع الشخصية التى سيكون عليها الفرد فيما بعد ، فهى بمثابة الأساس الذى يتم عليه البناء الخاص بتكوين شخصية الفد ، أى المواطن الذى ترجو أن يكون ناجحا سواء أكان رجلا أم امرأة .

ولكى نستطيع أن نوفر السعادة والصحة النفسية لطفل اليوم وطفل الفد ، ينبغى أن تشبع احتياجاته النفسية وتساعده على أساس من الرغبة الصادقة والرعاية الرشيدة لحاجات الطفولة ، وفيما يلى أهم العوامل التى تساعد على تحقيقها :

(١) الصحة الجيدة

العقل السليم فى الجسم السليم ، والطفل الصحيح النبيه الممتلىء حيوية ونشاطا يستطيع أن يواجه المشكلات اليومية ويحلها بسهولة ، ويستطيع أن يقاوم القلق والمخاوف أكثر من الطفل المعتل الصحة ، كما أنه سيتمكن من أداء الواجبات المطلوبة منه فى سهولة فيشعر بقدرته ، وبثقة فى نفسه ، وبالتالى يشعر بالطمأنينة .

أما ضعف الحيوية فيؤثر على ثقة الطفل بنفسه ، وذلك لعدم قدرته على عمل ما هو مطلوب منه ، وهو يجد صعوبة فى التوافق ويشعر بأن الدنيا صعبة ، وأن كل الناس تكرهه ، ويمكن مساعدة هذا الطفل لو عرفنا سبب

هذا الضعف . فقد يكون سوء التغذية وفقدان الشهية ، او تسوس الأسنان أو التهاب اللوز ، وكلها عوامل لا تبدو في شكل مرض يقعد الطفل ، ولكنها تضعف من حيويته ، فلا يستطيع أن يجاري زملاءه في اللعب ولا يستطيع ان يؤدي واجباته كاملة . فاذا عالجنا السبب واعطينا الطفل المقويات والفيتامينات زال عنه الضعف واكتسب حيويه تساعده على التوافق ويشعر بالسعادة والرضى ويقبل على الحياة في طمأنينة وامل .

(٢) الحب والطفل

ان الحب للطفل هو الغذاء النفسي الذى تنمو وتنضج عليه شخصيته، وكما يتغذى جسمه على الطعام فان نفسه تتغذى على الحب والقبول . الحب المستنير الواعى الذى يبعث فى نفسه الاحساس بالاطمئنان والثقة والأمن ، هذا الحب الذى يدفعنا الى أن نقف منه موقف التشجيع والمساندة اذا ما احتاج اليهما فى كفاحه الدءوب لممارسة قدراته تحقيقا لحاجات نموه ، فلا تحرمه فى ان يقوم ببعض ما يود من لذة الاكتشاف والأداء اقتصادا للوقت والجهد . فاذا نجح فيما يقوم به ينبغى أن نشجعه ، واذا فشل ينبغى أن يلمس منا الهدوء والتشجيع على أن يعيد المحاولة من جديد . وبهذا النوع من الحب يبدأ يشعر بالثقة فى نفسه ومقدرته ، فتنمو معه حتى يكبر ، ليكون انسانا هادئا واثقا من نفسه فى غير خيلاء أو زهو ، قادرا على مقابلة تحديات الحياة فى فهم وعزم ،

سعيدا بما يحقق ، منطلقــا الى المستقبل فى ايمان وتفاؤل .

لذلك ينبغى عند معاملة الأطفال معرفة وفهم الصــفة الهامة للحب اللازمة لنمو شخصية الطفل السوى ، وهى التى تقوم على « حق الطفل لشخصه وليس لما يفعله » هذا النوع من الحب غير المشروط ، المتقبل للطفل على ما هو عليه لا يمكن الاستغناء عنه لنمو شخصيته ، بل هو الغذاء الهام اللازم لضمان سلامة الشخصية السوية فى المراحل المتقدمة من العمر .

اما اذا أعطى الطفل الاحساس بأن قبوله من آبائه ومدرسيه واصدقائه يتوقف الى حد كبير على ما يعمله ، فهذا الفهم الخــاطىء والشائع عامل كبير فى احساس الطفل بالخوف ، وله تأثير غير بناء على نمو شخصيته ، ويعتبر السبب الأساسى فى كثير من المشاكل المستقبلة فى حياة الطفل .

اما الحب غير المشروط ، فهو الحب الذى يساعد على نمو الثقة بالنفس ويخلق فى الفرد احساسه الطيب نحو نفسه ، ويؤدى الى الشعور والرغبة الصــادقة فى ان يحاول ويغامر فى حياته دون خوف من نتيجة الفشل . هذا هو النوع من الحب الذى يخلق الأبطال ويساعد على نمو أطفال واعين مدركين للحيــاة . هذا الحب حيوى وهام وضرورى للطفل ولا سيما فى سنواته العشر الأولى من حياته ، وينبغى على الآباء منحه للطفل بسخاء فى هــذه الفترة (وهذا لا يعنى أن هذا الحب غير هام فى مراحل العمر الأخرى من الحياة) فالفشل فى اقناع الطفــل

فى فترات نموه بأن هذا النوع من الحب هو احساس والديه نحوه ، ويكون السبب الوحيد والهام الذى يؤدى الى انحراف شخصية الطفل فى مراحل الطفولة المتأخرة وفى المراهقة أو الرشد .

وأخيرا ، فان قوة الخلق والشخصية والشجاعة والعزم والأمانة والاتزان والثقة بالنفس فى أن يكون الانسان خيرا ، انما تنبت كلها من شعوره كطفل بدفء الجو الذى يعيش فيه ومن خبرته بأن يكون موضع الحب والثقة والاحترام ، وبأن جهوده تلقى من المساندة والتشجيع ، ثم الثناء والتقدير ما تستحقه . وما أكثر ما يعرض للأسرة من فرص لتنمية هذه الفضائل فى صغارها كل يوم .

فاذا شئنا أن ينشأ أبناؤنا على الثقة والاطمئنان وأن يتجهوا الى العمل البناء فى تعاون وايثار ، وأن يجدوا السعادة فى البذل والعطاء فلنعطهم الحب الواعى المستنير ، الحب غير المشروط ، اذا شئنا لهم أن يعطوه لنا بدورهم فى غد . فلنعطهم الحب فان فاقد الشىء لا يعطيه ، ليكن حبنا لهم حب الايثار لا الأثرة ، حب العطاء لا الأخذ ، حب التضحية والبذل ، الذى ننسى فيه أنفسنا دائما ونذكرهم فيه أبدا ، حتى نمهد لهم السبيل ليكونوا الأفراد الذين نود ويود الوطن معنا أن يكونوا .

(٣) احساس الطفل بالامن :

ان احساس الطفل بالأمن يجعله يشعر بالاطمئنان

والراحة النفسية ، عندما يكون قريبا من أمه ويحتمى بها ، فيؤدى هذا الى زيادة ثقته بنفسه وبالعالم من حوله ، فى المراحل المختلفة . وفقدانه يؤدى الى الخوف والقلق والشعور بعدم الاستقرار والكراهية والنزعات العدوانية ، وان طفل اليوم فى أشد الحاجة الى هذا الاحساس كى تحقق له السعادة الحالية والمستقبلة .

(٤) علاقة الام بالطفل :

يعتبر حب الأم للطفل وعلاقتها به حجر الأساس فى توفير السعادة والصحة النفسية لطفل اليوم ، فالرضاعة من الأم والرعاية الكاملة لحاجات الطفل الأولية فى السنوات الأولى تعطى الطفل بداية طيبة فى الحياة وتعطيه شعورا بالامن وأطمئنانا ، وتمهد له السبيل الى الثقة بالنفس والتعرف على ذاتيته وتحقيق الشعور بالانتماء والطمأنينة : وهى الاسس التي يرى الطب النفسى ضرورة توافرها لكى ينعم المرء بصحة نفسية وسعادة ، تهيىء له فيما بعد سبل تنمية ما لديه من قدرات والتوفيق فيما سيقوم به من مهام ، والتعرف على السعادة وممارستها كخبرة حين تشع فى حياته الهدوء ، وتعينه على الاستمتاع اذا لقى النجاح وتعصمه من الانهيار اذا صادفه الفشل .

(٥) علاقة الاب بالطفل :

فى الدور الذى يستطيع الأب القيام به فى تنشئة أبنائه دور عظيم الأثر ، فلو قام كل أب بواجبه فى هذه

الناحية على النحو الذى ينبغى ، لـكان لنا أن نرجو أن يجنى عالم اليوم خيرا أكثر من الأعوام الســـابقة ، وأن يتحرر أبناء الغد من كثير ممـــا يشقى به أبناء اليوم من الانانية والغيرة والشـــعور بالنقص وعدم الاكتراث وقلة المبالاة بالغير والقسوة والشـــعور بالخطيئة والاثم والقلق والخوف وغيرها من النزعات السيئة التى تغزو النفس مع ما يلقى الطفل من أحداث كل يوم ، والتى تمهد لهزيمة صاحبها فى الحياة وتؤدى الى تقويض شعوره بالسعادة والامن . اذ أن بيد الأب لو أحسن القيام بدوره أن يفجر ما بنفسية الصغير من ينابيع الخير والشجاعة والحمـاس للحياة .

الأب وخلق المناخ الصحى الملائم للأسرة

ينبغى على الأب ان يجعل من وجوده فى حياة الأسرة سبيلا لكى يتعرف الصغار على حالة من صفات ايجابية يعنيهم التعرف عليها واكتسابها على تكوين شخصياتهم ونضجها . وفى هذا المجال فان الأبناء يكونون مثلهم العليا ، ولو بصورة جزئية على الأقل ، مما يرونه أو يظنون انهم يرونه فى الأب . فالأب الذى له وجود واضح وسليم فى حياة الأسرة يمكنه ان يمنع عن ابنائه الكثير من معوقات النمو وانحرافاته ، ذلك أن عدم وجوده معنويا أو ماديا ، قد يدفع الأبناء الى أن يكونوا عنه صورة خيالية مثالية لا تصلح من نظرتها خبرات الواقع الفعلى معه . فاذا كبروا وكان عليهم أن يواجهوا الواقع على حقيقته اصطدم ما يواجهونه فعلا بنقائصه وعيوبه مع ما تمثلوه من خيالهم بكماله وخلوه من العيوب ، فيؤدى هذا الاصطدام بين الخيال والواقع ، ربما الى حالات من اليأس تصيب الابناء بعد أن يكبروا ، مصحوبة اما بالاستسلام أو التمرد ونحن كثيرا ما نلقى فى عملنا امثال هؤلاء الناس الذين لا يستطيعون قبول الغير كما هم ، ويرون الخطأ الصغير وكأنه الخطيئة الكبرى ، عاجزين عن أن يروضوا انفسهم على قبول ما هو دون الكمال .

الأب وسلوك الطفل

اذا كانت التنشئة النفسية السليمة تقضى بأن ينمو الطفل فى جو مشبع بالحرية خال من القيود بقدر الامكان، فانها فى الوقت نفسه تقتضى أيضا بأن يمارس قدرا من النظام ، والنظام هنا لا يعنى القيد ولكنه يعنى الضبط . فاذا الحت على الطفل بعض رغباته ، وهى لابد أن تلح عليه احيانا اندفعت به الى محاولة الانطلاق خارج الحدود التى تقتضيها مصلحته ، ففى وسع الأب ومن واجبه ، أن يعطيه فى حديث قصير ايضاحا لمدلول السلوك الذى يراد له قدر من الضبط ، والطفل كائن منطقى معتدل يستجيب اذا لقى الاحترام وعومل على مستوى انسانيته . اما معاملته على أساس الأمر والنهى والعقاب فانها تثير فى نفسه الكثير من أسباب الهم والقلق والخطيئة والعدوان فوق أنها تؤدى الى أن يرى الطفل أباه فى صورة التسلط الباطش الغاشم ، لا الموجه الصديق الهادىء وشتان ما بين الصورتين من تأثير فى نفس الطفل .

الأب وحاجة أبنائه الى تشجيعه وتقديره وتجنب النقد اللاذع والتفرقة بينهم :

ان الأبناء بحاجة أن يلقوا التشجيع ويطمئنوا الى الموافقة والقبول من ابيهم كي ينعموا بحياة فيها الشجاعة والتعاون . ان شعور الطفل بتقدير أبيه بما فعل خليق بأن ينبه فيه خير ما عنده وأن يبعث لديه الحماس للقيام بخير ما يستطيع . فكلمة التشجيع التى يحظى بهـا من أبيه متى أعطيت فى حينها هى الحجر الأساسى فى تكوين الثقة بالنفس وهى صفة لابد منهـا لامكان التقدم فيمـا بعد . ان قدرات الطفل تنمو على التشجيع وتخمد باللوم والتثبيط . وشعوره بأنه يلقى الثقة والتقدير والاحترام خليق بأن ينمى فى نفسه صفات الشـجاعة والعزم والاتزان ، وهى دائما من مقومات الشخصية الخلاقة .

وكذلك على الأب أن يتجنب ، ثم يتصدى ، لأى بادرة تفرقة فى المعاملة بين الأخوة ، وبين الولد والبنت ، فان هذا التمييز للولد هو البذرة الأولى التى تنبت منهـا وتتفرغ منها كل انحرافات العلاقة بين الجنسين فيمـا بعد .

ومهما يكن من شأن جو الاحترام فى الأسرة فانه لا يمنع ما يدور بين الأطفال فى الأسرة الواحدة من خلاف وواجب

الآب أن يساعد على حصر الخلاف فى أضيق نطـــــاق مستطاع ، كما يعلم الصغار كيف يمـــكن ان يختلف الانسان مع غيره فى الرأى ثم يبقى على احترامه اياه ، وما أشد حاجتنا الى مثل هذا الدرس . فالأب الذى يضـــع نصب عينيه أن ينشىء ابنه على احترام الغير وحقوقهم ومعتقداتهم ، انمـــا يساعده على أن يطل على الحيـــــاة من أفق واسع ، وعلى أن ينظر الى مسائلها ومشاكلهـــــا بعين موضوعية متحررة من آثار التحيز والهوى .

الأب وضرورة عدم نقل هموم العمل الى البيت :

من الخير أن يذكر الآب دائما أنه لابد من الفصل بين العمل والبيت فصلا تاما بقدر الامكان . ومعنى هذا الفصل هنا الا ينقل الأب هموم العمل ومتاعبه معه الى البيت . ان البيت مكان يختلف كل الاختلاف عن العمل . هذا الى أن الصغار لا يستطيعون فهم هموم العمـــل ومتاعبه ، وبالتالى لا يستطيعون المساعدة فيها . ومن ثم فان ترك هموم العمل حيث هى أمر حتمى اذا شاء الأب أن ينهض بالتزاماته فى تنشئة الصغار على خير وجه . لأنه اذا لم يفعل سيعجز عن أن يتفرغ لأبنائه كما يجب . والأطفال شديدو الحساسية فى هـذا الأمر . فان نقل همـوم العمل الى البيت خليق بأن يجعل الأب ضيق الخلق سهل الاستثارة ، وهذا امر قد يفسر بواسطة الصغار على انه حق لهم واعتداء عليهم لانه ليس فى وسعهم أن يفهموا باعثه الحقيقى ولا أن يروا له أى سبب آخر .

مما سبق نرى أن الدور الذى يستطيع الأب القيام به فى تنشئة أبنائه دور عظيم القدر والخطر . ولو قام كل أب بواجبه فى هذا الصدد على النحو الذى ينبغى لكان لنا أن نرجو أن يجىء عالم الغد خيرا من عالم اليوم ، وأن يتحرر أبناء الغد من كثير مما يشعر به أبناء اليوم .

(٦) العلاقات الأسرية السليمة :

ان الجو العائلى الهانىء الذى تسوده روح المحبة والتفاهم والتعاون بين جميع الأفراد يعطى الطفل شعورا بالاطمئنان والثقة بالنفس وتحميه من القلق والاضطراب النفسى ، والعلاقة بين الأبوين يجب أن تكون فى حالة وفاق ومبنية على الاحترام المتبادل والتعاون على مشكلات الحياة بحيث يضع كل منهما الآخر فى اعتباره دائما ، ويجب أن يكون لكل فرد من أفراد الأسرة قيمته واعتباره بدون تفضيل أحدهما عن الآخر ، فالكبير يعطف على الصغير ويساعده ، والصغير يحترم الكبير ويستشيره فى جو من الود والتفاهم .

أما اذا اضطربت الخلافات الأسرية ـ فالخلاف المستمر بين الزوجين يؤدى الى شعور الأطفال بالقلق وعدم الأمن وتوقع الانفصال وتحطيم الأسرة وتشريد الأطفال . وتفضيل أحد الأبوين لأحد الأخوة لكونه الأكبر أو الأصغر أو الأجمل أو الأهدأ ، وتفضيل البنين على البنات أو العكس يؤدى الى ظهور الغيرة بين الأخوة . وكذلك انحراف أحد الأخوة أو اضطرابه قد يعكر صفو الأخوة ويسبب اضطرابا كبيرا بين أفرادها .

مما سبق نرى أن للبيئة العائلية دورا هاما فى توجيه سلوك الطفل ومساعدته على أن ينظم دوافعه الوجدانية وعلى أن يكتسب العادات الحميدة التى تقوى الخلق ، ومن أهم هذه العادات ضبط النفس وحب النظام والتعاون وحب الغير . فالأسرة هى البيئة الأولى للانسان التى تمده

بالحوافز فى كفاحه الدوءب نحو التكيف ، أو تقيم المعوقات دون ذلك الكفاح . لذلك فانه من البديهى أن تحقيق النضج الانفعالى ، أى الوصول الى صحة النفس لا يمكن أن يتم الا من خلال طفولة منحت الحب والحنان والقدوة الطيبة والطمأنينة . فانه لا يستطيع أحد غير الوالدين تزويد الطفل بذلك الغذاء الوجدانى الذى لا غنى عنه لصحة النفس .

(٧) الاختلاط بالمجتمع والأطفال الآخرين

الاختلاط يساعد الطفل على النمو السليم والتعاون ويشـــعره بأنه ينتمى الى مجموعة كبيرة تحميه وقت الحاجة ، وفى ذلك شعور بالأمن والاطمئنان ، كما أن اختلاط الطفل بالآخرين يحميه من الانسياق فى الخيال والانحراف فى التفكير .

أما حرمان الطفل من المؤثرات الخارجية والاجتماعية ، والاختلاط بالأطفـــال الآخرين فيعوق نموه الاجتماعى فينشأ منطويا ، أنانيا ، لا يستطيع التعاون مع الآخرين ، ويشعر بالقلق وعدم الاطمئنان لعزلته عن أخواته . وقد تلجأ بعض الأسر الى عزل أطفالها وخاصة البنات وذلك تمسكا بالتقاليد وعدم مسايرة الأسرة لتطـــور المجتمع ، ويؤدى هذا الى ضرر كبير على الصحة النفسية ويعوق التكيف الاجتماعى .

لذلك فعلى الأباء والأمهات اذا وجدوا فى أحد أبنائهم أية أعراض ولو بسيطة للاضطراب النفسي أو الاحساس

بالنقص وعدم الثقـــة بالنفس ، عليهم أن يدفعوه الى الالتحاق بالنوادى العامة أو الخاصة حيث يجد عـددا كبيرا من أبنـــاء جيله فيعرفهم ويعرفونه ويصـــادقهم ويصادقونه ، الأمر الذى يمنح الثقـــة بالنفس وعدم الاحساس بالنقص . ولكن المهم جدا قبل اتخاذ هـــذه الخطوة فى مساعدة الطفل على التخلص من عقده ، أن يبدأ الآباء والأمهات بجذور المشكلة ، فيعالجوا أخطاءهم فى تربيتهم لأبنائهم ، ويعملوا على أن يشعروا الطفل بأن له والدين محبين مخلصـــين ، راضين به على علاته ، حريصين على سعادته ، وراحة نفسه بصرف النظر عن حظه من الميزات أو العيوب .

هذه هى الخطوة الأولى الهـامة ، وبعدها يأتى ادماج الطفل فى الحياة الاجتماعية المناسبة له حيث يلتقى بأبناء جيله ، ويكتسب من صـداقتهم له الشـعور بوجـوده وانسـانيته .

(٨) فهم حاجات الطفل النفســية فى كل مرحلة

ينبغى أن يدرك الآباء أهمية فهم حاجات الطفل النفسية فى كل مرحلة ، والعمل على اشباع هذه الحاجات فى الوقت المناسب لها كى يتم تحقيق الســعادة والصحة النفسية له . فمثلا الطفل فى السنة الأولى يحتاج الى حماية تامة ورعاية كاملة من الأم ، ويحتاج الى اشباع حاجته الأولية بانتظام مثل الطعام والنظافة والحنان .

أما الطفل فى سنوات الطفـولة المبـكرة فيحتاج الى

مجال لاشباع حب الاستطلاع ومساعدته على تنمية قدراته الذهنية واللغوية .

أما طفل المرحلة الابتدائية فيحتاج الى تعلم النظام والاستقلال والاعتماد على نفسه ، واشباع هذه الحاجات فى الوقت المناسب لها ينتج طفلا متزنا سليما .

مما سبق يمكننا أن ندرك أهمية الحياة الانفعالية والاجتماعية للطفل ، فحياة الطفل من جميع زواياها العقلية والنفسية والاجتماعية متساوية فى الأهمية وتحتاج الى الرعاية والاهتمام من البداية . فاذا وفت كل ام وكل أب بما تقتضيه منهما تنشئة الصغير على أساس الرغبة الصادقة والرعاية الراشدة لحاجات الطفولة لتحقيق الصحة النفسية له لبدا لنا شعاع من الأمل بأن طفل الغد سيكون خيرا من طفل اليوم .

فهرس

صفحة

الترقيم الدولى ٦ـ ٦٩ ـ ٧٠٢١ ـ ٩٧٧ ISBN
رقم الايداع بدار الكتب والـــوثائق القومية ٨٠/٣٠٩٦

وكلاء اشتراكات مجلات دار الهلال

جدة - ص . ب رقم ٤٩٣
السيد هاشـــم على نحاس
المملكة العربية السعودية

انجلترا :

THE ARABIC PUBLICATIONS
7. Bishopsthrope Road
London S.E. 26
ENGLAND

البرازيل :

M. Miguel Maccul Cury.
B. 25 de Maroc, 994
Caixa Postal 7406,
Sao Paulo. BRASIL.

أسعار البيع للجمهور فى البلاد العربية للاعداد العادية من « كتاب الهلال » الشهرى بسعر ٢٠ قرشا للقارىء فى مصر .

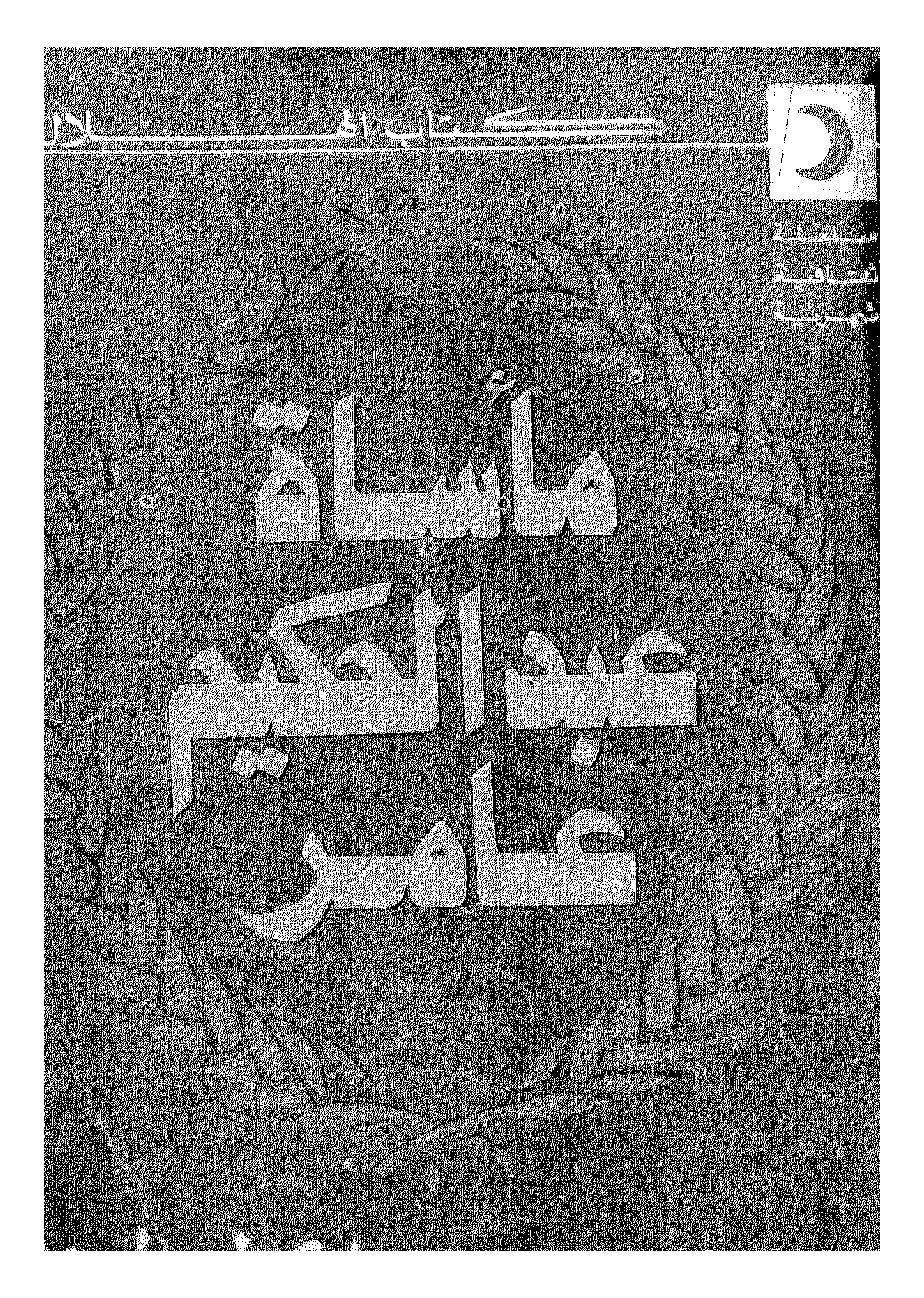
سوريا : ٣٠٠ ق.س ثلاثمائة قرش سورى
لبنان : ٢٥٠ ق.ل « مائتان وخمسون قرشا لبنانيا »
الاردن : ٢٥٠ فلسا « مائتان وخمسون فلسا أردنيا »
الكويت : ٣٥٠ فلسا « ثلاثمائة وخمسون فلسا كويتيا »
العراق : ٤٠٠ فلس « اربعمائة فلس عراقى »
السعودية : ٤ ١/٢ ريال « اربعة ريالات ونصف ريال »



هــذا الكتاب

المشاكل النفسية للاطفال والاولاد موجودة فى كل بيت • يقولون ان ثلاثين فى المائة منهم يشكون من هذه الامراض • لهذا اخترنا هذا الكتاب لهذا الشهر لعلنا نستطيع ان نقدم به خدمة للاسرة العربيــة بصفة عامة ، لان الحقيقة ان الظروف التى يعيش فيها الصغار والشباب فى مصر ظروف قاسية ، فالصغار يعيشون فى بيوت كابية اللون فقيرة المظهر كثيرة الضوضاء غاصة بالعيال ، والصغير دائمــا ضائع ولا مكان له من حب أو عناية حقيقيتين ، والاولاد فى مداخل الشــــباب وينظرون الى مستقبل غير سعيد ينتظرهم فيملأ نفوسهم اليأس • ثم ان الاباء والامهات يستغرقهم صراع العيش فلا يجــدون الوقت الكافى لعلاج مشاكل الاولاد النفسية ، انهم يعتقدون ان كل المطلوب منهم هــو الغذاء والكساء ومصاريف التعليم ، وهذا فى ذاته كثير ، ولكنه ليس كل شىء ولا اهم شىء • اهم شىء هو الراحة النفسية للاولاد • الشعور بانهم فى اسرة تشاركهم كل مشاعرهم ومتاعبهم • وربما كان اهم شىء هو انهم لا يصنعون مستقبلهم بانفسهم ، بل نحن نصنعه لهم •

هذه نماذج من المشاكل التى تعالجها الدكتورة كليــر فهيم فى كتابها القيم هذا وهى تعالجها معالجة طبيبة ممارسة •• من ثم فان كل ما تقوله له وزنه واهميته • هذا الكتاب هدية لكل اسرة •


كتاب الهلال
سلسلة
ثقافية
شهرية
مأساة
عبد الحكيم
عامر

كتاب الهلال

KITAB AL-HILAL
سلسلة شهرية تصدر عن « دار الهلال »

رئيسة مجلس الإدارة : أمينة السعيد
نائب رئيس مجلس الإدارة : صبري أبو المجد

رئيس التحرير : د. حسين مؤنس
سكرتير التحرير : عايد عياد

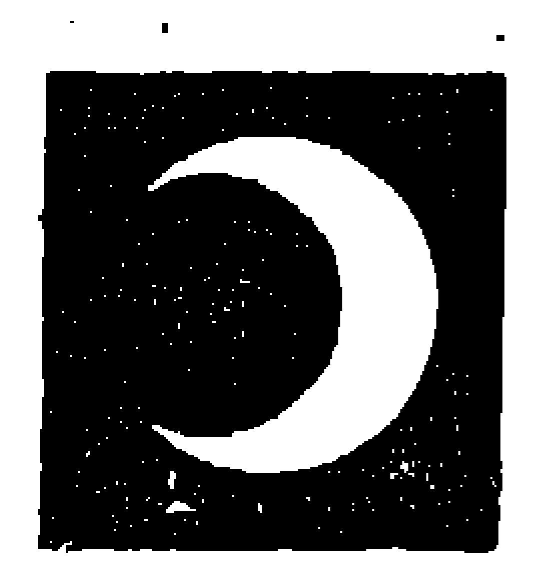
العدد ٣٥٤ – رجب ١٤٠٠ – يونيه ١٩٨٠
No. 354 — June 1980

مركز الادارة

دار الهلال ١٦ محمد عز العرب
تليفون ٢٠٦١٠ (عشرة خطوط)

الاشتراكات
قيمة الاشتراك السنوى – ١٢ عددا – فى جمهورية مصر العربية جنيهان مصريان بالبريد العادى . وبلاد اتحادى البريد العربى والافريقى وباكستان ثلاثة ونصف جنيه مصرى بالبريد الجوى . وفى سائر انحاء العالم سبعة دولارات بالبريد العادى وخمسة عشر دولارا بالبريد الجوى .
. والقيمة تسدد مقدما لقسم الاشتراكات بدار الهلال فى ج. م. ع. بحوالة بريدية غير حكومية وباقى بلاد العالم بشيك مصرفى لامر مؤسسة دار الهلال وتضاف رسوم البريد المسجل على الاسعار الموضحة اعلاه عند الطلب .

كتاب الهلال



سلسلة شهرية لنشر الثقافة بين الجميع

الغـــلاف بريشـــة :
الفنانة سميحة حسنين

حمدى لطفى

مأساة...
عبد الحكيم عامر

دار الهلال

كلمة .. للحقيقة

هل هناك جديد يمكن أن يضاف الى ما نشر وأذيع عن الرئيس الراحل جمال عبد الناصر ، والمشير المرحوم عبد الحكيم عامر ؟! .

نعم ... هناك « الكثير » الذى لم تعرفه جماهير شعبنا حتى الآن ـ عن العلاقة أو الصراع السرى بين الرجلين قبل أن ترتفع عنه الستائر فى يونيو ١٩٦٧ ، ويذهب عبد الحكيم عامر للقاء ربه ـ وكان لهذا « الكثير » تأثيره على عبد الناصر ما قبل ٦٧ ، وطوال السنوات الثلاث التى عاشها الرئيس الراحل بعد ذلك .

● لقد ظهر عدد ليس بقليل من الصحفيين والكتاب المصريين ، استطاع الانتفاع سرا بالرجلين ـ خاصة بعد أن وقعا فى مصيدة السيطرة الروسية ـ وجرا معهما بعض هؤلاء الصحفيين والكتاب ، وهم غير الفئة التى تدين بالماركسية ، وليس سرا أن هذا البعض انضم الى « التنظيم الطليعى تحت الأرض » كما كانوا يطلقون على أنفسهم ، وجرى لهم غسيل مخ سياسى بتخطيط من الخبراء السوفييت ـ فى مصر أو خارجها ـ وأذكر أن صديقا صحفيا حاول تجنيدى للتنظيم الطليعى السرى مرتين ، فى عامى ١٩٦٦ و ١٩٧٠ ، فاعتذرت له ، ولأنه صديقى قبل كل شىء لم يش بى .

● وفى رايى ومن خلال معاناة شخصية اعتقد أن عددا من هؤلاء « المسيريين » الذين رفعوا شعارات ثورة مايو ١٩٧١ ، لا زالوا يطبقون سرا تعاليم أسياد اسيادهم ، ويبذلون جهدا مستمرا فى حجب ما يجب أن ينشر ويذاع على الجماهير من حقائق الستينات ، وصراع السلطة الذى اصاب شعبنا بأفدح الخسائر التاريخية فى هزيمة يونيو وسنظل والى سنوات طويلة قادمة ندفع الثمن رغم انتصار أكتوبر ١٩٧٣ .

● ان الحقيقة لا يمكن أن تغيب الى الأبد ... فهى كالشمس لابد أن تسطع مهما حاولوا طمسها لذلك لم احاول الانتفاع بعبد الناصر أو عامر ، كما فعل كثيرون غيرى طوال ١٨ عاما من عمر الثورة ، كثيرون غيرى من الصحفيين والعسكريين ، ومختلف المهن الأخرى للأسف ! .

● ولقد فكرت فى اعداد هذا الكتاب حبا فى عبد الناصر الزعيم العربى الذى غير مجرى التاريخ فى الشرق الأوسط وأفريقيا ، وبالتالى فى وطنه مصر ايضا ...

احببته دون أن اتخذ منه آلها كما فعل المنتفعون به ، ولذلك أخذت أبحث فى مرحلة حكمه بالايجاب والسلب، السلب الذين يصفونه « بالحكم الشمولى » بدلا من استخدام حكم الفرد ، وما فعلته السلطة بعبد الناصر ، وما فعله هو بشعبه من خلال السلطة ! .

● فى رايى ان عبد الناصر الزعيم القومى العربى ، يختلف تماما عن عبد الناصر « السلطة » داخل بلاده ، وهذه هى الرؤيا التى ضاعت منا ونحن ننظر الرجل بعد

وفاته ، ونفحص آثار تكوينه النفسى ونسيجه البشرى فى حياتنا .

● وأعددت هذا الكتاب لغرض ثان أيضا ، وهو انصاف بعض المراحل العسكرية التى حاولوا فصلها عن المرحوم عبد الحكيم عامر ، لتشويه الرجل الى أقصى المدى والمشوار ، الذى قطعه بجانب عبد الناصر ، وليس معنى ذلك أن عامرا كان مجنيا عليه ، لا ، فهو بالضرورة يقف فى مجموعة الصف الأول من الجناة ، وما أكثر صفوفهم ، ولكن التاريخ سيظل يلح فى وضع النقط فوق الحروف ، خاصة حين نتحدث عن « جرائم تاريخية » زلزلت الوطن ، أخذ البعض يمهد لها طويلا او يعمل بجهد مكثف على المستويات العليا ، عمدا او جهلا ليسود مناخها ، تماما مثلما حدث قبل وبعد جريمة او نكبة يونيو ١٩٦٧ .

● ان الهزيمة يمكن أن تلحق بأى دولة ، ولكن الغريب والمثير أن نصاب بهزيمة يونيو ١٩٦٧ والثورة ، ثورة يوليو ١٩٥٢ تحكم مصر ، والعالم بأكمله ينظر اليها اكبارا واعجابا من خلال شخص جمال عبد الناصر كزعيم عربى له مكانته الدولية ، وليس « كحاكم وسلطة » فى مصر ... وربما كانت هذه النظرة هى التى دفعت بعض الصحفيين الأوروبيين ليقول فى ٢٩ سبتمبر ١٩٧٠ ، بعد يوم من وفاة عبد الناصر ، انه مات من قبل ، فى يونيو ١٩٦٧ .

●

والحمد لله ان اسمى لم يكن بين الأسماء التى ضمتها عشرات من الكشوف التى تركها عبد الحكيم عامر بعد اعتقاله أو مماته قتلا او انتحارا ، العديد من الأسماء

التى كانت تتقاضى مرتبات سرية شهرية ثابتة ، أسماء يتوقف المرء أمامها ، دهشة ويهز رأسه غير مصدق لما يقراه !! .

● ومن خلال ايمانى بجنديتى فى خدمة مصر الثورة ، لا السلطة أو الحاكم الذى يعمل على اخضاع الرجال لسلطانه بالأموال والمناصب ـ اعددت هذه المقدمة « ردا » على تعليقات بعض المنتفعين القدامى بالثورة ، او عواجيز الفرح الآن ، اذا تفضل احدهم وقرا كتابى .

حمدى لطفى

الفصل الأول :

الرجل الأول ..
والأول مكرر في مصر

مقدمة

ستبقى قصة المرحوم المشير عبد الحكيم عامر نائب القائد الأعلى للقوات المسلحة المصرية حتى هزيمة يونيو ١٩٦٧ ـ العسكرية ـ علامة مأساوية ـ فوق تاريخ مصر أو تاريخ ثورة يوليو ١٩٥٢ ـ فعبد الحكيم عامر ، كما قال لى من اقترب منه كثيرا مذ كان طالبا بالكلية الحربية فى نهاية الأربعينات ، حتى ما بعد منتصف الستينات حيث انتهت حياته ، وكما عرفته جيدا عام ١٩٥٠ ، ثم ابتعدت عنه تماما فى نهاية يونيو ١٩٥٣ ، بعد أيام قليلة من اعلان النظام الجمهورى فى مصر ، وترقيته من رتبة « الصاغ » أو « الرائد » حاليا الى رتبة « اللواء » وتعيينه قائدا عاما للجيش المصرى ، عبد الحكيم عامر هو واحد من تلك الفصائل البشرية التى تكمن فيها « المأساة » فى مرحلة الصبا ، وتبقى فى مكمنها حتى تدفعها الأحداث الى الظهور والسيادة .

ان نهاية عبد الحكيم عامر انتحارا أو قتلا ليست المأساة التى أعنيها ، فحين ذهب الى لقاء ربه ، انتهت المأساة انسانيا ، ولم ينته الصراع الذى خلفته المأساة نفسها ، الصراع المقنع غير العلنى بين الرئيس الراحل

جمال عبد الناصر ، ونائبه أو ذراعه اليمنى عبد الحكيم عامر ، وهو صراع يستطيع أن يتكلم فيه كثيرون ممن شهدوا « العلاقة » عن قرب ولكن أكثرهم يتحرج من الحديث عن هذا الصراع رغم أهميته فى تاريخ مصر .

● وفى رأيى ورأى كثيرين أن الاقتراب من شخصية جمال عبد الناصر التى لم تكتب بعد حتى الآن ليس تطاولا وليس خطأ ، بل هو مطلب سيظل يلح فى الظهور من أجل الحقيقة ، ولن يبقى غيرها للأجيال القادمة والتاريخ ، مهما طال حجم الصمت ، ومهما حوول طمس الحقيقة أو اخفائها ، فستسطع يوما كالشمس فى كبد السماء .

● وليس عيبا ان أعترف بأن الكتابة عن عبد الناصر الذى لم يعرف أو يكتب بعد ، عمل ضخم للغاية ، فى حاجة الى دارس تتوفر فيه عدة شروط ، اهمها الاقتراب من الرئيس الراحل منذ طفولته حتى رحيله ، مع رؤية واعية بحركة التاريخ ، وأمانة متميزة بالدقة البعيدة عن الانفعالات والعواطف ، وقدرة على التحليل العلمى لما يعتمل فى نفس الانسان بعيدا عن السلطة ، وفى قمة السلطة ، والمثالب البشرية حين تهزمها التربية والبيئة والثقافة والثراء الانسانى ، وحين تسود هذه المثالب سلوكا أو طموحا ، او خوفا فى أكثر الحالات ! .

● وعبد الحكيم عامر الثائر والمأساة والعصر ، مهما اختلفت الآراء السريعة فى دوره ، هو احد شباب مصر الذين اسهموا سرا بقدر بارز من النشاط الثورى بين قطاع من ضباط الجيش المصرى من اجل تحويل عجلة التاريخ فى وطنه ، خرج ليلة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ مع زملائه

قـادة الضـباط الأحرار بكل الجراة الوطنيـة المقترنة بالفداء ، والاخلاص للهدف ، ليصنعوا مصر الثورة ، ومع الاخلاص للهــــدف الذى يتمتع به عبد الحكيم عامر الانسان ، ظهرت أو كانت بداية ظهور بذرة « المأساة » فوق السطح ! .

ولقد ترك المشير عبد الحكيم عامر « بصماته » بلا شك فوق تاريخ ثورة يوليو ١٩٥٢ ، ولمدة خمسة عشر عاما متصلة عاشتها مصر « بالعرض وليس بالطول » كما نقول فى بعض الأحيان ، وشهدنا خلالها تحولات تاريخية هامة ، كان للرجل دوره فيها سلبا أو ايجابا ، كما لعب دوره ايضا وراء الكواليس فى الصراع « المقنع » بينه وبين الرئيس الراحل جمال عبد الناصر ، ذلك الصراع « السرى » الذى بلغ الذروة فى بداية عام ١٩٦٤ ، وتأجج اشتعالا فى الأشهر الأولى من عام ١٩٦٧ ، ولم يتوقف بوفاة عبد الحكيم عامر – فى أغسطس ١٩٦٧ – انتحـارا أو قتلا ، بل بقيت جـذوره ، وازداد نموها بطيئا ، واستمر الرئيس الراحل محاولا اقتلاعها حتى يناير عام ١٩٧٠ ، أى قبل رحيله بثمانية شهور فقط ، وقد أرقته طويلا .

● ماذا حدث فى يناير عام ١٩٧٠ ؟

– كان الرئيس الراحل يهتم شـخصيا بمتابعة تطهير القوات المسلحة من الضـــباط الذين يدينون بالولاء لعبد الحكيم عامر – وما أكثرهم – ايمانا منه بأن هؤلاء سيصبحون بالضرورة تربة صالحة لقيام تنظيم عسكرى يعمل ضده ، ومنذ الهزيمة العسكرية فى يونيو ١٩٦٧ ، أخذ يقوم بمعاونة الفريق اول محمد فوزى القائد العام الذى حل محل عبد الحكيم عامر بابعاد عناصر كثيرة من

الضباط ، وبشكل أخذ طابع الاستمرار ـ أحيل عدد ليس بقليل من خيرة الضباط الى التقاعد ، وقبض على أعداد أخرى بحجة الاشتراك فى تجمعات سرية لقلب نظام الحكم بالقوة ، وحقق معهم بواسطة النيابة العسكرية ، وقدموا لمحاكمات عسكرية سرية ، لم يعلن عنها أو عن أحكامها ، وآخر هذه القضايا حملت رقم ٨ ـ أمن دولة ـ يناير ١٩٧٠ ، وحوكم فيها « النقباء حسن محمد بهجت ومحمد أحمد خميس وهشام مصطفى حسين » وآخرون .

وقيل انهم من بقايا ضباط عبد الحكيم عامر ، وتردد عنهم فى تشكيلاتهم العسكرية أنهم من الاخوان المسلمين، ولم تكن جريمتهم فى الحقيقة غير جلسة نقاش حول العوامل الحقيقية للهزيمة العسكرية فى يونيو ١٩٦٧ ، وكيف يبقى من ساهم فى صنع النكسة الى ما بعد النكسة فى موقعه ؟! .

● والمثير فى الأمر ، انه فى تلك الفترة ما بين يونيو ١٩٦٧ ، حتى وفاة الرئيس الراحل فى ٢٨ سبتمبر ١٩٧٠ ، قبض على عدد من الضباط الذين عملوا مع عبد الحكيم عامر وقياداته ، وكان موكولا اليهم قبل يونيو ٦٧ ـ مهام القبض على الضباط وتعذيبهم والتنكيل بهم جزاء لما فكروا فيه ضد فساد النظام فى الخمسينات أو الستينات ، وهكذا تدور العجلة ... أو كما نقول « يوم لك ويوم عليك » !! .

● ان الصراع السرى الذى دار بين الرئيس الراحل جمال عبد الناصر وذراعه اليمنى المشير عبد الحكيم عامر ، وأستمر لعدة سنوات ، لا شك انه كان مدخلا لهزيمة يونيو ١٩٦٧ ، وأذكر ان الفريق صلاح الدين

الحديدى رئيس المحكمة العسكرية العليا التي حاكمت قادة القوات الجوية المصرية حتى النكسة ذكر أمامي في لقاء وحوار معه ، ان الهزيمة صنعت صنعا ، أى عن عمد ، وانه يقول لى هذا الرأى بضمير القاضى ، بعد أن شاهد الكثير من اشكال الصراع بين عبد الناصر وعامر ، ودرس مئات من صفحات التحقيق الضخم الذى اجرى مع عشرات من القيادات العسكرية بعد يونيو ١٩٦٧ ، قبل ان يبدأ فى محاكمة الفريق أول صدقى محمود قائد القوات الجوية وثلاثة من قادة الطيران ، ويستمع الى عشرات الشهود ، بعضهم قال كلمة صدق دون خوف او تردد ... مما اغضب عبد الناصر فى النهاية .

● ويبقى السؤال :

كيف صنعت الهزيمة صنعا أو عن عمد ؟

ـ هل كانت « الخيانة » خلف الهزيمة ؟

ـ ولحساب من تمت الخيانة ؟ ومن هم الذين كان بامكانهم تنفيذ مثل هذا المخطط ؟

ـ هل هى القيادة السياسية ممثلة فى الرئيس الراحل جمال عبد الناصر ، وعلى صبرى بصفته أحد رجاله الذين يعتلون قمة القيادة السياسية بنفوذهم وأعوانهم وعلاقاتهم المريبة بموسكو ؟ أم هى القيادة العسكرية ؟ .

وبالطبع سنفصل « عبد الحكيم عامر » عن دائرة المشكوك فى أمرهم لأن الهزيمة اذا وقعت ستودى به فى الدرجة الأولى ... نفصل « عامرا » بعيدا لنجد ان المخابرات الروسية كان لها السيطرة الكاملة على بعض القادة العسكريين فى الطيران والجيش والبحرية ،

وباسلوب العسكريين في الطيران والجيش والبحرية ، وباسلوب حسابات رجال المخابرات نستطيع ان نقول بعد استقراء للمناخ أن هزيمة القوات المسلحة المصرية فى يونيو ١٩٦٧ يمكن أن تؤدي الى احكام قبضة السوفييت على مصر سياسيا وعسكريا سواء بقى عبد الناصر وعبد الحكيم عامر بعد الهزيمة او ذهب احدهما الى ما وراء الشمس ... كما حدث بالفعل ! .

●● ولقد التقيت بعدد قليل من قادة قواتنا المسلحة ، بقى بالخدمة بعد يونيو ١٩٦٧ ، فكانوا موضع ثقة جمال عبد الناصر ـ هذا العدد القليل من الضباط القادة ، وفى مقدمتهم الفريق صلاح الحديدى ، قالوا لى انهم لا يستبعدون قيام خبراء موسكو بعمليتى غسيل راس او غسيل مخ للرجل الأول فى مصر « عبد الناصر » والرجل الأول « مكرر » كما كانوا يطلقون عليه سرا « عبد الحكيم عامر » تهدف الى الآتى :

ـ أن يقتنع عبد الناصر بضرورة هزيمة عبد الحكيم عامر هزيمة محدودة ـ تجعل عبد الناصر قادرا ومسيطرا على عبد الحكيم عامر ، وعلى القوات المسلحة ، بعد أن أفلت الزمام من أيدى عبد الناصر ، واصبح رئيس الجمهورية خاضعا كل الخضوع لمزاج وفكر عبد الحكيم عامر ، وهو خضوع شعر به عدد قليل من المحيطين بهما ، ولم يخرج الى العلانية على الاطلاق ، وكان عبد الناصر وحده حريصا على تكتم واخفاء أنباء وتفاصيل هذا التطور الذى ساد علاقته بعامر !

● ومن هنا يرى البعض ان عبد الناصر صنع مناخ الهزيمة ودفع بالجيش المصرى اليه ، ولكنه لم يكن يتوقع أن تأتى الهزيمة بمثل هذا الحجم ! .

● ويدلل هؤلاء البعض على صدق هذا الاستنتاج ، بقـول الفريق أول محمـد صدقى محمود قـائد القوات الجوية عندما طلب عبد الناصر اليه أن يتحمل الطيران المصرى « الصدمة الأولى » التى تقوم بها اسرائيل ، فى الاجتماع العسكرى الذى عقد يوم ٢ يونيو ١٩٦٧ ، فقد اعترض « صدقى محمود » كمـا هو ثابت فى أوراق التحقيق ، اعترض قائلا :

ـ « تفرق كثير يا ريس ! » .

ولم يهتم عبد الناصر !! .

وهؤلاء أيضا يعتقدون ان عملية غسيل مخ اجريت لعدد ليس بقليل من قادة قواتنا المسلحة فى موسكو وفى القاهرة ، وأن هـذه العملية بدأت بطيئة بطيارينا مع بداية الستينات ، ونمت بداية بعام ١٩٦٤ على مستوى القوات كلها واستمرت دون توقف ، حتى خروج الخبراء السوفييت من مصر بقرار ثورى أصدره الرئيس أنور السادات فى أكتوبر ١٩٧٢ ، ومن الممكن أن يتحول نفر من هؤلاء الى أدوات فى أيدى الخبراء السوفييت ومخابراتهم ، ويقومون بالخيانة تلبية لأوامر موسكو .. ولكنهم يستبعدون مثل هذا الخاطر لعدم وجود دليل مادى واحد على حدوثه ! .

● وانصافا لـكلمة حق تقال ، لابد أن نجيب على سؤال هام وخطير ، لـكى نضع النقط فوق الحروف .. والسؤال هو ... كيف ظهر الصراع بين عبد الناصر وعبد الحكيم عامر ؟ ولماذا ؟ .

انه من المثير حقا وأمر يدعو الى الدهشة أن يقوم مثل هذا الصراع بين الرجلين وقد ربطت بينما صـداقة

عميقة قوية منذ التقيـــا فى « منقباد » عام ١٩٤٠ ،
وتوطدت هذه الصداقة عمليا بقيام ثورة يوليو ١٩٥٢ ،
ومساندة عبد الحكيم عامر لعبد الناصر فى كل المعــارك
السرية والعلنية التى خاضها .. ضد اللواء محمد نجيب
أول رئيس للجمهورية ، وضد الضباط الذين تصدوا
لعبد الناصر وزحفه الى الحكم المطلق تدريجيا ، ثم
تأييد عامر لحركات التطهير التى أجراها عبد الناصر بين
ضباط الجيش المصرى وفى مقدمتهم الضباط الأحرار
ابتداء من الأسبوع الثانى للثورة ، وعلى مدى خمسة
عشر عاما بعد ذلك ، قضاها عبد الحــكيم عامر يحــكم
بجانبه ، ليعاود عبد الناصر بعد يونيو ١٩٦٧ ، عمليات
التطهير فى القوات المسلحة ابعــادا للعناصر التى ثبت
فشلها فى الحرب ، وتأمينا لبقائه فى السلطة ! .

○ اذن كيف يمكن أن يقوم صراع من نوع ما ، بين
هذين الصديقين ؟!

● هل هو الصراع على قمة السلطة ؟

● هل كان عبد الحكيم عامر طموحا الى حد التفكير
فى رئاسة الجمهورية بدلا من عبد الناصر ؟!

● لقد ظلت هــذه الأسئلة تلح على عقلى كصحفى
منذ بداية عام ١٩٦٣ ، واعترف أن الخوف الذى كان
يسيطر علينا كشعب خلال هذه المرحلة جعلنى لا اجرؤ
على طرح ما يدور فى ذهنى من تساؤلات ... ولقــــد
وقفت على بعض الــكثير من تفاصيل هــذا الصراع ،
بحكم ارتباطى كصــحفى بثورة يوليو ، ذلك اننى كنت
أصغر الصحفيين « سنا » حين قامت الثورة ، ولقــد
ذهبت الى مبنى القيادة العامة للقوات المسلحة صباح

٢٣ يوليو ١٩٥٢ ، وكنت أعمل تلك الأيام « بمجلة روز اليوسف » ، بعد أن علمت بقيام انقلاب عسكرى ، واذاعة البيان « رقم ١ » للثورة بصوت الرئيس أنور السادات ، ومنذ ذلك الصباح ارتبطت بالثورة وبالجيش المصرى عاشقا بكل كيانى ، وكنت كأى شاب يرى فى الثورة املا وغدا أكثر سعادة واشراقا ، ثم تفرغت للعمل كصحفى فى قطاع القوات المسلحة ، ولى الشرف أن أقول أن ارتباطى بالعسكرية المصرية ظل مستمرا حتى اليوم ، وطيلة ٢٨ عاما مضت ، وبحكم هذا الارتباط وهذه العلاقة وقفت على اسرار كثيرة عما يدور خلف الستائر أو وراء الكوليس ، ولكنى لم أستطع أبوح به حتى اصدرت كتابى السابق « ثوار يوليو الوجه الآخر » فى يوليو ١٩٧٧ ، وضمنته بعض أسرار الثورة ، وبينها ما اذيع لأول مرة .

واسمحوا لى أن اعود الى الوراء قليلا ..

● لقد تصادف ان جمع بيت احد الأصدقاء بينى وبين المرحوم عبد الحكيم عامر فى احدى ليالى عام ١٩٥٠ ، وتكررت سهراتنا ، واعجبت « بالصاغ » الشاب الذى يفيض حماسة ووطنيـة ولا يتردد امام شلتنا الصغيرة فى هذه اللقاءات عن ادانة الملك فاروق وكبار القادة العسكريين ، بعد الجولة الأولى مع اسرائيل عام ١٩٤٨ ، وكان بين أصدقاء هذه الشلة اثنان من ضباط الشرطة ، وملحن موسيقى معروف الآن ، وقد أصابتهم الدهشة جميعا عندما ظهرت الصحف اليومية فى اليوم الثانى أو الثالث للثورة وفوق صفحاتها « صور » من قاموا بالثورة ، وبينهم الصاغ عبد الحكيم عامر ، صديقهم الذى لم يكن حديثه وافكاره العلنية فى

سهراته بينهم ينبىء بأن له « نشاطا سريا » يدفع به فى النهاية الى حكم البلاد ! .

● ولقد عاوننى المرحوم عبد الحكيم عامر « صحفيا » طوال العام الأول من عمر الثورة - حتى أعلن النظام الجمهورى فى ١٨ يونيو ١٩٥٣ ، وصدر قرار ترقيته من رتبة الصاغ الى رتبة اللواء ، وتعيينه قائدا عاما للقوات المسلحة المصرية فى الوقت نفسه .. وبعد أيام من هذا الحدث التاريخى وجدت « لصوص الثورة » من الضباط الذين هربوا خوفا وجبنا ليلة الثورة يلتفون حوله وحول عبد الناصر بتشجيع من الرئيس الراحل - ووجدت اللواء عبد الحكيم عامر يفقد تواضعه ، ويسلك سلوك « المتعالى » بين من عرفوه قبل الثورة ، فأيقنت أن السلطة صنعت منه رجلا مختلفا ... وابتعدت عنه تماما رغم ارتباطى كصحفى بالقوات المسلحة ، وللحقيقة ... أقول ان عبد الحكيم عامر عدل أو قرر أن لا يستمر بهذا السلوك ، واستعاد « تواضعه » بعد أن شبع سريعا من السلطة قبل نهاية الخمسينات .

●● وبعد رحيل عبد الناصر جلست الى كمال الدين حسين وعبد اللطيف بغدادى وعبد المنعم أمين أعضاء مجلس قيادة الثورة ، والى المرحوم يوسف صديق ابرز الضباط الأحرار ليلة ٢٣ يوليو بدوره الجرىء ، والى السيد صلاح نصر المدير السابق للمخابرات العامة ، والى السيد ابراهيم بغدادى محافظ القاهرة سابقا ، وكان يعمل كجامع معلومات عن الضباط الأحرار لحساب جمال عبد الناصر سرا قبل الثورة ، وهو ضابط مشاة ممتاز ، وقد خدم أكثر من عشر سنوات بجهاز المخابرات العامة ، وكان أحد نجومه الذين استطاع « صلاح نصر »

بعدهم الى مواقع أخرى بعيدا عن جهـازه أو مملكته الـكبرى ! .

وتحدثت طويلا الى هؤلاء الثوار ، واستمعت اليهم طويلا أيضا ..

● ماذا قال لى هؤلاء ؟ .

● وبماذا خرجت به من الجلوس اليهم والاستماع الى أحاديثهم عن عبد الناصر وعامر ؟! .

ـ لقد أجمعوا كلهم على أن عبد الناصر كان امتدادا لطفولته القاسية ، فقد ولد لأب فقير العواطف بالنسبة لأبنائه شديد الحسم فى تربيتهم ، فتعلق الابن البـكر للسيد عبد الناصر حسين بأمه التى ماتت دون أن يعلم بوفاتها ... كانت تعيش مع زوجهـا وأبنائها بقرية الخطاطبة ـ بحيرة ـ بينما انتقل الصبى « جمـال » ليعيش مع عمه « بحى الخـرنفش بباب الشعرية » بالقاهرة ، حيث التحق بالمدارس الابتدائية ... وحين عاد الى الخطاطبة فى أجازة العام الدراسى فوجىء بوفاة امه وزواج ابيه من سيدة أخرى ... وكانت صدمة شديدة جعلته يشك فى نوايا كل الناس ويسبق تعامله مع الآخرين حذر شديد ، كمـا بدأ يميل الى الانطوائية والعزلة ... مكتفيا بصديق واحد فقط يختاره بعناية ، بحيث يسهل له السيطرة على هذا الصديق .

● ولقد ذهبت الى « الخطاطبة » ذات يوم باحثا عن طفولته أو مرحلة الصبا فى حياة جمال عبد الناصر ، والتقيت هناك بصديق المدرسة الأولية ، المدرسة التى التحق بها جمـال طفـلا وهو يعيش برفقة أبيه فى الخطاطبة ، وقال لى هذا الصديق أشياء يتوقف المرء عند تفاصيلها بالضرورة ..

● روى لى أن أحد مفتشى اللغة العربية زار مدرستهم ، ووقف يستمع الى شرح المدرس للفصل الرابع — وعبد الناصر لطول قامته يجلس فى نهاية الفصل — وطلب المدرس الى تلاميذه أن يضعوا كلمة « كتابة » فى جملة مفيدة يكون موقعها فاعلا — وعجز كل التلاميذ عن تقديم هذه الجملة — وبلل العرق وجه المدرس خجلا أمام المفتش ، وجاء دور عبد الناصر فقال :

— « ظهرت كتابة القرآن واضحة » ...

ونال تهنئة الجميع ، وبعد انصراف المفتش طلب المدرس من « جمال » أن يضرب كلّ تلميذ « عصايتين » جزاء لهم على تخلفهم وجهلهم ، فاعتذر عبد الناصر عن تنفيذ هذا الطلب — مما أغضب المدرس وكان فى حالة هياج شديد لما حدث له أمام المفتش ، فخير جمال بين تنفيذ ما طلب او يضربه كل تلميذ « عصايتين » جزاء له على رفضه أوامر مدرسه ! .

وصمم عبد الناصر على موقفه وتحمل أكثر من ٦٠ عصا فوق يد واحدة دون أن يتألم ! .

● ويقول الرجل : منذ تلك اللحظة تحول التلميذ عبد الناصر الى زعيم لنا ، فى فناء المدرسة نقف خلفه ، اذا لعب لعبنا ، واذا توقف توقفنا جميعا فى صمت دون حركة حتى يتحرك هو ... وأدركت بعد الثورة انه خلق ليكون زعيما منذ طفولته » .

● ويروى لى أيضا عن « دهاء » عبد الناصر فيقول :

— « كان أبوه يمنعه من ممارسة السباحة فى ترعة

القرية حتى انه كان يوقع باسمه فوق قدم جمال ، ولكن « جمالا » ظل يتدرب على تقليد امضاء أبيه ، ونجح فى ذلك سريعا ، فعاد الى السباحة بالترعة ، وعلم أبوه بما حدث فضربه ضربا مبرحا ، بعدها وقع باسمه فوق ظهر ولده .. ولم يعجز جمال فى العثور على تلميذ ممن يدورون حوله ، دربه على تقليد امضاء أبيه ثم يجلس هذا التلميذ على ضفة الترعة حتى يخرج جمال ، فيوقع له على ظهره ، ويعود عبد الناصر مطمئنا الى أن أحدا من اصدقائه لن يجرؤ على نقل ما حدث لأبيه ... وكان ذلك صحيحا » .

●● وقال لى رفاق الثورة حين رويت لهى هذه القصة :

ــ لقد كان عبد الحكيم عامر احد الذين وهبوا عبد الناصر كل اهتمامهم وصداقتهم ، حتى يمكن القول بانه ذاب فى شخص عبد الناصر حقيقة وواقعا ــ وكان « جمال » يسند الى عامر مهمة البحث عن الضباط الذين يصلحون للانضمام الى خلايا التشكيل السرى للأحرار ــ ونجح عبد الحكيم فى هذه المهام لارتباطه بصداقات قوية مع زملاء الكلية الحربية وسلاح المشاة الذى انضم اليه ، وضباط آخرين بأسلحة اخرى مختلفة ، يحملون كل التقدير للصاغ عبد الحكيم عامر ومشاعره الريفية الصادقة وسلوكه الانسانى دائما ... بينما حجم عبد الناصر كضابط وصديق وقائد ينمو فى عقل وقلب عبد الحكيم حتى كان للأول كل السيطرة التامة على الثانى .

● كانت هذه الرؤى وهذه العلاقة خلف ترشيح جمال عبد الناصر للصاغ عبد الحكيم عامر كى يتولى

قيادة الجيش المصرى ، امام مجلس قيـادة الثورة حين طرح هذا الأمر للمناقشة مع بداية عام ١٩٥٣ ، وكان كل من كمال الدين حسين وصلاح سالم وعبد اللطيف بغدادى يرى انه أحق بهذا المنصب ، ولكنهم فى النهاية أذعنوا لرغبة جمال ووافقوا بالاجماع على ترقيته الى رتبة اللواء فى يونيو ١٩٥٣ وتعيينه قائدا عاما للقوات المسـلحة المصرية فى الوقت الذى يرى فيه عامر أن « جمال عبد الناصر » هو الذى يجب أن يتولى منصب القائد العام خاصة وأن البكباشى جمال كان يقوم منـذ الأيام الاولى لنجاح الثورة بمهام مدير مكتب القـائد العام اللواء محمد نجيب — ولـكن فكر عبد الناصر كان قد بلغ ابعادا اكثر عمقا من التفكير فى منصب القـائد العام فقط !! .

● ولقد قال لى بعض كبار الضباط أصحاب الـكلمة الصادقة والسمعة النقية — أن عبد الحكيم عامر شعر بمناخ الـكراهية المقنعة من حوله تصدر من بعض زملائه أعضاء مجلس الثورة أو رفاق السلاح من ضباط المشاة ممن استمروا فى الخدمة العسكرية ، أو عدد ليس بقليل من الضباط الأحرار واصحاب الرتبة المماثلة ، رتبة الصاغ من الضباط الذين هربوا ليلة الثورة كما ذكرت من قبل ، وراى عبد الناصر أن يستعين بهم وقد اطمئن تماما لخضوعهم له ... شـعر عبد الحكيم عامر بهذا المناخ حوله فاتجه الى الاستعانة بمن يثق منهم بين زملائه ليوزع عليهم أخطر المراكز القيـادية العسكرية ، مطبقا مبدأ الولاء قبل الخبرة ، وفى هذه الفترة الدقيقة من عمر الثورة بدات أولى خطوات نشوء مراكز القوى ، كما ظهر بداية الصراع بين عبد الناصر وعامر ، عندما طلب

الأول اسناد بعض الوظائف الحساسة كمنصب مدير المخابرات الحربية ونوابه ، وبعض القيادات العسكرية في أسلحة الجيش الى اشخاص يعينهم ، بينما يرى عامر ان هناك من هو اكفأ ، وفى الحقيقة كان عامر فى ذلك منفذا « لتلقينات » أعوانه ممن اختارهم ليعملوا بجانبه ، وقد اقتنع تماما بأنه وحده صاحب حق اصدار مثل هذه القرارات ، يصدرها وينفذها لا أن تصدر اليه ، حتى ولو جاءت من البكباشى جمال عبد الناصر الرئيس الشرعى للهيئة التأسيسية للضباط الأحرار !! .

● ولقد حرص عبد الناصر بعد ذلك على محاصرة هذه الخلافات بينه وبين عامر ، وأخمدها سريعا دون أن يتحدث عنها مع رفاقه أعضاء مجلس قيادة الثورة ، ولكنه فى الوقت نفسه كان يفكر بدهائه فيما يمكن أن يبلغه عبد الحكيم عامر من استقلال بعيدا عن سيطرته ، فنشر حوله وحول أعوانه من القادة العسكريين شبكة من عناصر المخابرات تجمع عن عامر ورجاله كل سكناتهم وتحركاتهم ، وكل ما يتصل بحياتهم الشخصية .. ويقال أن عبد الناصر كان مغرما بالوقوف على أدق الأسرار الشخصية لكل من يعمل معه أو يتصل به ـ ثم يفاجىء هؤلاء بما بلغه عنهم من معلومات ... فعل هذا مع « عامر » حين أخفى عنه علاقته بمطربة غير مصرية ، وحين تزوج من الممثلة برلنتى عبد الحميد ـ ومع صحفى كبير من أصدقائه القلائل المقربين ، ارتبط بعلاقة حب مع احدى الملكات العربيات السابقات ، وجاء عبد الناصر وادار أمام هذا الصحفى تسجيلا لحديث تليفونى دار بين الصحفى وعشيقته ، وقد ظن العاشق أنه قام بكل ترتيبات تأمين علاقته وضمان سريتها ، واذا به مجردا من كل ملابسه أمام عبد الناصر ! .

● نعود الى عبد الحكيم عامر وقد شعر بالرقابة عليه ، فعمل من جانبه على اجتذاب عناصر المخابرات وقادتهم المنتشرين حوله وحول أعوانه - وليس سرا أن منافسة ضخمة قامت بين عبد النـــاصر وعبد الحكيم عامر ، على صلاح نصر ، كل منهما يبذل جهده لكى يبقى مدير المخـــابرات العـامة رجله دون الآخر ، وفى عام ١٩٦٦ - ١٩٦٧ - كان « عامر » يردد فى سهراته بين خلاصة أصدقائه ساخرا من عبد الناصر :

- « الريس فاكر انه أخذ منى صلاح نصر ... وأنا سايبه يفكر زى ما يعجبه !! » .

● ويرد « أفراد الشلة » على المشير عبد الحكيم عامر فى نفاق مدفوع الثمن وهم ينادونه « يا ريس » :

- « الى متى تترك هذا الرجل يا ريس ، انه لا يدرك أن وجـوده رئيســا للجمهورية حتى الآن مرتبط بك وبرضائك عنه ! » .

● ويقول آخر :

- « آن الأوان يا ريس لتأخذ مكانك الحقيقى .. كفاية كده عليه ! » .

● ويضحك عبد الحكيم عامر فى سعادة محـــاولا اخفاءها ، ويقول لرجاله وكأنه يؤنبهم :

- « اختشى يا واد منك له ، ايه اللى جرى لعقولكم !» .

● كان لعبد الحكيم مجموعة من الفيللات والشقق الفاخرة فى القاهرة والاسكندرية بحجة تأمين حياته ، وفى كل ليلة يقضى سهرته بين شلته ، يدور مثل هذا الحديث ، وذات يوم فوجىء عامر بعبد الناصر يدير أمامه عدة أشرطة لتسجيلات مختلفة دارت فى شقق

وفيللات المشير ، وأمسكت المفاجأة بعامر فظل صامتا مستمعا للأشرطة ، وفى النهاية أراد بخبث أن يخرج من المأزق فثار على عبد الناصر لأنه يقوم بمثل هـذه الأعمال الصبيانية بدلا من الاهتمام بمشـاكل الجماهير وشكواهم من حكومة زكريا محيى الدين !! .

واندفع واقفـا فى غضب مفتعل ... بينما خشى عبد الناصر أن يكون قد أغضب عامر حقيقـة ، فأخذ يعتذر له معاتبا مستعيدا ذكريات صداقتهما القديمة النـادرة ، مستنكرا أن يسمح « عبد الحكيم » لأحد محاسيبه بالخوض فى مثل هذه الموضوعات والحديث عن عبد الناصر بهذا المستوى !! .

●● هنـا يبرز سؤال هام ... من أين حصلت كصحفى على مثل هذه المعلومات ، أو هذا الحوار الذى دار فى بيت عبد الناصر ؟ .

ــ لقد روى لى هذه القصص المرحوم لواء عصام خليل وسنتحدث عنه طويلا عبر الفصول القادمة وكان المشير عامر يحترمه ، لأنه يحترم نفسه أمامه ... ويفتح قلبه ليحدثه بكل ما جرى بينه وبين عبد الناصر أو بقية أعضاء القيادة السياسية فى مصر ... ومن بين ما روى ذلك الحديث الذى ذكرته فى نهاية المقدمة الطويلة التى أعددتها لتكون مدخلا لهذا الكتاب .

● ولقد قال المشير عامر أكثر من ذلك ... قال ان عبد الناصر لم يعد بالنسبة له صديق الأمس ، وانه يشعر بكراهيته له ــ كراهية عبد الناصر ــ رغم حرصه على أن يبدى أمامه حبا وتعاطفا ، ولكنه حب العاجز الذى ينتظر الفرصة لينقض بلا رحمة ، وان عبد الناصر يعتزم أمرا ، ولأنه يعرفه أكثر من اى انسان آخر فلا

يستبعد أن يفكر فى التخلص منه ... التخلص من عبد الحكيم عامر ! .

● وقال المشير عبد الحكيم عامر أيضا : انه لو فكر في عزل عبد الناصر ، فانه سيجد ألف مبرر يقدمها للشعب المصرى تبريرا لعزله ، وانه متأكد تماما من تأييد الشعب له اذا أقدم على مثل هذا العمل ... ولكنه لا يجد ما يقوله لقادة العالم فى موسكو وشرق أوروبا ـ والشعوب العربية بصفة خاصة ... وانه من المحتمل أن تقوم موسكو بتوجيه ضربتها لكى يظهر فى مصر حزب شيوعى يتلقى أوامره من الاتحاد السوفييتى ، ولديهم فى القاهرة ، لدى موسكو عدد لا بأس به من القادة السياسيين والعسكريين والصحفيين يعملون لحسابها ! ولن يتركوا فرصة غياب عبد الناصر دون استغلالها ! .

● وبين ما قاله المشير عبد الحكيم عامر رحمه الله .. ان عبد الناصر أصبح يظن أنه قادر على اللعب مع المعسكرين الغربى والشرقى ، لأن روح مقامر الشطرنج تسيطر على كثير من تصرفاته وقراراته ، ولذلك قرر التعاون مع اوروبا الغربية لاقامة الصناعات الحربية الاستراتيجية المصرية فى مصر ، من خلف ظهر السوفييت ، ولكنه ، أى عامر ، لا يتوقع أن تتركه موسكو يمضى الى نهاية الشوط ! .

● وكأن « عبد الحكيم » يقرأ من كتاب مفتوح ... !

●● وتمضى الأيام ويصعد عامر الى خالقه عبر مأساة درامية قاتمة السواد ... ولقد قيل أن احدا لم يكن يجرؤ على طرح اقتراح بقتل عبد الحكيم عامر امام الرئيس الراحل جمال عبد الناصر ، ولكن أكثر من واحد

كان على ثقة بأن عبد الناصر سيشعر بالراحة حتما حين ينتهى هـذا الصراع الذى بلغ الذروة للمرة الألف فى يوليو ١٩٦٧ ، بنهاية عبد الحكيم عامر ، فتقدم واحد ممن يجيدون اختيار توقيت المبادرة الشيطانية ، واحد أو أكثر ، وأنهى حياة الرجل « الأول مكرر » فى مصر ، ليبقى رجل واحد فقط يحمل لقب « الرجل الأول ! » .

● وقبل أن أنهى هذه الجزئية عن وفاة عبد الحكيم عامر ، أجدنى أتذكر تساؤلا أطلقه أحد رجال القضاء أمامى منذ عامين قائلا :

ـ « أين الجندى أو المراسلة الذى كان يتولى الخدمة فى استراحة المخابرات ، تلك التى شهدت الساعات الأخيرة للمشير عبد الحكيم عامر ؟! » .

انه معروف لكثير من رجال القضاء الجالس او الواقف والعسكريين أيضا ، أن جميع هذه الاستراحات الرسمية ، يعمل بها أكثر من جندى للخدمة وأعمال النظافة ، وهؤلاء الجنود يختارون بعناية شديدة جدا ولهم مواصفات وشروط خاصة .

● لقد قيل أن عبد الحكيم عامر تناول علبة عصير جوافة ، محفوظة ثم أسلم الروح ، وكان بالاستراحة طبيبان عسكريان أدليا بأقوالهما ، وهما آخر من شاهد المشير عامر حيا ... لكننا لم نسمع او نقرأ اقوال هذا الجندى أو المراسلة ، وكأن الأرض انشقت وابتلعته ! .

● ترى من هو هذا المراسلة ؟ .

● هل كان حقا أحد الجنود ؟ واذا كان كذلك فلماذا لم يظهر فى الصورة ؟ أم رجلا له اهميته كلف بانهاء حياة عامر ؟! .

●● لقد توقفت طويلا كما توقف كثيرون غيرى عند نهاية المشير عبد الحكيم عامر - خاصة حين ترددت شائعات كثيرة مختلفة بعد عام من موته ، ففى بداية أغسطس عام ١٩٦٨ ، بلغنى كصحفى يعمل مع القوات المسلحة المصرية نبأ القبض على عدد ليس بقليل من ضباط الجيش المصرى الذين أحيلوا للمعاش قبل هزيمة يونيو ١٩٦٧ ، لأنهم كانوا يتحدثون أحيانا سرا ، وأحيانا بلا حذر حول استفحال السيطرة الروسية على مقدرات البلاد سياسيا وعسكريا ، وبعضهم يرى فى حرب اليمن جريمة تاريخية ، قبضوا على هؤلاء الضباط ومعهم مجموعة من المدنيين بتهمة التآمر والاستعداد للقيام بانقلاب عسكرى ضد الرئيس الراحل جمال عبد الناصر ، ولم يكن مسموحا على الاطلاق اذاعة أو نشر هذه المعلومات حتى تصدر تعليمات صريحة بذلك ، وبعد ايام قليلة علمت أن زعيم المؤامرة هو محمود عبد اللطيف المحامى ، واحد من كبار المحامين فى مصر ، وكان معروفا فى بداية الثورة ما بعد يوليو عام ١٩٥٢ ، انه على صلة وطيدة بالرئيس الراحل جمال عبد الناصر ، وقد تولى رئاسة اللجنة التشريعية بمجلس الأمة عام ١٩٥٧ ، الذى دخله نائبا منتخبا عن دائرة ابنوب بأسيوط ، وتذكرت أول مرة التقى فيها بهذا الرجل ، فى محكمة الثورة مع بداية عام ١٩٦٨ - التى تشكلت عقب موت عبد الحكيم عامر والقبض على عدد كبير من ضباطه يتقدمهم شمس بدران وزير الحربية حتى الهزيمة ، ومن بينهم عباس رضوان وزير الداخلية السابق ، والرجل الذى كان يتمتع بثقة وحب كل من عبد الناصر وعامر - وكانت المحكمة مشكلة برئاسه

السيد حسين الشافعى وعضوية كل من الفريق محمد على عبد الكريم من الضباط القدامى الذين عهد اليهم عبد الناصر برئاسة ادارة المخابرات الحربية بعد أن انفصلت واستقلت على اثر انشاء ادارة المخابرات العامة فى ١٩٥٦ ـ ١٩٥٧ ـ واللواء سليمان مظهر مدير ادارة سلاح المشاة وقتها كعضو يسار ، وجاء محمود عبد اللطيف المحامى ليترافع عن عباس رضوان ، وسمعنا يومها همسات من زملائه المحامين كانت تقول « ان محمود عبد اللطيف تلقى تحذيرا من عبد الناصر اذا وافق على الدفاع عن عباس رضوان ، ثم تلقى تهديدا ، وانه ضرب بكل هذا عرض الحائط ! » .

● ولم يكن بوسعى أو بوسع أى صحفى آخر غير الصمت دون تعليق على ما يسمعه من همسات أو اشاعات والا ذهب خلف الشمس كما كان يقال أيامها .. ثم سمعت بعد ذلك أن « محمود عبد اللطيف المحامى » هو الذى ساهم بقدر كبير فى الحاق جمال عبد الناصر بالكلية الحربية عام ١٩٣٦ ، وتذكرت هذه الحكاية وكنت قد سمعتها عام ١٩٥٤ ، خلال الصراع الذى دار بين اللواء محمد نجيب والرئيس الراحل جمال عبد الناصر ، وما أكثر القصص والاشاعات التى تناثرت هنا وهناك خلال السنوات الأولى للثورة ، حول السير الشخصية لقادة الثورة ، والبارزين من أعوانهم الضباط ... الحكام الجدد ! .

● استعدت هذه المعلومات وأنا أشهد الجلسة الأولى أو « الجلسة العلنية » الوحيدة فى محاكمة محمود عبد اللطيف المحامى وزملائه الضباط والمدنيين بتهمة التآمر والاستعداد القيام بانقلاب عسكرى ، بجلسة

يوم ٢٥-١٢-١٩٦٨ ، أمام محكمة أمن دولة عليا ، برئاسة المستشار محمد فؤاد الرشيدى ، وعضوية اثنين من العسكريين أحدهما العقيد أحمد عبد الروءف وكان يشغل منصب مدير القضاء العسكرى بمدينة الاسكندرية، وقد أحيل للتقاعد بعد هذه القضية !

●● أتوقف لحظة لأرد على سؤال بالضرورة سيخطر على بال من يقرأ هذا الكتاب ... سيسأل ما صلة هذه القضية بموت المشير عبد الحكيم عامر ، قتلا أو انتحارا ؟! .

– لقد كان بين المتهمين المدنيين – الدكتور محمد صفوت سليمان – أحد أساتذة الطب الشرعى – وقد قبضوا عليه ، وكانت التهمة الموجهة اليه هى استغلال علمه الكيميائى فى صناعة قنبلة تلقى على موكب الرئيس الراحل جمال عبد الناصر – فتصيب الجميع بمخدر قوى وفى هذه اللحظات يتم الهجوم بالرشاشات على الرئيس ومعاونيه ! .

●● وجاء « الدفاع » وشرح فى جلسة سرية خلفية هذا الاتهام فقال أن « الدكتور محمد صفوت سليمان » كطبيب بمصلحة الطب الشرعى كان موكولا اليه مع عدد من الأطبـــاء فحص جثمان المشير عبد الحكيم عامر ، واصـدار وثيقة طبية رسـمية تؤكد انتحاره ، لـكن « المتهم » رفض أن يشترك فى التوقيع على هذه الوثيقة وقال انها جريمة ثانية فالرجل لم ينتحر !!! .

● وبلغت القصة مسامع المسئولين عن الأمن ، وبالضرورة نقلوها للرئيس الراحل ...

● وكان طبيعيا بعد ذلك أن ينتهز السيد شعراوى جمعة وزير الداخليـة فى تلك الأيام ، والسيد سامى

شرف المسئول غير الرسمى عن المخابرات العامة ومكتب الرئيس الراحل ــ وأنا أنقل هنا عن الأستاذ محمود عبد اللطيف المحامى الذى قبل بعد طول الحاح منى أن يتكلم ــ وجاء لقائى به فى بيته بالهرم مع بداية عام ١٩٧٩ ــ « كان طبيعيا أن يبحث « شعراوى وسامى » وأعوانهما عن فرصة للتخلص من الرجل الذى أصبح يعرف سرا خطيرا ، وعندما قرروا القبض علينا ــ عملوا على ضمه الينا بهذه التهمة الخيالية ــ صناعة قنبلة بها مادة مخدرة تلقى على موكب جمال عبد الناصر ! » .

● وقبل أن أستطرد وأروى ما قاله لى « محمود عبد اللطيف المحامى » وكان من قبل أحد رجال القضاء البارزين حتى عام ١٩٥٧ ، ثم ترك القضاء وهو يشغل منصب مستشار ، ليشترك فى انتخابات عام ١٩٥٧ ، ويدخل مجلس الأمة ممثلا لدائرة أبنوب، قبل أن استطرد فى سرد ما سمعته منه ، لأضمنه نهاية الفصل الاول من هذا الكتاب لما تضمه أسرار قضيته من خلفية سياسية وعسكرية تعكس المناخ الذى ساد قيادة البلاد فى الستينات ، وقد ظهرت بدايته .. بداية المناخ الفاسد بالضرورة فى الخمسينات ، وانتهى بهزيمة يونيو ١٩٦٧ ، ليعود ويسيطر على مقدرات البلاد بعد الهزيمة ، ويستمر بعض من ساهم فى صنع النكبة او النكسة ، فى موقعه ليس حتى رحيل عبد الناصر فى سبتمبر ١٩٧٠ ، بل بعد ذلك الى قيام ثورة مايو ١٩٧١ ، وليس سرا مايردده كثيرون من بقاء كثير من عناصر الفساد فى مواقعه حتى اليوم وقد رفع شعارات ثوره التصحيح ، يهمنى أن اقول ان القضاء المصرى مارس شرعيته فى هذه القضية واصدرت « الدائرة » احكاما

أثارت ضجة كبرى فى الأوساط القضائية والعسكرية ، سرعان ما حوصرت وخمدت ..

كانت الأحكام تقضى ببراءة جميع المتهمين وسجن شاهد الاثبات الوحيد خمس سنوات !! .

● ولم تنشر الصحف غير الأحكام فقط بلا تعليق ، كما أنها لم تنشر بالطبع صدور قرار باعتقال جميع المتهمين الذين برأتهم المحكمة ، ومصادرة أموالهم ، وفرض الحراسة على ممتلكاتهم ، وتشريد أسرهم ، وكان لمحمود عبد اللطيف شقيق يكبره يشغل منصب محافظ مدينة الاسكندرية فأحيل الى التقاعد ... وظل المتهمون نزلاء بالسجون ، حتى أصدر الرئيس السادات قراره بالافراج عنهم بعد مايو ١٩٧١ مباشرة ، ثم رفع الحراسة بعد حرب أكتوبر ١٩٧٣ .

● ومنذ عاد محمود عبد اللطيف الى بيته وهو يرفض الكلام عن الماضى ، حتى وافق فى نهاية عام ١٩٧٨ ، على سرد القصة والاجابة على أسئلتى ...

● ان مبعث اهتمامى بهذه القضية التى أضمنها هذا الكتاب لا يعود الى أنها تمثل نموذجا يجب دراسته « للمناخ » الذى ساد البلاد قبل هزيمة يونيو ١٩٦٧ ، واستمر لما بعد الهزيمة ، فقط هناك عشرات القضايا مثلها ، ولكن قضية محمود عبد اللطيف وزملائه بالتحديد تمثل عدة اعتبارات هامة :

أولها ــ أنها تتصل بالرئيس الراحل جمال عبد الناصر ، وبمقتل المرحوم مشير عبد الحكيم عامر ، والعلاقة بين الرجلين هى موضوع هذا الكتاب ...

ثانيا ــ الأحكام التى أصدرتها دائرة المستشار محمد فؤاد الرشيدى فى قضية تآمر محمود عبد اللطيف

المحامى وزملائه تستحق أكثر من وقفة، وهى براءة جميع المتهمين وسجن شاهد الاثبات الوحيد ، وكان يشغل منصب المدير الادارى لاحدى شركات القطاع العام .

ثالثا ـ ان الغوص فى حيـاة محمود عبد اللطيف المحامى خلال الثلاثينات حيث بدأت صـلته الوثيقـة ، بالرئيس الراحل جمال عبد الناصر ، لتنتقل بعد ذلك الى الخمسينات والستينات ، منـذ قيام الثورة عام ١٩٥٢ ، حتى القبض على الرجل « محمود عبد اللطيف » فى نهاية يوليو ١٩٦٨ ، الغوص فى أسرار تلك المرحلة من الأعوام يقترب بنا من النسيج البشرى لجمـــال عبد الناصر ـ النسيج الذى لم نره ولم يسمح للشعب برؤيته ... كما قلت فى الصفحات الأولى من الفصل الأول ...

« ان الاقتراب من شخصية جمال عبد الناصر التى لم تكتب بعد حتى الآن ليس تطـاولا وليس خطأ ، بل هو مطلب سيظل يلح فى الظهور من أجل الحقيقة التى لن يبقى غيرها للأجيال القادمة » .

● وفى الصفحات القليلة القادمة ، الخص ما سمعته من الرجل تلخيصا شديدا ، حتى ننتقل عبر الفصول الأخرى ، الى موضوع الكتاب .

● وليسمح لى الأستاذ محمود عبد اللطيف المحامى ان أعرض « الملخص » فى شكل سؤال وجواب ، هربا من الملل ، الى المعلومات الموضوعية فقط ، وكما دار الحوار بيننا ، بعيدا عن الاسترسال والتحليل السياسى الذى يلجـأ اليه محترفو الانتفـاع بالثورات ، والذين ظهروا على المسرح مع حركات التطهير التى أجريت للثورة مرارا ..

● سؤال : هل عرفت الرئيس الراحل جمال عبد الناصر فى طفولته ؟ .

● متى ؟ وكيف ؟ واين ؟ وما هو فارق العمر بينكما ؟

ـ نعم عرفته ، أنا من مواليد عام ١٩١٠ وهو من مواليد يناير ١٩١٨ ، رأيته أول مرة عام ١٩٢٧ ، كنت طالبا بمدرسة الحقوق بالقاهرة ، وأسكن مع أبناء عمى بشقة بمنطقة النحاسين بجوار مسجد قلاوون ـ فى حى الصاغة بالجمالية ـ عمى هذا توسط للمرحوم « خليل حسين » عم جمال عبد الناصر لدى المرحوم محمد على علوبة باشا وزير الأوقاف أيامها ونائب دائرة أبنوب حيث مسقط رأس أسرتنا ، وحيث تقع بالقرب منا قرية بنى مر ، بلدة عبد الناصر ، توسط له وحصل على وظيفة لخليل حسين بوزارة الأوقاف فى القاهرة ، ولم يكن الرجل غير ساقط ابتدائية ، فكان طبيعيا أن يأتى ويعيش معنا فى مسكن الجمالية ، وقبلناه واحدا منا واعتذرنا عن أن يسهم فى أجر الشقة ، ثم ما لبث أن هبط علينا التلميذ جمال عبد الناصر قادما من الخطاطبة لينضم الى عمه بعد أن أنهى المرحلة الأولية وليلتحق بمدرسة النحاسين الابتدائية وعاش معنا هو الآخر ، وكانت البداية ...

رأيته صبيا مهذبا منطويا ذكيا محبا للكتب ، فكنت أصحبه الى مسجد الأزهر ، والحدائق ، ويستذكر معى دروسه فى صحن الأزهر ، وظللت أعطف عليه واهتم به لاعتداده بنفسه ورفضه اللجوء الى الشكوى الكثيرة كما يفعل الصبيان فى عمره ، ثم تخرجت وعينت وكيلا للنيابة فى جرجا عام ١٩٣٢ ، وجمال مع عمه فى مسكن مستقل بالخرنفش .

● ما هى حكاية تدخلك ليلتحق بالمدرسة الحربية ؟
ــ عام ١٩٣٦ ، نقلت وكيلاً لنيابة البدارى ، وكان جمال عبد الناصر على صلة بى من حلال الخطابات ، فجاءنى يطلب معاونتى لكى يلتحق بالمدرسة الحربية ــ قدمته « للرحوم حسن عبد التواب » عضو مجلس الشيوخ عن أبنوب ، وهو لواء سابق بالجيش فاتصل « بالمرحوم ابراهيم باشا خيرى » مدير المدرسة الحربية ولكن الوساطة لم تفلح لكراهية مختفية بين الرجلين لم نعرف بها الا بعد سنوات ، فعدت وقدمته « للمرحوم عبد المجيد ابراهيم باشا » ابن أبنوب أيضــا ووزير الأشغال والمواصلات أيامها ، فقام الرجل وذهب الى المدرسة الحربية مصطحبا جمال عبد الناصر ووالده عبد الناصر حسين حيث ركبا بجانب السائق ، والتحق جمال بالمدرسة الحربية هذه المرة .

بعد الثورة التقى عبد المجيد باشا ابراهيم بالبكباشى جمال عبد الناصر رئيس مجلس قيادة الثورة فقال له جمال : « لا أنسى يوم جعلتنا نركب بجانب السائق » .

ــ لقد روى لى الرجل هذه القصة ، وتحمل الكثير من أشكال التنكيل به حتى مات فى نهاية الخمسينات بحسرته .

● هل رأيت « عبد الناصر » قبل القيام بالثورة ؟ .
ــ مرات قليلة للزيارة ، أثناء خدمته فى منقباد ثم السودان والصحراء الغربية ــ وبعد عودته من الجولة الأولى فى فلسطين عام ١٩٤٩ ، كان يغالى فى الاعتداد بنفسه .

● سمعت ان علاقة صداقة كانت تربطك باللواء محمد نجيب قبل الثورة .. هل استمرت العلاقة بعد الثورة ؟

وهل كانت كمـــــا قال البعض سببا فى تباعد جمال عبد الناصر عنك ؟ .

ــ نعم كانت لى علاقة باللواء محمد نجيب قائد الثورة، قدمنى له صديقى المرحوم محمد خالد صاحب جريدة الدستور ، وهو صحفى قديم وزميل دراسة بالحقوق ، وصديق للواء محمد نجيب قبل ١٩٥٢ ، وصباح اول ايام الثورة ذهبنا الى مقر القيادة ، أنا ومحمد وخالد ، ورأينا جمال عبد الناصر يقاطع اللواء محمد نجيب كلما تكلم بأسلوب خشن فنهره المرحوم محمد خالد ، ولم اتدخل ولكنى رأيت جمال عبد الناصر صباح ٢٣ يوليو ١٩٥٢ ، انسانا مختلفا ، أحسست به وكأنه يعتزم تدمير وقتل الجميع ، ثم طردت هذا الخاطر عنى .

● اسمح لى بسؤال : لقد قيل انك عارضت قانون الاصلاح الزراعى الذى صدر بعد خمسة أسابيع من الثورة لأنك كنت من الملاك الـكبار .. ما حقيقة الأمر ؟ .

ــ أبى كان مزارعا مالـكا للأرض ، عند قيام الثورة كنا ــ أقصد ــ أسرتنا تملك ألف فدان أكثرها أرض بور ــ غير صالحة ، ولذلك كانت أسرتنا تستأجر حوالى ثلاثة آلاف فدان لزراعتها ــ وعندما قامت الثورة أيدتها بـكل ما أملك ، كثورى اشترك فى ثورة ٣٥ و ٣٦ ، وكنت أقول قبل ١٩٥٢ ، لا يجب أن نقبل حكم ــ ابن « نازلى » لمصر ــ وقد تدهش اذا قلت لك اننى اشتركت فى وضع القانون رقم ١٧٨ لعام ١٩٥٢ ، قانون الاصلاح الزراعى ، وقلت لمن كان يعـــارضه انه قـــانون مطابق للقواعد الدستورية ولحكم الشريعة الاســلامية لانه لم يغتصب الأرض بل أعطى للمالك فرصة التصرف فيما يملكه من زيادة على الملكية بحدها الأقصى ، وطلبت من

اخى الأكبر « محمد » ورب أسرتنا ان يرسل برقية باسم الأسرة — الى المهندس سيد مرعى المشرف على تنفيذ القانون : تقول فيها « اننا نقوم بتسليم الأرض للفلاحين دون أن نسترد نفقات زراعتها ، واننا تنازلنا عن الأرض التى كنا نستأجرها ومساحتها حوالى « ٣ » آلاف فدان .. » .

وتعاونت مع عبد الناصر وزملائه لكى يصبح هذا القانون حقيقة واقعة ... حتى ان الصاغ امين شاكر وزير السياحة بعد ذلك ، وكان ايامها أحد معاونى عبد الناصر قال لى « ان زملائنا الضباط غير مؤيدين لتعاونك مع البكباشى جمال عبد الناصر لأنك اقطاعى ، ولقد عاتبوه فى ذلك ! » .

وكان جمال عبد الناصر يدعونى لمرافقته وهو يزور مناطق توزيع الأرض على الفلاحين — ويحاول أن يجعلنى اتقدم الوزراء والضباط أثناء جولاتنا ... وفى هذه الأثناء علمت ببعض تصرفات معيبة لكثير من الضباط ، ناقشتها مع عبد الناصر أمام زملائه فحنقوا على ، حتى جاءنى أمين شاكر ليقول لى « ما معناه ابتعد .. انت اقطاعى ! » .

● اذن .. ما الذى جعل العلاقة بينكما تسوء ؟ .

— صراحتى ، ولقد استمرت صراحتى سلاحا ارد به على كل الأخطاء التى تقع والتى اعرف بها مصادفة ، واذا به يقول لى .. « تناسى ما تسمعه ، وعليك يا محمود ان تهادن ضباط الثورة » ... ثم اختلفت معه حين تكل بالاخوان المسلمين عام ١٩٥٤ ، ورايته يحاول الابتعاد عن الصدق ، واختلفت معه على توقيت الوحدة مع سوريا ، واختلفت معه لانه رفض مناقشة ما كتبته بعض

الصحف السويسرية عن السد العالى وقولها ان هذا المشروع سيفسد خصوبة ستة ملايين فدان من الأرض المصرية مقابل ان يكسب مصر ٢ مليون فدان فقط ، وان السد العالى سيذهب بالطمى رسول الخصوبة على مر الزمان ، واختلفت معه لما تتحمله مصر من ديون تتزايد باستمرار ، ولما يرتكبه بعض رجاله من سرقات كبرى لأموال الشعب ، رأيته يسكت عنها ، ولعدائه غير العملى لأمريكا ، وارتمائه فى أحضان موسكو ، وتصديقه للتقارير الكاذبة ، وابعاد الشرفاء أصحاب الخبرات الذين لا يعرفون التكبير والتهليل والنفاق ، وسيادة وسيطرة اللصوص والبرامكة ! .

● ذات يوم قال لى : هل صحيح انك تقول عنى بين اصدقائك اننى مثل اسماعيل باشا ؟ .

● ورددت عليه : هذه أول مرة أسمع بهذا الكلام ، وانك تعرفنى صادقا دائما ، لكن اسمح لى ، فهناك من يصفك فعلا بأنك اغرقت مصر فى الديون ، والقيت بها فى أحضان الشيوعية — ويهمنى أن أقول لك ان هذا الكلام الذى بلغك « نذير » لنا جميعا .

وغضب من صراحتى ، وعاتبنى مرة على خشونتى فقلت له : « من مصلحتك أن يكون لك أخ مثلى يقول لك الحق بغير حياء ولا وجل ، وليس من صالحك ان يخافك كل الناس ، واننى أرجوك أن تتحدث معى بلسانك لا بسيفك » .

● كيف رد عليك ؟ .

— لم يجب ... نظر حولى فى برود واستياء ، وبعدها اعتذر مرة عن مقابلتى ، وكانت القطيعة ، ولكنى لم أتوقف عن الحديث برأيى بين أصدقائى ومعارفى وكل

من يلتقى بى ، وبيتى هنا فى الهرم كان وسيظل كما ترى أشبه « بالدوار » فى الريف .

● ما هو الباعث على القبض عليك وعلى زملائك فى القضية ... وما علاقتك بشاهد الاثبات الوحيد الذى صدر الحكم بسجنه ، وكيف تعرفت « بالدكتور محمد صفوت سليمان » الذى قيل انه رفض المشاركة فى اصدار تقرير يؤكد على انتحار المشير عبد الحكيم عامر ؟ .

ــ قبل هزيمة يونيو عام ١٩٦٧ ، ابعد عبد الناصر وعبد الحكيم عامر وأعوانهما أعدادا كبيرة من خيرة الضباط فى الجيش المصرى ، ليس فى الجيش فقط ، بل فى جميع قطاعات البلاد ، لأنهم كانوا يتحدثون فى جلساتهم عن فساد الحكم وخطأ تورطنا فى حرب اليمن ، احد هؤلاء الضباط كان صديقا لى ، وقد قدم ذات يوم ومعه عدد من زملائه الضباط الصغار المبعدين أو الذين اعتقلوا فترة من الوقت ثم أحالوهم للتقاعد ، وكثيرا ما سهرنا الليالى فى بيتى بالهرم نؤدى صلاة العشاء ثم نتحدث فى حال ــ مصرنا ــ وكان ياسر عرفات صديقا لابن عمى محمود عبد الرحيم ، ويتردد هو الآخر على بيتى الذى أصبح بالضرورة تحت الرقابة ، ولابد أن أجهزة الأمن استطاعت الوصول الى نوعية أحاديثنا .. حدث كل هذا قبل يونيو ١٩٦٧ ــ ثم وقعت النكبة ، وارتفع ايقاع حديثنا ــ ومات عبد الحكيم عامر ــ وقبض على شمس بدران وصلاح نصر وعباس رضوان وعدد كبير من الضباط بتهمة الاستعداد لانقلاب عسكرى لحساب عامر ، وقمت بالدفاع عن عباس رضوان وصلاح نصر حين جرت المحاكمة امام محكمة برئاسة حسين

الشافعي ، أطلقوا عليها محكمة الثورة ، وغضب جمال عبد الناصر لما علم بأننى قبلت الدفاع عنهما .

● سؤال اعتراضي : كيف علمت بغضب عبد الناصر ، وهناك قطيعة بينكما ؟ ولماذا قبلت تولى الدفاع فى قضايا سياسية ، وكان معروفا عنك انك تعتذر بشكل قاطع عن قبول مثل هذه القضايا ؟ .

ـ كنت أرفض هذه النوعية من القضايا السياسية أو الاستثنائية أمام محاكم الفريق أول الدجوى ، أو أى محاكم عسكرية أخرى لأننى كنت أعرف تماما انه لا حصانات للمتهم أو محاميه أمام مثل هذه المحاكم ، وأن أحكامها جاهزة من قبل ، والدفاع أمامها ليس بمرافعة بل مهاترة ، ولذلك كنت أوفر كرامتى واعتذر عن قبول قضايا هذه الفترة من حكم الثورة ... لكن بالنسبة لعباس رضوان وصلاح نصر فيهمنى أن أوضح لك خلفية ما حدث ...

بالنسبة لعباس رضوان فقد قدمه لى اول مرة الرئيس الراحل نفسه وأشاد به ـ وكان المرحوم عمر زعفان خال عباس رضوان ، زميلا لى بالمحاماه وصديقا قديما ، وقد جاءت أسرته ، أسرة عباس برفقة صديقى الدكتور رياض فوزى أستاذ المسالك البولية وهو صديق العمر ، للضغط على وقبول القضية ـ فشرحت لهم تطور صلتى بعبد الناصر المنقطعة ، وكيف أن دفاعى قد يضره ، وأن عبد الناصر فى هذه الحالة لا محالة ، سيدينه حتى لو صدر الحكم ببراءته ، فطلبوا منى زيارة عباس رضوان بالسجن ، وهناك قال لى :

ـ « انا لا أبالى بالحكم ، ولكنى أريدك لتقف بجانبى

وتفسر حقيقة موقفي بشجاعة وأمانة ، وأن محاميا كبيرا آخر اعتذر خائفا من البطش به » .

ولم جد مفرا من تأدية واجبي كمحام — والتقيت فى السجن « بصلاح نصر » الذى اخذ يشكو لى غدر عبد الناصر به ، وانه سيذيع أسرارا خطيرة عند محاكمته حول المسروقات التى سرقت من خزينة سفارة احدى الدول العربية بالقاهرة ، وحول شركة السيارات والأتوبيسات التى كونها عبد الناصر وعامر ، وأدارها لهما ، فوافقت على الاشتراك فى الدفاع عن صلاح نصر أيضا — وكنت قد « ألقيت بالقفاز » كما يقولون بالنسبة لعبد الناصر ! .

— اما كيف علمت بغضب عبد الناصر لأننى قبلت الدفاع عن عباس رضوان ، فقد فوجئت بزيارة حرم المرحوم عمه « خليل حسين » وهى تحمل رسالة شفوية منه مؤداها انني سأخسره نهائيا اذا قمت بدورى كمحام فى هذه القضية ، ثم فوجئت ايضا بالنائب سيد جلال يبلغنى بالرسالة نفسها — مما زادنى تمسكا بالدفاع عن الرجل .

● نعود الى قضيتك ، والى علاقة المتهمين بك وشاهد الاثبات الوحيد ... ماذا حدث بعد ذلك ؟ .

— ظل بيتى يستقبل أصدقائى واصدقاء أصدقائى ، واستمر حديثنا المعتاد بلا خوف او وجل ، ورويت لهم بعض ما بلغنى اثناء الدفاع عن عباس رضوان او صلاح نصر ، حول عامر وناصر ، قلت ان رجال عبد الحكيم عامر نصحوه يوم ٨ يونيو ١٩٦٧ بأن يعزل عبد الناصر فورا ، وأن هذا الاجراء هو احسن الحلول العملية لستر الهزيمة ، وأن عامر رفض هذا الاقتراح ،

وقلت أيضا ان عبد الناصر وعامر تبادلا الشتائم الرخيصة يوم ٧ يونيو ، وأن عامر كان أقوى أصـــدقاء وزملاء عبد الناصر وأقدرهم على معاداته وتحطيمه ولـكنه لم يفعل لأنه حسن النية ، وأن أهل محـافظة المنيا جاءوا القاهرة لا من أجل المظـاهرات بل لأنهم عرفوا بمحنة عبد الحكيم فعملوا على أن يلتفوا حوله ، وأن عبد الحكيم كان يفكر فى الضغط على عبد الناصر لا خلعه .. وكلام كثير طرحناه للمناقشة فى سهراتنا ... وأصدقك القول فقد كنت أشـعر بأنني مراقب ، وكل ما نقـوله ينقل للرئيس الراحل عبر أجهـزة التسجيل ولم يداخلنى الخوف أو التردد .. الى أن قلت : عبد الحكيم عامر مات مقتولا بواسطة عبد الناصر ، وليس ذلك بنزوة ، كما يرى أحدنا ، بل ميلا كاملا للشر ... واستشهدت بحادث اطلاق جمال عبد الناصر ـ الرصاص ـ على اللواء حسين سرى عامر ـ عام ١٩٥١ ـ وهو يعرف أن قتل هذا الرجل لا يفيد مصر ! .

ـ أعتقد انهم هنا فكروا فى التخلص منى ـ فقد كان يزورنى ويقضى معنـــا أمسياته رجل يحمـل اسم « عبد التواب ... » ، حصـــل على منصب كبـير باحدى شركات القطاع العام ، جاءنى أول مرة مع صديقه وصديقى اللواء صلاح الموجى وصديق ثالث هو الرائد طارق مسعود ، ورأيت « عبد التواب » هذا يتحمس كل ليلة ويقترح عشرات الحلول « العملية » على حد قوله، للتخلص من عبد الناصر ، ويحـدد لـكل منا دورا ، ونستمع اليه ثم نقول له : « نحن الآن فى مرحلة من العمر لا تسمح لنا بتحقيق خيالاتك ، دع عنك هـذه الأفكار الصبيانية » .

وضع « خطا أو خطين » تحت حكاية الاقتراحات التى كان يطرحها علينا للتخلص من عبد النـــاصر معلنا انه سيقوم بهـا وحـده اذا رفضنا مشاركته ـ لأن هـذه الاعترافات التى كررها أمام المحكمة هى التى جعلتهـا تصدر حكمها بسجنه خمس سنوات كمعترف بالتآمر ، وبراءة الباقى لعدم ثبوت الأدلة على الاطلاق .

لقد رأيت ضباطا فى قفص الاتهام معى لم أرهم من قبل ، قيـل انهم كانوا يتواجـدون فى بيتى للاعـداد للانقلاب ؛ وضباطا آخرين رأيتهم بالفعل فى بيتى ولكن أجهزتهم لم تقترب منهم ـ والبعض حقق معهم ثم أفرج عنهم ، مثل الصديق محمود الدينارى المحـامى بشارع الأزهر ، قبض عليه لاننا كنا كما زعموا سنستخدم مكتبه لاطلاق الرصاص على موكب عبد الناصر ، وهو فى طريقه الى الجـامع الأزهر ، لكنهم لم يقدموا « الدينارى » للمحاكمة ! .

● نصل الى « الدكتور محمد صفوت سليمان » الذى قيل انهم زجوا به فى هـذه القضية ، لأنه رفض التوقيع على تقرير وفاة عبد الحكيم عامر انتحارا ... كيف التقيت به ؟ .

ـ هذه هى المهزلة أو خرافة التآمر فى القضية ـ ذات ليلة جاءنا رجل الأجهزة ـ أو شاهد الاثبات الوحيد ـ عبد التواب هذا ، ثم افتعل ألما شديدا بأمعائه ـ واذا به يمسك بالتليفون ، ويطلب الدكتور محمد صفوت سليمان مستنجدا به أن ينقذه ، ويلح فى حضوره ، ويعطيه العنوان .. عنوان بيتى ، وقد سجلوا هذه المكالمة .. ! .

ويصل الرجل ويقول « لعبد التواب » بعد ان كشف

على أمعـــــائه : لا شيء ولا خطـورة ، انه توتر عصبى فقط .

ودعاه عبد التواب لتناول فنجان شاى معنا ، ورجوته كصـــاحب بيت أن يقبــل ، وجلس الرجــل بيننا فاذا بعبد التوب يقدمه لنا بقوله :

ـ « هذا هو الرجل الوطنى الصادق بحق ، لقــد رفض أن يوقـــع على تقــرير طبى يؤكــد على انتحــار عبد الحكيم عامر » .

واندهش الطبيب من حصول عبد التواب على هذه المعــلومات ، ولـــكنه لاذ بالصمت رفض أن يؤيدها أو يكذبها ... وفى النهاية انضم الينا فى قفص الاتهام !

●●

بعد حديث رجل القانون محمود عبد اللطيف المحامى أسوق بعض ما سجلته فى أوراقى من حديث مع الفريق طيار مدكور أبو العز ـ وقد جرى الحوار معه عام ١٩٧٥ ، وما يرويه الطيار القديم يضيف قليلا الى صورة الخلفية العســكرية والسياسية التى ســادت مناخ ما قبل ٦٧ وحتى ١٩٧١ .

ولقد كان لمدكور أبو العز شقيق أصغر هو المرحوم محيى الدين أبو العز من ضباط المشاة الذين اقتربوا من الرئيس الراحل جمال عبد الناصر منذ عام ١٩٤٨ ، وقد عمل فترة من الوقت مديرا لمكتبه ، ومات بأزمة قلبية .

ومنذ عام ٥٦ حتى ١٩٦٤ ، كان اللواء طيار مدكور أبو العز رئيسا لأركان قواتنا الجوية ، ثم صدر قرار بترقيته الى رتبة فريق ، ونقله محافظا لمدينة أسوان ! .

وثار « لغط » شديد في الدوائر العسكرية بعد صدور هذا القرار – ومن بين ما تردد وسمعته من قيادات عسكرية مصرية كثيرة كصحفى يعمل مع القوات المسلحة المصرية منذ يوم ٢٣ يوليو ١٩٥٢ – أن السوفييت طلبوا اخراجه من القوات الجوية حرصا على استمرار التعاون العسكرى بين موسكو والقاهرة ، ولم يعترض احد فى القيادة العليا !! .

● وقال لى الطيار القديم الفريق أبو العز :

– « هذه الفترة كان على القائد العسكرى الذى يريد البقاء فى منصبه أن يتفرغ تماما للمؤامرات اشتراكا أو دفاعا عن نفسه ، لكنى تفرغت لعملى رافضا أن أكون فريسة لضباط عبد الحكيم عامر ، أو شمس بدران ، أو دمية فى أيدى السوفييت – وفى عام ١٩٦٤ وأنا صديق لزميلى « عبد اللطيف بغدادى » عضو مجلس الثورة والرئاسة بعد ذلك ، كان عبد الناصر قد واجه أربعة انقلابات عسكرية ضده خرجت كلها من بين ضباط مكتب عبد الحكيم عامر ، فظن عبد الناصر أن « البغدادى » – الذى اختلف معه واستقال ربما يفكر فى القيام بانقلاب ضده وفى هذه الحالة لابد أن يلجأ الى صديقه مدكور أبو العز رئيس اركان الطيران ، فقرر الرئيس الراحل ابعادى الى أسوان ، كاجراء حماية لنفسه ... هذا هو تحليلى لما حدث ...

● ما هى ظروف عودته واسناد منصب قائد القوات الجوية اليك يوم ١١ يونيو ١٩٦٧ – وكنت أيامها محافظا لأسوان ما يقرب من ثلاث سنوات ؟ .

– قبل ٥ يونيو ١٩٦٧ كنت بالقاهرة ، ورأيت قواتنا وهى تحشد وتمر بالعاصمة الى سيناء فى وضح النهار ،

ففزعت وتوجهت الى « أمين هويدى » وكان مديرا لمكتب عبد الناصر وصلته وثيقة به ، منذ كان هويدى ضابطا صغيرا بالمشاة قبل ١٩٥٢ ، وذكرت أمامه توقعاتى وتنبأت بنتيجة سيئة ، واذا بهويدى يقول لى :

— « انت تضع نظارة سوداء فوق عينيك » .

وعندما صدر قرار اسناد القوات الجوية لى ، عاد امين هويدى وقال :

— « أن حديثك معى قبل الهزيمة ، وكنت قد نقلته حرفيا للرئيس ، هو الذى جعله يصدر القرار » .

ولقد وجدت للأسف الشديد ، أنه مطلوب منى أن أتعاون بعد النكسة مع بعض القادة الذين ساهموا فى صنع النكسة ! .

وبقيت فى منصبى فترة تقل عن خمسة شهور ثم التقيت فى ٣٠ أكتوبر ١٩٦٧ بالرئيس الراحل ، ومن قبل ارسلت اليه اربع استقالات رفضها وطالبنى بالاستمرار فى موقعى ، ولكنى كنت قد ضقت بسيطرة السوفييت على قواتنا المسلحة ، وسلوكهم معى ومع القادة المصريين الآخرين ، كما ضقت بخنوع قيادتنا العليا السياسية والعسكرية لموسكو — وقبل لقائى به ، بالرئيس الراحل قابلنى البطل الشهيد الفريق عبد المنعم رياض وكان رئيسا لأركان قواتنا ، بعد عودته من موسكو فحدثنى بما فهمه من خلال أحاديثه مع قادة الكرملين من العسكريين وهو أنهم طلبوا ابعادى عن القوات الجوية ! .

● وماذا قلت للرئيس الراحل فى لقائك به يوم ٣٠ اكتوبر ١٩٦٧ ؟ .

ــ قلت له : اننى أعلم بغضبك الشديد ممن يقدم على تقديم استقالته لك ، ولـكننى غير قـادر على أداء مهامى وحريص على اعلان ذلك أمامك ــ وهذه استقالتى الخامسة والأخيرة ... ثم مضيت الى بيتى .

● سؤال : ترددت اشاعة بين الجماهير تقول انك سافرت الى الاتحـاد السوفييتى للاشراف على تدريب جيل جديد من الطيارين المصريين ... ما حقيقة هـذه الاشـــاعة التى انتشرت بعد استقالتك من القـوات الجوية ؟ .

ــ هى اشاعة فعلا ، مصدرها الاتحاد الاشتراكى الذى كانت القيادة السياسية ممثلة فى الرئيس الراحل تعتمد عليه فى نشر اشاعات تخدم بقائه فى السلطة ، والهدف من الاشـاعة تهـدئة الجماهير التى اهتمت بى عنـدما سمعوا فى الاذاعات الخارجية ــ اسرائيل وهى تطالب برقبتى وتصفنى بمجرم حرب وسفاح ، لأننى خططت لعملية جـوية يوم ١٤ يوليو ٦٧ ، أعادت الثقة لطيارينا فى أنفسهم بعد أن لقنوا اسرائيل درسا لن تنساه ، وقامت لجان الاتحاد الاشتراكى بنشر أكاذيبها حتى لا يتساءل أحد كيف يترك مثل هذا الرجل قواتنا الجوية ؟! .

لقد سمعت هـذه الاشاعة من بعض افراد أسرتى ، وكنت وقتها محاطا بعيون الرقابة والمراقبة حولى وحول مكالماتى التليفونية فى بيتى وكل مكان أذهب اليه ! .

لقـــد هددت اذاعة اسرائيل بنسف قريتى « ميت ابو غالى » كفر سعد ــ بدمياط ، انتقاما من الهجوم الجوى الناجح الذى قام به طيارونا الأبطال ... ويكفينى هذا التهديد أتوج به حياتى العسكرية ..

وبعد ... هل استطعت فى هذا الفصل الاول من الـكتاب أن أضيف بمـا كتبته هنا عن قضية محمود عبد اللطيف المحامى ، وما نقلته عن طيار القاذفات القديم ابو العز بعض الملامح لصورة الصراع عنـد قمة السلطة وكيف كان لنجوم هـذا الصراع السيطرة المطـلقة على مقدراتنا ! .

● لقد انتهى بعض هذا المناخ برحيل الرئيس السابق جمال عبد النـاصر ، وتبقى الحقيقة تلح فى الظهـور من أجل التاريخ والأجيال القادمة .

ان البحث عن الحقيقة واعلانها ليس عملا سهلا ، بل هى مهمة دقيقة تتطلب اقتحام ميادين وقطـاعات عديدة متباعدة .. وفى الفصول القادمة من الـكتاب محاولة اجتهادية جادة داخل قطـاع لم يقترب منه من كتب واجتهد من قبل عن مصر الستينات ، أو هزيمة يونيو ١٩٦٧ ، وهذا القطاع الذى أعنيه هو قطاع المشروعات الحربية المصرية الاستراتيجية ـ التى جاء ذكـرها فى حديث عبد الحكيم عامر عن عبد الناصر ، واعتقاده بأنه يستطيع اللعب على المعسكرين الغربى والشرقى معا ، وفى وقت واحد ، عندما قرر التعاون مع الغرب لاقامة هذه القاعدة الصناعية الحربية الجديدة فى الوقت الذى كان لموسكو فيه كل السيطرة على مصر ! ولكن من يدرى كيف كان يفكر عبد الناصر تلك الأيام ؟ .

● لقد استغرقت مهمة البحث والتقصى التى قمت بها فى أنحاء هذا « القطاع » فترة زمنية طويلة ، رغم الغاء هذه المشروعات نفسـهـا بعد النـكسة بعامين ، ووضعت نصب عينى هدفا واحدا فقط ، هو الحقيقة ولا شيء غيرها دون تحيز أو لجوء الى التشهير بأحد ،

استنادا الى أن رجال ذلك العهد قـد ذهبوا أو ذهبت عنهم السـلطة ، لأن كل الرجال الى زوال ، وستبقى مصر ، كما ستبقى الحقيقة ، والـكلمة الشريفة ساطعة كالشمس ودوران الليل والنهار ..

● انها حلقة من حلقات نضـــالنا التاريخى الوطنى الموصول ... منـذ كانت الـــكلمة الصـــادقة الجليلة المقدسة .

الفصل الثانى :

"أفندينا" يعمل فى مخابرات ثورة يوليو .....!

★ اللحظـة التى اختـارها السوفييت للانقضـاض السلمى على القاهرة ..

★ مجموعة من « الصـــولات » أول من تعرضت للتعذيب الوحشى فى السجن الحربى .. !

★★

.. هل كان هناك تخطيط سرى لضرب البداية الموفقة فى التعاون مع الغرب عام ١٩٥٣ ، لتتجه مصر الثـورة الى الاتحاد السوفييتى ؟! ..

وكيف بدأ التفكير لدى الروس فى الانقضاض السلمى على ثورة يوليو ؟ ..

ارتفعت الاصوات بعـد نصر أكتوبر ١٩٧٣ ، **تطالب** بالمسئولين عن الهزيمة العسكرية فى يونيو ١٩٦٧ .

ومرت الأعوام ــ ١٣ سنة ــ ولم تعلن الحقائق بعد امام جماهير الشعب ... ورغم المسافة الزمنية الطويلة وما صدر من اجتهادات وطنية صحفية ورسمية لتحديد المسئولية التاريخية الا أن هناك زوايا لم يتطرق اليها البحث ، والأمل كبير فى تقرير اللجنة العسكرية المصرية التى تكونت برئاسة مقاتل المدفعية القديم لواء محمد حسن غنيم لتضع أمام الشعب المصرى الجانب العسكرى فى قصة ثورة يوليـــو ١٩٥٢ ، مرورا بجولة ١٩٤٨ ــ الأولى ــ فى فلسطين ، والعدوان الثلاثى عام ١٩٥٦ وما حدث من تحول بعد ذلك ، حتى نكسة يونيو ١٩٦٧ وانتهاء بحرب أكتوبر ١٩٧٣ .

● ان ازاحة الستائر أمام ذلك العملاق الذى نطلق عليه « الرأى العـــام » عن أدق وأخطر جوانب مصر الستينات ، يعد جهدا وطنيا مطلوبا للاسهام به فى رحلة البحث عن الحقيقة ... ففى نهاية تلك الفترة اتجهنا الى « الغرب » للمرة الثانية بعد وقوع أزمة سياسية حادة بين القاهرة وموسكو فى بداية ١٩٥٩ ، لنعيش بعد ذلك مشوارا مزدحما بالاثارة والأحداث ! .

قبل هذه الأيام ، فى عام ١٩٥٨ ـ بدأ التعـــاون الروسى المصرى فى توريد السلاح الى قواتنا المسلحة فى شكله العلنى وكأنه يمضى فى تعاون واتفاق وتفاهم ، ولكن الحقيقة كانت مختلفة ، ذلك لأن السوفييت طبقوا قدرا من سياسة الابطاء والتجـــاهل للمطالب المصرية العســكرية ، وكان لدى قواتنا الجـوية « ٥٩ طائرة » روسية الصنع ما بين مقاتلة وقاذفة ونقل ، أقرب الى الخردة وفى حاجة الى قطـع غيـار ، تجاهلت موسكو ارسالها الينا ـ ولم يكن أمامنا غير الاتجاه غربا والالتجاء الى مصانع الطائرات وخبرائها فى غرب أوربا ... وهنا ظهر دور « المرحوم » لواء عصام الدين خليل ـ وكان نجما معروفا على المستوى الجمـــاهيرى بعد أن تحدث الرئيس الراحل جمال عبد الناصر عنه فى خطاب شهير له احتفالا بعيد النصر فى نهاية ديسمبر ١٩٥٨ ، حين كشف عن مؤامرة كانت تمول من الخارج ضد الثورة فى مصر ، وقد حصل الضـــابط الطيار عصام خليل على « ١٦٢ر٥٠٠ » ألف جنيه من المتآمرين بعض أفراد الأسرة المالكة المصرية السابقة ، وسلمها الى الخزينة ـ وقال عبد الناصر ضاحكا « وها نحن نؤمم المؤامرات أيضا » ثم أهدى ضابطه الطيار وسام الاستحقاق ...

وأذيعت بعد ذلك تفاصيل هذه القضية على الرأى العام المصرى ... وكانت واحدة من القضايا المثيرة ...

● ولقد ارتبط اسم اللواء طيار عصام الدين محمود خليل بالصواريخ المصرية « الظـافر والقـاهر والرائد » والطائرة المصرية الصنع « القاهرة ـ ٣٠٠ » ، وتساءل الشعب بعد هزيمة يونيو ١٩٦٧ ـ اين هذه الصواريخ ؟

ولماذا لم نستخدمها ؟ ولذلك قصة سنعود اليها عبر هذه الرحلة .

●● نعود الى عام ١٩٥٩ ، والأعوام التى تلته حتى يونيو ١٩٦٧ ، لنجد انه قد حدث تحول جديد الى الشرق مع عام ١٩٦٥ ، وهو تحول تدريجى بدأ عام ١٩٦٣ ، واكتمل بعد عامين ، وقد استطاع السوفييت بعد اعادتنا عسكريا وصناعيا الى حظيرته ، تجميد التعاون « الغربى المصرى » فى صناعة السلاح ... هذه الفترة من تاريخنا سادها الضباب بكثافة شديدة ، وتعذرت فيها الرؤيا جماهيريا ... لكن الحقيقة لم تذهب على الاطلاق وستبقى دائما كبقاء الأيام واللغة والانسان مهما حوول طمسها .

كيف كانت البداية ؟

بعد قيام الثورة وقبل ان ينتهى عام ١٩٥٢ ، قرأ الرئيس الراحل جمال عبد الناصر – وكان مديرا لمكتب القائد العام للقوات المسلحة تقريرا سريا عن صناعة المعدات الحربية فى مصر ، وهو المشروع الذى بداه المرحوم مصطفى نصرت وزير الدفاع فى وزارة الوفد مع نهاية عام ١٩٥٠ ، بمعاونة ثلاثة من مهندسى وزارته : « أبو العطا والسباع وعبد المجيد العبد » وكانوا قد نجحوا فى التعاقد مع « شركة مانيوران الفرنسية » لتصنيع الذخيرة الصغيرة – ومع « أورلكون السويسرية » لتصنيع الذخيرة المتوسطة – وشركة « سيفى اكسفورد السويدية » لانتاج البندقية – وشركة « بوفرز » وهى سويدية أيضا لصناعة المواد الكيماوية المفرقعة والقاذفة ،

ومصانع «كروب» الألمانية للصناعات التحضيرية الخاصة بالصناعات الحربية كتجهيز الصلب والنحاس اللازم لخطوط الانتاج ـ وكانت هذه التعاقدات خطوة ايجابية أولى لاقامة صناعة متكاملة تنتج السلع الوسيطة والسلع النهائية فى شكل طلقات من مختلف الأعيرة .

● وبعد حريق القاهرة فى ٢٦ يناير ١٩٥٢ ، كانت صناديق المعدات بدأت تصل تباعا الى مصر ، ولكنها تدخل الى المخازن مع صمت مطبق عن تفاصيل المشروع الطموح ، حتى قامت الثورة فى يوليو من نفس العام ثم اصدر جمال عبد الناصر قرارا بتعيين العقيد المهندس حسن رجب وكان يشغل وظيفة مدير البحوث والتطوير فى القوات المساحة ، وكيلا للوزارة لشئون المصانع الحربية ودفع المشروع الى الحياة مرة اخرى وبأسلوب ثورى له ايجابياته فى بداية الثورة .

●● فى هذه الفترة ، تقرر ايفاد بعثات عسكرية مصرية لزيارة أمريكا وأوربا من أجل الحصول على السلاح ، أشهرها مجموعة عقيد المدرعات على النكلاوى وقائد الجناح طيار على صبرى حيث سافرا الى أمريكا وفشلت مهمتهما هناك ، وبعثة أخرى برئاسة المرحوم اللواء محمد ابراهيم أول رئيس أركان للجيش بعد الثورة ومدير مكتبه الفريق اول عبد المحسن مرتجى وكان برتبة مقدم تلك الأيام ، وبعثات أخرى ضمت عددا ليس بقليل من الضباط الثوار الذين لم يظهروا بعد فوق المسرح السياسى ، وقد استطاعوا اعادة الاتصالات مع الشركات العالمية التى سبق ذكرها ، وبدات مرحلة جديدة من التعاون معها اعترضتها عقبات وعراقيل ما كادت تذلل حتى اصطدمت بصخرة العناد الوطنى

المصرى الشـورى ، وتصميم ثوار يوليـو على جلاء القوات البريطانية عن منطقة القنـاة ، وقد بدا ذلك واضحا للعالم عام ١٩٥٣ ، وفى بداية ١٩٥٤ ـ ثم تدخلت حكومة لندن لدى الشركات الاوربية المرتبطة بها لـكى توقف تعاونها مع مصر فى صناعة الاسلحة والذخائر ، بعد أن نجحت فى اقناع أمريكا باتخاذ الموقف نفسه ! .

● قيل فى تلك الفترة ، أن اللواء محمد نجيب هو اول من فاتح السـفير السـوفييتى فى مصر « بنيامين سولوف » للتعاون مع الثورة والحصول على السـلاح الروسى لمصر ... حدث ذلك عام ١٩٥٣ ، وقيل أن البكباشي جمال عبد الناصر وبعض رفاقه أعضاء مجلس قيادة الثورة رحبوا بذلك ، وان السوفييت منذ تلك اللحظة وهذا العرض يخططون لاحتضان الثورة المصرية وأخذوا يتحينون الفرصة الناضجة للانقضـاض السلمى على القاهرة ، وعلى ثورة يوليو ! .

خلال هذه الأيام دارت اتصـالات سرية بين ادارة المصانع الحربية وشركة « ف ـ ن » البلجيكية للحصول على صفقة كبسولات لمصنع المفرقعـات ولكن لندن استطاعت تجميد الصفقة ، فلجأت القيـادة العسكرية المصرية الى أسـلوب الالتفاف الذى تطبقه ادارات المخابرات العالمية ، وسافر بكباشى سعد الدين يوسف احد قادة القطاع العام بعد ذلك الى تركيا مزودا بسلطة دفع رشاوى وهدايا لانجاز العملية ـ حاملا معه ١٥ الف جنيه ، وهـدايا ذهبية ثمنهـا عـدة مئـات قليلة من الجنيهات ، واستطاع بالاتفـاق مع احدى الشركات التركية أن تستورد الكبسولات من بلجيكا لحسـابنا ،

واعاد المبلغ الذى سافر به ، وقرر أنه لم يستخدم الا المصوغات الذهبية فقط ! .

● ومضت خطوط الانتاج في الصناعات الحربية المصرية وفق خطة دقيقة محكمة يقودها فريق متجانس من المهندسين العسكريين على رأسهم اللواء مهندس حسن رجب ، يعاونه المهندس ضياء الدين طه الذى أشرف على انتاج طائرة التدريب المصرية ـ القاهرة ٢٠٠ ـ وقبل أن ينتهى عام ١٩٥٥ ، ويعلن الرئيس الراحل توصلنا الى عقد صفقة السلاح السوفييتي ـ التشيكى الشهيرة ، واحدة من المفاجآت المصرية التى هزت الدوائر العالمية الحكومية ـ كنا قد انتجنا الى جانب طائرة التدريب ـ البندقية ، والأسلحة والذخيرة الصغيرة والمتوسطة والسلع الوسيطة والمسبوكات والمفرقعات ، ولكن هذه الصناعات تجمدت مع تبدل سياسة تسليح مصر بصفقة السلاح الروسي ، وأصبحت معداتنا الحربية تتطلب طرازات شرقية من الذخائر مما جعل المعدات الغربية التى نملكها طاقة فائضة معطلة وضاع علينا كل ما انفقناه مع الغرب وشركاته وساد الصمت تماما ، وحين اخذ بعض الضباط يناقشون هذا التطور أو الضمانات التى حصلنا عليها من السوفييت لاستخدام معداتهم والحصول على قطع غيارها دون توقف ، ويبدون تخوفهم من سيطرة موسكو تدريجيا علينا صدرت قائمة بل عدة قوائم بأسماء ضباط احيلوا الى التقاعد أو نقلوا الى وظائف مدنية فى وزارات اخرى ، أو سفاراتنا فى الخارج ـ وصمت الباقي خوفا أو انتظارا لما ستكشف عنه الأيام ـ فى الوقت الذى تعددت فيه اجهزة الأمن الداخلي وامتدت ذراعها الى العسكريين والمدنيين معا .

لغة الملاكمة !

● هل كان المناخ أيامهـــا يفرض الصمت على كل صاحب رؤيا واعية عاونته على تحليل الموقف وأبعـاده السياسية واحتمالات تطوراته القادمة ؟! .

● هل عدمت مصر رجالا يقـولون كلمتهم الصادقة لوجه الوطن والحقيقة ؟! .

● هذه الفترة من عمر الثورة لم تلق حتى الآن من يتصدى لها بالبحث عن التفاصيل والتقصى والدراسة ثم اذاعة كل هذا للرأى العام المصرى بشكل متكامل ...

● لقد كان هناك رجال قالوا الكلمة الصادقة بلا خوف أو تردد ، وأكثرهم من العسكريين ، وبعضهم من المدنيين الذين اقتربوا من قيادة ثورة يوليو ... وقـد أطيح بهم كما يقال خلف الشمس ... ومنهم من أعلن توبته ومضى يشارك فى « الوليمة » حتى هزيمة يونيو ١٩٦٧ ، ثم استمر فى موقعه الى مايو ١٩٧١ ، وأقلية استوعبت الدرس جيدا ، ولاذت بالانطواء والصمت !! .

● لقد كانت ضربات اجهزة الامن الداخلى قادرة على نشر هذا المنـــاخ فى نفوسنا ، كانت اقرب الى الضربة القاضية كما يقال فى لغة الملاكمة ... فمع بداية الثورة أبقى الرئيس الراحل على بعض ضباط جهاز المخابرات الحربية الملكية ومخابرات الطيران أيضا وجهاز البوليس السياسى التابع لوزارة الداخلية ـ المباحث العامة فيما بعد ـ وحرص على استبدال قياداتها فقط ، كما أنشأ جهاز الأمن الداخلى بقيادة المرحوم محيى الدين أبو العز ـ أحد الضباط الاحرار ومحافظ الفيوم سابقا ـ وكان الجهاز الجديد مشرفا على جهاز وزارة الداخلية وحلقة

اتصال بين قيادة الثورة والاجهزة الأخرى المختلفة ، وقد ضم هذا الجهاز الأخير سـامى شرف ، وكان نواة لجهاز المخابرات العامة عام ١٩٥٥ .

●● لقد اسندت قيادة الثورة جهاز المخـابرات الحربية الى السيد زكريا محيى الدين ، وضم بين رجاله البارزين السيد حسن التهامى مستشار رئيس الجمهورية حاليا ، وابقى على السفير عبد المنعم النجار احد ضباطها قبل الثورة وبعد الثورة وابن خالة الملكة السابقة ناريمان، وبقى مقـربا من الرئيس الراحل حتى آخر مناصبه الرسمية سفيرا لمصر فى باريس ، وقيل انه أسهم بقدر ما فى تضليل « السراى » حين طلبت كشفا بأسماء الضباط الذين كونوا تنظيما سريا ثوريا ــ وهذا هو سر احتضان عبد الناصر له .

● نفس المطلب الذى طلبته « السراى الملـكية » من المخابرات الحربية طلبته من مخـابرات الطيران ومن بين رجالها « على صبرى وعصام الدين محمود خليل » الذى تعرضنا له فى بداية هـذا الـكتاب ثم الطيـار حسين خيرى ، أحد اقارب الملك فاروق ، وأحد المتهمين فى محاولة المؤامرة التى أذاعها عبد النـاصر فى ديسمبر ١٩٥٨ ، والتى كشف عنها عصام خليل الزميل السابق لحسين خيرى .

● ولقد تردد فى بداية الثورة أن على صبرى وعصام خليل كضباط فى مخابرات الطيران الملكية ساهما ايضا فى تضليل السراى والبوليس السـياسى عن تنظيم الضباط الأحرار ، وانهما بعد قيام الثورة رشحا زميلهما الطيار حسين خيرى وكانوا يطلقـون عليه « أفندينا » مزاحا ، للبقاء والعمل معهما لكراهيته للملك ولاقتناعه

أن فاروق سيجلب الشيوعية للبلاد ولترحيبه بالثورة ـ ووافق عبد الناصر على الابقاء عليه ، حتى هرب حسين خيرى الى أوروبا بعد صفقة السـلاح الروسى قائلا لأصدقائه :

ـ « ان الثورة ألقت بنفسها فى أحضـان دب مفترس » .

●●

ولم تكن كل هذه الأجهزة تعمل فى نطاق تأمين القوات المسلحة كأجهزة للأمن الحربى أو المخـابرات الحربية فقط ، بل امتد نشاطهـا الى القطاعات المدنية بمختلف أشكالها ، بين المصانع والجامعات والصحافة والنقابات وموظفى المصالح الحكومية .

● ولقد قدمت مخابرات الطيران بقيادة عصام خليل ثلاث قضايا شيوعية كبرى فى بداية الثورة ـ احداها كان المتهمون فيهـا على صلة بحزب تودة الشيوعى الايرانى ، ويقوم بالاتصال بينهما موظف مصرى يعمل فى شركة مصر للطيران بطهران عاصمة ايران .

وكان على صبرى قد انتقـل للعمل بجانب الرئيس عبد الناصر ثم عهد اليه بقيادة جهاز المخابرات العامة بعد زكريا محيى الدين ، وظل يديرها حتى تركهـا لنائبه صلاح نصر فى ١٣ مايو ١٩٥٧ ، بينما تولى الطيار عصام خليل منذ البداية قيادة مخابرات الطيران وقدم القضايا الشيوعية الثـلاث الى أجهزة وزارة الداخلية ـ التى كانت تعمل تحت اشراف المجموعة الخاصة بقيـادة محيى الدين أبو العـز ـ الى جانب قضية « صولات الطيران من الميكانيكيين » تزعمهم « ١٢ صولا » بعضهم ظهر انه جند فى حركة حدتو الشيوعية قبل الثوره ـ

وقام خالد محيى الدين بتقـديم أحدهم وهو « سيد رفاعى » الى الرئيس الراحل ، ودهش عبد الناصر حين عرف ان « الصول رفاعى » هو أحد قادة شيوعى حدتو التى تضم مجموعة من الضباط ورجال الفكر ! .

كان خالد محيى الدين عضو مجلس قيـادة الثورة أو المرحوم يوسف صديق قائد المجموعة التى اقتحمت مبنى رئاسة الجيش ليلة ٢٣ يوليو ، والاثنـــان يمثلان اليسار فى تنظيم الضباط الأحرار ، حريصا على اخفاء أسماء العسكريين من الشيوعيين القدامى الذين جندوهم فى خـلايا التنظيم السرى للضباط الأحرار ، حتى جاء جمال عبد الناصر فجأة لزيارة الصاغ خالد محيى الدين فى بيته فوجد لديه « الصول سيد رفاعى » والبكباشى يوسف صديق والمستشار أحمد فؤاد والشاعر كمـال عبد الحليم ، ودهش عبد الناصر حين عرف أن «الصول» سيد يمثل مركزا قياديا بين أعضاء اللجنـــة المركزية للتنظيم الشيوعى السرى ! .

● ولقد حوكم الصولات أمام محكمة عسكرية برئاسة « قائد الجناح جمال عفيفى » ـ رئيس أركان الطيران فى نـكسة ١٩٦٧ ـ وربما كانت هذه المجمـــوعة من الصولات أول من تعرضوا للتعذيب الجماعى فى السجن الحربى تحت اشراف الصاغ حمزة البسيونى ـ ولعب عصام خليل بعد ذلك دورا فى انقاذهم ! .

● برز عصام خليل سياسيا واستمر نجمه فى صعود يخدمه فى ذلك ماضيه العســـكرى وجرأته الثورية وصراحته المتناهية مع القيادة العليا ممثلة فى الرئيس الراحل ، والمرحوم المشير عبد الحكيم عامر ـ الرجل الأول مكرر فى قيادة مصر كما كان يطلق عليه سرا قبل

١٩٦٧ ـ ظـل نجم عصام خليل فى صـعود ـ مقترنا بتطور صناعة الطائرات النفاثة المقاتلة ، صناعة مصرية كاملة ـ وصناعة الصواريخ الاستراتيجية « أرض ـ أرض » ، وصناعة الصلب المصرى اللازم للاحتيـاجات العسكرية ، والمدفعية الصـــاروخية المصرية المضادة للطائرات ، والمدفعية الصاروخية الميدانية ، والمضادة للمدرعات ، حتى جاءت نكسة يونيو ١٩٦٧ ، وتساءلت الجماهير ، أين هذه الصواريخ الاستراتيجية الظـــافر والقاهر والرائد .. ؟ ولماذا لم تستخدم ؟!!

●●

● أسئلة كثيرة ترددت ...

● وأقاويل مختلفة حول « مكتب نائب القائد الأعلى للمشروعات الحربية الخـاصة » الذى كان يتولاه اللواء طيار عصام الدين محمود خليل ، تناثرت هنا وهناك ، دون أن يتصدى لهـا أحد بالرد والايضاح ! .

●● لقد قيل أن السوفييت بعد سيطرتهم علينا من خلال صفقة السـلاح الأولى واستمرارا فى التعـــاون العسكرى بين القـــاهرة وموسكو ، استطاعوا اقناع الرئيس الراحـل بأن السيد حسن التهامى ينقل أدق اخباره الى الأمريكان فعمل على ابعاده عن جهاز المخابرات، لأنه غربى الفكر والميول ، وأن البعثة التى سافرت عام ١٩٥٣ ، للحصول على فرقة مخابرات أمريكية فى مكافحة الشيوعية والتنظيمات السرية المضادة للحكم يجب عزلها ففعل ، ولكن عبد الناصر أبقى على الطيار عصام خليل المعروف بكراهيته للشيوعية وبآرائه العلنية فى ضرورة التعاون مع أمريكا ، فكيف حدث ذلك ؟! .

● لقد قالوا انه اسطورة ، والا لما بقى ضابطا بالقوات المسلحة مقربا الى قيادة الثورة والجيش ، وهو الضابط الذى قال « لا » للنظام الجمهورى فى نهاية يونيو ١٩٥٣ .

● ما هى الحقيقة .. ؟ وماذا حدث فى المشروعات الحربية الخاصة ؟ ..

الفصل الثالث :

البداية .. حدثت فى الهند

.. وتعاون ضابط المخابرات المصرية فى عهد الملكية قبل ثورة يوليو .. تعاون مع الثوار ... وعهد اليه الرئيس الراحل جمال عبد الناصر باخطر وأدق المهـام الحربية ...

★★

★ عبد الحكيم عامر ... لم ينتحر ، ولم يقتله احد تنفيذا لتوجيهات عبد الناصر ، ولـكنه مات تنفيـذا لتعليمات أخرى !

تعلبمات من ؟! ..

ما هى حقيقة هذا الرجل .. ؟

ما هو ماضيه ، وما هو دوره .. ؟

كيف نجا من سيطرة السوفييت ، وبقى فى موقعه العسكرى ، رغم ما عرف عنه من عداء للشيوعية والاتحاد السوفييتى ؟! .

هل دخل فى صراع مع القيادة العسكرية السوفييتية !؟ .

ومن كان خلفه أو جانبه يقدم له الحماية ؟ .

وكيف توقفت تلك « المشاريع الطموحة » التى هلل لها الرئيس الراحل شخصيا فى بداية الستينات والتى قادها « الطيار عصام خليل » واقد أسند اليه منصب مدير مكتب نائب القائد الأعلى للمشروعات الحربية الخاصة ؟! .

هل كانت له مهام سرية أخرى لم يكشف الستار عنها بعد ؟! .

● لقد حرصت على تحقيق قصة هذا الرجل بشكل مكثف وتفصيلى وذلك لأهمية ما حدث من تحولات فى قيادة قواتنا المسلحة ، وكان لها آثارها العميقة على

الشعب المصرى عام ١٩٦٧ وعلى منطقة الشرق الأوسط بأكملها ! .

● لقد عهد الى هذا الضابط الطيار – وهو ضابط مخابرات وليس عالما أو مهندسا بقيادة صناعة هامة وخطيرة فى مصر ، وهى صناعة الأسلحة الاستراتيجية المتطورة – ونجح فى ذلك الى حد كبير ، وكان يقود هيئة كبرى من العلماء والخبراء الأجانب والمصريين والمهندسين العسكريين ، ويملك الكثير من الاعتمادات المالية داخل البلاد وخارجها ، الى جانب عدة جوازات سفر لاستعماله الشخصى ، تحمل أسماء ومهن مختلفة ، امعانا فى حمايته وتأمينه ، وقد اقترب طويلا من القيادة السياسية العليا ، والعسكرية بالضرورة ، ورأى الصورة فى قمة السلطة بكافة زواياها ... رأى الرئيس الراحل عن قرب وتعامل معه واحتفظ له فى ذكرياته بصورة مختلفة عما فى أذهاننا ، عن عبد الناصر والجانب الذى لم نره منه ... كذلك نائبه عبد الحكيم عامر ! .

●● وحين جرى اعتقال عصام الدين خليل فى أغسطس ١٩٦٧ ، انهالت الاتهامات الخطيرة والخيالية عليه ،وحقق معه عسكريا ، وفى سرية تامة ، بعد أن أرسل الفريق اول محمد فوزى وزير الحربية عقب يونيو ١٩٦٧ ، بلاغا الى المدعى العسكرى العام فى ٢٤ فبراير عام ١٩٦٨ يتهم فيه الطيار لواء عصام خليل باتهامات مالية غريبة ومثيرة سنتعرض لها بالتفصيل فى نهاية هذه الدراسة ، ومن الغريب والمثير أيضا أن يصدر قرار المدعى العسكرى العام بعد ثمانية شهور من تاريخ هذا البلاغ ، فى ٢ أكتوبر ١٩٦٨ ، بأنه لا وجه لاقامة الدعوى ضد اللواء متقاعد عصام الدين خليل ... وتأتى

التعليمات بعدم الاشارة في الصحف الى هذا القرار الذى أصدره اللواء عبد الرازق أحمد ابراهيم حجازى ، المدعى العسكرى العام أو اذاعته ، ثم يصدر بعد أسبوع واحد ، أى فى ١٠ أكتوبر ١٩٦٨ قرار جمهورى جديد يحمل رقم ١٥١٤ ، باستمرار اعتقال عصام خليل !!

معلومات لهـا دلالات !

● نعود الى بداية الرجل ...

وهذه هى حصيلة ما جمعته من معلومات عنه حين اعتذر لى فى البداية عدة مرات ، طوال عامين عن الحديث فى هذا الموضوع ، وأمام الحاحى المستمر عليه ، وافق وتكلم ، وأجاب عن أسئلتى وتساؤلاتى .. قبل وفاته فى مارس ١٩٨٠ .

● هو الابن الوحيد للجراح المصرى الشهير المرحوم دكتور محمود خليل ، وكانت له ست شقيقات دون ذكور .

● من مواليد القاهرة ، عام ١٩٢٢ .

« قال لى : كنت أهوى الميكانيكا وعشقت الموتوسيكلات والسيارات منذ طفولتى ، ثم الطيارات فى صباى ، وكنت أستأجر الطائرات فى مدرسة مصر للطيران مقابل خمسة جنيهات للساعة وأنا فى المرحلة الثانوية ، وحصلت على شهادتين فى الطيران الخاص والطيران التجارى ، وعمرى ١٦ عاما ، ثم تخرجت فى الكلية الجوية بعد الحربية فى يناير عام ١٩٤٦ » .

● ومن تقرير قديم عنه لدى أحد قادته القدامى جمعت هذه المعلومات ، لما لهـا من دلالات :

« حاول الهرب بطائرة مدنية الى خطوط الألمان أثناء الحرب العالمية الثانية قبل التحاقه بالكلية الحربية ، وعلى أثر فشل محاولة الفريق عزيز المصرى للوصول الى القوات الألمانية ــ وقد حصل على طائرة مدنية من مطار بور سعيد ــ عاونه فى ذلك قائد المطار « الجابرى » وهو طيار مدنى قديم عرف عنه انه من رجال عزيز المصرى ، واضطر للهبوط الاضطرارى على ساحل دمياط وعاونه « الجابرى » من الافلات من المحاكمة بأن أفسد له بوصلة الطائرة حتى لا ينكشف خط سير الطائرة الحقيقى .. » .

« كان الأول على دفعته فى اطلاق الطبنجة والثانى فى البندقية » .

« رفض تقبيل يد الملك وهو برتبة ملازم ثان ــ وقد استدعاه الفريق ابراهيم عطا الله باشا لتأنيبه ، فقال ان تقبيل الأيدى للسيدات فقط ، ثم رشح للعمل فى الياوران العسكرى للملك فاعتذر » .

« كتب تقريرا عسكريا فى بداية عام ١٩٤٨ واعيا باحتمالات الموقف فى فلسطين وقدمه الى الفريق عثمان المهدى باشا رئيس الأركان ، ثم اشترك فى جولة ٤٨ بفلسطين وبعد عودته نقل الى العمل فى مخابرات الطيران ، وكان هذا التقرير الذى قدمه من قبل خلف هذا الاختيار » .

« سافر عام ١٩٤٩ مع المقدم محمد فرج رئيس قسم تسليح الطيران الى مهمة سرية في انجلترا واليونان لشراء طائرات وقد تعرض لمحاولة تجنيده لحساب اسرائيل بواسطة يهودى عدنى فى أثينا ــ وحصل منه على كاميرا تجسس ماركة مينوكس ، ونسخة قديمة من بروتوكولات حكماء صهيون » .

« نقل للخدمة فى مطار الدخيلة كضابط مخابرات للقاعدة ومسئولا عن صيانة الطائرات عام ١٩٥٠ » .

سألته عن صحة هذه المعلومات فأكدها قائلا :

ـ « حين دعيت للعمل فى ياوران الملك عرفت أن سبب اختيارى يعود الى اعتدادى بعسكريتى عندما رفضت تقبيل يد الملك ، مكتفيا بأداء التحية العسكرية وتعلمت درسا هاما فى حياتى ، وهو أن احترام القادة لك ينبع من احترامك لذاتك وكرامتك ، وطبقت هذا الدرس مع قادتى طوال حياتى وبالأخص مع الرئيس الراحل جمال عبد الناصر والمرحوم المشير عبد الحكيم عامر » .

ـ وفى أثينا عندما واجهت جاسوسا يهوديا من ابناء عدن وكنت أقيم باليونان كتاجر ، تعلمت الحذر بعد أن دس لى السم فى الطعام وانقذت بأعجوبة ، وعدت بنسخة قديمة من « برتوكولات حكماء صهيون » وذهبت برفقة زميل قديم وهو البكباشى مصطفى لطفى ، زميل دفعة جمال عبد الناصر والسفير بعد ذلك بالخارجية الى الأستاذ احسان عبد القدس ، حيث قدمت له النسخة بهدف نشرها فى « روز اليوسف » » .

● سؤال : كيف التقيت أول مرة بالرئيس الراحل ؟

ـ كان يدرس لنا بالكلية الحربية عام ١٩٤٢ ، مادة الأسلحة الصغيرة ، وتأثر به عدد كبير من الطلبة ، ثم ذهبت اليه عام ١٩٥١ بعد أن سمعت عن وطنيته ، وكان مدرسا بكلية الأركان ، وعرضت عليه أن أقوم باغتيال الملك فاروق ، وأن يقوم هو بحماية ظهرى ، فطلب التريث ، وأن أبقى بجانبه ثم طلب منى الاسهام فى نقل الأسلحة والذخائر من بيت الزميل مجدى حسنين الى الفدائيين فى منطقة القناة ففعلت .

● الم يشك فيك وأنت تعمل فى مخـابرات الطيران الملكية ؟ .

ـ لا .. لم يتبادر اليه أدني شك ، ذلك لأن ثمة قصة سبقتنى اليه ، فقد كنت احاكم جنديا هرب من الخدمة لمدة عام ، ثم قبض عليه ، وفى المحاكمة قال انه مذنب ، فأصدرت الحكم بالبراءة ، واذا باللواء محمد متولى باشا قائد الطيران يستدعينى ويطلب منى تفسيرا لهذا الحكم ، فقلت له : « ان هذا الجندى هرب لكى يطعم عددا من أبنائه ، مرتب الجيش لا يكفيه وأسرته » .

وقدمت له مذكرة بضرورة اصلاح قـانون الجيش ، وكان لدى عبد الناصر قبل الثورة قدرا كبيرا من المعلومات الشخصية عن عـدد ضخم من الضباط الشبان الذين عرف عنهم الاهتمام بالمسائل السياسية أو الميول الثورية.

ولقد ظل عبد الناصر بضع هذه المسألة ـ حصوله على المعلومات الشخصية عمن حوله وعن البعيدين عنه أيضا من الضباط فى المرتبة الأولى من ضرورات قيادته حتى وفاته ، وكان حريصا على أن يتسلم أكثر من تقرير من عدة جهات أو مكاتب أمن عن الشخص الواحد ثم يقارن بين معلوماتها .

● سؤال آخر : بعد الثورة عرفنا أن على صبرى كان حلقة الاتصال بين قيادة الضباط الأحرار والملحق الجوى فى السفارة الأمريكية بالقاهرة « لصداقة » تربط بينهما ... ألم تكن هنـــاك اعتبـارات أخرى لم تذع على الجماهير ؟ .

ـ سافر على صبرى كضابط طيار بمخابرات الطيران عام ١٩٥١ فى بعثـــة الى امريكا للحصول على فرقة عسكرية ، وكنت مرشـــحا للسفر معه الا ان امريكا

اعتذرت بالنسبة لى ... ربما عقد هو صداقات هناك جعلت عبد الناصر يرشحه للدور الذى قام به ليلة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ — ورأيى انه كان امريكى التفـــكير حتى « غسل » له السوفييت رأسه ! .

● سؤال : تردد أن أول عمليـة تعـذيب وحشى أجريت على نزلاء السجن الحربى كان ضحيتها « صولات الطيران من الميكانيكيين » الذين قبض عليهم بتهمة التمرد بعد أشهر قليلة من قيام الثورة ، وأنك أنت كنت خلف القضية وقد توليت القبض عليهم ، ثم أرسلت بهم الى « حمزة البسيونى » فى بداية خدمته بالسجن الحربى ... ما ردكم ؟ .

ـ هذا صحيح ، كان « الصولات » يقضون سهراتهم في بيت « العقيد يوسف صديق » رحمه الله ، بهدف تلقينهم مبادىء الشيوعية وبلشفتهم ، ولقـــد حاولوا القيام بفتنة عسكرية ، وقبل محاكمتهم علمت بما وقع عليهم من تعذيب بقيـادة حمزة البسيونى فذهبت اليه غاضبا ونقلتهم دون تعليمات الى رئاسة القوات الجوية ، أفردت لهم حجرة خاصة بسراير ، وزودتهم بالعـــلاج والملابس ، وغضب البسيونى وشكانى الى القادة ولكنى لم أعبأ به ، وقد صدرت الأحكام بعقوبات بسيطة ، بعدها حصلت على قرار من الرئيس الراحل بالافراج عنهم ، وقمت باستلامهم وأعلنتهم بالنبأ فبـــكى بعضهم فرحا وحرصت على الحاق عدد منهم بالمصـــانع الحربية ، وسهلت للآخرين مهمة الحصول على عمل خارج البلاد ، وأكثرهم على قيد الحياة وكل عام يرسلون لى بهديةرمزية ... وحتى الآن ، تعبيرا عن امتنانهم ووقفتى الجريئة الصادقة بجانبهم .

واذكر اننى قلت للرئيس الراحل : « اننى ضد اى نوع من التعذيب او اهدار كرامة البشر ، وساقف بكل قواى ضد هؤلاء الشواذ كالبسيونى الذين يسعدهم آلام الآخرين ... » .

« وقال لى عبد الناصر : أنا معك » .

●

● سؤال : كيف كانت مقدمات صفقة السلاح الروسى عام ١٩٥٥ ، والمعروف انه كان لك دور ما فى هذه الصفقة ؟ .

ـ بدات « المقدمات » بين ملحقنا العسكرى فى الهند البكباشى عاطف نصار قائد تنظيم الضباط الأحرار فى الاسكندرية والدبلوماسيين السوفييت والصينيين بعاصمة الهند ، وجرى حديث طويل حول امكانيات حصول مصر على السلاح من السوفييت ، وكتب عاطف نصار بذلك الى الرئيس الراحل ، الذى أوفد جمال سالم الى هناك ، وفى حفلة استقبال أقيمت له قال المرحوم جمال سالم « ان الغرب لن يعطينا السلاح ، وسنعمل للحصول عليه من الشرق » .

واحدث هذا التصريح ضجة كبرى ، ودارت العجلة ، غير اننى كنت حريصا على أن أنادى أمام الرئيس الراحل والمشير عامر مع بداية عام ١٩٥٣ ، ولم يكن عمر اسرائيل بلغ خمس سنوات ، وتعاونها متجه الى دول الكتلة الشرقية وليس امريكا كما حدث بعد ذلك ـ ناديت بضرورة تفهم العقلية الأمريكية وأن نستغل الموقف جيدا ، وبدا الاستعداد لدى الرئيس الراحل لتطبيق هذا الأسلوب ، لكنه وقع تحت تأثير آخرين ، استطاعوا السيطرة عليه نفسيا ... وكانت البداية صفقة السلاح

التشيكى ـ الروسى ، التى أطلقنا عليها « مشروع ناصر » والتسمية من أفكار عبد الحكيم عامر ! .

ولقد قمت بواجبى كاملا بعد ذلك ، وبقيت أعمل ٢٢ ساعة يوميا فى عملية تأمين وصول السلاح الى قواتنا المسلحة ، كنت مسئولا عن مهام التغليف والتحميل بالنسبة للطائرات وبقية المعدات حتى تصل الى قواعدها، ومعى مجموعة من أكفأ عناصر المهندسين وزملائى ضباط مكتب مخابرات الطيران والقوات البحرية ... ثم أصبت بالتهاب رئوى ولزمت الفراش .

لماذا اختاروك .. ؟

● حين حاولوا تجنيدك فى بداية ١٩٥٦ ، للقيام بانقلاب عسكرى ضد الثورة ... من هم أصحاب المحاولة ، ولماذا وقع اختيارهم عليك ، وماذا كان هدفهم ؟ .

ـ فى تلك الأيام من بداية ١٩٥٦ ، كان اتجاهعبدالناصر السياسى قد وضح تماما أمام الغرب ، وعرفت أجهزة مخابرات كبرى فى الدول الغربية ومعها اسرائيل ، أن بعثات عسكرية مصرية تذهب الى الاتحاد السوفييتى ، وان الخبراء الروس أخذوا يأتون الى مصر ، وتسربت انباء عن الدراسة التى طلبها عبد الناصر عن قناة السويس وامكانيات تأميمها ، فتعاونت المخابرات الانجليزية مع الاسرائيلية فى وضع خطة للاطاحة بالثورة وبحثوا حتى وجدوا ضالتهم ، وكانت « الطيار المصرى القديم حسين خيرى » أحد أفراد الأسرة المالكة ، والذى هرب من مصر بعد ثورة ١٩٥٢ ، بفترة بسيطة وكان

زميلي بمكتب مخابرات الطيران قبل الثورة وبعدها ـ ويعرف عنى كراهيتي للشيوعية ، وعندما التقيت به فى أوروبا فاتحنى فى القيام بانقلاب ، وعرض العديد من المغريات ، ثم قدمنى الى لورد انجليزى اسمه كريترن ، عرفت بعد ذلك انه الرجل رقم « ٢ » فى المخابرات الانجليزية ، بعدها التقيت بأعوانهم فى المؤامرة « الأمير محمد عبد المنعم والأمير ناموق ووزير الداخلية السابق مرتضى المراغى » .. وبعدد من الضباط الأجانب ، تبينت بعد فترة انهم من المخابرات الاسرائيلية .

وكما هو معروف واذيع بعد ذلك ، ولأننى لم أكن بالمتآمر فقد عرضت الموضوع على الرئيس الراحل عبد الناصر مزودا بمستندات صوتية وفوتوغرافية وكتابية ، ثم وقع العدوان الثلاثى عام ١٩٥٦ ، وتوقفت العملية ولكنهم عاودوا الاتصال بى عام ١٩٥٧ ، وسحبت منهم مبلغ « ١٦٢ر٠٠ » ألف جنيه ، وكان نصيبى بعد نجاح الانقلاب ٢ مليون جنيه أخرى لم نحصل عليها بالطبع .

ويهمنى ان أذكر هنا شيئا ذا أهمية ، وهو ان عبد الناصر لم يكن بالشيوعى المقنع أبدا ، ولم يقتنع بالشيوعية قط طوال حياته ، لقد وقع تحت سيطرتهم فعلا ولكنه ظل يرفضهم دائما حتى حين مد يده الى الشيوعيين المصريين ، مدها بهدف استغلالهم فقط ، كذلك عاش المشير عبد الحكيم عامر .

حين أخذ ضباطنا يسافرون الى الاتحاد السوفييتى ، بقى كل من عبد الناصر وعامر حريصا على أن يرافقهم ضباط مخابرات من أساتذة مكافحة البلشفة وغسيل الرأس الشيوعى ، وكانت المخابرات السوفييتية تعلم

ذلك ، وتقوم من جانبها بخطط مضادة ، أخطرها خطة لقتل عامر عام ١٩٦٦ ، فى حادث مدبر يبدو كأنه قضاء وقدرا ! .

● ما هى تفاصل هذه الخطة ؟! .

ـ كان فى رحلة الى الاتحاد السوفييتى ـ ديسمبر عام ١٩٦٦ ، وكنت أرافقه فى الطائرة التى يقودها طيار ممتاز اسمه « دغيم » واعتذر مطار موسكو عن استقبال الطائرة وطلب منا الهبوط فى مطار لينينجراد ، ثم طلبت غرفة المراقبة من الطيـــار أن يهبط بطائرته قبل ممر الهبوط ، وكادت الطائرة تصطدم بمصنع ضخم لولا يقظة الطيار وقدرته ، اذ استطاع أن يرتفع ثم يهبط فى سلام ! .

ولم نترك هذا الأمر دون حساب ، وقدمنا لهم « الأدلة العملية العلمية » على سوء نية غرفة المراقبة ، واعتذروا باعتذارات ضعيفة وعللوا ما حدث بتسرع الطيار المصرى .. وتأكدنا بعدها من سوء النية لدى القادة السوفييت حتى مرحلة القتل !! ..

وحين علمت بنبأ انتحـــار عبـــد الحكيم عامر قلت لمن حولى ، انه ليس بالرجل الذى يقدم على الانتحار رغم قسوة الظروف والمفاجأة ، وليس عبد الناصر بالرجل الذى يقدم على قتله كما قال البعض ، ولم يكن هناك من يجرؤ على أن يتقدم باقتراح التخلص من عبـــد الحكيم عامر ليحصل على موافقة جمال عبد الناصر ـ لقد قام البعض بدس « السم » فى شراب عبد الحـكيم عامر منتهزا فرصة تحديد اقامته باستراحة سرية ، تنفيذا لتعليمات السوفييت . والبعض هذا هم من تحولوا الى الى أدوات فى أيدى المخابرات السوفييتية ورجالها من

الشيوعيين مع بداية الستينات ، وبلغوا مسرح السلطة عام ١٩٦٧ وما بعدها حتى سقطوا فى مايو ١٩٧١ ، انها جريمة متصلة بما حدث عام ١٩٦٦ فى لينجراد .

● قلت للواء طيار متقاعد عصام الدين محمود خليل :

ـ اسمح لى باعتراض ، لقد سمعت كصحفى يعمل فى قطاع القـوات المسلحة منـذ عام ١٩٥٢ ، سمعنا أن ضابطا برتبة لواء عرض على الرئيس الراحل وأمام عدد قليل من الضباط بعضهم أحياء حتى الآن ، أن يأذن له فى التخلص من عبد الحكيم عامر إنقاذا لمصر والقوات المسلحة من فتنة كبرى ... ما تعليقك ؟ .

ـ سمعت هذا أيضا ... ولكن بماذا أجاب عبد الناصر على هذا الاقتراح ؟! .

الفصل الرابع :

مليونير مصري ...
يعمل مع الثورة

★ ارشيف سرى من قائد نازى قـديم الى جمـال عبد الناصر .

★ علماء من ألمانيا الشرقية يهربون الى مصر .. من وراء السوفييت ! ..

.. وهرب بعض خبراء ألمانيا الشرقية من سـيطرة السوفييت على بلادهم وجاءوا الى مصر الثورة للتعاون معهـا ... والخبراء الروس حولهم بالقاهرة ... كمـا جاء مليونير مصرى وتعاون مع ثوار يوليو فى تنفيذ أكبر صفقة حربية سرية عرفتهـا مصر فى منتصف الخمسينات .. !

لقد ثار عبد النـــاصر على صاحب هذا الاقتراح ، اقتراح التخلص من عبد الحكيم عامر ، وأنهى المقابلة ... وربما مناخ الهزيمة هو الذى جعل عبد الناصر مترنحا ضعيفا غير قادر على طرد مثل هذا الضابط من الخدمة ، بل وسجنه أيضا .

● قلت له : نعود الى سابق حديثنا بعد وصول معدات صفقة السلاح الأولى مع السوفييت ، وتفاصيل المؤامرة التى كشفت عنها ... ماذا حدث بعد ذلك ؟ .

ـ وقع العدوان الثلاثى ، ثم قامت الوحدة بين سوريا ومصر فى بداية عام ١٩٥٨ ، وكان لروسيا مخـاوفها فراوغت وتلكأت فى ارسال قطع غيـــــار الطـائرات والدبابات ، ثم تجاهلت مطالب قواتنا المسلحة تماما ، كأسلوب ضغط سياسى ، وناقشت القيادة العليـــــا السياسية والعسكرية فى القـــــاهرة هذه الأوضاع المفـاجئة ، ووقعنـا فى حيرة تبينتها جيدا فى لقاء مع الفريق أول محمد صدقى محمود قائد القـــوات الجوية وذلك فى نهاية عام ١٩٥٩ ، عندما قال لى أن لديه « ٥٩ طائرة » معطلة فى حاجة الى قطع غيار فقلت له اننى كفيل باحضارها من الغرب ، ووضعت خطة طويلة الأجل تتضمن تصنيع موتورات الطائرات والدبابات فى بلادنا ، بعد الحصول على قطع الغيار العـــاجلة من مصانع دول

غربية مختلفة ، كي تعود الطائرات المعطلة الى كفاءتها .

وعرضت الخطة على المشير عبد الحكيم عامر ، الذى عرضها بدوره على الرئيس جمال عبد الناصر ، ووافقا عليها فى مواجهة ضغط السوفييت واحتمالات تصعيده ضدنا .

اترك هنا اللواء عصام خليل قليلا ، لأعود الى معلوماتى القديمة ، ولأسرد قصة البداية وأحداثها المثيرة ...

لقد اقترح عصام خليل على القيادة ومن خلال رحلاته المتعـــددة الى دول غرب أوروبا كضابط مخابرات ، ان نتعاون مع مكتب خبرة فى النمسا يعمل فى هذا المجال ويديره رجل اسمه « البروفسور ليست » .

وكان « ليست » قد تعاون مع كوريا الشمالية سرا ومدها بالموتورات اللازمة للدبابات السوفييتية الصنع ، عندما توقفت روسيا عن تقديم قطع الغيار لـكوريا عقابا لها لموقفها المؤيد للصين الشعبية ، كما اقترح أيضا ان يفوض للاتفاق فى الخـارج مع مجموعة من العلمـــاء والخبراء الألمان وبعضهم يعيش فى ألمـانيا الشرقية ـ ولـكنهم يودون الهرب ويرحبون بالعمل فى مصر وعلى استعداد لتقديم تصميمات خاصة لطـائرة نفاثة جديدة تصنع فى بلادنا وتصميمات أخرى لصـــواريخ مصرية متعددة المهام ...

وسافر عصام خليل الى أوروبا وآســـيا ، ومارس نشاطه فى المـانيا الغربية والنمسا وسويسرا والهنـد ، والتقى فى النمســـا « بالمليونير المصرى حسن كامل » والمشرف على مصـــانع أورلـكون السويسرية لصناعة الذخيرة والسلاح ، ولم يكن هذا لقاءهما الأول ، فتعاونا معا فى الاتفاق مع مجموعة من الخبراء الألمان مقابل عمولة

كبيرة بثقافاتها المليونير المصرى الذى يعيش منذ طفولته مع امه السويسرية فى زيورخ .

« وللمليونير « حسن كامل » قصـــة مع مصر تدور فصولها فى منتصف الستينات ثم منتصف السبعينات ، سنتعرض لها مع تسلسل احداث هذا الكتاب » .

●● قال لى المرحوم اللواء متقاعد عصام الدين خليل :

ـ فى ألمانيا الغـــربية التقيت بأستاذ الصواريخ « سانجر » وهو أحد رجال « فون براون » أبو الصواريخ الذى عاش فى أمريكا بعد الحرب العـــالمية الثانية ، وقدمنى الى عالم آخر اســـمه « بيلز » من أساتذة الصواريخ أيضا ، وكان قد تعاون مع الحكومة الفرنسية فى صناعة صواريخها خلال الخمسينات ، واتفقت مع خبير محركات آخر اسمه « براندر » ألتقيت به عن طريق حسن كامل فى النمسا ـ وبراندر هـذا ظل ١٢ عاما معتقلا فى الاتحـــاد السوفييتى بعد الحرب الثانية ـ واتفقنا على العمل فى مصر ... وفى الوقت نفسه ، كنت قد نجحت مع مجموعة قليلة من أكفأ رجالى فى الاتصال بعدد كبير من علمـــــاء الصواريخ وموتورات الطائرات النفاثة ممن يعيشـــون ويعملون تحت سيطرة السوفييت فى المـانيا الشرقية ، وبوسائلنا اتفقت معهم سرا على الطيران الى القـــــاهرة ، وسهلت لهم كل الاجراءات فى شكلها المشروع وأبرمت معهم العقود ... ولم ينس لى السوفييت أبدا ما فعلت !! .

وجاءت أول مجمـــوعة من الخبراء الألمان ، وبدأت الخطوات الجادة فى خطوط الانتاج ، كنا نسبق الزمن ، ونتجاوز أخطر العقبات والعراقيل ومن بينها الروتين الحكومى ! .

اعود هنا مرة اخرى الى اوراقى القديمة انقل عنها هذه المعلومات :

كان الانفصال السورى قد وقع فى نهاية سبتمبر ١٩٦١ ، وأرادت الدولة تعويض ما حدث ، فأصدرت عدة قرارات بهدف دفع مشاريع الصواريخ الاستراتيجية والطائرات النفاثة الى مراحل اكثر تقدما ، كى يمكنها الاعلان عنها أمام الرأى العام العالمى ، فتضيع آثار الانفصال السياسية لدى العالم ، وهذا ما حدث فى بداية عام ١٩٦٢ ، حين دعا الرئيس الراحل عددا من الملوك والرؤساء العرب ، وممثلى الصحافة العالمية لمشاهدة اول صواريخنا « الظافر » أثناء انطلاقه وسط حملة اعلامية دعائية ضخمة !

● فى تلك الفترة كان الطيار عصام الدين خليل قد ترك منصب مدير مخابرات الطيران الى منصب مدير مكتب نائب القائد الأعلى للقوات المسلحة للمشروعات الحربية الخاصة ، وقد اسندت اليه بجانب هذه المهمة رئاسة مكتب مخابرات الأبحاث العلمية والصناعية العسكرية ، وتكتيكاتها الفنية وتشمل الطاقة الذرية .

وصدر قانون خاص بها ، وفوض عبد الحكيم عامر فى اختصاصات رئيس الجمهورية بالنسبة لهذه المشروعات فنيا وماليا وقياديا ، كما صدرت قرارات بعد ذلك للمشير عامر بفتح اعتمادات مالية فى الخارج باسم كل من عصام خليل ، والمليونير المصرى حسن كامل ، واحدى شركات القطاع العام ، يتم باسمها شراء المعدات الالكترونية اللازمة لهذه المشاريع ، والحق بهذه القرارات قانون جديد آخر يحرم على الجهاز المركزى للمحاسبات فحص ماليات هذه المشاريع ، أو فحص ميزانية وزارة

الحربية أو القيادة العامة للقوات المسلحة ، وقد الغيت هذه القوانين بعد النكسة .

من أعطاك التعليمات ؟

اعود الى اللواء طيار عصام خليل ...

قال لى الرجل :

ـ فى البداية ، بدأنا بالطائرة الكبيرة الأنتينوف روسية الصنع وهى طائرة نقل بها ٤ محركات ، رفعت واحدا منها ووضعنا بدلا منه محركا صناعة مصرية ، وطارت الطائرة (١٥٠) ساعة وهو رقم قياسى ، واثبت المحرك المصرى كفاءته ، غير أن الخبراء السوفييت وزملاءهم من الطيارين الذين كانوا يقودون بعض هذه الطائرات انزعجوا ، وسألنى قائدهم :

ـ من الذى أعطاك التعليمات باستبدال المحرك ؟ .

فقلت له : « قائدى هو وحده صاحب الحق فى طرح هذا السؤال ، وأرجوك أن لا تنسى ان هذه الطائرة ترفع العلم المصرى » .

وارادوا بعد ذلك أن يعودوا الى موسكو ومعهم المحرك المصرى لاختباره هناك ، فرفضت وأيدتنى القيادة العليا .

● واستطعنا بعد ذلك انتاج الموتور الفرنسى المخصص لطائرات التدريب « ماروبريه تروبيكا ٤ » وكان الفرنسى يصاب بشروخ فى كثير من الأحيان ، بينما الموتور المصرى تجاوزها بكفاءة عالية ، ولقد غضبت القيادة الفرنسية ودخلنا فى مفاوضات انتهت بأن اشترت منا باريس « ١٥٠٠ موتور » مع بداية عام ١٩٦٧ ، كما طلبت الهند شراء هذا الموتور أيضا !! .

● وما بين ١٩٦٢ حتى نهاية ١٩٦٣ ، كنا قد انتجنا الصاروخ « الظافر » ومداه بلغ ٦٠٠ كيلو متر ، وقبل الظافر كنا قد انتجنا « القـاهر » ومداه بلغ ٥٦٠ كيلو مترا ، ثم عملنا فى صاروخ ثالث تحت اسم « الرائد » ، ومداه كان سيبلغ ١٥٠٠ كيلو متر ، واستمرت التجارب والاختبارات وتوقفت مع بداية ١٩٦٦ ، حين أصبحنا بلا ميزانية مالية ! .

● وعنـدما جاء الرئيس الراحل ومعـه ضيوفه ، اطلقنا ثلاثة صواريخ باقتدار وكفاءة ..

● واستطعنا ان ننتج مدفعيـة صاروخية للطائرات « ١٣٨ مللى » ، ومدفعية صاروخية مضادة للمدرعات ٨٣ مللى ، وطلبت حكومة النمسا شراء صواريخ المدفعية الميدانية .

● واقمنا مصنعين لانتاج بودرة المفرقعات ولصناعة الصلب الخاص المستخدم فى انتاج المدرعات والسفن ، واننى اذكر بانشكر زوج ابنة الرئيس الأسبانى الراحل « فرانكو » الذى اشترى لنا معدات مصنع البودرة من بلجيكا باسم اسبانيا ، واحد علمائنا المصريين « الدكتور أحمد عيد » الذى درس فى فرنسا ، وجاء الى احد مصانعنا الحربية واجرى تجـاربه فى انتاج الصلب المصرى ، وانتج فى النهاية نوعا ذا معدلات أرقى من قرينه البولندى ، ثم أقمنا المصنع .

● وقمنا بانتاج النابالم المصرى ، والألغـام المصرية متعددة المهام .

● وانتجنا بعد طائرة التدريب القـاهرة ٢٠٠ — طائرة نفاثة مقاتلة وهى القاهرة ٣٠٠ ، وكان عبد الناصر سعيدا بها كل السعادة حين طارت أمامه بواسطة طيارى

الاختبار وقامت ببيان عملى ، وطارت بسرعة الصوت مرة ونصف ، وكانت هناك تعديلات لكى تطير بسرعة ٢ر٢ من الصوت ..

واذكر بكل الاكبار والخشوع احد طيارى الاختبار من نسورنا الطيارين ، وهو أول من طار بالنفـــاثة المصرية القاهرة ٣٠٠ ، أنه « البطل الشهيد زهير شلبى » من طيارى الاختبــــار ، طار واختبر أكثر من اربعين طائرة مختلفة الجنسية قبل ١٩٦٤ ، وفى ٥ يونيو ١٩٦٧ كان باحدى قواعدنا الجوية ، يقضى اجازة بين رفاق السلاح ، ولم يتردد فى الاشتراك مع زملائه فى المعركة الجوية ، وقاد طائرته الميج ٢١ واشتبك مع العدو ، وظل يقود معركته حتى نفذ وقوده وانفجرت به الطائرة .

● وأقمنا معملا لتحليل المعـــادن الخاصة بصناعة الطائرات يضارع أحدث معامل أوروبا ، وقد هـدموه بالبلدوزرات عام ١٩٦٩ ، تقربا من السوفييت ! .

●● سؤال : هل كان للسوفييت كل هذه السطوة ؟!

ـ نعم كانت لهم سطوة ونفوذ الى ما بعد ١٩٦٧ ، حتى انهم كانوا يصدرون الأحكام على الضباط الوطنيين الذين يرفضون الانصياع الى أوامرهم بالابعاد ، أو الاعتقال ، وكثيرا ما قدموا تقاريرهم الى القيادة السياسية العليا ممثلة فى الرئيس الراحل أو المشير عبد الحكيم عامر يتهمون فيها ضباطا فى مراكز قيادية ، بل فى مكتب عبد الناصر نفسه أو مكتب عبد الحكيم عامر ، بالتآمر على التحول الاشتراكى المصرى ، أو التآمر على التعاون السوفييتى المصرى العسكرى ، ويكون لهؤلاء الضباط أو المدنيين وجهة نظر معادية للشيوعية نابعة من تمسكهم بدينهم وليس من المخـــابرات الأمريكية كما يقولون ،

وبعضهم بدافع الغيرة على مصر ومقدراتها ، كأن يعلن وجهة نظره ، فيكون جزاؤه الاعتقال أو المحاكمة أو الطرد من الخدمة !! .

● ولماذا لم يحاولوا معك ، وأنت المعروف بعدائك للشيوعية ، وتحتل منصبا قياديا ؟! .

ـ ومن قال انهم لم يحاولوا معى ... أحد الجنرالات السوفييت حاول دق « أسفين » فى علاقتى مع عبد الناصر وعامر ، جاء وأجرى معى حوارا حول نشاطنا فى تصنيع الموتورات ، وحول تدريب الطيارين الهنود وقد كان لدينا ما يقرب من ٢٠٠ طيار هندى وخبير ، يتدربون لدى قواتنا الجوية ويتعاونون معنا تنفيذا لاتفاقية سرية أجريتها فى الهند مع الرئيس الراحل جواهر لال نهرو وقادته العسكريين ، ومعى سفيرنا السابق فى الهند ، مقاتل المدفعية القديم أحمد حسن الفقى ، واذا بالجنرال الروسى يقول لى :

ـ لماذا لا تنفذ أوامرى ؟ .

ـ لأنك لست قائدى ، ولا أتلقى منك الأوامر ! .

● فعاد يقول : هل تحب أن أجعل المشير عامر يصدر لك هذه الأوامر ؟ .

● وفى غضب قلت له : ليس المشير عامر قائدى .

ـ وما رأيك فى الرئيس ناصر ؟ .

ـ ليس قائدى هو الآخر ! .

ـ من قائدك اذن ؟ .

ـ أنا قائد هذا العمل ، واقوم بتنفيذ ما تمليه على واجباتى نحو بلدى وجيشى ! .

● وقبل أن ينتهى اليوم ، حدثنى المشير عامر تليفونيا ضاحكا قائلا :

ــ اننى أتقبل ما تقوم به وما تقوله عنى لأننى أعلم انهم استفزوك ، ولست بغاضب منك ، ولكن كيف تقول عن عبد الناصر ما قلته للجنرال السوفييتى ، ان الرئيس غاضب ويطلبك حالا للقـــائه ، اذهب فورا اليه وعالج الموقف معه بهدوء .

وذهبت الى عبد الناصر ، ورويت له ما حدث حرفيا ، لم اكذب ولم أخشاه ، وليس معنى ذلك اننى لا أحترمه ولقد رايته دائما يحترم من يحترم كرامته ووظيفته دون زيف و نفاق و لجوء للكذب والتحـــايل ، وكان غاضبا بعض الشىء ، وفى النهاية قال لى :

ــ لقد تفهمت الموقف الآن ، وحاول أن لا تصطدم بهم انك تعرف موقفهم منك ، واننى لن أضحى بك ، ليس مجاملة لك بل لماضيك وأسلوبك فى العمل .

● هل كان عبد الناصر يستمع لوجهة النظر الأخرى او الراى الآخر حتى فى حالات غضبه ؟ .

ــ نعم كان هو هذا الرجل ، وأنا أقول كلمتى صادقة منصفة ، رغم انه هو الذى أمر باعتقالى ، وترك بعض رجاله يدفعوننى الى الموت اهمــــــالا لى بعد عمليتين جراحيتين خطيرتين وفى الوقت نفســــه كنت مصابا بالسكر ، وأسرتى لا تعرف عنى شيئا ! .

ولـكنه مناخ الهزيمة ! .

● وأذكر اننى ذهبت اليه منذ ربع قرن مضى فى يونيو ١٩٥٣ ، حين تقرر اعلان النظام الجمهورى وقلت له : « دعنى أقولها بصراحة أمامك كضابط فى الجيش المصرى ــ لا ــ للنظـــــام الجمهورى ــ على الأقل لفترة طويلة قادمة ــ ولم يغضب ولم يعمل على احالتى للتقاعد ، بل ناقشنى وقال أنه يحترم اعلانى لرأيى بهذا الصدق وهذه

الصراحة ومن يومها كان يشعرنى دائما بمكانتى لديه .

● وفى عام ١٩٦٣ ، واعتقد ان السوفييت كانوا قد بداوا سيطرتهم عليه نفسيا من مدخل حماية التحول الاجتماعى التاريخى الذى يقوده فى مصر والمنطقة باكملها ، كما كانوا قد نجحوا فى ابعاد عدد ليس بقليل من القادة عسكريين ومدنيين عن مواقعهم — تقدمت باقتراح اليه يتضمن وضع خطة اعلامية خاصة لاقامة راى عام بين اعضاء الكونجرس الأمريكى بهدف تأييدنا ، وكانت هذه الخطة ستتكلف مائة الف جنيه فقط ... ولقد رفض الاقتراح ولم يتهمنى بأننى عميل للأمريكان رغم علمه بأننى عدو للشيوعية ، كما انه لم يطلب منى ان اتعاطف او اقترب من اليسار فى أى مكان على الاطلاق .

●

نعود الى صناعة الصواريخ والخبراء الألمان وما جرى لهم معنا ومع المليونير حسن كامل ... ماذا حدث عام ١٩٦٤ ؟ .

— قبل ذلك بعام ، كنا قد سبقنا فرنسا بعامين فى صناعة الطائرات النفاثة والصواريخ ، واهتزت اسرائيل ، واخذت ترسل المواد المتفجرة الى الخبراء لارهابهم وحملهم على العودة لبلادهم ، بدأت اسرائيل بالخبير بيلز ، وكانت سكرتيرته تصر على استلام الرسائل التى ترد اليه دون أن يفتحها رجال الأمن فى مكتبى ، وشرحنا لها خطورة مثل هذا الاجراء ولكنها صممت على تحقيق رغبتها ، فاصابها لغم انفجر مع فتح مظروف أحد هذه الرسائل ، وكان البعض يتلقى الهدايا او الرسائل باليد عن طريق القادمين من الخارج ، دون أن يرسل بها الينا تنفيذا لتوجيهات التامين والحماية .

لقد جمعت ثلاثة كتب أوربية صدرت ما بين ١٩٤٤ و ١٩٦٤ ، تتحدث عن ضرورة مطاردة العلماء الألمان الذين عملوا مع هتلر ، وجاء ذكرى فى بعضها ، بصفتى جامع هؤلاء الخبراء ، ولكنهم لم يتوصلوا الى حقيقة اسمى أو وظيفتى الحقيقية ، وكانت هذه الكتب ترسم خطة التخلص من علماء وقادة هتلر ، الذين بقوا على قيد الحياة حتى الستينات ، وتعاون بعضهم معنا .

●● سمعنا بعد قصة الطرود الناسفة ان بعض الخبراء فر هاربا والبعض بقى ثابتا شجاعا ، الا أن « حسن كامل » طالب بمرتبات مضاعفة لمن بقى منهم فرفضتم طلبه ، وتعاقدتم رأسا مع الخبراء ، مما جعله يعدل عن ارسال التعهدات التى حصل على اثمانها مقدما كقطع الغيار وغيرها من المعدات ، وقد بلغت ستة ارقام من الجنيهات بالعملة الصعبة ، فاقمنا دعوى قضائية ضده فى الخارج ، لم يتقرر مصيرها حتى الآن ، ثم سمعنا أن الرجل المليونير حسن كامل، أوكل أحد المحامين المصريين لكى يتقدم ضدكم ببلاغ فى عام ١٩٧٥ يتهمكم فيه بتعذيب موكله عام ١٩٦٦ ... ما هى الحقيقة ؟ .

ــ حدث هذا فعلا ، وشرحت للنيابة اننى استدرجت الرجل حتى عاد الى القاهرة ، وتناقشنا حسابيا وحفاظا على سمعته العالمية وقع اقرارا بما لديه ، استخدمته الدولة فى الدفاع عن أموالها .

وفى لقاء آخر مع اللواء طيار عصام الدين خليل ، تحدث عن الخبراء الألمان ، والدور العظيم الذى قاموا به تعاونا مع مصر :

ــ فى احدى رحلاتى الى أوروبا تعرفت بخبير المانى من خبراء الأرشيف السياسى فى المانيا النازية كان برفقة

زوجته ، ودعوتهما لزيارة القاهرة بعد أن توطدت صداقتي بهما ، واحسست بحبهما الكبير لمصر وقائدها ، فقدم لي أرشيفا هائلا كان قد استطاع الهرب به قبل نهاية الحرب ، يضم تاريخ كل الشخصيات اليهودية الكبيرة في العالم وتصنيفا لها ، بل ضم هذا الأرشيف الشخصيات المسيحية ذات الأصل اليهودي ومنهم مثلا الرئيس الأسباني الراحل فرانكو ، واخبرت عبد الناصر بقصة هذا الأرشيف فقال انه كان يفكر في اعداد مثبل له ، وان « سامى شرف » حصل على ٦٠ الف من الجنيهات للانفاق على جمع مواده .

وحملت الأرشيف الى الرئيس الراحل ، وبعد انصرافي وجدت سامي شرف في انتظاري ليعاتبني قائلا :

ــ الم يكن من الأوفق ان أمر عليه أولا لمناقشة موضوع هذا الأرشيف قبل أن يعلم به الرئيس عبد الناصر ؟! » .

● واستفزني قوله فقلت له : « عزيزى سامى : هناك من يمر عليك قبلا ، ولست أنا هذا الرجل » .

● ولقد حدثني صلاح نصر تليفونيا وعاتبني عتابا رقيقا ، ولم أهتم بهذه الملاحظات والصراعات الدائرة حولي ، ومضيت في طريقي مع رجالي نحقق المشروعات الطموحة ، ولكن مفاجأة كبرى كانت تنتظرني ، مفاجأة أشبه ببولدوزر ضخم يهدم كل ما حققناه من أعمال ايجابية ، وكانت هذه المفاجأة القاصمة خلف تساؤل الجماهير عن الصواريخ « الظافر والقاهر » وأين كانت في معركة يونيو ١٩٦٧ ؟! .

الفصل الخامس :

تهديد لعبد الناصر بنفيه في يوغسلافيا

★ برلنتى وعبد الحكيم عامر ..

★ من قمة السلطة الى مسرح السجن الحربى ! ..

★ الاتصال السرى باسرائيل عام ١٩٦٦ ..

واتصلت اسرائيل سرا عام ١٩٦٦ بالمشير عبد الحكيم عامر ! ..

فماذا حدث ؟ ..

وكيف جرى الاتصال ؟ ..

وما هو الهدف ؟ ..

كانت المفاجأة القاصمة التى أوقفت صناعة الأسلحة الاستراتيجية المصرية فى عام ١٩٦٥ ، هى الغـــاء اعتماداتها المالية ، أى أنها أصبحت بلا ميزانية ! .

وبدأت أولى مراحل تجميد المشروعات الطموحة ..

ولقد سبق هذه المفاجأة نشاط ضخم بذله عدد كبير من قادة الاتحاد الاشتراكى وطليعة الاشتراكيين كما كان يطلق عليهم — من بين أعضاء التنظيم الطليعى السرى، ومن رئاسة الوزارة ورئاسة الجمهورية ، للكف عن التعاون مع الغرب عسكريا ، والعـــودة الى السلاح السوفييتى ، حرصا على صداقتنا مع موسكو وحليفاتها ، وعلى تطوير حجم التعاون مع الاتحاد السوفييتى ! .

● وبرر أصحاب هذا النشاط ، ممن كانوا يرددون فى الحقيقة أفكار سادتهم فى موسكو ، ويعملون على تطبيق مخطط هؤلاء « السادة » فى القـــاهرة ، برروا وجهة نظرهم بأن دولة مثل المانيا الغربية أو أى دولة غربية أخرى لن تسمح لمصر باقامة صناعة موجهة ضد اسرائيل ، وأن أسرار هذه الصناعة ستصل أولا بأول الى العدو ، فاذا أوقفنا هـــذا العمل سنحت الفرصة امامنا للحصول على مزيد من السلاح السوفييتى المتطور .

وجد هذا الكلام قبولا لدى الرئيس الراحل جمال عبد الناصر بالدرجة الأولى ، ولدى المشير عبد الحكيم عامر أيضا ...

● هناك من برر موقف عبد الحكيم عامر المؤيد لوقف التعاون مع الغرب بأنه كان مرغما على القبول أمام ضغط السوفييت وضغط الرئيس الراحل ! .

● وقال آخرون ممن اقتربوا من القمة أن الرجلين « ناصر وعامر » وقعا فى كمين موسكو خلال هذه المرحلة بالذات ما بين ١٩٦٢ و ١٩٦٦ ، وحين كان عبد الناصر يحاول الافلات من الشباك ، تصل اليه التهديدات غير المباشرة من عامر بابعاده الى يوغوسلافيا وبمعنى أوضح نفيه الى بلغراد ...

ويقال ان عبد الناصر كان يصاب بالخوف حقيقة حين تبلغه هذه التلميحات عن طريق رجال عبد الحكيم عامر ، أو شمس بدران ، لأنه كان على ثقة من جدية هذا التهديد وامكانيات عامر فى تنفيذه وترحيب السوفييت بمثل هذا العمل الذى سيسهل لهم السيطرة الكاملة على قائد مثل « المشير » وتصبح مصر أمامهم مدينة مفتوحة ! .

تعليمات وليست رغبات !

كانت المصانع قد انتجت عددا من الطائرات المصرية النفاثة المقاتلة ـ القاهرة « ٣٠٠ » واذا بقيادة القوات الجوية تلبية لرغبة السوفييت ترفضها بحجة تخلفها الفنى . ودخلت الطائرات التى تكلفت ملايين الجنيهات الى المخازن ! .

● قال لى أحد خبرائنا : حتى هـذا التخلف كان بالامكان معالجته وتشغيل الطائرات بدلا من تكديسها فى المخـازن وكأنها كهنة ... ولـكنها تعليمات السوفييت وليست رغبة السوفييت ! .

● والغريب فى الأمر الذى يستحق أكثر من وقفة بالشـــك والريبة ، اننا نفذنا تعليمات أو توجيهـات السوفييت فى الوقت الذى فقدت فيه القيادة العـامة للقوات المسلحة وقيادة القوات الجوية رأيهـا فى تحديد انواع الأسلحة التى تحتاجها افرع القوات جـوا أو برا او بحرا ، وكانت موسكو ترسل ما يراه خبراؤها فقط من سلاح ! .

● الطائرات المقاتلة أو القاذفة المقـاتلة كلها قصيرة المدى لا تغطى الوصول لأهداف العدو الحيـوية ـ وكل محاولة قمنا بها لزيادة مداها سـتكون بالضرورة على حساب تسليحها ! أى زيادة فى الوقود تنقص من حجم الذخيرة .

● الطائرات القاذفة كانت تملك المدى الطويل ولكنها فى حاجة الى حراسة المقـــاتلات ، ومقاتلاتنا مداها قصير ! .

واذا قامت القـاذفات بالمهام الهجومية دون مقاتلات أمكن اصطيادها بسهولة لحركتها البطيئة ! .

● الصواريخ « سام ٢ » فقط ، وألح قادتنا فى طلب الحصول على صواريخ أرض ـ جو بعيـــدة المدى ، وصواريخ قادرة على التعامل مع الطائرات التى تطير على ارتفاعات بسيطة ، فلم تصل الا عام ١٩٦٩ ، ومع وصول قوات احتلالها العسكرى للقوات المسلحة المصرية ، وهو ما عرف تأدبا بالخبراء السوفييت ! .

● اجهـــزة الرادار التى وصلتنا كانت من معـــدات الحرب العالمية الثانية ، لا تحقق أى نتائج رادارية فى كشف الطائرات التى تطير على ارتفاعات منخفضة ، كما حدث صباح ٥ يونيو ١٩٦٧ ، المشئوم ! .

● قطع الغيار التى كانت تصل بانتظام هى الموجودة لدينا بوفرة لأنها لا تستهلك عادة الا بعد استخدام طويل المدى والزمن ! .

● هذه امثلة من قطاع الطيران ، ومثلهـــا كثير فى القوات البرية والقوات البحرية ، وما حدث بعد ٦٧ ، وبالتحديد فى ١٩٦٩ ، يستحق اكثر من وقفة ! .

● ولكن ثمة تساؤلا يبرز هنا ... لماذا انصعنا هذا الانصياع ابتداء من عام ١٩٦٤ ، وســـلمنا للاتحـــاد الســوفييتى مقدراتنا العسكرية يفعل بها ما يشاء ولنا معه تجربة محفورة فى تاريخ قواتنا المسلحة عام ١٩٥٩ ، وهى التى جعلتنا نتجه للغرب مرة ثانية عام ١٩٦٠ .

● لقد بات واضحا منذ منتصف الستينات وبعد ان زحف اليســـاريون المرتبطون بموسكو نحو مناصب الدولة ومرافقها ، وبعد أن سيطر الفكر اليسارى على القيادة السياسية العليا ، ولا نقل ايمانا أو اعتناقا ، بل سلوكا ظاهرا ، بات واضحا ان الاتحاد السوفييتى يحاول السيطرة على القوات المسلحة المصرية وتشكيلاتها ليحقق سيطرته الكاملة على البـــلاد بعد ذلك مصيرا وقيادة ، يعزل من يشاء ويضع بدلا منه من يشاء من الأعوان والأبواق ... ورغم وضوح هذه الرؤيا وقــدرة أى مواطن صاحب فكر سياسى بسيط على فهم مدلول السيطرة الروسية وامكان تصاعدها ، الا ان القيــادة

العليا السياسية وخلفها القيادة العسكرية تجاهلت هذا كله !! .

● لماذا .. ؟ بل عشرات « لماذا » ؟ .

وتبقى « لماذا » هذه تتردد باستمرار طوال ما بعد نكسة يونيو ١٩٦٧ ، ويرتفع صداها ليصل الى كل مكان ويستمر هذا الموقف — وهو ما سنعود اليه فى نهاية هذا الكتاب — يستمر الى ما بعد وفاة عبد الناصر — حتى خروج قوات الاحتلال السوفييتى ، قبل نهاية ١٩٧٢ ! .

مطلوب للذبح .. !

نعود الى حديث الصواريخ الاستراتيجية ، وما حدث لها من الغاء ميزانيتها المالية عام ١٩٦٥ ، وقائد هذه المشاريع حتى أغسطس ١٩٦٧ ، اللواء متقاعد طيار عصام الدين محمود خليل ...

● قال لى الرجل وهو يستعيد أحداث الستينات :

— لم نتوقف وأخذنا نعمل بما نملكه من فائض فى الاعتمادات القديمة ، بأمل أن نسترد امكانياتنا السابقة، ولم يكن أحد ليصدق أن مثل هذه الصناعات يمكن أن تلقى بها خلفك وكأنك تلقى بصحيفة فرغت من قراءتها ... دفعت فيها قبلا ملايين الجنيهات !

●● وذات يوم دعانى المشير عامر لأرافقه فى رحلة الى موسكو ، وكان معنا المرحوم الفريق أول سليمان عزت قائد البحرية وعدد من القادة ... ولم أعرف اننى مطلوب « للذبح » فى روسيا الا بعد أن طلب منى المشير عامر أن أحضر اجتماعا مع السوفييت سيرأسه نائب

رئيس الوزراء للعلاقات الخارجية « سيمون سكاتشكوفك » .

وذهبت الى الاجتماع وفوجئت بأننى وحدى دون الوفد المصرى ، بين ما يقرب من ستة أشخاص من المسئولين السوفييت عسكريين ومدنيين ورئيسهم « سيمون » .

وقال لى رئيس المؤتمر : نريد أن نناقشك .

قلت : تفضلوا .

وتكلموا عن الصواريخ السوفييتية وجدواها ثم سألنى أحدهم :

ـ لماذا تقوم بصناعة الصواريخ المصرية ونحن نمدكم بصواريخنا ؟ .

● قلت له : سأتجاوز عما تجاوزه السؤال ، وسأقول لك انها سياسة مصرية ، وخطة مصرية تعد فى القاهرة ، وليس فى موسكو .

عاد رئيسهم يقول : والطائرات ... أنت تقود صناعة طائرات مصرية جديدة .. لماذا ؟ .

● وعدت اكرر اجابتى الأولى عليهم .

وارتسمت علامات الغيظ والغضب على وجه رئيس المؤتمر ، وتكلم دون أن يسيطر على انفعالاته قائلا :

ـ لقد حصلت على قطع غيار من مصانع غرب أوروبا لطائراتنا السوفييتية ، وهذا عمل غير مشروع وغير قانونى ... ماذا تقول فى ذلك ؟ .

● وقلت له : سأشرح لك شيئا ربما تجهله ، سأشرح لك الفرق بين الطيران المدنى والطيران العسكرى ..

ان الطائرات العسكرية ليست دولية ولا تلتزم الا بقوانين قواتها المسلحة ، عكس الطائرة المدنية الملتزمة باتفاقية دولية ، ومن هنا ستجدنى أفعل فى أى طائرة تملكها قواتى المسلحة ، قواتى المصرية ، ما نشاء من تعديلات وتطويرات وفق مصالحنا نحن .

ثم اسمحوا لى بسؤال ... لماذا هذا الحوار الآن عن عمليات قمت بها منذ ست أو سبع سنوات مضت ؟ الم يكن باستطاعتكم الاستفسار عن هذا الأمر فى حينه ؟! .

● ودفنوا وجوههم فى الملفات المفتوحة أمامهم ، ولاحظت ملامح الانفجار فى نظراتهم ، واذا « بالسيد سيمون » يقول صارخا باللغة الانجليزية :

ـ لقد سرقت رجالنا ، سرقت خبراءنا كيف سمحت لنفسك بأن تفعل هذا ؟ .

● وللحقيقة لم أغضب كرد فعل ، بل كتمت ضحكة كادت تفلت منى ، وفى أقل من ثانية سيطرت على حواسى ، وقلت لكاتب الجلسة وأنا أقف غاضبا والكلمات تنطلق من فمى كالقذائف :

ـ سجل هذا باللغة الروسية وباللغة الانجليزية فى محضر الاجتماع لكى استطيع محاسبة السيد سيمون لدى رؤسائه على ما فعله اليوم معى :

ـ كيف تتهمنى بالسرقة ؟ وكيف تصف رجالا من علماء ألمانيا بأنهم رجالكم ؟ هل كانوا أسرى لديكم ؟! لن أسمح لك بذلك ، انتهى الاجتماع يا سيد سيمون .

● وغادرت الحجرة ، وهم فى حيرة وارتباك شديد ،

وذهبت الى المشير عامر أروى له ما حدث ، فضحك قائلا :

ـ « انهم لن ينسوا لك أبدا ما فعلت ، ولقد تركتك وحدك لهم ، لعل نار غيظهم تهدأ قليلا بعد أن ضقت بالحديث عن هذه العملية طوال سبع سنوات ، وأنا استمع الى هذه القصة فى كل لقاء معهم » .

●

ذهبت الى حجرتى طلبا للنوم ، وقد أيقنت أننى أنطح راسى فى الصخر ، وأن مشروعاتى الطموحة من أجل قواتنا المسلحة قد اصبح عليها السلام ، وأن مصر كما كان لها سادة يحتلون ارضها فى الأربعينات من الانجليز ، اصبح لها سادة جدد فى الستينات من السوفييت .

ولم انم ليلتها كمدا وغيظا .

برلنتى تلخص الكتب !

وعدنا الى القاهرة ، وقبل أن ينتهى عام ١٩٦٦ ، كان صاحب الرؤيا الواعية يستطيع أن يرى بوضوح أن التسوس أصاب القيادات العليا كلها ! .

● اسمح لى بسؤال : الم يكن المرحوم المشير عامر فى تلك الفترة ، قد تزوج من «الممثلة برلنتى عبد الحميد» سرا ؟ .

ـ نعم حدث ذلك ، ولقد دعانى أكثر من مرة لتناول العشاء معهما فى بيتهما بالهرم ، ثم أجده يسألنى على انفراد ما رأيك فيها ؟ .

ولم يكن ينتظر اجابتى ، فيجيب على سؤاله قائلا : اليست أكثر من رائعة ؟! .

لقد فتن بها ، والمرحوم المشير عبد الحكيم عامر لم يكن له حياة خاصة فى شبابه ، ولذلك عندما التقى بها كانت بالنسبة له كالبحر حين يسبح قارب صغير فوقه ... وسأروى لك قصة قصيرة لترى كيف امتلكته عقليا وعاطفيا ...

كان يستعد للسفر الى فرنسا ، ولقاء القادة الفرنسيين سياسيين وعسكريين ، وعلى رأسهم جنرال ديجول ، والتقيت به ليحدثنى عن الرحلة ، ويطلب منى أن أستعد للسفر معه فوجدت بين يديه ست أو سبع ورقات من حجم الفولسكاب يقرأ فيها باهتمام شديد ، واستفسرت منه ... ما هذا ؟ فقال لى بصراحته المعروفة عنه بين أصدقائه :

ـ « كل ورقة هى ملخص لكتاب هام عن فرنسا ، أصدره واحد من مشاهير الكتاب الفرنسيين ، « برلنتى » لخصتهم من أجلى حتى أتحدث فى هذه الكتب ، حين التقى بديجول أو غيره ، فأبدو قارئا جيدا للكتب الفرنسية المميزة ! »» .

● اسمح لى بتعليق : لقد روى لى السيد محمد رشاد محمود وهو من كبار المسئولين بوزارة الانتاج الحربى قبل الغائها واحالته الى المعاش ، روى لى هذه القصة قبل مرحلة المعاش ...

كانت الفنانة برلنتى عبد الحميد تستقل سيارة برفقة صلاح نصر مدير المخابرات العامة ـ فى طريقهما من الاسكندرية للقاهرة ليلا ـ وعند الكيلو ١٠ بالقرب من مينا هاوس توقفت برلنتى أمام فيللا مضاءة وأبدت اعجابها بها ثم طلبت من صلاح نصر أن يدخل معها لمشاهدة الفيللا من الداخل والتعرف بأصحابها » ..

ودخلا ... وعرفا أن صاحب الفيللا هو الدكتور زهير جرانة الوزير السابق فى بداية الثورة والمحامى المعروف ــ وبعد أيام قليلة فرضت الحراسة على الدكتور جرانة ، واكتشف مندوبو مكتب المشير عامر الذين رافقوا رجال الحراسة لاستلام الفيللا ، أن الدكتور جرانة يملك حديقة الفيللا فقط بينما الفيللا ملك للسيدة زوجته ، فعادوا ليستصدروا فى اليوم التالى قرارا بفرض الحراسة على السيدة زوجة الدكتور جرانة وأولادها أيضا ــ وأخليت الفيللا اجباريا ... وجاءت الفنانة برلنتى عبد الحميد زوجة المشير عامر لتسكن بها ، أقصد لتقضى بها بعض الوقت ، فكما هو معروف كانت تملك السكنى فى أكثر من شقة وفيللا فى أنحاء البلاد ... » .

ما رأيك ... فى هذه القصة ... واحدة من قصص برلنتى عبد الحميد ، وفى الجعبـــــــــة قصص أخرى كثيرة ؟! .

● واطرق الطيار عصام الدين خليل صامتا .. ثم رفع راسه وقال فى ثقـــة : الحمد لله لم اغادر فيللا المرحوم أبى التى يملكها منذ العشرينات ، تزوجت بهـا وظللت أعيش فيها حتى اليوم دون أن ادخل عليها أى اضافات أو تعديل ... وقد كان ذلك سهلا وبمقدورى قبل ١٩٦٧ .

● عدت أقول له : لقد سمعت قصة ترددت على نطاق ضيق جدا بعد نكسة ٦٧ وبعد القبض عليك ــ ولا أدرى صحة هذه القصة .. ؟ سمعت أن اسرائيل اتصلت بالمرحــوم عبد الحكيم عامر سرا ، ولعبت أنت دورا فى هذا الاتصال وانها أى اسرائيل عرضت بعض الاقتراحات للحيلولة بين قيام حرب جديدة ، وانها طرحت

بعض التحذيرات ... حدث هذا عام ١٩٦٦ ... ما هى حقيقة هذه القصة ؟ ..

ـ لقد وقعت بالفعل فى نهاية عام ١٩٦٦ ، وكنا فى فرنسا ، نمثل وفدا عسكريا برئاسة المرحوم المشير عبد الحكيم عامر ، وكنت عضوا بالوفد ـ وذات مساء ونحن نتناول العشاء بفندق « كريون » اتصل بى ممثل لاسرائيل عن طريق بعض الوسطاء والتقينا لأول مرة فى بار الفندق ، ولم يكن فى حراستى غير « متولى » حارس المشير ، وكنت أنقل أولا بأول ما يدور بينى وبين ممثل اسرائيل الى المشير عبد الحكيم عامر ، واستمرت الاتصالات الى الأشهر الأولى من عام ١٩٦٧ ، ثم توقفت تنفيذا لرغبة وقرار الرئيس الراحل .

● لماذا اختاروك انت بالذات ، والى ماذا كانوا يهدفون ، ومن هو ممثل اسرائيل الذى تحدث اليك ؟ .

ـ لقد سألتهم الجزء الأول من سؤالك ... لماذا وقع اختياركم « على » بالتحديد .. ؟ .

● قالوا : لأننا نعلم أن احدا من قادة مصر لن يشك أو يرتاب فى صدق ما تنقله اليهم ، وبالتالى لن يتبادر اليه أدنى شك فى عدم جدوى التأثير عليك أو تجنيدك لحسابنا ، أما من هو مندوب اسرائيل ، فقد كان أحد قادة مخابراتهم ، وكان معروفا لدى أجهزتنا خلال تلك المرحلة .. ثم نصل الى هدفهم ...

لقد اقترحوا ايجاد وسيلة للاتصال التليفونى بين القاهرة وتل أبيب بين المستويات العليا من القيادة هنا وهناك ، لأنهم توقعوا على حد تعبيرهم أن السوفييت سيدفعوننا الى شن هجوم مسلح عليهم وانهم لن يقفوا صامتين ، ولكنهم ضد مواجهة بالسلاح معنا الآن ، وليس

ذلك خوفا منهم أو عجزا ،ولكنها محاولة اسرائيليةلتأجيل جولة جديدة بين مصر واسرائيل لا تريدها الحكومة الاسرائيلية ! .

وكلام كثير حول هذا المعنى ، وقد حرصوا على ان يشعروننا بأنهم يتكلمون من مركز قوة حتى لا يتبادر الى اذهاننا انهم يخشون قوة مصر او هزيمتهم فى جولة جديدة ! .

غير أن الرئيس الراحل جمال عبد الناصر لم يقتنع بهذه الوسائل ، وجدواها اذا التقينا معهم فى نصف الطريق ، وكان المشير عامر متأرجحا ، غير حاسم فى اتخاذ قرار لا يملكه ، وقال عبد الناصر فى النهاية لابد من ضربة ردع لاسرائيل ، والمناخ أيامهـا يسمح بتصور ذلك ، وللحقيقة كان حوله من ذكر صراحة اننا غير مستعدين عمليا لتوجيه ضربة ردع لاسرائيل ، ومواجهة احتمالات تصاعدها وكنت واحدا ممن ردد هذا الكلام أمامه حتى الأيام الأخيرة من مايو ١٩٦٧ ! .

● يبقى تساؤل جماهيرى هام .. لماذا لم تستخدم الصواريخ « الظافر أو القاهر » فى يونيو ١٩٦٧ ؟ .

ــ هذه الصواريخ هى أجسام ، ومادة كيمائية تمثل الوقود ، وأجهزة توجيه الكترونية داخل جسم الصاروخ ... ولقد أجريت التجارب الأولى بأجهـــزة توجيه الكترونية مستوردة من الخارج وبصعوبة شديدة وثمن فادح ، وكان علينا تصنيعها فى بلادنا ... وذلك يتطلب جهدا ضخما لم ينقصنا والحمد لله ولكنها الميزانية التى تجمدت منذ ١٩٦٥ بتعليمات السوفييت وبالتالى تجميد كل مشاريعنا فضلا على محاولات الاستفزاز والسيطرة التى واجهناها من مراكز القوى التى سقطت فى مايو

١٩٧١ ، ممثلة فى « على صبرى » ورجاله امثـــال عبد المجيد فريد وأحمد شهيب اللذين اخذا على عاتقهما مهمة سيطرة الاتحاد الاشتراكى على مصانع الطـائرات والصواريخ ، ووجدت اقبالا من عدد ليس بقليل على الاشتغال بالعمل السياسى ، وليس الحربى ، فأصدرت قرارا بالغاء نشاط الاتحاد الاشتراكى تماما فى المصانع ، وابعدت « ٦٠ » من العمال والفنيين إلى أعمال اخرى ، ودخلت فى صراع من جانب واحد يقوده على صبرى ، وشرحت للرئيس الراحل ان نصف ساعة تفرغ للعمل السياسى فى مصانعنا تكلفنا ربع مليون جنيه ، ولـكن عبد الناصر لم يأخذ جانبى !! .

ويهمنى أن أقول أن صناعة الصواريخ الاستراتيجية كالظافر والقـــــاهر والرائد ، لم تكن موقوتة عندى بيونيو ١٩٦٧ ، لكى أكون جاهزا للمعركة .

ولقد صدرت بعد النكسة كتب اسرائيلية كثيرة تحدث بعضها عن هذه الصواريخ ، وروت حكايات قد يصدقها بعض السذج مثل حكاية الجاسوس الذى أفسد هـذه الصواريخ التى لم تعمل فى جولة ٦٧ ، وحكايات كثيرة اخرى ، يفهمها رجال المخـــابرات المحترفين كأساليب معروفة من الحرب النفسية المضادة لنا ، وخدمة أسطورة « الاسرائيلى السوبر مان » بين شعوب العالم .

نهاية الصراع !

● ماذا كان دورك فى جولة يونيو ١٩٦٧ ،العسكرية ، والصراع بين الرئيس الراحل والمرحوم المشير عبد الحكيم عامر ، الذى قيل انه انتهى بنهاية الأخير .. وقد كنت

أنت قريبا جدا من القمتين ، الرجل الأول .. والرجل الاول مكرر ... كما كان بعض ممثلى الصحافة العالمية يطلقون عليهما ...

● ومتى ... وكيف اعتقلت بعد النكسة ؟ .

●●

● وتكلم الرجل .. وفتح قلبه كما قال لى لأول مرة يروى كيف انحسرت عنه الأضواء ، وكيف قادوه من مسرح السلطة الى مسرح السجن الحربى ! .

الفصل السادس :

عقاب للطائرات المصرية

★ المطب الذى وقع فيه السوفييت أمام عبد الناصر !

★ آخر ما قام به الروس فى مصر قبـل اخـراج الخبراء السوفييت عام ١٩٧٢ .

لقد أوقعوا العقاب على الطائرات المصرية لأنها اشتركت فى الدفاع عن السودان الشقيق عام ١٩٧١ ، ومن قبل أكد الطيارون السوفييت عدم كفاءتهم الحربية فى أعوام ١٩٦٣ و ١٩٦٦ و ١٩٦٩ ... ولنضع عدة خطوط تحت عام ١٩٦٦ بالتحديد .

وجاء رئيس الأركان السوفييتى الى القاهرة وارتكب زلة لسان نتوقف عندها قليلا ..

وفى النهاية خسر المدعى العسكرى المصرى منصبه دفاعا عن « شرف القاضى » .. !

ـ قبل نهاية ١٩٥٦ ، كنت قد قدمت مشروعا الى القيادة العامة للقوات المسلحة ، أعتقد انه بين وثائق القيادة حتى اليوم ، يتضمن ضرورة انشاء مخابىء للطائرات بمصاعد خاصة الى الممرات ، وكان المشروع يتكلف مليونا من الجنيهات ، وظل يمنى بالتأجيل حتى ارتفعت الأسعار العالمية ، وأصبح مطلوبا خمسة ملايين جنيهات لتنفيذ هذا المشروع ، الذى دخل ملفات الحفظ ! .

وفى يونيو ١٩٦٧ ، قامت من مصانع الطائرات ، تحت اشرافى ، عربات اصلاح متنقلة أشبه بورش كاملة، وقمنا باصلاح الطائرات المصابة بمنطقة القناة والماظة ، وأسهمنا فى نفس الوقت فى اقامة مخابىء جديدة للطائرات الباقية لدينا والتى وصلت كنجدة الينا ، وكان عملا رائعا فى وقت قياسى تحت قيادة الفريق طيار « مدكور أبو العز » الذى تسلم قيادة قواتنا الجوية بعد النكسة مباشرة ... وبعدها صدر قرار احالتى الى التقاعد .

● سؤال : لقد حدث تغيير فى منصب رئيس أركان القوات الجوية قبل يونيو ١٩٦٧ بشهرين أو أقل ...

حيث أحيل « الفريق طيار عادل حافظ » الى التقاعد ، وجاءوا «بالفريق طيار جمال عفيفى» وكان رئيسا لشركة مصر للطيران ، بعيدا عن القـــوات الجوية لفترة طويلة وشغل المنصب العسكرى ... وقيل كلام كثير عنـــد محاكمة قادة الطيران ، ومن بين ما سمعناه أن « الفريق جمال عفيفى » كان قد تزوج السيدة « زيزى نيازى » شقيقة السيدة « أمينة » حرم المرحوم جمال سالم ، وانها لعبت دورا بواسطة جمال سالم ليشغل زوجهـــا منصب رئيس أركان الطيران ، وان هذا الدور كان خلف تبرئته فى محاكمات قادة القوات الجوية بعد نكسة ١٩٦٧ ، حيث ظهر انه لم يكن يعلم شيئا ولم يفعل بالتالى شيئا .. ما رايك ؟ .

ـ هذا حدث فعلا ولكنه كان عاملا فرعيـــا فى وقوع الهزيمة ، المناخ هو الأساس ، ومن خلال المناخ أحالوا « عادل حافظ » الى التقاعد ، ومن خلال المناخ أيضا والعلاقات الخاصة الطـــارئة والمتجددة ، اسندوا الى « جمال عفيفى » المنصب ... ولا أدرى اذا كانت هناك عوامل خارجية كالضغط السياسى مثلا خلف هذا الذى حدث ! .

● قبل أن نعود الى ما وقع لك عام ٦٧ ، اسمح لى بسؤال حول « المرحوم عميد طيار محمد أيوب » مدير مكتب المشير عبد الحكيم عامر للطيران ... لقد قيل انه انتحر ، وقيل انه قتل مثل المشير ... ما رايك ؟ .

ـ رايى انه قتل بعد صدور قرار الاتهام حتى تبدو الجريمة وكأنها انتحار ، والذين يعرفون المرحوم محمد أيوب يؤكدون انه رجل لا يقدم على الانتحار ، لقد كان

لديه الكثير ليقوله أمام المحكمة وقد مات بحقنة خاصة في الوريد لكي يسكت الى الأبد .

● تردد ايضا انك كنت تقوم بشراء « السم » لبعض القـادة حتى يونيو ١٩٦٧ ، من حساب الاعتمادات المفتوحة لك والخاصة بمشتريات مصانع الطائرات ، وقد جاء في الصفحة « رقم ٤ » من القرار الذى أصدره اللواء عبد الرزاق حجازى المدعى العسكرى العام فى ٢ اكتوبر عام ١٩٦٨ ، والذى انتهى فيه بانه لا وجه لاقامة الدعوى ضـدك ، جاء فى شهادة « المهندس ابراهيم ضياء الدين طه » رئيس الهيئة المصرية العامة للطيران ، ان جهات أخرى مثل القوات الجـوية والمخابرات العامة والقيادة العامة تقـوم بطلب خدمات خاصة ونصدق عليها ، وتقوم انت باخطار الهيئة بما تنفقه على هـذه المطلوبات والفواتير المؤيدة لها ... الم يكن بينها « صفقات سم » مثلا !؟ .

ــ لم يحدث ، وطبيعة تكوينى وتربيتى ترفض ذلك تماما وترفض القسوة فى كل اشكالها ، وهذا ما يعرفه عنى زملاء كثيرون منذ الأربعينات حتى اليوم .. لقـد قمت بشراء أجهزة علمية والكترونية دقيقة وكل ما قمت بشرائه مدعوما بالفواتير والمستندات ، ويؤيد كلامى هذا قرار المدعى العسكرى العام وتوقيت صدوره فى فترة تولى الفـريق أول محمد فوزى وزارة الحربية بعد النكسة ، ولقد دفع المدعى العسكرى وظيفته ثمنا لصدور هذا القرار الذى أصر عليـه كقاض لا يفرط فى سمعته على الاطلاق مهما كانت الضغوط والمغريات .

ولست فى حاجة الى ان اقول لك ان الفريق أول

متقاعد محمد فوزى هو الذى طلب اقامة الدعوى ضدى ، واغلب قراراته كانت باملاء السوفييت .

بعد ان تولى وزارة الحربية مباشرة فى ١١ يونيو ١٩٦٧ ، اصدر أوامره بالغاء طائرات التدريب المصنوعة محليا وكانت بمحركين ، جمد « ٦٤ » طائرة وأدخلها المخازن ، لتحل محلها طائرات تدريب تشيكية الصنع « ل ٢٩ » وتعمل بمحرك واحد !! .

لماذا .. ؟ ان لم يكن لصالح السوفييت وتنفيذا لسياستهم ؟! .

وسأروى لك قصة قصيرة ، لأدلل بها على نفوذ السوفييت ، ليس قبل النكسة بل بعدها ، فقد زارنى زميل من ضباط الطيران ، هو فى الخدمة حتى الآن ، وقال لى انه التقى بأحد الجنرالات السوفييت ودار الحديث حولى فقال الخبير الروسى :

ـ « جنرال عصام هذا لابد أن يدخل السجن ولابد أن يقضى به عدة سنوات طويلة » .

وبعد أيام طبقوا ما قاله الجنرال السوفييتى وقضيت ست سنوات ما بين اعتقال وتحديد اقامة ! .

●

●● عزيزى القارىء .. ترى هل أمسكنا ببعض خيوط الحقيقة ؟ .

ليس الفشل الأول !

هؤلاء هم الأصدقاء السوفييت وما فعلوه بالقوات المسلحة المصرية ! .

واستطرد الطيار عصام خليل قائلا :

ـ « وللتاريخ اريد أن أذكر شيئا ، ان الفشل الذى أصاب طيــاريهم عام ١٩٦٩ فى حرب الاستنزاف حين صمد خمسة من ضباطهم الطيــارين لملاقاة الطيــارين الاسرائيليين فى معــــركة اعتراضية انتهت بسقوط السوفييت جميعا ، لم يكن للمرة الأولى ، لقد تكرر قبل ذلك فى نهاية عام ١٩٦٦ ، ويومها أرادوا أن يلصقوا « خيبتهم » بالدفاع الجوى المصرى ، وحاولوا الحصول على شهادة كاذبة من أحد قادة قواتنا الجوية فى حرب رمضان ، ورفض الرجل وتعرض لضغوط وارهاب ولكنه لم يلن ولم يتراجع ... وهو الفريق طيار المرحوم محمود شاكر عبد المنعم قائد الطيران المصرى السابق »[1] .

● قلت له :

● نعود الى فترة القبض عليك ... هل صحيح انك قمت بنشاط ما لحساب المرحوم عبد الحكيم عامر حتى يعود الى منصبه ما قبل يونيو ١٩٦٧ ؟ .

ـ لم يحدث ولكن ما ذكرته له قصة أخرى سأرويها لك ، فبعد احالتى الى التقاعد قررت أن أبقى بعيدا عن الصراع الدائر بين عبد الناصر وعامر ، ولكن عامرا طلب منى ان أبحث له عن مكان يقضى فيه عدة أيام بعيدا عن بيته وهربا من زيارات الضبـاط المستمرة له ليل نهار ، فاقترحت وهذا حدث تليفونيا أن يستخدم شقة ابنتى التى استأجرتها لهـا من « التاجر عبد الحميد سرى » بالزمالك ولم تكن « ابنتى » قد زفت الى عريسها بعد ، فوافق على اقتراحى ، ثم سافرت الى كفر الشيخ ، وبعد أيام اتصل بى تليفونيا وقال لى :

ـ اين انت ؟ .
ـ اننى ارتاح هنا بعيدا عن القاهرة .
ـ ولماذا لم تنفذ الموضوع الثانى ، واكتفيت بالموضوع الأول ؟ .
ـ أى موضوع « ثانى » وأى موضوع « أول » ؟! .
ـ لا داعى الآن للحديث ، دعنى أراك هنــــا فى القاهرة .

● ولم افهم شيئا ولكنى ارتبت فى حديث عبد الحكيم عامر ورأيت أن ابتعد أكثر فأخذت « زوجتى وبناتى » الى سيدى عبد الرحمن بالصحراء الغربية ... حيث جاء رجال الأمن وطلبوا منى العــــودة برفقتهم الى القاهرة ، ولقد عدت أقود أمامهم سيارتى ... وفى السجن الحربى زارنى الفريق أول متقاعد محمد احمد صادق وكان مديرا للمخـابرات الحربية وبرفقته اللواء مختار صالح مساعده ، ووجدته يسألنى تفسيرا لمكالمة عبد الحكيم عامر التليفونية ، وسر الموضـوع « الأول والثانى » الذى اشار اليه ! .

وشرحت له حقيقة ما أعرفه وغموض هذه القصة لدى حتى هذه الساعة ، فجاء بجلال هريدى قائد الصاعقة سابقا ، وكان نزيلا بالسجن الحربى أيضا لمواجهتى ..

وقال جلال هريدى : ان المشير عامر غضب حين علم بأن اللواء عصام سافر وترك القاهرة خلفه ، فأراد ان يورطه بهذه المكالمة لعـلمه بأن جميع أجهزة التليفونات تحت الرقابة .

●

وأعود الى اوراقى ...

لقد كانت الصورة داخل مختلف المناصب القيـادية

العسكرية المصرية شديدة القتامة ، ليس نتيجة الهزيمة في ٦٧ ، بل قبل ذلك بفترة طويلة ، ويمكننا القول بأن البداية كانت فى ١٩٦٣ ، بعد عدة أشهر من ارسال قواتنا المسلحة الى أرض اليمن فى نهاية ١٩٦٢ ، صورة قاتمة سوداء ، استمر وجودها الى ما بعد النكسة ، وقد حرصت القيادة السياسية والعسكرية على اخفائها جيدا عن جماهير الشعب ... ولكن الشعب كان يشعر ويعرف ، ويشم رائحة الفساد ! .

● وجاء عام ١٩٦٤ ، وقد استطاع السوفييت بمعونة القيادات السياسية والعسكرية فى مصر ابعاد أكبر عدد من العناصر العسكرية المصرية الشريفة عن مناصبها القيادية ، البعض كما قلت دخل السجن بعد اعتقال وتحقيق ، ومؤامرات وهمية لقلب نظام الحكم لأنهم فى الحقيقة عارضوا التحول الخطير فى قيادة البلاد ، أو اعترضوا على ما نقوم به فوق أرض اليمن، أو وقفوا سدا منيعا أمام رغبات الخبراء السوفييت ، أو كشفوا عن صفقات مالية تفوح منها رائحة فاسدة ، وكان الفريق مدكور ابو العز رئيس أركان القوات الجوية واحدا ممن أبعدوا عن القوات المسلحة الى الحكم المحلى محافظا لأسوان ، انه حالة من هذه الحالات ! .

● واستمرت سياسة التنكيل بالضباط الشرفاء ما بين اعتقال واحالة الى التقاعد حتى يناير عام ١٩٦٧ ، فى تصاعد غريب ، بينما بعض ضباط مكتب عبد الحكيم عامر يعملون فى التجارة بكل شيء ، ويستوردون من اليمن فى الطائرات الحربية كل ما تعرضه الأسواق اليمنية لبيعه فى القاهرة عن طريق صغار الضباط ، الذين تحولوا الى مندوبى مبيعات ، وكان على رأس المكتب

من هؤلاء الضباط « العقيد على شفيق » سكرتير عبد الحكيم عامر الخاص ، وضابط آخر من تحت السلاح حمل رتبة مقدم وهو « عبد المنعم أبوزيد » من الجنود الذين انضموا الى مجموعة حراسة الصاغ عبد الحكيم عامر فى بداية الثورة ، واستطاع أن يصل الى قلب وغرائز الرجل بسهولة ، وحين حصل «أبوزيد» على رتبة « المقدم » ولم يكن بوسعه الحصول على ترقيات اخرى أكثر من ذلك بصفته من ضباط تحت السلاح ، أى ممن لم يتخرجوا فى الكلية الحربية ، أصدر المشير عبد الحكيم عامر قرارا باحالته آلى المعاش ، ثم تعيينه فى وزارة الانتاج الحربى بدرجة « مدير عام » مع ندبه لمكتب المشير بعد ذلك ... ولكن رائحة « عبد المنعم ابوزيد » زكمت الأنوف ، وتحدثت قطاعات كبيرة عديدة من الشعب حوله وحول « على شفيق » قائده ، وكان الاثنان قد تزوجا سيدتين من أهل الفن ، أحداهما ارسلوا بزوجها الى مستشفى خاص للأمراض العصبية ، وحصلوا لها على حكم بالطلاق لمرض زوجها ، ثم تزوجها عبد المنعم أبوزيد ، وكان هذا الزوج هو الكاتب السينمائى المرحوم محمد كامل حسن ، الذى غادر البلاد مقابل اخراجه من مستشفى بهمان للأمراض العصبية ومات فى عام ١٩٧٩ بعد عودته للقاهرة والى زوجته الأولى ، القديمة ، وكانت الزوجة الثانية هى الممثلة سهير فخرى ! .

● وامام ضغط المعاومات التى أخذ الرئيس الراحل جمال عبد الناصر يقدمها للمشير عامر حول فساد ضباط مكتبه ماليا وسياسيا ، اضطر عامر الى تقديم هؤلاء الضباط الى المحاكمة العسكرية ، وتكونت محكمة عسكرية

برئاسة الفريق أول محمد احمد صادق ، وكان برتبة لواء في تلك الأيام ويشغل منصب مدير المخـــابرات الحربية ، وتسرب الخبر الى الاذاعة السعودية ، وقيل ايامهـا ان رئيس المحـكمة هو الذى سرب الخبر بحسن نية نتيجة علاقاته مع بعض القادة السعوديين ، فاضطرت القيادة فى القـاهرة الى اعلان القصة صحفيا ، ولكن الأحكام فى النهـــاية خضعت الى تعديلات القيادتين السياسية والعسكرية ، اذ تقرر الاكتفاء باحالة « على شفيق » للتقاعد لأنه من الضباط الأحرار الذين لا يحاكمون اطلاقا ، أقصـــد لا تصيبهم « الادانة » الا فى حالة الاشتراك فى جريمة قلب نظام الحكم فقط ، وما عداها من جرائم فهم فـوق العقـاب ، وتحمل « عبد المنعم ابوزيد » قيادة الجريمة بأكملها ، وعدد آخر من صغار الضباط والمساعدين غير المعـــروفين ممن كانوا يعملون كمندوبى مبيعـات ! وقد حوكموا بتهمة تهريب الذهب لحسابهم وحساب بعض التجـــار ممن تربطهم صلات مالية مريبة وطبيعية بضباط المشير ! .

حادثان عام ١٩٦٣

لقد قصدت من سرد قصة « على شفيق وعبد المنعم ابوزيد » أن أعرض « نموذجين » من مئات النماذج التى أرست الفساد في القيادة العسكرية ، وحققت المناخ الذى انتهى بهزيمة يونيو ١٩٦٧ ... هذا المناخ استغله السوفييت أبرع استغلال وسط غيبة عشرات الضـباط القياديين فى رحلات مستمرة طوال العام يطوفون اوروبا للترفيه وشراء أحدث انتاج المصانع العالمية لبيوتهم ..

كان هناك مثلا احد الضباط مكلفا بشراء « الكريز » من أوروبا مرتين كل شـــهر بتكليف من شمس بدران وزير الحربية المدلل ، واحد اركان الفســاد العســكرى فى مصر ! .

● ماذا قام به السوفييت فوق هذه البيئة ، او هذا المناخ العسكرى فى مصر ؟ .

ارسلوا فى البداية أساتذة التكتيك السياسى والسيطرة بدلا من مئات الخبراء العسكريين أساتذة فنون القتال جوا أو برا أو بحرا ، وكانوا يرسلون بالخبراء غير الأكفاء لمثل هذه المهـــام ، واسوق هذه القصة للتدليل على ما أقوله ...

لقد وقع حادثان لطائرتين من طائرات « الأنتينوف » المخصصة للنقل ، كان يقودهمـــــا طياران روسيان عام ١٩٦٣ ، وكان الطياران الروسيان يدربان طيـــارين مصريين ، واجرى تحقيق فني أشرف عليه « الفريق طيار مدكور أبو العز » رئيس أركان الطيران والدفاع الجوى فى تلك الأيام لتحديد المسئولية خاصة وأن الطيارين السوفييت أو المصريين لم يصـــابوا الا بجروح بسيطة وثبت أن هؤلاء المدربين أو الخبراء من مستوى ضعيف لا يتفق والمهمة الموكولة اليهم ، وأثيرت هذه القضية فى لقاء الفريق أبو العز والجنرال استافستكى نائب قائد الدفاع الجوى السوفييتى فى منتصف عام ١٩٦٧) بعد عودة أبو العز الى القوات الجوية على أثر هزيمة يونيو ، وقبل أن يصمم السوفييت ويؤيدهم الفريق أول محمد فوزى وزير الحربية أيامها على ابعاده نهائيا عن الطيران المصرى فى نهاية العام نفسه ١٩٦٧ ، ويوافق عبد الناصر

في النهاية على هذا القـــــرار ... ودفن الموضـوع سرا !! .

● في هذا اللقاء الذى دار بالقاهرة بعد هزيمة يونيو ١٩٦٧ ، وحضره «المارشال زخاروف» رئيس أركان حرب القوات السوفييتية سابقا ، وكان قد جاء على رأس وفد عسكرى يمثل بلاده لمعاينة ما حدث على الواقع ولحق به « جنرال استافستكى » نائب قائد الدفاع الجـوى السوفييتى ، كشف القائد الروسى الكبير زخاروف عن سر خطـير ، استغله الرئيس الراحل عبد الناصر بعد ذلك ، ولكنهم فى موسكو حالوا بينه وبين اســـتغلال « المطب » الذى وقع فيه « زخاروف » بحسن نية طبعا ، او بتخطيط سياسى روسى رســمته له المخـــــابرات السوفييتية ، من يدرى !! ..

● « لقد قال « زخاروف » ان القوات الجوية المصرية لم تدمر مطاراتها الحربية فى سيناء قبل الانسحاب ، وان القمر الصناعى السوفييتى نقل لهم صور هـذه المطارات وهى سليمة تماما قبل نهاية الأسبوع الثانى من يونيو ١٩٦٧ » .

● وقال له القائد المصرى أبو العز :

ـ ألم يكن فى مقدوركم بواسطة هذا القمر الصناعى ان تمدونا بما تعده اسرائيل على الحدود وما تقوم به من حشد واستعداد لهجوم شامل علينا بهذا القدر من الاستعداد ، بدلا من أن تبلغونا بحشودهم على حـدود سوريا ، ويطلب سفيركم من رئيس الجمهورية فى فجر الايام السابقة على « ٥ يونيو » أن لا تكون مصر البادئة بالهجوم !؟ .

● أين الصداقة هنا ؟!
وسكت زخاروف ولم يجب ! .

● ولم نعرف هل كان القائد السوفييتي يرمي « سنارة » جديدة تحمل « طعما » جديدا لاحكام سيطرتهم علينا من خلال الهزيمة ، أو انها كانت « زلة لسان » من الرجل بعد عدة كئوس من الفودكا والروم المصري الذى اقبلوا عليه بنهم وشراهة ! .

السمعة المهلهلة !

وهكذا ساد التخطيط السوفييتي بأبعاد العناصر القيادية العسكرية المصرية المضادة له ، وظهر على المسرح السياسي والعسكري في القاهرة لازالة آثار النكسة واعادة بناء القوات المسلحة المصرية بعض من ساهموافي صنع النكسة نفسها ، لأنهم حازوا رضاء السوفييت ، ووجدت موسكو فيهم أشخاصا يعانون من الاحساس بالاثم ، فضلا عن شخصياتهم المجرحة وسمعتهم المهلهلة ، مما يجعلهم يلبون طلباتها عن طوع وسلبية ، حتى أن هؤلاء القادة عجزوا عن مناقشة كبار الخبراء الروس عن جدوى « عمرة » المحركات في الاتحاد السوفييتي بدلا من مصر أو بدلا من احضار ورش العمرات الينا مع الطائرات كما يحدث في جميع بلاد العالم التي تشتري الطائرات من دول اخرى ، ولقد ظلت المفاوضات حول هذه الورش مستمرة طوال تسع سنوات دون جدوى ! .

● وعجزوا أيضا عن مناقشة ارسال ابنائنا من الطيارين للتدريب في روسيا ، وبلشفتهم في نفس

الوقت ، الى جانب تحكم موسكو فى اختيار وقت المعركة بسيطرتها على هذه الأطقم الجديدة من الطيارين المصريين وتوزيعهم على الطيران أو الانضمام الى تشكيلات الدفاع الجوى ... وفى النهاية صدق الرئيس الراحل على تعيين أحد القادة ، رشحه الروس قائدا لقواتنا الجوية ... واستمرت المهزلة « امتدادا » لمنتصف الستينات ومناخها الذى حقق النكسة من قبل !! .

● الغيت وزارة الانتاج الحربى فى ابريل عام ١٩٦٩ بحجة انها عاجزة عن انتاج طلبية ضخمة من كبارى العبور المخصصة للمشاة والمدرعات ومعدات عبور قناة السويس اللازمة للقوات المسلحة كى تقاتل معركة تحرير سيناء ، وكان الرئيس الراحل قد حدد مهلة ٣ شـهور فقط لتصنيع كل هذه المعـــدات ، وفى الحقيقـة كان السوفييت خلف الغـاء هذه الوزارة التى تعاونت مع الدول الغربية ، ولفترة طويلة بعد قيام الثورة ، وكانت بالفعل قد اشترت الصلب المدرع عام ١٩٧٠ من أوروبا لتصنيع العربات البرمائية وكبارى العبور، ثم توقفت خطة العبور تلبية لضغط السوفييت وحتى لا تحدث هزيمة جديدة ثم عادوا وقرروا أن لا تدخل القوات المسلحة المصرية حربا جديدة كما أكد لى الفريق أول محمد على فهمى عام ١٩٧٩ .

● هرب أحد قادة الدفاع الجوى السوفييتى من كبار الخبراء الذين كانوا يعملون معنـــا ، الى اسرائيل عام ١٩٦٩ ، وسلم تل أبيب كل ما لديه من أسرار عن قواتنا المسلحة .

● ثبت من خـلال تحقيق سرى اجرى عام ٦٩ ـ ١٩٧٠ ـ ان عددا قليلا من الخبراء الروس الذين يعملون

مع تشكيلات الصواريخ المصرية المضـادة للطائرات كان على صلة بالقيادة الاسرائيلية فى جبهة سيناء لاسلكيا ، وقد لعب بعض موظفى السفارة الروسية فى القاهرة دورا معروفا فى هذا المجال ! .

● الغيت تماما صناعة الطائرات فى مصر وذلك فى خطاب عام القاه الدكتور عزيز صدقى قبل نهاية ابريل ١٩٦٩ بين عمال هذه المصانع !! .

● تحول المصنع المصرى لصناعة الصـــواريخ الى صناعة اعمدة الكهرباء المقامة فى الشوارع ! .

● حرمت الطائرات المصرية من كاوتش عجلاتها لأنها اشتركت فى ضرب الانقلاب الشيوعى الـذى وقع فى السودان خلال يوليو ١٩٧١ .

● قبل اخراج الخبراء السوفييت من مصر ، كان الفريق أول محمـد فوزى قد أعد تقريرا جاء فيه ان الخبراء الروس قد بلغ عددهم عدة آلاف ، وأعد سامى شرف تقريرا يحمل رقم « ستة آلاف » ، ثم اتضح ان عددهم عام ١٩٧١ بلغ ١٧ ألف خبير ! .

● أعدت فى ابريل ١٩٧١ بواسطة الفريق أول محمد فوزى وباتفاق مع سامى شرف وشـــعراوى جمعة اتفاقية امتيازات جديدة تمنح للسوفييت لـكى يوقع عليهـــا الرئيس السادات بضغط من مراكز القوى ، والغيت بقيام ثورة التصحيح .

● وضع السوفييت فى جميع مطـــاراتنا الحربية أجهزة الكترونية تسمح بانزال طـائرة كل ٣٠ دقيقة ، وقاموا بهذه المهمة سرا مما أثار الشك والريبة فى هذا العمل ، واتضح انه كان يهدف الى تمكين الطـــائرات الروسية من الهبوط فوق مطاراتنا وبأعداد ضخمة اذا

فكروا فى تطبيق خطة مماثلة لما طبقوه فى بعض دول أوروبا ، وبالتحـــــديد تشيكوسلوفاكيا مع بداية السبعينات ، وقد وقف الفريق أول محمد احمد صادق موقفا ايجابيا من هذه الأجهزة ! .

● ضبط رجالنا فى المطارات المختلفة كميات كبيرة من الذهب المصرى يحملها الخبراء الروس فى رحلاتهم الى بلادهم ، وتحررت محاضر رسمية بذلك ، وتطلب الأمر تدخل الرئيس السادات أكثر من مرة ... كان آخرها ذلك العمل الوطنى الايجابى الـكبير الذى انهى السيطرة السوفييتية على مصر وهو اخراج او ابعـــاد الخبراء السوفييت عن قواتنا المسلحة ، ثم انهاء المعاهدة الروسية المصرية التى كانت تهدف فى النهاية الى تحقيق هدف كبير آخر ظل بعيدا خلف الستار ، وهو ربط تسليح مصر باقتصادها القومى ، فندفع ثمنا لأسلحة لم نحددها ولم نطالبهـــا ، ما نحصل عليــه من عائد المشروعات الانتاجية التى تساعدنا روسيا فى تنفيذها

فيصاب الدخل القومى بخسائر مالية مستمرة مهما ارتفع وكبر حجمه لأنه بالضرورة وأمام هذه السياسة السرية لن يطاول حجم ما ندفعه من أموال فى أسلحة تفرض علينا ، وقد بلغ ثمنها فى بعض الأعوام اربعـــة مليارات من الجنيهات ! .

● وهكذا ساعدنا الاتحاد السوفييتى فى بناء مشروع ضخم هائل كالسد العالى ، ولكنه كان يخطط فى الوقت نفسه لندفع ما يفوق عائده وعائد المشروعات الاقتصادية الأخرى التى عاوننا فيها ثمنا الأسلحة مكدسة فى مخازنه ولم تعـد الجيوش الحديثة تستخدمها ، وكان لابد أن يعمل على اسكات كل الأصوات التى تعترض طريقه قبل

ان يمتلك السيطرة وتصبح له الكلمة الأخيرة فى بلادنا .

ولكن الله أراد شيئا مختلفا لمصر .

وكان ما أراده الله .

●● انه واحد من دروس التاريخ الكبيرة ، ذلك الذى شهدته مصر وعاشه شعبنا بداية بالستينات حتى ما بعد السبعينات ، وبقى علينا أن نعى الدرس جيدا ، ونستوعب الماضى طويلا حتى لا تتكرر الأخطاء وتنتكس الرءوس بعد أن رفعناها عاليا فى يوم غالى الثمن ، يوم السادس من أكتوبر الخالد على مدى التاريخ .

★★

●● والى الفصل السابع لنقرأ وثيقة قضـــــائية عسكرية مصرية انقلها دون حذف أو اضافة .

الفصل السابع :

قرار قضائى .. عسكرى جرىء
يحدث دويًا فى القيادة العامة

.. ما أشجع هذا القرار الذى أصدره قاض عسكرى قبل نهاية عام ١٩٦٨ ، فى فترة حالكة السواد ، لاذت خلالها أكثر الأصوات ارتفاعا وجرأة بالصمت التام .. !

فوق هـذه الصفحات نعرض قصة قرار عسكرى قضائى ، اصدره المدعى العام العسكرى فى ٢ أكتوبر عام ١٩٦٨ ، وهو اللواء عبد الرزاق أحمـد ابراهيم حجازى ، وقد أحدث هذا القرار رغم احاطته بصمت وسرية وتكتم ، ورغم عدم نشره أو اذاعته ، أحدث دويا شديدا على مستوى القيـادة العـامة للقـوات المسلحة عام ١٩٦٨ .

● لماذا ... ؟

● لقد صدر القرار فى نهاية عام ١٩٦٨ بناء على بلاغ تقدم به وزير الحـربية فى تلك الأيام ، الفريق أول محمد فوزى الى المدعى العسـكرى ضد اللواء طيار متقـاعد عصام خليل ، احد رجال المرحـوم المشير عبد الحكيم عامر ، قدم وزير الحربية بلاغه فى ٢٤ فبراير ١٩٦٨ ، وكان معروفا لدى جميع القيادات العسكرية المصرية حجم بطش وسيطرة الفريق أول محمـد فوزى وزير الحربية فى تلك الأيام ، ومعنى أن يتقدم ببلاغ الى المدعى العسكرى العام ضد أحد ضباط عبد الحكيم عامر الذين تمت تصفيتهم بوقـوع نكسة ١٩٦٧ وبموت عبد الحكيم عامر نفسه ... معنى ذلك صراحة أن يعمل

المدعى العسكرى من تلقاء نفسه وعلى الفور لكى يدين هذا الضابط ... هكذا كان يؤمن ويفهم كل ضابط فى جيش مصر اسلوب قيادة الفريق أول محمد فوزى ... الأمر الذى لم يحدث على الاطلاق لدى اللواء عبد الرزاق حجازى المدعى العسكرى العام ... بل قام الرجل بضمير القاضى باجراء تحقيق دقيق مكثف استغرق ثمانية شهور ، وانتهى بقراره الذى جاء فى بدايته « لا وجه لاقامة الدعوى » ضد اللواء طيار متقاعد عصام الدين محمود خليل ـ وهو القرار الذى أفرد له الفصل السابع والأخير من الكتاب ، وأنشر نصه حرفيا ليس تعاطفا مع الطيار عصام خليل او تأييدا له وانما تقديرا واكبارا لموقف صادق وطنى جرىء وقفه القاضى العسكرى ، وهو يعلم انه سيدفع الثمن محتما ـ وبالفعل ـ أحيل الى التقاعد بعد فترة قصيرة من صدور قراره ! .

● ويعنينى من هذا القرار ونشره حرفيا ما تعكسه سطوره من تقييم لحقيقة الأوضاع التى سادت مناخ الستينات عبر القيادة العامة للقوات المسلحة المصرية وضباطها الكبار وعلاقاتها غير الطبيعية والتى جاءت بالضرورة كوضع طبيعى بالهزيمة أو النكسة العسكرية فى يونيو ١٩٦٧ .

● ولقد احيط هذا المناخ بستائر الصمت والسرية حتى لا تتكشف كل حقائقه أمام الراى العام المصرى والعالمى ... وحتى ما سمحوا بنشره بعد ذلك عن فساد مجتمع القيادة العسكرية المصرية الذى أفرز نتائج يونيو ١٩٦٧ ، المشئومة التعسة ، كان بحساب دقيق ، حتى لا يتبين احد جذور هذا المناخ الفاسد !!

نص القرار العسكرى الجزئ

((قرار))
بالا وجه لاقامة الدعوى ضـــد
اللواء متقاعد عصام الدين خليل

بتاريخ : ١٩٦٨/١٠/٢ .

لواء : عبد الرزاق احمد ابراهيم حجازى ..

المدعى العام العسكرى

بعد الاطلاع على الأوراق والتحقيقات ..

وحيث ان الوقائع تخلص فى بلاغ ورد من السيد وزير الحربية برقم ٨٢٨ ــ ٣٣٩٥ بتــاريخ ٦٨/٢/٢٤ ويتضمن أنه سبق أن قامت القيـــادة العربية الموحدة بتحويل مبلغ ٤٠ ألف جنيه استرلينى ، ومبلغ ١٢٠ ألف جنيه استرلينى على بنك الـــكريدى سويس بسويسرا لحساب اللواء طيار متقاعد عصام الدين محمود خليل وان اللواء المذكور أقر بأنه لا يوجد اى حسابات بالخارج أو اى مبالغ طرف اى أشخاص خارج الجمهورية العربية المتحدة ، وانه توجد مبــالغ اميرية خاصة بالمشروعات

وتعهد بأنه لن يسحب أي مبالغ من الأموال الموجودة في هذه البنوك الثلاثة ..

وحيث أن البلاغ المذكور تضمن أيضا ان الهيئة المصرية العامة للطيران أفادت وزارة الحربية بتاريخ ٥/١٠/٦٧ بأن جملة المبالغ المحولة بمعرفة الهيئة الى كل من بنك الكريدى سويس ، وبنك دويتش تعادل بالنقد المصرى ٢ر٤٦٩ر٨٤٠ جنيها و ٨ مليمات وأن اجمالى المبالغ المنصرفة من واقع المستندات والحسابات المقدمة من سيادته تعادل بالنقد المصرى مبلغ ٢ر٤٨٢ر٧٤٤ جنيها و ٨٩٨ مليما وبذلك يكون رصيده دائنا بمبلغ ١٢ر٩٠٤ جنيهات و ٨٩٠ مليما .

كما أفادت الهيئة بأن مبلغ ٤٠ ألف جنيه ، ١٢٠ ألف جنيه استرلينى التى حولت الى بنك الكريدى سويس لم يخصما من حصة الهيئة بالنقد الأجنبى وانه يتعذر على الهيئة تحديد الرصيد الباقى حاليا لدى كل بنك من هذه البنوك الثلاثة الأجنبية على حدة نظرا الأن كشوف حسابات هذه البنوك ليست تحت يديها كما أن عمليات التحويل والصرف الكاملة ليست لديها وانه لا علم للهيئة عما تم بخصوص هذين المبلغين لعدم ادراجه بدفاترها الحسابية ..

واضاف البلاغ ان اللواء طيار متقاعد أفاد بأن حسابات المبالغ التى حولت باسمه المخارج سواء عن طريق الهيئة المصرية العامة للطيران أو من القيادة العربية الموحدة لها أساس بدفاتر وسجلات الهيئة المصرية العامة للطيران وانه على استعداد لتسويتها بمجرد زوال الظروف التى تحيط به وذكر البلاغ أنه اتضح أن اللواء متقاعد يحتفظ بحساب فى بنك دويتش

بألمانيا الغربية بمبلغ قيمته ١٢٫٢٨١٫٠٩٤ مارك (فقط اثنى عشر مليونا ومائتين واحد وثمانية وأربعة وتسعون). وان رقم الحساب ٩٧٫٥٢٠ .

وانتهى البلاغ بطلب اقامة الدعوى ضد اللواء طيار متقاعد عصام الدين خليل عسكريا .

وحيث انه بسؤال اللواء طيار متقاعد المبلغ ضده قرر ان مبلغ الأربعين الف جنيه استرلينى حول على بنك الكريدى سويس بالاتفاق مع السيد الفريق عبد المنعم رياض وتم اخطار الهيئة المصرية العامة للطيران بهذا التحويل وحسابات مصروفاته كانت تخطر بها الهيئة ..

وبالنسبة لمبلغ المائة والعشرين الف جنيه استرلينى فقد حول لشراء أصناف للمصنع ٣٣٣ الحربى وتمت موافقة المرحوم المشير على التحويل وقام السيد الفريق محمد فوزى باتمام عملية التحويل لحساب اللواء متقاعد فى بنك الكريدى سويس ..

وقد تم اخطار الهيئة المصرية العامة للطيران بهذا المبلغ وكيفية انفاقه ..

وذكر أن الهيئة المصرية المشار اليها هى التى تتولى حساباته باعتباره عضوا فى مجلس ادارتها وفى نفس الوقت مدير مكتب نائب القائد الأعلى للمشروعات الحربية الخاصة . وبهذه الصفة ليست له ميزانية مستقلة أو خاصة ولكنها كانت تضاف أو تؤخذ من ميزانية الهيئة المصرية العامة للطيران وهى أعمال حسابية ليس فنيا فيها لأن كل مهمته هى تلقى التحويلات فى البنوك الثلاثة المشار اليها فى الخارج واستخدام المبالغ فى شراء أصناف لحساب المشروعات الحربية الخاصة

متخفيا تحت صفة واسم لا يظهـــر شخصيته الحقيقية والرسمية ولذلك كان الحساب شـــــخصيا ولا يمكن الصرف منه الا بامضائه الشخصى .

كما ان المبالغ تتجمع فى حساباته لدى البنوك الثلاثة ثم ينفق منها ولا يمكنه تحديد أوجه انفاق مبلغ ٤٠ الف جنيه أو ١٢٠ الف جنيه لأنها اضيفت الى حساباته لدى البنك السويسرى ..

وقرر أن الموجود فى حساباته لدى البنوك الثلاثة الآن هو الفرق بين المحول والمنصرف وان لديه مستندات كانت موجودة فى منزله تبين حساباته ولكن السلطة التى قامت باعتقاله حرزت هذه الأوراق والمستندات ..

واوضح حقيقة رقم الحسابات الموجـودة لدى بنك دويتش وانه يقـــــدر باثنى عشر الفا ومائتين وواحد وثمانون ماركا وسبعة وتسعون فرنكا .

وحيث انه بسؤال العقيد طيار السيد محمد نديم قرر انه كان يعمل مديرا لمكتب اللواء طيار متقاعد عصام الدين خليل واتفقت أقواله مع أقوال اللواء المذكور .

وحيث انه بالاطلاع على بعض المكاتبات فى مكتب اللواء متقاعد عصام الدين خليل والذى يشرف عليه حاليـا الرائد / رمزى البسيونى ضابط امن الهيئة العـــامة للطيران اتضح من هذه المكاتبات ما يفيد اخطار المكتب للهيئة المصرية العـامة للطيران بمبلغ ٤٠ الف جنيه ، ١٢٠ الف جنيه استرلينى عند تحويلهمـــا الى بنك الكريدى سويس ..

وحيث انه بسؤال المهندس ابراهيم ضياء الدين طه رئيس الهيئة المصرية العـــامة للطيران قرر ان مجموع

المبالغ التى حولت باسم اللواء متقاعد عصام الدين خليل منذ عام ١٩٥٩ حتى تاريخ تقاعده بلغت ٢ر٤٦٩ر٨٤٠ جنيها و ٨ مليمات وكان اللواء المذكور يقـدم فـواتير بالمبالغ ومستنداتها الى الهيئة لمعالجتها حسابيا ونتيجة هذا انحساب ان حسابه دائن للهيئة بمبلغ ٩١٨١ جنيها و ٧٧١ مليما حسب الفـواتير التى أرسلت للهيئة حتى الآن .

وقرر ان الهيئة العامة للطـيران هى المسئولة عن مراجعة وضبط المبالغ التى حولت له عن طريق الهيئة . وانه بالنسبة لمبلغ ٤٠ ألف جنيه استرلينى ومبلغ ١٢٠ الف جنيه استرلينى فان اللواء متقاعد عصـام الدين خليل قام باخطار الهيئة فى حينه . بأن القيادة العـامة حولت المبلغ الأول والقيادة العربية الموحدة حولت المبلغ الثانى وتم التحويل باسمه فى بنك الكريدى سويس . ولم يرد للهيئة اى اخطار من هاتين الجهتين .

وذكر انه لما كان هذا المبلغان محولين عن غير طريق الهيئة فان الهيئة لم تقم بدرجهما فى ميزانيتها ولكن تم التفاهم بين الشاهد وبين اللواء على أساس قيام الهيئة بفتح دفتر حسابى للمبلغين حتى يمكن ضبط ما يصرف منهما .

وقرر ان طبيعة مهمة اللواء متقاعد عصام الدين خليل هى شراء البضائع التى لها طبيعة خاصة ولا يمكن شرائها بالطريقة الروتينية أو الوسـائل العـادية ولذلك يتم تحويل نقد اجنبى باسمه فى البنوك الثلاثة (دويتش ، كريدى سويس ، يونايتد ستيت) وكان دور اللواء هو التعاقد بوسيلته الخاصة دون التقيد بأى نظم او لوائح مالية ثم يقوم بالدفع من حساباته الخصوصية لدى البنوك

ويوافي الهيئة بالفــواتير لاستنزال قيمتها من حساب السلفة الخاصة به ولاتخـــاذ الاجراءات المخزنية من استلام البضائع وفحصها واضافتها للعهدة ..

وقرر انه فى بعض الأحيان كانت جهات أخرى مثل القوات الجوية والمخابرات العامة والقيادة العامة تقــوم بطلب خدمات خاصة بها ويصدق عليها فكان اللواء يتولى اخطار الهيئة بما ينفقـــه على هذه المطلوبات والفواتير المؤيدة لها حتى تقوم الهيئة باسترداد المبالغ بالنقـــد المصرى من هذه الجهات .

وقرر ان الهيئة على استعداد لعمل الحساب النهائى لكافة مصروفات اللواء متقـاعد عصام الدين خليل اذا وجدت كافة المستندات الخاصة بعملياته الحسابية ..

وانه يمكن حصر الحساب باتباع الخطوات التالية ..

١ ـ التعرف على رصيد حساباته الحالى لدى بنوك دويتش ، وكريدى سويس يونايتد ستيت ..

٢ ـ يضاف الى هذا الرصيد مديونية الهيئة لعصام الدين خليل ..

٣ ـ يضـــــاف اليه كذلك مبلغ ٧٨٤٥٥ر٨٠ مارك المانى + ٢٤ فرنك سويسرى قيمة صفقة سيارات لحساب رئاسة الجمهورية والقيادة العليا للقوات المسلحة دفعها عصام الدين خليل من حساباته واخطر بهـا الهيئة فى ١٩٦٧/١٠/٢٨ .

٤ ـ الاطلاع على الفواتير والمستندات التى لا تزال طرفه ..

٥ ـ يقارن مجموع الرصيد المتبقى بمبلغى ٤٠ الف جنيه ، ١٢٠ الف جنيه استرلينى المحولة للواء عصام

من القيادة العامة والقيادة العربية الموحدة فاذا تساوى الرقمان كان الحساب مضبوطا ..

واضاف المهندس ابراهيم ضياء الدين ان اللواء متقاعد عصام الدين خليل كان فى سبيله الى تسليم المستندات التى لديه فعلا عقب تقاعده وطلب مقابلة مراقب عام الشئون المالية بالهيئة للتفاهم معه على طريقة وترتيب تسليم المستندات غير ان الأمر لم يتم لظروف اعتقاله .. وما زالت المستندات لم تصل تحت يد الهيئة .

وابدى الشاهد تأكيد الهيئة ومسئوليتها واستعدادها لفحص حساباته بعد وصول المستندات .

وحيث انه قد صدر كتابنا رقم ن/١/عمومى ٦٨ ــ ١٥٢. بتاريخ ١٩٦٨/٣/٢٦ الى المخـــابرات الحربية لموافاتنا بكافة الأوراق والمستندات الخاصة بعهدة اللواء متقاعد عصام الدين خليل وحساباته المالية والتى حرزت وقت اعتقاله . فورد لنا رد المخـــابرات الحربية فى ١٩٦٨/٤/١ مرفقا به الكشوف والأوراق المطلوبة . كمـا وافتنا المخابرات الحربية بثلاثة اخطارات لبنوك دويتش، كريدى سويس ، يونايتد ستيت مؤرخة فى ديسمبر ٦٧ تبين الرصيد المتبقى باسم اللواء عصام الدين وحيث انه بعرض هذه الأوراق على اللواء متقاعد عصام الدين خليل اقر بأنهـا الأوراق المطلوبة والتى تحتوى على حساباته ولا يخشى وجود غيرها . واوضح انه على استعداد لعمل الحساب امام لجنة متخصصة واثبات خلو طرفهواضافة واقعة مؤداها انه توجد مستندات موقع عليها بالصرف من المشير ولكن رغم ذلك لم يقم اللواء متقاعد بصرفها لعدم وجود مسوغ الصرف بعد التصديق ذلك ان المبلغ كان

مفروضا صرفه للخبير الألمانى هانز كروج ولكن اختطف الخبير قبل صرف الشيك الأمر الذى دعا عصام الدين خليل الى وقف الصرف ..

وحيث انه بتاريخ ٦٨/٤/٢ قررت النيابة العسكرية تشكيل لجنة فنية من المهندس ابراهيم ضياء الدين طه مدير الهيئة المصرية العامة للطيران والسيد محمد محمود قطب مراقب عام الشئون المالية للهيئة والعقيد طيار السيد على نديم وتم للجنة استلام الاوراق والمستندات اللازمة لأداء مهمتها ووقع الاستلام بحضور اللواء متقاعد عصام الدين خليل ..

وحيث انه فى ٦٨/٤/٢٥ أنهت اللجنة عملها وقدمت اجراءاتها وضمنتها اطلاعاتها على المستندات والدفاتر بما فى ذلك حساب مبلغ ٤٠ الف جنيه استرلينى ومبلغ ١٢٠ الف جنيه استرلينى ..

وانتهت اللجنة الى ان رصيد اللواء متقاعد عصام الدين خليل مدين بمبلغ ١٥٠ جنيها و ٥٣٠ مليما وفى تقرير اللجنة ان الحساب على الوجه السابق يعتبر حسابا تقريبيا حيث استخدمت اسعار تقريبية للعملات الأجنبية بالاضافة الى ان اللجنة تبين لها انه لم تحتسب أى مصروفات بنوك خلال الفترة من ١٩٥٩ حتى ١٩٦٧ كما انه تبين لها ان هناك تسويات كثيرة تمت خلال هذه الفترة باسعار تقريبية للعملات المختلفة مثل المارك والدولار والجنيه والاسترلينى لعدم معرفة الأسعار الفعلية التى تمت بها تحويل هذه العملات من الفرنك السويسرى الى هذه العملات ..

وبتاريخ ٦٨/٥/٢ صدر قرار السيد وزير الحربية بتكليف اللواء طيار متقاعد عصام الدين خليل بنقل

حساباته الرسمية المتبقية فى البنوك الاجنبية الى السيد العميد أ . ح عز الدين مختار الملحق العسكرى للجمهورية العربية المتحدة فى باريس . وبناء على ذلك تم سحب الشيكات التالية ووقع عليها اللواء طيار متقاعد المذكور ..

(١) شيك على بنك يونايتد ستيت ناشونال بمبلغ ٢١٥٧٥ دولار و ٨٣ سنتا يحمل رقم ٦٨٨٢ ورقم ٦٠ـ٩٠ ـ ١٢٢٢ ومؤرخ ١٩٦٨/٥/٦ .

(٢) شيك على بنك دويتش بمبلغ ١٢٢٨٠ مارك ، ٩٧ فنيك يحمل رقم ٣٧٣٥١ ورقم حساب ٩٧/٠٧٩٥٠ ومؤرخ ١٩٦٨/٥/٦ ..

(٣) شيك على بنك كريدى سويس بزيورخ بمبلغ مليون وسبعمائة وواحد وعشرون وسبعمائة وتسعة وثلاثون فرنك ويحمل رقم ٣٦٧٨٠٠٢ ومؤرخ ٦٨/٥/٦ .

وارفقت الشيكات الثلاثة بخطاب المدعى العام العسكرى رقم ن/١/عمومي/٦٨ بتاريخ ٦٨/٥/٧ الى مدير المخابرات الحربية لتنفيذ قرار السيد وزير الحربية .

واجابة على هذا الكتاب صدر كتاب السيد مدير المخابرات الحربية الى السيد وزير الحربية رقم مم/٢/٦/٨/١/٣٠٣ بتاريخ ١٩٦٨/٨/١٧ . وصورته الى المدعى العام العسكرى بأنه قد تم تحصيل قيمة الشيكات الثلاثة وأودعت قيمة كل شيك بحساب منفصل باسم الملحق .

وان أرقام الحسابات كالآتى : ـ

ا ـ حساب الدولارات ١٨٢/٣٩ ـ ٠٢٦ . ٢٠/٠ وقيمته ٢١٥٧٥ر٨٣ دولار .

ب ـ حساب الماركات الألمانى ١٨٢/٠١ـ٠٢٦ـ٢٠/٠. قيمته ١٢٢٨١ر٩٧ مارك المانى .

جـ ـ حساب الفرنكات السويسرية ١٣ ظ ١٨٢/٠٢٦/٢٠/٠ وقيمته ١٧٢١٧٣٩ر٠٠٠ فرنك سويسرى .

وحيث انه تبين مما تقدم ان الموقف الرسمى لحساب اللواء متقاعد عصام الدين خليل ، كان يتوقف اظهاره على عناصر رئيسية أوضحها المهندس إبراهيم ضياء الدين فى اقواله واهمها تواجد المستندات التى كانت فى حوزة اللواء متقاعد .

وقد تأخر تقديم هذه المستندات لسبب خارج من ارادة السيد المذكور هو وضعه فى الاعتقال فى الوقت الذى كان مزمعا فيه أو هو بسبيله الى تسليمها للمختصين بالهيئة بعد تقاعده عن العمل ..

وحيث انه قد اتضح من اجراءات اللجنة ان موقف السيد عصام الدين خليل مدين بمبلغ ١٥٠ جنيها و ٥٣٠ مليما وقد أوضحت اللجنة فى اجراءاتها انه لم تحتسب من هذه المديونية مصروفات البنوك خلال الفترة من ٥٩ حتى ٦٧ كما احتسبت أسعار التسويات بصفة تقريبية لعدم توفر المعرفة الفعلية للأسعار .

وحيث انه بالاضافة الى هذه الأسباب فان حجم ما انفقه السيد عصام طوال مدة عمله فى المشروعات الحربية الخاصة بمبلغ ٢ر٤٦٩ر٨٤٠ جنيها لحساب الهيئة المصرية العامة للطيران ، يضاف اليها المبالغ التى

كانت تحول اليه من جهات أخرى مثل مبلغ ٤٠ الف جنيه ، ١٢٠ الف جنيه استرلينى ..

اى ان حجم المبالغ المتعامل بها يفوق المليونين ونصف المليون جنيه ، ومن غير المتصور ان يكون فرق المديونية البالغ ١٥٠ جنيها و ٥٣٠ مليما يمثل مبلغا مختلسا او مستولى عليه ، وانما المؤكد انه يمثل الفروق الحسابية السابق الاشارة اليها .

وحيث ان الثابت من اجراءات اللجنة من اخطارات البنوك بالخارج أن الحساب المودع باسم السيد عصام الدين خليل مبلغ ١٣٥٩٦٣٧ر (دويتش) + ٩٤٣٧ر٠٥٢ (يونايتد ستيت) + ١٧٤٨٦٣ر٢٥٦ (كريدى سويس) مجموعها ١٨٥٦٥٩ر٩٤٥ جنيه مصرى ..

وحيث أن وزارة الحربية قد استعادت هذا المبلغ الموجود بالبنوك الأجنبية بكامله ــ والدولة صاحبة الحق فيه ــ غير أن المبالغ التى تم نقل أرصدتها تقل عن مبلغ ١٦٠ ألف جنيه استرلينى (تعادل مبلغ ١٩٦٣٤٠ر٨٠٠ جنيه مصرى) والذى يخص وزارة الحربية ــ بما يساوى مبلغ ١٠٦٨١ر٨٠٠ جنيه مصرى .

وحيث ان مبلغ ١٦٠ الف جنيه استرلينى دخل فى التسويات التى أوردتها اللجنة الفنية المشكلة بأمر النيابة العسكرية والتى انتهت نتيجتها الى ان اللواء طيار متقاعد عصام الدين خليل مدين بمبلغ ١٥٠ جنيها و ٥٣٠ مليما الأمر الذى يبنى عليه بالضرورة أن فرق المبلغ المكمل لمبلغ ١٦٠ الف جنيه استرلينى والبالغ

١٠٦٨١ جنيها و ٨٠٠ مليم السابق ذكره انما استخدم في أغراض لحساب الهيئة المصرية العامة لشئون الطيران ..

وحيث أنه لم يثبت من الوقائع التى عرضت في التحقيق أن اللواء طيار متقاعد عصام الدين خليل قد اساء استخدام وظيفته أو أنه استولى لنفسه على اموال مما كانت تسلم اليه بمقتضى تلك الوظيفة ، بل أن الثابت أن الأموال التى كانت فى حوزته وجدت على حالها وبعد أن سلمت اليه تسليما قانونيا بمقتضى وظيفته ، ثم ارتفعت يده عن هذه الأموال بغتة بالقيد الذى وضع على حريته ، ولما أن كلف بتسليم الأموال بادر الى ذلك على نحو ينفى النية بالاحتفاظ بها لنفسه ..

وحيث أن محصلة كل ما تقدم نتيجتان :

اولاهما : انه لا جريمة يمكن اسنادها ــ طبقا لما استبان من التحقيق ــ الى اللواء طيار متقاعد عصام الدين خليل ..

وثانيهما : ان وزارة الحربية قد استعادت المبالغ التى سبق لها أن سلمتها للمذكور ينقص منها مبلغ ١٠٦٨١ جنيها و ٨٠٠ مليم أستخدم لحساب الهيئة المصرية العامة للطيران الأمر الذى يقتضى مطالبتها به ..

« وبناء عليه »

نأمر :

اولا : قيد الدعوى برقم ادارى .

ثانيا : عدم وجود وجه لاقامة الدعوى ضد اللواء طيار متقاعد عصام الدين خليل لعدم الصحة .

ثالثا : على الأجهــزة المختصة بوزارة الحربية ـ ان رغبت ـ مطالبة الهيئة المصرية للطيران بفرق المكمل لمبلغ ١٦٠ الف جنيه استرليني ..

لواء / عبد الرزاق احمد ابراهيم حجازى
المدعى العام العسكرى
امضاء

طبق الأصل /

مستند استلام

استلمت انا الرائد عز الدين حسن رياض عضو النيابة العسكرية بادارة المدعى العام العسكرى الشيكات الآتية من السيد اللواء متقاعد عصام الدين خليل وباسم العميد أ . ح عز الدين مختـــار الملحق العسكرى للجمهورية العربية المتحدة بباريس . وهذه الشيكات هى :

الشيك الأول : على بنك دويتش بمبلغ ٧٩٠ر٢٨١ر١٢ مارك . ورقم الشيك ٣٧٣٥١ . برقم حساب ٧٠٥٠ر٩٧ ولا يصرف الشيك الا لحامله (فقط المبلغ اثنى عشر الفا ومائتين وواحد وثمانون مارك وسبعمائة وتسعون فنيك) ويحل بتاريخ ١٩٦٨/٥/٦ .

الشيك الثانى : على بنك كريدى سويس بزيوريخ بمبلغ ٧٣٩ر٧٢١ر١ فرنك ورقم الشـــــيك ٣٦٧٨٠٠٢ ورقم الحساب ٣٦٠١٤٧ ويحل الشيك بتـاريخ ١٩٦٨/٥/٦ القاهرة تفقيط المبلغ (مليون وسبعمائة واحـد وعشرون الف وسبعمائة وتسعة وثلاثين فرنك) .

الشيك الثالث : على بنك يونايتد ستيتس ناشونال

بمبلغ ٢١٥٧٥٫٨٣ دولار ورقم الشيك ٦٨٨٢ فى أسفله ويحمل رقم ٦٠ ــ ٢٢٢/٦٩ فى أعلاه ويحمل الشيك تاريخ ٦/٥/٦٨ تفقيط المبلغ (واحــد وعشرون الف وخمسمائة وخمسة وســــبعون دولار وثلاثة وثمانون سنت) . وذلك طبقــا لتأشيرة السيد وزير الحربية والمبينة فى محضر النيابة العسكرية فى القضية رقم ١ محضر تحقيق لسنة ١٩٦٨ المدعى العام العسكرى وهذا ايصال بالاستلام .

محرر بتاريخ ٦/٥/١٩٦٨ (السادس من مايو سنة الف وتسعمائة وثمانية وستون ميلادية .

عز الدين رياض
عضو النيابة العسكرية

الفصل الثامن :

الركوض نحو الهزيمة

★ بلا مقـــدمات ، على غرار الفصول السابقة من الكتاب ... تعـال نقرأ هذا الفصل الثامن والأخير ـ حصيلة أخطر الأعوام والمراحل فى عمر ثورة يوليو ١٩٥٢ ـ تلك الفترة التى انتهت بيونيو ١٩٦٧ ★

اكتب الفصل « الثامن » والأخير من هذا الكتاب عن ركوض السلطة فى مصر منذ منتصف الستينات نحـو « الهزيمة العسكرية » الفادحة ــ ولأختتم به الفصول السبعة السابقة ، وما اردت بها غير أن أصف « المناخ » الذى قادنا الى ٥ يونيو ١٩٦٧ ، وما بعده من ايام قاسية طويلة ــ طاف الامل خلالها بخيالنا ما بين عامى ١٩٦٩ ــ ١٩٧٠ ــ وهى فترة أطلق عليها « حرب الاستنزاف » وعبور بعض الوحدات العســـكرية المصرية الى الضفة الشرقية للقناة ، لتقـــاتل هناك معركة قصيرة ، وتعود بعدها الى قواعدها بالضفة الغربية ! ثم سادنا « الصبر والصمت » الذى رفع الرئيس السادات شعاره فى نهاية عام ١٩٧١ ــ حتى قامت حرب أكتوبر الرمضانية عام ١٩٧٣ ــ واسترد الشعب المصرى بأكتـــوبر ــ كرامته وثقته بقواته المسلحة .

●● ولقد صـــدرت كتب كثيرة عن نكسة ١٩٦٧ ، باللغات العربية والعالمية ــ واكثرها فى ذهنى وانا اكتب هذه الصفحات ــ فاذا اضفت اليهـــا اليوم « الفصل الثامن » من هذا الكتاب « مأساة عبد الحكيم عامر » انما احاول اضافة « شىء » الى ما صدر من كتب

ووثائق تسهم فى العثور على الحقيقة وتشير الى الجناة ـ خاصة وان ما نشر فى مصر عن « النكبة » كما يصفها البعض أو نكسة يونيو ، كان أغلبه صادرا من بعض قادة يونيو نفسه ، وعدد ليس بكبير من هؤلاء القادة ، استمروا فى مواقعهم العسكرية القيادية ، وقال الآخرون الذين أحيلوا الى التقاعد :

« كيف يبقى من اشترك فى صنع النكسة ليعالج اصلاح جريمته ؟!! » .

●● ولقد اشترك الجميع ، الذين ابقوا عليهم ، والذين أبعدوهم عن القوات المسلحة فى اصدار البيانات ، ودبلجة المقالات ونشر الكتب ما بين ١٩٧٢ ـ ١٩٧٦ ـ يبرئون فيها انفسهم من شبهة الاهمال أو التقاعس أو التغاضى عن التنبيه والتحذير أو مسايرة اللاهين والمنحرفين من زملائهم كبار القادة الذين الحقوا الهزيمة بنا ـ ويكادون جميعا يقولون فى صوت واحد وبنغمة واحدة ان المسئولين هما « جمال عبد الناصر وعبد الحكيم عامر » فقط ! .

● وهكذا اقتنع أو خدع البعض بهذا الكلام ، مما دفعنى الى اعداد هذا الفصل ـ ورصيدى الذى الجأ اليه ليس البيانات أو الوثائق أو المراجع التى أشرت اليها ـ بل المعايشة الكاملة للموقف على الطبيعة بكل ابعاد تطوراته وهى معايشة نابعة من ارتباطى كصحفى عاشق للعسكرية المصرية ـ بقواتنا المسلحة منذ صباح ٢٣ يوليو ١٩٥٢ ـ وحتى اليوم ـ وملازمتى للقيادة العامة وبعض فروعها الرئيسية خلال الأسابيع القليلة التى سبقت الوكزض نحو الهزيمة ـ ثم انتقالى الى مسرح سيناء صباح يوم ١٧ مايو ١٩٦٧ ـ الى ان عدت منسحبا مع

بعض وحدات المظلات من منطقة « شرم الشيخ » جنوب سيناء ، ظهر يوم ٨ يونيو ١٩٦٧ ـ وشهدت لأول مرة في حياتي شكل الانسحاب وبشاعته ونجونا بأعجوبة ـ فقد رافقت في رحلة الركوض نحو الضفة الغربية للقناة ثم السويس ـ بعض الزملاء ، وهم الاذاعى الشهير يوسف مرزوق ، والصحفى سند جاد الحق ، والمصور الصحفى صلاح عبد البر أحمد .

● وفى بداية مايو ١٩٦٨ بذلت جهدا مكثفا حتى حصلت على تصريح بنشر خمس مقالات عسكرية لمدة خمسة اسابيع متصلة ـ فوق صفحات « مجلة المصور » التى اعمل بها ـ اكدت فيها كيف قاتل المقاتل المصرى أشرف القتال وكيف استبسل فى معركته دون غطاء جوى يحميه فى مواجهة عدو يملك التفوق فوق الأرض والمظلة الجوية فوقه تمهد له الطريق بابادة القوات المصرية قبل أن يقترب منها برا ، وبالرغم من هذا الموقف ظل المقاتلون المصريون يقتحمون القوات الاسرائيلية فى هجوم انتحارى ، بل وقاتل بعضهم بالسلاح الابيض وكيف جاد أبناؤنا بأغلى ما يملكون فى هذه الحرب دفاعا عن شرف العسكرية المصرية ، ثم صدر قرار الانسحاب فكان أشبه بطعنة فى الظهر !! .

● وبالطبع لم يستطع احد على الاطلاق فى هذه الفترة أن يتساءل من الذى أصدر هذا القرار ؟ هل هو المشير عبد الحكيم عامر حقا ؟ أم أن هناك من شاركه فى اصدار مثل هذا الأمر .. أمر الانسحاب الفورى والذى نفذ بأسلوب جنونى هو الخيانة بعينها ؟! .

●● ولقد ظللت حريصا على موقعى فى قواتنا المسلحة بعد عودتى من سيناء ظهر ٨ يونيو ١٩٦٧ ـ

واستمرار الكتابة عن معدن المقـــاتل المصرى وكفاءته ومعاركه التكتيكية والصغيرة ما بين يوليو واكتوبر ٦٧ برا وجوا وبحرا ـ ثم معـــارك نوفمبر ١٩٦٨ ـ التى تكلمت فيها المدفعية المصرية بصوت مدو وبعدها معارك عامى ١٩٦٩/١٩٧٠ ـ وقد توقف القتـــال صباح ٨ اغسطس عام ١٩٧٠ ـ ثم اســـتمر شعار « الصبر والصمت » مطبقا ـ لكننى لم اتوقف عن الكتابة فى حجم ومدى استعداد قواتنـــا لتحطيم أسر سيناء ، حتى منتصف سبتمبر ١٩٧٣ ، وكرمنى الله بدخول سيناء المحررة بعد ذلك فجر ٧ أكتــوبر عام ١٩٧٣ مع احدى كتائب « الفرقة ١٦ » مشاة بقيـادة البطل الشهيد لواء شفيق مترى سدراك ، أحد قادة الجيش الثـــانى الميدانى .

●● أعود بعـــد ذلك الى الوراء ... الى الملامح الأخيرة للمناخ القيادى العسكرى فى قواتنا المسلحة قبل يونيو ١٩٦٧ ـ وما بعده من أيام تعسة ...

● فى القاهرة التقيت بالفريق اول طيـار محمـد صدقى محمود قائد القـوات الجوية المصرية السابق ـ وأجريت معه حديثا صحفيا ـ صباح السبت ١٣ مايو ١٩٦٧ ـ وقد راجع الحديث وصدق بنشره يوم الاثنين ١٥ مايو ١٩٦٧ ـ بعد أن حذف منه بعض الأسئلة وبالتالى اجوبتها ـ ثم نشر هذا الحـــديث الصحفى « بمجلة المصور » العدد الصادر يوم ١٩ مايو ١٩٦٧ ـ وكنت قد انتقلت الى مسرح سيناء مع الحشد الهـــائل من التشكيلات المدرعة ، وتشكيلات الصـــواريخ والمدفعية التى قطعت شوارع القاهرة نهارا ـ فى طريقها الى سيناء فى نهاية الاسبوع الثانى من مايو ـ بعـدها أصـــدر

المشير عبد الحكيم عامر - « أمر القتال رقم واحد » - ووزع فى جميع المسارح العسكرية المصرية ، ومن بينهـا مسرح سيناء - وبلغت سطور « أمر القتال » هذا - اكثر من ستين سطرا ، جاءت كلهـا قطعـة انشائية جميلة تتحدث عن مصر ودورها العربى وضرورة ردع اسرائيل - وابتعدت تماما عن اى واجبات أو قرارات حربية او عسكرية ... يصدرها المشير عامر ، وكان الهدف من أمر القتال هذا سياسيا بحتا ! .

● نعود الى الفريق أول طيار صدقى محمود .. واهم ما جاء فى حديثه الصحفى - والذى جعل السفارات الأجنبية المختلفة فى مصر تبعث فى طلب شراء نسخ « مجلة المصور » العدد الذى نشر به هذا الحديث - وتدفع فى النسخة الواحدة « بعد النكسة » جنيهين كاملين ، وقد اشترت احدى السفارات أربعين نسخة ، دفعة واحدة بمبلغ ثمانين جنيها ! .

● لقد صرح قائد قواتنا الجوية السابق ، فى هذا الحديث الصحفى ولأول مرة بأننا نملك الطائرة الروسية « سوخوى » ووصفها بأنها أحدث مقاتلة قاذفة فى العالم - كما صرح أيضا بأن هناك أربعة أسباب تمنع اسرائيل من التفوق علينا .. وفى كلا التصريحين لم يكن يلتزم الصدق ، بل المشاركة فى عملية شحن الجماهير المصرية اعلاميا حتى الحد الأقصى ، وقد اقتنعت القيـادة السياسية والعسكرية ، وبطبيعة الحال لم يكن هناك أحد من معاونيهم يجرؤ على الاعتراض او نقد ما تقتنع به القيادات العليا من فكر أو وجهـات نظر او خطط استراتيجية ... اقتنعت « القيـادة » تماما بأن امريكا واسرائيل ستتراجع عن الهجوم على مصر بل

ستطلب كل منهما فرصة الابقاء على الباب مفتوحا ، لأن حكومتي واشنطن وتل أبيب على يقين كامل من قدرة مصر العسكرية المتفوقة ، ومن تدخل موسكو بشكل ايجابي لمساندة مصر اذا حاولت اسرائيل وحدها أو أمريكا من خلفها محاولة ضرب مصر ! .

● ان هذا التفسير الذي أكتبه اليوم ليس من عندي بل هو اختصار شديد لوجهة نظر بعض القادة العسكريين المصريين الذين لا يمكن للمرء غير احترامهم ـ اكبارا لسيرتهم الوطنية ـ وقد اقتربوا كثيرا من الرئيس الراحل جمال عبد الناصر بعد يونيو ١٩٦٧ ـ وحتى وفاته في سبتمبر ١٩٧٠ .

● انني أستأذن القارىء في نشر بعض ما تحدث به الفريق أول طيار محمد صدقي محمود قبل تقاعده ثم محاكمته عسكريا ، وانضمامه الى نزلاء السجون حتى افرج عنه الرئيس أنور السادات عام ١٩٧٤ تلبية لرجاء الفريق طيار محمد حسني مبارك ـ قائد القوات الجوية المصرية في حرب أكتوبر الرمضانية .

● قلت للرجل : نشر معهد الدراسات الاستراتيجية لبحوث الدفاع في لندن ـ أخيرا ـ ان اسرائيل تملك سربين من الطائرات القاذفة بكل منهما ٢٠ طائرة من النوع الذي يحمل اسم أوراجان .. فما هي هذه الطائرة ؟ .

● وأجاب الطيار القديم :

ـ هي طائرة قاذفة مقاتلة فرنسية الصنع ولا تشكل اى تهديد ـ وقد حصلت اسرائيل عليها منذ زمن طويل ـ وكنا نتعامل معها بكفاءة بواسطة الطائرات الفامبير .

« وقد ظهر خلال جولة يونيو ان اسرائيل طورت هذه الطائرات واستخدمتها أمثل استخدام » .

● عدت أقول له :

● جاء فى تقرير ذلك المعهد أيضا ان اسرائيل لديها سرب من طائرات « فوتور » تستطيع كل طائرة منها حمل قنبلة ذرية تزن ٦٠ طنا وأن لديها ثلاثة أسراب « ميراج ٣ س » الفرنسية المقاتلة وان بعضها مجهز بصاروخ « ماترا » الفرنسى من انجو للجو ـ الى جانب سرب مقاتلات « سوبر ميستير » المساندة للقوات البرية ـ وسربين من طائرات « ميستير ٤ ـ ٢ ـ القاذفة » فهل تشكل هذه القوة الجوية أى تفوق أمام تسليح قواتنا الجوية واستعداداتها وما هو شرح سيادتكم لهذا الاستعداد الاسرائيلى ؟ .

● واجاب الرجل شارحا :

ـ اسرائيل مهما حصلت على أسلحة ومهما كان عددها ونوعها فلن تكون فى قوة سلاحنا الجوى للأسباب الآتية :

١ ـ قواتنا الجوية أفرادها رسالتهم الدفاع عن القومية العربية واعادة الحقوق المغتصبة لأصحابها فى حين ان أفراد القوة الجوية الاسرائيلية يعلمون تماما انهم معتدون ومعظمهم مرتزقة يسعون وراء الكسب .

٢ ـ ان زيادة هذه المعدات وتكديسها فى رقعة صغيرة من الأرض مثل اسرائيل مع عدم توفر العمق الاستراتيجى يعطى فرصة أكبر لقواتنا الجوية لتدمير أكبر عدد ممكن عند توجيه ضرباتنا .

٣ ـ من ناحيه نهديدهم للمجال الجوى لـ . ج . ع .

م فانى أؤكد ان وسائل الانذار والدفاع الجوى كفيلة باكتشاف وسحق وتدمير اى هجوم للعدو بأى اعداد ومن اى اتجاه قد تسول له نفسه فكرة الاعتداء على مجالنا الجوى .

٤ ـ الطائرة فوتور القاذفة ذات امكانيات محدودة بالمقارنة مع القاذفات العربية ـ علما بأن اسرائيل لا تملك اى نوع من الطائرات يمكنه حمل قنبلة ذرية تزن ٦٠ طنا .

● سؤال آخر ...

● ما هى الطائرة الأمريكية « اف ١١١ » التى قيل انها ذات اجنحة متحركة وتعتبر من أحدث الطائرات الحربية فى العالم .. وهل يمكن أن تحصل عليها اسرائيل ؟ .

ـ الطيران عموما يتقدم فى جميع المجالات وليست هذه هى الطائرة الوحيدة التى تم تعديلها ـ علما بأن هذه الطائرة لم تستخدم بأعداد وفيرة فى القوات الجوية الأمريكية للآن لأنها ما زالت تحت الاختبار . ومهما حصلت اسرائيل على أسلحة جديدة فقواتنا الجوية لديها أسلحة حديثة مماثلة وتحصل على أسلحة حديثة مماثلة وتحصل على أسلحة حديثة باستمرار تمكنها من مواجهة أحدث الطائرات ـ وعموما ليست العبرة بحداثة السلاح ولكن بالطيار الكفء المؤمن برسالته التى يدافع عنها .

● سألته قائلا :

● ذكرت بعض صحف المانيا الغربية ان اسرائيل حصلت على صاروخ « دبامان » من فرنسا وقيل انه

الصاروخ الذى حمل القمر الفرنسى الى الفضاء بعد ان جهز للأغراض العسكرية ... فما هو تعليق سيادتكم ؟ .

● وأجابنى قائد الطيران السابق :

— ولو ان اسرائيل حصلت على مثل هذا الصاروخ الا أنه ليس له تأثير كبير من الناحية العسكرية وعموما فلدى الجمهورية العربية المتحدة مثل هذه الصواريخ بل انواع متعددة منها تجعلها على استعداد تام للتعامل بمثل هذا السلاح عند الضرورة .

● عدت أقول ... اسمح لى بأن انقل لك ما سمعته من بعض الصحفيين العرب ..

● ان الرأى العام العربى يسعده أن يقرأ شرحا من سيادتكم للصواريخ « توباز — روبى سافاير » التى قيل أن اسرائيل تملكها وانها أطلقتها ما بين أعوام ٦٣ — ١٩٦٥ وماذا تشكل هذه الصواريخ من قوة هجومية دفاعية ، اذا ما قورنت بالصواريخ المصرية ؟ .

● وقال الفريق محمد صدقى محمود :

— ليست لدينا معلومات بملكية اسرائيل لهذه الصواريخ ، والصواريخ الثلاثة ليست ذات أهمية عسكرية لأنها صواريخ بحوث فقط — وقد أطلقتها فرنسا ما بين سنة ٦٣ — ١٩٦٥ فى صحراء الجزائر .

● هل استعملت أمريكا الصاروخ الأمريكى « رداى » الذى قيل ان وزنه ١٠ ك جرامات ويعمل بالأشعة تحت الحمراء لتوجيه الصاروخ نحو مصدر الحرارة فى الطائرة المغيرة .. وهل ثمة احتمالات لحصول اسرائيل على هذا الصاروخ ؟ .

● رد الرجل قائلا :

ـ الصواريخ فيها موجه نحو مصدر حرارى او مصدر عاكس للموجه أى معدنى كما توجد أنواع أخرى متعددة وكل من هذه الأنواع له الاجراءات المضادة لتأثيره وذلك سواء بمعدات فنية فى الطائرة نفسها او باجراء مناورات معينة فى الجو لمفاداة الاصابة بهذه الصواريخ وفى حالة حصول اسرائيل على اى نوع من الأسلحة الجديدة ـ فيتم فورا دراسة خصائص هذا السلاح وكيفية مقاومته وطرق التخلص منه ويتم نشر هذه المعلومات لدينا والتدريب المستمر عليها .

السوخوى عندنا

● تحدثت الأنباء العالمية عن الطائرة « سوخوى » واهميتها .. فما هى هذه الطائرة ... وهل تملكها قواتنا الجوية ؟ ..

ـ يشرفنى أن اقرر ان القوات الجوية حصلت على هذه الطائرة وهى من احدث الطائرات المقاتلة القاذفة فى العالم وانى أشكر المسئولين لتدعيمهم الدولة وقواتها المسلحة بأحدث الأسلحة واقواها حتى يمكنها الذود عن جمهوريتنا العظيمة بصفة خاصة والدول العربية بصفة عامة .. وهذه الطائرة ذات كفاءة عالية وتأثير تدميرى كبير . يمكنها من مهاجمة مختلف الأهداف الجوية والأرضية والبحرية بكل دقة وكفاءة مع اقل تعرض ممكن للأسلحة المضادة .

● هل عرفت الحرب العالمية الثانية وما بعدها القتال الجوى « الليلى » وما هى أهميته بالنسبة لتطور قواتنا الجوية لدينا ؟ .

ـ لم يكن هذا النوع من القتال معروفا خلال الحرب العالمية الثانية والذى كان متبعا هو الغـــارات الجوية الليلية .

وقد استحدث هذا النوع من القتـال لزيادة فاعلية الدفاع الجوى ليلا ضد الأهداف التى تكون خارج مدى المدفعية م/ط والصواريخ وقواتنا الجـوية تمشيا مع وسائل الدفاع الجوى سواء نهارا أو ليلا ، وقد استكملت تطور الأسلحة فى العالم وحتى تكون على أتم كفاءة فى وسائل الدفاع الجـــوى الليلى بأسراب مقاتلة ليلية اصبحت على أتم استعداد لصد أى غارات ليلية .

● ما هو « الالتراسونيك » ؟ .

ـ لتوضيحها الى الأذهان يمكننا ان نقول ان هنـاك السرعات الأقـل من سرعة الصـوت والأكبر من سرعة الصوت وهى ما تسمى الالتراسونيك ، وعموما فسرعة الصواريخ التى ترسل الى الفضاء التى تحمل الأقمار الصناعية تكون سرعتها « التراسونيك » .

● هل هناك « مساع اسرائيلية » لتذليل الصعوبات الفنية التى تعترض صـــناعة الرءوس الذرية اللازمة للصواريخ بواسـطة علماء الذرة اليهـــود لمد الدولة الصهيونية بها ؟ .

ـ ان اسرائيل دائبة السعى وراء الحصـــول على اسلحة عدوانية مهما تكلفت فى سبيل الحصول عليهـا وذلك تمشيا مع اغراضها العدوانية فى الشرق الاوسط. فلا أستبعد أن تكون هناك مثل هذه المساعى .

● ما هى احتمالات تدخل الحماية الجوية الغربية فى حالة القيام بهجوم على المنشآت الذرية الاسرائيلية « فى بير سبع » مثلا وما هو ردنا ! .

ـ اسرائيل دائما تكون مدعمة بالمساعدات الغربية في اي عدوان تقوم به وليس ادل على ذلك من عدوانها سنة ١٩٥٦ ففي حالة القيام بأى هجوم جوى على اسرائيل فسوف يكون هناك بالتالى تدعيم من الدول الغربية ، ونحن نضع هذا في اعتبارنا دواما عند التخطيط فى ضوء الدروس المستفادة من العدوان الثلاثى الفاشل .

● تحدثت سيادتكم فى مؤتمركم الصحفى الأخير عن زيادة حمولة طائراتنا من القنابل والصواريخ ... فهل معنى ذلك اننا نملك قاذفات مثل قاذفات القنابل الاستراتيجية الحديثة التى استعملت فى فيتنام والتى تضرب الأهداف الواسعة والبعيدة يؤهلها لذلك شحناتها الكثيرة الثقيلة من القنابل ؟ .

ـ العدو الرئيسى بالنسبة للدول العربية هو اسرائيل ولدينا من القاذفات الخفيفة والثقيلة التكتيكية والاستراتيجية ما يكفل لنا اصابة اى هدف داخل اسرائيل ، والأسلحة الحديثة التى لدينا تفى بالفرض المطلوب منها ..

وحيث انه ليست لدينا النوايا العدوانية مثل النوايا الاستعمارية المنفذة فى فيتنام فليس هناك ضرورة للحصول على قاذفات مماثلة .

● سؤال اخير :

● علمت فى نهاية عام ١٩٦٥ ان تجربة ناجحة اجريت على الطائرة المصرية القاهرة ٣٠٠ بعد ان صنعنا المحرك وجسم الطائرة فى بلادنا وفى الأيام الأخيرة نشر ان الموتور صنع فى مصر واستعمل فى جسم صنع فى الهند فما هى التطورات التى ادخلت على صناعة هذه

الطائره .. وهل اطمع فى سرد قصة هذا المجهود العلمى الذى انتهى بهذا النصر الصناعى الحربى ؟ .

● وتكلم الطيار القديم قائلا :

ـ بدأ العمل فى جسم الطائرة القاهرة ٣٠٠ فى اواخر سنة ١٩٦٠ ولم تكن حينئذ سوى فكرة فى ذهن المصمم وقد حشدت لها خيرة الخبرات المصرية وبعض الخبرات الأجنبية وأمكن تصميمها وعمل الرسومات التفصيلية لكل جزء من اجزائها حتى أمكن انتاج النموذج الأول منها ـ وكما حدث فى الطائرة حدث نفس الشىء بالنسبة للمحرك والذى بدىء العمل فيه فى أواخر سنة ١٩٦١ وأمكن انتاج النموذج الأول لاجراء الاختبارات الأرضية العنيفة والمتعددة عليه فى خلال سنة ١٩٦٤ وهذه التجارب تستغرق وقتا طويلا للتأكد من سلامته وقدرته ومدى تحمله قبل تركيبه فى الطائرة التى صممت له وعلى ذلك انتهت التجارب الأولى بنجاح تام فى نهاية عام ١٩٦٥ وكان التصنيع كاملا للجسم والمحرك فى بلادنا .

وهذا المحرك الذى انتج محليا ليس له شبيه من حيث قدرته بالنسبة لحجمه ووزنه وهو أقوى كثيرا من المحرك الانجليزى الصنع المركب فى الطائرة الهندية التى تبلغ سرعتها بالمحركات المركبة فيها أصلا سرعة الصوت بل أقل من ذلك بكثير ، وكانت الهند على علم بتصميم وتطوير وانتاج هذا المحرك ووجدت انه لو استخدم فى طائراتها فستفوق سرعتها سرعة الصوت ، وبالنسبة للتعاون القائم بين البلدين الصديقين فى مختلف المجالات رحبنا بهذه التجربة وعلى هذا الأساس ارسلت الهند جسما من صناعتها وركبت به محركات من انتاجها وأمكن

لهذه الطائرة اختراق سرعة الصوت مما اكسبها ميزات كثيرة .

● انتهى حديث القـــائد السابق للقوات الجوية المصرية ـ فريق أول طيار محمد صدقى محمود ـ وبعد ايام قليلة قبل نهاية مايو ١٩٦٧ ـ اشترك فى اجتماع عسكرى حضره الرئيس الراحل جمال عبد الناصر ـ والمشير عبد الحكيم عامر ـ وعدد من القادة ـ وقال الرئيس الراحل لرجاله ما اذيع على العـالم ، وعرفناه بعد الهـزيمة ، حين طالب قادته بأن يتحملوا الصدمة الأولى أو الضربة الجوية الاسرائيلية ، وأن يقوموا بعد ذلك بالهجوم المضاد ، حتى لا تتهمنا أمريكا باننا البادئين بالهجـوم ـ وتكلم صدقى محمود امام الرئيس وكلامه ثابت بمحاضر محاكمته العسكرية ـ تكلم قائلا :

ـ « تفرق كثير يا ريس ـ أن نتحمل الضربة الجوية الاسرائيلية الأولى أو نقوم نحن بهذه الضربة ... » .

● وقامت الحرب .. وضاعت الحقيقة ، وسأعود الى هذا الموضوع لأهميته قبل نهاية الـكتاب .

●

انتقل الى قائد آخر ـ وهو الفريق أول عبد المحسن مرتجى قائد القوات البرية حتى الهزيمة ـ الذى عقد لنا مؤتمرا صحفيا فى عمق شمال سيناء ظهر يوم الخميس ١٨ مايو ١٩٦٧ ـ حضره ما يقـرب من عشرين صحفيا واذاعيا مصريا ـ وجلس بجانب الفريق أول مرتجى ـ الفريق انور القاضى رئيس هيئة العمليات ـ واللواء ـ أحمد اسماعيل ـ المشير فيما بعد وكان يشغل منصب رئيس أركان القوات البرية ـ واللواء على عبد الخبير

ممثلا للمشير عبد الحكيم عامر ، وقد ظل بالخدمة حتى عام ١٩٧٢ - وقال الفريق أول مرتجى عدة تصريحات عسكرية - سياسية تعكس المناخ الذى أشرت اليه من قبل غير ان أبرز ما صرح به هو قوله بأننا قادرون على اقتحام اسرائيل خلال ست ساعات - وكأنه يتنبأ بحرب الساعات الست - ولكن بالعكس - كما وصفها الصحفيون الغربيون - وصفوا حرب يونيو ١٩٦٧ - بعد ذلك !! .

● ولقد عدت الى القاهرة يوم ٢٦ مايو لأعرض على هيئة الرقابة العسكرية رسالتى الصحفية الأولى - وحدثت أحد الأصدقاء بها وهو المقدم نجيب عبد البارى - متقاعد حاليا - ويعمل باحدى مؤسسات القطاع العام بما قاله قائد القوات البرية - واندهش الرجل ، واتفقنا على حذف هذا التصريح من رسالتى الصحفية - كما قام بحذفها من الرسائل الصحفية الأخرى التى كتبها زملاء الصحف اليومية ممن حضروا المؤتمر الصحفى للفريق اول مرتجى - فى عمق سيناء ! .

● كانت هيئة القيادة العسكرية فى مستوى القمة حتى يونيو ١٩٦٧ ، تمثل حزبين أو جماعتين متنافرتين - الجماعة الأولى وهى المقربة من المشير عبد الحكيم عامر وتضم الفريق أول مرتجى والفريق أول محمد صدقى محمود والفريق أول المرحوم سليمان عزت قائد القوات البحرية والفريق انور القاضى رئيس هيئة العمليات - وليس معنى اقترابهم الشخصى من المشير عامر انهم على علاقة كراهية أو عداء مقنع لجمال عبد الناصر ، لا .. فقد بقيت علاقاتهم به على مستوى طيب حتى قدموا استقالاتهم جميعا يوم ٩

يونيو ١٩٦٧ مساندة لعبد الحكيم عامر ـ ولكنهم ما قبل الهزيمة كانوا متباعدين عن عبد الناصر ولا يلتقى بهم الا فى الاجتماعات العسكرية القليلة التى يتحتم عليهم المشاركة فيها ـ وفى الوقت نفسه كانت الجماعة الأخرى تضم الفريق أول محمد فوزى رئيس الأركان ، واللواء محمد أحمد صادق مدير المخـــابرات الحربية ـ ثم رئيس الأركان عام ١٩٦٩ ـ ووزير الحربية بعد مايو ١٩٧١ ـ وهو الرجل الذى قاد حملة القبض على ضـــباط المشير عامر وأعوانه قبل موت عامر بأيام قليلة وما بعـد وفاته قتلا أو انتحارا .

● وكان عبد الحكيم عامر يتهرب كثيرا من مقابلة هؤلاء القـادة وقد حاول عدة مرات ازاحتهم من طريقه لكن عبد الناصر بقى متمسكا بهم لخدمة مصالحه ! .

● وفى القمة أيضا كان هنــاك صلاح نصر رئيس جهاز المخابرات العامة وحين التقيت به بعد أن أفرج عنه الرئيس أنور السادات عام ١٩٧٥ ـ أكد لى انه حرص طوال خدمته على التوفيق بين ناصر وعامر ـ وان ناصر حاول أن يجنده ويجند الجهــاز للتجسس على عامر ، ولكنه رفض ذلك فأنشأ عبد الناصر جهـــازا جديدا وأسند رئاسته الى « سامى شرف » ـ وكانت مهمة هذا الجهاز الجديد تقديم المعلومات الشخصية عن الأسماء العامة والبارزة فى المجتمع المصرى والعربى ـ وما أكثر سعادة عبد الناصر حين تقع عيناه على تقرير سرى حول تصرفات مشبوهة جنسيا أو تصرفات غير أخلاقية لاحدى الشخصيات العــامة ـ مثل الصحفى الكبير الذى كان يتمتع بصداقته وثقته ولكنه كان يخفى عنه علاقته باحدى السيدات العربيات الشهيرات ممن

يعشن بمصر ـ وقـد جاءوا له بشريط تسجيل صوتى لمطارحة غرامية بين هذا الصحفى الكبير والسيدة العربية ـ فطلب عبد الناصر التسجيل بالصورة أيضا ...

● وهكذا كانت بعض أجهزة المخـــــابرات تكلف بالعمل فى قضايا صبيانية صغيرة ـ ومن الطبيعى أن تقع ضحية للنصابين والمحتالين العالميين تجار المعلومات الحربية والعسكرية الزائفـة حين تجد نفسها مطـالبة بالحصول على مثل هذه المعلومات ـ بينما قيـــادتها لا تملك الكفاءة لاقتحام هذه الميـــادين ـ لأن جهـدها الحقيقى يذهب الى جبهات شخصية أخرى !! .

● وليس معنى هذا أن أجهزة المخابرات التى كانت تعمل بولاء خاص للمشير عبد الحكيم عامر بقيت بعيدة عن هذا المنحدر ... لا ... فأغلبية من رجالها هم ابناء شرعيون للبيئة التى أنبتتها السلطة ما بعد ١٩٥٧ ـ و ١٩٦٢ ـ مرورا بعامى ١٩٦٥ ـ ١٩٦٦ ـ حيث شهدت القـــوات المسلحة حملة تطهير ضخمة وحملة اعتقالات واســعة طويلة المدى ـ وترك عدد كبير من العسكريين انشرفاء اصحاب الكفاءات الممتازة ـ تركوا الجيش الى التقـــاعد أو السجون ـ وسيطر شمس بدران ورجاله وكانوا يطلقون عليه سرا «شمس غدران !» حتى ركضوا جميعا نحو الهزيمة والعـار والموت قتـلا أو انتحارا أو وفاة بالسكتة القلبية !! .

●● لقد روى لى أحد رجال او أجهزة عبد الحكيم عامر انه حين تقرر القيام بزيارة فرنسا على رأس وفد رسمى والالتقاء بالرئيس الراحل شارل ديجول رئيس فرنسا ـ طلب عامر من « صلاح نصر » أن يعد له كشفا بأسماء مجموعة من أحسن ضباطه ليرافقوه فى رحلته

الى فرنسا ـ وانه جند هؤلاء الضباط كما جند عددا من مشاهير الكتاب المصريين ليعـــدوا له الكلمات القصيرة التى سينطق بها لحظة لقائه بديجول ـ وقـد أعدوا له عشرات بل مئات الكلمات ، وهو يرفضها ... واستمروا يعملون بهذه المهمة عدة أيام وليال ـ دون أن يتفرغوا لطبيعة المهام السرية التى ستوكل اليهم خلال هذه الزيارة وما قبلها وما بعدها ـ وفى النهاية أعلن المشير عامر انه اختار جملة راقت له ، فسألوه عنه فقال لهم :

« سأقول له : لقد قام نابليون بونابرت بغزو مصر ـ وذهب نابليون وذهب أسطوله وبقى فى مصر من هذه الحملة المطبعة والبعثة العلمية التى صحبت نابليون » .

● وصفقوا له ـ فقد كانت جملة رائعة فعلا ، ثم علموا بعد ذلك ان « الجملة » للفنانة برلنتى عبد الحميد وأحد رؤساء التحرير من الصحفيين المصريين ممن كانت له صلة طيبة بالرجلين ـ واكتشفوا أيضا انه لم يقرأ مئات الاقتراحات التى قدموها له وسهروا من أجلهـا عدة ليال بلا طائل ... لقد وجـدها أحدهم فى مظاريفهـا المغلقة كما تركوها فوق مكتبه دون أن تمس أو يحاول قراءتها معلنا انه لم يجد فيهـا ما يراه مناسبا ! .

● وكان طبيعيا فى هذا المنـــاخ أن يلوذ الجميع بالصمت ولم يجرؤ أحدهم على معاودة الحديث فى هذا الموضوع مرة أخرى !! .

●

ومرت الشهور ـ وجاء يونيو ١٩٦٧ ووقعت النكبة ـ واسرد فوق الصفحات القـــادمة ـ نقلا عن أوراقى الخاصة « التجربة الميدانية كما عشتها » فـوق سيناء

★ **التاريخ - ابريل عام ١٩٦٨ - حيث كتبت هذه الصفحات عن معركة يونيه ١٩٦٧ .**

● كانت سيناء مزدحمة بالأفراد والأسلحة ، ولكنه ازدحام مرتب هائل الحجم ، ورائحة الصحراء تختلط بالعرق ، برائحة الزيت المشبع بالبارود والرجال يعدون مدافعهم الرشاشة ، والمدافع المضادة للدبابات ، والجو حار ، والماء قليل ، والطعام ساخن ، والخطوات لاهثة والسيارات تتحرك بين المدرعات ، وملابس الحرب فوق اجساد الجنود والضباط ما زالت تحمل رائحة نظيفة ، رائحة العاصمة ، ومعسكرات الايواء القادمين منها ...

وانقضى أكثر من نهـــار أصفر اللون كالرمال ، كأن عاصفة ترابية رملية هوجاء صبغته بلونهـــا ، وسيناء الفسيحة كأنها الأنهار والأرض تضيق بقواتنا من كثرة الزحام والحشد ، واخذ الرجال يحفرون خنادقهم ، والظهور منحنية فى صلابة .. لكن لا ضعف ولا مرارة ، قلوب متفتحة وكلمات يتبادلها المقاتلون عامرة بالأمل ..

ان اقوى علاقة واوسعها هى علاقة الانسان بالانسان وفى صحراء الحرب يتحدث الرجال ويتعاملون كأنهم أبناء

حقل واحد ، وقد انهمك الجميع فى سعى دائب لا يمل ـ فسر الحياة وعظمتها هو انهـــا تدافع عن نفسها اتوماتيكيا ضد اليأس والخوف والعجز .

ومرت الأيام ، لا ثقل فى العين ولا خمول فى الحواس، وحلقات الرجال أمام أسلحتهم أينما وليت وجهـــك والعيون مفعمة بشعاع اليقظة والترصد والحذر .

ومن فرط الحرارة خرجت الثعـــابين من جحورها كانها ثعابين اليفة تعدو بين أقدام الجنود وهم ينظرون اليها بلا مبالاة ، ربما من فرط رؤيتهم لها ألفوها وألفت هى رائحتهم ..

وكنا نقول فى جلساتنا .. الى متى هذا الهدوء ، وانطلق السؤال ينتشر بين الجنود والضباط ، واختلطت الصورة بكل الأبعـــاد وتناقضت واضطربت واظلمت السماء وافترق المقاتلون الى مواقعهم ، وخلع الجنـــود احذيتهم يغسلون أقدامهم فقد كانوا منذ ١٥ يوما يرتدون هذه الأحذية الثقيلة المضنية .

● وكان جنودنا البواسل ينتظرون لحظة لا يعرفون متى ستجىء ، فى ظلام الليل ، فى ضوء الفجر ، فى سفور الشمس ، وهم يتناولون الطعام ، وهم يكتبون خطاباتهم ، وهم ينظفون أسلحتهم .. متى ستجىء هذه اللحظة ؟! .

المبـــاداة

ما اطول الصمت الذى لا يقطعه الا طرقعات السلاح ... كان الضباط يتناقشون فى تأكيد وقطع بأن الغرب لن يترك اسرائيل تحارب وحدها ، ولن يحارب معهـــا

في سفور تام كما فعل عام ١٩٥٦ ، لقــــد كان تواطؤ الغرب الواضح معها عام ١٩٥٦ ، سببا هاما فى فشل هدف اسرائيل يومهـــــا وهو ضرب الثورة المصرية بل والقضاء عليهــــا ، ولذلك ومنــذ ذلك العــام خططت واستعدت ، وكانوا يعرفون انها ستحارب على أساس المبادأة بالحرب .. فعمقها الاستراتيجى البسيط لابد أن يدفعها لنقل المعركة خارج أراضيها ، والا لجاءت لحظة القضاء تماما عليها .

● وكان معروفا فى القوات المسلحة ، وقد آن أن نكشف عن ذلك ، كان معروفا أن أجهزة التخطيط والفكر العسكرى فى قواتنا المسلحة قد أعدت دراسة عسكرية هامة فى ١٥ ابريل ١٩٦٧ ، قدمتهــا للقيادة العليــا ، كشفت فيها عما يمكن أن تقوم به اسرائيل فى عملياتها الهجومية جوا وبرا وبحرا ضدنا ، ولكن هذا التقرير للأسف الشديد لم يجد قبولا من قادة ماقبل يونيو ١٩٦٧ ، بل لم يجد وقتا لديهم لدراسته أو مناقشته مع الذين وضعوه ، ولقد تحقق بعد ذلك كل ما جاء فيه .. لقد جاء فى هذا التقرير أن العدو سيطير على ارتفاع بسيط ويقوم بهجومه الخــــاطف الأول على قواعدنا الجوية ، ويتبع الهجوم الجوى المفاجىء هجوم برى ، تحدث عن أى المطارات يجب أن تضم طائراتنا ، عن انتشار الطــائرات المصرية ، عن ملاجىء ودشم المقاتلات والقاذفات ، عن مناورة الطائرات من مطــار لآخر ، بل تحدث عن نشاط القتال الجوى للعدو بالتفصيل .

● طالب التقـــــرير مثلا بتكثيف ميدان التغطية الرادارية ! حلل وقدم دراسة عسكرية ذات تفاصيل دقيقة لتدابير العدو ، وتحدث عن فترات الانذار التى

يمكن ان تحصل عليها القيادة العليا قبل وقوع اى هجوم مفاجىء علينا ، وكيفية الحصول على هذه الفترات الزمنية ، ولكن القيادة العليا لم تخص هذه الدراسة الموضوعية بالاهتمام الجدير بها .

● وطبق العدو خطته « ضربة صهيون » كما اطلق عليها صباح ٥ يونيو ١٩٦٧ . كانت التعليمات لطياريه بالنسبة لشقها الجوى « كولومب » انه فى حالة اكتشاف هجومكم الجوى عليكم بالعودة دون اطلاق صاروخ واحد ، لأن العملية تعتمد فى الدرجة الأولى على المباغتة والمفاجأة وأجهزة التشويش والشوشرة الالكترونية التى وفرها لهم الدعم الأمريكى الى جانب عمليات فك الشفرة والرموز ، وما كان يمكن ان يتحقق ذلك لاسرائيل اولا المعاونة الضخمة التى لقيتها من الصهيونية العالمية وقواعد الاستعمار العالمى .

● ولقد خرجت الطائرات الاسرائيلية من مطارات اللد والرملة وسط اسرائيل متجهة الى الساحل الشمالى للجمهورية العربية المتحدة وانقسمت الى ثلاث مجموعات وعددها ٣٧٨ طائرة .

● المجموعة الأولى لتدمير الأهداف الجوية فى سيناء حيث قواعد العريش وتمادا والمليز والسر .

● والمجموعة الثانية لتدمير قواعد كبريت وفايد وأبو صوير بالقنال الى جانب ضرب مطار الغردقة .

● والمجموعة الثالثة تتجه جنوبا على امتداد فرع دمياط لتدمير قواعدنا الجوية فى الدلتا وغرب القاهرة والماظة وبنى سويف .

وبعد ذلك أعد العدو قواته البرية لهجوم برى .. وخطة اسرائيل عام ١٩٥٦ ، أو عام ١٩٦٧ كانت تعتمد

اساســـا على تحقيق نصر سهل رخيص مبدئى سريع عاجل ، ولن يتحقق لها ذلك الا بالهجوم أولا على أضعف مواقعنا الدفاعية . تهجم عليه بقوات كبيرة ، ثم تتوغل فى الداخل مما يرفع معنويات جنودها ، ويحدث شللا فكريا لدى قادة عدوها ، وينتشر الارتباك بين صفوف قواتنا ، وبالتالى نفقد السيطرة تدريجيا ، فيقع الانهيار فى خطوط الدفاع القوية ، وبين القوات الهجومية .

● وبدأ الهجوم فى سيناء مركزا فى الشمال وفى منطقة الوسط ، وكانت قواتنا قد ركزت ثقلها الدفاعى فى الجنوب والوسط ، ومن هنا كانت خطة اسرائيل التى ترمى الى تركيز الهجوم فى أضعف المواقع الدفاعية المصرية ، فدفعت بقوات مشاة ميكانيكية ومظلات بتكثيف حول قواتنا فى رفح دون الدخول فى معركة مع القوات المصرية ثم اندفعت الى العريش فى محاولة لتنمية الشلل الفكرى الذى تتوقع اصابة القيادة المصرية به بعد ضربة الطيران ..

● وفى الوسط ، اخترقت قوات اسرائيلية الحدود عبر مدقات فرعية لتصل الى عمق خلفى وتقيم كمينا من المدرعات بين الطريق الأوسط والشمالى لسيناء ، فيمكنها اذا نجحت حجـــز اى امدادات أو دفاع أو تعزيزات لقواتنا فى الشمال ، وبالتالى تمنع القــوات المصرية من الانسحاب عبر الوسط الى الجنوب ..

كانت هــذه هى المرحلة الأولى من هجوم العـــدو الاسرائيلى ، وبعــد ذلك تقدمت قــواته من المدرعات والمشاة الميكانيكية ، وعنصر عسكرى استخدمته اسرائيل حديثا واســـتفادته من عمليات فيتنــام وهو عنصر الاقتحام الجوى الرأسى ، قوات مشاة تنقل بالهليكوبتر

وتهبط خلف قواتنا فى المحـــور الأوسط بسيناء ، وتشـــتبك مع الدفاعات الرئيسية فى أبى عجيلة وأم كتاف ، ثم تقطع خط مواصلاتنا حتى بلدة « نخل » .

● ومرحلة ثالثة ، وهى زحف قوات مدرعة اسرائيلية متجنبة الدخول فى قتال مع القوات المصرية ، كى تلتف حولنا لتصل بسرعة الى مضـــايق سيناء ، ثم رمانة والجفجافة والجدى والحيطان ، حتى ممر متلا ، وبذلك يمكنها السيطرة على الممرات وحجز القوات المصرية اذا اتجهت الى الغرب .

● وكانت المرحلة الأخـيرة تتضمن تمسك اسرائيل بهذه المضايق والممرات فى محـــاولة لتصفية القوات المصرية حتى خط شرق المضايق ، والوقوف على نهاية الضفة الشرقية .

● لقد كان العدو على امتداد عشر سنوات أعقبت جولة خريف ١٩٥٦ قد أكمل اعداد سبعة ألوية مدرعة كل لواء مدرع به ١١٠ دبابات سنتوريوم وباتون و أ ٠ م ٠ اكس الفرنسية ، ولـكل منهـا خصائص تنفرد بهـا في القتال ، ثم ٢٤ لواء مشاة ميكانيكى ومظــلات ، وقوات من الكتائب المدرعة وكتائب الاقتحام الجوى الرأسى التى تهبط من الطـــائرات الهيلكوبتر لتعمل على الفور وقد أخذت تشكيل القتال خلف القوات المعادية .

عمليات ٥ ـ ٩ يونيو

● وكانت العمليات العســـكرية التعرضية التى استمرت من ٥ حتى ٩ يونيو تدور من الشمال الشرقي الي الجنوب الغربي في سيناء .

● دفع العدو مجموعتى عمليات حتى تصل مدرعاته الى المضايق ، وفى اليوم الأول كان عليه أن يصل الى العريش ثم أبو عجيلة ثم العوجة ، وفى اليوم الثانى يطور هذا الهجوم اتجاه جنوب غرب لتصل قواته شمال الحسنة جنوب القسيمة ، بشرط تجنب القتال مع القوات المصرية ، وفى اليوم الثالث يصل مضيق الرمانة والجفجافة والجدى فممر متلا .

واتخذ الشكل الأخير للعمليات التعرضية محاولة العدو عن طريق التوغل خلف قواتنا ودون الاشتباك بقدر المستطاع مع القوات المصرية ـ الوصول الى الضفة الشرقية للقناة .

ان ثمة حقيقة عسكرية واضحة فى هذه الحرب ، وهو ان اسرائيل لم تكن تستطيع القيام بهذه العمليات البرية اذا لم تتوفر لها السيطرة الجوية ، ولذلك فقد استقبلت تل أبيب ٦٠٠ طيار أجنبى كمتطوعين ، عملوا من قبل فى مسارح عسكرية مماثلة وشكلوا العصب الرئيسى فى العمليات الهجومية على قواعدنا الجوية . أيضا حصلت اسرائيل على خبرات فنية متخصصة عالية الكفاءة مكنتها من الوصول الى مستوى طيب جدا فى استخدام مطاراتها ، حتى تتمكن طائراتها من الاقلاع وضرب الأهداف المصرية ثم العودة ، وتجهيز الطائرات بالذخيرة والوقود والهواء المضغوط والكشف على أجزائها وصيانتها فى دقائق لتقلع الطائرات مرة أخرى وتقوم بالهجوم .

هذه الخدمة الممتازة التى توفرت لها فوق الأرض زادت من فعالية طائراتها ، وحجم اغاراتها الجوية علينا ، والمعروف ان طلعات الطائرة لا تزيد على أربع

طلعات يوميا كمعدل عالمى ـ ولكن اسرائيل جعلت طائراتها تقوم بطلعات تصل الى ٨ أو ٩ طلعات فى اليوم ـ نتيجة زيادة العنصر البشرى المتخصص ذى الكفاءة العالية لديها ، فكما تزودت اسرائيل بالطيارين كان لديها عدد أكبر من الطائرات دون أن تحصل على طائرات زيادة ، لأن اربعة من مقاتلى أو قذاف الجو يشكلون عمل ١٦ طائرة ، وكلما كانت المهارة الشخصية فى تموين الطائرات بالذخيرة والوقود والصيانة سريعة ساعدها ذلك على زيادة عدد طلعاتها ، فأربعة طيارين يمكنهم أن يتناوبوا العمل على طائرة واحدة ، فيتحقق بذلك استغلال الكفاءة والقدرة القتالية الى اقصى حد ممكن وبالتالى يمكن للطائرة الواحدة أن تقوم بثمانى طلعات فى اليوم الواحد .

● ولقد حصلت اسرائيل نتيجة الدعم الامبريالى لها على معلومات دقيقة عن مطاراتنا وتوزيع طائراتنا الهيكلية أى الخشبية منها ، والطائرات الحقيقية . وساهمت الأقمار الصناعية فى الحصول على ادق هذه المعلومات .

هجوم أو دفاع !؟

● ان ديناميكية حرب يونيو ١٩٦٧ ، أو سير القتال خلال فتح النيران فى سيناء يكشف عن أسرار مثيرة للغاية .. فحول معركة الاتجاه الشمالى ، كانت الدفاعات المصرية بالنسبة للخطة الموجودة لدينا تقول بتركيز الدفاع المصرى عن سيناء على خط العريش ـ أبى عجيلة ـ القسيمة . وبمجرد أن بدأ التصاعد

السياسي بين الحكومات العربية واسرائيل أدخلت تديلات على الخطة المسبقة ، ونقلت قوات من أماكن لأماكن أخرى ، وأنشئت دفاعات جديدة ، وتحركت قوات من مكان لآخر ، ومن أبرز أشكال هذا التعديل ان فرقة مشاة مصرية دفعت الى رفح لتعزيز دفاعات رفح ، وكلفت في وقت واحد بواجب دفاعي وواجب هجومي ، ولم تستطع بالطبع أن تحسن الدفاع أو الهجوم ، فللدفاع متطلباته من حفر وتكسية وزرع الغام وتنسيق نيران وربط مواصلات تليفونية وللهجوم متطلبات أخرى من قدرة عالية على الاقتحام وخفة حركة وتجميع متوازن لعناصر المعركة فمثل هذه الأوامر بالهجوم والدفاع مما يقضي على فعالية أى قوات مسلحة ، فأمكن للعدو أن يلتف حول اجناب الفرقة ، الى أن وصل منطقة الشيخ زويد محاولا القضاء على رئاسة الفرقة التكتيكية حتى يمكنه معاودة الهجوم من الخلف ، بينما تندفع قوات أخرى له لتتصل الى العريش ومطارها . وفي هذا المجال لابد من ذكر قصة هامة لها دلالتها ، لقد حدث عام ١٩٥٦ ان التقى لواءان اسرائيليان فاشتبكا في سيناء ، ودمر كل منهما الآخر ، وحاول العدو عام ١٩٦٧ الاستفادة من هذا الدرس فسارت قوة على الطريق الغربي بين العريش والحسنة ، وقوة أخرى على الطريق الشرقي ورغم ذلك اشتبكت القوتان في بير لحفن واصيب كل منهما بخسائر كبيرة .

الطلعات الانتحارية

● كان كلّ شيء يجري بسرعة هائلة ، وقواتنا البرية تحارب بلا غطاء جوى على الاطلاق سوي بعض طلعات

انتحارية جويه قام بها بعض الطيــــــارين تحت أشق الظروف الجوية ، وأثبت الرجال بسالتهم ووجودهم بأغلى ما لديهم من الحياة ، بكل الشرف بكل الجرأة بكل البطولة يدافعون عن حبـــــات الرمال ، والصواريخ الاسرائيلية تنهال من السماء عليهم كالأمطار .

● اندفعت بعد ذلك مجمـوعة اسرائيلية عبر أودية تصب من « اسرائيل الى عمق سيناء . لتصل بمجموعة لواء مدرع مكون من ١١٠ دبابات حتى بير لحفن ، ثم حاولت اقامة كمين مدرع ضد التحـــركات المصرية من المحور الأوسط وقد استمرت المعركة هناك طيلة يومين كاملين . وجاءت قوات اسرائيلية اخرى تخترق الحدود ، مستخدمة جميع أنواع المناورة الهجومية كى تصل الى بير لحفن وبواسطة الاسقاط الجوى الرأسى وصلت حتى مكسر الفنـــاجيل ، وكانت المقــاومة المصرية عنيفة مستبسلة ، فجاءت الطائرات الاسرائيلية وركزت هجومها على قواتنا فى أم كتاف ، وعاونت المدفعية الاسرائيلية طائراتها فكانت تلقى كمية من القنابل تزن ١٠٠ طن فى الساعة الواحدة ، واستمر العـــدو يضرب الدفاعات المصرية بالطيران والمدفعية فى أم كتاف ، محـــاولا الحصول على أى نصر فى أم كتاف ، تلك التى قال ديان نفسه عنها فى معارك ٥٦ لقد كانت منطقة ام كتاف هى المكان الذى حارب فيه الجنـــدى المصرى على أحسن وجه ، بينما حارب فيها الجندى الاسرائيلى على أسوأ صورة » .

● واندفعت نصف مجموعة العمليات الوسطى لتصل بباقى قواتها من بير لحفن حتى أبو عجيلة فى محـاولة للقيام بعملية هجـــومية على الحسنة ثم السيطرة على

المضايق الوسطى فى سيناء ... هكذا كانت ديناميكية اسرائيل فى المحور الأوسط .

لواءان ضد لواء !

● ان معركة المدرعات التى دارت بين قـواتنا وبين قوات العدو ظهر ٦ يونيو حتى منتصف ليلة ٧ يونيو تكشف عن قوة المقـــاتل المصرى وقوة سلاحه المدرع وايمانه بالقضية التى يحارب من اجلهـــا ، وسيطرته بالمبادأة والجراة والاقتحام حين يلتقى بالعدو وجها لوجه فى احدى المعارك .

فقد كانت مجموعة العمليـيـات الشمالية الاسرائيلية مكونة من لواءين مدرعين ، ضـــد لواء مدرع مصرى واحد ، عهـــد اليه بصد الاختراق الاسرائيلى عنـد الكيلو ١٦١ ، وكان هذا اللواء المصرى قـد قطع ٨٠٠ كيلو متر على الجنزير والمفروض الا يقطع اكثر من ٤٠ ك . م سار من هاكستب الى شرق الاسماعيلية الى الحسنة حتى الشيخ زويد ثم عاد الى الحسنة كل ذلك اثناء مرحلة ما قبل القتـال ثم استمر ينتقل تنفيـــذا للتعليمات التى تصل اليه حتى جنوب الحسنة ، قطع اطوالا طويلة اجهدته واجهـــدت الآلات والرجال داخل الدبابات ، والجو حار خانق والماء قليل ، ومن يعش ساعتين داخل دبابة يمكنه ان يشعر بهـذه الحـرارة الحـــارقة التى تقضى على كل مقومات ومعنـويات الانسان .

ولكن اللواء المصرى اشتبك فى عمليات ليلية ضد الكمائن الاسرائيلية المدرعة فى بير لحفن وثبت تفـوق

وقدرة المقاتل المصرى حين يلتقى بالعدو الذى عمل وحرص طوال حرب سيناء على تجنب الالتقاء بقواتنا فوق الأرض . .

● أخذ اللواء المدرع المصرى مواقعه الدفاعية المجهزة سابقا بواسطة قوة مصرية كانت قد سحبت ونقلت توا الى موقع آخر ، وفى منتصف يوم ٦ يونيو حاولت القوات الاسرائيلية الاتصال بالموقع المصرى وحوالى ٤ ظهرا وقع الالتحام الفعلى بين القوتين ١٦٠ دبابة اسرائيلية و ١١٠ دبابات مصرية ، وحاول العدو الاقتحام بالمواجهة ، ففتحت دباباتنا نيرانا مؤثرة مما جعلهم يهربون خارج نطاق ومدى النيران المصرية .

وكان أول أسلوب اتبعته القوات الاسرائيلية ان وقفت على مشارف النيران ثم اخذت ترسل قواتها للالتفاف شمالا وجنوبا على أجناب القوات المصرية لارهابنا نفسيا، فمد القائد المصرى جناحيه الجنوبى والشمالى لمقابلة الدبابات الاسرائيلية الملتفة ونجح فى تدميرها ، ولكن بعض الدبابات الاسرائيلية استطاعت الالتفاف حول جنوبه ومؤخرته وقد قضى عليها بقوة مصرية أخرى ، ثم حاولت القوات العدوة المدرعة استخدام الدبابات الفرنسية خفيفة الحركة « ١٣ طنا » لتدخل مدى النيران المؤثر ثم تنسحب بسرعة فى اتجاه الشرق حتى تخرج الدبابات المصرية وراءها فتنالها الصواريخ الاسرائيلية المضادة للدبابات ، وقد فشلت المحاولة الثالثة لأن القائد المصرى كان سريع الاحساس بالكمين ، فاستمر فى مواقعه ولم يخرج الى العراء حتى يقضى عليه الطيران الاسرائيلى ، ولكن الهجمات الجوية ، زادت على اللواء المصرى المدرع ، وبحلول مساء ٦ يونيو صدر أمر

الانسحاب بالاتجاه غربا ولكن المعـــــركة لم تهدأ حتى ١٢ ليلا ، والقوات الجوية الاسرائيلية تستخدم اسقاط المشاعل المضيئة ، على مواقع لوائنا ، مع استمرار اطلاق نيران المدفعية والدبابات الاسرائيلية حتى استطاع اللواء المدرع المصرى الوصول الى الجفجافة تحت سيطرة جوية مطلقة للعدو ، والقوة المهاجمة ضعف القــوة المدافعــة المصرية ، وكان اللواء المصرى فى حالة تفوق مستمر ، تدعمه المهارة القتالية لرجاله ، والأســـلوب الدفاعى الفعال ، والتدريب الميدانى الممتاز وحسن التفــكير والتصرف فى استخدام المواقف المعقدة ــ والتى تتحول فيها المعركة من اتجـــاه لآخر ، يفتح نيرانه الدائرية ، والمتقاطعة مما جعل العدو ومعلقيه العسكريين ، يقولون بحكم المهارة المصرية التكتيكية ، والاستخدام الصحيح لأرض المعركة .

●

● أننى أعرض بعــد ذلك بعض المعـــلومات ــ التى عاوننى الصديق الـكبير اللواء حسن البدرى فى نشرها ــ وهو من أساتذة البحوث العلمية العسكرية ــ وقد أسندوا اليه بعد يونيو ١٩٦٧ ــ وحتى نهاية عام ١٩٦٨ ــ مهمة الاشراف على ما تنشره الصحف والمجلات المصرية عن الهـــزيمة العسكرية ــ وكان الرجل يعيد قراءة ما أكتبه وما يكتبه زملائى ، بعقل واع ومشاعر وطنية صادقة ، والصفحات القــادمة بعض ما كتبته عام ١٩٦٨ .

● ان النــكسة لم تكن هى النتائج العســكرية التى ظهـــرت فى حرب يونيو ١٩٦٧ ، بل ان النــكسة هى عوامل ذات جذور قديمة تمتد الى عشر سنوات مضت ،

فبعد الانتصار السياسى الهائل الذى حققناه على المسرح الدولى اثر هزيمة العـــدوان الثـــلاثى المسلح علينا عام ١٩٥٦ ، ووقوف شعوب العالم أجمع الى جانبنا ، استغلت القيادة العسكرية العليا هذا الانتصار السياسى الذى حجب أسباب النكسة العسكرية ، وبدأت مراكز القوى تنمو داخل قواتنا المسلحة ، ثم أخـذت القيادة العليا تبتعد تدريجيا بالقوات المسلحة عن طريقها الأوحد وهو الاعداد للحرب ، موجهة أكثر اهتماماتها وطاقاتهـا الى الشئون الداخلية للبلاد ، من أجل تدعيم سلطانها وقبضتها على الداخل متجاهلة لمطلبهـــا الرئيسى وهو توفير قوة القتال التى تستطيع تحقيق المفاجأة العسكرية بالنسبة للعدو .. وقد انعكست هذه الروح على «بعض» المستويات العســـكرية فى قواتنا المسلحة التى تسلمت قياداتها ليس لكفاءاتها العســـــكرية بقدر ارتباطاتها المصلحية والشخصية بالقيادة العليا .

● وكان طبيعيا أن تنتشر روح اللامبالاة بعد ذلك على مستوى القيادة العليا خلال السنوات الماضية ،والاهتمام بالمظهر فقط دون الجوهر ، والأخذ بمبدأ التهوين من أمر العدو وحجمه ، فلا اهتمـــام بمعلومات حقيقية ومتطورة باستمرار عن دفاعاته وتحصيناته ، ولا متابعة شاملة لتصرفاته وأعماله ، يمكن الاستفادة بها فى حالة الهجوم عليه ، أو الهجوم المضاد بعـــد تلقى الصدمة الأولى .

● ولقد بلغ الغرور والاستعلاء برئاسة القيادة العليا العسكرية ان رفضت تحـــذيرا هاما وجهته اليها دولة آسيوية صديقة وهى الهند ، قبل وقوع العدوان بعـدة أيام ، وكان التحذير يقول بدخول طائرات الاســـتطلاع

والتصوير الاسرائيلية الى مجالنا الجوى ، وقيامها بالعمل فوق مواقع وتحصينات وحشد قواتنا المسلحة على جبهة سيناء ـ غزة ، وقالت هذه الرئاسات : « لا يمكن أن يحدث هذا ، لأن بطاريات صواريخنا المضادة للطائرات ما كانت تتركها تمر على الاطلاق » ثم ثبت صحة ما جاء فى التحذير الهندى .

● كان كل شىء مركزا فى أيدى هذه الرئاسة ، ولقد حرم هذا التركيز المطلق المستويات العسكرية الأدنى من الحرية فى العمل بما يتمشى مع مطالب ادارة العمليات الحربية ، بل أحدث اخلالا شديدا بسلطات القيادة الفرعية ، وقيدها بشكل خطير مما يعوقها عن المرونة ، ويبطىء من وقت رد الفعل المستغرق للرد على المواقف المتغيرة ، كما حدث فى يومى ٦ و ٧ يونيو ١٩٦٧ .

● لقد ظلت رئاسة قياداتنا العسكرية العليا ترفض الاستماع او مناقشة البحوث والتقارير التى يضعها الخبراء العسكريون المصريون ، واسماء أكثر هؤلاء الخبراء ما زالت محفورة فى لوحات الشرف داخل ارقى المعاهد العسكرية العالية فى أمريكا وانجلترا وفرنسا والاتحاد السوفييتى ، بل ان امريكا عرضت على البعض منهم التجنس بالجنسية الأمريكية لتفوقهم ونبوغهم العسكرى ، ولكنهم رفضوا هذا العرض وعادوا الى الوطن .. كانت ترفض مناقشة هذه البحوث والتقارير استعلاء واهمالا لأنها ـ اى التقارير ـ كانت تتحدث بصراحة حول امكانياتنا ووسائل تدعيمها ـ وامكانيات وقدرات وخطط العدو الاسرائيلى ، والأساليب الجدية القائمة على العلم العسكرى والفنون الحربية لمقابلة كافة الاحتمالات ..

القصور فى الدفاع الجوى

● يناير ١٩٦٧ ، وقد حدث في بداية هذا الشهر من ذلك العام شيء مثير للغاية ، وأنا أنقل هنا عن معلومات لصديق دبلوماسى من الكتلة الشرقية ، قال لى ان خبراء التخطيط العسكرى المصريين أعدوا تقريرا فنيا حول القصور فى الدفاع الجوى المصرى ، ولخطورة مثل هذا التقرير جاء ضابط كبير من الاتحاد السوفييتى برتبة ماريشال جو ، واجتمع بالخبراء العسكريين المصريين ، وتدارسوا الأمر ، وكان من بين اقتراحاتهم الهامة تسيير سفن صغيرة مزودة بأجهزة الرادار لتعمل بحركة أوسع وعلى مقربة من مواقع العدو فوق مياه البحر الأبيض ، وعندما عرض هذا الاقتراح على الرئاسة العليا فى القيادة المصرية ، قال المشير عامر غاضبا : بلاش وجع دماغ !

مسئولية القوات الجوية أم البرية !

● قال أحد المفكرين العسكريين القدامى :

ـ « أفضل استراتيجية فى الحرب هى أرجاء العمليات الى أن يدب التشكك والبلبلة المعنوية فى العدو ، فيكون انزال الضربة الحاسمة به أمر سهل وممكن » .

فماذا حدث لنا .. ؟ .

● لقد تسلط على مسرحنا العسكرى لعمليات سيناء أحد أمراضنا الاجتماعية الخطيرة التى لعبت دورا رئيسيا فى الهزيمة العسكرية . ان فورات الغضب بعد

٥ يونيو جعلتنا نلقى بكل المسئولية على القوات الجوية لعدم تصديها للضربة الجوية المفـــاجئة المركزة على قواعدها فى الساعة ٨٫٤٥ صباح ٥ يونيو ــ فى الوقت الذى كانت فيه القوات البرية للعدو لابد قد أخذت تشكيلات القتال الهجومى خلال الليلة السابقة للهجوم ، اى قبل الهجوم الجوى المـــادى المركز بساعات على الأقل .

ولابد أن يكون هذا قد حدث فى جبهة سيناء ، ففتح القوات البرية الاسرائيلية للهجوم يستغرق وقتا طويلا ، وكانت هناك نقط استطلاع ومراقبة مصرية على طـول الحدود وخط الهدنة وليس ثمة شك فى أن تحركات عربات ومدرعات العدو المقتربة الى الحدود المشتركة واصــوات جنازير الدبابات كانت مسموعة ومرئية من القوات الأمامية . وكل ذلك النشاط الذى سبق الهجوم البرى الفعلى فانه يمكن أن يدل على أشياء وأشياء لابد أن قواتنـــا فى الأمام احست بهـــا بالضرورة ، ولـكنها تجاهلتها !!!

عمليات أبو عجيلة

كان الهدوء قد أخذ يسود مسرح العمليات فى سيناء فى الساعات الأولى من فجـــر ٥ يونية ١٩٦٧ وقبيل الهجوم الجوى علينا مباشرة ، ولكنه الهدوء الذى يسبق العاصفة .. كان هدوءا مريبا ضـــاق بالوقت فاندلعت الحرب .

وخاض رجالنا قتالا كله قسوة وعناد شديد وضراوة وعنف ، وفى هذه الحلقة أكتب عن المعارك التى دارت فى محاور « أبو عجيلة ــ العريش » ثم « رفح ــ القنطرة

شرق ـ الاسماعيلية » ، « فراس سدر ـ ضفة قناة السويس ـ شاطىء خليج السويس » .

● يقول العميد اريل شارون قائد مجموعة العمليات الاسرائيلية الجنوبية ، فى تقريره العسكرى الذى نشرته « الديلى ميل » :

ـ « كان واجبى هو تجهيز واعداد جزيرة دفاعية فى منطقة « نيشان بثروتيم » تسلمت أمر القتال لاختراق الدفاعات المصرية فى أبى عجيلة وكانت القوات المصرية مجموعة لواء مشاة مدعم بالدبابات ، وما يقرب من ست كتائب مدفعية ميدان ومتوسطة ، وكنت أعلم ان هذه المنطقة قد حصنتها المصريون بدفاعات قوية على امتداد عشر سنوات مضت ـ ولكن أبى عجيلة ذات اهمية تكتيكية خاصة لكلا الطرفين .

« وبدأنا هجوم المجموعة الجنوبية فى محاولة لاقتحام النقط الأمامية مندفعين صوب الدفاعات الرئيسية التى تبعد حوالى ٢٠ كيلو مترا داخل الحدود ، وكان هدفنا من ذلك هو احضار مدفعيتنا وقواتنا الميكانيكية الى المكان الذى نستطيع منه شن الهجوم ، وقد ظللنا طوال يوم كامل وهو يوم ٥ يونيو نحاول تحريك القوات الى مواقع الهجوم فى الوقت الذى كانت فيه بطاريات المدفعية المصرية تطلق نيرانها علينا بفعالية شديدة ، فهبطت خلفها عناصر الاقتحام الجوى من رجال المظلات فى محاولة أخرى لاسكات هذه النيران ، وهاجم المشاة الخنادق الأمامية حتى يتمكن المهندسون الاسرائيليون من فتح الثغرات فى حقول الألغام المصرية حتى تمر مدرعاتنا .

« ولقد خاضت مدرعاتنا معركة عنيفة طوال النهار

باكمله على طول المواجهة ، ثم هاجمنا المنطقة الدفاعية من المؤخرة والجانب الشمالى فى اتجاه الجنوب والشرق، واضطررنا أمام التحصين المصرى الى أعداد هجوم شامل منسق وبحشد كبير للمدفعية الاسرائيلية وخطة نيران كاسحة على الدفاعات المصرية » .

● كانت المعركة الرئيسية مستمرة فى أم كتاف وظلت مشتعلة حتى السادسة من صباح ٦ يونيو ، وتكبد الجانب الاسرائيلى خسائر كبيرة فى الأرواح والعتاد ، وصفها فى اذاعاته بأنها « نسبية » ثم أخلى المحور الاوسط ، ليتقدم لواء اسرائيلى مدرع من مجموعة ابراهام يوفيه على طريق العوجة ـ الاسماعيلية ، وينضم الى مجموعته الوسطى عند علامة الكيلو ١٦١ ، وكانت هذه القوات تضم مدرعات ومشاة ، ومدفعية ومهندسين ومظلات وقوات نظامية مختلطة بقوات احتياط ، وقد حاولت على طريق أم كتاف ـ ام مطامر فى اتجاه الجنوب الغربى عزل محور القسيمة الحسنة ، ودارت معارك نهارية وليلية حتى صباح ٧ يونيو ، كان اعنفها معركة راس مطامر حيث وقفت سرية مشاة مصرية معززة بالدبابات تحطم موجات الهجوم المتتالية عليها باصرار وثبات وعناد مما دفع القائد الاسرائيلى الى تغيير اتجاه هجومه ..

وبعد يوم آخر استطاع العدو التقدم من الحسنة فى اتجاه نخل ، بخطة عزل القوات المدرعة المصرية المتمركزة حول الكونتلا ـ التمد ـ نخل » .

● ويقول « يوفيه » :

ـ « ولم نصل الا بصعوبة كبيرة لكثرة عمليات الاشتباك مع مؤخرة العدو المصرى ، ووعورة الأرض ،

وعلى حد قول الصحفى الأمريـكى ألذى صاحبنا دكتور جريج ، دفعنا الثمن فادحا ، لكننا نجحنا فى احتلال نخل قبل وصول لواء مدرع مصرى كان قادما اليها من التمد غربا نحو القناة ، ودارت معركة هجومية بشعة استمرت من ١٠ صباحا حتى ٣ ظهرا ، ثم تقدمنا نحو مدخل ممر متلا للهجوم ، ولقد سهلت المساندة الجوية الاسرائيلية عملياتنا حتى للمستويات الصـغرى فـوق الصحراء ، وخاصة فى معارك الدبابات التى لم نكن نملك فى كثير منها التفوق فى التدريع ، الى جانب مدى المدفعية المصرية وهو مدى أطول من مدى مدفعيتنا » .

● ويقول « يوفيه » أيضا :

ـ « كان همنا الوحيد هو شل معنويات هذه القوات المصرية المتماسكة ، وليس احتلال الأرض ، بضرب من المناورة الجريئة حتى نتوغل فى عمق دفاعات العدو ، ثم نعود سريعا ، وبذلك يمكن احراز النصر على حداثة المعدات الحربية المصرية وكفاءة المقاتل المصرى » .

● لقد قاتل الجندى المصرى أشرف قتال ، قاتل وحالة الأعمال الهندسية الميـــدانية كالتجهيز الهندسى للدفاعات لم تستكمل بعد فى بعض مواقعه ، واشترك فى معارك أم كتاف والعدو يسيطر بسيادة مطلقة على الجو فوقه ، وخلال ذلك ينزل قواته المحمولة جوا على اجناب قواتنـــا ، ويركز نيرانه لشغل خط المواجهة المصرى ، ورشاشاته تنهال كالأمطار بطلقاتها وهى تدور فـوق العـربات نصف الجنزير ، والمدفعية والدبابات الاسرائيلية تحاول تدمير الجانب الآخر من قواتنا .

● لقد فرض المقاتل المصرى على العدو الدخول فى معارك تصادمية عديدة فوق الصحراء ، ويشتبك فى

الوقت نفسه مع قواته الهـــابطة من السـماء ، ومع الدبابات التى تعمل فى محاولة للضغط على مواقعه من أجل تدمير دفاعاتهـا ، وفى معركة « البـــاطور » دمر مدفعيته م . د ، فاستنجد بالطائرات الاسرائيلية ، وفى وادى الجميل دمرنا مدرعاته تماما فاستنجد مرة أخرى بالطيران الاسرائيلى ، وتورطت القوات الاسرائيلية فى حقل الغام على طريق العوجة ــ ابو عجيلة ، وفقد العــدو الاتصال ببقية جماعاته أكثر من مرة ، ولكنه كان يعيد الاتصال بكفاءة هندسية متفوقة ، وفى اتجاه أم بسيس حتى المدق التركى ثم سد جـريان ، وظلت القـوات الاسرائيلية رغم ما يساندها من تفوق جوى ــ عاجزة عن احراز اى نجـاح ، ثم اخـذت الذخيرة المصرية تنفد ، وضرب الطيران الاسرائيلى جبل ضلعة ، وكانت القوات الاسرائيلية التى تنزل جوا فى الليل تضطر لاشـعال القنابل الفوسفورية لتحـديد مواقعنا فتحصدهم نيراننا وهم الذين تحدثوا كثيرا عن تفوقهم فى القتـــال الليلى ! .

● واستمرت قواتنا تقوم بالعمليات التعرضية ، ثم صدت الاختراق الاسرائيلى فى مواجهة العريش حتى منطقة اولاد على ..

خطتان بديلتان

● كانت خطة العــدو كما وضعها الجنرال اسحق رابين رئيس الأركان الاسرائيلى تعتمد على المباغتة ، وقد وصفها بأنها الحجر الأساسى لنظامهم ، بل قال انه يؤكد على ضرورة عدم الاهتمام بالأساليب المألوفة والمتعارف عليها فى المباغتة « ان قيمة المباغتة غير المتوقعة والغارات

الخاطفة والاستيلاء على مواقع دفاعية له أهمية كبرى بالنسبة للجيش الاسرائيلى ، وقد يكون عدونا المصرى قويا فى مواقعــــه ، وامداداته مستمرة ، ولذلك فانه سرعان ما يعيد تنظيم قواته ويقوم بهجوم مقابل ، ويوقع بالقوات الاسرائيلية خسائر فادحة ، ولن ينقذنا من ذلك غير ارباك قيادة العــدو حتى نهاية العمليات ، وهــذا يعنى ان العمليات الناجحة فى الماضى لا يجب استعمالها فى المستقبل حتى لو توفرت نفس الظروف التى توفرت فى الماضى .

● وقال « اسحق رابين » فى تقــريره الى مجلس الحرب الاسرائيلى :

« لابد من اتخاذ أكثر من خطتين بديلتين ، حتى تستطيع القيادة اتباع اى خطة منها بسهولة وبسرعة فى حالة تعذر وتطبيق اى خطة منها بسبب خطأ أو توقف التقدم للهجوم » .

● وقال شارحا ، « ان الحركة فى تفصيلات الأوامر لابد أن تمتد حتى تصل الى مستوى الفصيلة ، وقد تقع أخطاء كثيرة ، لــكن قد تكون النتائج ايضا باهرة ، تفوق ما قد تأتى به القرارات الصادرة من القيــــــــادة العليا . ان المركزية فى القيادة سوف لا تجمد الحركة السريعة فحسب ، بل ستحطم معنويات قادة الوحدات فى ساحة المعركة » .

● وعلى محور « رفح ــ القنطرة ــ الاسماعيلية » كان العدو الاسرائيلى يحاول اختراق فرقة مصرية ، مشاة ، ولواء فلسطينى ، محاولا الاندفاع نحو العريش عن طريق محور الشيخ زويد ــ الجرادة ــ ثم العريش فى النهاية ، آملا فى الوصول حتى ضفة القناة ، وكانت

تشكيلات القوة المصرية ضعيفة التحصين لعـــدم توفر الوقت امامها ولتكليفها بواجبين متعارضين هما الدفاع والهجوم ، والدفاعات تمتد الى العمق فى كل من الشيخ زويد والجرادة وامامهما، والعدو مستمر فى تطبيق خطته لتدمير قواتنا بطائراته كى يصل بجزء من قواته على المحور الشمالى مندفعا من العريش الى بير لحفن ثم الجفجافة فالقناة على المحور الأوسط ، وقال العميد اسرائيل تال فى تقريره العسكرى بعد العمليات :

« كنا على يقين من أن المعـــركة الاولى لاقتحام دفاعات رفح ستجعلنا نصاب بخسائر هائلة ، ولكنها كانت بالنسبة لنا معركة اختبار حقيقى فى القتال ! .

« وهاجمنا الدفاعات المصرية التى امتدت للخلف بعمق ١٢ كيلو مترا معززة بالمدفعيـــة والدبابات والألغـــام كمنطقة دفاعية من الطراز الأول ، ونفذ الهجوم الأيمن قرب الساحل شمال رفح ، وكانت المرحلة الأولى هجوم بالمواجهة تقريبا لاختراق دفاعات اللواء ٢٧ الفلسطينى ، وبعض دفاعات اللواء ١٦ مشاة المصرى ، وحاولنا تدمير المدفعية المصرية كأسبقية أولى » .

● واستمرت المعركة حتى مساء ٥ يونيو وكان العدو قد تدمر عموده الفقرى ، والقتال يتطور سريعا واستطاع الجنود المصريون توحيد صـــفوفهم فى دفاعات سريعة حول الجرادة ، وعزل القـــوات الاسرائيلية المدرعة فى العريش تماما .

● وعاد العدو يحاول فتح الطريق ، ونجح بصعوبة فى اختراقه واندفعت مجموعة عملياته الشمالية صوب العريش ،ثم انقسمت الى محورين ، الأول فى اتجـــاه بير العبد ـ رمانة ـ القنطرة ثم القناة ، والثانى جنوبا

نحو بير لحفن ، ودارت معركة ضاربة حول مطـــار العريش ، واشتركت الدبابات خلالها ، وكانت دفاعاتنا تشكل آخر موقع محصن لمنع مجموعة العمليات الشمالية من المناورة العرضية نحو المحور الأوسط فى سيناء ..

وقام العدو بعد ذلك بهجـــوم منسق مع مجموعة العمليات الوسط فى اتجاه جبل لبنى ومجموعة تقاطع الطرق الحيوية فى قلب سيناء ، سقط فيهـــا مئات الشهداء من الجانبين ، وتكبد العدو خسائر كبيرة فى الأرواح والعتاد ، واستطاع لواء مدرع مصرى ان يصمد من بعد ظهـــر ٦ يونية حتى منتصف ليلة ٧/٦ يونية ويمنع القوات الاسرائيلية من التقدم .

● يقول العميد اسرائيل تال :

« قام المصريون بهجـــوم مضـــــاد قوى ، وعملت الطائرات المصرية فوقنا ، وشن لواء مدرع مصرى هجوما ضاريا على طول عدة عشرات من الكيلو مترات ، وكنا نقوم بأعمـــال تعرضية ، حتى جاءت الدبابات المصرية ت ٥٥ ، لفتح محور بير الجفجافة من الخلف .. » .

● ويستمر العميد تال قائلا :

« تفوقت الدبابات المصرية فى هـــذه المعـــركة ، تساندها الهاونات الثقيلة ، ولقـــد صمدنا امام هـــذا الهجوم المصرى المتفوق حتى وصلت الطائرات الاسرائيلية، فتابعنا التحـــــرك بسرعة اندفاع اقل مما كنا نأمل ، اجتزنا ٥ كيلو مترات فى ٦ ساعات ، واضطررنا الى ارسال مجموعات قنـــاصة تعززها ٣ دبابات اسرائيلية لتعطيل النيران المصرية عن اصطيادنا .. فقد كانت هذه المعركة بالنسبة لنا معركة بقاء أو فناء ! .

وعندما بلغنا منتصف المسافة على محور العريش ـ

القنطرة تحول الأمر الى مقاومات متزايدة من جانب العدو المصرى ، كلما اندفعنا غربا حتى واجهنا فجأة قوات مصرية ، قاتلت بضراوة ووحشية ، وجاءت الطائرات المصرية مرة ثانية ، وعملت فوقنا ، واضطررنا الى الدخول فى معركة معها طوال ٣ ساعات ، ولكن نيران الطائرات المصرية نجحت فى وقف تقدمنا ، ولم نتحرك حتى اشتبكت معها الطائرات الاسرائيلية .

لقد كان هدفنا تحقيق الاتصال العرضى بين المحورين الشمالى والأوسط ، وأكثر المصريون خلالها من اطلاق نيرانهم المركزة بلا انقطاع ، واستخدموا اعدادا من طائراتهم كانت بالنسبة لنا مفاجأة ، ثم فوجئنا مرة أخرى بالصواريخ المصرية ، وخضنا معركة جديدة لمواجهة هذه النيران ، واستمرت المعركة حتى تسلمنا أوامر وقف النار » .

الهجوم المضاد .. والانسحاب !

● وبعد .. لقد رأى بعض القادة المصريين ممن كانوا يدبرون ديناميكية القتال فى الجبهة المصرية وضع خطة هجوم مضاد والقيام به صباح يوم ٦ يونيو ، لاعادة اتزان الدفاع فى المنطقة الأمامية من سيناء ، ولقد خططوا أسلوبا آخر لادارة الأعمال القتالية فى حالة عدم الاتجاه الى شن هذا الهجوم المضاد ، وكان يقضى بتمسك القوات المصرية باصرار بالخط الثانى للدفاع عن سيناء من العريش شمالا — حتى الحسنة والتمد جنوبا ، والدفاع فوق هذا الخط ، وصد هجمات العدو وتحطيمها أمامه ، وكان مما يعزز هذا الاتجاه هو أنه

عندما تتلاحم القوات الاسرائيلية المهاجمة مع الخط الدفاعى المصرى ، سيتوقف عمل العدو جوا ، ويهبط تكثيف طيرانه ، اذ سيمنعه التلاحم فى القتال بين قواته وقواتنا ، بذلك الشكل المعقد قتاليا ، سيمنع قيادته من التضحية بقواتها البرية التي ستحصدها تماما نيران طائراتها اذا استمرت تعمل فوق القوتين المتلاحمتين .

● وبهذا الأسلوب كان فى امكاننا ان نضيع على العدو ثمار الضربة الجوية المركزة فوق قواعدنا صباح ٥ يونيو ، وتتبدل كثيرا نتيجة المعركة ؟ .

● لقد تسلمت رئاسة القيادة العليا للقوات المسلحة الخطوط العامة لهذه الخطة وفى الوقت نفسه أصدرت قرارا مناقضا لها ، قرارا لم تعلم به نفس اجهزة التخطيط المسئولة فى قياداتنا عند صدوره ، وكان القرار يقضى بالانسحاب ! .

● ولقد ابلغ هذا القرار لبعض قادة القوات المصرية فى سيناء ، ولم يبلغ للبعض الآخر ، بل ان قيادة الجبهة لم تعلم به الا بعد انقضاء عشر ساعات ونصف ساعة ، وتدمر فى هذا الانسحاب الجنونى ٧٩ فى المئة من معداتنا الحربية المدمرة ، خلال العمليات ، أو ٨٠ فى المئة كما ذكر الرئيس عبد الناصر ، ووزير الحربية أكثر من مرة فى خطاباتهم .. وخلاصة القول ان اسلوب الانسحاب العام من سيناء بالشكل الذى امرت به القيادة العليا كان مستحيل التنفيذ .. فالقوات التى استغرق حشدها فى سيناء ٢٣ يوما كاملة لم يكن فى الامكان أن تخلى سيناء فى ظرف عشر ساعات فقط هى كل ما أتيح لها من وقت كنص أمر الانسحاب الذى قضى باتمام اخلاء سيناء خلال ليلة ٧/٦ يونيو ١٩٦٧ !!! .

● ان الانتصــار الذى حققته اسرائيل هو ارخص الانتصارات عسكريا ، فمن خــــلال ما نشرته صحف الايكونومست ،وريتلى ريفيو ، وأير آفايا ، والانكونتر » نقلا عن القادة الاسرائيليين ، نجد ان القيادة الاسرائيلية خططت للحرب على اساس واحد ، وهو بالنسبة للجو عدم الدخول مع الطيران المصرى فى معركة جويه ، بل الانقضاض على الطائرات المصرية وهى رابضة فوق ارض مطاراتها ، وكان التدريب فى القوات الجوية الاسرائيلية طوال السنوات الماضية يتم على هذا النمط ، وبالنسبة للبر ، عدم الاشـــتباك مع اى قوات برية مصرية او مواجهتها بقدر الامكان ، والالتفاف حول أجنحتها فى حالة وجود السيطرة الجوية للطيران الاسرائيلى ، ولقد حدث شىء مثير للغاية ، اذ قامت قوة لواء اسرائيلى بالمرور عبر طريق مدنى ــ خان يونس ــ رفح ــ بعد ان قامت بالتمويه والتضليل ، حتى يظن من يراها انهــا قوات عربية ، وبذلك لا تواجه القوات المصرية المتمركزة فى مواقعهــــا ، ولقد كانت قـــواتنا خلف هذا اللواء واشتبكت معه من الخلف قبل أن يهرب ...

اسلوب النازى

● ولقد قال جنرال تال قائد المدرعات الاسرائيلية ان معركة ســـيناء دارت تحت قيادته وقيادة جنرال « جافيش » وجنرال « ابراهام يوفيه »» وبريجادير جنرال « اريل شارون » وانهم طبقوا الأسلوب الألمانى الذى أتبعته القوات النازية فى الحرب العــــالمية الثانية ..

أخذ « تال » واجب الهجوم شمالا ، و « شارون » للسيطرة على أبى عجيلة ، واختط « يوفيه » طريق الكثبان الرملية حتى وصل الى بير لحفن على طريق أبى عجيلة ـ العريش فى محاولة لقطع الطريق على القوات المصرية ، أما فى الجنوب الأقصى فقد تقدمت مجموعة قتال اسرائيلية الى الكونتلا فى مناورة تهدف الى جذب القوات المصرية لتكون فى مدى صواريخ الطائرات الاسرائيلية بعد التأكد من نجاح ضرب الطيران المصرى .

● وقال « تال » : « كان همنا أن نتجنب جبهات الألغام التى تبثها الفرق المصرية .. والتى انتشرت فى تشكيلات جديدة للدفاع والهجوم ، فمن ناحية .. كان المصريون فى وضع للانطلاق شرقا عبر النقب الجنوبى والاتصال بالقوات الأردنية وقطع الاتصال بين ميناء ايلات وبقية اسرائيل ، ومن ناحية اخرى .. كان المصريون يغطون الخطوط الرئيسية للتقدم عبر الصحراء بمواقع محصنة جدا ، وكان الخط الوحيد للتقدم غربا من الحدود الجنوبية لاسرائيل ، هو الخط غير المسدود بالتحصينات وهو الذى سيطر عليه جنرال « يوفيه » عبر الكثبان الرملية ، ومن المؤكد ان المصريين اعتقدوا انهم لن يتمكنوا من المرور فوقه .. كذلك نحن ايضا !! » .

اسرائيل تستخدم طرق العرب !

● وكانت منطقة رفح العريش تحت سيطرة الفرقة السابعة المصرية ، محاطة بألغام قليلة على شكل حدوة

حصان تصل حتى الشاطىء ولواء مدفعية ١٢٢ ، وكان « تال » كما قال يضع نصب عينيه تفــادى المدفعية المصرية ، وتفادى حقول الألغام ، مما قاده الى اختراق دفاعات رفح عن طريق خان يونس .. ولكن ذلك لن يعنى دحر جزء كبير من قواته . وشق طريقه مستخدما الطرق الداخلية التى يستعملها العرب تحت ستار من التضليل والتمويه ...

● وقال القائد الاسرائيلى للصحف الغربية : « كان مصيرنا يعتمد على هذه المعركة ، وهذه المحاولات والا فالموت لنا » .

● وتحت نيران المدفعية الكثيفة ، والمدافع المضادة للدبابات ومدافع الماكينة وصـــــل اللواء الاسرائيلى الشمالى من قوات « جنرال تال » خارج خان يونس وقد دمرت له ٦ دبابات ، ومات ٣٥ قائد دبابة ، وكانت ضربة الطيران المصرى قد تمت ، ولم يعد لقواتنا البرية غطــاء جوى يحمى هجومها .

وقال « تال » بعد ذلك : « ان هذا الاختراق لم يتم الا بخسائر جسيمة فى الوقت الذى كان اللواء الثانى التابع لقيادتى يزحف الى الجنوب فى محاولة للالتفاف حول الأجناب المصرية والقفز خلف الحصــون وحقول الألغام المصرية أيضا متقدما جنوبا من رفح » .. وعندما قاموا بالهجوم على مؤخرة التشكيل المصرى كان هناك لواء مصرى يطلق نيرانا كثيفة من مواقعه المحصنة ، واستمرت النيران مفتوحة طــوال الليل تهل كالأمطــار حتى جاءت القوات الجوية الاسرائيلية لتلقى بصواريخها فوق مواقعنا ، بعد أن كبدنا العدو خسائر ضخمة فى الأرواح والعتاد .

● يقول القائد الاسرائيلي : لقد كانت المدفعية المصرية مختبئة بين الكثبان في مخابيء خرسانية تحت الأرض تطلق نيرانها في دفعة واحدة علينا مثل البرق على طول ارض المعركة ، وكان من المتعذر اكتشافها ، ولم تدمر دباباتنا سوى القليل منها ، وكنا نتقدم على الضوء المنبعث من هذا الوميض ! .

● وفي الوقت نفسه كان « جنرال يوفيه » على بعد ٢٠ ميلا جنوبا عبر بحر من الكثبان الرملية تجاه بير لحفن مع لواء مدرع وفي مدى ٩ ساعات تقدم ٦٠ ميلا ، فوصل ١٢ مساء وهناك عمل على وضع قواته في موقع تعطيلي عبر الطرق الممتدة من جبل لبني وابو عجيلة الى العريش لمنع وصول أي تعزيزات مصرية ، فجاء لواء مشاة ميكانيكي مصري واصطدم بقوات يوفيه واستمر القتال ليل نهار حتى ظهر اليوم التالي حيث انسحبت قواتنا بعد توجيه ضربات جوية اسرائيلية اليها .

● ان السيطرة الجوية لاسرائيل هي وحدها التي مكنت من التقدم الاسرائيلي على طريق رفح — العريش ، ولقد كانت ابو عجيلة نقطة الاختراق الثاني حيث كانت قوة لواء مصري مدعمة اعترضت العدو الاسرائيلي بصورة فعالة في خط تقدمه الرئيسي بالقرب من العوجة الى الجزء الأوسط من شبه جزيرة سيناء ، وقال « اريل شارون » قائد مجموعة عمليات اسرائيل ضد ابي عجيلة :

« لقد عملنا على تجنب الهجمات المصرية الأمامية ، وكنا نخشى من القتال المتلاحم الذي يجيده المصريون ، ولم يكن امامنا غير الهجوم الليلي .

● واستمر القتال طوال يوم كامل ، وكان الليل مضيئا كالنهار نتيجة القنابل شديدة الانفجار ، والقنابل الحارقة التى تنفجر عبر المكان باكمله مضيئة بذلك المكان نه ، وقد تسلم « شارون » فى هذه الساعات اقتراحا ن قيادته الجنوبية يطلب منه ارجاء الاقتحام حتى تصله المعونة الجوية .

ويقول شارون : « كانت النيران مروعة ، فلم ار فى حياتى نيرانا مثلها .

● كان « شارون يقود لواء مظلات ولواء مدرع ولواء ميكانيكى وكتيبة اقتحام جوى وست كتائب مدفعية ، ودار القتال المتلاحم بالرغم منه بين قواتنا وقواته ، وفى الليل كان الاسرائيليون المشاة يحملون مصابيح ترسل الوانا حمراء وخضراء وزرقاء حتى لا تحصدهم نيران دباباتهم ، فحصدتهم نيراننا ، واضطر ضابط اسرائيلى برتبة ألوف مشنيه « عقد » اسمه « اساكار » دمرت قواتنا أكثر دباباته ، اضطر لجرها خلف الدبابات السليمة بواسطة اسلاك جر ، واستمر القتال بعد ذلك ثلاثة أيام وليلتين حاصرنا خلالها قوة مدرعة اسرائيلية ، ثم جاء لواء اسرائيلى لفك الحصار المصرى ، وفجأة ظهرت الطائرات المصرية تلقى عليه صواريخها ، وقال « العقيد اساكار » ، لم يبق لدينا أكثر من طلقتين لكل مدفع صالح للعمل ، ونصف صندوق ذخيرة عيار ٥٠ر مدفع ماكينة .

وعقب « جنرال تال » بعد ظهور الطيران المصرى فوق سيناء :

« ـ لقد خرجت من هذا الوادى كرجل عجوز بعد أن شاهدت القتلى والدبابات المحترقة وتصميم المصريين

على الحـرب بلا يأس ، وكانت الضوضاء وحدها تبعث الفزع فى اى قلب » .

●● وهكذا اثبت الطيـــــارون المصريون انهم فى المركة ، لم يقض عليهم كما زعم البعض ، فالشلل الذى أحدثته الضربة الجوية المركزة لطائراتنا كان فى جهاز القيادة العليا للقوات الجوية وليس فى الطيارين ، الذين دخلوا معارك الجو بعد صباح ٥ يونيو ، وكل منهم على يقين تام باستشهاده لا محالة .

كيف حصلوا على مواقع صواريخنا ؟

● ان الحديث عن الطلعــــات الانتحارية لطيارينا وجرأتهم واصالتهم ومعدن تربيتهم العسكرية الأمينة التى تحدث عنها العدو قبل الصديق ، ليس معناه تجـاهل الاهمال الجسيم الذى ارتكبته القيـــادة العليا السابقة للقوات الجوية ، مما جعل الصدمة مركزة قوية على قواتنا الجوية وقواعدها ، ودفاعنا الجـــوى وبطاريات صواريخه المضادة للطائرات المعادية .. غير ان هنـاك حقيقة فى وضوح الشمس ، وهى اعتماد الضربة الاسرائيلية الجوية المركزة على الأقمار الصناعية بالدرجة الاولى .

● لقد استطاعت القيادة الجوية الاسرائيلية الحصول على خرائط ببطاريات الصواريخ المضادة للطـائرات ، ومواقع انتشارها ومدى عملها ، وقد قال أكثر من خبير عسكرى عالمى انه ليس فى استطاعة اى قوات جوية بوسائل الطيران تحديد مواقع هذه الصواريخ المنتشرة فى مليون كيلو متر مربع هى مساحة مصر على الاطلاق ! .

● شيء واحد يستطيع تحقيق ذلك ، وهـو القمر الصناعى الأمريكى ، الذى مد اسرائيل بهـذه المعلومات كوسيلة من وسائل الدعم التكنولوجى الذى الحت به اسرائيل واولا ذلك الدعم لظلت السيطرة الجوية فى المعركة لقواتنا العربية .

● لقد كانت هناك كتيبة صواريخ فى دمياط ونقلت قبل المعركة بأيام قليلة الى بور سعيد ، وكانت اسرائيل على علم بها .. كيف يتأتى لها ذلك دون القمر الصناعى الأمريكى ؟! .

● أن الانجاز لأى قوة جوية فى العالم يعتمد على عدد الطائرات ، ثم نوع الطـــائرات ، ومستوى الخدمة الأرضية ، وتدريب الطيارين ، ونوع المهمة التى ستكلف بها القاذفة أو المقاتلة ، وأخيرا رحلة الذهاب ، والوقت المطلوب للعمل خلاله فوق الهدف ثم العودة، وبالحسابات الدقيقة والادراك المتفتح يمـــكن أن تستغل أى قيادة عسكرية ، قوتها الجوية أفضل استغلال ، وبدون ذلك تنقلب الموازين راسا على عقب ، كأن تفاجأ هذه القوة بما يشل قدرتها على أداء الانجاز المحسوب . ان التحليل العادى الموضوعى غير المنحاز يضع فى الاعتبار ان المفاجأة بالنسبة لنا كانت شبه كاملة ، لكن الاحصائيات الرسمية للتصرفات الشخصية التى وقعت من قادة الوحـدات الجوية حتى الطيار الرابض فى الطائرة غير المصابة ، تقول لنا بأن أبطالنا استطاعوا القيام بمائتين وخمسة وخمسين طلعة انتحارية بعد نجـــاح الضربة الجوية الاسرائيلية لقواعدنا ! .

● هذه هى المعجزة .. ان يقوم طيارونا وممرات مطاراتهم مضروبة بقنبلة الممرات ، والصواريخ المصرية ،

والمدافع المضادة للطائرات تعمل معا فى وقت واحد فوقهم والقنابل الزمنية تنفجر بلا توقف فى اركان المطارات ، أن يقوم طيارونا بطلعات انتحارية فى هذه اللحظات ، ويستشهد بعضهم أثناء الاقلاع ، والبعض الآخر يستشهد وهو يواجه عشرات من طائرات العدو تنتظر صعوده اليها وقد تربصت له فى أشد مناطق الجو حساسية ، وآخرون يقاتلون حتى ينفد وقودهم فلا يجدوا سبيلا للعودة ، ومن عاد وجد مطاره وقد دمرت قنابل الطائرات الاسرائيلية ممراته تماما .. ان يقوم طيارونا بهذه العمليات ، والصواريخ المصرية فى السماء لا تفرق بين جسم مصرى أو اسرائيلى ..

● قال « الجنرال مردخاى هود » قائد الطيران الاسرائيلى عام ١٩٦٧ فى تقريره الى مجلس الحرب :

« — ان سلاح الطيران المصرى ظلّ دائما مصدر تهديد رئيسى لنا ، وكنا نشعر بقلق حقيقى تجاه تهديد قاذفات القنابل المصرية المتوسطة من طراز «بادجر ت. يو ١٦» » .

● واعترف بأنه خسر ١٩ طائرة خلال هجومه صباح ٥ يونيو و ٣٤ طيارا باصابة نيران الطائرات المصرية التى كانت تقوم بدورياتها فى الجو اثناء ضرب القواعد المصرية .

● وقال « مردخاى » للصحفى الأمريكى وارين ويتمور المحرر بمجلة « افيشن ويك أند سبيس تكنولوجى » الأمريكية العلمية :

« — منذ ١٦ عاما ونحن نعيش مع هذه الخطة التى طبقناها فى يونيو ١٩٦٧ ، كنا نعيش معها ، وننام معها ، ونأكل معها ، كانت كل شىء بالنسبة لنا ، ولقد قضينا

عدة اعوام بعد ذلك نتدرب على نوع معين من الهجـوم على الطائرات وهي رابضة فوق الأرض ، لا على القتال الجوى ، وكنا نتدرب فى النقب على اربعة أو خمسة انواع من المدى » !! .

وعاد يقول :

« ولم يكن لمخابراتنا اى عمل غير نشاط وتحرك القوات الجوية المصرية ، ومواقع وتفاصيل قواعدها ، وانتشار طائراتها ومواقع صواريخها وراداراتها .

بداية العمليات

● قدرت اسرائيل فى حساباتها ســـاعتين وخمس دقائق لمهاجمة مطاراتنا ، وكانت هذه الحسابات دقيقة للغاية اذ حددت الآتى :

ــ اذا أقلع الطيار الاسرائيلى من مطار حاتسور او اللد أو الرملة او رامات ديفيـــد ، أو أى مطار وسط اسرائيل الساعة ٨٫٣٠ صباحا بتوقيت القاهرة ــ ٧٫٣٠ بتوقيت اسرائيل ، تكون الرؤيا فوق مناطق كثيرة من النيل وفوق الدلتا وقناة السويس واضحة حيث يزول الضباب الذى ينتشر فوق هذه المناطق فى ذلك الوقت من العام ، ويصـــل الطقس الى مثـــاليته فى الشـــامنة والنصف صباحا ــ ٧٫٣٠ بتوقيت اسرائيل ، وتبلغ الرؤيا بالنسبة للطيـــارين درجة عالية بسبب زاوية الشمس ، ووصول الهواء الى غاية سكونه مما يساعد على الدقة فى اسقاط القنابل على الممرات .

وثمة عامل آخر ، وهو استطاعة العدو الوقوف على نمط الحياة داخل قواعدنا الجوية ، كذهاب القادة الذين

تتمركز فى أيديهم كل السلطات حوالى التاسعه صباحا، فاذا بدأ الضرب قبل ذلك بخمس عشرة دقيقة سيكون هؤلاء القادة فى الطـــريق ، لا فى بيوتهم أو مكاتبهم ، والطيارون يعودون من وضع المظلة أو فى طريقهم الى دورات التدريب فتعجز القواعد المصرية عن الرد حتى يصل قادتها الى قياداتهم .

● ولقد ارسل الاسرائيليون عدة أجـــهزة رصد طائرات جنوبا فوق خليج العقبة مما أوحى بأنهم يخططون للهجوم بانحناء شمال الطريق الجنوبى من شبه سيناء بدلا من الهجوم بانحناء يمينى من فوق البحر المتوسط ولذلك عندما اقلعت طائراتنا من قواعدها جنوبا للقتال الاعتراضى شمالا ثم عادت الى قواعدها فوجدت الممرات غير صالحة للنزول ، وقع بعضها فريسة لكمين جـوى اسرائيلى بأضعاف اضعافها ! .

ولقد اقلعت الطائرات الاسرائيلية على فواصل زمنية زمنية محددة بهدف الوصول الى مطاراتنا البالغ عددها ١١ مطارا ، وذلك لتحقيق المفاجأة القصوى ، فى الوقت الذى كانت تنتشر طائرات العدو بين ٥٨ مطارا ! وطارت على ارتفاع لا يتعدى ٣٠ قدما فوق مستوى البحر حتى تبقى أسفل الرادار المصرى وقد كانت القيادة الاسرائيلية يساورها القلق من الردارات المصرية التى عملت بدرجة تكشف عالية ، ثم هاجمت رفوف أربع طائرات مستخدمة سلسلة انحناءات يمينية دائرية قصيرة فوق البحـــر الى القواعد القائمة حول القـــاهرة وسيناء والقناة ، والبعض الآخر من الطائرات المعادية أخذ شكلا مستقيما لمهاجمة قواعدنا فى الوجه القبلى ، وخلال كل ذلك كانت اجهـزة الاعاقة والشوشرة الالـكترونية قد بلغت ذروة

التشويش على الأجهزة المصرية ، والفضل فى ذلك يعود الى الباخرة ليبرتى وغيرها .

● كانت رحلة الذهاب بالنسبة للطائرات المهاجمة تستغرق ٢٠ دقيقة في المتوسط . فاذا أقلعت ٨٫٣٠ صباحا تكون فوق الهدف المصرى ٨٫٥٠ وتظل فى مهاجمة المطار ، ابى صوير مثلا حتى ٨٫٥٧ ثم تعود وتستغرق فى العودة ٢٠ دقيقة أخرى حيث تصل قاعدتها ٩٫١٧ ، وتبدأ عملية ملء الخزان والتفتيش والصيانة والتزود بالذخيرة فتستغرق مابين٧دقائق ونصف دقيقة كأقصى وقت أو نصف ساعة ، وكل منها زمن قياسى لم يتحقق فى العالم من قبل ، اذن أن المعدل لهذه العملية ساعتان .

● ان الدعم التكنولوجى والمتطوعين الذين ذهبوا لاسرائيل كانا خلف نجاح هذا الأسلوب .

وقد حرصت اسرائيل على أن تغطى مطاراتنا بالنيران طوال الزمن الذى قدر للعملية ، وحرصت على تغطيتها أيضا خلال الدقائق الخالية لعودة سرب ووصول سرب آخر فجعلت من كل سربين خصصتهما لمهاجمة مطار مصرى ستة رفوف جوية ، الرف الأول يقلع ٨٫٣٠ صباحا ، والثانى ٨٫٤٠ ، والثالث ٨٫٥٠ ليكون الأول فوق الهدف ما بين ٨٫٥٠ حتى ٩٫١٧ ، ثم يتولى الرف الثانى العمل ما بين ٩٫١٠ حتى ٩٫٣٠ ، والرف الثالث حتى ١٠٫١٤ ، وهنا وجد « مردخاى » انه بين الساعة ٨٫٥٧ صباحا بداية الهجوم ، والساعة ١٠٫٠٧ دقائق ستكون المطارات المصرية طوال ٧٠ دقيقة دون غارات فوقها ، ولذلك خصص السرب الثانى لتستمر العملية حيث تغطى قواعدنا بطلعات مهاجمة طوال هذا الزمن

الخالى ، وبهذه الوسيلة اصبحت مطـاراتنا غير مغطاة بالطائرات الاسرائيلية لمدة ١٣ دقيقة فقط .. كمـــا تكفلت القنابل الزمنية بتغطية هذه الفترة ايضا .

● وقد القت اسرائيل القنابل الزمنية خلال هجماتها لتجعل استمرار العمل او الحياة بالمطارات خلال هـذه الدقائق الثلاث عشرة مستحيلة بواسطة الانفجـارات الأرضية التى شهدتها هذه المطارات ، كذلك استعملت القنبلة المعروفة بقنبلة الممرات تلقى ثم تعمل فى مؤخرتها صاروخ « كابم » ليوقف دفع القنبلة الى الأمام ، ويبدأ هذا الصاروخ المضاد فى تهبيط سرعتهـا حتى درجة الصفر . ثم تتحول القنبلة وتأخذ شـكلا أفقيا فيرسل اليها صاروخ ثان غير مضاد ،. أى فى الاتجاه الحقيقى له حتى درجة الصفر ، ثم تتحول القنبلة وتأخذ شـكلا أفقيا فيرسلون اليها صاروخا ثانيا غير مضاد . اى فى الاتجاه الحقيقى له حتى يصل بالقنبلة الى سرعة الصوت عندما تصل الى مسافة ٢٠ قدما نحو الأرض فتخترق الممر الجوى من ٥ر١ حتى ٤ أمتار ، ثم تنفجر وتحـدث حفرة نصف قطرها يتراوح حسب تربة الأرض بين متر وثلاثة أمتار ، وليس هذا فحسب ، بل ان بعض الصواريخ قد تنفجر بعد ساعة أو ٣ ساعات حتى تتسبب فى خسائر بشرية كبيرة ! وبهذه القنبلة يتعذر الى حد ما اصلاح الممرات الجوية سريعا ، اذ أن هذه القنبلة التى تزن من ٥٠٠ رطل الى ألف رطل ما أن تخترق الخرسانة للتفجير حتى تقوم طابة زمنية تضبط وفقا لتأخير زمنى معين متغير بتحديد لحظـة الانفجار ، فتظل الممرات فى حالة انفجارات بين لحظة واخرى ! .

● وبالرغم من هذه الخطة المكبلة لنا فقد قام طيارونا

فى يوم ٥ يونيو بـ ٣٢ طلعة عمليات بقوة ٥٥ طلعة قتال جوى ، وفى اليوم الثانى ٤٩ طلعة عمليات بقوة ١٢١ طلعة طائرة ، وفى اليوم الثالث ٣٠ طلعة عمليات بقوة ٤٧ طلعة طائرة ، وفى اليوم الرابع ٢٢ طلعة عمليات بقوة ٣٧ طلعة طائرة ، وفى اليوم الخامس بعد توقف وقف اطلاق النار بواسطة مجلس الأمن قام أبطالنا بطلعتى عمليات بقوة سبع طلعات طائرة .

● لقد قام طياران مصريان الساعة ٨٫٥٥ صباحا يوم ٥ يونيو وكان مطار ابو صوير يضرب فى تلك اللحظة ، قاما منه بقيادة طائرتى ميج ٢١ ، لفك الحصار الجوى الاسرائيلى عن الممر ، وسقط أحدهما شهيدا فقد كان فى الجو ٤ طائرات ميستير تنتظره لحظة اكتساب طائرته للارتفاع والسرعة أثناء اقلاعها ، وفى هذه اللحظات الحرجة لا تستطيع الطائرة المقلعة اطلاق صواريخها بسبب الضغط الجوى ، وتكاد تصبح عزلاء من أسلحتها تماما ، وقام الطيار الثانى بعمل معركة اعتراض جوى ، واثناء هبوطه دخلت احدى عجلات طائرته فى حفرة بالممر فاختل توازن الطائرة ، واستشهد البطل الثانى .

● لقد قام رجالنا الخالدون بخمس وخمسين طلعة فى اليوم الأول ، وبمائة واحدى وعشرين طلعة فى اليوم الثانى ، اى بمعدل ٨٣ طلعة فى اليوم الواحد ، وهذا أداء شخصى فردى بحت يعود الى الشجاعة والايمان والرغبة الصادقة فى اداء الواجب أنبل ما يكون الأداء دون أوامر او خطة عمليات .

●

ليس ما سبق من صفحات هو تسجيل كامل ليوميات

العمليات الحربية فوق سيناء خلال جولة ١٩٦٧ ـ ولـكنه محاولة اجتهادية قمت بها كصحفى ظل يطوف بمختلف التشكيلات العسكرية فى أنحاء مسرح المعركة حتى ظهر ٨ يونيو ... المهم ان التـاريخ سجل ابشع الهزائم التى لم يكن للمقاتل المصرى بها ادنى صلة ـ ولكنها الحقت به عن عمد وكما يقول البعض عن خيانة !

● وجاء يوم ١٠ يونيو ـ واصدر الرئيس الراحل قراره بتعيين الفريق أول محمد فوزى قائدا عاما وقيل يومهـــا أن ماضى هــذا القـــائد كفيل بارهاب أى ضابط بقى فى الخدمة ومنعه من التفكير أو التساؤل او مناقشة مسئولية جمــال عبد النــاصر فيما حدث من خسائر ونكبات ، وكان هذا صحيحا وقد اعترف بذلك محمد فوزى لعدد من كبـــار قادته العسكريين عام ١٩٦٩ ـ وكانوا يتندرون ببطشه بعيــدا عنه ـ كمـا اعترف به عبد الناصر أيضا عام ١٩٧٠ ، وهــو يزور القنطرة غرب وقوات المشاة هناك ..

● ومرت الأيام بطيئــة كئيبة وعبــد الحكيم عامر وشمس بدران وأعوانهمــا فى عزلة تامة داخل بيت المشير بالجيزة ـ كل نشاطهم تحت رقابة سرية مكثفة ـ فرضها عبد الناصر عليهم ـ ولكنه كان فى نفس الوقت يخشى استطاعة عامر تحريك الجيش ضده وهو ما كان عامر يعتزم القيام به فعلا ـ وفى ليلة « ١٢ » اغسطس عام ١٩٦٧ ـ لبى عامر دعوة عبد الناصر وذهب الى لقائه فى منشية البكرى سعيا للصلح وقضى عامر هناك ما يقرب من خمس ساعات فى شبه محاكمة له ـ حضرها بعض أعضـــاء مجلس قيادة الثورة بدعوة من عبد الناصر ، وقيل أن « عامرا » فقد أعصابه أكثر من

مرة وحاول منع عبد الناصر من مغادرة حجرة الاجتماع — عنوة — فتصدى له الحرس ، ومزقوا له ملابسه وأرغموه على دخول سيارته التى عادت به الى الجيزة ، ليكتشف ان كل ضباطه قد قبض عليهم — وانه فى وضع أقرب الى الأسير ، وفى عصر اليوم التالى نقل عامر الى مستشفى المعادى محوطا بالفريق اول محمد فوزى والفريق الشهيد عبد المنعم رياض رئيس الأركان بعد النكسة — ومن المعادى الى احدى الاستراحات السرية بترعة المريوطية بالهرم — وفى الساعة السابعة والنصف من مساء « ١٤ » سبتمبر — ذهب الرجل المشير عبد الحكيم عامر الى لقاء ربه .

●

وبدات المحاكمات العسكرية ، علنية وسرية محاكمات للضباط الذين انقادوا لعامر وحاولوا اعادته للسلطة أو خلع عبد الناصر عن السلطة ، وبعض الضباط الذين تقاعسوا عن اداء واجباتهم المريبة فى الميدان فجاءوا بالهزيمة ... واقول « بعض » الضباط لأن عددا ليس بقليل من المسئولين عن الهزيمة لم يحاكم ، بل بقى فى مواقعه ونال الترقيات مكافأة على وفائه واعلان رفضه الصريح لعامر ورجاله — وبين هذه المحاكمات تبرز محاكمة قادة الطيران التى تعنينا بالدرجة الأولى ونحن نتحدث عن ١٩٦٧ .

● ● ان من حق المرء ان يتساءل بعد مرور ١٣ سنة على تلك النكبة السوداء .. لماذا لم نسمع عن مسئولية اللواء — الفريق أول فيما بعد محمد احمد صادق مدير المخابرات الحربية قبل فترة قصيرة من يونيو ، والى

عام ١٩٦٩ ، حيث تولى منصب رئيس الأركان خلفا للواء المشير فيما بعد أيضا احمد اسماعيل ؟ .

● هل كان دوره الذى قام به فى تصفية ضباط عامر والقبض عليهم ــ خلف تجاهل محاسبته كمدير لادارة المخابرات الحربية اثناء النكسة ؟ .

● لماذا لم نسمع دفاع العقيد مسعد الجنيدى المسئول عن الاشارة والشفرة فى القيادة العامة ــ لنعرف لماذا تغيرت الشفرة السرية صباح ٥ يونيو بين عجلون بالأردن ، والقاهرة ؟ .

● ان هذه الشفرة السرية لو لم تتبدل صباح ٥ يونيو لما وقعت الكارثة ــ هكذا قال الشهيد الفريق عبد المنعم رياض أمام المحكمة العسكرية برئاسة الفريق صلاح الحديدى والتى حاكمت قادة الطيران !! .

● لماذا لم نسمع ما لدى الفريق متقاعد صلاح محسن قائد الجيش فى سيناء حتى يونيو ١٩٦٧ ــ ومساعد وزير الدفاع بعد النكسة ؟ .

● لقد قال قادة الطيران أثناء محاكمتهم انهم قدموا ورقة فى شكل تعهد وقعه الرئيس الراحل ويقول فيه ستكون الضربة الجوية الاولى من نصيب قواتنا الجوية ــ وتاريخ هذه الوثيقة ٢٨ مايو ١٩٦٧ ــ وروى لى اللواء طيار متقاعد اسماعيل لبيب رئيس شعبة عمليات الطيران المصرى وقائد مخابراته حتى ٥ يونيو ــ بعد أن غادر السجن عام ١٩٧٤ ــ روى لى ذات لقاء معه فى الأيام الأولى من يونيو ١٩٧٧ ــ عن هذه الوثيقة فقال ان الفريق صلاح الحديدى رئيس المحكمة أمر بضمها الى القضية ثم عاد صباح اليوم التالى ورفض الحديث

عنها أو مناقشتها ـ بل وثار غاضبا على هيئة الدفاع ـ قائلا ـ انها وثيقة تتصل بالقيادة السياسية ونحن هنا نجرى محاكمة عسكرية ميدانية ! .

● وصمت الجميع ...

● وها قد طال الصمت ...

● وعدد ليس بقليل ممن حوكموا عسكريا بسبب النكسة وغادر السجن قبل منتصف السبعينات يقول انه يجب اليوم أن يسمع الشعب دفاعنا ، وأن تذاع كل الحقائق ، لا أدلة الاتهام والادانة ثم الأحكام فقط .

●● لقد آن لنا أن نكسر هذا الحاجز الرهيب من الصمت ، قبل أن يصبح من الصعب والمستحيل وصولنا الى الحقيقة ...

فهرس

أسعار البيع للجمهور فى البلاد العربية :

ثمن النسخة فى البلاد العربية لهذا العدد فئة ٣٠ قرشا للقارىء فى مصر

سوريا	٤٠٠ ق.س
لبنـــان	٣٥٠ ق.ل
الاردن	٣٥٠ فلس
الكويت	٤٥٠ فلس
العراق	٥٠٠ فلس
السعودية	٥ره ريال سعودى

الترقيم الدولى ٧ ـ ٦٧ ـ ٧٠٣١ ـ ISBN ٩٧٧

رقم الايداع بدار الكتب والوثائق القومية ٣٠٩٤/٨٠

وكلاء اشتراكات مجلات دار الهلال

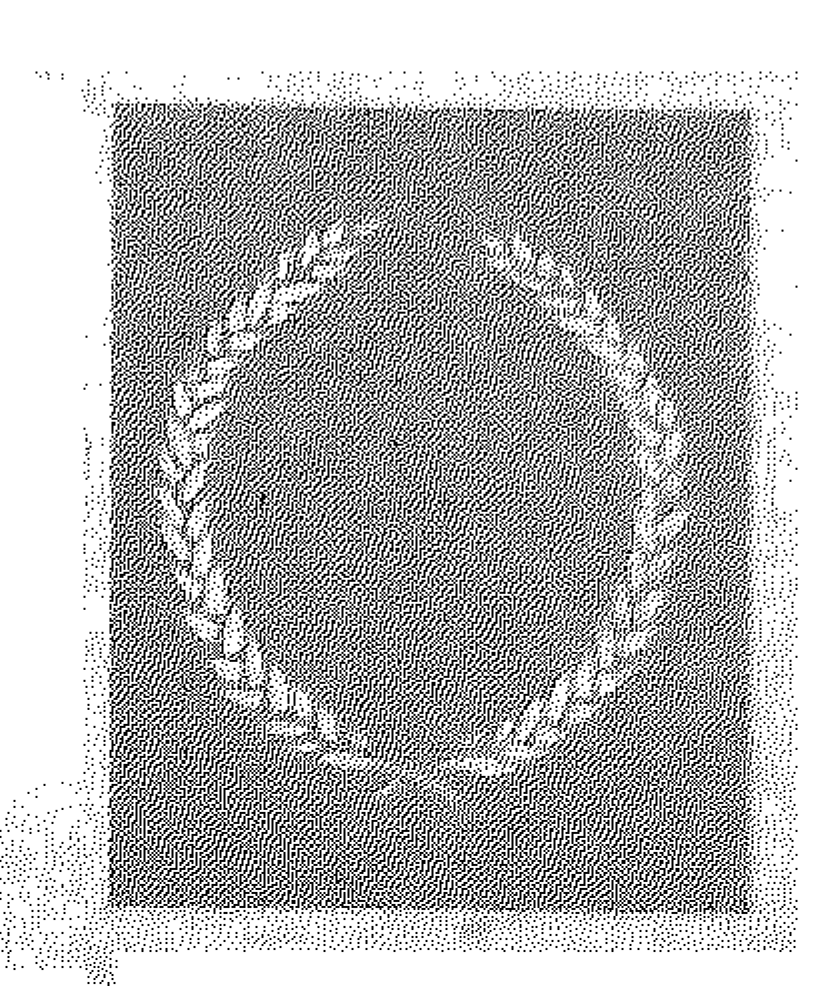
جدة ـ ص • ب رقم ٤٩٣
السيد هاشم على نحاس
المملكة العربية السعودية

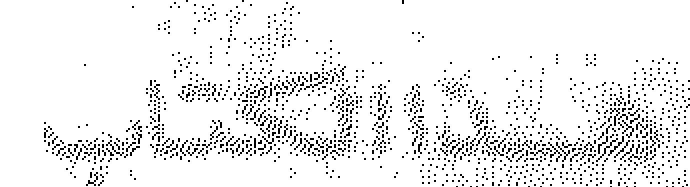
انجلترا : THE ARABIC PUBLICATIONS
7. Bishopsthrope Road
London S.E. 26
ENGLAND

البرازيل : M. Miguel Maccul Cury.
B. 25 de Maroc, 994
Caixa Postal 7406,
Sao Paulo. BRASIL.

اسعار البيع للجمهور فى البلاد العربية للاعداد العادية من « كتاب الهلال » الشهرى بسعر ٢٠ قرشا للقارىء فى مصر .

سوريا : ٣٠٠ ق.س ثلاثمائة قرش سورى
لبنان : ٢٥٠ ق.ل « مائتان وخمسون قرشا لبنانيا »
الاردن : ٢٥٠ فلسا « مائتان وخمسون فلسا اردنيا »
الكويت : ٣٥٠ فلسا « ثلاثمائة وخمسون فلسا كويتيا »
العراق : ٤٠٠ فلس « اربعمائة فلس عراقى »
السعودية : ٤ ١/٢ ريال « اربعة ريالات ونصف ريال »





هذا الكتاب

ليس هذا الكتاب هو الاول او الاخير الذى يبحث فى تلك الفترة التعسة من تاريخ مصر ـ واعنى بها هـزيمة يونيو ١٩٦٧ ـ بحثا عن « الحقيقية » التى لا غنى عنها مهما طال الوقت ومهما حاولوا طمسها ـ لا غنى عنها للتاريخ والاجيال القادمة ..

● « مأساة عبد الحكيم عامر » ليس كتابا يدور فى فلك الرجل الذى برز فوق مسرح السلطة طوال ١٥ عاما عرضا وطولا ـ اى ليس كتابا عن القائد الذى انتهت حياته بمأساة كبرى الحقها ببلاده ، قبل وفاته بقدر ما هو « اضافة » لم تنشر من قبل الى المحـاولات الجادة الصادقة التى تؤرخ عن معايشة كاملة لتلك الفترة من عمر ثورتنا ـ ثورة يوليو ١٩٥٢ .

● ولقـد حرص المؤلف على « الموضـوعية فى اعـداد فصـول هـذا الكتاب ، مبتعـدا عن التحليـلات والاستنتاجات ، ذلك لان تلك الفترة بداية بعام ١٩٥٢ ، حتى وقوع « النكسة » او النكبة عام ١٩٦٧ ـ وما بعدها حتى عام ١٩٧٠ ـ ورحيل جمال عبد الناصر ـ لم تكتب بعد حتى الان بموضوعيه صـادقه ـ تسمح لنا بالتحليل واصدار الاحكام .

● اننا مطالبون امام الاجيال الجديدة من شعبنا بان نقدم لهم كل ما لدينا من معلومات دون حجبها او حجب بعضها على الاطلاق .. وقد لا يمكن تحقيق هذا الهدف على الوجه الاكمل ، ولكن لا باس من المحاولة تلو المحاولة ..

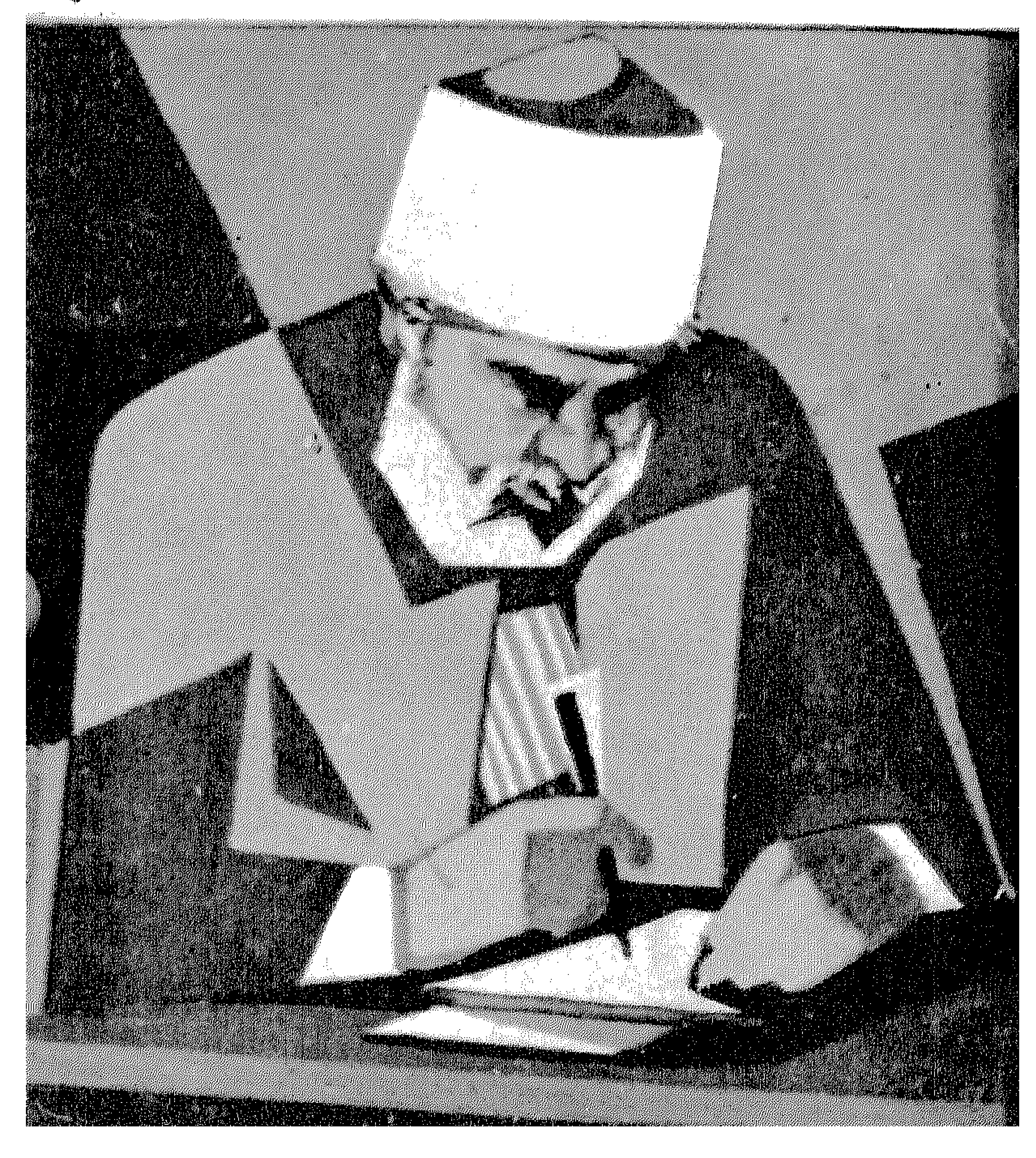
كتاب الهلال

سلسلة ثقافية شهرية

رسالة التوحيد

للإمام محمد عبده

د. محمد عماره



كتاب الهلال

KITAB AL-HILAL

سلسلة شهرية تصدر عن « دار الهلال »

رئيسة مجلس الإدارة : أمينة السعيد

نائب رئيس مجلس الإدارة : صبري أبو المجد

رئيس التحرير : د. حسين مؤنس

سكرتير التحرير : عايد عياد

العدد ٣٥٥ ـ شعبان ١٤٠٠ ـ يوليه ١٩٨٠

No. 355 — Guly 1980

مركز الادارة

دار الهلال ١٦ محمد عز العرب

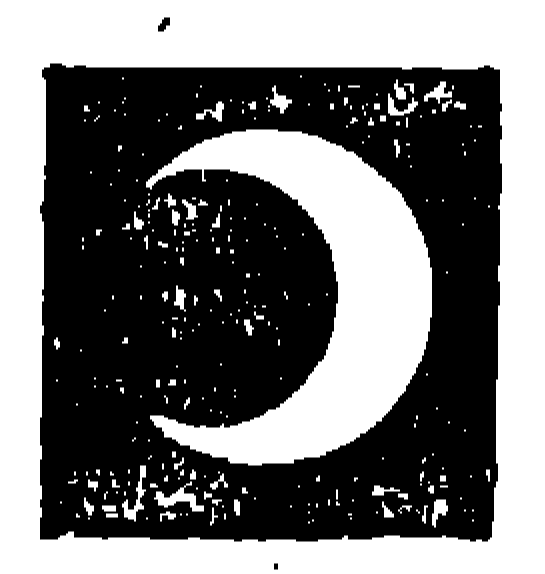
تليفون ٢٠٦١٠ (عشرة خطوط)

الاشتراكات

قيمة الاشتراك السنوى ـ ١٢ عددا ـ في جمهورية مصر العربية جنيهان مصريان بالبريد العادى • وبلاد اتحادى البريد العربى والافريقى وباكستان ثلاثة ونصف جنيه مصرى بالبريد الجوى • وفى سائر انحاء العالم سبعة دولارات بالبريد العادى وخمسة عشر دولارا بالبريد الجوى •

والقيمة تسدد مقدما لقسم الاشتراكات بدار الهلال فى ج٠ م٠ ع٠ بحوالة بريدية غير حكومية وباقى بلاد العالم بشيك مصرفى لامر مؤسسة دار الهلال وتضاف رسوم البريد المسجل على الاسعار الموضحة اعلاه عند الطلب •

كتاب الهلال



سلسلة شهرية لنشر الثقافة بين الجميع

الغـــــلاف بريشـــة
الفنانة : سميحة حسنين



دراسة وتحقيق

الدكتور محمد عمارة

دار الهلال

هــذه الـرســالـة

ان كتابا يكون موضوعه :

● الله ، جل جلاله .. وصفاته .. وافعاله ..

● والانسان .. ومكانته وافعاله ..

● والرسالة والنبوة ـ عامة ـ ولمحمد بن عبد الله ، صلى الله عليه وسلم ، على وجه الخصوص ..

● والقرآن الكريم .. معجزة الاسلام ورسوله ..

● ثم .. هذه العقائد والأصول ، كما تبلورت فى الشريعة الاسلامية ـ وهى رسالة الله الدينية الى محمد وأمته .. ورسالة العرب الحضارية الى الانسانية جمعاء ! ..

ان كتابا يكون هذا موضوعه لهو على جانب عظيم من الخطر والأهمية ... وهذا هو موضوع (رسالة التوحيد) ؟! ..

وعندما يكون كاتب (رسالة التوحيد) هذه هو الأستاذ الامام الشيخ محمد عبده (١٢٦٦ ـ ١٣٢٣ هـ ١٨٤٩ ـ ١٩٠٥ م) ، ابرز أعلام مدرسة التجديد الدينى فى عصرنا الحديث . فان هذه (الرسالة) تزداد اهمية . وموضوعها يتزايد خطرا ؟! ..

فقبل عصر يقظتنا وتنويرنا ونهضتنا ، التى أسهمت مدرسة التجديد الديني هذه في صنعه بالنصيب الأوفى ، كانت عقائد هذه الأمة واصول دينها قد رانت عليها الجهالات والبدع والخرافات .. وتحولت اغلب كتب (التوحيد) خلال العصر « المملوكى ـ العثمانى » الى « متون » و « حواشى » تمتلىء بالجدل اللفظى العقيم ، وتغرق عقل هذه الأمة فى طوفان من القصص الخرافى والاسرائيليات ! ..

ثم كانت (التعليقات) التي أملاها رائد مدرسة التجديد الدينى جمـــال الدين الأفغانى (١٢٥٤ ـ ١٣١٤ هـ ١٨٣٨ ـ ١٨٩٧ م) على تلاميذه .. وهى (التعليقات) التى قدمها على « شرح الدوانى (١) للعقائد العضدية (٢) » .. كانت هذه التعليقات أول نص حديث فى الالهيات الاسلامية ، ينظر فى عقائد الأمة بعقل مستنير ، ويقدم لها ـ مع النقد والاضافة ـ فكر فلاسفتها الالهيين ، الذين صنعوا بابداعهم عصر الازدهار الحضارى للعرب والمسلمين ..

لـكن هذه (التعليقات) قد ظلت ـ لعمقها الشديد وتخصصها الأشد ـ كتابا « للخاصة » من المفكرين المتفلسفين (٣) ! ..

---

(١) جلال الدين الدوانى (٨٣١ ـ ٩١٨ هـ ١٤٢٧ ـ ١٥١٢ م) من فلاسفة الاسلام وقضاة فارس فى عصره .. كتب بالفارسـية الى جانب العربية ، وترك مشروحا على عدد من نصوص علم الكلام .

(٢) عضد الدين الايجى (٧٥٦ هـ ١٣٥٥ م) من علماء الكلام والاصول واللغة والبلاغة والتاريخ ، وكتابه : (المواقف) أحد المراجع الشهيرة فى علم الكلام .

(٣) حققنا هذه (التعليقات) ونشرناها فى الجزء الاول من طبعتنا الجديدة (للاعمال الكاملة لجمال الدين الافغانى) بيروت سنة ١٩٧٩

ومرت السنوات .. وجمهور هذه الأمة وعامة مثقفيها يتطلعون الى كتـــاب فى « الالهيات » ، يصحح لهم العقيدة ، ويحرر فيهم العقـــل ، ويمثل فى مكتبتهم رأى مدرسة التجديد الدينى فى أصول الدين وعقائده ، حتى كانت هذه الرسالة ــ (رسالة التوحيد) ــ التى كتبهـــا الأستاذ الامام ، لتنهض بهذا الدور الهـــام والعظيم ! ..

***

ونحن ، فى هـــذه الدراسة التى نقدم بهـــا هـــذه الطبعة من طبعات (رسالة التوحيد) ، لن نعمد الى الترجمة لحيـــاة الأستاذ الامام ، ولا الى الحديث عن فكره التجديدى والدور الذى نهض به فى تحرير عقل الأمة العربية الاســـلامية من قيود التقليد والخرافة ، وأثر ذلك فى التنوير والنهضة اللذين جعـــلا العرب والمسلمين يتجاوزون عصورهم المظلمة الى رحاب عصرهم الحديث ! .. لن نتحدث ، هنا ، عن ذلك ، لأننا قد صنعناه عندما قدمنـــا (للأعمال الـكاملة للامام محمد عبده) بدراسة مستفيضة اقترب عدد صـــفحاتها من الثلاثمائة ــ وهى الدراسة التى نرجو أن نقدمهـــا ، قريبا ، فى كتاب مستقل ، ليتيسر الحصول عليها لجمهور أوسع من جمهور (الأعمال الـكاملة) (١) .. وأيضا .. فلقد سبق وترجمنا للأستاذ الامام فى « كتيب » عن (سيرته وأعماله) (٢) .. ثم فى نهاية كتابنا عن « الاسلام

---

(١) صدرت الطبعة الاولى من هذه الاعمال ، ببيروت ، سنة ١٩٧٢ م .. وتحت الطبع الان ، طبعتها الثانية .

(٢) صدر عن « دار القدس » ببيروت ..

والمراة فى راى الامام محمد عبده » (١) عقدنا فصلا عن حياته ودوره فى التجديد .

فقط .. نريد هنا أن نشير ـ مراعاة للحيز ، والمقام ـ الى نقاط تلقى بعض الضوء على (رسالة التوحيد) التى نقدم بين يديها :

● فهذه الرسالة هى واحدة من اهم نصوص الأستاذ الامام .. تلك النصوص التى اقتربت صفحاتها ـ فى (أعماله الكاملة) من الأربعة آلاف صفحة ! .. وذلك لخطر موضوعها ، وللمنهج التجديدى العقلانى المستنير الذى عالج الأستاذ الامام به هذا الموضوع .. فموضوعها هو « علم التوحيد » ، وهو ـ كما يقول الامام: « ركن العلم الشديد » ! ... كما تتجلى فى أسلوبها خصائص أسلوب الأستاذ الامام ، كرائد فى التجديد للغة هذه الأمة وأسلوب كتابتها ، بعد عصر الركاكة والمحسنات اللفظية .. الأمر الذى ييسرها للجمهور ، ويجعلها ـ فى ذات الوقت ـ زادا فكريا دسما وعميقا للخاصة من الباحثين والمفكرين ! .. وبعبارة المؤلف فأسلوب (الرسالة) « لا يصعب تناوله ، وان لم يعهد تداوله ؟! » ، الأمر الذى يجعلها تلبى حاجة « القاصر » المقتصد ، دون أن يستغنى عنها « المكاثر » المتبحر فى العقائد والالهيات ! » ..

● وفى هذه الرسالة تبدو الروابط بين « العقائد » وبين « وظائفها » فى واقع الانسان .. فللألوهية دور عظيم فى تحرير روح الانسان وعقله ... الأمر الذى جعل لهذا الانسان مكانة سامية فى الاسلام ، مكانة الخليفة عن الله ، المدعو لأن يتخلق بأخلاق الله ! ..

(١) كتاب الهلال . نوفمبر سنة ١٩٧٩ م .

والموعود من ربه ، أن هو صنع ذلك ، بأن يصبح ربانيا ، اى مسيطرا ، بالوعى ، على قوانين حياته ، حتى ليقول للشىء : كن فيكون ؟! ..

● وفى هذه الرسالة تتجلى نصرة الاسلام « للعقل » كى يهزم « التقليد » ، الذى قتل روح الريادة والمخاطرة والابداع فى الأمة ، حتى عاشت ليل عصـــورها المظلمة فى ظل جهالة المماليك والعثمانيين ! .. فالاسلام ـ كما يقول الأستاذ الامام : « قد انحى على التقليد ، وحمل عليه حملة بددت فيالقه المتغلبة على النفوس ، واقتلعت أصوله الراسخة فى المدارك ، ونسفت ما كان له من دعائم وأركان فى عقائد الأمم ... لقد علا صوت الاسلام، وجهر بأن الانسان لم يخلق ليقاد بالزمام ، ولـكنه فطر على أن يهتدى بالعلم ! .. ولذلك أطلق الاسلام سلطان العقل من كل ما قيـــده ، وخلصه من كل تقليد كان استعبده ، ورده الى مملكته يقضى فيها بحكمه وحكمته ، مع الخضوع لله وحده ! .. » .

● وفى هذه (الرسالة) يظهر الاسلام « بريئا » من تلك الكهانة التى جعلت الدين حرفة يحترفها قوم انتزعوا لأنفسهم سلطان الله ، بل واحتكروا ـ ظالمين ـ هذا السلطان ، ثم سموا أنفسهم « رجال الدين » ! .. يظهر الاسلام ، فى هذه (الرسالة) « بريئا » من هؤلاء « الوسطاء » بين الانسان وربه ، بل و « عدوا » لهذه الوساطة وهؤلاء الوســـطاء ! .. فكما يقول الأستاذ الامام : « لقد مال الاسلام على الرؤساء ، فأنزلهم من مستوى كانوا فيه يأمرون وينهون ، ووضعهم تحت أنظار مرءوسيهم ، يخبرونهم كمـــا يشـــاءون ، ويمتحنون

مزاعمهم حسبما يحكمون ، ويقضون فيهـــا بما يعلمون ويتيقنون ، لا بما يظنون ويتوهمون » ! ..

● وفى هذه (الرســـالة) نرى الاسلام قد أنزل « الماضى » عن عرشه ، الذى احتله بحكم انه « ماض » فقط لا غير ؟! .. فالذين يقدسون « الماضى « ، ويزداد تقديسهم له كلما أوغل فى العتاقة والقدم ، ليس موقفهم هذا من الاسلام فى شىء ... وبعبارات الأستاذ الامام : « .. فلقد سجل الاسلام الحمق والسفاهة على الآخذين بأقوال السابقين ، ونبه على أن السبق فى الزمان ليس آية من آيات العـــرفان .. وانما السابق واللاحق فى التمييز والفطـرة سـيان ، بل للاحق من علم الأحـوال الماضية واستعداده للنظر فيها والانتفاع بما وصل اليه من آثارها فى الـكون ما لم يكن لمن تقدمه من أسلافه وآبائه ؟! » .

● وفى هذه (الرسالة) نرى اية كنوز يضعها الاسلام بين يدى أمته ، لافتا اليها بصرها وبصيرتها ، مهيبا بها أن تفتح هذه الكنوز الميسورة ، وتستثمرها فى النهضة واللحاق ، بل والسبق للآخرين ! ..

فاذا كان العقل ، بنظر الاسلام ، وبعبارات الأستاذ الامام « هو أفضل القوى الانسانية على الحقيقة ! » ..
فان « العقلانية الاسلامية » ــ كما تجسدها فصول هذه (الرسالة) ــ تهيىء للانسان المسلم ، « بمقتضى دينه ، أمران عظيمان ، طالما حرم منهما ، وهما :

أ ــ استقلال الارادة ..

ب ــ واستقلال الرأى والفكر ..

وبهما كانت انسانيته ! ، وبهما استعد لأن يبلغ من السعادة ما هيـــــأه الله له ، بحكم الفطرة التى فطر عليها ! » .

ثم يعقب الأستاذ الامام على ما يهيئه الاسلام للمسلم من استقلال فى الارادة ، والرأى والفكر ... فيستشهد بأقوال حكماء الحضارة الغربية التى تعزو نشأة المدنية الأوروبية الى هذا الاستقلال ! .. وكأنه بذلك يقول لنا : ان نقطة البدء ، ومصدر الانطلاق لمن يريد انهاض الأمة وتقدمها هو الاسلام .. الاسلام كما يفهمه ويفقهه عقل المسلم المستنير ، على النحو الذى تعرضه (رسالة التوحيد) ! ..

تلك « اشارات » على ما فى هذه (الرسالة) من أضواء تنير للمسلم عقله وطريقه .. وما بها من طاقات تدفع خطو هذه الأمة على درب تحـــــررها العقلى وتقدمها الحضارى نحو الأمام ! ..

فالى القارىء العربى والمسلم نقدم هذه الطبعة المحققة لـ (رسالة التوحيد) ، بعد أن قدمناها من قبل ضمن (الأعمال الـكاملة) للأستاذ الامام ..

ولعلها تـكون خير تحية لذكرى هـذا الامام العظيم فى مناســـبة مرور ثلاثة أرباع القـــــرن على وفاته فى ١١ يوليو ١٩٠٥ م ...

فخير ما نحيى به ذكرى مجدد الاسلام أن نقدم للقارىء المسلم ما يجدد الاسلام ! ..

وعلى الله قصــــد السبيل .. فهو ولى العـــون والتوفيق ...

دكتور
محمد عمارة

بسم الله الرحمن الرحيم

تمهيد

الحمد لله رب العالمين، الرحمن الرحيم مالك يوم الدين إياك نعبد وإياك نستعين ، اهدنا الصراط المستقيم ، صراط الذين أنعمت عليهم ، غير المغضوب عليهم ولا الضالين .

(وبعد) .. فلما كنت في بيروت ، من أعمال سوريا ، أيام بعدي عن مصر ، عقب حوادث سنة ١٢٩٩ هجرية(١) ودعيت في سنة ١٣٠٣ (٢) لتدريس بعض العلوم في المدرسة السلطانية ، ومنها علم التوحيد ، رأيت أن المختصرات في هذا الفن لا تأتي على الغرض من افادة التلاميذ ، والمطولات تعلو عن افهامهم ، والمتوسطات الفت لزمن غير زمانهم .

فرأيت من الأليق أن أملي عليهم ما هو أمس بحالهم . فكانت أمالي مختلفة ، تتغاير بتغاير طبقاتهم ، أقر بها

(١) الاشارة الى حوادث الثورة العرابية سنة ١٨٨٢ م .
(٢) الموافقة لسنة ١٨٨٥ ـ ١٨٨٦ م .

الى كفاية الطالب ما أملى على الفرقة الأولى ، فى أسلوب لا يصعب تناوله ، وان لم يعهد تداوله ، وسير منها الى المطـــالب من غير نظر الا الى صــحة الدليل ، وان جاء فى التعبير على خلاف ما عهد من هيئة التأليف ، راميا الى الخلاف من مكان بعيد ، حتى قد لا يدركه الا الرجل الرشيد .

غير ان تلك الأمالى لم تحفظ الا فى دفاتر التلامذة ، ولم أستبق لنفسى منهــا شــيئا ، وعرض بعــد ذلك ما استقدمنى الى مصر ، وكان من تقدير الله أن أشتغل بغير التعليم ، حتى أتى النسيان على ما أمليت ، وذهب عن الخاطر جميع ما ألقيت ، الى أن خطر لى من مدة اشهر خاطر العود الى ما تهواه نفسى ، ويصبو اليه عقلى وحسى . وأن أشغل أوقات فراغى بمدارسة شىء من علم التوحيد ، علما منى انه ركن العلم الشديد .

فذكرت سابق العمل ، وتعلق بمثله الأمل ، ولــكيلا أنفق من الزمن ما أنا فى أشد الحاجة اليه فى انشاء ما أرى التعويل عليه ، عزمت ان أكتب الى بعض التلامذة ليرسل الى ما تلقـــاه بين يدى ، وذكرت ذلك الأخى ، فأخبرنى انه نسخ ما املى على الفرقة الأولى ، فطلبته وقرأته ، فاذا هو على مقربة مما احب ، قد يحتاج اليه القاصر ، وربما لا يستغنى عنه المكاثر ، على اختصار فيه مقصود ، ووقوف عند حد من القول محدود ، قد سلك فى العقـــائد مسلك السلف ، ولم يعب فى سيره آراء الخلف ، وبعد عن الخلاف بين المذاهب ، بعد ممليه عن اعاصير المشاغب .

لــكن وجدت فيه ايجازا فى بعض المواضع ، قد لا ينفذ

منه ذهن المطالع ، واغفالا لبعض ما تمس الحاجة اليه ، وزيادة عمـــا يجب فى مختصر مثله أن يقتصر عليه ، فبسطت بعض عباراته ، وحررت ما غمض من مقدماته ، وزدت ما اغفل ، وحذفت ما فضل ، وتوكلت على الله فى نشره ، راجيا أن لا يكون فى قصره ما يحمـل على اغفال أمره ، أو يغض من قدره ، فما من أحد بأصغر من أن يعين ، ولا بأكبر من أن يعان ، والله وحده ولى الأمر وهو المستعان .

مقدمات

التوحيد : علم يبحث فيه عن وجود الله ، وما يجب أن يثبت له من صفاته ، وما يجب أن ينفى عنه ، وعن الرسل ، لاثبات رسالتهم ، وما يجب أن يكونوا عليه ، وما يجوز أن ينسب اليهم ، وما يمتنع أن يلحق بهم .

اصل معنى التوحيد : اعتقاد ان الله واحد ، لا شريك له . وسمى هذا العلم به تسمية له بأهم أجزائه ، وهو اثبات الوحدة لله فى الذات والفعل فى خلقه الأكوان ، وأنه وحده مرجع كل كون ، ومنتهى كل قصد .

وهذا المطلب كان الغاية العظمى من بعثة النبى صلى الله عليه وسلم ، كما تشهد به آيات الكتاب العزيز ، وسيأتى بيانه .

وقد يسمى علم الكلام ، اما لأن أشهر مسألة وقع فيهـا الخلاف بين علماء القرون هى أن كلام الله المتلو حادث أو قديم ، واما لأن مبناه الدليل العقلى ، وأثره يظهر من كل متكلم فى كلامه ، وقلما يرجع فيه الى النقل، اللهم الا بعد تقرير الأصول الأولى ، ثم الانتقال منها الى ما هو أشبه بالفرع عنها ، وان كان أصلا لما يأتى بعدها ، واما لأنه فى بيان طرق الاستدلال على أصول الدين أشبه

بالمنطق فى تنبيه مسالك الحجة فى علوم أهل النظر ، وابدل المنطق بالكلام للتفرقة بينهما .

هذا النوع من العلم ، علم تقرير العقائد ، وبيان ما جاء فى النبوات ، كان معروفا عند الأمم قبل الاسلام ، ففى كل أمة كان القائمون بأمر الدين يعملون لحفظه وتأييده ، وكان البيان من أول وسائلهم الى ذلك ، لكنهم كانوا قلما ينحون فى بيانهم نحو الدليل العقلى ، وبناء آرائهم وعقائدهم على ما فى طبيعة الوجود أو ما يشتمل عليه نظام الكون ، بل كانت منازع العقول فى العلم ومضارب الدين فى الالزام بالعقائد ، وتقريبها من مشاعر القلوب على طرفى نقيض ، وكثيرا ما صرح الدين على لسان رؤسائه : أنه عدو العقل ، نتائجه ومقدماته ، فكان جل ما فى علوم الكلام تأويل وتفسير وادهاش بالمعجزات ، أو الهاء بالخيالات ، يعلم ذلك من له المام بأحوال الأمم قبل البعثة الاسلامية .

***

جاء القرآن فانتهج بالدين منهجا لم يقم عليه ما سبقه من الكتب المقدسة ، منهجا يمكن لأهل الزمن الذى انزل فيه ، ولمن يأتى بعدهم أن يقوموا عليه ، فترك الاستدلال على نبوة النبى ، صلى الله عليه وسلم ، بما عهد الاستدلال به على النبوات السابقة ، وحصر الدليل فى حال النبى ، مع نزول الكتاب عليه فى شأن من البلاغة يعجز البلغاء عن محاكاته فيه ، ولو فى مثل أقصر سورة منه ، وتناول من مقام الألوهية ما أذن الله لنا وما أوجب علينا أن نعلم .

لكن لم يطلب التسليم به لمجرد انه جاء بحكايته ، ادعى وبرهن ، وحكى مذاهب المخالفين ، وكر عليها بالحجة ،

وخاطب العقل ، واستنهض الفكر ، وعرض نظام الأكوان وما فيها من الأحكام والاتقان على انظار العقول ، وطالبها بالامعان فيها ؛ لتصل بذلك الى اليقين بصحة ما ادعاه ودعا اليه ؛ حتى انه في سياق قصص أحوال السابقين كان يقرر أن للخليقة سنة لا تغير وقاعدة لا تتبدل ، فقال :

(سُنَّةَ اللهِ التي قَدْ خَلَتْ مِن قَبلُ ولن تَجِدَ لسنةِ اللهِ تبديلا)[1] . وصرح : (إن الله لا يُغيِّرُ ما بقومٍ حتّىٰ يغيروا مَا بأنفُسِهم)[2] ، واعتضد بالدليل حتى فى باب الأدب ، فقال : (ادفع بِالتي هِيَ أحسَنُ فإذا الذي بينكَ وَبينه عَدَاوةٌ كأنَّه وليٌّ حميم)[3] .

وتآخى العقل والدين لأول مرة فى كتاب مقدس ، على لسان نبى مرسل ، بتصريح لا يقبل التأويل ، وتقرر بين المسلمين كافة — الا من لا ثقة بعقله ولا بدينه — ان من قضايا الدين ما لا يمكن الاعتقاد به الا من طريق العقل ، كالعلم بوجود الله ، وبقدرته على ارسال الرسل ، وعلمه بما يوحى به اليهم ، وارادته لاختصاصهم برسالته ، وما يتبع ذلك مما يتوقف عليه فهم معنى الرسالة ، وكالتصديق بالرسالة نفسها .

---

(١) الفتح : ٢٣ .
(٢) الرعد : ١١ .
(٣) فصلت : ٣٤ .

كما أجمعوا على أن الدين أن جاء بشيء قد يعلو على الفهم فلا يمكن أن يأتى بما يستحيل عند العقل .

★

جاء القرآن يصف الله بصفات ، وان كانت أقرب الى التنزيه مما وصف به فى مخاطبات الأجيال السابقة ، فمن صفات البشر ما يشاركها فى الاسم ، أو فى الجنس، كالقدرة ، والاختيار ، والسمع ، والبصر ، وعزا اليه أمورا يوجد ما يشبهها فى الانسان كالاستواء على العرش ، وكالوجه واليدين ، ثم أفاض فى القضاء السابق ، وفى الاختيار الممنوح للانسان ، وجادل الغالين من أهل المذهبين . ثم جاء بالوعد والوعيد على الحسنات والسيئات ، ووكل الأمر فى الثواب والعقاب الى مشيئة الله ، وأمثال ذلك مما لا حاجة الى بيانه فى هذه المقدمة .

فاعتبار حكم العقل مع ورود أمثال هذه المتشابهات فى النقل فسح مجالا للناظرين ، خصوصا ودعوة الدين الى الفكر فى المخلوقات لم تكن محدودة بحد ولا مشروطه بشرط ، للعلم بأن كل نظر صحيح فهو مؤد الى الاعتقاد بالله على ما وصفه بلا غلو فى التجريد ولا دنو فى التحديد (١) .

---

(١) التجريد هنا يراد به الذهاب فى تنزيه الله عن مشابهة الحوادث ، وعن الاتصاف بالصفات الزائدة على الذات ، الى الحد الذى يصبح فيه تصور الذات الالهية كفكرة مجردة عن الصفات والتحديدات ... ونحن نجد هذا التجريد عند المعتزلة وكل من وافقهم فى التنزيه ، وبالذات عند الفلاسفة الالهيين .. فابن رشد مثلا يتصور الذات الالهية عقلا للعالم ، وعلما محضا ونظاما هو أشبه بالقوانين التى تحكم الوجود وتحفظه وتهيمن عليه .. انظر تصوره للذات الالهية فى دراستنا « المادية والمثالية فى فلسفة ابن رشد » طبعة دار المعارف . القاهرة سنة ١٩٧١ م . أما التحديد فاننا نجده بدرجات متفاوتة عند المشبهة والمجسمة وبعض القائلين بالحلول والاتحاد .

مضى زمن النبى ، صلى الله عليه وسلم ، وهو المرجع فى الحيرة والسراج فى ظلمات الشبهة، وقضى الخليفتان بعده ما قدر لهما من العمر فى مدافعة الأعداء ، وجمع كلمة الأولياء ، ولم يكن للناس من الفراغ ما يخلون فيه مع عقولهم يبتلونهـــا (١) بالبحث فى مبانى عقائدهم . وما كان من اختلاف قليل رد اليهما ، وقضى الأمر فيه بحكمهما ، بعـــد استشارة من جاورهما من أهل البصر بالدين ، ان كانت حاجة الى الاستشارة ، واغلب الخلاف كان فى فروع الأحكام لا فى أصول العقـــائد ، ثم كان الناس فى الزمنين يفهمون اشارات الكتاب ونصوصه ، يعتقدون بالتنزيه ، ويفوضون فيمـــا يوهم التشبيه . ويرون أن له معنى غير ما يفهمه ظاهر اللفظ .

كان الأمر على ذلك الى أن حدث ما حدث فى عهد الخليفة الثالث ، وافضى الى قتله ، هوى بتلك الأحداث ركن عظيم من هيكل الخلافة ، واصطدم الاسلام بأهله صدمة زحزحتهم عن الطريق التى استقاموا عليها ، وبقى القرآن قائما على صراطه « انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون » (٢) ، وفتح للناس باب لتعدى الحدود التى حدها الدين ، فقد قتل الخليفة بدون حكم شرعى ، واشعر الأمر قلوب العامة ان شـــهوات تلاعبت بالعقول فى أنفس من لم يملك الايمان قلوبهم ، وغلب الغضب على كثير من الغالين فى دينهم ، وتغلب هؤلاء واولئك على أهل الأصالة منهم فقضيت أمور على غير ما يحبون .

وكان من العاملين فى تلك الفتنة عبد الله بن سبأ ، يهودى أسلم وغلى فى حب على كرم الله وجهه ، حتى زعم

---

(١) يمتحنونها ويمحصونها .

(٢) الحجر : ٩

ان الله حل فيه ، وأخذ يدعو الى انه الأحق بالخلافة ، وطمن على عثمان ، فنفاه الى مصر ، فوجد فيها أعوانا على فتنته ، الى ان كان ما كان مما ذكرنا ، ثم ظهر بمذهبه في عهد على فنفاه الى المدائن ، وكان رايه جرثومة لما حدث من مذاهب الغلاة من بعده (١) .

توالت الأحداث بعد ذلك ، ونقض بعض المبايعين للخليفة الرابع ما عقدوا ، وكانت حروب بين المسلمين انتهى فيها أمر السلطان الى الامويين ، غير ان بناء الجماعة قد انصدع ، وانفصمت عرى الوحدة بينهم ، وتفرقت بهم المذاهب في الخلافة ، واخذ الأحزاب في تأييد آرائهم ، كل ينصر رايه على رأى خصمه بالقول والعمل ، وكانت نشأة الاختراع في الرواية والتأويل ، وغلا كل قبيل ، فافترق الناس الى شيعة وخوارج ومعتزلين ، وغلا الخوارج في عهد مروان الأول (٢) فكفروا من عداهم ، ثم استمر عنادهم وطلبهم لحكومة أشبه بالجمهورية ، وتكفيرهم لمن خالفهم زمنا طويلا الى أن تضعضع أمرهم على يد المهلب بن أبى صفرة (٣) ، وانتشرت فارتهم في بلاد المغرب فأشعلوا فيها الفتن ،

---

(١) من الباحثين من يشكك في وجود شخصية عبدالله بن سبأ أصلا ، أو على الاقل يرى ان الناس قد اتخذوا منها مشجبا يعلقون عليه الاخطاء حتى لاتلحق الشبهات بشخصيات عزيزة على القلوب من صحابة رسول الله ، وحتى لا ترد المسببات الى أسبابها الحقيقية ، تلك الاسباب التي أثمرت أحداث عهد عثمان بن عفان . أنظر في ذلك د. طه حسين « الفتنة الكبرى » جـ ١ ، ٢ . طبعة دار المعارف . القاهرة .

(٢) هو مروان بن الحكم الاموى ، حكم بعد معاوية الثاني (٦٨٣-٦٨٥ م)

(٣) من قواد الحجاج بن يوسف الثقفى ، تمكن من هزيمة الخوارج الازارقة بقيادة قطرى بن الفجاءة الذين كانوا قد امتلكوا « كرمان » وكانت الموقعة الفاصلة سنة ٦٩٨ م او سنة ٦٩٩ م .

وبقيت منهم بقية الى اليوم فى أطراف افريقيا وناحية من جزيرة العرب .

وغلا بعض الشيعة فرفعوا عليا أو بعض ذريته الى مقام الألوهية او ما يقرب منه ، وتبع ذلك خلاف فى كثير من العقائد .

غير ان شيئا من ذلك لم يقف فى سبيل الدعوة الاسلامية، ولم يحجب ضياء القرآن عن الأطراف المتنائية عن مثار النزاع ، وكان الناس يدخلون فيه افواجا من الفرس والسوريين ومن جاورهم ، والمصريين والافريقيين ومن يليهم ، واستراح جمهور عظيم من العمل فى الدفاع عن سلطان الاسلام ، وآن لهم أن يشتغلوا فى اصول العقائد والاحكام بما هداهم اليه سير القرآن اشتغالا يحرص فيه على النقل ولا يهمل فيه اعتبار العقل ولا يغض فيه من نظر الفكر ، ووجد من أهل الاخلاص من انتدب نفسه للنظر فى العلم والقيام بفريضة التعليم . ومن أشهرهم الحسن البصرى (١) ، فكان له مجلس للتعليم والافادة فى البصرة يجتمع اليه الطالبون من كل صوب وتمتحن فيه المسائل من كل نوع .

وكان قد التحف بالاسلام ولم يتبطنه اناس من كل ملة ، دخلوه حاملين لما كان عندهم ، راغبين أن يصلوا بينه وبين ما وجدوه ، فثارت الشبهات بعد ما هبت على

---

(١) هو الحسن بن أبى الحسن (٢١ ـ ١١٠ هـ ٦٤١ ـ ٧٢٨ م) واسم ابيه يسار ، وكان أبوه من سبى « ميسان » وهى « كورة » بين « البصرة » و « واسط » ، وكانت أمه مولاه لام سلمة زوج الرسول عليه الصلاة والسلام ، وكانت تعطيه ثديها فى غياب أمه وهو رضيع ، انظر (تهذيب التهذيب) بن حجر العسقلانى جـ ٢ ص ٢٧٠ طبعة حيدر أباد بالهند سنه ١٣٢٥ هـ .

الناس أعاصير الفتن ، وأعتمد كل ناظر على ما صرح به القرآن من اطلاق العنان للفكر ، وشارك الدخلاء من حق لهم السبق ، من العرفاء ، وبدت رؤوس المشاقين تعلو بين المسلمين .

وكانت أول مسألة ظهر الخلاف فيها مسألة الاختيار واستقلال الانسان بارادته وأفعاله الاختيارية ، ومسألة من ارتكب الكبيرة ، ولم يتب : اختلف فيها واصل بن عطاء (١) مع استاذه الحسن البصرى ، واعتزله ، يعلم أصولا لم يكن أخذها عنه ، غير ان كثيرا من السلف ومنهم الحسن ـ على قول .. كان على رأى أن العبد مختار فى أعماله الصادرة عن علمه وارادته (٢) ، وقام ينازع هؤلاء أهل الجبر الذين ذهبوا الى أن الانسان فى عمله الارادى كأغصان الشجرة فى حركاتها الاضطرارية. كل ذلك وأرباب السلطان من بنى مروان لا يحفلون بالأمر ، ولا يعنون برد الناس الى أصل ، وجمعهم على أمر يشملهم ثم يذهب كل الى ما شاء .

ثم لم يقف الخلاف عند المسألتين السابقتين ، بل امتد الى اثبات صفات المعانى للذات الالهية أو نفيها

---

(١) هو أبو حذيفة واصل بن عطاء (٨٠ ـ ١٣١ هـ ٦٩٩ ـ ٧٤٩ م) الملقب بالغزال ، من الموالى ، ولد بالمدينة ، ثم ذهب الى البصرة ، أخذ القول بحرية الانسان واختياره عن معبد الجهنى ، وأخذ القول بالتنزيه عن جهم بن صفوان ، وهو أول من تبلورت على يديه حركة المعتزلة التى ورثت تراث القائلين بالعدل والتوحيد . أنظر : المنية والامل لابن المرتضى ص ١٧ ـ ٢٠ طبعة الهند سنة ١٣١٦ هـ .

(٢) تشهد بذلك رسالة له فى « القدر » بعث بها الى عبد الملك بن مروان . ولقد قمنا بتحقيقها ونشرها ضمن الجزء الاول من « رسائل العدل والتوحيد » طبعة « دار الهلال » فى القاهرة ، وفى الخلاف حول موقفه من هذه القضية أنظر « تهذيب التهذيب » جـ ٢ ص ٢٧٠ و « المعارف » لابن قتيبة ص ٤٤٢ طبعة القاهرة سنة ١٩٦٠ م .

منها ، والى تقدير سلطة العقل فى معرفة الاحكام الدينية حتى ما كان منها فروعا وعبادات (غلوا فى تأييد خطة القرآن) ، أو تخصيص تلك السلطة بالأصول الأولى ، على ما سبق بيانه ، ثم غالى آخرون ، وهم الأقلون ، فمحوها بالمرة ، وخالفوا فى ذلك طريقة الكتاب ، عنادا للأولين (١) ، وكانت الآراء فى الخلفاء والخلافة تسير مع الآراء فى العقائد كأنها مبنى من مبانى الاعتقاد الاسلامى .

تفرقت السبل بأتباع « واصل » ، وتناولوا من كتب اليونان ما لاق بعقولهم ، وظنوا من التقوى أن تؤيد العقائد بما أثبته العلم بدون تفرقة بين ما كان منه راجعا الى أوليات العقل وما كان سرابا فى نظر الوهم ، فخلطوا بمعارف الدين ما لا ينطبق حتى على أصل من أصول النظر ، ولجوا فى ذلك حتى صارت شيعهم تعد بالعشرات ، أيدتهم الدولة العباسية وهى فى ريعان القوة ، فغاب رأيهم ، وابتدأ علماؤهم يؤلفون الكتب ، فأخذ المتمسكون بمذاهب السلف يناضلون معتصمين بقوة اليقين وان لم يكن لهم عضد من الحاكمين .

عرف الأولون من العباسيين ما كان من الفرس فى اقامة دولتهم وقلب دولة الأمويين ، واعتمدوا على طائب الأنصار فيهم ، وأعدوا لهم منصات الرفعة بين وزرائهم وحواشيهم ، فعلا أمر كثير منهم وهم ليسوا من الدين

---

(١) الاشارة الى « الظاهرية » ومدرسة « أهل الحديث » الذين أنكروا التاويل واعمال العقل فيما وراء ظاهر النصوص .

فى شىء . وكان فيهم « المانوية (١) » و « اليزدية (٢) » ومن لا دين له وغير أولئك من الفرق الفارسية ، فأخذوا ينفثون من افكارهم ، ويشيرون بحالهم وبمقالهم الى من يرى مثل آرائهم أن يقتدوا بهم ، فظهر الالحاد وتطلعت رؤوس الزندقة حتى صدر أمر « المنصور (٣) » بوضع كتب لكشف شبهاتهم وابطال مزاعمهم .

فيما حوالى هذا العهد كانت نشأة هذا العلم نبتا لم يتكامل نموه ، وبناء لم يتشامخ علوه ، وبدأ كما انتهى مشوبا بمبادىء النظر فى الكائنات جريا على ما سنه القرآن من ذلك .

حدثت فتنة القول بخلق القرآن او ازليته (٤) ، وانتصر للأولى جمع من خلفاء العباسيين ، وأمسك عن القول ، او صرح بالازلية عدد غفير من المتمسكين بظواهر الكتاب والسنة او المتعففين عن النطق بما فيه مجاراة البدعة ، واهين فى ذلك رجال من اهل العلم والتقوى ، وسفكت فيه دماء بغير حق ، وهكذا تعدى القوم حدود الدين باسم الدين . على هذا كان النزاع بين ما تطرف من نظر العقل وما توسط أو غلا من الاستمساك بظاهر الشرع ، والكل على وفاق على أن الأحكام الدينية

---

(١) ويقال لهم الثنوية ، وهم القائلون بالنور والظلمة ، وبقدمهما ، واستقلالهما ونبيهم « مانى » الذى ظهر فى عهد « سابورين أردشير بن بابك » . وهم فرق متعددة . انظر : القاضى عبد الجبار « المغنى فى أبواب التوحيد والعدل » جـ ٥ ص ٩ — ٧٠ .

(٢) لعلها : المزدقية ، وهى فرقة من فرق الثنوية . انظر المصدر السابق ، نفس الجزء والصفحات .

(٣) المؤسس الحقيقى للدولة العباسية حكم من سنة ٧٥٤ م حتى سنة ٧٧٥ م .

(٤) كان ذلك فى عهد المأمون العباسى سنة ٢١٨ هـ .

واجبة الاتباع ، ما تعلق منها بالعبادات والمعاملات وجب الوقوف عنده ، وما مس بواطن القلوب وملكات النفوس فرض التروض (١) عليه .

وكان وراء هؤلاء قوم من اهل الحلول او الدهريين ، طلبوا أن يحملوا القرآن على ما حملوه عند التحاقهم (٢) بالاسلام ، وافرطوا فى التأويل ، وحولوا كل عمل ظاهر الى سر باطن ، وفسروا الكتاب بما يبعد عن تناول الخطاب بعد الخطأ عن الصواب ، وعرفوا بالباطنية أو الاسماعيلية ، ولهم أسماء أخر تعرف فى التاريخ ، فكانت مذاهبهم غائلة الدين وزلزال اليقين ، وكانت لهم فتن معروفة وحوادث مشهورة .

مع اتفاق السلف وخصومهم فى مقارعة هؤلاء الزنادقة واشياعهم كان أمر الخلاف بينهم جللا ، وكانت الأيام بينهم دولا ، ولا يمنع ذلك من أخذ بعضهم عن بعض واستفادة كل فريق من صاحبه الى أن جاء الشيخ أبو الحسن الأشعرى (٣) فى أوائل القرن الرابع ، وسلك مسلكه المعروف وسطا بين موقف السلف وتطرف من خالفهم ، وأخذ يقرر العقائد على أصول النظر ، وارتاب فى أمره الأولون ، وطعن كثير منهم على عقيدته ، وكفره الحنابلة وأستباحوا دمه ، ونصره جماعة من أكابر العلماء ،

---

(١) بمعنى ترويض النفس وتعويدها وتطويعها عليه .

(٢) يمكن أن تقرأ التحاقهم ، بالقاف ، والتحافهم ، بالفاء ، على معنى انهم لم يؤمنوا به كما يجب أن يكون الايمان .

(٣) (٢٦٠ ـ ٣٢٤ هـ ٨٧٣ ـ ٩٣٥ م) ، ولد بالبصرة ، وتوفى ببغداد ، وكان شافعيا فى المذهب الفقهى ، وفى الكلام كان معتزليا ثم خرج على المعتزلة ومن أهم كتبه « الابانة عن أصول الديانة » و « مقالات الاسلاميين » . أنظر دائرة المعارف الإسلامية .

كامام الحرمين (١) ، والاسفرايينى (٢) ، وأبى بكر الباقلانى (٣) وغيرهم ، وسموا رأيه بمذهب أهل السنة والجماعة ، فانهزم من بين أيدى هؤلاء الأفاضل قوتان عظيمتان : قوة بمذهب أهل السنة والجماعة ، فانهزم من بين أيدى هؤلاء الأفاضل قوتان عظيمتان : قوةالواقفين عند الظواهر ، وقوة الغالين فى الجرى خلف ما تزينه الخواطر ، ولم يبق من أولئك وهؤلاء بعد قرنين الا فئات قليلة فى أطراف البلاد الاسلامية .

غير ان الناصرين لمذهب الأشعرى ، بعد تقريرهم ما بنى رأيه عليه من نواميس الكون ، أوجبوا على المعتقد ان يوقن بتلك المقدمات ونتائجها كما يجب عليه اليقين بما تؤدى اليه من عقائد الايمان ذهابا منهم الى أن عدم الدليل يؤدى الى عدم المدلول .

ومضى الأمر على ذلك الى أن جاء الامام الغزالى (٤) والامام الرازى (٥) ومن اخذ مأخذهم ، فخالفوهم فى ذلك ، وقرروا أن دليلا واحدا أو أدلة كثيرة قد يظهر بطلانها ، ولكن قد يستدل على المطلوب بما هو اقوى منها فلا وجه للحجر فى الاستدلال .

---

(١) هو أبو المعالى عبد الملك بن ابى محمد عبد الله بن يوسف الجوينى ، الفقيه الشافعى ، وهو أستاذ الغزالى ، ونسبته الى « جوين » احدى نواحى « نيسابور » ، توفى سنة ٤٧٨ هـ .

(٢) المتوفى سنة ٤١٨ هـ (١٠٢٧ م) .

(٣) المتوفى سنة ٤٠٣ هـ (١٠١٣ م)

(٤) (١٠٥٩ - ١١١٢ م) اشهر من أن يعرف .

(٥) المراد فخرالدين الرازى ، وهو أبوالفضل محمد بن عمر بن الحسين ، المعروف بابن الخطيب ، ولد بمدينة الرى سنة ٥٤٤ هـ أو سنة ٥٤٣ هـ ، وتوفى سنة ٦٠٦ هـ .

أما مذاهب الفلسفة فكانت تستمد آراءها من الفكر المحض ، ولم يكن من هم أهل النظر من الفلاسفة ، الا تحصيل العلم والوفاء بما تندفع اليه رغبة العقل من كشف مجهول أو استكناه معقول ، وكان يمكنهم أن يبلغوا من مطالبهم ما شاءوا ، وكان الجمهور من اهل الدين يكنفهم بحمايته ويدع لهم من اطلاق الارادة ما يتمتعون به فى تحصيل لذة عقولهم ، وافادة الصناعة، وتقوية أركان النظام البشرى بما يكشفون من مساتير الأسرار المكنونة فى ضمائر الكون ، مما اباح الله لنا أن نتناوله بعقولنا وأفكارنا فى قوله : (خلق لكم ما فى الأرض جميعا) (١) ، اذ لم يستثن من ذلك ظاهرا ولا خفيا ، وما كان عاقل من عقلاء المسلمين ليأخذ عليهم الطريق أو يضع العقبات فى سبيلهم الى ما هدوا اليه ، بعدما رفع القرآن من شأن العقل وما وضعه من المكانة بحيث ينتهى اليه أمر السعادة والتمييز بين الحق والباطل والضار والنافع ، وبعد ما صح من قوله عليه السلام : « أنتم أعلم بشؤون دنياكم » وبعد ما سن لنا فى غزوة بدر من سنة الأخذ بما صدق من التجارب وصح من الآراء (٢) .

لكن يظهر أن أمرين غلبا على غالبهم .

الأول : الاعجاب بما نقل اليهم عن فلاسفة اليونان ، خصوصا عن ارسطو وافلاطون ، ووجد أن اللذة فى تقليدها لبادىء الأمر .

---

(١) البقرة : ٢٩ .

(٢) الاشارة الى أخذ الرسول برأى بعض الصحابة فى مكان النزول ببدر ، وعدوله عن رأيه هو فى المنزل الذى كان قد اختاره للنزول .

والثاني : روح الوقت (١) ، وهــو أشأم الأمرين ، زجوا بأنفسهم فى المنازعات التى كانت قائمة بين أهل النظر فى الدين ، واصطدموا بعلومهم فى قلة عددهم مع ما انطبعت عليه نفوس الكافة ، فمال حماة العقائد عليهم ، وجاء الغزالى (٢) ومن على طريقته فأخذوا جميع ما وجد فى كتب الفلاسفة مما يتعلق بالالهيات وما يتصل بها من الأمور العــامة أو أحكام الجــواهر والأعراض ومذاهبهم فى المـادة وتركيب الأجساد وجميع ما ظنه المشتغلون بالـكلام يمس شيئا من مبانى الدين، واشتدوا فى نقده ، وبالغ المتأخرون منهم فى تاثرهم حتى كاد يصل السير الى ما وراء الاعتدال . فسقطت منزلتهم من النفوس ونبذتهم العامة ولم تحفل بهم الخــاصة ، وذهب الزمان بمــا كان ينتظر العالم الاســـلامى من سعيهم .

هذا هو السبب فى خلط مســائل الـكلام بمذاهب الفلسفة فى كتب المتـــأخرين ،، كما تراه فى كتب البيضاوى (٣) والعضد (٤) وغيرهم وجمع علوم نظـرية شتى وجعلها جميعا علما واحدا ، والذهاب بمقدماته ومباحثه الى ما هو أقرب الى التقليد من النظر فوقف العلم عن التقدم .

---

(١) أى روح العصر وطابعه .

(٢) الاشارة هنا الى كتابه « تهافت الفلاسفة » .

(٣) هو أبو سعيد عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازى ، المتوفى سنة ٧٩١ هـ .

(٤) هو العضد الايجى ، صاحب الموسوعة الشهيرة « المواقف » ، توفى سنة ٧٥٦ هـ « سنة ١٣٥٥ م » .

ثم جاءت فتن طلاب الملك من الأجيال المختلفة ، وتغلب الجهال على الأمر وفتكوا بما بقى من اثر العلم النظرى النابع من عيون الدين الاسلامى ، فانحرفت الطريق بسالكيها ، ولم يعد بين الناظرين فى كتب السابقين الا تحاور فى الألفاظ وتناظر فى الأساليب ، على ان ذلك فى قليل من الكتب اختارها الضعف وفضلها القصور .

ثم انتشرت الفوضى العقلية بين المسلمين تحت حماية الجهلة من ساستهم ، فجاء قوم ظنوا فى أنفسهم ما لم يعترف به العلم لهم ، فوضعوا ما لم يعد للاسلام قبل باحتماله ، غير انهم وجدوا من نقص المعارف انصارا ، ومن البعد عن ينابيع الدين أعوانا ، فشردوا بالعقول عن مواطنها ، وتحكموا فى التضليل والتكفير ، وغلوا فى ذلك حتى قلدوا بعض من سبق من الأمم فى دعوى العداوة بين العلم والدين ، وقالوا لما تصف السنتهم الكذب هذا حلال وهذا حرام ، وهذا كفر وهذا اسلام ، والدين من وراء ما يتوهمون ، والله ، جل شأنه ، فوق ما يظنون وما يصفون . ولكن ماذا أصاب العامة فى عقائدهم ومصادر أعمالهم من أنفسهم ، وبعد طول الخبط وكثرة الخلط ؟؟ شر عظيم وخطب عميم .

هذا مجمل من تاريخ هذا العلم ينبئك كيف اسس على قواعد من الكتاب المبين ، وكيف عبثت به فى نهاية امره أيدى المفرقين ، حتى خرجوا به عن قصده ، وبعدوا به عن حده ، والذى علينا اعتقاده ان الدين الاسلامى دين توحيد فى العقائد لا دين تفريق فى القواعد ، العقل من أشد أعوانه ، والنقل من أقوى أركانه ، وما وراء

ذلك فنزغات شياطين أو شـــهوات سلاطين ، والقرآن شاهد على كل بعمله ، قاض عليه فى صوابه وخطله .

★

الغاية من هذا العلم : القيام بفرض مجمع عليه ، وهو معرفة الله تعالى بصفاته ، الواجب ثبوتها له ، مع تنزيهه عما يستحيل اتصافه به ، والتصـديق برسله على وجه اليقين الذى تطمئن به النفس اعتمــادا على الدليل ، لا استرسالا مع التقليد ، حسبما أرشدنا اليه الـكتاب ، فقد امر بالنظر واستعمال العقل فيمـــا بين أيدينا من ظواهر الكون ، وما يمكن النفوذ اليه من دقائقه ، تحصيلا لليقين بما هدانا اليه ، ونهانا عن التقليد بما حكى عن احوال الأمم فى الأخذ بما عليه آباؤهم ، وتبشيع ما كانوا عليه من ذلك واستتباعه لهدم معتقداتهم وامحاء وجودهم الملى ، وحق ما قال ، فان التقليد كما يكون فى الحق يأتى فى الباطل ، وكما يكون فى النافع يحصل فى الضار فهو مضلة يعـــذر فيها الحيوان ولا تجمل بحـــال الانسان .

اقسام المعلوم

يقسمون المعلوم الى ثلاثة أقسام :

ممكن لذاته .

وواجب لذاته .

ومستحيل لذاته .

ويعرفون المستحيل بما عدمه لذاته من حيث هى ، أما الواجب فهو ما كان وجوده لذاته من حيث هى ، والممكن ما لا وجود له ولا عدم منذاته ، وانما يوجد

للوجود ويعدم لعـــدم سبب وجوده ، وقد يعرض له الوجوب والاستحالة لغيره ، واطلاق المعلوم على المستحيل ضرب من المجاز ، فان المعلوم حقيقة لابد أن يكون له كون فى الواقع ينطبق عليه العلم ، والمستحيل ليس من هذا القبيل كما تراه فى أحكامه ، وانما المراد ما يمكن الحكم عليه وان فى صورة يخترعها له العقل ليتوصل بها الى الحكاية عنه .

حكم المستحيل

وحكم المستحيل لذاته : أن لا يطرأ عليه وجود ، فان العدم من لوازم ماهيته من حيث هى ، فلو طرأ الوجود عليه لسلب لازم الماهية من حيث هى عنها ، وهو يؤدى الى سلب المـاهية عن نفسها بالبـــداهة ، فالمستحيل لا يوجد ، فهـو ليس بموجود قطعا ، بل لا يمكن للعقل أن يتصور له ماهية كائنة كما أشرنا اليه ، فهو ليس بموجود حتى ولا فى الذهن .

أحكام الممكن

من أحكام الممكن لذاته : ان لا يوجد الا بسبب وأن لا ينعدم الا بسبب ، وذلك لأنه لا واحد من الأمرين له لذاته ، فنسبتهما الى ذاته على السواء ، فان ثبت له أحدهما بلا سبب لزم رجحان أحد المتساويين على الآخر بلا مرجح وهو محال بالبداهة .

ومن أحكامه انه ان وجد يكون حادثا لأنه قد ثبت انه لا يوجد الا بسبب ، فاما أن يتقدم وجوده على وجود سببه أو يقارنه أو يكون بعده ، والأول باطل ، والا لزم تقدم المحتاج على ما اليه الحاجة ، وهو ابطـــال لمعنى

الحاجة ، وقد سبق الاستدلال على ثبوتها ، فيؤدي الى خلاف المفـروض ، والثانى كذلك ، والالزام يساويهما فى رتبة الوجود فيكون الحكم على أحدهمـــا بأنه اثر والثانى مؤثر ترجيحا بلا مرجح ، وهو ممـا لا يسوغه العقل ، على أن علية أحدهما ومعلولية الآخر رجحان بلا مرجح ، وهو باطل بالبـداهة ، فتعين الثالث ، وهو أن يكون وجوده بعد وجود سببه ، فيكون مسبوقا بالعدم فى مرتبة وجـود السبب ، فيـكون حادثا ، اذ الحادث ما سبق وجوده بالعدم ، فكل ممكن حادث ان وجد .

الممكن لا يحتاج فى عدمه الى سبب وجودى ، لأن العدم سلب ، والسلب لا يحتـــاج الى ايجاد بداهة ، فيكون عدم الممكن لعدم التأثير فيه لعدم ما كان سببا فى بقائه ، أما فى وجوده فيحتاج الى سبب وجودى ، لأن العدم لا يكون مصدرا للوجود ، فالموجود ان حدث فانما يكون حدوثه بايجاد ، وذلك كله بديهى .

كما يحتاج الممكن للسبب فى وجوده ابتداء اليه فى البقاء ، لما بينـــا ان ذات الممكن لا تقتضى الوجود ، ولا يرجح لها الوجود عن العدم الا للسبب الخـــارجى الوجودى ، فذلك لازم من لوازم ماهية الامكان لا يفارقها من حيث هى ، فلا يكون للممكن حالة يقتضى فيهـــا الوجود لذاته ، فيـكون فى جميع أحواله محتاجا الى مرجح للوجود عن العدم ، لا فرق بين الابتداء والبقاء .

معنى السبب على ما ذكرنا منشأ الايجـاد ، ومعطى الوجـود ، وهو الذى يعبر عنه بالموجـــد ، وبالعلة الموجدة ، وبالعلة الفاعلة ، وبالفاعل الحقيقى ، ونحو ذلك من العبارات التى تختلف مبانيها ولا تتباين معانيها ،

وقد يطلق السبب أحيانا على الشرط أو المعـــد الذى يهيىء الممكن لقبول الايجاد من موجده ، وهو بهذا المعنى قد يحتاج اليه فى الابتداء ويستغنى عنه فى البقاء ، وقد تكون الحاجة الى وجوده ثم عدمه ، ومن هذا القبيل وجود البناء ، فانه شرط فى وجود البيت ، وقد يموت البناء ويبقى بناؤه ، وليس البناء واهب الوجود للبيت ، وانما حركات يديه وحركات ذهنه وأطوار ارادته شرط لوجود البيت على هيئته الخاصة به ، وبالجملة فيوجد فرق بين توقف الممكن على شيء وبين استفادته الوجود من شيء، فالتوقف قد يكون على وجود ثم عدم، كما فى توقف الخطوة الثانية على الأولى ، فان الأولى ، ليست واهبة الوجـود للثانية ، والا وجب وجودها معها مع ان الثانية لا توجد الا اذا انعدمت الأولى ، أما استفادة الوجود فتقضى سبق مالك للوجود يعطيه للمستفيد منه وأن يكون وجود المستفيد مستمدا من وجود الواهب لا يقوم الا به فلا يستقل بنفسه دونه فى حال من الأحوال .

الممكن موجود قطعا

نرى أشياء توجد بعد ان لم تكن ، وأخرى تنعدم بعد ان كانت ، كأشخاص النباتات والحيوانات ، فهذه الكائنات اما مستحيلة أو واجبة أو ممكنة ، لا سبيل الى الأول لأن المستحيل لا يطرأ عليه الوجود، ولا الى الثانى لأن الواجب له الوجود من ذاته وما بالذات لا يزول ، فلا يطرأ عليه العدم ولا يسبقه ، كما سيجىء فى أحكام الواجب : فهى ممكنة ، فالممكن موجود قطعا .

وجود الممكن يقتضى بالضرورة وجود الواجب

جملة الممكنات الموجـودة ممكنة بداهة ، وكل ممكن محتاج الى سبب يعطيـــه الوجود ، فجملة الممكنات الموجودة محتاجة بتمامها الى موجد لها ، فاما أن يكون عينها ، وهو محال لاستلزامه تقدم الشيء على نفسه ، واما أن يكون جزاها ، وهو محـــال لاستلزامه ان يكون الشيء سببا لنفسه ولما سبقه ان لم يكن الأول ولنفسه فقط ان فرض أول وبطلانه ظاهر ، فوجب أن يـكون السبب وراء جملة الممكنات ، والموجود الذى ليس بممكن هو الواجب ، اذ ليس وراء المـــكن الا المستحيل والواجب ، والمستحيل لا يوجـــد ، فيبقى الواجب ، فثبت أن للممكنات الموجودة موجدا واجب الوجود .

وأيضا الممكنات ، سواء كانت متناهية أو غير متناهية قائمة بوجود ، فذلك الوجود اما أن يكون مصدره ذات الامكان وماهيات الممكنات ، وهو باطل لما سبق فى أحكام الممكن من أنه لا شيء من الماهيات الممكنة بمقتض للوجود ، فتعين أن يـكون مصـــدره سـواها وهو الواجب بالضرورة .

أحكام الواجب

صفات البرهان التى يجب الاعتقاد بها
القدم .. والبقـــاء .. ونفى التركيب

من احكام الواجب : أن يكون قديما أزليا ، لأنه لو لم يكن كذلك لكان حادثا ، والحادث ما سبق وجوده بالعدم، فيكون وجوده مسبوقا بعدم ، وكل ما سبق بالعدم يحتاج الى علة تعطيه الوجود ، والا لزم رجحان المرجوح بلا سبب ، وهو محال ، فلو لم يكن الواجب قديما لكان محتاجا فى وجوده الى موجد غيره وقد سبق ان الواجب ما وجوده لذاته ، فلا يكون ما فرض واجبا ، وهو تناقض محال .

ومن أحكامه ان لا يطرأ عليه عدم ، والا لزم سلب ما هو للذات عنها ، وهو يعود سلب الشىء عن نفسه ، وهو محال بالبداهة .

من أحكامه أن لا يكون مركبا ، اذ لو تركب لتقدم وجود كل جزء من اجزائه على وجود جملته التى هى ذاته ، وكل جزء من أجزائه غير ذاته بالضرورة ، فيكون وجوده جملة محتاجا الى وجود غيره ، وقد سبق ان الواجب ما كان وجوده لذاته ، ولأنه لو تركب لكان الحكم له

بالوجود موقوفا على الحكم بوجود أجزائه ، وقد قلنا أنه له لذاته من حيث هى ذاته ، ولأنه لا مرجح لأن يكون الوجوب له دون كل جزء من أجزائه ، بل يكون الوجوب لها أرجح فتكون هى الواجبة دونه .

نفى التركيب فى الواجب شامل لما يسمونه حقيقة عقلية أو خارجية ، فلا يمكن للعقل أن يحاكى ذات الواجب بمركب ، فان الأجزاء العقلية لابد لها من منشأ انتزاع فى الخارج ، فلو تركبت الحقيقة العقلية لكانت الحقيقة مركبة فى الخارج والا كانت ما فرض حقيقة عقلية اعتبارا كاذب الصدق لا حقيقة .

كما لا يكون الواجب مركبا لا يكون قابلا للقسمة فى احد الامتدادات الثلاث ، أى لا يكون له امتداد ، لأنه لو قبل القسمة لعاد بها الى غير وجوده الأول ، وصار الى وجودات متعددة ، وهى وجودات الأجزاء الحاصلة من القسمة ، فيكون ذلك قبولا للعدم أو تركبا وكلاهما محال كما سبق .

الحيـــاة

معنى الوجود وان كان بديهيا عند العقل لكنه يتمثل له بالظهور ثم الثبات والاستقرار ، وكمال الوجود وقوته بكمال هذا المعنى وقوته بالبداهة .

كل مرتبة من مراتب الوجود تستتبع بالضرورة من الصفات الوجودية ما هو كمال لتلك المرتبة فى المعنى السابق ذكره ، والا كان الوجود لمرتبة سواها ، وقد فرض لها . ما يتجلى للنفس من مثل الوجود لا ينحصر ، وأكمل مثال فى أى مراتبه ما كان مقرونا بالنظام والكون

على وجه ليس فيه خلل ولا تشويش ، فان كان ذلك النظام بحيث يستتبع وجودا مستمرا وان فى النوع ، كان أدل على كمال المعنى الوجودى فى صاحب المثال .

فان تجلت للنفس مرتبة من مراتب الوجود على أن تكون مصدرا لكل نظام كان ذلك عنوانا على انها أكمل المراتب وأعلاها وأرفعها وأقواها .

وجود الواجب هو مصدر كل وجود مكمن كما قلنا ، وظهر بالبرهان القاطع ، فهو بحكم ذلك أقوى الوجودات وأعلاها ، فهو يستتبع من الصفات الوجودية ما يلائم تلك المرتبة العليا .

وكل ما تصوره العقل كما لا فى الوجود من حيث ما يحيط به من معنى الثبات والاستقرار والظهور ، وأمكن ان يكون له ، وجب أن يثبت له ، وكونه مصدرا للنظام وتصريف الأعمال على وجه لا اضطراب فيه يعد من كمال الوجود كما ذكرنا ، فيجب أن يكون ذلك ثابتا له ، فالوجود الواجب يستتبع من الصفات الوجودية التى تقتضيها هذه المرتبة ما يمكن أن يكون له .

فمما يجب أن يكون له صفة الحياة ، وهى صفة تستتبع العلم والارادة ، وذلك ان الحياة مما يعتبر كمالا للوجود بداهة ، فان الحياة مع ما يتبعها مصدر النظام ، وناموس الحكمة ، وهى فى أى مراتبها مبدأ الظهور والاستقرار فى تلك المرتبة ، فهى كمال وجودى ، ويمكن أن يتصف بها الواجب وكل كمال وجودى يمكن أن يتصف به وجب أن يثبت له ، فواجب الوجود حى ، وان باينت حياته حياة الممكنات ، فان ما هو كمال للوجود انما هو مبدأ العلم والارادة . ولو لم تثبت له

هذه الصفة لـكان فى الممكنات ما هو أكمل منه وجودا ، وقد تقدم انه اعلى الموجودات وأكملها فيه .

والواجب هو واهب الوجـود وما يتبعه ، فكيف لو كان فاقدا للحيـــاة يعطيها ؟ فالحيـــاة له كما أنه مصدرها .

العـــلم

ومما يجب له : صفة العلم ، ويراد به ما به انكشاف شيء عند من ثبتت له تلك الصـــفة ، أى مصدر ذلك الانكشاف منه ، لأن العلم من الصفات الوجودية التى تعد كمالا فى الوجود ، ويمكن أن تكون للواجب ، وكل ما كان كذلك وجب أن يثبت له ، فـواجب الوجـود عالم .

ثم البداهة قاضية بأن العـــلم كمالٌ فى الموجودات الممكنة ، ومن الممكنات من هو عالم ، فلو لم يكن الواجب عالما لـكان فى الموجودات الممكنة ما هو أكمل من الموجود الواجب ، وهو محال كما قدمنا .

ثم هو واهب العلم فى عالم الأمكان ، ولا يعقلَ أن مصدر العلم يفقده .

علم الواجب من لوازم وجوده ، كما ترى ، فيعلو على العلوم علو وجوده عن الموجودات ، فلا يتصور فى العلوم ما هو أعلى منه ، فيـكون محيطا بـكلّ ما يمكن علمه ، والا تصور العقل علما اشمل ، وهو انما يكون لوجود أكمل ، وهو محالٌ .

ما هو لازم لوجود الواجب يفنى بفنائه ويبقى ببقائه ،

وعلم الواجب من لوازم وجوده ، فلا يفتقر الى شيء ما وراء ذاته ، فهو أزلى ، أبدى ، غنى عن الآلات ، وجولات الفكر ، وافاعيل النظر ، فيخالف علوم الممكنات بالضرورة .

ما يوجد من الممكنات فهو موافق لما انكشف بذلك العلم ، والا لم يكن علما .

من أدلة ثبوت العلم للواجب ما نشاهده فى نظام الممكنات من الاحكام والاتقان ووضع كل شيء فى موضعه ، وقرن كل ممكن بما يحتاج اليه فى وجوده وبقائه ، وذلك ظاهر لجليى النظر مما يشاهد فى الأعيان ، كبيرها وصغيرها ، علويها وسفليها ، هذه الروابط بين الكواكب ، والنسب الثابتة بينها ، وتقدير حركاتها على قاعدة تكفل لها البقاء على الوضع الذى قدر لها ، والزام كل كوكب بمدار لو خرج عنه لاختل نظام عالمه أو العالم بأسره ، وغير ذلك مما فصل فى علوم الهيئة الفلكية ، كل ذلك يشهد بعلم صانعه وحكمة مدبره .

اعتبر بما تراه فى جزئيات النباتات والحيوانات من توفيتها ، قواها ، وايتائها ما تحتاج اليه فى تقويم وجودها من الآلات والأعضاء ، ووضع ذلك فى مواضعه من ابدانها ، وايداع غير الحساس منها ، كالنبات قوة الميل الى تناول ما يناسبه من الغذاء دون ما لا يلائمه ، فترى بذرة الحنظل تدفن بجوار حبة البطيخ فى أرض واحدة ، ثم تسقى بماء واحد ، وتنمى بعناية واحدة ، ولكن تلك تمتص من المواد ما يغذى المر الزعاف وهذه تتناول ما يغذو حلو المذاق . وارشاد الحساس منها الى استعمال ما منح من تلك الأدوات والأعضاء ، وسوق

كل قوة من قواه الى ما قدرت له ، فهو الذى يعلم حال الجنين وهو نطفة أو علقـة ، ويعلم بحاجته متى تكامل خلقه وانشأه نشأة الحى المستقل فى عمله ، الى الأيدى والأرجل والأعين والمشام والآذان وبقية المشاعر الباطنة ، يستعمل فيما يقيم وجوده ويقيه من العوادى عليه ، وحاجته الى المعدة والقلب والـكبد والرئة ونحوها من الأعضاء التى لا غنى عنها فى النمو والبقاء الى الأجل المحدود للشخص أو للنوع ، وهو الذى يعلم حالة الجروة من الـكلاب ، مثلا ، وانها متى كبرت تلد الجراء متعددة فيمنحها أطباء (١) متكثرة ، وغير ذلك مما لا يستطاع احصاؤه ، وقد فصـل الـكثير منه فى كتب النباتات وحياة الحيوان وما يسمى التـاريخ الطبيعى وفنون منافع الأعضاء والطب وما يتبعه ، على أن الباحثين فى كل ذلك بعد ما بذلوا من الجهد وما صرفوا من الهمم وما كشفوا من الأسرار لم يزالوا فى أول البحث .

هذا الصـنيع الذى انمـا تتفاضل العقول فى فهم أسراره ، والوقوف على دقائق حكمه ، الا يدل على ان مصدره هو العالم بكل شىء ، الذى أعطى كل شىء خلقه ثم هدى ؟ ، هل يمكن لمجرد الاتفـاق المسمى بالصدفة أن يكون ينبوعا لهذا النظام ، وواضعا لتلك القواعد التى يقوم عليها وجود الأكوان ، عظيمها وحقيرها؟ كلا .. بل مبدع ذلك كله هو من لا يعزب عن علمه مثقال ذرة فى الأرض ولا فى السماء ، وهو السميع العليم .

---

(١) مفردها طبى ، بضم الطاء وكسرها مع سـكون الباء ، وهو حلمة الوضع ، المراد هنا كثرة حلمات الكلبة كى ترضع الجراء الكثيرة في وقت واحد .

الارادة

مما يجب لواجب الوجـــــود : الارادة ، وهى صفة تخصص فعل العالم بأحد وجوهه الممكنة . بعد ما ثبت ان واهب وجود الممكنات هو الواجب ، وأنه عالم ، وان ما يوجد من الممكن لابد أن يكون على وفق علمه ، ثبت بالضرورة أنه مريد ، لأنه انما يفعل على حسب علمه . ثم ان كل موجود فهو على قدر مخصوص وصفة معينة ، وله وقت ومكان محدودان ، وهذه وجوه قد خصصت له دون بقية الوجوه الممكنة ، وتخصيصها كان على وفق العلم بالضرورة ، ولا معنى للارادة الا هذا .

أما ما يعرف من معنى الارادة ، وهو ما به يصح للفاعل ان ينفذ ما قصده ، وأن يرجع عنه ، فذلك محال فى جانب الواجب ، فان هذا المعنى من الهموم الكونية ، والعزائم القـــابلة للفسخ ، وهى من توابع النقص فى العلم ، فتتغير على حسب تغير الحكم وتردد الفاعل بين البواعث على الفعل والترك .

القـــدرة

ومما يجب له : القدرة ، وهى صفة بهـا الايجـــاد والاعدام . ولما كان الواجب هو مبـدع الـكائنات على مقتضى علمه وارادته ، فلا ريب يكون قادرا بالبداهة ، لأن فعل العالم المريد فيما علم وأراد انما يكون بسلطة له على الفعل ولا معنى للقدرة الا هذا السلطان .

الاختيار

ثبوت هذه الصفات الثلاث يستلزم بالضرورة ثبوت الاختيار ، اذ لا معنى له الا اصدار الأمر بالقدرة على مقتضى العلم ، وعلى حكم الارادة فهو الفاعل المختار ليس من أفعاله ولا من تصرفه فى خلقه ما يصدر عنه بالعلية المحضة والاستلزام الوجودى بدون شعور ولا ارادة ، وليس من مصالح الكون ما يلزمه مراعاته لزوم تكليف ، بحيث لو لم يراعه لتوجه عليه النقد ، فيأتيه تنزها عن اللائمة ، تعالى عن ذلك علوا كبيرا ، ولكن نظام الكون ومصالحه العظمى انما تقررت له بحكم انه أثر الوجود الواجب الذى هو أكمل الوجودات وأرفعها ، فالكمال فى الكون انما هو تابع لكمال المكون ، واتقان الابداع انما هو مظهر لسمو مرتبة المبدع ، وبهذا الوجود البالغ أعلى غايات النظام تعلق العلم الشامل والارادة المطلقة ، فصدر ويصدر على هذا النمط الرفيع (أفحسبتم انما خلقناكم عبثا وانكم الينا لا ترجعون (١)) ، وهذا هو معنى قولهم : أن أفعاله لا تعلل بالأغراض ، ولكنها تنزه عن العبث ، ويستحيل أن تخلو من الحكم ، وان خفى شىء من حكمتها عن انظارنا .

***

الوحـــدة

ومما يجب له : صفة الوحدة ، ذاتا ووصفا ووجودا وفعلا . أما الوحدة الذاتية فقد أثبتناها فيما تقـــدم بنفى التركيب فى ذاته ، خارجا وعقلا ، وأما الوحدة

---

(١) المؤمنون : ١١٥ .

فى الصفة ، أى أنه لا يســـاويه فى حياته الثابتة له موجود ، فلما بينا من ان الصفة تابعــة لمرتبة الوجــود وليس فى الموجودات ما يساوى واجب الوجود فى مرتبة الوجود ، فلا يســاويه فيمـــا يتبع الوجود من الصفات ، واما الوحدة فى الوجود وفى الفعل ، ونعنى بها التفرد بوجوب الوجود ، وما يتبعه من ايجاد الممكنات، فهى ثابتة ، لأنه لو تعدد واجب الوجود لـكان لكل من الواجبين تعين يخالف تعين الآخر بالضرورة ، والا لم يتحصل معنى التعدد ، وكلما اختلفت التعينات اختلفت الصفات الثابتة للذوات المتعينة ، لأن الصفة انما تتعين وتنال تحققها الخاص بها بتعين ما ثبتت له بالبداهة ، فيختلف العلم والارادة باختلاف الذوات الواجبة اذ يكون لـكل واحدة منهـــا علم وارادة يباينان علم الأخرى وارادتها ، ويكون لـكل واحدة علم وارادة يلائمان ذاتها وتعينها الخاص بها .

هذا التخالف ذاتى ، لأن علم الواجب وارادته لازمان لذاته من ذاته لا لأمر فى الخارج ، فلا سبيل الى التغير والتبدل فيهما كما سبق . وقد قدمنا ان فعلَ الواجب انما يصدر عنه على حسب علمه وحكَم ارادته ، فيكون فعل كل صادرا على حكم يخالف الآخر مخالفة ذاتية ، فلو تعدد الواجبون لتخالفت أفعالهم بتخــالف علومهم وارادتهم ، وهــو خــلاف يستحيل معه الوفاق ، وكل واحد بمقتضى وجوب وجوده وما يتبعه من الصفات له السلطة على الايجاد فى عامة الممكنات ، فــكل له التصرف فى كل منهــا على حسب علمه وارادته ولا مرجح لنفاذ أحد القدرتين دون الأخرى ، فتتضارب أفعالهم حسب التضارب فى علومهم وارادتهم ، فيفسد نظــام

الكون ، بل يستحيل أن يكون له نظام ، بل يستحيل وجود ممكن من الممكنات ، لأن كل ممكن لابد أن يتعلق به الايجاد على حسب العلوم والارادات المختلفة ، فيلزم ان يكون للشيء الواحد وجودات متعددة ، وهو محال ، فلو كان فيهما آلهة الا الله لفسدتا ، ولكن الفساد ممتنع بالبداهة ، فهو ، جل شأنه ، واحد في ذاته وصفاته ، لا شريك له في وجوده ولا في أفعاله .

الصفات السمعية التي يجب الاعتقاد بها

ما قدمنا من الصفات التي يجب الاعتقاد بثبوتها لواجب الوجود هي ما أرشد اليه البرهان ، وجاءت به الشريعة الاسلامية ، وما تقدمها من الشرائع المقدسة ، لتأييده والدعوة الاسلامية بلسان نبينا محمد ، صلى الله عليه وسلم ، ولسان من سبقه من الأنبياء ، صلوات الله عليهم أجمعين .

ومن الصفات ما جاء ذكره على لسان الشرع ، ولا يحيله العقل اذا حمل على ما يليق بواجب الوجود ، ولكن لا يهتدى اليه النظر وحده ، ويجب الاعتقاد بأنه جل شأنه متصف بها اتباعا لما تقرره الشرع ، وتصديقا لما اخبر به .

الكلام

فمن تلك الصفات : صفة الكلام ، فقد ورد ان الله كلم بعض أنبيائه ، ونطق القرآن بأنه كلام الله . فمصدر الكلام المسموع عنه سبحانه لابد أن يكون شأنا من شئونه ، قديما بقدمه ؛ أما الكلام المسموع نفسه ،

المعبر عن ذلك الوصف القديم فلا خلاف فى حدوثه ، ولا فى أنه خلق من خلقه ، وخصص بالاسناد اليه لاختياره له سبحانه في الدلالة على ما أراد بلاغه لخلقه ، ولأنه صادر عن محض قدرته ، ظاهرا وباطنا ، بحيث لا مدخل لوجود آخر فيه بوجه من الوجوه سوى أن من جاء على لسانه مظهر لصدوره ، والقـــول بخلاف ذلك مصادرة للبداهة وتجرؤ على مقام القدم بنسبة التغير والتبدل اليه ، فان الآيات التى يقرؤها القارىء تحدث وتفنى بالبداهة كلما تليت .

والقائل بقدم القرآن المقروء أشنع حالا وأضل اعتقادا من كل ملة جاء القرآن نفسه بتضليلهـــا والدعوة الى مخالفتها ، وليس فى القول بأن الله أوجد القرآن ، بدون دخل لـكسب بشر فى وجوده ، ما يمس شرف نسبته ، بل ذلك غاية ما دعا الدين الى اعتقاده ، فهو السنة ، وهو ما كان عليه النبى وأصحابه ، وكل ما خالفه فهو بدعة وضلالة .

أما ما نقل الينا من ذلك الخلاف الذى فرق الأمة وأحدث فيها الأحداث ، خصوصا فى أوائل القرن الثالث من الهجرة ، واباء بعض الأئمـــة أن ينطق بأن القرآن مخلوق ، فقد كان منشؤه مجرد التحرج ، والمبالغة فى التأدب من بعضهم ، والا فيجل مقـــام مثل الامام ابن حنبل عن ان يعتقد ان القرآن المقروء قديم وهـو يتلوه كل ليلة بلسانه ويكيفه بصوته (١) .

---

(١) اى أن الحروف المكتوبة ، والاصوات المسموعة والمقروءة من نعل الانسان الكاتب والقارىء ، أما المصـدر الذى تعبر عنه هـذه الحروف والاصوات ، والذى يعبر هو فى ذات الوقت عن مراد الله قديم .. وكثيرون من الاشعرية يرون هذا الرأى ، أنظر فى ذلك فتوى للعز بن عبد السلام فى (طبقات الشافعية الكبرى) للسبكى جـ ٥ ص ٨٦ ، ٩٤ ، ٨٩ طبعة القاهرة الاولى .

البصر والسمع

ومما ثبت له بالنقل : صفة البصر، وهى ما به تنكشف المبصرات .

وصفة السمع ، وهى ما به تنكشف المسموعات . فهو السميع البصير ، لكن علينا أن نعتقد أن هذا الانكشاف ليس بآلة ولا جارحة ولا حدقة ولا باصرة .

***

كلام فى الصفات اجمالا

ابتدىء الكلام فيما اقصد بذكر حديث أن لم يصح فكتاب الله بجملته وتفصيله يؤيد معناه ، وهو قوله ، صلى الله عليه وسلم : « تفكروا فى خلق الله ولا تفكروا فى ذاته فتهلكوا » .

اذا قدرنا عقل البشر قدره ، وجدنا غاية ما ينتهى اليه كماله انما هو الوصول الى معرفة عوارض بعض الكائنات التى تقع تحت الادراك الانسانى حسا كان أو وجدانا أو تعقلا ، ثم التوصل بذلك الى معرفة مناشئها ، وتحصيل كليات لأنواعها ، والاحاطة ببعض القواعد لعروض ما يعرض لها ، أما الوصول الى كنه حقيقة فمما لا تبلغه قوته ، لأن اكتناه المركبات انما هو باكتناه ما تركبت منه ، وذلك ينتهى الى البسيط الصرف ، وهو لا سبيل الى اكتناهه بالضرورة ، وغاية ما يمكن عرفانه منه هو عوارضه وآثاره ، خذ اظهر الأشياء وأجلاها ، كالضوء : قرر الناظرون فيه له أحكاما كثيرة فصلوها فى علم خاص

به ، ولكن لم يستطع ناظر أن يفهم ما هو ولا أن يكتنه معنى الاضاءة نفسه ، وانما يعرف من ذلك ما يعرفه كل بصير له عينان ، وعلى هذا القياس .

ثم ان الله لم يجعل للانسان حاجة تدعو الى اكتناه شيء من الكائنات ، وانما حاجته الى معرفة العوارض والخواص ، ولذة عقله ، ان كان سليما انما هي تحقيق نسبة تلك الخواص الى ما اختصت به ، وادراك القواعد التي قامت عليها تلك النسب ، فالاشتغال بالاكتناه اضاعة للوقت ، وصرف للقوة الى غير ما سيقت اليه .

اشتغل الانسان بتحصيل العلم بأقرب الأشياء اليه ، وهي نفسه ، أراد أن يعرف بعض عوارضها وهل هي عرض أو جوهر ؟ هل هي قبل الجسم ؟ أو بعده ؟ هل هي فيه ؟ أو مجردة عنه ؟ .. كل هذه صفات لم يصل العقل الى اثبات شيء منها يمكن الاتفاق عليه ، وانما مبلغ جهده أنه عرف أنه موجود حي له شعور وارادة ، وكل ما أحاط به بعد ذلك من الحقائق الثابتة فهو راجع الى تلك العوارض التي وصل اليها ببديهته ، أما كنه شيء من ذلك ، وكيفية اتصافه ببعض صفاته فهو مجهول عنده ، ولا يجد سبيلا للعلم به .

هذا حال العقل الانساني مع ما يساويه في الوجود أو ينحط عنه ، بل وكذلك شأنه فيما يظن من الأفعال انه صادر عنه كالفكر وارتباطه بالحركة والنطق ، فما يكون من أمره بالنسبة الى ذلك الوجود الأعلى ؟ ماذا يكون اندهاشه ، بل انقطاعه (١) اذا وجه نظره الى ما لا يتناهى من الوجود الأزلي الأبدي ؟؟ .

---

(١) الانقطاع هنا بمعنى العجز .

النظر فى الخلق يهدى بالضرورة الى المنافع الدنيوية ، ويضىء للنفس طريقها الى معرفة من هذه آثاره وعليها تجلت انواره ، والى اتصافه بما لولاه لما صدرت عنه هذه الآثار على ما هى عليه من النظام .

وتخالف الأنظار فى الكون انما هو من تصارع الحق والباطل ، ولابد أن يظفر الحق ويعلو الباطل بتعاون الافكار ، أو صولة القوى منها على الضعيف .

أما الفكر فى ذات الخالق فهو طلب للاكتناه من جهة ، وهو ممتنع على العقل البشرى ، لما علمت من انقطاع النسبة بين الوجودين ولاستحالة التركيب فى ذاته ، وتطاول الى ما لا تبلغه القوة البشرية ، من جهة أخرى ، فهو عبث ومهلكة ؟ لأنه سعى الى ما لا يدرك ، ومهلكة لأنه يؤدى الى الخبط فى الاعتقاد ، لأنه تحديد لما لا يجوز تحديده ، وحصر لما لا يصح حصره .

لا ريب ان هذا الحديث ، وما أتينا عليه من البيان ، كما ياتى فى الذات من حيث هى ياتى فيها مع صفاتها ، فالنهى واستحالة الوصول الى الاكتناه شاملان لها ، فيكفينا من العلم بها ان نعلم انه متصف بها ، ولهذا لم يأت الكتاب العزيز ، وما سبقه من الكتب ، الا بتوجيه النظر الى المصنوع لينفذ منه الى معرفة وجود الصانع وصفاته الكمالية ، أما كيفية الاتصاف بها فليس من شأننا أن نبحث فيه .

فالذى يوجبه علينا الايمان هو أن نعلم انه موجود ، لا يشبه الكائنات ، أزلى ، أبدى ، حى ، عالم ، مريد ، قادر ، منفرد فى وجوده ، وفى صفاته ، وفى صنع خلقه ، وانه متكلم ، سميع ، بصير ، وما يتبع ذلك من

الصفات التى جاء الشرع باطلاق أسمائها عليه . أما كون الصفات زائدة على الذات ، وكون الكلام صفة غير ما اشتمل عليه العلم من معانى الكتب السماوية ، وكون السمع والبصر غير العلم بالمسموعات والمبصرات ، ونحو ذلك من الشئون التى اختلف عليها النظار وتفرقت فيها المذاهب فمما لا يجوز الخوض فيه ، اذ لا يمكن لعقول البشر أن تصل اليه ، والاستدلال على شىء منه بالألفاظ الواردة ضعف فى العقل وتغرير بالشرع ، لأن استعمال اللغة لا ينحصر فى الحقيقة ، ولئن انحصر فيها فوضع اللغة لا تراعى فيه الوجودات بكنهها الحقيقى ، وانما تلك مذاهب فلسفة ، ان لم يضل فيها أمثلهم فلم يهتد فيها فريق الى مقنع . فما علينا الا الوقوف عندما تبلغه عقولنا ، وأن نسأل الله أن يغفر لمن آمن به وبما جاء به رسله ممن تقدمنا .

أفعال الله جلّ شأنه

افعال الله صـادرة عن علمه وارادته ، كما سبق تقديره ، وكل ما صدر عن علم وارادة فهو عن الاختيار ، ولا شيء مما يصدر عن الاختيار ولا شيء مما يصدر عن الاختيار بواجب على المختار لذاته ، فلا شيء من افعاله بواجب الصدور عنه لذاته فجميع صفات الأفعال من : خلق ، ورزق ، واعطاء ، ومنع ، وتعذيب ، وتنعيم ، مما يثبت له تعـالى بالامكان الخاص ، فلا يطوف بعقل عاقل ـ بعد تسليم انه فاعل عن علم وارادة ـ أن يتوهم أن شيئا من أفعاله واجب عنه لذاته ، كما هو الشأن فى لوازم الماهيات ، أو فى اتصاف الواجب بصفاته مثلا ، فان ذلك هو التناقض البديهى الاستحالة ، كما سبقت الاشارة اليه .

بقيت علينا جولة نظر فى تلك المقالات الحمقى التى اختبط فيها القوم اختباط اخوة تفرقت بهم الطرق فى السير الى مقصد واحد ، حتى اذا التقوا فى غسق الليل صاح كل فريق بالآخر صيحة المستنجد ، فظن كلّ ان الآخر عدو يريد مقارعته على ما بيده ، فاستمر بينهم القتال ، ولا زالوا يتجالدون حتى تساقط جلهم دون المطلب ، ولما اسفر الصبح وتعارفت الوجوه رجع الرشد

الى ما بقى ، وهم الناجون ، ولو تعارفوا من قبل لتعاونوا جميعا على بلوغ ما أملوا ، ولوافتهم الغاية اخوانا بنور الحق مهتدين ، نريد تلك المقالات المضطربة فى انه يجب على الله رعاية المصلحة فى أفعاله (١) ، وتحقيق وعيده فيمن تعدى حدوده من عبيده (٢) ، وما يتلو ذلك من وقوع أعماله تحت العلل والأعراض ، فقد بالغ قوم فى الايجاب حتى ظن الناظر فى مزاعمهم أنهم عدوه واحدا من المكلفين ، يفرض عليه أن يجهد للقيام بما عليه من الحقوق وتأدية ما لزمه من الواجبات ، تعالى عن ذلك علوا كبيرا .

وغلا آخرون فى نفى التعليل عن أفعاله حتى خيل للممعن فى مقالاتهم أنهم لا يرضونه الا قلبا يبرم اليوم ما نقضه بالأمس ، ويفعل غدا ما أخبر بنقيضه اليوم ، أو غافلا لا يشعر بما يستتبعه عمله ، (سبحان ربك رب العزة عما يصفون) (٣) ، وهو أحكم الحاكمين وأصدق القائلين ، جبروت الله وطهارة دينه أعلى وأرفع من هذا كله .

اتفق الجميع على ان أفعاله لا تخلو من حكمة ، وصرح الغلاة والمقصرون جميعا بأنه تعالى منزه عن العبث فى أفعاله ، والكذب فى أقواله ، ثم بعد هذا اخذوا يتنابذون بالألفاظ ويتمارون فى الأوضاع ، ولا يدرى الى اى

---

(١) وهو مايعرف عند المعتزلة من ان الله سبحانه يجب عليه فعل الصلاح والاصلح لعباده .

(٢) وهو أحد الاصول الخمسة عند المعتزلة ، سموه صدق الوعد والوعيد ، وأحالوا عليه ان يتخلف وعده للطائعين ووعيده للعاصين . أنظر الفصل الذى كتبناه عن هذه الاصول الخمسة فى بحثنا (المعتزلة ومشكلة الحرية الانسانية) طبعة بيروت سنة ١٩٧٢ م .

(٣) الصافات : ١٨٠ .

غاية يقصدون ، فلنأخذ ما اتفقوا عليه ، ولنرد الى حقيقة واحدة ما اختلفوا فيه .

حكمة كل عمل ما يترتب عليه مما يحفظ نظاما أو يدفع فسادا ، خاصا كان أو عاما ، لو كشف للعقل من أى وجه لعقله ، وحكم بأن العمل لم يكن عبثا ولعبا ، ومن يزعم للحكمة معنى لا يرجع الى هذا حاكمناه الى أوضاع اللغة ، وبداهة العقل . لا يسمى ما يترتب على العمل حكمة ، ولا يتمثل عند العقل بمثالها الا اذا كان ما يتبع العمل مرادا لفاعله بالفعل ، والا لعد النائم حكيما فيما لو صدرت عنه حركة فى نومه قتلت عقربا كاد يلسع طفلا ، أو دفعت صبيا عن حفرة كاد يسقط فيها ، بل لوسم بالحكمة كثير من العجماوات اذا استتبعت حركاتها بعض المنافع الخاصة أو العامة ، والبداهة تأباه .

من القواعد الصحيحة المسلمة عند جميع العقلاء أن أفعال العاقل تصان عن العبث . ولا يريدون من العاقل الا العالم بما يصدر عنه بارادته ، ويريدون من صونها عن العبث أنها لا تصدر الا لأمر يترتب عليها ، يكون غاية لها ، وان كان هذا فى العاقل الحادث فما ظنك بمصدر كل عقل ومنتهى الكمال فى العلم والحكم ؟ كلها مسلمات لا ينازع فيها أحد .

صنع الله الذى أتقن كل شىء ، وأحسن خلقه ، مشحون بضروب الحكم ، ففيه ما قامت به السماوات والأرض وما بينهما ، وحفظ به نظام الكون بأسره ، وما صانه عن الفساد الذى يفضى به الى العدم ، وفيه ما استقامت به مصلحة كل موجود على حدته ، خصوصا ما هو من الموجودات الحية كالنبات والحيوان ،

واولا هذه البدائع من الحـــكم ما تيسر لنا الاستدلال على علمه .

فهذه الحـــكم التى نعرفها الآن بوضع كل شيء فى موضعه ، وايتاء كل محتاج ما له اليه الحاجة ، اما أن تكون معلومة له مرادة مع الفعل أم لا .. لا يمكن القول بالثانى ، والا لكان قولا بقصور العلم ان لم تكن معلومة ، أو بالغفلة ان لم تكن مرادة ، وقد سبق تحقيق ان علمه وسع كل شيء ، واستحالة غيبة أثر من آثار ارادته ، فهو يريد الفعل ، ويريد ما يترتب عليه من الحكمة ، ولا معنى لهذا الا ارادته للحـــكمة من حيث هى تابعة للفعل .

ومن المحال ان تكون الحكمة غير مرادة بالفعل ، مع العلم بارتباطها به ، فيجب الاعتقاد بأن افعاله يستحيل ان تكون خالية من الحكمة ، وبأن الحكمة يستحيل أن تكون غير مرادة ، اذ لو صح توهم ان ما يترتب على الفعل غير مراد لم يعد ذلك من الحكمة ، كما سبق .

فوجوب الحكمة فى أفعاله تابع لوجوب الكمال فى علمه وارادته ، وهو مما لا نزاع فيه بين جميع المتخالفين ، وهكذا يقال فى وجوب تحقيق ما وعد وأوعد به ، فانه تابع لكمال علمه وارادته وصدقه ، وهو أصدق القائلين ، وما جاء فى الكتاب أو السنة مما قد يوهم خلاف ذلك يجب ارجاعه الى بقية الآيات وسائر الآثار ، حتى ينطبق الجميع على ما هدت اليه البديهيات السابق ايرادها ، وعلى ما يليق بكمال الله ، وبالغ حكمته ، وجليل عظمته ، والأصل الذى يرجع اليه كل وارد فى هذا الباب قـوله تعالى :

﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ ، لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْوًا لَاتَّخَذْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا إِنْ كُنَّا فَاعِلِينَ ، بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴾[1] .

وقوله : (لاتخذناه من لدنا) أى لصدر عن ذاتنا المتفردة بالكمال المطلق ، الذى لا يشوبه نقص ، وهو محال ، وان فى قوله : (ان كنا فاعلين) ، نافية ، وهو نتيجة القياس السابق .

بقى أن الناظرين فى هذه الحقائق ينقسمون الى قسمين : فمنهم من يطلب علمها لأنه شهوة العقل وفيه لذته ، فهذا القسم يسمى المعانى بأسمائها ولا يبالى جوز الشرع اطلاقها فى جانب الله أم لم يجوز، فيسمى الحكمة غاية وغرضا ، وعلة غائية ، ورعاية للمصلحة ، وليس من رأيه أن يجعل لقلمه عنانا يرده عن اطلاقه اسما متى صح عنده معناه ، وقد يعبر بالواجب عليه بدل الواجب له ، غير مبال بما يوهمه اللفظ .

ومنهم من يطلب علمها مع مراعاة ان ذلك دين يتعبد به ، واعتقاد بشئون لاله عظيم يعبد بالتحميد والتعظيم ، ويجب الاحتياط فى تنزيهه حتى بعفة اللسان عن النطق بما يوهم نقصا فى جانبه ، فيتبرأ من تلك الألفاظ ، مفردها ومركبها ، فان الوجوب عليه يوهم التكليف

---

(١) الانبياء : ١٦ - ١٨ .

والالزام ، وبعبارة اخرى يوهم القهر والتأثر بالأغيار ، ورعاية المصلحة توهم اعمال النظر واجالة الفكر ، وهما من لوازم النقص فى العلم والغـــاية ، والعلة الغـائية والفرض توهم حركة فى نفس الفاعل من قبل البدء فى العمل الى نهايته ، وفيها ما فى سوابقها ، ولـكن الله اكبر .. هل يصح أن تكون سعة المجال أو التعفف فى المقال سببا فى التفــرقة بين المؤمنين ، وتماريهم فى الجدال حتى ينتهى بهم التفرق الى ما صاروا اليه من سوء الحال ؟! .

أفعـال العبـاد

كما يشهد سليم العقل والحـواس من نفسه انه موجود ، ولا يحتاج في ذلك الى دليل يهديه ولا معلم يرشده ، كذلك يشهد انه مدرك لأعماله الاختيارية ، يزن نتائجها بعقله ، ويقدرها بارادته ، ثم يصدرها بقدرة ما فيه ، ويعد انكار شيء من ذلك مساويا لانكار وجوده ، في مجافاته لبداهة العقل .

كما يشهد بذلك في نفسه يشهده أيضا في بني نوعه كافة ، متى كانوا مثله في سلامة العقل والحواس ، ومع ذلك فقد يريد ارضاء خليل فيغضبه ، وقد يطلب كسب رزق فيفوته ، وربما سعى الى منجاة فسقط في مهلكة ، فيعود باللائمة على نفسه ان كان لم يحكم النظر في تقدير فعله ، ويتخذ من خيبته اول أمره مرشدا له في الاخرى ، فيعاود العمل من طريق أقوم وبوسـائل أحكم ، ويتقد غيظه على من حال بينه وبين ما يشتهي ، ان كان سبب الاخفاق في المسعى منازعة منافس له في مطلبه ، لوجدانه من نفسه أنه الفـاعل في حرمانه ، فينبري لمناضلته ، وتارة يتجه الى أمر أسمى من ذلك ، ان لم يكن لتقصيره أو لمنافسة غيره دخل فيما لقي من

مصير عمله ، كأن هب ريح فأغرق بضاعته ، او نزل صاعق فأحرق ماشيته ، أو علق أمله بمعين فمات ، أو بذى منصب فعزل ، يتجه من ذلك الى أن فى الكون قوة أسمى من أن تحيط بها قدرته ، وأن وراء تدبيره سلطانا لا تصل اليه سلطته ، فان كان قد هداه البرهان وتقويم الدليل الى ان حوادث الكون بأسره مستندة الى واجب وجود واحد ، يصرفه على مقتضى علمه وارادته ، خشع وخضع ، ورد الأمر اليه فيما لقى ، ولكن مع ذلك لا ينسى نصيبه فيما بقى ، فالمؤمن كما يشهد بالدليل وبالعيان ان قدرة مكون الكائنات أسمى من قوى الممكنات ، يشهد بالبداهة أنه فى أعماله الاختيارية ، عقلية كانت أو جسمانية ، قائم بتصريف ما وهب الله له من المدارك والقوى فيما خلقت لأجله ، وقد عرف القوم شكر الله على نعمه فقالوا : هو صرف العبد جميع ما أنعم الله به عليه الى ما خلق لأجله .

على هذا قامت الشرائع ، وبه استقامت التكاليف ، ومن أنكر شيئا منه فقد أنكر مكان الايمان من نفسه ، وهو عقله الذى شرفه الله بالخطاب فى أوامره ونواهيه .

أما البحث فيما وراء ذلك من التوفيق بين ما قام عليه الدليل من احاطة علم الله وارادته وقدرته ، وبين ما تشهد به البداهة من عمل المختار فيما وقع عليه الاختيار ، فهو من طلب سر القدر الذى نهينا عن الخوض فيه ، واشتغال بما لا تكاد تصل العقول اليه ، وقد خاض فيه الغالون من كل ملة خصوصا من المسيحيين والمسلمين ، ثم لم يزالوا بعد طول الجدال وقوفا حيث ابتدءوا ، وغاية ما فعلوا أن فرقوا وشتتوا ، فمنهم القائل بسلطة

العبد على جميع أفعاله واستقلالها المطلق (١) ، وهو غرور ظاهر ، ومنهم من قال بالجبر وصرح به (٢) ، ومنهم من قال به وتبرأ من اسمه (٣) ، وهو هدم للشريعة ومحو للتكاليف وابطال لحكم العقل البديهى ، وهو عماد الايمان .

ودعوى ان الاعتقاد بكسب العبد لافعاله يؤدى الى الاشراك بالله ، وهو الظلم العظيم ، دعوى من يلتفت الى معنى الاشراك على ما جاء به الكتاب والسنة ، فالاشراك : اعتقاد ان لغير الله اثرا فوق ما وهبه الله من الأسباب الظاهرة ، وأن لشيء من الأشياء سلطانا على ما خرج عن قدرة المخلوقين . وهو اعتقاد من يعظم سوى الله مستعينا به فيما لا يقدر العبد عليه ، كالاستنصار فى الحرب بغير قوة الجيوش . والاستشفاء من الأمراض بغير الأدوية التى هدانا الله اليها ، والاستعانة على السعادة الأخروية أو الدنيوية بغير الطرق والسنن التى شرعها الله لنا . هذا هو الشرك الذى كان عليه الوثنيون ومن ماثلهم ، فجاءت الشريعة الاسلامية بمحوه ، ورد الأمر فيما فوق القدرة البشرية والأسباب الكونية الى الله وحده ، وتقرير أمرين عظيمين هما ركنا السعادة وقوام الأعمال البشرية :

---

(١) هم المعتزلة ومن رأى رأيهم

(٢) وهم الجبرية الخلص ، وأول فرقهم « الجهمية » أتباع الجهم بن صفوان ، المتوفى سنة ١٢٨ هـ ، وسارت على دربهم هذا فرق كثيرة . أنظر الفصل الذى كتبناه عن الجبرية فى بحثنا (المعتزلة ومشكلة الحرية الانسانية) .

(٣) هم الاشعرية الذين لايغنى عنهم قولهم بالكسب شيئا من الانفاق فى نهاية المطاف مع الجبرية . أنظر فى ذلك بحثنا السابق أيضا .

الأول : أن العبد يكسب بارادته وقدرته ما هو وسيلة لسعادته .

والثاني : ان قدرة الله هي مرجع لجميع الكائنات ، وان من آثارها ما يحول بين العبد وبين انفاذ ما يريده ، وان لا شيء سوى الله يمكن له أن يمد العبد بالمعونة فيما لم يبلغه كسبه .

جاءت الشريعة لتقرير ذلك ، وتحريم أن يستعين العبد بأحد غير خالقه في توفيقه الى اتمام عمله ، بعد احكام البصيرة فيه ، وتكليفه بأن يرفع همته الى استمداد العون منه وحده ، بعد أن يكون قد افرغ ما عنده من الجهد في تصحيح الفكر واجادة العمل . ولا يسمح العقل ولا الدين لأحد أن يذهب الى غير ذلك .

وهذا الذي قررناه قد اهتدى اليه سلف الأمة فقاموا من الأعمال بما عجبت له الأمم ، وعول عليه من متأخري اهل النظر امام الحرمين الجويني ، رحمه الله ، وان أنكر عليه بعض من لم يفهمه .

اكرر القول بأن الايمان بوحدانية الله لا يقتضي من المكلف الا اعتقاد أن الله صرفه في قواه ، فهو كاسب لايمانه ولما كلفه الله به من بقية الأعمال ، واعتقاد ان قدرة الله فوق قدرته ، ولها وحدها السلطان الأعلى في اتمام مراد العبد بازالة الموانع او تهيئة الأسباب المتممة مما لا يعلمه ولا يدخل تحت ارادته .

اما التطلع الى ما هو اغمض من ذلك فليس من مقتضى الايمان ، كما بينا ، وانما هو من شره العقول في طلب رفع الاستار على الاسرار ، ولا أنكر ان قوما قد وصلوا بقوة العلم ، والمثابرة على مجاهدة المدارك الى ما اطمأنت

به نفوسهم وتقشعت به حيرتهم ، ولكن قليل ما هم .
على ان ذلك نور يقذفه الله في قلب من شاء ، ويخص
به أهل الولاية والصفاء . وكثر ما ضل قوم وأضلوا ،
وكان لمقالاتهم أسوأ الأثر فيما عليه حال الأمة اليوم ،
لو شئت لقربت البعيد فقلت : ان من بالغ الحكم في
الكون أن تتنوع الأنواع على ما هي عليـــه في العيان ،
ولا يكون النوع ممتازا عن غيره حتى تلزمه خواص ، وكذا
الحال في تميز الأشخاص ، فواهب الوجود يهب الأنواع
والأشخاص وجودها على ما هي عليه ، ثم كل وجود متى
حصل كانت له توابعه .

اختيار الانسان

ومن تلك الأنواع الانسان ، ومن مميزاته حتى يكون
غير سائر الحيوانات ، ان يكون مفكرا مختارا في عمله
على مقتضى فكره ، فوجوده الموهوب مستتبع لميزاته
هذه ، ولو سلب شيء منها لـكان اما ملكا أو حيوانا
آخر ، والفرض انه الانسان ، فهبة الوجود له لا شيء
فيها من القهر على العمل .

ثم علم الواجب محيط بما يقع من الانسان بارادته ،
وبأن عمل كذا يصدر في وقت كذا ، وهو خير يثاب
عليه ، وان عملا آخر يعاقب عليه . عقاب الشر والأعمال
في جميع الأحوال حاصلة عن الكسب والاختيار ، فلا
شيء في العلم بسالب للتخيير في الكسب ، وكون ما في
العلم يقع لا محالة انمـــا جاء من حيث هو الواقع ،
والواقع لا يتبدل ، ولنـــا في علومنا الـكونية أقرب
الأمثال : شخص من أهل العناد يعـلم علم اليقين أن

عصيانه لأميره باختياره يحل به عقوبته لا محالة ، لكنه مع ذلك يعمل العمل ويستقبل العقوبة ، وليس لشىء من علمه وانطباقه على الواقع أدنى أثر فى اختياره ، لا بالمنع ولا بالالزام ، فانكشاف الواقع للعالم لا يصح فى نظر العقل ملزما ولا مانعا ، وانمـــا يربك الوهم تغيير العبارات وتشعب الألفاظ . ولو شئت لزدت فى بيان ذلك ورجوت أن لا يبعد عن عقل ألف النظر الصحيح ، ولم تفسد فطرته بالماحكات اللفظية ، لكن يمنعنى عن الاطالة فيه عدم الحاجة اليه فى صحة الايمان وتقاصر عقول العامة عن ادراك الأمر فى ذاته مهما بالغ المعبر فى الايضاح عنه ، والتياث قلوب الجمهور من الخاصة بمرض التقليـــد ، فهم يعتقدون الأمر ثم يطلبون الدليل عليه ، ولا يريدونه الا موافقا لما يعتقدون ، فان جاءهم بما يخالف ما اعتقدوا نبذوه ولجوا فى مقاومته وان أدى ذلك الى جحد العقـــل برمته ، فأكثـــرهم يعتقد فيستدل ، وقلما تجد بينهم من يستدل ليعتقد ، فان صاح بهم صائح من أعماق سرائرهم : ويل للخابط ، ذلك قلب لسنة الله فى خلقه ، وتحريف لهديه فى شرعه ، عرتهم هزة من الجزع ، ثم عادوا الى السكون محتجين بأن هذا هو المألوف ، وما أقمنا الا على معروف . ولا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم .

حسن الأفعال وقبحها

الأفعال الانسانية الاختيارية لا تخرج عن أن تكون من الأكوان الواقعة تحت مداركنا ، وما تنفعل به نفوسنا عند الاحساس بهـــا أو استحضار صورها يشابه كل المشابهة ما تنفعل به عند وقـــوع بعض الكائنات تحت

حواسنا أو حضورها فى مخيلاتنا ، وذلك بديهى لا يحتاج الى دليل .

نجد فى أنفسنا بالضرورة تمييزا بين الجميل من الأشياء والقبيح منها ، فان اختلفت مشارب الرجال فى جمال النساء ، أو مشارب النساء فى معنى جمال الرجال ، فلم يختلف أحد فى جمال الوان الأزهار ، وتنضيد أوراق النباتات والأشجار ، خصوصا اذا كانت أوضاع الزهر على أشكال تمثل الائتلاف والتناسب بين تلك الألوان بعضها مع بعض ، ولا فى قبح الصورة الممثل بها بتهشيم بعض أجزائها ، وانقطاع البعض الآخر على غير نظام ، وانفعال أنفسنا من الجميل بهجة أو اعجابا ، ومن القبيح اشمئزازا أو جزعا ، وكما يقع هذا التمييز فى المبصرات يقع فى غيرها من المسموعات والملموسات والمذوقات والمشمومات ، كما هو معروف لكل حساس من بنى آدم باحدى تلك الحواس .

ليس هذا موضع تحديد ما هو الجمال وما هو القبح فى الأشياء ، ولكن لا يخالفنا أحد فى أن من خواص الانسان ، بل وبعض الحيوان ، التمييز بينهما ، وعلى هذا التمييز قامت الصناعات على اختلاف أنواعها ، وبه ارتقى العمران فى أطواره الى الحد الذى تراه عليه الآن ، وان اختلفت الأذوق ففى الأشياء جمال وقبح .

***

هذا فى المحسوسات واضح كما سبق ، ولعله لا ينزل عن تلك الدرجة فى الوضوح ما يلم به العقل من الموجودات المعقولة ، وان اختلف اعتبار الجمال فيها ، فالكمال فى المعقولات كالوجود والواجب ، والأرواح

اللطيفة ، وصفات النفوس البشرية له جمال تشعر به أنفس عارفيه ، وتنبهر له بصائر لاحظيه ، وللنقص قبح لا تنكره المدارك العالية ، وان اختلف أثر الشعور ببعض أطواره في الوجدان من أثر الاحساس بالقبيح في المحسوسات ، وهل في الناس من ينكر قبح النقص في العقل ، والسقوط في الهمة ، وضعف العزيمة ؟؟ ويكفى أن أرباب هذه النقائص المعنوية يجاهدون في اخفائها ويفخرون أحيانا بأنهم متصفون بأضدادها .

وقد يجمل القبيح بجمال أثره ، ويقبح الجميل بقبح ما يقترن به ، فالمر قبيح مستبشع ، والملك الدميم المشوه الخلقة ينبو عنه النظر ، لكن أثر المر في معالجة المرض ، وعدل الدميم في رعيته ، أو احسانه اليك في خاصة نفسك ، يغير من حالتك النفسية عند حضور صورته ، فان جمال الأثر يلقى على صاحبه اشعة من بهائه ، فلا يشعر الوجدان منه الا بالجميل . ومثل ذلك يقال في قبح الحلو اذا أمز ، واشمئزاز النفس من الجميل اذا ظلم واضر .

هل يمكن لعاقل أن يقول في الأفعال اختيارية كما قال في الموجدات الكونية ، مع أنها نوع منها ، وتقع تحت حواسنا ومداركنا العقلية ، اما بنفسها واما بأثرها ، وتنفعل نفوسنا بما يلم بها منها كما يرد عليها من صور الكائنات ؟؟ .. كلا .. بل هى قسم من الموجدات ، حكمها في ذلك حكم سائرها بالبداهة .

***

فمن الأفعال الاختيارية ما هو معجب في نفسه ، تجد النفس منه ما تجد من جمال الخلق ، كالحركات

العسكرية المنتظمة ، وتقلب المهرة من اللاعبين فى الالاعيب المعروفة اليوم « بالجمناستيك » ، وكايقاعات النغمات على القوانين الموسيقية من العارف بها ، ومنها ما هو قبيح فى نفسه ، يحس منه ما يحس من رؤية الخلق المشوه ، كتخبط ضعفاء النفوس عند الجزع ، وكولولة النائحات ونقع (١) المذعورين .

ومنها ما هو قبيح لما يعقبه من الألم ، وما هو حسن لما يجلب من اللذة أو دفع الألم ، فالأول كالضرب والجرح وكل ما يؤلم من أفعال الانسان ، والثانى كالأكل على جوع والشرب على عطش ، وكل ما يحصل لذة أو يدفع ألما مما لا يحصى عده ، وفى هذا القسم يكون الحسن بمعنى ما يلذ والقبيح بمعنى المؤلم .

وقلما يختلف تمييز الانسان للحسن والقبيح من الأفعال بالمعنيين السابقين عن تمييز الحيوانات المرتقية فى سلسلة الوجود ، اللهم الا فى قوة الوجدان وتحديد مرتبة الجمال والقبح .

***

ومن الأفعال الاختيارية ما يحسن باعتبار ما يجلب من النفع ، وما يقبح بما يجر اليه من الضرر ، ويختص الانسان بالتمييز بين الحسن والقبيح بهذا المعنى اذا أخذ من أكمل وجهاته ، وقلما يشاركه فيه حيوان آخر ، اللهم الا من أحط جهاته وهو خاصة العقل وسر الحكمة الالهية فى هبة الفكر .

فمن اللذيذ ما يقبح لشؤم عاقبته ، كالافراط فى تناول الطعام والشراب ، والانقطاع الى سماع الأغانى ،

---

(١) من معانيه ارتفاع الصوت والغبار ، وشق الجيوب .

والجرى فى أعقاب الشهوات ، فان ذلك مفسدة للصحة، مضيعة للعقل ، متلفة للمال ، مدعاة للعجز والذل ، وانما قبح اللذيذ فى هذا الموضع لقصر مدته ، وطول مدة ما يجر اليه عادة من الآلام التى قد لا تنتهى الا بالموت على أسوأ حالاته ، ولضعف النسبة بين متاع اللذة ومقاسات شدائد الألم .

ومن المؤلم ما يحسن كتجشم مشاق التعب فى الأعمال لكسب الرزق ، وتأمين النفس على حاجاتها فى أوقات الضعف ، ومجاهدة الشهوات ، ومقاساة الحرمان من بعض اللذات حينا من الزمن ليتوفر للقوى البدنية والعقلية حظها من التمتع بما قدر لها من اللذائذ على وجه ثابت لا يخالطه اضطراب ، أو على نمط يخفف من رزايا الحياة ، ان عدت الحياة مثارا لها .

ومن المؤلم الذى عده العقل البشرى حسنا مقارعة الانسان عدوه ، سواء كان من نوعه أو من غيره ، للمدافعة عن نفسه و أو عن أنصاره ، ومنهم بنو أبيه أو قبيلته أو شعبه أو أمته ، حسب ارتقائه فى الاحساس ، ومخاطرته حتى بحياته فى سبيل ذلك ، كأنه يرى فى بذل هذه الحياة أمنا على حياة أخرى تشعر بها نفسه وان لم يحددها عقله .

ومنه معاناة التعب فى كشف ما عمى عن علمه من حقائق الكون ، كأنه لا يرى المشقة فى ذلك شيئا بالقياس الى ما يحصل من لذة الاطمئنان على الحق بقدر ما له من الاستطاعة .

وعد من اللذيذ المستقبح مد اليد الى ما كسبه

الغير بسعيه وأستشفاء الم الحقد باتلاف نفس الحقوذ عليه أو ماله ، لما فى ذلك من جانب المخافة العامة حتى على ذات المعتدى ، ويمكنك من نفسك استحضار ما يتبع الوفاء بالعهود والعقود والغدر فيها .

كل هذا عرفه العقل البشرى ، وفرق فيه بين الضار والنافع ، وسمى الأول فعل الشر والثانى عمل الخير ، وهذا التفريق هو منبت التمييز بين الفضيلة والرذيلة ، وقد حددهما النظر الفكرى على تفاوت فى الاجمال والتفصيل للتفاوت فى درجات عقول الناظرين ، وناط بهما سعادة الانسان وشقاءه فى هذه الحياة ، كما ربط بهما نظام العمران البشرى وفساده وعزة الأمم وذلتها وضعفها وقوتها ، وان كان المحددون لذلك والآخذون فيه بحظ الصواب هم العدد القليل من عقلاء البشر .

***

كل هذا من الأوليات العقلية ، لم يختلف فيه ملى ولا فيلسوف . فللأعمال الاختيارية ، حسن وقبح فى نفسها ، أو باعتبار أثرها فى الخاصة أو فى العامة ، والحس أو العقل قادر على تمييز ما حسن منها وما قبح بالمعانى السابقة ، بدون توقف على سمع .

والشاهد على ذلك ما تراه فى بعض أصناف الحيوان، وما نشـــهده من افاعيل الصبيان قبل تعقل ما معنى الشرع ، وما وصل الينا من تاريخ الانسان وما عرف عنه فى جاهليته .

ومما يحسن ذكره هنا ما شاهده بعض الناظرين فى أحوال النمل ، قال : كانت جماعة من النمل تشتغل فى بيت لها ، فجاءت نملة كأنها القائمة بمراقبة العمل ، فرأت المشتغلات قد وضعت السقف على أقل من الارتفاع

المناسب ، فأمرت بهدمه ، فهدم ، ورفـع البنيان الى الحد الموافق ، ووضع السقف على أرفع مما كان ، وذلك من انقاض السقف القديم . وهذا هو التمييز بين الضار والنافع ، فمن زعم أن لا حسن ولا قبح فى الأعمال على الاطلاق فقد سلب نفسه العقل ، بل عدها أشد حمقا من النمل .

***

سبق لنا ان واجب الوجود وصفاته الكمالية تعرف بالعقل ، فاذا وصل مستدل ببرهانه الى اثبات الواجب وصفاته الغير السمعية ، ولم تبلغه بذلك رسالة ، كما حصل لبعض أقوام من البشر ، ثم انتقل من النظر فى ذلك وفى أطوار نفسه الى ان مبدأ العقل فى الانسان يبقى بعد موته ، كمـــا وقع لقوم آخرين ، ثم انتقل من هذا مخطئا أو مصيبا ، الى ان بقاء النفس البشرية بعد الموت يستدعى سعادة لهـا فيه أو شــــقاء ، ثم قال : ان سعادتها انما تكون بمعرفة الله وبالفضائل ، وانها انما تسقط فى الشـــقاء بالجهل بالله وبارتكاب الرذائل ، وبنى على ذلك أن من الأعمال ما هو نافع للنفس بعد الموت بتحصيل السعادة ، ومنها ما هو ضار لها بعده بايقاعها فى الشقاء ، فأى مانع عقلى أو شرعى يحظر عليه أن يقول بعد ذلك بحكم عقله : أن معرفة الله واجبة ، وان جميع الفضائل وما يتبعها من الأعمال مفروضة ، وان الرذائل وما يكون عنها محظورة ؟؟ وان يصنع لذلك ما يشاء من القوانين ليدعو بقية البشر الى الاعتقاد بمثل ما يعتقد ، والى أن يأخذ من الأعمال بمثل ما أخذ به حيث لم يوجد شرع يعارضه .

اما أن يكون ذلك حالا لعامة الناس ، يعلمون بعقولهم ان معرفة الله واجبة ، وان الفضائل مناط السعادة في الحياة الأخرى ، والرذائل مدار الشقاء فيها ، فمما لا يستطيع عاقل ان يقول به ، والمشهود من حال الأمم كافة يضلل القائل به فى رأيه .

لو كانت حاجات الانسان ومخاوفه محدودة كما هى حاجات فيل أو أســـد مثلا ، وكان ما وهب له من الفكر واقفا عند حد ما اليه الحاجة ، لاهتدى الى المنع واتقاء المضار على وجه لا يختلف فيه أفراده ، ولسعدت حياته وتخلص كل من شر الآخر ، ونجا بقية الحيوانات من غائلة الجميع . لكن قضى عليه حكم نوعه بأن لا يكون لحاجته حد ، ولا تختص معيشته بجـــو من الأجواء ولا بوضع من الأوضاع ، وان يوهب من القوى المدركة ما يكفيه استعماله فى سد عوزه وتوفير لذاته ، فى أى اقليم ، وعلى أى حال ، وان يختلف ظهور هذه المدارك فى أطوارها وآثارها باختلاف أصنافه وشعوبه وأشخاصه اختلافا لا تنتهى درجاته ، ولولا هذا لما اختلف عن بقية الحيوانات الا باستقامة القامة وعرض الاظفار .

***

وهب الله الانسان أو سلط عليه ثلاث قوى لم يساوه فيها حيوان : الذاكرة ، والمخيلة ، والمفكرة .

فالمذكرة : تثير من صور الماضى ما ستره الاشتغال بالحاضر ، فتستحضر من صور المرغوبات والمكروهات ما تنبه اليه الأشياء أو الأضداد الحاضرة ، فقد يذكر الشىء بشبهه وقد يذكره بضده ، كما هو بديهى .

والخيال : يجسم من المذكور ، وما يحيط به من الأحوال ، حتى يصير كأنه شاهد ، ثم ينشىء له مثال

لذة أو ألم فى المستقبل يحاكى ما ذهب به الماضى ، ويهمز النفس فى طلبه أو الهرب منه فتلجـــأ الى الفكر : فى تدبير الوسيلة اليه .

على هذه القوى الثلاث مستوى سعادة الانسان ، ومنها ينبوع بلائه . فمن الناس معتدل الذكر هادىء الخيال صحيح الفكر ، ينظر مثلا فى حال مسرف انفق ما له فى غير نافع ، وضاقت يده عما يقيم معيشته ، فيذكر الما لحــاجة مضت ، ثم يتخيل المال ومنافعــه وما تتمتع به النفس من اللذة به ، سواء فى دفع الألم الذى يحدثه مشهد الفاقة فى غيره ، باعطـــاء المضطر ما يذهب بضرورته ، ثم يتخيل ذلك المال آتيــا من وجوهه التى لا يتعلق بها حق من حقوق غيره ، وعند ذلك يوجه فكره لطلب الوسيلة اليه من تلك الوجـوه بالعمل القويم فى استخدام ما وهبه الله من القوى فى نفسه وما سخره له من قوى الكون المحيط به .

ومن الناس منحرف عن سنن الاعتدال ، يرى مالا مثلا فى يد غيره ، فيتذكر لذة ماضية أصابها بمثل هذا المال ، ويعظم له الخيال لذة مثلها فى المستقبل ، ولا يزال يعظم فى تلك اللذة والتمتع بهـــا حتى يقع ظـــل الخيال على طريق الفكر فيستر عنه ما طاب من وجوه الكسب ، وانما يعمد الى استعمال قوته أو حيلته فى سلب المال من يد مالكه ، لينفقه فيما تخيل من المنفعة ، فيكون قد عطل بذلك قواه الموهوبة له ، وأخل بالأمن الذى أفاضه الله بين عباده ، وسن سنة الاعتداء ، فلا يسهل عليه ولا على غيره الوصول الى الراحة من أعمال المقترفين لمثل عمله .

وخفيف من النظر فى أعمال البشر يجليها جميعا على

نحو ما بينا فى المثالين ، فلقوة الذاكرة وضعفها ، ولحدة الخيال واعتداله ، واعوجاج الفكر واستقامته أعظم الأثر في التمييز بين النافع والضار فى أشخاص الأعمال ، وللأمزجة والأجواء وما يحتف بالشخص من أهل وعشيرة ومعاشرين مدخل عظيم فى التخيل والفكر ، بل وفى الذكر .

فالناس متفقون على أن من الأعمال ما هو نافع ، ومنها ما هو ضار ، وبعبارة أخرى : منها ما هو حسن ومنها ما هو قبيح ، ومن عقلائهم وأهل النظر الصحيح والمزاج المعتدل منهم من يمكنه اصابة وجه الحق فى معرفة ذلك . ومتفقون كذلك على أن الحسن ما كان ادوم فائدة وان كان مؤلما فى الحال ، وأن القبيح ما جر الى فساد فى النظام الخاص بالشخص أو الشامل له ولمن يتصل به ، وان عظمت لذته الحاضرة ، ولكنهم يختلفون فى النظر الى كل عمل بعينه اختلافهم فى أمزجتهم وسحنهم ومناشئهم وجميع ما يكتنف بهم ، فلذلك ضربوا الى الشر فى كل وجه ، وكل يظن أنه انما يطلب نافعا ويتقى ضارا .

فالعقل البشرى وحده ليس فى استطاعته أن يبلغ بصاحبه سعادته فى هذه الحياة ، اللهم الا فى قليل ممن لم يعرفهم الزمن ، فان كان لهم من الشأن العظيم ما به عرفهم اشار اليهم الدهر بأصابع الأجيال ، وقد سبقت الاشارة اليهم فيما مر .

وليست عقول الناس سواء فى معرفة الله تعالى ، ولا فى معرفة حياة بعد هذه الحياة ، فهم وان اتفقوا فى الخضوع لقوة اسمى من قواهم ، وشعر معظمهم بيوم بعد هذا اليوم ، ولكن أفسدت الوثنية عقولهم ،

وانحرفت بها عن مسلك السعادة ، فليس فى سعة العقل الانسانى فى الأفراد كافة أن يعرف من الله ما يجب أن يعرف ، ولا أن يفهم من الحياة الآخرة ما ينبغى أن يفهم ، ولا أن يقرر لكل نوع من الأعمال جزاءه فى تلك الدار الآخرة ، وانما قد تيسر ذلك لقليل ممن اختصه الله بكمال العقل ، ونور البصيرة ، وان لم ينل شرف الاقتداء بهدى نبوى ، ولو بلغه لكان أسرع الى اتباعه ، وهؤلاء ربما يصلون بأفكارهم الى العرفان من وجه غير ما يليق فى الحقيقة أن ينظر منه الى الجلال الالهى .

ثم من أحوال الحياة الأخرى ما لا يمكن لعقل بشرى ان يصل اليه وحده ، وهو تفصيل اللذائذ والآلام ، وطرق المحاسبة على الأعمال ما لا يمكن أن يعرف وجه الفائدة ، لا فى هذه الحياة ولا فيما بعدها ، كصور العبادات ، كما يرى فى أعداد الركعات ، وبعض الأعمال فى الحج فى الديانة الاسلامية وكبعض الاحتفالات فى الديانة الموسوية ، وضروب التوسل والزهادة فى الديانة العيسوية ، كل ذلك مما لا يمكن للعقل البشرى أن يستقل بمعرفة وجه الفائدة فيه ، ويعلم الله أن فيه سعادته .

لهذا كله كان العقل الانسانى محتاجا ، فى قيادة القوى الادراكية والبدنية الى ما هو خير له فى الحياتين ، الى معين يستعين به فى تحديد أحكام الأعمال وتعيين الوجه فى الاعتقاد بصفات الألوهية ، ومعرفة ما ينبغى أن يعرف من أحوال الآخرة ، ولا يكون لهذا المعين سلطان على نفسه حتى يكون من جنسه ، ليفهم منه أو عنه ما يقول ، وحتى يكون ممتازا على

سائر الأفراد بأمر فائق على ما عرف في العادة وما عرف في سنة الخليقة ، ويكون بذلك مبرهنا على أنه يتكلم عن الله الذى يعلم مصالح العباد على ما هى عليه ، ويعلم صفاته الكمالية ، وما ينبغى أن يعرف منها ، والحياة الآخرة ، وما أعد فيها ، فيكون الفهم عنه ، والثقة بأنه يتكلم عن العليم الخبير ، معينا للعقل على ضبط ماتشتت عليه ، أو درك ما ضعف عن ادراكه ، وذلك المعين هو النبى .

النبوة تحـــدد ما ينبغى أن يلحظ فى جانب واجب الوجود من الصفات ، وما يحتاج اليه البشر كافة من ذلك ، وتشير الى خاصتهم بما يمكن لهم أن يفضلوا به غيرهم من مقـامات عرفانهم ، لـكنها لا تحتم الا ما فيه الـكفاية العامة ، فجاءت النبوات مطالبة بالاعتقاد بوجود الله ، وبوحدانيته ، وبالصفات التى اثبتناها ، على الوجه الذى بيناه ، وأرشدت الى طرق الاستدلال على ذلك ، فوجوب المعـرفة على هـذا الوجه المخصوص ، وحسن المعرفة ، وحظر الجهالة والجحود بشىء أوجبه الشرع فى ذلك وقبحه مما لا يعرف الا من طريق الشرع معرفة تطمئن بها النفس ، ولو استقل عقل بشرى بذلك لم يكن على الطريق المطلوب من الجزم واليقين والاقتناع الذى هو عماد الطمأنينة ، فان زيد على ذلك أن العرفان ، على ما بينه الشرع ، يستحق المثوبة المعينـة فيـه ، وضده يستحق العقوبة التى نص عليها ، كانت طريق معرفة الوجوب شرعية محضة ، غير ان ذلك لا ينافى أن معرفة الله على هذه الصفة حسنة فى نفسها ، وانما جاء الشرع مبينا للواقع ، فهو ليس محدث الحسن ، ونصوصه تؤيد ذلك ، واذكر مثالا من كثير :

قال تعالى على لسان يوسف : « أأرباب متفرقون خير ام الله الواحد القهار » (١) يشيرون بذلك اشارة واضحة الى ان تفرق الآلهة يفرق بين البشر فى وجهة قلوبهم الى أعظم سلطان يتخذونه فوق قوتهم ، وهو يذهب بكل قوتهم الى التعصب لما وجه قلبه اليه ، وفى ذلك فساد نظامهم كما لا يخفى ، أما اعتقاد جميعهم باله واحد فهو توحيد لمنازع نفوسهم الى سلطان واحد ، يخضع الجميع لحكمه ، وفى ذلك نظام أخوتهم ، وهى قاعدة سعادتهم ، والبها مآلهم فيما أعتقد وان طال الزمان ، فكما جاء الشرع مطالبا بالاعتقاد جاء هاديا لوجه الحسن فيه .

النبوة تحدد أنواع الأعمال التى تناط بها سعادة الانسان فى الدارين ، وتطالبه عن الله بالوقوف عند الحدود التى حددتها ، وكثيرا ما تبين له مع ذلك وجوه الحسن أو القبح فيما أمر به أو نهى عنه ، فوجوب عمل من المأمور به ، أو الندب اليه ، وحظر عمل ، أو كراهته من المنهى عنه على الوجه الذى حددته الشريعة ، وعلى أنه مثاب عليه بأجر كذا ، ومجازى عليه بعقوبة كذا ، مما لا يستقل العقل بمعرفته ، بل طريقة معرفته شرعية، وهو لا ينافى أيضا أن يكون المأمور به حسنا فى ذاته ، بمعنى أنه مما يؤدى الى منفعة دنيوية أو أخروية ، باعتبار أثره فى أحوال المعيشة ، أو فى صحة البدن ، أو حفظ النفس أو المال أو العرض ، أو فى زيادة تعلق القلب بالله ، جلّ شأنه ، كما هو مفصل فى الأحكام الشرعية . وقد يكون من الأعمال ما لا يمكن درك حسنه ، ومن المنهيات ما لا يعرف وجه قبحه ، وهذا النوع لا حسن له الا الأمر ولا قبح الا النهى . والله أعلم .

---

(١) يوسف : ٣٩ .

الرسالة العامة

نريد من الرسالة العامة ، بعثة الرسل لتبليغ شيء من العقـــائد والأحكام عن الله خالق الانسان وموفيه ما لا غنى له عنه ، كما وفى غيره من الكائنات سداد حاجتها ، ووقاء وجودها ، على القدر الذى حدد لها فى رتبة نوعها من الوجود .

والكلام فى هذا البحث من وجهين :

الأول : وهو أيسرهما على المتكلم ، وجه أن الاعتقاد ببعثة الرسل ركن من أركان الايمان ، فيجب على كل مؤمن ومؤمنة أن يعتقد بأن الله أرسل رسلا من البشر ، مبشرين بثوابه ومنذرين بعقابه ، قاموا بتبليغ أممهم ما أمرهم بتبليغه من تنزيه لذاته وتبيين لسلطانه القاهر على عباده ، وتفصيل لأحكامه فى فضائل أعمال وصفات يطالبهم بها ، وفى مثالب فعال وخلائق ينهاهم عنها ، وأن يعتقد بوجوب تصديقهم فى انهم يبلغون ذلك عن الله ، ووجوب الاقتداء بهم فى سيرهم ، والائتمار بما أمروا به والكف عما نهوا عنه ، وأن يعتقد بأن منهم من انزل الله عليه كتبا تشتمل على ما أراد أن يبلغوه من الخبر عنه ومن الحدود والأحكام التى علم الخير لعباده فى الوقوف عندها ، وأن هذه الكتب التي نزلت

عليهم حق ، وأن يؤمن بأنهم مؤيدون من العنساية الالهية بما لا يعهد للعقول ولا للاستطاعة البشرية ، وأن هذا الأمر الفائق لمعروف البشر هو المعجزة الدالة على صدق النبى فى دعواه ، فمتى ادعى الرسول النبوة ، واستدل عليها بالمعجزة ، وجب التصديق برسالته .

ومن لوازم ذلك بالضرورة وجوب الاعتقــاد بعلو فطرتهم ، وصحة عقـولهم ، وصـدقهم فى أقوالهم ، وامانتهم فى تبليغ ما عهد اليهم أن يبلغوه ، وعصمتهم من كل ما يشوه السيرة البشرية ، وسلامة أبدانهم مما تنبو عنه الأبصار وتنفر منه الأذواق السليمة ، وأنهم منزهون عما يضاد شيئا من هذه الصفات المتقدمة ، وان أرواحهم ممدودة من الجلال الالهى بمـا لا يمكن معه لنفس انسانية ان تسطو عليها سطوة روحانية .

اما فيما عدا ذلك فهم بشر يعتريهم ما يعترى سائر افراده ، يأكلون ويشربون وينامون ويسهون وينسون فيما لا علاقة له بتبليغ الأحكام ، ويمرضون وتمتد اليهم أيدى الظلمة ، وينالهم الاضطهاد ، وقد يقتلون .

***

المعجـزة

المعجزة : ليست من نوع المستحيل عقلا ، فان مخالفة السير الطبيعى المعروف فى الايجاد مما لم يقم دليل على استحالته ، بل ذلك مما يقع ، كما يشاهد فى حال المريض يمتنع عن الأكل مدة لو لم يأكل فيهـا وهو صحيح لمات ، مع وجود العلة التى تزيد الضعف وتساعد الجوع على الاتلاف .

فان قيل : ان ذلك لابد أن يكون تابعا لناموس آخر طبيعى ، قلنا : ان واضع الناموس هو موجد الكائنات ، فليس من المحال عليه أن يضع نواميس خاصة بخوارق العادات ، غاية ما فى الأمر اننا لا نعرفها ، ولكننا نرى أثرها على يد من اختصه الله بفضل من عنده .

على اننا بعد الاعتقاد بأن صانع الكون قادر مختار ، يسهل علينا العلم بأنه لا يمتنع عليه أن يحدث الحادث على أى هيئة ، وتابعا لأى سبب ، اذا سبق فى علمه انه يحدث كذلك .

المعجزة لابد ان تكون مقرونة بالتحدى عند دعوى النبوة ، وظهورها من البراهين المثبتة لنبوة من ظهرت على يده ، لأن النبى يستند اليها فى دعواه انه مبلغ عن الله ، فاصدار الله لها عند ذلك يعد تأييدا منه له فى تلك الدعوى ، ومن المحال على الله أن يؤيد الكاذب ، فان تأييد الكاذب تصديق له ، وتصديق الكاذب كذب ، وهو محال على الله . فمتى ظهرت المعجزة ، وهى مما لا يقدر عليه البشر ، وقارن ظهورها دعوى النبوة ، علم بالضرورة ان الله ما أظهرها الا تصديقا لمن ظهرت على يده ، وان كان هذا العلم قد يقارنه الانكار مكابرة .

وأما السحر وأمثاله فان سلم ان مظاهره فائقة عن آثار الأجسام والجسمانيات ، فهى لا تعلو عن متناول القوى الممكنة ، فلا يقارب المعجزة فى شىء .

***

أما وجوب تلك الصفات المتقدمة للأنبياء ، فلأنهم لو انحطت فطرهم عن فطر أهل زمانهم ، أو تضاءلت أرواحهم لسلطان نفوس اخر ، أو مس عقولهم شىء من

الضعف ، لما كانوا أهلا لهذا الاختصاص الالهى الذى يفوق كل اختصاص : اختصاصهم بوحيه ، والكشف لهم عن أسرار علمه .

ولو لم تسلم أبدانهم عن المنفرات ، لكان انزعاج النفس لمرآهم حجة للمنكر فى انكار دعواهم ، ولو كذبوا او خانوا أو قبحت سيرتهم لضعفت الثقة بهم ، ولكانوا مضلين لا مرشدين ، فتذهب الحكمة من بعثهم ، والأمر كذلك لو أدركهم السهو أو النسيان فيما عهد اليهم تبليغه من العقائد والأحكام .

أما وقوع الخطأ منهم فيما ليس من الحديث عن الله ، ولا له مدخل فى التشريع ، فجوزه بعضهم ، والجمهور على خلافه ، وما ورد من مثل ان النبى صلى الله عليه وسلم ، نهى عن تأبير النخل ، ثم أباحه لظهور اثره فى الاثمار ، فانما فعله عليه الصلاة والسلام ، ليعلم الناس ان ما يتخذوه من وسائل الكسب ، وطرق الصناعات فهو موكول لمعارفهم وتجاربهم ، ولا حظر عليهم فيه ما دامت الشرائع مرعية والفضائل محمية . وما حكاه الله من قصة آدم وعصيانه بالأكل من الشجرة فمما خفى فيه سر النهى عن الأكل ، والمؤاخذة عليه ، وغاية ما علمناه من حكمته انه كان سببا لعمارة الأرض ببنى آدم . كان النهى والأكل رمزان الى طورين من أطوار آدم ، عليه السلام ، أو مظهران من مظاهر النوع الانسانى فى الوجود . والله أعلم . ومن العسر اقامة الدليل العقلى أو اصابة دليل شرعى يقطع بما ذهب اليه الجمهور .

حاجة البشر الى الرسالة

(الوجه الثاني) : سبق لك في الفصل السابق ما يهم الكلام عليه من الوجه الأول ، وهو وجه ما يجب على المؤمن اعتقاده في الرسل ، والكلام في هذا الفصل موجه ، ان شاء الله ، الى بيان الحاجة اليهم ، وهو معترك الافهام ، ومزلة الاقدام ، ومزدحم الكثير من الأفكار والأوهام .

ولسنا بصدد الاتيان بما قاله الأولون ، ولا عرض ما ذهب اليه الآخرون ، ولكنا نلزم ما التزمنا في هذه الوريقات من بيان المعتقد ، والذهاب اليه من أقرب الطرق ، من غير نظر الى ما مال اليه المخالف أو استقام عليه الموافق ، اللهم الا اشارة من طرف خفي أو الماعا لا يستغني عنه القول الجلي .

وللكلام في بيان الحاجة الى الرسل مسلكان :

الأول : وقد سبق الاشارة اليه يبتدىء من الاعتقاد ببقاء النفس الانسانية بعد الموت ، وان حياة أخرى بعد الحياة الدنيا ، تتمتع فيها بنعيم أو تشقى فيها بعذاب أليم ، وان السعادة والشقاء في تلك الحياة الباقية معقودان بأعمال المرء في حياته الفانية ، سواء كانت تلك الأعمال قلبية كالاعتقادات والمقاصد والارادات ، أو بدنية كأنواع العبادات والمعاملات .

اتفقت كلمة البشر ، موحدين ووثنيين ، مليين وفلاسفة ، الا قليلا لا يقام لهم وزن ، على أن لنفس الانسان بقاء تحيا به بعد مفارقة البدن ، وانها لا تموت موت فناء مطلقا ، وانما الموت المحتوم هو ضرب من البطون والخفاء ، وان اختلفت منازعهم في تصوير ذلك البقاء ، وفيما تكون عليه النفس وتباينت مشاربهم في

طرق الاستدلال عليه ، فمن قائل بالتناسخ (١) فى اجساد البشر أو الحيوان على الدوام ، ومن ذاهب الى أن التناسخ ينتهى عندما تبلغ النفس أعلى مراتب الكمال .

ومنهم من قال : انها متى فارقت الجسد عادت الى تجردها من المادة ، حافظة لما فيه لذتهـا أو ما به شقوتها .

ومنهم من رأى انها تتعلق بأجسام اثيرية الطف من هذه الأجسام المرئية . وكان اختلاف المذاهب فى كنه السعادة والشقاء الأخرويين ، وفيما هو متاع الحياة الآخرة ، وفى الوسائل التى تعد للنعيم أو تبعد عن النكال الدائم . وتضارب آراء الأمم فيه ، قديما وحديثا ، مما لا تكاد تحصى وجوهه .

هذا الشعور العام بحياة بعد هذه الحياة ، المنبث فى جميع الأنفس ، عالمها وجاهلها ، وحشيها ومستأنسها ، باديها وحاضرها ، قديمها وحديثها ، لا يمكن أن يعد ضلة عقلية ، أو نزعة وهمية ، وانما هو الا لهامات (٢)

---

(١) نظرية قديمة ، قال بها فيثاغورس ، أخذا عن الفلسفة الهندية ، وهى تعنى انتقال النفس بعد الموت الى جسم آخر ، سواء أكان نباتا أو حيوانا أو انسانا ، ومن المتصوفة من يرى تقسيم التناسخ بحسب ماتنتقل اليه النفس ، فاذا انتقلت من انسان الى انسان سمى « نسخا » ، واذا انتقلت من انسان الى حيوان سمى « مسخا » ، واذا انتقلت من انسان الى نبات سمى « فسخا » ، واذا انتقلت من انسان الى جماد سمى « رسخا » ... أنظر (المعجم الفلسفى) للدكتور مراد وهبة (وآخرين) طبعة القاهرة سنة ١٩٦٦ م مادة « تناسخ » .

(٢) المراد هنا « بالالهامات » : الشعور العام الموجود من أصل الفطرة ، وليس « الالهامات » بمعنى مايقابل « المعقولات » وسيأتى الحديث عن هذا المعنى الاخير فيما بعد .

ألتى اختص بها هذا النوع ، كما ألهم الانسان ان عقله وفكره هما عماد بقائه فى هذه الحياة الدنيا .

وان شذ افراد منه ، ذهبوا الى أن العقل والفكر ليسا بكافيين للارشاد فى عمل ما ، أو الى انه لا يمكن للعقل أن يوقن باعتقـــاد ، ولا الفـكر أن يصل الى مجهول ، بل قالوا ان لا وجود للعـــالم الا فى اختراع الخيال ، وأنهم شاكون حتى فى أنهم شاكون (١) .

ولم يطعن شذوذ هؤلاء فى صحة الالهام العام المشعر لسائر أفراد النوع ان الفـكر والعقل هما ركن الحياة وأس البقاء الى الأجل المحدود .

كذلك قد ألهمت العقول واشعرت النفوس ان هذا العمر القصير ليس هو منتهى ما للانسان فى الوجود ، بل الانسان ينزع هـذا الجسد كمـا ينزع الثوب عن البدن ، ثم يكون حيا باقيا فى طور آخر وان لم يدرك كنهه .

ذلك الهام عقلى يكاد يزاحم البديهة فى الجـــلاء ، يشعر كل نفس انها خلقت مستعدة لقبول معلومات غير متناهية ، من طرق غير محصورة ، شيقة الى لذائذ غير محدودة ، ولا واقفة عند غاية ، مهيأة لدرجات من الكمال لا تحددها أطراف المراتب والغايات ، معرضة لآلام من الشـهوات ، ونزعات الأهواء ، ونزوات الأمراض على الأجساد ، ومصارعة الأجواء والحاجات ، وضروب من مثل ذلك لا تدخل تحت عد ولا تنتهى عند حد . الهـام يستلفتها بعد هذا الشعور الى أن واهب الوجود للأنواع

(١) الاشارة الى مذهب « اللاأدرية » الذين ينكرون قيمة العقل وقدرته على المعرفة .

انما قدر الاستعداد بقدر الحاجة فى البقاء ، ولم يعهد في تصرفه العبث والكيل الجزاف ، فما كان استعداده لقبول مالا يتناهى من معلومات وآلام ولذائذ وكمالات لا يصح أن يكون بقـــاؤه قاصرا على أيام أو سنين معدودات .

شعور يهيج بالأرواح الى تحسس هذا البقاء الأبدى ، وما عسى أن تكون عليـــه متى وصلت اليه ، وكيف الاهتداء ، وأين السبيل وقد غاب المطـــلوب وأعـوز الدليل . شعورنا بالحاجة الى استعمال عقولنـــا فى تقويم هذه المعيشة القصيرة الأمد لم يكفنا فى الاستقامة على المنهج الأقوام ، بل لزمتنا الحـــاجة الى التعليم والارشاد ، وقضاء الأزمنة والاعصار فى تقويم الأنظار ، وتعديل الأفكار ، واصلاح الوجدان ، وتثقيف الأذهان ، ولا نزال الى الآن من هم هذه الحياة الدنيا فى اضطراب، لا ندرى متى نخلص منه ، وفى شوق الى طمأنينة لا نعلم متى ننتهى اليها .

هذا شأننا فى فهم عالم الشهادة ، فماذا نؤمل من عقولنا وأفكارنا فى العلم بما فى عالم الغيب ؟ هل فيما بين أيدينا من الشاهد معالم نهتدى بها الى الغائب ؟ وهل فى طرق الفكر ما يوصل كل أحد الى معرفة ما قدر له فى حياة يشعر بهـــا ، وبأن لا مندوحة عن القـدوم عليها ، ولكن لم يوهب من القوة ما ينفذ الى تفصيل ما أعد له فيها ، والشئون التى لابد أن يكون عليها بعد مفارقة ما هو فيه . أو الى معرفة بيد من يكون تصريف تلك الشئون ؟؟ ، هل فى أساليب النظر ما يأخذ بك الى اليقين بمناطها من الاعتقـــادات والأعمال ، وذلك

الـكون مجهول لديك ، وتلك الحياة فى غاية الغموض بالنسبة اليك ؟! .

كلا ... فان الصلة بين العالمين تكاد تكون منقطعة فى نظر العقل ومرامى المشاعر ، ولا اشتراك بينهما الا فيك أنت فالنظر فى المعلومات الحاضرة لا يوصل الى اليقين بحقائق تلك العوالم المستقبلة .

أفليس من حكمة الصانع الحكيم ـ الذى أقام أمر الانسان على قاعدة الارشاد والتعليم ، الذى خلق الانسان وعلمه البيان ، علمه الـكلام للتفاهم ، والـكتاب للتراسل ـ أن يجعل من مراتب الأنفس البشرية مرتبة يعد لها ، بمحض فضله ، بعض من يصطفيه من خلقه ، وهو أعلم حيث يجعل رسالته ، يميزهم بالفطر السليمة ، ويبلغ بأرواحهم من الكمال ما يليقون معه للاستشراق بأنوار علمه ، والأمانة على مكنون سره ، مما لو انكشف لغيرهم انكشافه لهم لفاضت له نفسه ، أو ذهبت بعقله جلالته وعظمته ، فيشرفون على الغيب باذنه ، ويعلمون ما سيكون من شأن الناس فيه ، ويكونون فى مراتبهم العلوية على نسبة من العالمين ، نهاية الشاهد وبداية الغائب ، فهم فى الدنيا كأنهم ليسوا من أهلها ، وهم وفد الآخرة فى لباس من ليس من سكانها ، ثم يتلقون من أمره أن يحدثوا عن جلاله وما خفى على العقول من شئون حضرته الرفيعة بما يشاء أن يعتقده العباد فيه ، وما قدر أن يكون له مدخل فى سعادتهم الأخروية ، وأن يبينوا للناس من أحوال الآخرة ما لابد لهم من علمه ، معبرين عنه بما تحتمله طاقة عقولهم ولا يبعد عن متناول افهامهم ، وأن يبلغوا عنه شرائع عامة ، تحدد لهم سيرهم فى تقويم نفوسهم وكبح شهواتهم ، وتعلمهم من الأعمال

ما هو مناط سعادتهم وشقائهم فى ذلك الكون المغيب عن مشاعرهم بتفصيله ، اللاحق علمه بأعماق ضمائرهم فى اجماله . ويدخل فى ذلك جميع الأحكام المتعلقـــة بكليات الآعمال ، ظاهرة وباطنة ، ثم يؤيدهم بما لا تبلغه قوى البشر من الآيات ، حتى تقوم بهم الحجة ، ويتم الاقناع بصدق الرسالة ، فيكونون بذلك رسلا من لدنه الى خلقه مبشرين ومنذرين .

لا ريب أن الذى أحسن كل شيء خلقه ، وابدع فى كل كائن صنعه ، وجاد على كل حى بما اليه حاجته ، ولم يحرم من رحمته حقيرا ولا جليلا من خلقه ، يكون من رأفته بالنوع الذى أجاد صنعه ، وأقام له من قبول العلم ما يقوم مقام المواهب التى اختص بها غيره ، أن ينقذه من حيرته ، ويخلصه من التخبط فى أهم حياتيه ، والضلال فى أفضل حاليه .

يقول قائل : ولم لم يودع فى الغرائز ما تحتاج اليه من العلم ؟ ، ولم يضع فيها الانقياد الى العمل وسلوك الطريق المؤدية الى الغاية فى الحياة الآخرة ؟ وما هذا النحو من عجائب الرحمة فى الهداية والتعليم ، وهو قول يصدر عن شطط العقـــل ، والغفلة عن موضوع البحث ، وهو النوع الانسانى ، ذلك النوع على ما به ، وما دخل فى تقويم جوهره من الروح المفكر ، وما اقتضاه ذلك من الاختلاف فى مراتب الاســـــتعداد باختلاف أفراده ، وأن لا يكون كل فرد منه مستعدا لكل حال بطبعه ، وأن يكون وضع وجوده على عمـــاد البحث والاستدلال ، فلو الهم حاجاته كما تلهم الحيوانات لم يكن هو ذلك النوع ، بل كان اما حيوانا آخر كالنحل

والنمل او ملكا من الملائكة ليس من سكان هذه الأرض .

المسلك الثاني : فى بيان الحاجة الى الرسالة يؤخذ من طبيعة الانسان نفسه : أرتنا الأيام ، غابرها وحاضرها ، أن من الناس من يختزل نفسه من جماعة البشر ، وينقطع الى بعض الغابات أو الى رءوس الجبال ، ويستأنس الى الوحش ، ويعيش عيش الأوابد من الحيوان ، يتغذى بالأعشاب وجذور النبات ، ويأوى الى الكهوف والمغاور ، ويتقى بعض العوادى عليه بالصخور والأشجار ، ويكتفى من الثياب بما يخصف (١) من ورق الشجر او جلود الهالك من حيوان البر ، ولا يزال كذلك حتى يفارق الدنيا .

لكن مثل هذا مثل النحلة تنفرد عن الدبر (١) وتعيش عيشة لا تتفق مع ما قدر لنوعها ، وانما الانسان نوع من تلك الأنواع التى غرز فى طبعها أن تعيش مجتمعة ، وان تعددت فيها الجماعات ، على أن يكون لكل واحد من الجماعة عمل يعود على المجموع فى بقائه ، وللمجموع من العمل ما لا غنى للواحد عنه فى نمائه وبقائه ، وأودع فى كل شخص من أشخاصها شعور ما بحاجة الى سائر أفراد الجماعة التى يشملها أسم واحد ، وتاريخ وجود الانسان شاهد بذلك ، فلا حاجة الى الاطالة فى بيانه ، وكفاك من الدليل على أن الانسان لا يعيش الا فى جملة ، ما وهبه من قوة النطق ، فلم يخلق لسانه مستعدا لتصوير المعانى فى الألفاظ وتأليف العبارات الا لاشتداد الحاجة به الى

---

(١) يلصق ويطبق .

(٢) الدبر ، بفتح الدال المشددة وسكون الباء : جماعة النحل والزنابير .

التفاهم وليس الاضطرار الى التفاهم بين اثنين أو أكثر الا الشهادة بأن لا غنى لأحدهم عن الآخر .

حاجة كل فرد من الجماعة الى سائرها مما لا يشتبه فيه ، وكلما كثرت مطالب الشخص فى معيشته ازدادت به الحاجة الى الأيدى العاملة ، فتمتد الحاجة ، وعلى أثرها الصلة ، من الأصل الى العشيرة ، ثم الى الأمة ، والى النوع بأسره ، وأيامنا هذه شاهدة على ان الصلة التابعة للحاجة قد تعم النوع ، كما لا يخفى هذه الحاجة - خصوصا فى الأمة التى حققت عنوانها لها - صلات وعلائق ميزتها عمن سواها ، حاجة فى البقاء ، حاجة فى التمتع بمزايا الحياة ، حاجة فى جلب الرغائب ودفع المكاره من كل نوع .

لو جرى أمر الانسان على اساليب الخلقة فى غيره لكانت هذه الحاجة من أفضل عوامل المحبة بين أفراده ، عامل يشعر كل نفس ان بقاءها مرتبط ببقاء الكل .

فالكل منها بمنزلة بعض قواها ، المسخرة لمنافعها ، ودرء مضارها ، والمحبة عماد السلم ورسول السكينة الى القلوب ، هى الدافع لكل من المتحابين على العمل لمصلحة الآخر ، الناهض بكل منهما للمدافعة عنه فى حالة الخطر ، فكان من شأن المحبة أن تكون حفاظا لنظام الأمم وروحا لبقائها ، وكان من حالها أن تكون ملازمة للحاجة على مقتضى سنة الكون ، فان المحبة حاجة لنفسك الى من تحب ، أو ما تحب ، فان اشتدت كانت ولعا وعشقا .

لكن ... كان من قوانين المحبة أن تنشأ وتدوم بين متحابين اذا كانت الحاجة الى ذات المحبوب أو ما هو فيها لا يفارقها ، ولا يكون هذا النوع منها فى الانسان

الا اذا كان منشؤه امرا فى روح المحبوب وشمائله التى لا تفارق ذاته ، حتى تكون لذة الوصول فى نفس الاتصال لا فى عارض يتبعه ، فاذا عرض التبادل والتعاوض ، ولوحظ فى العلاقة بينهما ، تحولت المحبة الى رغبة فى الانتفاع بالعوض ، وتعلقت بالمنتفع به لا بمصدر الانتفاع ، وقام بين الشخصين مقام المحبة أما سلطان القوة أو ذلة المخافة أو الدهان والخديعة من الجانبين .

يحب الكلب سيده ويخلص له ، ويدافع عنه دفاع المستميت ، لما يرى انه مصدر الاحسان اليه فى سداد عوزه ، فصورة شبعه وريه وحمايته مقرونة فى شعوره بصورة من يكفلهـــا له ، فهو يتوقع فقدها بفقده ، فيحرص عليه حرصه على حياته ، ولو أنه انتقل من حوزته الى حوزة آخر وغاب عنه السنين ثم رآه معرضا لخطر ما عادت اليه تلك الصورة يصل بعضها بعضا ، واندفع الى خلاصة بما تمكنه القوة ، ذلك ان الالهام الذى هدى به شعور الكلب ليس مما تتسع به المذاهب ، فوجدانه يتردد بين الاحسان ومصدره ، وليس له وراءهما مذهب ، فحاجته فى سد عوزه هى حاجته الى القائم بأمره ، فيحبه محبته لنفسه ، ولا يبخس منها ثوب التعاوض فى الخدمة .

أما الانسان ــ وما ادراك ما هو ــ فليس أمره على ذلك ، ليس ممن يلهم ولا يتعلم ، ولا ممن يشعر ولا يتفكر ، بل كان كماله النوعى فى اطلاق مداركه عن القيد ، ومطالبه عن النهايات ، وتسليمه على صغره الى العالم الأكبر على جلالته وعظمه ، يصـــــارعه بعوامله ، وهى غير محصورة ، حتى يعتصر منه منافعـــــه ، وهى غير محدودة ، وابداعه من قوى الادراك والعمل ما يعينه

على المغالبة ويمكنه من المطالبة بسعيه ورأيه ، ويتبع ذلك أن يكون له فى كل كائن مما يصل اليه لذة ، وبجوار كل لذة ألم أو مخافة ، فلا تنتهى رغائبه الى غاية ، ولا تقف مخاوفه عند نهاية : (ان الانسان خلق هلوعا ، اذا مسه الشر جزوعا ، واذا مسه الخير منوعا (١)) .

تفاوتت افراده فى مواهب الفهم ، وفى قوى العمل ، وفى الهمة والعزم ، فمنهم المقصر ضعفا أو كسلا ، المتطاول فى الرغبة شهوة وطمعا ، يرى فى اخيه أنه العون له على ما يريد من شئون وجوده ، لكنه يذهب من ذلك الى تخيل اللذة فى الاستئثار بجميع ما فى يده ، ولا يقنع بمعاوضته فى ثمرة من ثمار عمله ، وقد يجد اللذة فى أن يتمتع ولا يعمل ، ويرى الخير فى أن يقيم مقام العمل اعمال الفكر فى استنباط ضروب الحيل ، ليتمتع وان لم ينفع ، ويغلب عليه ذلك حتى يخيل له أن لا ضير عليه لو انفرد بالوجود عمن يطلب مغالبته ، ولا يبالى بارساله الى عالم العدم بعد سلبه ، فكلما حثه الذكر والخيال الى دفع مخافة ، أو الوصول الى لذيذ ، فتح له الفكر بابا من الحيلة ، أو هيأ وسيلة لاستعمال القوة ، فقام التناهب مقام التواهب ، وحل الشقاق محل الوفاق ، وصار الضابط لسيرة الانسان : اما الحيلة واما القهر .

---

(١) المعارج : ٢٠ .

اللـــذة الـروحـانيـــة

هل وقف الهوى بالانسان عند التنافس فى اللذائذ الجسدانية ، وتجالد أفراده طمعا فى وصول كل الى ما يظنه غاية مطلبه ، وان لم تكن له غاية ؟؟ .

كلا .. ولكن قدر له أن تكون له لذائذ روحانية ، وكان من أعظم همه أن يشعر بالكرامة له فى نفس غيره ممن تجمعه معهم جامعة ما ، حسبما يمتد اليه نظره ، وقد بلغت هذه الشهوة حدا من الأنفس كادت تتغلب على جميع الشهوات ، وأخذت لذة الوصول اليهـا من الأرواح مكانا كاد لا تصعد اليه سائر اللذات ، وهى من أفضل العوامل فى احراز الفضائل ، وتمكين الصلات بين الأفراد والأمم ، لو صرفت فيما سيقت لأجله ، ولكن انحرف بها السبيل كما انحرف بغيرها للأسباب التى أشرنا اليها من التفـــاوت فى مراتب الادراك والهمة والعزيمة ، حتى خيل للكثير من العقلاء أن يسعى الى اعلاء منزلته فى القلوب باخافة الآمن وازعاج الساكن واشعار القلوب رهبة المخافة لا تهيب الحرمة .

هل يمكن مع هذا ان يستقيم أمر جماعة بنى نظامهم وعلق بقاؤهم فى الحياة على تعـــاونهم ، ورفد بعضهم بعضا فى الأعمال ؟ أو لا تـكون هذه الأفاعيل السابق

ذكرها ، سببا فى تفانيهم ؟ لا ريب ان البقاء على تلك الأحوال من ضروب المحال ، فلابد للنوع الانسانى فى حفظ بقائه من المحبة أو ما ينوب منابها .

لجأ بعض أهل البصيرة فى أزمنة مختلفة الى العدل ، وظنوا ، كما ظن بعض العارفين ونطق نه فى كلمة جليلة ، ان العدل نائب المحبة .

نعم .. لا يخلو القول من حكمة ، ولكن .. من الذى يضع قواعد العدل ، ويحمل الكافة على رعايتها ؟؟ .. قيل : ذلك هو العقل ، فكما كان الفكر والذكر والخيال ينابيع الشقاء ، كذلك تكون وسائل السعادة، وفيها مستقر السكينة ، وقد رأينا أن اعتدال الفكر وسعة العلم وقوة العقل واصالة الحكم يذهب بكثير من الناس الى ما وراء حجب الشهوات ، وتعلو بهم فوق ما تخيله المخاوف ، فيعرفون لكل حق حرمته ، ويميزون بين لذة ما يفنى ومنفعة ما يبقى ، وقد جاء منهم أفراد فى كل امة ، وضعوا أصـــول الفضيلة ، وكشفوا وجوه الرذيلة ، وقسموا أعمال الانســـان الى ما تحضر لذته وتسوء عاقبته ، وهو ما يجب اجتنابه ، والى ما قـد يشق احتماله ولكن تسر مغبته ، وهو ما يجب الأخذ به . ومنهم من انفق فى الدعوة الى رأيه نفسه وماله ، وقضى شهيد اخلاصه فى دعوة قومه الى ما يحفظ نظامهم ، فهؤلاء العقلاء هم الذين يضعون قواعد العدل ، وعلى أهل السلطان ان يحملوا الـكافة على رعايتها ، وبذلك يستقيم أمر الناس .

هذا قول لا يجافى الحق ظاهره ، ولكن .. هل سمع فى سيرة الانسان ، وهل ينطبق على سنته أن يخضع كافة أفراده أو الغالب منهم لرأى العــاقل لمجرد أنه

الصواب ؟ وهل كفى فى اقناع جماعة منه ، كشعب او أمة ، قول عاقلهم : أنهم مخطئون ، وأن الصواب فيما يدعوهم اليه ، وان أقام على ذلك من الأدلة ما هو أوضح من الضياء وأجلى من ضرورة المحبة للبقاء ؟؟ ..

كلا .. لم يعرف ذلك في تاريخ الانسان ، ولا هو مما ينطبق على سنته . فقد تقـــدم لنا أن مهب الشقاء هو تفاوت الناس فى الادراك ، وهم مع ذلك يدعون المساواة فى العقول والتقارب فى الأصول ، ولا يعرف جمهورهم من حال الفاضل الا كما يعـــرف من أمر الجاهل ، ومن لم يكن فى مرتبتك من العقل لم يذق مذاقك من الفضل ، فمجرد البيان العقلى لا يدفع نزاعا، ولا يرد طمأنينة ، وقد يكون القائم على ما وضع من شريعة العقل ممن يزعم انه أرفع من واضعها ، فيذهب بالناس مذهب شـــهواته ، فتذهب حرمتها ، ويتهدم بناؤها ، ويفقد ما قصد بوضعها .

الحاجة الأخروية

اضف الى ما سبق من لوازم نزعات الفكر ونزعات الأهواء شعورا هو الصق بالفريزة البشرية ، وأشد لزوما لها ، كل انسان ، مهما علا فكره وقوى عقله ، او ضعفت فطنته وانحطت فطرته ، يجد من نفسه انه مغلوب لقوة أرفع من قوته وقوة ما انس منه الغلبة عليه مما حوله ، وانه محكوم بارادة تصرفه وتصرف ما هو فيه من العوالم فى وجوه قد لا يعرفها معرفة العارفين ، ولا تتطرق اليها ارادة المختارين . تشعر كل نفس انها مسوقة لمعرفة تلك القوة العظمى ، فتطلبها من حسها تارة ومن عقلها أخرى ، ولا سبيل لها الا الطريق التى حددت لنوعها ؛ وهى طريق النظر ، فذهب كل فى طلبها وراء رائد الفكر ، فمنهم من تأولها ببعض الحيوانات ، لكثرة نفعها أو شدة ضررها ، ومنهم من تمثلت له فى بعض الكواكب ، لظهور اثرها ، ومنهم من حجبته الأشجار والأحجار ، لاعتبارات له فيها ، ومنهم من تبدت له آثار قوى مختلفة فى أنواع متفرقة ، تتماثل فى أفراد كل نوع وتتخالف بتخالف الأنواع ، فجعل لكل نوع الها .

ولكن ... كلما رق الوجدان ، ولطفت الأذهان ،

ونفذت البصائر ، ارتفع الفكر ، وجلت النتائج ، فوصل من بلغ به علمه بعض المنازل من ذلك الى معرفة هـذه القدرة الباهرة ، واهتدى الى انها قدرة واجب الوجود، غير أن من اسرار الجبروت ما غمض عليه ، فلم يسلم من الخبط فيه ، ثم لم يكن له من الميزة الفائقة فى قومه ما يحملهم على الاهتـداء بهـديه ، فبقى الخلاف ذائما والرشد ضائعا .

اتفق الناس فى الاذعان لما فاق قـدرهم وعلا متناول استطاعتهم ، ولكنهم اختلفوا فى فهم ما تلجئهم الفطرة الى الاذعان له ، اختلافا كان أشد أثرا فى التقـاطع بينهم ، وأثارة أعاصير الشقاء فيهم من اختلافهم فى فهم النافع والضار ، لغلبة الشهوات عليهم .

ان كان الانسـان قد فطر على أن يعيش فى جملة ، ولم يمنح من تلك الفطرة ما منحه النحل وبعض أفراد النمل مثلا من الالهام الهادى الى ما بلزم لذلك ، وانما ترك الى فكره يتصرف به على نحو ما سبق ، كما فطر على الشعور بقاهر تنساق نفسه بالرغم عنها الى معرفته، ولم يفض عليـه مع ذلك الشعور عرفانه بذات ذلك القاهرولا صفاته ، وانما ألقى به فى مطارح النظر ، تحمله الأفكار فى مجاريها ، وترمى به الى حيث يدرى ولا يدرى ، وفى كل ذلك الويل على جامعته ، والخطر على وجوده ، فهل منى هذا النوع بالنقص ، ورزىء بالقصور عن مثل ما بلغه أضعف الحيوانات وأحطها فى منازل الوجود ؟؟ .. نعم .. هو كذلك ، لولا ما أتاه الصانع الحكيم من ناحية ضعفه .

الرسل والرسالة

الانسان عجيب فى شأنه يصعد بقوة عقله الى أعـلى مراتب الملكوت ، ويطـــــــاول بفكره أرفع معــالم الجبروت ، ويسامى بقوته ما يعظم أن يسامى من قوى الـكون الأعظم ، ثم يصفر ويتضاءل وينحط الى أدنى درك فى الاستكانة والخضوع متى عرض له امر ما لم يعرف سببه ولم يدرك منشأه ، لسر عرفه المستبصرون، واستشعرته نفوس الناس أجمعين .

من ذلك الضعف قيد الى هداه ، ومن تلك الضعة اخذ بيده الى مشرق سعادته . أكمل الواهب الجـواد لجملته ما اقتضت حكمته فى تخصيص نوعه بما يميزه عن غيره أو ينقص من أفراده ، وكما جاد على كل شخص العقل المصرف للحواس ، لينظر فى طلب اللقمة وستر العورة والتوقى من الحر والبرد ، جاد على الجملة بما هو أمس بالحاجة فى البقاء وآثر فى الوقاية من غوائل الشقاء واحفظ لنظــــام الاجتماع الذى هو عماد كونه بالاجماع .

من عليه بالنائب الحقيقى عن المحبة ، بل الراجع بها الى النفوس التى أقفرت منها ، لم يخالف سنته فيه من بناء كونه على قاعدة التعليم والارشاد ، غير انه أتاه مع ذلك من أضعف الجهات فيه ، وهى جهة الخضوع والاستكانة ، فأقام له من بين أفراده مرشدين هادين ، وميزهم من بينها بخصائص من انفسهم ، لا يشركهم فيها سواهم ، وأيد ذلك ، زيادة فى الاقناع ، بآيات باهرات تملك النفوس ، وتأخذ الطـــرق على سوابق العقول ، فيستخذى الطامح ، ويذل الجامح ، ويصدم

بها عقل العاقل فيرجع الى رشده، وينبهر لها بصر الجاهل فيرتد عن غيه .

يطرقون القلوب بقوارع من أمر الله ، ويدهشون المدارك ببواهر من آياته ، فيحيطون العقول بما لا مندوحة عن الاذعان له ، ويستوى فى الركون لما يجيئون به المالك والمملوك ، والسلطان والصعلوك ، والعاقل والجاهل ، والمفضول والفاضل ، فيكون الاذعان لهم أشبه بالاضطرارى منه بالاختيارى النظرى .

يعلمونهم ما شاء الله أن يصلح به معاشهم ومعادهم ، وما اراد أن يعلموه من شئون ذاته وكمال صفاته ، وأولئك هم الأنبياء المرسلون .

فبعثة الأنبياء صلوات الله عليهم من متممات كون الانسان ، ومن أهم حاجاته فى بقائه ، ومنزلتها من النوع منزلة العقل من الشخص ، نعمة أتمها الله لكيلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل . وسنتكلم عن وظيفتهم بنوع من التفصيل فيما بعد .

***

امكان الوحى

الكلام فى امكان الوحى يأتى بعد تعريفه ، لتصوير المعنى الذى يراد منه ، ولنعرف المعنى الحاصل بالمصدر ، فيفهم معنى المصدر نفسه ، ولا تعنينا ما تثيره الألفاظ فى الأذهان ، ولنذكر من اللغة ما يناسبه :

يقال : وحيت اليه واوحيت ، اذا كلمته بما تخفيه عن غيره ، والوحى مصدر من ذلك . والمكتوب والرسالة وكل ما القيته الى غيرك ليعلمه . ثم غلب فيما يلقى الى

الأنبياء من قبل الله : وقيل الوحى اعلام فى خفاء ، ويطلق ويراد به الوحى .

وقد عرفوه شرعا : انه كلام الله تعالى المنزل على نبى من أنبيائه .

أما نحن فنعرفه على شرطنا بأنه عرفان يجده الشخص من نفسه ، مع اليقين بأنه من الله بواسطة أو بغير واسطة ، والأول (١) بصوت يتمثل لسمعه أو بغير صوت .

ويفرق بينه وبين الالهام وجدان تستيقنه النفس وتنساق الى ما يطلب على غير شعور منها من اين أتى ، وهو أشبه بوجدان الجوع والعطش والحزن والسرور (٢) .

أما امكان حدوث هذا النوع من العرفان (الوحى) وانكشاف ما غاب من مصالح البشر عن عامتهم لمن يختصه الله بذلك ، وسهولة فهمه عند العقل ، فلا أراه مما يصعب ادراكه الا على من لا يريد أن يدرك ، ويحب أن يرغم نفسه الفهامة على أن لا تفهم .

نعم .. يوجد فى كل أمة ، وفى كل زمان أناس يقذف بهم الطيش والنقص فى العلم الى ما وراء سواحل اليقين ، فيسقطون فى غمرات من الشك فى كل ما لم يقع تحت حواسهم الخمس ، بل قد يدركهم الريب فيما هو من متناولها ، كما سبقت الاشارة ، فكأنهم بسقطتهم هذه انحطوا الى ما هو أدنى من مراتب أنواع أخرى من الحيوان ، فينسون العقل وشئونه ، وسره ومكنونه ،

---

(١) اى ماهو بواسطة .

(٢) أى ان الفرق بين الوحى والالهام ان متلقى الوحى يستيقن أنه من الله ، وليس ذلك شرطا فى متلقى الالهام .

ويجدون في ذلك لذة الاطلاق عن قيود الأوامر والنواهى ، بل عن مجالس الحشمة التى تضمهم الى الالتزام بما يليق ، وتحجزهم عن مقارفة ما لا يليق ، كما هو حال غير الانسان من الحيوان ، فاذا عرض عليهم شيء من الكلام في النبوات والأديان ، وهم من أنفسهم هام بالاصفاء ، دافعوا بما أوتوا من الاختيار فى النظر ، وانصرفوا عنه ، وجعلوا أصابعهم فى آذانهم حذر أن يخالط الدليل أذهانهم فيلزمهم العقيدة ، وتتبعها الشريعة ، فيحرموا لذة ما ذاقوا ، وهو مرض فى الأنفس والقلوب يستشفى منه بالعلم ، ان شاء الله .

قلت : اى استحالة في الوحى ؟ وأن ينكشف لفلان ما لا ينكشف لغيره ، من غير فكر ولا ترتيب مقدمات ، مع العلم ان ذلك من قبل واهب الفكر ومانح النظر ، متى حفت العناية من ميزته هذه النعمة .

مما شهدت به البديهة أن درجات العقول متفاوتة ، يعلو بعضها بعضا ، وان الأدنى منها لا يدرك ما عليه الأعلى الا على وجه من الاجمال ، وأن ذلك ليس لتفاوت المراتب فى التعليم فقط ، بل لابد معه من التفاوت فى الفطر التى لا مدخل فيها لاختيار الانسان وكسبه ، ولا شبهة فى أن من النظريات عند بعض العقلاء ما هو بديهى عند من هو أرقى منه ، ولا تزال المراتب ترتقى فى ذلك الى ما لا يحصره العدد ، وأن من أرباب الهمم وكبار النفوس من يرى البعيد عن صغارها قريبا فيسعى اليه ، ثم يدركه ، والناس دونه ينكرون بدايته ، ويعجبون لنهايته ، ثم يألفون ما صار اليه كأنه من المعروف الذى لا ينازع ، والظاهر الذى لا يجاحد ، فاذا أنكر منكر ثاروا عليه ثورتهم فى باديء الأمر على من دعاهم اليه ، ولا يزال هذا الصنف من الناس على قلته ظاهرا فى كل أمة الى اليوم .

فاذا سلم — ولا محيص عن التسليم — بما أسلفنا من المقدمات ، فمن ضعف العقل والنكول عن النتيجة اللازمة لمقدماتها ، عند الوصول اليهـــا ، ان لا يسلم بأن من النفوس البشرية ما يكون لها من نقاء الجوهر ، بأصل الفطرة ، ما تستعد به ، من محض الفيض الالهى ، لأن تتصل بالأفق الأعلى ، وتنتهى من الانسانية الى الذروة العليا ، وتشهد من أمر الله شهود العيان ما لم يصل بغيرها الى تعقله أو تحسسه بعصى الدليل والبرهان ، وتتلقى عن العليم الحكيم ما يعلو وضوحا على ما يتلقاه احدنا عن أساتذة التعاليم ، ثم تصدر عن كل ذلك العلم الى تعليم ما علمت ودعوة الناس الى ما حملت على ابلاغه اليهم ، وأن يكون ذلك سنة الله فى كل أمة وفى كل زمان على حسب الحاجة .

يظهر برحمته من يختصه بعنـايته ، ليفى للاجتماع بما يضطر اليه من مصلحة ، الى أن يبلغ النوع الانسانى أشده ، وتكون الأعلام التى نصبها لهدايته وسعادته كافية فى ارشاده ، فتختم الرسالة ويغلق باب النبوة ، كمـا سنأتى عليه فى رسالة نبينا صلى الله عليه وسلم .

الملائكة

اما وجود بعض الأرواح العالية ، وظهورها لأهل تلك المرتبة السامية فمما لا استحالة فيه بعدما عرفنا من انفسنا وارشدنا اليه العلم ، قديمه وحديثه ، اشتمال الوجود على ما هو الطف من المادة ، وان غيب عنا ، فأى مانع من ان يكون بعض هذا الوجود اللطيف مشرقا لشيء من العلم الالهى وان يكون لنفوس الأنبياء اشراف عليه ، فاذا جاء به الخبر الصادق حملنا على الاذعان بصحته .

اما تمثل الصوت ، وأشباح الأرواح فى حس من اختصه الله بتلك المنزلة فقد عهد عند أعداء الانبياء ما لا يبعد عنه فى بعض المصابين بأمراض خاصة على زعمهم ، فقد سلموا أن بعض معقولاتهم يتمثل فى خيالهم ويصل الى درجة المحسوس ، فيصدق المريض فى قوله أنه يرى ويسمع ، بل يجالد ويصارع ، ولا شيء من ذلك فى الحقيقة بواقع ، فان جاز التمثل فى الصور المعقولة ، ولا منشأ لها الا فى النفس ، وان ذلك يكون عند عروض عارض على المخ ، فلم لا يجوز تمثل الحقائق المعقولة فى النفوس العالية ؟ وأن يكون ذلك لها عندما تنتزع عن عالم الحس وتتصل بحظائر القدس ؟

وتكون تلك الحال من لواحق صحة العقل فى أهل تلك الدرجة ، لاختصاص مزاجهم بما لا يوجد فى مزاج غيرهم .

وغاية ما يلزم عنه ان يكون لعلاقة ارواحهم بأبدانهم شأن غير معروف فى تلك العلاقة من سواهم وهو مما يسهل قبوله ، بل يتحتم ، لأن شأنهم فى الناس أيضا غير الشئون المألوفة ، وهذه المغايرة ، من أهم ما امتازوا به وقام منها الدليل على رسالتهم ، والدليل على سلامة شهودهم ، وصحة ما يحدثون عنه .

ان امراض القلوب تشفي بدوائهم ، وان ضعف العزائم والعقول يتبدل بالقوة فى أممهم التى تأخذ بمقالهم ، ومن المنكر فى البديهة أن يصدر الصحيح من معتل ويستقيم النظام بمختل .

أما ارباب النفوس العالية والعقول السامية من العرفاء ، ممن لم تدن مراتبهم من مراتب الأنبياء ، ولكنهم رضوا أن يكونوا لهم أولياء ، وعلى شرعهم ودعوتهم أمناء ، فكثير منهم نال حظه من الانس بما يقارب تلك الحال فى النوع او الجنس ، لهم مشارفة فى بعض أحوالهم على شيء من عالم الغيب ، ولهم مشاهد صحيحة فى عالم المثال (١) لا تنكر عليهم ، لتحقق حقائقها فى الواقع ، فهم لذلك لا يستبعدون شيئا مما يحدث به عن الأنبياء ، صلوات الله عليهم ، ومن ذاق عرف ، ومن حرم انحرف .

ودليل صحة ما يتحدثون به وعنه ظهور الأثر الصالح

(١) اشتهر بتحديده والحديث عنه أفلاطون ، وهو عنده مبدأ الوجود والمعرفة كليهما .

منهم ، وسلامة اعمالهم مما يخالف شرائع أنبيائهم ، وطهارة فطرهم مما ينكره العقـــــل الصحيح أو يمجه الذوق السليم ، واندفاعهم بباعث من الحق الناطق فى سرائرهم المتلألىء فى بصائرهم الى دعوة من يحف بهم الى ما فيه خير العامة وترويح قلوب الخاصة ، ولا يخلو العالم من متشبهين بهم ، ولكن ما أسرع ما ينكشف حالهم ، ويسوء مآلهم ومآل من غرروا به ، ولا يكون لهم الا سوء الأثر فى تضليل العقول وفســـــاد الأخلاق وانحطاط شأن القوم الذين رزئوا بهم ، الا ان يتداركهم الله بلطفه ، فتكون كلمتهم الخبيثة كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض ما لها من قرار ، فلم يبق بين المنكرين لأحوال الأنبياء ومشاهدهم وبين الاقرار بامكان ما أنبئوا به بل وبوقوعه الا حجاب من العادة ، وكثيرا ما حجب العقول حتى عن ادراك أمور معتادة .

وقوع الوحى والرسالة

الدليل على رسالة نبى وصدقه فيما يحكى عن ربه ، ظاهر للشاهد الذى برىء حاله ، ويبصر ما آتاه الله من الآيات البينات ، ويحقق بالعيان ما يغنيه عن البيان ، كما سلف فى الوجه الأول من الكلام على الرسالة .

أما للغائب عن زمن البعثة فدليلها التواتر ، وهو كما تبين فى علم آخر : رواية خبر عن شهود من جمــاعة يستحيل تواطؤهم على الكذب (عادة) ، وآيته قهــر النفس على اليقين بما جاء فيه ، كالاخبار بوجود « مكة » أو بأن للصين عاصمة تسمى « بكين » . وسبب استحالة التواطؤ على الكذب استيفاء الخبر لشرائط معلومة (١) ،

---

(١) مثل أن لايكون الخبر ممتنعا عقلا ، وأن يكون المخبر به محسوسا .

وخلوه من عوارض تضعف الثقة به ، ومرجع كل ذلك الى العدد وبعد الراوى عن التشيع لمضمون الخبر .

لا نزاع بين العقلاء فى ان هـذا النوع من الأخبار يحصل اليقين بالمخبر به ، وانما النزاع فى اعتبارات تتعلق به ، ومن الأنبياء ما استوفى الخبر عنهم شرائط التواتر كابراهيم وموسى وعيسى ، ومما جاء به الخبر انهم لم يكونوا فيمن بعثوا بينهم بالأقـوى سلطانا ، ولا بالأكثر مالا ، ولم يختصهم أحد بالعناية بهم لتعليمهم علم ما دعوا اليه ، وغاية الأمر انهم لم يكونوا من الأدنين الذين تعافهم النفوس ، وتنبو عنهم الأنظار ، ومع ذلك واستحكام السـلطان لغيرهم ، ووفرة المـال لديه واستعلائه عليهم بما كسب من العلم ، قاموا بدعوة الى الله على رغم الملوك واجنادهم ، وصاحوا بهم صيحة زلزلتهم فى عروشهم ، وادعوا انهم يبلغون عن خالق السماوات والأرض ما أراد شرعه للناس ، وأقاموا من الدليل ما تصاغرت دونه قوة المعارضة ، ثم ثبتت فى الكون شرائعهم ثبات الغريزة فى الفطرة ، وكان الخير لأممهم فى اتباع ما جاءوا به .

حالفتهم القوة واحتضنتهم السـعادة ما كانوا قائمين عليها ، ورزأهم الضعف وغالهم الشـقاء ما انحرفوا عنها ، وخلطوا فيها ، فهذا وما أقاموه من الأدلة عند التحدى لا يصح معه ، فى العقل ، أن يكونوا كاذبين فى حدبثهم عن الله ، ولا فى دعواهم أنه كان يوحى اليهم ما شرعوا للناس .

على ان من لا يعتقد ما يقول لا يبقى لمقاله أثر فى العقول . والباطل لا بقاء له الا فى الغفلة عنه ، كالنبات

الخبيث فى الأرض الطيبة يلبث باهمالها ويلمو باغفالها، فاذا لامستها عنـــاية الزراع غلبه الخصب وذهب به الزكاء .

ولكن تلك الديانات التى جاء بها أولئك الأنبياء قامت فى العالم الانسانى ما شاء الله مما قدر لهـــا ، مقام سائر قواه ، مع كثرة المعارضين ، وقوة سلطان المغالبين، فلا يمكن أن يكون أسها الكذب ودعامتها الحيلة ، وكلامنا هذا فى جوهرها الذى يلوح دائما فى خلال ما ألحق بها المبتدعون ، أما بقية الرسل ممن يجب علينا الايمان بهم فيكفى فى اثبات نبوتهم اثبات رسالة نبينا صلى الله عليه وسلم ، فقد أخبرنا برسالتهم ، وهو الصادق فيما بلغ به . وسنأتى على الـكلام فى رسالة نبينا محمد ، صلى الله عليـــه وسلم ، فى باب على حدته ان شاء الله .

وظيفة الرسل عليهم السلام

تبين مما تقدم فى حاجة العالم الانسانى الى الرسل ، انهم من الأمم بمنزلة العقول من الأشخاص ، وان بعثتهم حاجة من حاجات العقول البشرية ، قضت رحمة المبدع الحكيم بسدادها ، ونعمة من نعم واهب الوجود ميز بها الانسان عن بقية الكائنات من جنسه ، ولـكنها حاجة روحية ، وكل ما لامس الحس منها فالقصد فيه الى الروح ، وتطهيرها من دنس الأهواء الضالة ، أو تقويم ملكتها ، أو ايداعها ما فيه سعادتها فى الحياتين ، أما تفصيل طرق المعيشة والحذق فى وجوه الكسب وتطاول شهوات العقل الى درك ما أعد للوصول اليه من أسرار العلم ، فذلك مما لا دخل للرسالات فيه ، الا من وجهة

المظلة العامة ، والارشاد الى الاعتدال فيه ، وتقرير ان شرط ذلك كله ان لا يحدث ريبا فى الاعتقاد بأن للكون الها واحدا قادرا عالما حكيما ، متصفا بما اوجب الدليل أن يتصف به ، وباستواء نسبة الكائنات اليه فى أنها مخلوقة له ، وصنع قدرته ، وانما تفاوتها فيما اختص به بعضها من الكمال ، وشرطه أن لا ينال شىء من تلك الأعمال السابقة احدا من الناس بشر فى نفسه أو عرضه أو ماله بغير حق يقتضيه نظام عامة الأمة على ما حدد فى شريعتها .

***

يرشدون العقل الى معرفة الله ، وما يعرف من صفاته ، ويبينون الحد الذى يجب أن يقف عنده فى طلب ذلك العرفان ، على وجه لا يشق عليه الاطمئنان اليه ، ولا يرفع ثقته بما آتاه الله من القوة .

يجمعون كلمة الحق على اله واحد ، لا فرقة معه ، ويخلون السبيل بينهم وبينه وحده ، وينهضون نفوسهم الى التعلق به فى جميع الأعمال والمعاملات ، ويذكرونهم بعظمته بفرض ضروب من العبادات فيما اختلف من الأوقات ، تذكرة لمن ينسى ، وتزكية مستمرة لمن يخشى ، تقوى ما ضعف منهم ، وتزيد المستيقن يقينا .

يبينون للناس ما اختلفت عليه عقولهم وشهواتهم ، وتنازعته مصالحهم ولذاتهم ، فيفصلون فى تلك المخاصمات بأمر الله الصادع ، ويؤيدون بما يبلغون عنه ما تقوم به المصالح العامة ، ولا تفوت به المنافع الخاصة ، يعودون بالناس الى الألفة ، ويكشفون لهم سر المحبة ، ويستلفتونهم الى أن فيها انتظام شمل

الجماعة ، ويفرضون عليهم مجاهدة أنفسهم ليستوطنوها قلوبهم ، ويشعروها أفئدتهم ، يعلمونهم لذلك أن يرعى كل حق الآخر وان كان لا يغفل حقه ، وان لا يتجاوز في الطلب حده ، وان يعين قويهم ضعيفهم ، ويمد غنيهم فقيرهم ، ويهدى راشدهم ضـــالهم ، ويعلم عالمهم جاهلهم .

يضعون لهم ، بأمر الله ، حدودا عامة ، يسهل عليهم أن يردوا اليها أعمـالهم ، كاحترام الدماء البشرية الا بحق ، مع بيان الحق الذى يبيح تناوله ، واحترام الأعراض ، مع بيان ما يباح وما يحرم من الابضاع ، ويشرعون لهم مع ذلك ان يقوموا أنفسهم بالملكات الفاضلة كالصدق والأمانة ، والوفاء بالعقود ، والمحـافظة على العهود ، والرحمة بالضعفاء ، والاقـدام على نصيحة الأقوياء ، والاعتراف لكل مخلوق بحقه بلا استثناء .

يحملونهم على تحويل أهوائهم عن اللذائذ الفانية الى طلب الرغائب السامية ، آخذين فى ذلك كله بطرف من الترغيب والترهيب ، والانذار والتبشير ، حسبما أمرهم الله جل شأنه .

يفصلون فى جميع ذلك للناس ما يؤهلهم لرضا الله عنهم ، وما يعرضهم لسخطه عليهم ، ثم يحيطون بيانهم بنبأ الدار الآخرة ، وما أعد الله فيها من الثواب وحسن العقبى لمن وقف عند حدوده ، وأخذ بأوامره ، وتجنب الوقوع فى محاظيره . يعلمونهم من أنباء الغيب ما أذن الله لعباده فى العلم به ، مما لو صعب على العقل اكتناهه لم يشق عليه الاعتراف بوجوده .

بهذا تطمئن النفوس ، وتثلج الصـدور ، ويعتصم

المرزوء بالصبر انتظارا لجزيل الأجر ، وا ارضاء لمن بيده الأمر ، وبهذا ينحل أعظم مشكل فى الاجتماع الانسانى لا يزال العقلاء يجهدون أنفسهم في حله الى اليوم .

***

ليس من وظائف الرسل ما هو من عمل المدرسين ومعلمى الصناعات ، فليس مما جاءوا له تعليم التاريخ ، ولا تفصيل ما يحويه عالم الكواكب ، ولا بيان ما اختلف من حركاتها ، ولا ما استكن من طبقات الأرض، ولا مقادير الطول فيها والعرض ، ولا ما تحتاج اليه النباتات فى نموها ، ولا ما تفتقر اليه الحيوانات فى بقاء أشخاصها وأنواعها ، وغير ذلك مما وضعت له العلوم ، وتسابقت فى الوصول الى دقائقه الفهوم ، فان ذلك كله من وسائل الكسب وتحصيل طرق الراحة ، هدى الله اليه البشر بما أودع فيهم من الآدراك ، يزيد فى سعادة المحصلين ، ويقضى فيه بالنكد على المقصرين ، ولكن كانت سنة الله فى ذلك أن يتبع طريقة التدرج فى الكمال ، وقد جاءت شرائع الأنبياء بما يحمل على الاجمال بالسعى فيه ، وما يكفل التزامه بالوصول الى ما أعد الله له الفطر الانسانية من مراتب الارتقاء .

أما ما ورد فى كلام الأنبياء من الاشارة الى شيء مما ذكرنا فى أحوال الأفلاك او هيئة الأرض ، فانما يقصد منه النظر الى ما فيه من الدلالة على حكمة مبدعة ، أو توجيه الفكر الى الغوص لادراك أسراره وبدائعه ، ولغتهم ، عليهم الصلاة ، فى مخاطبة اممهم لا يجوز أن تكون فوق ما يفهمون ، والاضاعت الحكمة فى ارسالهم ، ولهذا قد يأتى التعبير الذى سيق الى العامة بما يحتاج

الى التأويل والتفسير عند الخاصة ، وكذلك ما وجه الى الخاصة يحتـــاج الى الزمان الطويل حتى يفهمه العامة ، وهذا القسم أقل ما ورد فى كلامهم .

***

على كل حال لا يجوز أن يقـــام الدين حاجزا بين الأرواح وبين ما ميزها الله به من الاستعداد للعلم بحقائق الكائنات الممكنة بقدر الامكان ، بل يجب أن يكون الدين باعثا لها على طلب العرفان ، مطـــالبا لها باحترام البرهان ، فارضا عليها أن تبذل ما تستطيع من الجهد فى معرفة ما بين يديها من العوالم ، ولكن مع التزام القصد والوقوف فى سلامة الاعتقاد عند الحد . ومن قال ذلك فقد جهل الدين وجنى عليه جناية لا يغفرها له رب الدين .

اعتراض مشهور

قال قائل : ان كانت بعثة الرسل حاجة من حاجات البشر ، وكمالا لنظام اجتماعهم ، وطريقـــا لسعادتهم الدنيوية والأخروية ، فما بالهم لم يزالوا أشقياء ، عن السعادة بعـــداء ، يتخـالفون ولا يتفقون ، يتقاتلون ولا يتناصرون ، يتناهبون ولا يتناصفون ، كل يستعد للوثبة ولا ينتظر الا مجيء النوبة ، حشو جلودهم الظلم وملء قلوبهم الطمع ، عد أهل كل ذى دين دينهم حجة لمقارعة من خالفهم فيه ، واتخـــذوا منه سببا جديدا للعداوة والعدوان فوق ما كان من اختلاف المصـــالح والمنافع ، بل أهل الدين الواحد قد تنشق عصاهم ،

وتختلف مذاهبهم فى فهمه ، وتتفــارق عقولهم فى عقائدهم ، ويثور بينهم غبار الشر ، وتتشبث أهواؤهم بالفتن ، فيسفكون دماءهم ويخربون ديارهم ، الى أن يغلب قــويهم ضعيفهم ، فيستقر الأمر للقــوة لا للحق والدين .. فما هو الدين الذى تقول انه جامع الكلمة ورسول المحبة كان سببا فى الشقاق ، ومضرما للضغينة ، فما هذه الدعوى وما هذا الأثر ؟؟ .

نقول فى جوابه نعم .. كل ذلك قد كان ، ولكن بعد زمن الأنبياء وانقضاء عهدهم ، ووقوع الدين فى ايدى من لا يفهمه ، أو يفهمه ويغلو فيه ، ولكن لم يمتزج حبه بقلبه ، أو امتزج بقلبه حب الدين ولكن ضاقت سعة عقله عن تصريفه تصريف الأنبياء انفسهم أو الخيرة من تبعتهم ، والا فقل لنا : اى نبى لم يأت امته بالخير الجم والفيض الأعم ؟ ولم يكن دينه وافيا بجميع ما كانت تمس اليه حاجتها فى أفرادها وجملتها ؟؟ .

اظن انك لا تخالفنا فى أن الاعظم من الناس ، بل الــكل ــ الا قليلا ــ لا يفهمون فلسفة « أفلاطون » ، ولا يقيسون أفكارهم وآراءهم بمنطق « أرسطو » ، بل لو عرض اقرب المعقولات الى العقول عليهم بأوضح عبارة يمكن أن يأتى بها معبر لما ادركوا منها الا خيالا لا أثر له فى تقويم النفس ولا فى اصلاح العمل ، فاعتبر هــذه الطبقات فى حالها التى لا تفارقها من تلاعب الشهوات بها ، ثم انصب نفسك واعظا بينها فى تخفيف بلاء ساقه النزاع اليها ، فأى الطـــرق اقرب اليك فى مهاجمة شهواتهم وردها الى الاعتدال فى رغائبها .

من البديهي انك لا تجد الطريق الأقرب في بيان مضار

الاسراف فى الرغب وفوائد القصد فى الطلب ، وما ينحو ذلك ، مما لا يصل اليه ارباب العقول السامية الا بطويل النظر ، وانما تجد اقصر الطرق واقومها أن تأتى اليه من نافذة الوجدان المطلة على سر القهر المحيط به من كل جانب ، فتذكره بقدرة الله الذى وهبه ما وهب ، الغالب عليه فى أدنى شئونه اليك ، المحيط بما فى نفسه ، الآخذ بأزمة هممه ، وتسوق اليه من الأمثال فى ذلك ما يقرب الى فهمه ، ثم تروى له ما جاء فى الدين المعتقد به من مواعظ وعبر ، ومن سير السلف فى ذلك الدين ما فيه أسوة حسنة ، وتنعش روحه بذكر رضا الله اذا استقام ، وسخطه عليه اذا تقحم ، عند ذلك يخشع منه القلب ، وتدمع العين ، ويستخذى الغضب ، وتخمد الشهوة ، والسامع لم يفهم من ذلك كله الا انه يرضى الله وأولياءه اذا أطاع ، ويسخطهم اذا عصى ، ذلك هو المشهود من حال البشر ، غابرهم وحاضرهم ، ومنتزه يسم نفسه انه ليس منهم .

كم سمعنا أن عيونا بكت ، وزفرات صعدت ، وقلوبا خشعت لواعظ الدين ؟ لكن هل سمعت بمثل ذلك بين يدى نصاح الأدب وزعماء السياسة ؟؟ .

متى سمعنا أن طبقة من طبقات الناس يغلب الخير على أعمالهم لما فيه من المنفعة لعامتهم أو خاصتهم ، وينفى الشر من بينهم لما يجلبه عليهم من مضار ومهالك ؟ هذا أمر لم يعهد فى سير البشر ، ولا ينطبق على فطرهم ، وانما قوام الملكات هو العقائد والتقاليد ، ولا قيام للأمرين الا بالدين ، فعامل الدين هو أقوى العوامل فى أخلاق العامة ، بل والخاصة وسلطانه على نفوسهم أعلى من سلطان العقل الذى هو خاصة نوعهم .

سوء الاستعمال

قلنا : ان منزلة النبوات من الاجتمـــاع هى منزلة العقل من الشخص ، أو منزلة العـــلم المنصوب على الطريق المسلوك ، بل نصعد الى ما فوق ذلك ونقول : منزلة السمع والبصر .

أليس من وظيفة الباصرة التمييز بين الحسن والقبيح من المناظر ؟ وبين الطريق السهلة الســـلوك والمعابر الوعرة ؟ ومع ذلك فقد يسىء البصير استعمال بصره ، فيتردى فى هاوية يهلك فيهـــا ، وعيناه سليمتان تلمعان فى وجهه ، يقع ذلك لطيش أو اهمال أو غفلة أو لجاج

وقد يقوم من العقل والحس ألف دليل على مضرة شىء ، ويعلم ذلك الباغى فى رأيه من أهل الشر ، ثم يخالف تلك الدلائل الظاهرة ، ويقتحم المكروه لقضاء شهوة اللجاج أو نحوها .

ولكن وقوع هذه الأمثال لا ينقص من قدر الحس أو العقل فيما خلق لأجله ، كذلك الرسل ، عليهم السلام ، أعلام هداية نصبها الله على سبيل النجاة ، فمن الناس من اهتدى بها فانتهى الى غايات السعادة ، ومنهم من غلط فى فهمها أو انحرف عن هديها فانكب فى مهاوى الشقاء ، فالدين هاد ، والنقص يعرض لمن دعوا الى الاهتـــداء به ، ولا يطعن نقصهم فى كماله ، واشتداد حاجتهم اليه (يضل به كثيرا ويهدى به كثيرا وما يضل به الا الفاسقين (١)) .

الا ان الدين مستقر السكينة ، ولجأ (٢) الطمأنينة ،

(١) البقرة : ٢٦ .
(٢) اللجأ مصدر معناه : الحصن والملاذ .

به يرضى كل بما قسم له ، وبه يدأب عامل حتى يبلغ الغاية من عمله ، وبه تخضع النفوس الى أحكام السنن العامة فى الكون ، وبه ينظر الانسان الى من فوقه فى العلم والفضيلة ، والى من دونه فى المال والجاه ، اتباعا لما وردت به الأوامر الالهية .

الدين اشبه بالبواعث الفطرية الالهامية منه بالدواعى الاختيارية . الدين قوة من أعظم قوى البشر ، وانما قد يعرض عليها من العلل ما يعرض لغيرها من القوى ، وكل ما وجه الى الدين من مثل الاعتراض الذى نحن بصدده فتبعته فى أعناق القائمين عليه ، الناصبين انفسهم منصب الدعوة اليه ، أو المعروفين بأنهم حفظته ورعاة أحكامه ، وما عليهم فى ابلاغ القلوب بغيتها منه الا أن يهتدوا به ويرجعوا به الى أصوله الطاهرة الأولى ، ويضعوا عنه أوزار البدع ، فترجع اليه قوته ، وتظهر للأعمى حكمته .

ربما يقول قائل : ان هذه المقابلة بين العقل والدين تميل الى رأى القائلين باهمال العقل بالمرة فى قضايا الدين ، وبأن أساسه هو التسليم المحض ، وقطع الطريق على أشعة البصيرة أن تنفذ الى فهم ما أودعه من معارف وأحكام .

فنقول : لو كان الأمر كما عساه أن يقال ، لما كان الدين علما يهتدى به ، وانما الذى سبق تقريره هو أن العقل وحده لا يستقل الحيوان فى درك جميع المحسوسات بحاسة البصر وحدها ، بل لابد معها من السمع لادراك المسموعات مثلا ، كذلك الدين هو حاسة عامة لكشف ما يشتبه على العقل من وسائل السعادات ،

والعقل هو صاحب السلطان فى معرفة تلك الحاسة وتصريفها فيما منحت لأجله ، والاذعان لما تكشف من معتقدات وحدود اعمال . كيف ينكر على العقل حقه فى ذلك ، وهو الذى ينظر فى أدلتها ليصل منهـــا الى معرفتها ، وانها آتية من قبل الله ، وانما على العقل بعد التصديق برسالة نبى أن يصدق بجميع ما جاء به ، وان لم يستطع الوصول الى كنه بعضه ، والنفوذ الى حقيقته ، ولا يقضى عليه ذلك بقبول ما هو من باب المحال المؤدى الى مثل الجمع بين النقيضين أو بين الضدين فى موضوع واحد فى آن واحد ، فان ذلك مما تتنزه النبوات عن ان تأتى به ، فان جاء ما يوهم ظاهره ذلك فى شىء من الوارد فيها ، وجب على العقل أن يعتقـد ان الظـاهر غير مراد ، وله الخيـــــار بعد ذلك فى التأويل ، مسترشدا ببقية ما جاء على لسان من ورد المتشابه فى كلامه ، وفى التفويض الى الله فى علمه ، وفى سلفنـــا الناجين من اخذ بالأول ومنهم من آخذ بالثانى .

رسالة محمد
صلى الله عليه وسلم

ليس من غرضنا ، فى هذه الوريقات ، ان نلم بتاريخ الأمم عامة ، وتاريخ العرب خاصة فى زمن البعثة المحمدية ، لنبين كيف كانت حاجة سكان الأرض ماسة الى قارعة تهز عروش الملوك ، وتزلزل قواعد سلطانهم الغاشم ، وتخفض من ابصارهم المعقودة بعنان السماء الى من دونهم من رعاياهم الضعفاء ، والى نار تنقض من سماء الحق على أدم (١) الأنفس البشرية ، لتأكل ما اعشوشبت به من الأباطيل القاتلة للعقول ، وصيحة فصحى تزعج الغافلين وترجع بألباب الذاهلين ، وتنبه المرءوسين الى انهم ليسوا بأبعد عن البشرية من الرؤساء الظالمين ، والدهاة الضالين ، والقادة الفارين ، وبالجملة تؤب بهم الى رشد يقيم الانسان على الطريق التى سنها الله له : « انا هديناه السبيل (٢) » ليبلغ بسلوكها كماله ، ويصل على نهجها الى ما أعد فى الدارين له .

ولكننا نستعير من التاريخ كلمة يفهمها من نظر فيما اتفق عليه مؤرخو ذلك العهد نظر امعان وانصاف : كانت دولتا العالم ، دولة الفرس فى الشرق ودولة

---

(١) من معانيه السمرة والسواد .
(٢) الانسان د ٣ .

الرومان فى الغرب فى تنازع وتجالد مستمر ، دماء بين العالمين مسفوكة ، وقوى منهوكة ، واموال هالكة ، وظلم من الاحن حالكة ، ومع ذلك فقد كان الزهو والترف والاسراف والفخفخة والتفنن فى الملاذ بالفة حد ما لا يوصف فى قصور السلاطين والأمراء ، والقواد ورؤساء الأديان من كل امة ، وكان شره هذه الطبقة من الأمم لا يقف عند حد ، فزادوا فى الضرائب ، وبالغوا فى فرض الأتاوات ، حتى أثقلوا ظهور الرعية بمطالبهم ، وأتوا على ما فى أيديها من ثمرات اعمالها ، وانحصر سلطان القوى فى اختطاف ما بيد الضعيف ، وفكر العاقل فى الاحتيال لسلب الغافل ، وتبع ذلك ان استولى على تلك الشعوب ضروب من الفقر ، والذل والاستكانة ، والخوف والاضطراب ، لفقد الأمن على الأرواح والأموال .

غمرت مشيئة الرؤساء ارادة من دونهم ، فعاد هؤلاء كأشباح ، اللاعب يديرها من وراء حجاب ، ويظنها الناظر اليها من ذوى الألباب ، ففقد بذلك الاستقلال الشخصى ، وظن أفراد الرعايا انهم لم يخلقوا الا لخدمة ساداتهم وتوفير لذاتهم ، كما هو الشأن فى العجماوات مع من يقتنيها .

ضلت السادات فى عقائدها واهوائها ، وغلبتها على الحق والعدل شهواتها ، ولكن بقى لها من قوة الفكر اردأ بقاياها ، فلم يفارقها الحذر من أن بصيص النور الالهى ، الذى يخالط الفطر الانسانية ، قد يفتق الغلف التى احاطت بالقلوب ، ويمزق الحجب التى اسدلت على العقول ، فتهتدى العامة الى السبيل ، ويثور الجم الغفير على العدد القليل ، ولذلك لم يغفل الملوك والرؤساء

أن ينشئوا سحبا من الأوهام ، ويهيئوا كسفا من الأباطيل والخرافات ، ليقذفوا بها في عقول العامة ، فيغلظ الحجاب ، ويعظم الرين ، ويختنق بذلك نور الفطرة ، ويتم لهم ما يريدون من المغلوبين لهم .

وصرح الدين ، بلسان رؤسائه ، أنه عدو العقل ، وعدو كل ما يثمره النظر ، الا ما كان تفسيرا لكتاب مقدس ، وكان لهم في المشارب الوثنية ينابيع لا تنضب ومدد لا ينفد .

هذه حالة الأقوام كانت في معارفهم ، وذلك كان شأنهم في معايشهم ، عبيد أذلاء حيارى في جهالة عمياء ، اللهم الا بعض شوادر من بقايا الحكمة الماضية والشرائع السابقة آوت الى بعض الأذهان ، ومعها مقت الحاضر ، ونقص العلم بالغابر ، ثارت الشبهات على أصول العقائد وفروعها ، بما انقلب من الوضع ، وانعكس من الطبع ، فكان يرى الدنس في مظنة الطهارة ، والشره حيث تنتظر القناعة ، والدعارة حيث ترجى السلامة ، والاسلام مع قصور النظر عن معرفة السبب ، وانصرافه الأول وهلة الى أن مصدر كل ذلك هو الدين ، فاستولى الاضطراب على المدارك ، وذهب بالناس مذهب الفوضى في العقل والشريعة معا ، وظهرت مذاهب الاباحيين والدهريين في شعوب متعددة ، وكان ذلك ويلا عليها فوق ما رزئت به من سائر الخطوب .

وكانت الأمة العربية قبائل متخالفة في النزعات ، خاضعة للشهوات ، فخر كل قبيلة في قتال أختها ، وسفك دماء أبطالها ، وسبى نسائها ، وسلب أموالها ، تسوقها المطامع الى المعامع ، ويزين لها السيئات فساد الاعتقادات ، وقد بلغ العرب من سخافة العقل حدا صنعوا أصنامهم من الحلوى ، ثم عبدوها ، فلما جاءوا

اكلوها !! وبلغوا من تضعضع الاخلاق وهنا قتلوا فيه بناتهم تخلصا من عار حياتهن ، أو تنصلا من نفقـــات معيشتهن ، وبلغ الفحش بهم مبلغا لم يعد معه للعفاف قيمة ، وبالجملة : فكانت ربط النظـــام الاجتماعى قد تراخت عقدها فى كل امة ، وانفصمت عراها عند كل طائفة .

افلم يكن من رحمة الله بأولئك الأقوام ان يؤدبهم برجل منهم ، يوحى اليه رسالته ، ويمنحه عنايته ، ويمده من القوة بما يتمكن معه من كشف تلك الغمم ، التى اظلت رءوس جميع الأمم ؟؟ .

نعم .. كان ذلك ، وله الأمر من قبل ومن بعد ، فى الليلة الثانية عشرة من ربيع الأول ، عام الفيل — (٢٠ ابريل سنة ٥٧١ من ميلاد المسيح عليه السلام) — ولد محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم القرشى ،بمكة، ولد يتيما ، توفى والده قبل أن يولد ، ولم يترك له من المال الا خمس جمال وبعض نعاج وجارية ، ويروى اقل من ذلك . وفى السنة السادسة من عمره فقد والدته ايضا ، فاحتضنه جده عبد المطلب ، وبعد سنتين من كفالته توفى جده ، فكفله من بعده عمه ابو طالب ، وكان شهما كريما ، غير انه من الفقر بحيث لا يملك كفاف أهله ، وكان صلى الله عليه وسلم من بنى عمه وصبية قومه كأحدهم ، على ما به من يتم فقد فيه الأبوين معا ، وفقر لم يسلم منه الـكافل والمـــكفول ، ولم يقم على تربيته مهذب ، ولم يعن بتثقيفه مؤدب ، بين أتراب من نبت الجاهلية ، وعشراء من حلفاء الوثنية ، وأولياء من عبدة الأوهام ، وأقرباء من حفدة الأصنام ، غير انه مع

ذلك كان ينمو ويتكامل ، بدنا وعقلا وفضيلة وأدبا ، حتى عرف بين أهل مكة وهو فى ريعان شبابه ، بالأمين .

ادب الهى لم تجر العادة بأن تزين به نفوس الأيتام من الفقراء ، خصوصا مع فقر القوام ، فاكتمل صلى الله عليه وسلم كاملا والقوم ناقصـــون ، رفيعا والناس منحطون ، موحدا وهم وثنيون ، سلما وهم شاغبون ، صحيح الاعتقاد وهم واهمون ، مطبوعا على الخير وهم به جاهلون ، وعن سبيله عادلون .

من السنن المعروفة أن يتيما فقيرا أميا مثله تنطبع نفسه بما تراه من أول نشأته الى زمن كهولته ، ويتأثر عقله بما يسمعه ممن يخالطه ، لا سيما ان كان من ذوى قرابته وأهل عصبته ، ولا كتاب يرشده ، ولا أستاذ ينبهه ، ولا عضدا ذا عزم يؤيده ، فلو جرى الأمر فيه على جارى السنن لنشأ على عقائدهم وأخذ بمذاهبهم الى أن يبلغ مبلغ الرجال ، ويكون للفكر والنظر مجال ، فيرجع الى مخــالفتهم اذا قام له الدليل على خلاف ضلالاتهم ، كما فعل القليل ممن كانوا على عهده ، ولكن الأمر لم يجر على سنته ، بل بغضت اليه الوثنية من مبدأ عمره ، فعاجلته طهارة العقيدة ، كما بادره حسن الخليقة ، ، وما جاء فى الكتاب من قوله : « ووجدك ضالا فهدى (١) » لا يفهم منه انه كان على وثنية قبل الاهتداء الى التوحيد ، أو على غير السبيل القويم قبل الخلق العظيم ، حاش لله ، ان ذلك لهو الأفك المبين ، وانما هى الحيرة تلم بقلوب أهل الاخلاص فيما يرجون

---

(١) الضحى : ٧ .

للناس من الخلاص ، وطلب السبيل الى ما هدوا اليه من انقاذ الهالكين ، وارشاد الضالين ، وقد هدى الله نبيه الى ما كانت تتلمسه بصيرته باصطفائه لرسالته واختياره من بين خلقه لتقرير شريعته .

***

ووجد شيئا من المال يسد حاجته — (وقد كان له فى الاستزادة منه ما يرفه معيشته) — بما عمل لخديجة ، رضى الله عنها ، فى تجارتها ، وبما اختارته بعد ذلك زوجها ، وكان فيما يجتنيه من ثمرة عمله غناء له وعون على بلوغه ما كان عليه اعاظم قومه ، لكنه لم ترقه الدنيا ، ولم تغره زخارفها ، ولم يسلك ما كان يسلكه مثله فى الوصول الى ما ترغبه الأنفس من نعيمها ، بل كلما تقدم به السن زادت فيه الرغبة عما كان عليه الكافة ، ونما فيه حسب الانفراد والانقطاع الى الفكر ، والمراقبة والتحنث (٢) بمناجاة الله تعالى ، والتوسل اليه فى طلب المخرج من همه الأعظم فى تخليص قومه ، ونجاة العالم من الشر الذى تولاه ، الى أن انفتق له الحجاب عن عالم كان يحثه اليه الالهام الالهى ، وتجلى عليه النور القدس ، وهبط عليه الوحى فى المقام العلى ، فى تفصيل ليس هذا موضعه .

لم يكن من آبائه ملك فيطالب بما سلب من ملكه ، وكانت نفوس قومه فى انصراف تام عن طلب مناصب السلطان ، وفى قناعة بما وجده من شرف النسبة الى المكان ، دل عليهما ما فعل جده عبد المطلب عند زحف

---

(٢) أى التعبد بمناجاة الله .

« أبرهة » الحبشى (١) على ديارهم ، جاء الحبشى لينتقم من العرب بهدم معبدهم العام ، وبيتهم الحرام ، ومنتجع حجيجهم ، ومستوى العلية من آلهتهم ، ومنتهى حجة القرشيين في مفاخرتهم لبنى قومهم ، وتقـــدم بعض جنده فاستاق عددا من الابل فيهـا لعبد المطلب مائتا بعير ، وخرج عبد المطلب فى بعض قريش لمقابلة الملك ، فاستدناه وسأله حاجته فقال : هى أن ترد الى مائتى بعير أصبتها ، فلامه الملك على المطلب الحقير وقت الخطب الخطـــير ، فأجابه : أنا رب الابل أما البيت فله رب يحميه .

هذا غاية ما ينتهى اليه الاستسلام ، وعبد المطلب فى مكانه من الرياسة على قريش ، فـأين من تلك المـكانة محمدا صلى الله عليه وسلم ، فى حاله من الفقر ، ومقامه فى الوسط من طبقات أهله ، حتى ينتجع ملكا أو يطالب سلطانا ؟؟ .. لا مال ، لا جاه ، لا جند ، لا أعوان ، لا سليقة فى الشعر ، لا براعة فى الـكتاب ، لا شهرة فى الخطاب ، لا شيء كان عنده مما يكسب المكانة فى نفوس العامة ، أو يرقى به الى مقام ما بين الخاصة .

ما هذا الذى رفع نفسه فوق النفوس ؟ ما الذى أعلى راسه على الرءوس ؟ ما الذى سما بهمته على الهمم حتى انتدب نفسه لارشاد الأمم ، وكفالته لهم كشف الغمم ، بل واحياء الرمم ؟؟ .

ما كان ذلك الا ما ألقى الله فى روعه من حاجة العالم

---

(١) الملقب بالاشرم ، حكم اليمن العربية لحساب ملك الحبشة ، وكان فى الاصل عبدا لرجل رومانى ، واستقل باليمن عن الحبشة فترة من الزمن ، وكان مسيحيا ، بدأ حكمه لهذه البلاد سنة ٥٣١ م . أنظر دائرة المعارف الاسلامية .

الى مقوم لما زاغ من عقائدهم ، ويمده فى الانتهاء الى أمله قبل بلوغ أجله . ما هو الا الوحى الالهى يسعى نوره بين يديه ، يضىء له السبيل ، ويكفيه مؤنة الدليل ما هو الا الوعد السماوى قام لديه مقام القائد والجندى .

أرايت كيف نهض وحيدا فريدا يدعو الناس كافة الى التوحيد والاعتقاد بالعلى المجيد ، والكل ما بين وثنية متفرقة ودهرية وزندقة ؟ .. نادى فى الوثنيين بترك أوثانهم ، ونبذ معبوداتهم ، وفى المشبهين المنغمسين فى الخلط بين اللاهوت الأقدس وبين الجسمانيات بالتطهر من تشبيههم ، وفى التنويه بافراد اله واحد بالتصرف فى الأكوان ، ورد كل شىء فى الوجود اليه ، أهاب بالطبيعيين ليمدوا بصائرهم الى ما وراء حجاب الطبيعة فيتنوروا سر الوجود الذى قامت به . صاح بذوى الزعامة ليهبطوا الى مصاف العامة فى الاستكانة الى سلطان معبود واحد هو فاطر السموات والأرض ، والقابض على أرواحهم فى هياكل اجسادهم . تناول المنتحلين منهم لمرتبة التوسط بين العباد وبين ربهم الأعلى ، فبين لهم بالدليل وكشف لهم بنور الوحى أن نسبة أكبرهم الى الله كنسبة أصغر المعتقدين به ، وطالبهم بالنزول عما انتحلوه لأنفسهم من المكانات الربانية الى أدنى سلم من العبودية ، والاشتراك مع كل ذى نفس انسانية فى الاستعانة برب واحد ، يستوى جميع الخلق فى النسبة اليه ، لا يتفاوتون الا فيما فضل به بعضهم على بعض من علم أو فضيلة . وخز بوعظه عبيد العادات وأسراء التقليد ليعتقوا أرواحهم مما استعبدوا له ، ويحلوا اغلالهم التى أخذت بأيديهم عن العمل ، وقطعتهم

دون الأمل . مال على قراء الكتب السماوية والقائمين على ما أودعته من الشرائع الالهية ، فبكت الواقفين عند حروفها بغباوتهم ، وشدد النكير على المحرفين لها ، الصارفين لألفاظها الى غير ما قصد من وحيها ، اتباعا لشهواتهم ، ودعاهم الى فهمها ، والتحقق بسر علمهـــا حتى يكونوا على نور من ربهم . واستلفت كل انسان الى ما اودع فيه من المواهب الالهية ، ودعا الناس أجمعين ذكورا واناثا ، عامة وسادات ، الى عرفان انفسهم ، وانهم من نوع خصه الله بالعقل ، وميزه بالفكر ، وشرفه بهما وبحرية الارادة فيما يرشده اليه عقله وفكره ، وان الله عرض عليهم جميع ما بين أيديهم من الأكوان ، وسلطهم على فهمها ، والانتفـــاع بها بدون شرط ولا قيد الا الاعتدال ، والوقوف عند حدود الشريعة العـــادلة والفضيلة الكاملة ، واقدرهم بذلك على أن يصلوا الى معرفة خالقهم بعقولهم وأفكارهم بدون واســطة احد الا من خصهم الله بوحيه ، وقـــد وكل اليهم معرفتهم بالدليل ، كما كان الشأن فى معرفتهم لمبدع الكائنات أجمع . والحـــاجة الى أولئك المصطفين انما هى فى معرفة الصفات التى أذن الله ان تعلم منه ، وليست فى الاعتقاد بوجوده ، وقرر أن لا سلطان لأحد من البشر على آخر منه الا ما رسمته الشريعة وفرضه العدل ، ثم الانسان بعـــد ذلك يذهب بارادته الى ما سخرت له بمقتضى الفطرة .

دعا الانسان الى معرفة انه جسم وروح ، وانه بذلك من عالمين مختلفين ، وان كانا ممتزجين ، وانه مطالب بخدمتهما جميعا وايفاء كل منهما ما قررت له الحكمة

الالهية من الحق دعا الناس كافة الى الاستعداد فى هذه الحياة لما سيلاقون فى الحياة الأخرى ، وبين لهم ان خير زاد يتزوده العامل هو الاخلاص لله فى العبادة، والاخلاص للعباد فى العدل والنصيحة والارشاد .

قام بهذه الدعوة العظمى وحده ، ولا حول له ولا قوة ، كل هذا كان منه والناس أحباء ما ألفوا ، وان كان خسران الدنيا وحرمان الآخرة ، أعداء ما جهلوا ، وان كان رغد العيش وعزة السيادة ومنتهى السعادة ، كل هذا والقوم حواليه أعداء انفسهم ، وعبيد شهوتهم ، لا يفقهون دعوته ولا يعقلون رسالته ، عقدت أهداب بصائر العامة منهم بأهواء الخاصة ، وحجبت عقول الخاصة بغرور العزة عن النظر فى دعوى فقير أمى مثله ، لا يرون فيه ما يرفعه الى نصيحتهم ، والتطاول الى مقاماتهم الرفيعة باللوم والتعنيف .

لكنه فى فقره وضعفه كان يقارعهم بالحجة ، ويناضلهم بالدليل ، ويأخذهم بالنصيحة ، ويزعجهم بالزجر ، وينبههم للعبر ، ويحوطهم مع ذلك ، بالموعظة الحسنة ، كأنما هو سلطان قاهر فى حكمه ، عادل فى أمره ونهيه ، أو أب حكيم فى تربية أبنائه ، شديد الحرص على مصالحهم ، رؤوف بهم فى شدته ، رحيم فى سلطته .

ما هذه القوة فى ذلك الضعف ؟؟ ما هذا السلطان فى مظنة العجز ! ما هذا العلم فى تلك الأمية ؟! ما هذا الرشاد فى غمرات الجاهلية ؟! . ان هو الا خطاب الجبروت الأعلى ، قارعة القدرة العظمى ، نداء العناية العليا ذلك خطاب الله القادر على كل شىء ، الذى وسع

كل شيء رحمة وعلما ، ذلك أمر الله الصادع ، يقرع الآذان ، ويشق الحجب ، ويمزق الغلف (١) ، وينفذ الى القلوب على لسان من اختاره لينطق به ، واختصه بذلك ، وهو أضعف قومه ، ليقيم من هذا الاختصاص برهانا عليه ، بعيدا عن الظنة ، بريئا من التهمة ! لاتيانه على غير المعتاد بين خلقه .

اى برهان على النبوة اعظم من هذا !؟.. أمى قام بدعوة الكاتبين الى فهم ما يكتبون وما يقرؤون ؟! بعيد عن مدارس العلم صاح بالعلماء ، ليمحصوا ما كانوا يعلمون ؟! فى ناحية عن ينابيع العرفان جاء يرشد العرفاء ؟! ناشيء بين الواهمين هب لتقويم عوج الحكماء ؟؟ غريب فى أقرب الشعوب الى سذاجة الطبيعة وأبعدها عن فهم نظام الخليقة والنظر فى سنته البديعة ، أخذ يقرر للعالم اجمع أصول الشريعة ، ويخط للسعادة طرقا لن يهلك سالكها ولن يخلص تاركها ؟! .

ما هذا الخطاب المفحم ؟ ما ذلك الدليل الملجم ؟ .. اقول ما هذا بشرا ، ان هذا الا ملك كريم ؟! لا ، لا اقول ، ولكن أقول كما امره الله أن يصف نفسه : ان هو الا بشر مثلكم يوحى اليه . نبى صدق الأنبياء ، ولكن لم يأت فى الأقناع برسالته بما يلهى الأبصار ، أو يحير الحواس ، أو يدهش المشاعر ، ولكن طالب كل قوة بالعمل فيما أعدت له ، واختص العقل بالخطاب ، وحاكم اليه الخطأ والصواب ، وجعل فى قوة الكلام وسلطان البلاغة وصحة الدليل مبلغ الحجة وآية الحق الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد .

---

(١) مفردها غلاف .

القــرآن

جاءنا الخبر المتواتر الذى لا تتطرق اليه الريبة ، ان النبى ، صلى الله عليه وسلم ، كان فى نشأته وأميته على الحال التى ذكرنا ، وتواترت أخبار الأمم كافة على انه جاء بكتاب قال انه أنزل عليه ، وان ذلك الكتاب هو القرآن المكتوب فى المصاحف ، المحفوظ فى صدور من عنى بحفظه من المسلمين الى اليوم . كتاب حوى من أخبار الأمم الماضية ما فيه معتبر للأجيال الحاضرة والمستقبلة ، نقب على الصحيح منها ، وغادر الأباطيل التى الحقتها الأوهام بها ، ونبه على وجوه العبرة فيها . حكى عن الأنبياء ما شاء الله أن يقص علينا من سيرهم ، وما كان بينهم وبين أممهم ، وبرأهم مما رماهم به أهل دينهم ، المعتقدون برسالتهم . آخذ العلماء من الملل المختلفة على ما أفسدوا من عقائدهم ، وما خلطوا فى أحكامهم ، وما حرفوا ، بالتأويل ، فى كتبهم . وشرع للناس أحكاما تنطبق على مصالحهم ، وظهرت الفائدة فى العمل بها والمحافظة عليها ، وقام بها العدل ، وانتظم بها شمل الجماعة ما كانت عند حد ما قرره ، ثم عظمت المضرة فى اهمالها والانحراف عنها أو البعيد بها عن الروح الذى أودعته ، ففاقت بذلك جميع الشرائع الوضعية ،

كما يتبين للناظر فى شرائع الأمم ، ثم جاء بعد ذلك بحكم ومواعظ وآداب تخشع لهـــا القـلوب ، وتهش لاستقبالها العقول ، وتنصرف وراءها الهمم انصرافهـا فى السبيل الأمم .

نزل القرآن فى عصر اتفق الرواة وتواترت الأخبـــار على أنه أرقى الاعصار عنـــد العرب ، وأغزرها مادة فى الفصاحة ، وانه الممتاز بين جميع ما تقدمه بوفرة رجال البلاغة وفرسان الخطـــاب ، وأنفس ما كانت العرب تتنافس فيه من ثمار العقل ، ونتائج الفطنة والذكاء ، هو الغلب فى القول ، والسبق الى اصـــابة مكان الوجدان من القلوب ومقر الاذعان من العقول ، وتفانيهم فى المفاخرة بذلك لا يحتاج الى الاطالة فى بيانه .

تواتر الخبر كذلك بما كان منهم من الحرص على معارضة النبى ، صلى الله عليـــه وسلم ، والتماسهم الوسائل ، قريبها وبعيدها ، لابطال دعواه ، وتـكذيبه فى الاخبـــــار عن الله ، واتيانهم فى ذلك على مبلغ استطاعتهم ، وكان فيهم الملوك الذين تحملهم عزة الملك على معاندته ، والأمراء الذين يدعوهم السلطان الى مناوأته: والخطباء والشعراء والكتاب الذين يشمخون بأنوفهم عن متابعته ، وقد اشتد جميع أولئك فى مقاومته ، وانهالوا بقواهم عليه ، استكبارا عن الخضوع له ، وتمسكا بما كانوا عليه من أديان آبائهم ، وحمية لعقـــائدهم وعقائد أسلافهم ، وهو مع ذلك يخطىء آراءهم ، ويسفه أحلامهم ، ويحتقر أصنامهم ، ويدعوهم الى ما لم تعهده أيامهم ، ولم تخفق لمثله أعلامهم ، ولا حجة له بين يدى ذلك كله الا تحديهم بالاتيان بمثل أقصر سورة من ذلك الكتاب ،

او بعشر سورة من مثله . وكان في استطاعتهم ان يجمعوا اليه من العلماء والفصحاء البلغاء ما شاءوا ، ليأتوا بشيء من مثل ما اتى به ، ليبطلوا الحجة ، ويفحموا صاحب الدعوة :

جاءنا الخبر المتواتر انه مع طول زمن التحدى ، ولجاج القوم فى التعدم أصيبوا بالعجز ، ورجعوا للخيبة وحقت للكتاب العزيز الكلمة العليا على كل كلام ، وقضى حكمه العلى على جميع الاحكام . اليس فى ظهور مثل هذا الكتاب على لسان امى أعظم معجزة وادل برهان على انه ليس من صنع البشر ؟ وانما هو النور المنبعث عن شمس العلم الالهى ، والحكم الصادر عن المقام الربانى على لسان الرسول الأمى ، صلوات الله عليه .

هذا وقد جاء فى الكتاب من أخبار الغيب ما صدقته حوادث الكون ، كالخبر فى قوله : (غلبت الروم فى أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون فى بضع سنين) (١) ، وكالوعد الصريح فى قوله : (وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم (٢) الآية ، وقد تحقق جميع ذلك وفى القرآن كثير من مثل هذا يحيط به من يتلوه حق تلاوته .

ومن الكلام عن الغيب فيه ما جاء فى تحدى العرب به ، واكتفائه فى الرجوع عن دعواه بأن يأتوا بسورة من مثله ، مع سعة البلاد العربية ، ووفرة سكانها ، وتباعد أطرافها ، وانتشار دعوته على لسان الوافدين الى

(١) الروم : ٢ ــ ٤ .
(٢) النور : ٥٥ .

مكة من جميع أرجائها ، ومع انه لم يسبق له ، صلى الله عليه وسلم ، السياحة فى نواحيها والتعرف برجالها ، وقصور العلم البشرى ، عادة ، عن الاحاطة بما أودع فى قوى أمة عظيمة كالأمة العربية ، فهذا القضاء الحاتم منه بأنهم لن يستطيعوا أن يأتوا بشىء من مثل ما تحداهم به ليس قضاء بشريا ، ومن الصعب ، بل من المتعذر ، أن يصدر عن عاقل التزام كالذى التزمه ، وشرط كالذى شرطه على نفسه ، لغلبة الظن عند من له شىء من العقل أن الأرض لا تخلو من صاحب قوة مثل قوته ، وانما ذلك هو الله المتكلم والعليم الخبير هو الناطق على لسانه ، وقد أحاط علمه بقصور جميع القوى عن تناول ما استنهضهم له وبلوغ ما حثهم عليه .

يقول واهم : ان العجز حجة على من عجز ، فان العجز هى حجة الافحام والزام الخصم ، وقد يلتزم الخصم ببعض المسلمات عنده فيفحم ويعجز عن الجواب فتلزمه الحجة ، ولكن ليس ذلك بملزم لغيره ، فمن الممكن ان لا يسلم غيره بما سلمه ، فلا يفحمه الدليل ، بل يجد الى ابطاله أقرب سبيل .

وهو وهم يضمحل بما قدمناه من البيان ، اذ لا يوجد من المشابهة بين اعجاز القرآن وافحام الدليل الا انه يوجد عن كل منهما عجز ، وشتان بين العجزين ، وبعد ما بين وجهتى الاستدلال فيهما ، فان اعجاز القرآن برهن على أمر واقعى ، وهو تقاصر القوى البشرية دون مكانته من البلاغة ، وقلنا : القوى البشرية ، لأنه جاء بلسان عربى ، وقد عرف الكتاب عند جميع العرب فى عهد النبوة ، وكان حال العصر من البلاغة كما ذكرناه ، وحال القوم فى

العناد كما بينا ، ومع ذلك لم يمكن للعرب أن يعارضوه بشيء من مبلغ عقولهم ، فلا يعقل ان فارسيا أو هنديا أو رومانيا يبلغ من قوة البلاغة فى العربية أن يأتى بما عجز عنه العرب انفسهم ، وتقاصر القوى عن ذلك ، مع التماثل بين النبى وبينهم في النشأة والتربية ، وامتياز الكثير منهم بالعلم والدراسة دليل قاطع على ان الكلام ليس مما أعتيد صدوره عن البشر ، فهو أختصاص من الله سبحانه لمن جاء على لسانه .

ثم ما ردد فى القرآن من تسجيل العجز عليهم ، والتعرض للاصطدام بجميع ما أوتوا من قوة ، مما يدل على الثقة من امره ، مع ما سبق تعداده من الأمور التى لا يمكن معهـا لعاقل أن يقف ذلك الموقف مع طول الزمن وانفساح الأجل ، كل ذلك يدل على أن الناطق هو عالم الغيب والشهادة ، لا رجل يعظ وينصح على العادة .

فثبت بهذه المعجزة العظمى وقام الدليل بهذا الكتاب الباقى الذى لا يعرض عليه التغيير ولا يتناوله التبديل أن نبينا محمدا ، صلى الله عليه وسلم ، رسول الله الى خلقه ، فيجب التصديق برسالته والاعتقاد بجميع ما ورد فى الكتاب المنزل عليه ، والأخذ بكل ما ثبت عنه من هدى وسنة متبعة ، وقد جاء فى الكتاب انه خاتم الأنبياء ، فوجب علينا الايمان بذلك كذلك .

الـديـن الإسـلامى أو الإسـلام

بقى علينا ان نشير الى وظيفة الدين الاسلامى ، وما دعا اليه ، على وجه الاجمال ، وكيف انتشرت دعوته بالسرعة المعروفة ، والسر فى كون النبى ، صلى الله عليه وسلم ، خاتم المرسلين ، صلوات الله عليه وعليهم أجمعين .

هو الدين الذى جاء به محمد ، صلى الله عليه وسلم ، وعقله من وعاه عنه من صحابته ومن عاصرهم ، وجرى العمل عليه حينا من الزمن بينهم بلا خوف ولا اعتساف فى التأويل ، ولا ميل مع الشيع ، وآتى مجمله فى هذا الباب مقتديا بالكتاب المجيد فى التفويض لذوى البصائر أن يفصلوه . وما سندى فيما أقول الا الكتاب ، والسنة القويمة ، وهدى الراشدين .

(★) من هنا حتى ماقبل موضوع (التصديق بما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم) من رسالة التوحيد هذه ، نشر أيضا فى كتاب (الاسلام والرد على منتقديه) ص ٩١ ــ ١١٨ طبعة القاهرة سنة ١٩٢٨ م . ولقد راجعنا النسختين وقومنا منهما النص .

التوحيد

جاء الدين الاسلامي بتوحيد الله تعالى فى ذاته وأفعاله، وتنزيهه عن مشابهة المخلوقين ، فأقام الأدلة على أن للكون خالقا واحدا متصفا بما دلت عليه آثار صنعه من الصفات العلية كالعلم ، والقدرة ، والارادة ، وغيرها ، وعلى أنه لا يشبهه شيء من خلقه ، وأن لا نسبة بينه وبينهم الا أنه موجدهم ، وانهم له واليه راجعون :

(قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ ، اللهُ الصَّمَدُ ، لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ)[1] .

وما ورد من الفاظ الوجه واليدين والاستواء ونحوها ، له معان عرفها العرب المخاطبون بالكتاب ، ولم يشتبهوا فى شيء منها ، وان ذاته وصفاته يستحيل عليها أن تبرز فى جسد أو روح أحد من العالمين ، وانما يختص سبحانه من شاء من عباده بما شاء من علم وسلطان على ما يريد أن يسلطه عليه من الأعمال ، على سنة له فى ذلك سنها فى علمه الأزلى ، الذى لا يعتريه التبديل

---

(١) الاخلاص : ١ ــ ٤ .

ولا يدنو منه التغيير ، وحظر على كل ذى عقل أن يعترف لأحد بشيء من ذلك الا ببرهان ينتهى فى مقدماته الى حكم الحس وما جاوره من البديهات التى لا تنقص فى الوضوح ، بل قد تعلوه ، كاستحالة الجمع بين النقيضين او ارتفاعهما معا ، أو وجوب ان الكل أعظم من الجزء مثلا ، وقضى على هؤلاء ، كفيرهم ، بأنهم لا يملكون لأنفسهم نفعا ولا ضرا ، وغاية أمرهم أنهم عباد مكرمون ، وان ما يجريه على أيديهم فانما هو باذن خاص ، وبتيسير خاص ، فى موضع خاص ، لحكمة خاصة ، ولا يعرف شأن الله فى شيء من هذا الا ببرهان ، كما تقدم .

دل هذا الدين بمثل قول الكتاب : (والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئا وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون) (١) ، والشكر عند العرب معروف أنه : تصريف النعمة فيما كان الأنعام بها لأجله ، دل بمثل هذا على ان الله وهبنا من الحواس ، وغرز فينا من القوى ما نصرفه فى وجوهه ، بمحض تلك الموهبة ، فكل شخص كاسب لعمله بنفسه لها أو عليها . واما ما تتحير فيه مداركنا ، وتقصر دونه قوانا ، وتشعر فيه انفسنا بسلطان يقهرها ، أو ناصر يمدها فيما أدركها العجز عنه ، على أنه فوق ما تعرف من القوى المسخرة لهـا ، وكان لابد من الخضوع له ، والرجوع اليه ، والاستعانة به ، فذلك انما يرد الى الله وحده ، فلا يجوز ان تخشع الا له ولا ان تطمئن الا اليه ، وكذلك جعل شأنهما فيما تخافه وترجوه مما تقبل عليه فى الحياة الآخرة ، لا يسوغ لها ان تلجأ الى أحد غير الله فى قبول أعمالها من الطيبات،

(١) النحل : ٧٨ .

ولا فى غفران أفاعيلها من السيئات ، فهو وحده مالك يوم الدين .

اجتثت بذلك جذور الوثنية وما وليها مما لو اختلف عنها فى الصورة والشكل أو العبارة واللفظ ، لم يختلف عنها فى المعنى والحقيقة ، تبع هذا طهـــارة العقول من الأوهام الفاسدة التى لا تنفك عن تلك العقيدة الباطلة ، ثم تنزه النفوس عن الملكات السيئة التى كانت تلازم تلك الأوهام ، وتخلصت بتلك الطهـــارة من الاختلاف فى المعبودين وعليهم ، وارتفع شأن الانسان وسمت قيمته بما صار اليه من الكرامة بحيث أصبح لا يخضع لأحـد الا لخالق السموات والأرض وقـاهر الناس أجمعين ، وأبيح لـكل أحد ، بل فرض عليه أن يقول كما قـال ابراهيم : (انى وجهت وجهى للذى فطـر السموات والأرض حنيفا وما أنا من المشركين) (١) ، وكمـا أمر رسول الله ، صلى الله عليه وسلم ، أن يقول : (ان صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العـالمين لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين) (٢) ، تجلت بذلك للانسان نفسه حرة كريمة ، وأطلقت ارادته من القيود التى كانت تقعدها بارادة غيره ، سواء كانت ارادة بشرية ظن انها شعبة من الارادة الالهية ، أو انها هى ، كارادة الرؤساء المسيطرين أو ارادة موهومة اخترعها الخيال ، كما يظن فى القبور والأحجار والأشجار والكواكب ونحوها ، وافتكت عزيمته من أسر الوسائط ، والشفعاء ، والمتكهنة والعرفاء ، وزعماء السيطرة على الأسرار ، ومنتحلى حق

---

(١) الانعام : ٧٩ .
(٢) الانعام : ١٦٢ .

الولاية على أعمال العبد فيما بينه وبين الله ، الزاعمين أنهم واسطة النجاة ، وبأيديهم الأشقاء والاسعاد . وبالجملة ، فقد أعتقت روحه من العبودية للمحتالين والدجالين ، وصار الانسان بالتوحيد ، عبدا لله ، حرا من العبودية لكل ما سواه ، فكان له من الحق ما للحر على الحر ، لا على فى الحق ولا وضيع ، ولا سافل ولا رفيع ، ولا تفاوت بين الناس الا بتفاوت أعمالهم ، ولا تفاضل الا بتفاضلهم فى عقولهم ومعارفهم ، ولا يقربهم من الله الا طهارة العقل من دنس الوهم وخلوص العمل من العوج والرياء ، ثم بهذا خلصت أموال الكاسبين وتمخض الحق فيها للفقراء والمساكين والمصالح العامة وكفت عنها أيدى العالة وأهل البطالة ممن كان يزعم الحق فيها بصفته ورتبته لا بعمله وخدمته .

***

مكانة العمل

طالب الاسلام بالعمل كل قادر عليه ، وقرر ان لكل نفس ماكسبت وعليها ما اكتسبت (فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره) (١) ، (وأن ليس للانسان الا ما سعى (٢) ، وأباح لكل أحد أن يتناول من الطيبات ما شاء أكلا وشربا ولباسا وزينة ، ولم يحظر عليه الا ما كان ضارا بنفسه ، أو بمن يدخل فى ولايته ، أو ما تعدى ضرره الى غيره ، وحدد له فى ذلك الحدود

(١) الزلزلة : ٧ ، ٨ .
(٢) النجم : ٣٩

العامة بما ينطبق على مصـــــالح البشر كافة ، فكفل الاســــتقلال لــكل شخص فى عمله ، واتسع المجــال لتسابق الهمم فى السعى حتى لم يعد لها عقبــة تتعثر بها ، الا حقا محترما تصطدم به .

***

حرية الفكر .. والتجديد

أنحى الاسلام على التقليد ، وحمل عليه حملة لم يردها عنه القدر ، فبددت فيالقه المتغلبة على النفوس ، واقتلعت أصوله الراسخة فى المدارك ، ونسفت ما كان له من دعائم وأركان فى عقائد الأمم . صاح بالعقل صيحة أزعجته من سباته وهبت به من نومة طال عليه الغيب فيها ، كلما نفذ اليه شعاع من نور الحق خلصت اليه هينمة (١) من سدنة هياكل الوهم : « « نم فان الليل حالك ، والطريق وعرة والغاية بعيدة ، والراحة كايلة والأزواد قليلة » !! .

علا صوت الاسلام على وساوس الطغــام ، وجهر بأن الانسان لم يخلق ليقاد بالزمام ، ولكنه فطر على أن يهتدى بالعلم والاعلام ، أعلام الكون ودلائل الحوادث ، وانما المعلمون منبهون ومرشدون ، والى طرق البحث هادون ، صرح فى وصف أهل الحق بأنهم : (الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه) (٢) ، فوصفهم بالتمييز بين ما يقال ، من غير فرق بين القائلين ، ليأخذوا بما عرفوا حسنه ، ويطرحوا ما لم يتبينوا صحته ونفعه ، ومال على الرؤساء

(١) الهينمة : الصوت الخفى .
(٢) الزمر ، ١٨

فانزلهم من مستوى كانوا فيه يأمرون وينهون ، ووضعهم تحت أنظار مرءوسيهم ، يخبرونهم كما يشاءون،ويمتحنون مزاعمهم حسبما يحكمون ، ويقضون فيهـــا بما يعلمون ويتيقنون لا بما يظنـــون ويتوهمون . صرف القلوب عن التعلق بما كان عليـــه الآباء ، وما توارثه عنهم الأبناء ، وسجل الحمق والسفاهة على الآخذين بأقوال السابقين، ونبه على أن السبق فى الزمان ليس آية من آيات العرفان، ولا مسميا لعقول على عقول ، ولا لأذهان على أذهان ، وانما السابق واللاحق فى التمييز والفطرة سيان ، بل للاحق من علم الأحوال الماضية واستعداده للنظر فيهـــا والانتفاع بما وصل اليه من آثارها فى الكون ما لم يكن لمن تقدمه من أسلافه وآبائه ، وقد يـكون من تلك الآثار التى ينتفع بها أهل الجيل الحاضر ظهور العواقب السيئة لأعمال من سبقهم ، وطغيان الشر الذى وصل اليهم بما اقترفه سلفهم : (قل سيروا فى الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين) (١) ، وأن أبواب فضل الله لم تغلق دون طالب ، ورحمته التى وسعت كل شىء لن تضيق عن دائب ، عاب أرباب الأديان فى اقتفائهم أثر آبائهم ووقوفهم عند ما اختطته سير اسلافهم ، وقولهم : (بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا) (٢) ، (انا وجدنا آباءنا على أمة وانا على آثارهم مهتدون) (٣) .

فأطلق بهذا سلطان العقل من كل ما كان قيده ، وخلصه من كل تقليد كان اســـتعبده ، ورده الى مملكته يقضى

---

(١) الانعام : ١١ .
(٢) لقمان : ٢١ .
(٣) الزخرف : ٢٢ .

بحكمه وحكمته ، مع الخضـــوع مع ذلك الله وحده ، والوقوف عند شريعته ، ولا حد للعمل فى منطقة حدودها ، ولا نهاية للنظر يمتد تحت بنودها .

بهذا وما سبقه تم للانسان بمقتضى دينه امران عظيمان طالما حرم منهما وهما : اســتقلال الارادة ، واستقلال الرأى والفكر ، وبهما كملت له انسانيته ، واستعد الآن يبلغ من السعادة ما هياه الله له بحكم الفطرة التى فطر عليها ، وقد قال بعض حكماء الغربيين ، من متأخريهم : ان نشأة المدنية فى أوروبا انما قامت على هذين الأصلين ، فلم تنهض النفوس للعمل ولم تتحـــرك العقول للبحث والنظر الا بعد أن عرف العدد الكثير أنفسهم ، وان لهم حقا فى تصريف اختيارهم ، وفى طلب الحقائق بعقولهم ، ولم يصل اليهم هــذا النوع من العرفان الا فى الجيــل السادس عشر من ميلاد المسيح ، وقرر ذلك الحكيم : أنه شعاع سطع عليهم من آداب الاسلام ومعارف المحققين من أهله فى تلك الأزمان (١) .

رفع الاسلام بكتابه المنزل ما كان قــد وضعه رؤساء الأديان من الحجر على عقول المتدينين فى فهم الـكتب السماوية ، استئثارا من أولئك الرؤســـاء بحق الفهم لأنفسهم ، وضنا به على كل من لم يلبس لباسهم ، ولم يسلك مسلكهم لنيل تلك الرتبة المقدسة ، ففرضوا على العامة أو أباحوا لهم أن يقرءوا قطعا من تلك الـكتب ، لـكن على شريطة ان لا يفهموها ولا أن يطيلوا أنظارهم الى

---

(١) الاشارة هنا الى أثر التعاليم الاسلامية التى اقتبسها الغرب من الاندلس وبواسطة الاختلاط زمن الحروب الصليبية .. الخ فى حركة الاصلاح الدينى فى أوروبا . وسيأتى لنا تعليق خاص بهذا الامر فى الفصل الخاص بانتشار الاسلام من رسالة التوحيد هذه .

ما ترمى اليه ، ثم غالوا فى ذلك فحرموا نفسهم أيضا مزية الفهم الا قليلا ، ورموا عقولهم بالقصور عن ادراك ما جاء فى الشرائع والنبوات ، ووقفوا كما وقفوا بالناس عند تلاوة الألفاظ تعبد بالأصوات والحروف فذهبوا بحكمة الارسال ، فجاء القرآن يلبسهم عار ما فعلوا ، فقال : (ومنهم أميون لا يعلمون الكتاب الا أمانى وان هم الا يظنون) (١) ، (مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفارا ، بئس مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله ، والله لا يهدى القوم الظالمين) (٢) . أما الأمانى ففسرت بالقراءات والتلاوات ، أى لا يعلمون منه الا أن يتلوه ، واذا ظنوا أنهم على شىء مما دعا اليه فهو عن غير علم بما أودعه ، وبلا برهان على ما تخيلوه عقيدة وظنوه دينا ، واذا عن لأحدهم أن يبين شيئا من أحكامه ومقاصده ، لشهوة دفعته الى ذلك ، جاء فيما يقول بما ليس منه على بينة ، واعتسف فى التأويل ، وقال : هذا من عند الله (فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمنا قليلا) (٣) ، أما الذين قال : انهم لم يحملوا التوراة ، وهى بين أيديهم بعد ما حملوها ، فهم الذين لم يعرفوا منها الا الألفاظ ، ولم تسم عقولهم الى درك ما أودعته من الشرائع والأحكام ، فعميت عليهم بذلك طرق الاهتداء بها ، وطمست عن أعينهم أعلام الهداية التى نصبت بانزالها ، فحق عليهم ذلك المثل الذى أظهر شأنهم فيما لا يليق بنفس بشرية أن تظهر به ، مثل الحمار الذى يحمل الكتب ولا يستفيد من حملها الا العناء

---

(١) البقرة : ٧٨ .
(٢) الجمعة : ٥ .
(٣) البقرة : ٧٩ .

والتعب وقصم الظهور وانبهار النفس ، وما اشنع شأن قوم انقلبت بهم الحال ، فما كان سببا فى اسعادهم ، وهو التنزيل والشريعة ، أصبح سببا فى شــــقائهم بالجهل والغباوة .. وبهذا التقريع ونحوه . وبالدعوة العـامة الى الفهم وتمحيص الألباب للتفقه واليقين ، مما هو منتشر فى القرآن العزيز ، فرض الاسلام على كل ذى دين أن يأخذ بحظه من علم ما أودع الله فى كتبه ، وما قرر من شرعه ، وجعل الناس فى ذلك ســـواء بعد استيفاء الشرط باعداد ما لابد منه للفهم ، وهو سهل المنال على الجمهور الأعظم من المتدينين ، لا تختص به طبقـــة من الطبقات ولا يحتكر مزيته وقت من الأوقات .

***

اتفاق الأديان على التوحيد

جاء الاسلام والناس شيع فى الدين ، وان كانوا ، الا قليلا ، فى جانب عن اليقين ، يتنابذون ويتلاعنون ، ويزعمون فى ذلك أنهم بحبل الله مستمسكون ، فرقة وتخالف وشغب يظنونها فى سبيل الله أقوى سبب ، انــكر الاســلام ذلك كله ، وصرح تصريحا لا يحتمل الريبة بأن دين الله فى جميع الأزمان وعلى ألسن جميع الأنبياء واحد ، قال الله .

(إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسْلامُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلاَّ مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ[1]) ،

---

(١) آل عمران : ١٩ .

(مَا كانَ إبراهِيمُ يَهُودِيًا وَلا نَصْرانِيًّا وَلَكِن كانَ حَنيفًا مُسلِمًا وَمَا كانَ من المُشرِكِينَ[1]) ، (شَرَعَ لَكُمْ من الدِّين مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا ، والّذى أوحَيْنَا إلَيْكَ وَمَا وَصَّينا بِه إبرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسى أنْ أقِيمُوا الدِّين وَلا تَتَفَرقوا فِيهِ ، كَبُرَ على المُشرِكين مَا تدعُوهُمْ إليه)[2] ، (قُلْ يا أهْل الكِتاب تَعَالَوا الى كلمة سَوَاء بَيْنَنَا وَبَينكُمْ ألاّ نَعْبُدَ إلاّ الله وَلاَ نُشرك بِهِ شَيئًا وَلا يَتخِذَ بَعْضنا بَعْضًا أربابًا مَنْ دون الله فإنْ تَوَلَّوْا فقولُوا اشهَدُوا بأنَّا مُسْلمونَ)[3] ، وكثير من ذلك يطول إيراده فى هذه الوريقات .

والآيات الكريمة التى تعيب على أهل الدين ما نزعوا اليه من الاختلاف والمشاقة ، مع ظهور الحجة ، واستقامة المحجة لهم فى علم ما اختلفوا فيه معروفة لكل من قرأ القرآن وتلاه حق تلاوته . نص الكتاب على أن دين الله

(١) آل عمران : ٦٧ .
(٢) الشورى : ١٣ .
(٣) آل عمران : ٦٤ .

فى جميع الأزمان هو افراده بالربوبية ، والاستسلام له وحده بالعبودية ، وطاعته فيما أمر به ، ونهى عنه ، مما هو مصلحة البشر ، وعماد لسعادتهم فى الدنيا والآخرة ، وقد ضمنه كتبه التى انزلها على المصطفين من رسله ، ودعا العقول الى فهمه منها ، والعزائم الى العمل به ، وان هذا المعنى من الدين هو الأصل الذى يرجع اليه عند هبوب ريح التخـــالف ، وهو الميزان الذى توزن به الأقوال عند التناصف ، وان اللجاج والمراء فى الجدل فراق مع الدين ، وبعد عن سنته ، ومتى روعيت حكمته ولوحظ جانب العناية الالهية فى الأنعام على البشرية ، ذهب الخـــلاف وتراجعت القلوب الى هداها ، وسار الكافة فى مراشدهم اخـــوانا ، بالحق مستمسكين وعلى نصرته متعاونين .

***

اختلاف الأديان فى العبادات

اما صور العبادات ، وضروب الاحتفالات ، مما اختلفت فيه الأديان الصحيحة ســـابقها مع لاحقها ، واختلاف الأحكام متقدمها مع متأخرها ، فمصدره رحمة الله ورأفته فى ايتاء كل أمة وكل زمان ما علم فيه الخير للأمة والملاءمة للزمان ، وكما جرت سنته ــ وهو رب العالمين ــ بالتدريج فى تربية الأشخاص من خارج من بطن أمه لا يعلم شيئا ، الى راشد فى عقله ، كامل فى نشأته ، يمزق الحجب بفكره ، ويواصل أسرار الكون بنظره ، كذلك لم تختلف سنته ولم يضطرب هديه فى تربية الأمم ، فلم يكن من شأن الانسان ، فى جملته ونوعه ، أن يكون فى مرتبة واحدة من العلم وقبول الخطاب من يوم خلقه الله الى يوم

يبلغ من الكمال منتهاه ، بل سبق القضاء بأن يكون شأن جملته فى النمو قائما على ما قررته الفطرة الالهية فى شأن افراده ، وهــذا من البديهيات التى لا يصح الاختــلاف فيها ، وان اختلف أهل النظر فى بيان ما تفرع فى علوم وضعت للبحث فى الاجتماع البشرى خاصة ، فلا نطيل الـكلام فيه هنا .

***

تطــور الأديان

جاءت أديان والناس من فهم مصالحهم العامة ، بل والخاصة ، فى طور أشبه بطور الطفولية للناشىء الحديث العهد بالوجود ، لا يألف منه الا ما وقع تحت حسـه ، ويصعب عليه أن يضــع الميزان بين يومه وأمسه ، وأن يتأول بذهنه من المعانى ما لا يقرب من لمسه ، ولم ينفث فى روعه من الوجدان الباطن ما يعطفــه على غيره من عشيره أو ابن جنسـه ، فهو من الحرص على ما يقيم بناء شخصـه فى هم شاغل عما يلقى اليه فيما يصله بغيره ، اللهم الا يدا تصل الى فمه بطعام أو تسنده فى قعود أو قيام .

فلم يــكن من حكمة تلك الأديان أن تخاطب الناس بما يلطف فى الوجدان ، أو يرقى اليه بسلم البرهان ، بل كان من عظيم الرحمة أن تسير بالأقوام ــ وهم عيال الله ــ سير الوالد مع ولده فى سذاجة السن ، لا يأتيه الا من قبل ما يحســه بســمعه أو ببصره ، فأخــذتهم بالأوامر الصادعة ، والزواجر الرادعة ، وطالبتهم بالطـــاعة ،

وحملتهم فيها على مبلغ الاستطاعة (١) . كلفتهم بمعقول المعنى ، جلى الغاية ، وأن لم يفهموا معناه ، ولم تصل مداركهم الى مرماه ، وجاءتهم من الآيات بما تطرف له عيونهم ، وتنفعل به مشـــاعرهم ، وفرضت عليهم من العبادات ما يليق بحالهم هذه .

ثم مضت على ذلك أزمان ، علت فيها الأقوام وسفلت ، وارتفعت وانحطت ، وجربت وكسبت ، وتخـــالفت واتفقت ، وذاقت من الأيام آلاما ، وتقلبت فى السعادة والشقاء أياما وأياما ، ووجدت الأنفس بنفث (٢) الحوادث ولقن (٣) الكوارث شعورا أدق من الحس ، وأدخل فى الوجدان ، لا يرتفع فى الجملة عما تشـــعر به قــلوب النساء ، أو تذهب معه نزعات الغلمان ، فجاء دين يخاطب العـــواطف ، ويناجى المراحم ، ويستعطف الاهواء ، ويحادث خطرات القلوب ، فشرع للناس من شرائع الزهادة ما يصرفهم عن الدنيا بجملتهـــا ، ويوجه وجوههم نحو الملكوت الاعلى ، ويقتضى من صاحب الحق الا يطالب به ولو بحق ، ويغلق أبواب السماء فى وجوه الأغنيـــاء ، وما ينحو نحو ذلك مما هو معروف (٤) ، وسن للناس سننا فى عبادة الله تتفق مع ما كانوا عليه ، وما دعاهم اليه ، فلاقى من تعلق النفـــوس بدعوته ما أصلح من فاسدها ، وداوى من أمراضها ، ثم لم يمض عليه بضعة أجيال حتى ضعفت العـــزائم البشرية عن احتماله ، وضاقت الذرائع عن الوقوف عند حدوده والاخذ بأقواله ،

---

(١) الاشارة هنا الى الديانة الموسوية .
(٢) القاء الحوادث والهامها .
(٣) لقن الكوارث : كلامها المباشر ودلالاتها .
(٤) الاشارة هنا الى المسيحية .

ووقر فى الظنون ان اتباع وصاياه ضرب من المحال ، فهب القائمون عليه أنفسهم لمنافسة الملوك فى السلطان ، ومزاحمـــة أهل الترف فى جمع الأموال ، وانحرف الجمهور الأعظم منهم عن جادته بالتـــأويل ، وأضافوا عليه ما شاء الهوى من الأباطيل .

هذا كان شأنهم فى السجايا والأعمال ، نسوا طهارته، وباعوا نزاهته . اما فى العقائد فتفرقوا شيعا ، وأحدثوا بدعا ، ولم يستمسكوا من اصوله الا بما ظنوه من اشد أركانها ، وتوهموه من أقوى دعائمها ، وهو حرمان العقول من النظر فيه ، بل وفى غيره من دقائق الاكوان ، والخطر على الأفكار أن تنفذ الى شيء من سرائر الخلقة ، فصرحوا بأن لا وفاق بين الدين والعقل ، وان الدين من أشد أعداء العلم ، ولم يكف الذاهب الى ذلك أن يأخذ به نفسه ، بل جد فى حمل الناس على مذهبه بـكل ما يملك من حول وقوة ، وافضى الغلو فى ذلك بالأنفس الى نزعة كانت أشأم النزعات على العالم الانسانى ، وهى نزعة الحرب بين أهل الدين للالتزام ببعض قضـايا الدين ، فتقوض الأصل وتخرمت العلائق بين الأهل ، وحلت القطيعة محل التراحم ، والتخاصم مكان التعـــاون ، والحرب محل السلام ، وكان الناس على ذلك الى ان جاء الاسلام .

***

الاسلام

كان سن الاجتمـاع البشرى قد بلغ بالانسان أشـــده وأعدته الحوادث الماضية الى رشده ، فجاء الاســـلام يخاطب العقـــل ويستصرخ الفهم واللب ، ويشركه مع

العواطف والاحساس فى ارشاد الانسان الى سعادته الدنيوية والاخروية ، وبين للناس ما اختلفوا فيه ، وكشف لهم عن وجه ما اختصموا عليه ، وبرهن على أن دين الله فى جميع الأجيال واحد ، ومشيئته فى اصلاح شئونهم وتطهير قلوبهم واحدة ، وان رسم العبادة على الأشباح انما هو لتجديد الذكرى فى الأرواح ، وان الله لا ينظر الى الصور ولكن ينظر الى القلوب ، وطالب المكلف برعاية جسده كما طالبه باصلاح سره ، ففرض نظافة الظاهر كما أوجب طهارة الباطن ، وعد كلا الأمرين طهرا مطلوبا ، وجعل روح العبادة الاخلاص ، وأن ما فرض من الأعمال انما هو لما أوجب من التطبع بصالح الملكات (ان الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر) (١) ، (ان الانسان خلق هلوعا ، اذا مسه الشر جزوعا واذ مسه الخير منوعا ، الا المصلين) (٢) ، ورفع الغنى الشاكر الى مرتبة الفقير الصابر ، بل ربما فضله عليه ، وعامل الانسان فى مواعظه معاملة الناصح الهادى للرجل الرشيد ، فدعاه الى استعمال جميع قواه الظاهرة والباطنة ، وصرح بما لا يقبل التأويل أن فى ذلك رضا الله وشكر نعمته ، وان الدنيا مزرعة الآخرة ، ولا وصول الى خير العقبى الا بالسعى فى صلاح الدنيا .

التفت الى أهل العناد فقال لهم : (قل هاتوا برهانكم ان كنتم صادقين) (٣) . وعنف النازعين الى الخلاف والشقاق على ما زعزعوا من أصول اليقين ، ونص على ان

---

(١) العنكبوت : ٤٥ .
(٢) المعارج : ١٩ .
(٣) البقرة : ١١١ .

التفرق بغى وخروج عن سبيل الحق المبين ، ولم يقف في ذلك ،عند حد الموعظة بالكلام والنصيحة بالبيان ، بل شرع شريعة الوفاق ، وقررها في العمل ، فأباح للمسلم أن يتزوج من أهل الكتاب ، وسوغ مؤاكلتهم ، وأوصى أن تكون مجادلتهم بالتى هى أحسن ، ومن المعلوم ان المحاسنة هى رسول المحبة ، وعقد الالفة ، والمصاهرة انما تكون بعد التحاب بين أهل الزوجين ، والارتباط بينهما بروابط الائتلاف .

ثم أخذ العهد على المسلمين أن يدافعوا عمن يدخل فى ذمتهم من غيرهم كما يدفعون عن أنفسهم ، ونص على ان لهم ما لنا وعلينا ، ولم يفرض عليهم جزاء ذلك الا زهيدا يقدمونه من مالهم ، ونهى بعد ذلك عن كل اكراه فى الدين ، وطيب قلوب المؤمنين فى قوله (يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل اذا اهتديتم) (١) ، فعليهم الدعوة الى الخير بالتى هى أحسن ، وليس لهم ولا عليهم أن يستعملوا أى ضرب من ضروب القوة فى الحمل على الاسلام ، فان نوره جدير أن يخترق القلوب ، وليست الآيات فى الأمر بالمعروف بين المسلمين ، فانه لا اهتداء الا بعد القيام به ، ولو أريد ذلك لكان التعبير : « على كل واحد منكم بنفسه » لا (عليكم أنفسكم) ، كما هو ظاهر لكل عربى ، كل ذلك ليرشد الناس الى ان الله لم يشرع لهم الدين ليتفرقوا فيه ، ولكن ليهديهم الى الخير فى جميع نواحيه .

رفع الاسلام كل امتياز بين الأجناس البشرية ، وقرر لكل فطرة شرف النسبة الى الله فى الخلقة ، وشرف

---

(١) المائدة : ١٠٥ .

اندراجها فى النوع الانسانى بالجنس (١) والفصل (٢) والخاصة (٣) ، وشرف استعدادها بذلك لبلوغ أعلى درجات الكمال الذى أعده الله لنوعها ، على خلاف ما زعمه المنتحلون من الاختصاص بمزايا حرم منها غيرهم ، وتسجيل الخسة على أصناف زعموا أنها لن تبلغ من الشأن أن تلحق غبارهم ، فأماتوا الأرواح فى معظم الأمم وصيروا أكثر الشعوب هياكل واشباحا .

هذه عبادات الاسلام ، على ما فى الكتاب وصحيح السنة ، تتفق على ما يليق بجلال الله ، وسمو وجوده عن الأشياء ، وتلتئم مع المعروف عند العقول السليمة ..

فالصلاة : ركوع وسجود ، وحركة وسكون ، ودعاء وتضرع ، وتسبيح وتعظيم ، وكلها تصدر عن ذلك الشعور بالسلطان الالهى الذى يغمر القوة البشرية ، ويستغرق الحول ، فتخشع له القلوب ، وتستخذى له النفوس ، وليس فيها شىء يعلو على متناول العقل الا نحو تحديد عدد الركعات ، أو رمى الجمرات (٤) ، على انه مما يسهل التسليم فيه لحكمة العليم الخبير ، وليس فيه من ظاهر

---

(١) الجنس ، فى المنطق ، هو كل مقول على كثيرين مختلفين بالحقيقة فى جواب ماهو · أنظر (المعجم الفلسفى) ·

(٢) الفصل فى المنطق ، هو جملة الموضوعات التى تربط بينها صفات مشتركة ، ويطلق على جزء من الماهية يميز النوع ، كالناطق بالنسبة للانسان ، واذا ميز النوع عن مشاركيه فى الجنس القريب ، سمى « بالفصل القريب » واذا ميزه عن مشاركيه فى الجنس البعيد سمى «بالفصل البعيد» · أنظر المرجع السابق ·

(٣) هى الكلى الدال على نوع واحد فى جواب أى شىء هو ، لا بالذات ، بل بالعرض ·· وتطلق على ما ليس داخلا فى الماهية ولكنه يميز الشىء ، كما تطلق على ماهو ملازم للشىء على الدوام ، الخ · أنظر المرجع السابق ·

(٤) فى مناسك الحج ·

العبث واستحالة المعنى ما يخل بالأصول التى وضعها الله للعقل فى الفهم والتفكير .

أما الصوم : فحرمان يعظم به الله فى النفس ، وتعرف به مقادير النعم عند فقدها ، ومكانة الاحسان الالهى فى التفضل بها (كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون) (١) .

أما أعمال الحج فتذكير للانسان بأوليات حاجاته ، وتعهد له بتمثيل المساواة بين أفراده ، ولو فى العمر مرة ، يرتفع فيها الامتياز بين الغنى والفقير ، والصعلوك والأمير ، ويظهر الجميع فى معرض واحد عراة الأبدان ، متجردين عن آثار الصنعة ، وحدت بينهم العبودية لله رب العالمين ، كل ذلك مع استبقائهم فى الطواف والسعى والمواقف ولمس الحجر ذكرى ابراهيم عليه السلام ، وهو أبو الدين ، وهو الذى سماهم المسلمين ، واستقرار يقينهم على ان لا شيء من تلك البقايا الشريفة يضر أو ينفع ، وشعار هذا الاذعان الكريم فى كل عمل : « الله أكبر » .

أين هذا كله مما تجد فى عبادات أقوام آخرين ؟ يضل فيها العقل ، ويتعذر معها خلوص السر للتنزيه والتوحيد ؟! .

كشف الاسلام عن العقل غمة من الوهم فيما يعرض من حوادث الكون الكبير : « العالم » والكون الصغير « الانسان » فقرر أن آيات الله الكبرى فى صنع العالم انما يجرى أمرها على السنن الالهية التى قدرها الله فى علمه الأزلى ، لا يغيرها شيء من الطوارئ الجزئية ،

(١) البقرة : ١٨٣ .

غير أنه لا يجوز أن يغفل شأن الله فيها ، بل ينبغى أن يحيى ذكره عند رؤيتها ، فقد جاء على لسان النبى ، صلى الله عليه وسلم : « ان الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا يخسفان لموت أحد ولا لحياته ، فاذا رايتم ذلك فاذكروا الله » . وفيه التصريح بأن جميع آيات الكون تجرى على نظام واحد ، لا يقضى فيه الا العناية الأزلية على السنن التى أقامته عليها .

ثم أماط اللثام عن حال الانسان فى النعم التى يتمتع بها الأشخاص أو الأمم ، والمصائب التى يرزءون بها ، ففصل بين الأمرين فصلا لا مجال معه للخلط بينهما ، فأما النعم التى يمتع الله بها بعض الأشخاص فى هذه الحياة ، والرزايا التى يرزأ بها فى نفسه فكثير منها — كالثروة والجاه والقوة والبنين أو الفقر والضعة والضعف والفقد — قد لا يكون كاسبها أو جالبها ما عليه الشخص فى سيرته من استقامة وعوج ، أو طاعة وعصيان ، وكثيرا ما أمهل الله بعض الطغاة ، أو الفجرة الفسقة ، وترك لهم متاع الحياة الدنيا ، وكثيرا ما امتحن الله الصالحين من عباده ، وأثنى عليهم فى الاستسلام لحكمه، وهم الذين اذا أصابتهم مصيبة عبروا عن اخلاصهم فى التسليم بقولهم : « انا لله وانا اليه راجعون ؟ » (١) ، فلا غضب زيد ولا رضا عمرو ، ولا اخلاص سريرة ولا فساد عمل مما يكون له دخل فى هذه الرزايا ولا فى تلك النعم الخاصة ، اللهم الا فيما ارتباطه بالعمل ارتباط المسبب على جارى العادة ، كارتباط الفقر بالاسراف ، والذل بالجبن ، وضياع

---

(١) البقرة : ١٥٦ .

السلطان بالظلم وكارتباط الثروة بحسن التدبير في الأغلب ، والمكانة عند الناس بالسعى في مصالحهم على الأكثر ، وما يشبه ذلك مما هو مبين في علم آخر .

أما شأن الأمم فليس على ذلك ، فان الروح الذى أودعه الله جميع شرائعه الالهية ، من تصحيح الفكر ، وتسديد النظر ، وتأديب الأهواء ، وتحديد مطامح الشهوات ، والدخول الى كل أمر من بابه ، وطلب كل رغيبة من أسبابها ، وحفظ الأمانة ، واستشعار الأخوة ، والتعاون على البر ، والتناصح في الخير والشر ، وغير ذلك من أصول الفضائل ، ذلك الروح هو مصدر حياة الأمم ومشرق سعادتها في هذه الدنيا قبل الآخرة : (ومن يرد ثواب الدنيا نؤته منها) (١) ، ولن يسلب الله عنها نعمته ما دام هذا الروح فيها ، يزيد الله النعم بقوته ، وينقصها بضعفه ، حتى اذا فارقها ذهبت السعادة على أثره ، وتبعته الراحة الى مقره ، واستبدل الله عزة القوم بالذل ، وكثرهم بالقل ، ونعيمهم بالشقاء ، وراحتهم بالعناء ، وسلط عليهم الظالمين ، أو العادلين فأخذهم بهم وهم في غفلة ساهون : (واذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا) (٢) . أمرناهم بالحق ففسقوا عنه الى الباطل ، لا ينفعهم الأنين ولا يجديهم البكاء ، ولا يفيدهم ما بقى من صور الأعمال ، ولا يستجاب منهم الدعاء ، ولا كاشف لما نزل بهم الا أن يلجئوا الى ذلك الروح الأكرم فيستنزلوه من سماء الرحمة برسل الفكر والذكر

---

(١) آل عمران : ١٤٥ .

(٢) الاسراء : ١٦ .

والصبر والشكر (ان الله لا يغير ما بقــوم حتى يغيروا ما بأنفسهم) (١) ، (سنة الله فى الذين خلوا من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا (٢) . وما أجل ما قاله العباس بن عبد المطلب فى استسقائه : « اللهم انه لم ينزل بلاء الا بذنب ، ولم يرفع الا بتوبة » .

على هذه السنن جرى سلف الأمة ، فبينما كان المسلم يرفع روحه بهذه العقائد السامية ، ويأخذ نفسه بما يتبعها من الأعمال الجليلة ، كان غيره يظن انه يزلزل الأرض بدعائه ، ويشق الفلك ببكائه ، وهو ولع بأهوائه ، ماض فى غلوائه ، وما كان يغنى عنه ظنــــه من الحق شيئا .

التعليم

حث القرآن على التعليم ، وارشاد العامة ، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، فقال : (فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا فى الدين ولينذروا قومهم اذا رجعوا اليهم لعلهم يحذرون) (٣)،ثم فرض ذلك فى قوله: (ولتكن منكم أمة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون ، ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات وأولئك لهم عذاب عظيم ، يوم تبيض وجوه وتسود وجوه فأما الذين اسودت

---

(١) الرعد : ١١ .
(٢) الاحزاب : ٦٢ .
(٣) التوبة : ١٢٢ .

وجوههم أكفرتم بعد ايمانكم فذوقوا العـذاب بما كنتم تكفرون واما الذين ابيضت وجوههم ففى رحمة الله هم فيها خالدون ، تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق وما الله يريد ظلما للعالمين ، ولله ما فى السموات وما فى الأرض والى الله ترجع الأمور) (١) ، ثم بعد هذا الوعيد الذى يزعج المفرطين ، وتحق به كلمة العذاب على المختلفين والمقصرين ، ابرز حال الآمارين بالمعروف النهـائين عن المنكر فى اجل مظهر يمكن أن تظهر فيه حال امة ، فقال : (كنتم خير امة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله) (٢) ، فقدم ذلك الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر على الايمان ، فى هذه الآية ، مع ان الايمان هو الأصل الذى تقوم عليه أعمال البر ، والدوحة التى تتفرع عنها افنان الخير ، تشريفا لتلك الفريضة ، واعلاء لمنزلتها بين الفرائض ، بل تبنيها على انها حفاظ الايمان وملاك أمره ، ثم شد بالانكار على قوم أغفلوها ، وأهل دين أهملوها ، فقال (لعن الذين كفروا من بنى اسرائيل على لسان داود وعيسى بن مريم ، ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون ، كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون) (٣) فقذف عليهم اللعنة ، وهى أشد ما عنون الله به على مقته وغضبه .

---

(١) آل عمران : ١٠٤ ـ ١٠٩ .
(٢) آل عمران : ١١٠ .
(٣) المائدة : ٧٨ .

الزكاة

فرض الاسلام للفقـــراء فى أموال الأغنياء حقا معلوما يفيض به الآخرون على الأولين ، سدا لحاجة المعدم ، وتفريجا لـــكربه الغـــارم ، وتحـــريرا لرقـــاب المستعبدين ، وتيسيرا لأبناء السبيل ، ولم يحث على شيء حثه على الانفاق من الأموال فى سبيل الخير ، وكثيرا ما جعله عنوان الايمان ودليل الاهتـــداء الى الصراط المستقيم ، فاستل بذلك ضغائن اهل الفاقة ، ومحص (١) صدورهم من الأحقـــاد على من فضلهم الله عليهم فى الرزق ، وأشعر قلوب أولئك محبـــة هؤلاء ، وساق الرحمة فى نفوس هؤلاء على أولئك البائسين ، فاستقرت بذلك الطمأنينة فى نفوس الناس أجمعين ، وأى دواء لأمراض الاجتماع انجع من هذا ؟ (ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم) (٢) .

***

أغلق الاسلام بابى الشر ، وسد ينبوعى فساد العقل والمال بتحريمه الخمر والمقـــامرة والربا تحريما باتا لا هوادة فيه .

لم يدع الاسلام ، بعد ما قررنا ، أصلا من أصـــول الفضائل الا أتى عليه ، ولا أما من أمهات الصالحات الا أحياها ، ولا قاعدة من قواعد النظام الا قررها ، فاستجمع للانسان عند بلوغ رشده ــ كما ذكرنا ــ حرية الفكر ، واستقلال العقل فى النظر ، وما به صـــلاح السجايا وما فيه انهاض العزائم الى العمل وسوقها فى

(١) أى خلصها .
(٢) الحديد : ٢١ .

سبيل السعى . ومن يتلو القرآن حق تلاوته يجد فيه من ذلك كنزا لا ينفد وذخيرة لا تفنى .

هل بعد الرشد وصاية ؟ وبعد اكتمال العقل ولاية ؟؟ .. كلا .. قد تبين الرشـــد من الغى ، ولم يبق الا اتباع الهدى ، والانتفاع بما ساقته أيدى الرحمة لبلوغ الغاية من السعادتين ، لهـــذا ختمت النبوات بنبوة محمد صلى الله عليه وسلم ، وانتهت الرسالات برسالته ، كما صرح بذلك الكتاب ، وأيدته السنة الصحيحة ، وبرهنت عليه خيبة مدعيها من بعده (١) ، واطمئنان العالم بما وصل اليه من العلم الى أن لا سبيل بعد لقبول دعوة يزعم القائم بها انه يحدث عن الله بشرع ، أو يصدع عن وحيه بأمر ، هكذا يصدق نبأ الغيب : (ما كان محمد أبا أحد من رجالـكم ، ولكن رسول الله وخاتم النبيين وكان الله بكل شيء عليما) (٢) .

---

(١) الاشارة الى المتنبئين بعد الرسول صلى الله عليه وسلم ، واشهرهم مسيلمة الكذاب .

(٢) الاحزاب : ٤٠ .

انتشار الإسلام

بسرعة لم يعهد لها نظير فى التاريخ

كانت حاجة الأمم الى الاصلاح عامة ، فجعل الله رسالة خاتم النبيين عامة كذلك ، لكن يندهش عقل الناظر فى أحوال البشر عندما يرى ان هذا الدين يجمع اليه الأمة العربية من أدناها الى اقصاها فى أقل من ثلاثين سنة ، ثم يتناول من بقيـة الأمم ما بين المحيط الغربى وجدار الصين فى أقل من قرن واحد ، وهو أمر لم يعهد فى تاريخ الأديان ، ولذلك ضل الكثير فى بيان السبب ، واهتدى اليه المنصفون فبطل العجب .

ابتدأ هذا الدين بالدعوة ، كغيره من الأديان ، ولقى من أعداء انفسهم أشد ما يلقى حق من باطل ، أوذى الداعى ، صلى الله عليه وسلم ، بضروب الايذاء ، وأقيم فى وجهه ما كان يصعب تذليله من العقاب ، لولا عناية الله ، وعذب المستجيبون له ، وحرموا الرزق ، وطردوا من الدار ، وسفكت منهم دماء غزيرة ، غير أن تلك الدماء كانت عيون العزائم تتفجر من صخور الصبر ويثبت الله بمشهدها المستيقنين ، ويقـذف بها الرعب فى أنفس المرتابين ، فكانت تسيل لمنظرها نفوس أهل الريب وهى ذوب ما فسد من طباعهم فتجرى من مناحرهم جرى الدم الفاسد من المفصود على أيدى الأطبـاء الحـاذقين

(لِيَمِيزَ اللهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلَى بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعاً فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ)[1] .

تألبت الملل المختلفة ممن كان يسكن جزيرة العرب وما جاورها على الاسلام ، ليحصدوا نبتته ، ويخنقوا دعوته ، فما زال يدافع عن نفسه دفاع الضعيف للأقوياء ، والفقير للاغنياء ، ولا ناصر له الا انه الحق بين الأباطيل والرشد فى ظلمات الاضاليل ، حتى ظفر بالعزة ، وتعزز بالمتعة . وقد وطىء أرض الجزيرة أقوام من أديان أخر ، كانت تدعو اليها ، وكانت لهم ملوك وعزة وسلطان ، وحملوا الناس على عقائدهم بأنواع من المكاره ، ومع ذلك لم يبلغ بهم السعى نجاحا ، ولا أنالهم القهر فلاحا .

ضم الاسلام سكان القفار العربية الى وحدة لم يعرفها تاريخهم ، ولم يعهد لها نظير فى ماضيهم ، وكان النبى ، صلى الله عليه وسلم ، قد ابلغ رسالته ، بأمر ربه ، الى من جاور البلاد العربية من ملوك الفرس والرومان ، فهزءوا وامتنعوا ، وناصبوه وقومه الشر ، وأخافوا السابلة ، وضيقوا على المتاجر ، فبعث اليهم البعوث فى حياته ، وجرى على سنته الأئمة من صحابته ، طلبا للأمن وابلاغا للدعوة ، فاندفعوا فى ضعفهم وفقرهم يحملون الحق على أيديهم ، وانهالوا به على تلك الامم

(1) الانفال : ٣٧ .

فى قوتها ومنعتها ، وكثرة عددها ، واستكمال أهبهـا وعددها ، فظفروا منها بما هو معلوم .

وكانوا متى وضعت الحرب أوزارها ، واســتقر السلطان للفاتح عطفوا على المغـلوبين بالرفق واللين ، واباحوا لهم انبقاء على أديانهم ، واقامة شعائرها آمنين مطمئنين ، ونشروا حمايتهم عليهم ، يمنعونهم ما يمنعون منه أهلهم وأموالهم ، وفرضوا عليهم كفاء ذلك جزءا قليلا من مكاسبهم على شرائط معينة .

كانت الملوك من غير المسلمين اذا فتحوا مملكة اتبعوا جيشها الظافر بجيش من الدعاة الى دينها يلجون على الناس بيوتهم ويغشون مجـالسهم ليحملوهم على دين الظافر ، وبرهانهم الغلبة ، وحجتهم القوة ، ولم يقع ذلك لفاتح من المسلمين ، ولم يعهد فى تاريخ فتوح الاسلام ان كان له دعاة معروفون لهم وظيفة ممتازة ، يأخذون على أنفسهم العمل فى نشره ، ويقفون مسعاهم على بث عقائده بين غير المســلمين ، بل كان المسلمون يكتفون بمخالطة من عداهم ، ومحاسنتهم المعاملة ، وشهد العالم بأسره ان الاسلام كان يعد مجاملة المغلوبين فضلا واحسانا عندما كان يعدها الأوربيون ضعة وضعفا .

رفع الاسلام ما ثقل من الاتاوات (١) ، ورد الأموال المسلوبة الى أربابها ، وانتزع الحقوق من مغتصبيها ، ووضع المساواة فى الحق عند التقاضى بين المسلم وغير

(١) عند فتح العرب لمصر كان الفلاح المصرى يدفع للدولة البيزنطية أكثر من ثلاث عشرة ضريبة ، اختصرها العرب الى ضريبتين اثنتين ، معلومتى المقدار وميعاد السداد ، متناسبتين مع الوضع الاقتصادى الذى يعيش فيه . أنظر دراستنا عن (أرض مصر وفلاحها من الفتح العربى الى الاقطـاع الحربى) بكتابنا (نظرة جديدة الى التراث) طبعة بيروت سنة ١٩٧٤ م .

المسلم . بلغ أمر المسلمين فيما بعد ان لا يقبل الاسلام من داخل فيه الا بين يدى قاض شرعي باقرار من المسلم الجديد انه اسلم بلا اكراه ولا رغبة فى دنيا ، وصل الأمر فى عهد بعض الخلفاء الأمويين ان كره عمالهم دخول الناس فى دين الاسلام لما رأوا انه ينقص من مبالغ الجزية ، وكان فى حال أولئك العمال صد عن سبيل الدين لا محالة (١) . عرف لخلفاء المسلمين وملوكهم ، فى كل زمن ، ما لبعض أهل الكتاب ، بل وغيرهم من المهارة فى كثير من الأعمال ، فاستخدموهم وصعدوا بهم الى أعلى المناصب حتى كان منهم من تولى قيادة الجيش فى اسبانيا . اشتهرت حرية الاديان فى بلاد الاسلام حتى هجر اليهود اوروبا فرارا منها بدينهم الى بلاد الأندلس وغيرها .

هذا ما كان من أمر المسلمين فى معاملتهم لمن أظلوهم بسيوفهم ، لم يفعلوا شيئا سوى انهم حملوا الى أولئك الأقوام كتاب الله وشريعته ، وألقوا بذلك بين أيديهم ، وتركوا الخيار لهم فى القبول وعدمه ، ولم يقوموا بينهم بدعوة ، ولم يستعملوا لاكراههم عليه شيئا من القوة ، وما كان من الجزية لم يكن مما يثقل أداؤه على من ضربت عليه ، فما الذى أقبل بأهل الأديان المختلفة على الاسلام ، وأقنعهم أنه الحق ، دون ما كان لديهم ، حتى دخلوا فيه أفواجا ، وبذلوا فى خدمته ما لم يبذل له العرب أنفسهم ؟! .

---

(١) أنظر : فان فلوتن (السيادة العربية والشيعة والاسرائيليات فى عهد بنى أمية) ص ٥٢ وما بعدها . ترجمة د. حسن ابراهيم حسن ، محمد زكى ابراهيم . الطبعة الثانية ، القاهرة سنة ١٩٦٥ م .

ظهور الاسلام ، على ما كان فى جزيرة العرب من ضروب العبادات الوثنية ، وتغلبه على ما كان فيها من رذائل الأخلاق وقبائح الأعمال ، وسيره بسكانها على الجادة القويمة ، حقق لقراء الكتب الالهية السابقة ان ذلك هو وعد الله لنبيه ابراهيم واسماعيل ، وان هذا الدين هو ما كانت تبشر به الأنبياء اقوامها من بعدهما ، فلم يجد أهل النصفة منهم سبيلا الى البقاء على العناد فى مجاحدته ، فتلقوه شاكرين ، وتركوا ما كان لهم بين قومهم صابرين .

اوقع ذلك من الريب فى قلوب مقلديهم ما حركهم الى النظر فيه ، فوجدوا لطفا ورحمة ، وخيرا ونعمة ، لا عقيدة ينفر منها العقل ، وهو رائد الايمان الصادق ، ولا عمل تضعف عن احتماله الطبيعة البشرية ، وهى القاضية فى قبول المصالح والمرافق . رأوا ان الاسلام يرفع النفوس بشعور من اللاهوت يكاد يعلو بها عن العالم السفلى ، ويلحقها بالملكوت الأعلى ، ويدعوها الى احياء ذلك الشعور بخمس صلوات فى اليوم ، وهو مع ذلك لا يمنع من التمتع بالطيبات ، ولا يفرض من الرياضيات وضروب الزهادة ما يشق على الفطرة البشرية تجشمه ، ويعد برضا الله ونيل ثوابه حتى فى توفية البدن حقه ، متى حسنت النية وخلصت السريرة فاذا نزت شهوة أو غلب هوى كان الغفران الالهى ينتظره متى حسنت التوبة وكملت الأوبة . تبدت لهم سذاجة الدين عندما قرأوا القرآن ، ونظروا فى سيرة الظاهرين من حامليه اليهم ، وظهر لهم الفرق بين ما لا سبيل الى فهمه ، وما تكفى جولة نظر فى الوصول الى علمه ، فتراموا اليه خفافا من ثقل ما كانوا عليه . كانت الامم

تطلب عقلا فى دين ، فوافاها ، وتتطلع الى عدل فى ايمان ، فأتاها ، فما الذى يحجم بها عن المسارعة فى طلبتها والمبادرة الى رغبتها ؟؟ . كانت الشعوب تئن من ضروب الامتياز التى رفعت بعض الطبقات على بعض بغير حق ، وكان من حكمها ان لا يقام وزن لشئون الأدنين متى عرضت دونها شهوات الأعلين ، فجاء دين يحـــدد الحقوق ويسوى بين جميع الطبقات فى احترام النفس والدين والعرض والمال ويسوغ لامرأة فقيرة غير مسلمة ان تأبى بيع بيت صغير بأية قيمـــة لأمير عظيم مطلق السلطان فى قطر كبير ، وما كان يريده لنفسه ، ولكن ليوسع به مسجدا ، فلما عقد العزيمة على دفع أضعاف قيمته رفعت الشكوى الى الخليفة فورد أمره برد بيتها اليها مع لوم الأمير على ما كان منه (١) !! عدل يسمح ليهودى أن يخاصم مثل على بن ابى طالب أمام القاضى ، وهو من نعلم من هو ، ويستوقفه للتقاضى ، الى أن قضى الحق بينهما . هذا وما سبق بيانه مما جاء به الاسلام هو الذى حببه الى من كانوا أعداءه ، ورد اليه أهواءهم حتى صاروا أنصاره وأولياءه .

غلب على المسلمين فى كل زمن روح الاسلام ، فكان من خلقهم العطف على من جاورهم من غـيرهم ، ولم تستشعر قلوبهم عـداوة لمن خالفهم الا بعد أن يحرجهم الجار ، فهم كانوا يتعلمونها ممن سواهم ، ثم لا يكون الا طائفا يحل ثم يرتحل ، فاذا انقطعت أسباب الشغب تراجعت القلوب الى سابق ما ألفته من اللين والمباشرة .

ومع ذلك — بل وغفلة المسلمين عن الاسلام ، وخذلانهم

---

(١) الامير هو عمرو بن العاص ، والى مصر ، والمرأة قبطية مسيحية .

له ، وسعى الكثير منهم فى هدمه بعلم وبغير علم — لم يقف الاسلام فى انتشاره عند حد ، خصوصا فى الصين وفى أفريقيا ، ولم يخل زمن من رؤية جموع كثيرة من ملل مختلفة تنزع الى الأخذ بعقائده ، على بصيرة فيما تنزع اليه ، لا سيف وراءها ، ولا داعى أمامها ، وانما هو مجرد الاطلاع على ما أودعه ، مع قليل من حركة الفكر فى العلم بما شرعه .

ومن هذا تعلم أن سرعة الدين الاسلامى ، واقبال الناس على الاعتقاد به من كل ملة ، انما كان لسهولة تعقله ، ويسر أحكامه ، وعدالة شريعته ، وبالجملة ، لأن فطر البشر تطلب دينا ، وترتاد منه ما هو أمس بمصالحها ، وأقرب الى قلوبها ومشاعرها ، وأدعى الى الطمأنينة فى الدنيا والآخرة ، ودين هذا شأنه يجد الى القلوب منفذا ، والى العقول مخلصا ، بدون حاجة الى دعاة ينفقون الأموال الكثيرة والأوقاف الطويلة ويستكثرون من الوسائل ونصب الحبائل لاسقاط النفوس فيه . هذا كان حال الاسلام فى سذاجته الأولى وطهارته التى أنشأه الله عليها ، ولا يزال على جانب عظيم منها فى بعض أطراف الأرض الى اليوم .

***

قال من لم يفهم ما قدمناه ، ولم يرد أن يفهمه : ان الاسلام لم يطف على قلوب العالم بهذه السرعة الا بالسيف ، فقد فتح المسلمون ديار غيرهم والقرآن باحدى اليدين والسيف بالأخرى ، يعرضون القرآن على المغلوب ، فان لم يقبله فصل السيف بينه وبين حياته . سبحانك هذا بهتان عظيم !! . ما قدمناه من معاملة

المسلمين مع من دخلوا تحت سلطانهم هو ما تواترت به الأخبار تواترا صحيحا ، لا يقبل الريبة فى جملته ، وان وقع اختلاف فى تفصيله ، وانما شهر المسلمون سيوفهم دفاعا عن أنفسهم وكفا للعدوان عنهم ، ثم كان الافتتاح بعد ذلك من ضرورة الملك ، ولم يكن من المسلمين مع غيرهم الا انهم جاوروهم فكان الجوار طريق العلم بالاسلام ، وكانت الحاجة لصلاح العقل والعمل داعية الانتقال اليه .

لو كان السيف ينشر دينا فقد عمل فى الرقاب للاكراه على الدين والالزام به ، مهددا كل أمة لم تقبله بالابادة والمحو من سطح البسيطة ، ومع كثرة الجيوش ووفرة العدد وبلوغ القوة أسمى درجة كانت تمكن لها ، وابتدأ ذلك العمل قبل ظهور الاسلام بثلاثة قرون كاملة ، واستمر فى شدته بعد مجىء الاسلام سبعة أجيال أو يزيد ، فتلك عشرة قرون كاملة لم يبلغ فيها السيف من كسب عقائد البشر مبلغ الاسلام فى أقل من قرن ، هذا ولم يكن السيف وحده ، بل كان الحسام لا يتقدم خطوة الا والدعاة من خلفه يقولون ما يشاءون تحت حمايته ، مع غيرة تفيض من الأفئدة ، وفصاحة تتدفق من الألسنة ، وأموال تخلب ألباب المستضعفين . ان فى ذلك لآيات للمستيقنين .

جلت حكمة الله فى أمر هذا الدين . سلسبيل حياة نبع فى القفار العربية ، أبعد بلاد الله عن المدنية ، فاض حتى شملها ، فأحياها حياة شعبية ملية ، علا مده حتى استغرق ممالك كانت تفاخر أهل السماء فى رفعتها ، وتعلو أهل الأرض بمدنيتها ، زلزل هديره — على لينه —

بما كان استحجر من الأرواح فانشقت عن مكنون سر الحياة فيها .

قالوا : كان لا يخلو من غلب (بالتحريك) . قلنا : تلك سنة الله في الخلق ، لا تزال المصارعة بين الحق والباطل ، والرشد والغى قائمة في هذا العالم الى ان يقضى الله قضاءه فيه . اذا ساق الله ربيعا الى أرض جدبة ، ليحيى ميتها وينقع غلتها وينمى الخصب فيها ، أفينقص من قدره ان أتى في طريقه على عقبة فعلاها ، أو بيت رفيع العماد فهوى به ؟؟ .

سطع الاسلام على الديار التى بلغها أهله ، فلم يكن بين أهل تلك الديار وبينه الا أن يسمعوا كلام الله ويفقهوه ، اشتغل المسلمون بعضهم ببعض زمنا ، وانحرفوا عن طريق الدين أزمانا فوقف وقفة القائد خذله الأنصار ، وكاد يتزحزح الى ما وراء ، لكن الله بالغ أمره ، فانحدرت الى ديار المسلمين امم من التتار يقودها « جنكيز خان » ، وفعلوا بالمسلمين الأفاعيل (١)، وكانوا وثنيين جاءوا لمحض الغلبة والسلب والنهب ، ولم يلبث أعقابهم ان اتخذوا الاسلام دينا وحملوه الى اقوامهم ، فعمهم منه ما عم غيرهم ، جاوءا لشقوتهم فجاءوا بسعادتهم .

حمل الغرب على الشرق حملة واحدة ، لم يبق ملك من ملوكه ولا شعب من شعوبه الا اشترك فيها ، واستمرت المجالدات بين الغربيين والشرقيين أكثر من

(١) كان ذلك منتصف القرن الثالث عشر الميلادى .

مائتى سنة (١) ، جمع فيها للغربيين من الغيرة والحمية للدين ما لم يسبق لهم من قبل، وجيشوا من الجند وأعدوا من القوة ما بلغته طاقتهم ، وزحفوا على ديار المسلمين ، وكانت فيهم بقية من روح الدين ، فغلب الغربيون على كثير من البلاد الاسلامية ، وانتهت تلك الحروب الجارفة باجلائهم عنها ، لم جاءوا ؟ وبماذا رجعوا ؟؟ .

ظفر رؤساء الدين فى الغرب باثارة شعوبهم ليبيدوا ما يشاءون من سكان الشرق ، او يستولى سلطان تلك الشعوب على ما يعتقدون لانفسهم الحق فى الاستيلاء عليه من البلاد الاسلامية . جاء من الملوك والأمراء وذوى الثروة والأعلياء جم غفير ، وجاء ممن دونهم من الطبقات ما قدروه بالملايين ، استقر المقام بكثير من هؤلاء فى ارض المسلمين ، وكانت فترات تنطفىء فيها نار الغضب وتثوب العقول الى سكينتها ، تنظر فى أحوال المجاورين ، وتلتقط من أفكار المخالطين وتنفعل بما ترى وما تسمع ، فتبينت ان المبالغات التى أطاشت الأحلام وجسمت الآلام لم تصب مستقر الحقيقة ، ثم وجدت حرية فى دين ، وعلما وشرعا وصنعة ، مع كمال فى يقين ، وتعلمت ان حرية الفكر وسعة العلم من وسائل الايمان لا من العوادى عليه ، ثم جمعت من الأدب ما شاء الله وانطلقت الى بلادها قريرة العين بما غنمته من جلادها . هذا ما كسبه السفار من أطراف الممالك الى بلاد الاندلس

(١) فى الحروب الشهيرة بالحروب الصليبية (١٠٩٦ ـ ١١٩٢ م) .

بمخالطة حكمائها وأدبائها ثم عادوا به الى شـــــعوبهم ليذيقوهم حلاوة ما كسبوا ، وأخذت الأفكار فى ذلك العهد تتراسل ، والرغبة فى العلم تتزايد بين الغربيين ، ونهضت الهمم لقطع سلاسل التقليد ، ونزعت العزائم الى تقييد سلطان زعماء الدين والأخذ على أيديهم فيما تجاوزوا فيه وصاياه ، وحرفوا فى معناه ، ولم يكن بعد ذلك الا قليل من الزمن حتى ظهرت طائفة منهم تدعو الى الاصلاح والرجوع بالدين الى سذاجته ، جاءت فى اصلاحها بما لا يبعد عن الاسلام الا قليلا ، بل ذهب بعض طوائف الاصلاح فى العقائد الى ما يتفق مع عقيدة الاسلام الا فى التصديق برسالة محمد صلى الله عليه وسلم ، وان ما هم عليه انما هو دينه، يختلف عنه اسما ولا يختلف معنى ، الا فى صورة العبادة لا غير .

ثم أخذت أمم أوروبا تفتك من أسرها ، وتصلح من شئونها ، حتى استقامت أمور دنياها على مثل ما دعا اليه الاسلام ، غافلة عن قائدها ، لاهية عن مرشدها ، وتقررت أصول المدنية الحاضرة التى تفاخر بها الأجيال المتأخرة من سبقها من أهل الأزمان الغابرة . هذا طل من وابله أصاب أرضا قابلة فاهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج .

جاء القوم ليبيدوا فاستفادوا ، وعادوا ليفيدوا ، ظن الرؤساء أن فى اهاجة شعوبهم شفاء ضغنهم ، وتقوية ركنهم ، فباءوا بوضوح شأنهم ، وضعضعة سـلطانهم وما بيناه فى شأن الاسلام ، ويعرفه كل من تفقه فيه ،

قد ظفر به كثير من أهل النظر فى بلاد الغرب فعرفوا له حقه واعترفوا انه كان أكبر أساتذتهم فيما هم فيه اليوم . والى الله عاقبة الأمور (١) .

---

(١) فى الفصل الخاص بالقرآن أشرنا الى تبنى الامام لرأى ذلك الحكيم الغربى الذى أرجع الاصلاح الدينى فى أوربا المسيحية الى تعاليم الاسـلام المقتبسة من أهله .. وهنا يعود الاستاذ الامام للحديث عن هذا الامر مشيرا الى « الاداب التى جمعها الصليبيون المحاربون فى المشرق ، والمكاسب العلمية التى اكتسبها « سفراء » أوربا من الاندلس ، وثمرة كل ذلك التى تجسدت فى حركة الاصـلاح الدينى المسـيحية ، وكيف جاء المذهب الجـديد ـ البروتستانتية ـ قاب قوسين أو أدنى من الاسلام .. وللمرحوم الاستاذ أمين الخولى بحث نفيس فى هذا المقام عنوانه «صلة الاسلام باصلاح المسيحية» « سنة ١٩٣٥ م » قدم فيه دراسة علمية تثبت بالادلة والبراهين ما أشار اليه في اجمال هنا الاستاذ الامام .

ومما تجدر الاشارة اليه أن الاستاذ الخولى قد عاب فى نهاية بحثه على الشيخ رشيد رضا وضعه فى الطبعة السابعة منرسالة التوحيد سنة ١٣٥٣ هـ سنة ١٩٣٤ م وضعه لهذه الفقرة عنوانا فرعيا هو « اقتباس الاصلاح الدينى فى أوربا من الاسلام » بحجة أن كلام الاستاذ الامام لا يشير الى الاقتباس ، ولكننا نرى ان نص الاستاذ الامام يشهد بسبقه « بالاشارة » الى ما أبدع فى دراسته بعد ذلك الاستاذ الخولى عليهم جميعا رحمة الله .

إيراد سهل الإيراد

يقول قائلون : اذا كان الاسلام انمـــا جاء لدعوة المختلفين الى الاتفاق ، وقال كتابه : (ان الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا لست منهم فى شىء) (١) ، فما بال الملة الاسلامية قد مزقتها المشارب ، وفرقت بين طوائفها المذاهب ؟؟ .

اذا كان الاسلام موحدا فما بال المسلمين عددوا ؟ اذا كان موليا وجه العبد وجهـــة الذى خلق السماوات والأرض ، فما بال جمهورهم يولون وجوههم من لا يملك لنفسه نفعـــا ولا ضرا ولا يستطيع من دون الله خيرا ولا شرا ؟ ، وكادوا يعـــدون ذلك فصلا من فصول التوحيد ؟! . اذا كان أول دين خاطب العقل ، ودعاه الى النظر فى الأكوان ، وأطلق له العنـــان يجول فى ضمائرها بما يسعه الامكان ، ولم يشرط عليه فى ذلك سوى المحافظة على عقد الايمـــان ، فما بالهم قنعوا باليسير ، وكثير منهم أغلق على نفسه باب العلم ظنا منه أنه قد يرضى الله بالجهل واغفال النظر فيما ابدع من

---

(١) الانعام : ١٥٩ .

محكم الصنع ؟! . ما بالهم وقد كانوا رسل المحبة اصبحوا اليوم وهم يتنسمونها ولا يجدونها ؟ . ما بالهم بعد ان كانوا قدوة فى الجد والعمل ، أصبحوا مثلا فى القعود والكسل ؟ . ما هذا الذى ألحق المسلمون بدينهم ، وكتاب الله بينهم يقيم ميزان القسط بين ما ابتدعوا وبين ما دعاهم اليه فتركوه ؟! .

اذا كان الاسلام فى قربة من العقول والقلوب ، على ما بينت فما باله اليوم ــ على راى القوم ــ تقصر دون الوصول اليه يد المتناول ؟ ، اذا كان الاسلام يدعو الى البصيرة فيه ، فمال بال قراء القرآن لا يقرءونه الا تغنيا ، ورجال العلم بالدين لا يعرفه أغلبهم الا تظنيا .

اذا كان الاسلام منح العقل والارادة شرف الاستقلال، فما بالهم شدوهما الى اغلال ، أى اغلال ؟! ، اذا كان قد أقام قواعد العدل ، فما بال أغلب حكامهم يضرب به المثل فى الظلم ؟ ، اذا كان الدين فى تشوف الى حرية الأرقاء ، فما بالهم قضوا قرونا فى استعباد الاحرار ؟ ، اذا كان الاسلام يعد من أركانه حفظ العهود والصدق والوفاء ، فما بالهم قد فاض بينهم الغدر والكذب والزور والافتراء ؟! ، اذا كان الاسلام يحظر الغيلة ويحرم الخديعة ويوعد على الغش بأن الغاش ليس من أهله ، فما بالهم يحتالون حتى على الله وشرعه وأوليائه ؟، اذ كان قد حرم الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، فما هذا الذى نراه بينهم فى السر والعلن والنفس والبدن ؟ ، اذا كان قد صرح بأن الدين النصيحة لله ولرسوله وللمؤمنين ، خاصتهم وعامتهم ، و (ان الانسان لفى خسر الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصوا بالحق

وتواصوا بالصبر) (١) ، وانهم ان لم يأمروا بالمعروف وينهوا عن المنكر سلط عليهم شرارهم ، فيدعوا خيارهم فلا يستجاب لهم ، وشدد فى ذلك بما لم يشدد فى غيره ، فما بالهم لا يتناصحون ولا يتواصون بحق ، ولا يعتصمون بصبر ، ولا يتناصحون فى خير ولا شر ، بل ترك كل صاحبه والقى حبله على غاربه ، فعاشوا أفذاذا (٢) ، وصاروا فى أعمالهم افرادا ، لا يحس أحدهم بما كان من عمل أخيه كأن ليس منه ، وكأن لم تجمعه معه صلة ، ولم تضمه اليه وشيجة ؟! ما بال الابناء يقتلون الآباء ؟ ، وما بال البنات يعققن الأمهات ؟ أين وشائج الرحمة ؟ ، أين عاطفة الرحم على القريب ؟؟ ، أين الحق الذى فرض فى أموال الأغنياء للفقراء وقد أصبح الأغنياء يسلبون ما بقى فى أيدى أهل البأساء ؟! ..

قبس من الاسلام أضاء الغرب ، كما تقول ، وضوءه الأعظم وشمسه الكبرى فى الشرق ، وأهله فى ظلمات لا يبصرون .. أصح هذا فى عقل ، أو عهد فى نقل ؟! الم تر الى الذين تذوقوا من العلم شيئا ، وهم من أهل هذا الدين ، أول ما يعلق بأوهام أكثرهم ان عقائده خرافات ، وقواعده وأحكامه ترهات ، ويجدون لذتهم فى التشبه بالمستهزئين ممن سموا انفسهم أحرار الأفكار وبعداء الأنظار ؟ والى الذين قصروا هممهم على تصفح أوراق من كتبه ، ووسموا انفسهم بأنهم حفاظ أحكامه والقوام على شرائعه ، كيف يجافون علوم النظر ويهزءون بها ، ويرون العمل فيها عبثا فى الدين والدنيا ، ويفتخر

---

(١) العصر : ٢ ، ٣ .
(٢) افرادا متفرقين فى الفردية ، ضد التضامن والجماعية .

الكثير منهم بجهلها ، كأنه فى ذلك قد هجر منكرا ، أو ترفع عن دنيئة ؟! .

فمن وقف على باب العلم من المسلمين تجد دينه كالثوب الخلق ، يستحى أن يظهر به بين الناس ، ومن غرته نفسه بأنه على شيء من الدين ، وانه مستمسك بعقائده يرى العقل جنة (١) والعلم ظنة !! ليس فى هذا ما يشهد الله وملائكته والناس على ان لا وفاق بين العلم والعقل وهذا الدين ؟؟ !! .

***

الجواب

ربما لم يبالغ الواصف لما عليه المسلمون اليوم ، بل من عدة أجيال ، وربما كان ما جاء فى الايراد قليلا من كثير ، وقد وصف الشيخ الغزالى ، رحمه الله ، وابن الحاج ، وغيرهما من أهل البصر فى الدين ما كان عليه مسلمو زمانهم ، عامتهم وخاصتهم ، بما حوته مجلدات ، ولكن قد أتيت فى خاصة الدين الاسلامى بما يكفى للاعتراف به مجرد تلاوة القرآن ، مع التدقيق فى فهم معانيه ، وحملها على ما فهمه أولئك الذين أنزل فيهم وعمل به بينهم ، ويكفى فى الاعتراف بما ذكرته من جميل أثره قراءة ورقات فى التاريخ على ما كتبه محققو ومصنفو سائر الأمم ، فذلك هو الاسلام .

وقد أسلفنا ان الدين هدى وعقل ، من أحسن فى استعماله والأخذ بما أرشد اليه نال من السعادة ما وعد

---

(١) الجنة ، بكسر الجيم وتشديد النون المفتوحة : من معانيها : الجنون ، وهو المراد هنا .

الله أتباعه . وقد جرب علاج الاجتماع الانسانى بهـذا الدواء ، فظهر نجاحه ظهـــورا لا يستطيع معه الأعمى انكارا ، والأصم اعراضا . وغاية ما قيل فى الايراد : ان أعطى الطبيب الى المريض دواء ، فصح المريض ، وانقلب الطبيب بالمرض الذى كان يعمل لمعالجته ، وهو يتجرع الغصص من آلامه والدواء فى بيته وهو لا يتناوله ، وكثير ممن يعودونه أو يتشفون منه ويشمتون لمصيبته يتناولون من ذلك الدواء فيعافون من مثل مرضه ، وهو فى يأس من حياته ، ينتظر الموت ، أو تبدل سنة الله فى شفاء أمثاله .

كلامنا اليوم فى الدين الاسلامى وحاله على ما بينا ، أما المسلمون ، وقد أصبحوا بسيرهم حجة على دينهم فلا كلام لنا فيهم الآن ، وسيكون الـكلام عنهم فى كتاب آخر (١) ان شاء الله .

---

(١) تعد كتابات الاستاذ الامام التى تتناول علاقة الاســلام بالحضـارة ووضع المسلمين ازاءها وفاء بوعده هذا ، وهى مقالات وأبحاث جمعناها فى « أعماله الكاملة » . أما فى حياته فلم يخرج كتابا متكاملا فى هذا الموضوع

التصديق بما جاء به
محمد "صلى الله عليه وسلم"

بعد أن ثبتت نبوته ، عليه السلام ، بالدليل القاطع ، على ما بينا ، وأنه انما يخبر عن الله تعالى ، فلا ريب انه يجب تصديق خبره ، والايمان بما جاء به ، ونعنى بما جاء به ما صرح به فى الكتاب العزيز ، وما تواتر الخبر به تواترا صحيحا مستوفيا لشرائطه ، وهو : « ما أخبر به جماعة يستحيل تواطؤهم على الكذب عادة فى أمر محسوس » .

ومن ذلك أحوال ما بعد الموت ، من بعث ، ونعيم فى جنة وعذاب فى نار ، وحساب على حسنات وسيئات ، وغير ذلك مما هو معروف . ويجب أن يقتصر فى الاعتقاد على ما هو صريح فى الخبر ، ولا تجوز الزيادة على ما هو قطعى بظنى . وشرط صحة الاعتقاد ان لا يكون فيه شىء يمس التنزيه وعلو المقام الالهى عن مشابهة المخلوقين ، فان ورد ما يوهم ظاهره ذلك فى المتواتر وجب صرفه عن الظاهر ، اما بتسليم الله فى العلم بمعناه ، من اعتقاد أن الظاهر غير مراد ، أو بتأويل تقوم عليه القرائن المقبولة .

أما أخبار الآحاد فانه يجب الايمان بما ورد فيها على من بلغته وصدق بصحة روايتها ، أما من لم يبلغه الخبر ،

أو بآله وعرضت له شبهة فى صحته ، وهو ليس من المتواتر ، فلا يطعن فى ايمانه عدم التصديق به . والأصل فى جميع ذلك : ان من انكر شيئا وهو يعلم ان النبى ، صلى الله عليه وسلم ، حدث به ، أو قرره فقد طعن فى صدق الرسالة وكذب بها ، ويلحق به من اهمل فى العلم بما تواتر وعلم أنه من الدين بالضرورة ، وهو ما فى الكتاب وقليل من السنة فى العمل .

من اعتقد بالكتاب العزيز ، وبما فيه من الشرائع العملية ، وعسر عليه فهم اخبار الغيب على ما هى فى ظاهر القول ، وذهب بعقله الى تأويلها بحقائق يقوم له الدليل عليها ، مع الاعتقاد بحياة بعد الموت ، وثواب وعقاب على الأعمال والعقائد ، بحيث لا ينقص تأويله شيئا من قيمة الوعد والوعيد ، ولا ينقص شيئا من بناء الشريعة فى التكليف ، كان مؤمنا حقا (١) ، وان كان لا يصح اتخاذه قدوة فى تأويله ، فان الشرائع الالهية قد نظر فيها الى ما تبلغه طاقة العامة لا الى ما تشتهيه عقول الخاصة . والأصل فى ذلك ان الايمان هو اليقين فى الاعتقاد بالله ورسله واليوم الآخر بلا قيد فى ذلك الا احترام ما جاء على ألسنة الرسل .

---

(١) هذه المسألة من المسائل التى أثارت جدلا قديما بين المفكرين ، فالغزالى مثلا ، يرى تكفير من ينكر الاوصاف الحسية لما بعد الموت وللمعاد بوجه خاص ، بما فى ذلك حشر الاجساد والعقوبات الحسية . بينما يرى ابن رشد أن هذه الاوصاف الحسية « تمثيل » يهدف الى الاقناع للجمهور ، لان « تمثيل المعاد لهم بالامور الجسمانية أفضل من تمثيله بالامور الروحانية » .. والاستاذ الامام هنا يميل الى رأى ابن رشد فى هذا الموضوع . أنظر (فيصل التفرقة بين الاسلام والزندقة) للغزالى ص ٤ طبعة القاهرة سنة ١٩٠٧ م و (تهافت التهافت) لابن رشد ص ١٣٤ طبعة القاهرة سنة ١٩٠٣ م

بقيت علينا مسئلتان ، وضعتا من هذا العلم فى مكان من الاهتمام ، وما هما منه الا حيث يكون غيرهما مما اجملنا القول فيه :

الاولى : جواز رؤية الله تعالى فى الآخرة .

والأخرى : جواز وقوع الكرامات وخوارق العادات ، من غير الأنبياء ، من الأولياء والصديقين .

رؤية الله

أما الأولى ، فقد اشتد فيها النزاع ثم انتهى الى وفاق بين المنزهين لا مجال معه للتنازع ، فان القائلين بجواز الرؤية من هل التنزيه متفقون على ان الرؤية لا تكون على المعهود من رؤية البصر المعروفة لنا فى مجرى العادة ، بل هى رؤية لا كيف فيها ولا تحديد ، ومثلها لا يكون الا ببصر يختص الله به أهل الدار الآخرة أو تتغير فيه خاصته المعهودة فى الحياة الدنيا ، وهو ما لا يمكننا معرفته ، وان كنا نصدق بوقـــوعه متى صح الخبر ، والمنكرون لجوازها لم ينكروا انكشافا يساويها ، فسواء كان ذلك بالبصر الغير المعهود أو بحاسة أخرى فهو فى المعنى يرجع الى قول خصومهم (١) . ولكن منى الاسلام بقوم يحبون الخلاف ، والله فوق ما يظنون .

الكرامات

أما الثانية ، فانكر جواز وقوع الكرامات ابو اسحاق الاسفراييني ، من أكابر أصحاب أبى الحسن الاشعرى ،

---

(١) انظر فى راى المعتزلة حول هذه القضية بحثنا (المعتزلة ومشكلة الحرية الانسانية) ص ٥٥ ـ ٥٧ . (ومنه نعلم ان هذا اللقاء بين الفريقين الذى يتحدث عنه الاستاذ الامام لم يحدث ، ويصعب أن يحدث) .

وعلى ذلك المعتزلة الا أبا الحسين البصرى (١) فقال بجواز وقوعها ، وعليه جمهور الأشاعرة .

واستدل الذاهبون الى الجواز بما جاء فى الكتاب من قصة الذى عنده علم الكتاب الواردة فى خبر بلقيس ، من احضاره عرشها قبل ارتداد الطرف (٢) ، وقصة مريم عليها السلام ، وحضور الرزق عندها (٣) ، وقصة أصحاب الكهف (٤) .

واحتج الآخرون بأن ذلك يوقع الشبهة فى المعجزات، واولوا ما جاء فى الآيات .

اما ان ذلك يوقع الشبهة فى المعجزات فليس بصحيح ، لأن المعجزات انما تظهر مقرونة بدعوى الرسالة والتبليغ عن الله تعالى ، ولابد أن تكتنفها حوادث تميزها عما سواها ، وأما ما احتج به المجوزون من الآيات فلا دليل فيه ، لأن ما فى قصة مريم وآصف (٥) قد يكون بتخصيص من الله تعالى ، لوقوعه فى عهد الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، ولا علم لنا بما اكتنف تلك الوقائع من شئون الله فى أنبياء ذلك العهد الا قليلا ، وأما قصة أهل الكهف فقد عدها الله من آياته فى خلقه ، وذكرنا بها

---

(١) هو عبدالله الحسين بن على البصرى « ٣٥٨ – ٣٩٩ هـ » كان تلميذا لابى هاشم عبد السلام بن محمد الجبائى ، وهو معدود فى الطبقة العاشرة من طبقات المعتزلة . أنظر المنية والامل ص ٦٢ – ٦٦ .

(٢) الاشارة الى قوله تعالى « قال الذى عنده علم من الكتاب أنا آتيك به قبل أن يرتد اليك طرفك) الاية « النمل : ٤ » .

(٣) الاشارة الى قوله تعالى (كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقا ، قال يامريم أنى لك هذا قالت هو من عند الله ، ان الله يرزق من يشاء بغير حساب) . « آل عمران : ٣٧ » .

(٤) الاشارة الى قصة أصحاب الكهف ونومهم الطويل ثم يقظتهم . أنظر سورة الكهف (الآيات ٩ وما بعدها) .

(٥) أى زكريا .

لنعتبر بمظاهر قدرته ، فليست من قبيل ما الكلام فيه من عموم الجواز .

فبقى البحث فى جواز وقوع الكرامات نوعا من البحث فى متناول همم النفوس البشرية وعلاقتها بالكون الكبير ، وفى مكان الأعمال الصالحة ، وارتقاء النفوس فى مقامات الكمال من العناية الالهية ، وهو بحث دقيق قد يختص بعلم آخر (١) .

أما مجرد الجواز العقلى ، وان صدور خارق للعادة على يد غير نبى مما تتناوله القدرة الالهية ، فلا ظن انه موضع نزاع يختلف عليه العقلاء ، وانما الذى يجب الالتفات اليه هو أن أهل السنة وغيرهم فى اتفاق على انه لا يجب الاعتقاد بوقوع كرامة معينة على يد ولى لله معين بعد ظهور الاسلام فيجوز لكل مسلم ، باجماع الأمة ، أن ينكر صدور اى كرامة كانت من اى ولى كان ، ولا يكون بانكاره هذا مخالفا لشيء من أصول الدين ، ولا مائلا عن سنة صحيحة ، ولا منحرفا عن الصراط المستقيم .

أين هذا الأصل المجمع عليه مما يهذى به جمهور المسلمين فى هذه الأيام ؟ حيث يظنون أن الكرامات وخوارق العادات أصبحت من ضروب الصناعات يتنافس فيها الأولياء وتتفاخر فيها همم الأصفياء ؟؟! .. وهو مما يبرأ منه الله ودينه وأولياؤه واهل العلم اجمعون .

(١) هو التصوف .

خاتمة

بسم الله الرحمن الرحيم

(وَعدَ اللهُ الذينَ آمَنوا مِنكُم وَعمِلوا الصَّالِحاتِ لَيَستَخلِفَنَّهُمْ في الأرض كما استَخلَفَ الذينَ مِنْ قَبلِهِمْ ، وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهمْ الذي ارتَضى لَهمْ ، وَليُبدِّلَنَّهمْ مِنْ بَعدِ خَوفِهِم أمْناً ، يَعبُدُونَني لا يُشرِكونَ بي شَيئاً وَمَنْ كَفرَ بَعدَ ذَلكَ فأُولئِكَ هُمُ الفَاسِقُونَ)[1] .

وقد فسّر الكفرُ في هذه الآية بكفر النعمة (وَأَنَّا لمَّا سَمِعنَا الهُدَى آمنّا بِهِ ، فَمنْ يُؤمِنْ بِربِّه فلاَ يَخافُ بَخساً وَلا رَهقاً وَأنّا مِنا المُسلِمُونَ وَمِنَّا القَاسِطُونَ فَمنْ أسلَمَ

---

1 ـ النور : ٥٥ .

فأولئكَ تحرَّوا رَشداً ، وأمّا القاسِطون فكانوا لجهنّمَ
حَطباً ، وألَّو استقاموا عَلَى الطَّريقةِ لأسقيناهمْ ماءً غدقاً
لِنفتنهمْ فِيهِ وَمَنْ يُعرِضْ عَنْ ذِكرِ رَبِّهِ يَسلكهُ عَذاباً
صَعَداً ، وأنَّ المساجِدَ للهِ فلا تدعوا مَعَ اللهِ أحَداً ، وأنهُ
لمّا قامَ عَبدُ اللهِ يَدعوهُ كادُوا يَكونونَ عليهِ لِبَداً ، قُلْ
إنَّما أدعُو رَبّي وَلا أشرِكُ بهِ أحَداً ، قُلْ إنّي لا أملِكُ لَكُمْ
ضَرّاً وَلا رَشداً ، قُلْ إني لن يُجيرَني مِنَ اللهِ أحدٌ وَلنْ أجِدَ مِنْ
دُونِه مُلتحَداً إلَّا بلاغاً مِنَ اللهِ وَرِسالاتِهِ وَمَنْ يَعْصِ الله
وَرَسولَهُ فإنَّ لهُ نارَ جَهنَّمَ خالدينَ فيها أبدا ، حتَّى إذا رأوْا
ما يُوعَدُونَ فسَيَعلمُونَ مَنْ أضعَفُ ناصِراً وأقلُّ عَدَداً ، قُلْ
إنْ أدري أقريبٌ ما توعَدونَ أمْ يجعَلُ لهُ رَبِّي أمَداً ، عالِمُ
الغيْبِ فلا يُظهِرُ عَلَى غيبِهِ أحَداً، إلاَّ مَنْ ارتَضى مِنْ رَسُولٍ
فإنهُ يَسلُكُ مِنْ بينِ يَدَيهِ وَمِنْ خَلفِهِ رَصَداً لِيَعلَمَ أنْ

قَدْ أَبْلَغُوا رِسَالاتِ رَبِّهِمْ وأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَى كُلَّ شَيْءٍ عَدَداً) [1].

صدق الله العظيم، وبلّغ رسوله الكريم وخسيء الشيطانُ الرجيم، وحق الشكر لله رب العالمين الرحمن الرحيم.

---

١ – الجن : ١٢ – ٢٨.

مصادر التحقيق

ابن حجر العسقلانى : (تهذيب التهذيب) طبعةحيدر اباد سنة ١٣٢٥ هـ

ابن رشد (ابو الوليد) : (تهافت التهافت) طبعة القاهرة سنة ١٩٠٣ م

ابن قتيبة : (المعارف) تحقيق : د٠ ثروت عكاشة ٠ طبعة القاهرة سنة ١٩٦٠ م ٠

ابن المرتضى : (باب ذكر المعتزلة ـ من كتاب المنية والامل) تحقيق : ارنولد ٠ طبعة الهند سنة ١٣١٦ هـ ٠

امين الخولى : (صلة الاسلام باصلاح المسيحية) طبعة القاهرة سنة ١٩٣٥ م ٠

الحسن البصرى : (رسالة في القدر) منشوره فى كتاب (رسائل العدل والتوحيد) دراسة وتحقيق : د٠ محمد عمارة ٠ طبعة القاهرة سنة ١٩٧١ م ٠

السبكى : (طبقات الشافعية الكبرى) طبعة القاهرة ـ الاولى ٠

طه حسين (دكتور) : (الفتنة الكبرى) طبعة القاهرة ١٩٧٠ م ٠

عبد الجبار بن احمد : (المغنى فى ابواب التوحيد والعدل) طبعة القاهرة ٠

الغزالى (ابو حامد) : (فيصل التفرقة بين الاسلام والزندقة) طبعة القاهرة سنة ١٩٠٧ م ٠

فان فلوتن : (السيادة العربية والشيعة والاسرائيليات فى عهد بنى امية) ترجمة : د٠ حسن ابراهيم حسن ، محمد زكى ابراهيم ٠ طبعة القاهرة سنة ١٩٦٥ م ٠

محمد عبده (الاستاذ الامام) : (الاعمال الكاملة) دراسة وتحقيق : د. محمد عمارة . طبعة بيروت سنة ١٩٧٢ م .

محمد عمارة (دكتور) : (المادية والمثالية فى فلسفة ابن رشد) طبعة القاهرة سنة ١٩٧١ م .

(المعتزلة ومشكلة الحرية الانسـانية) طبعة بيروت سنة ١٩٧٢ م .

(نظرة جديدة الى التراث) طبعة بيروت سنة ١٩٧٤ م .

(الاسلام والمرأة فى رأى الامام محمد عبده) طبعة القاهرة سنة ١٩٧٩ م .

محمد فؤاد عبد الباقى : (المعجم المفهرس لالفاظ القرآن الكريم) طبعة دار الشعب . القاهرة .

مراد وهبـة (دكتـور) (وآخرين) : (المعجم الفلسفى) طبعة القاهرة سنة ١٩٦٦ م .

(دائرة المعارف الاسـلامية) طبعة القاهرة ـ العربية ـ الاولى .

الترقيم الدولى ٨ ـ ٧١ ـ ٧٠٣١ ـ ٩٧٧

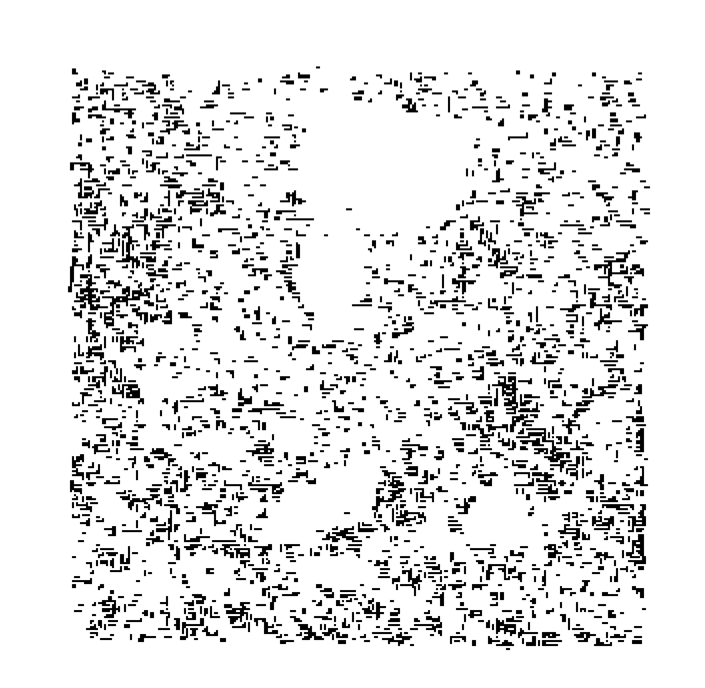
رقم الايداع بدار الكتب والوثائق القومية ٨٠/٣٨٤٧

وكلاء اشتراكات مجلات دار الهلال

جدة ـ ص • ب رقم ٤٩٣
السيد هاشـــم على نحاس
المملكة العربية السعودية

انجلترا : THE ARABIC PUBLICATIONS
7. Bishopsthrope Road
London S.E. 26
ENGLAND

البرازيل : M. Miguel Maccul Cury.
B. 25 de Maroc, 994
Caixa Postal 7406,
Sao Paulo. BRASIL.



موضوع هذا الكتاب شاهد على قدره وأهميته .. فهو يتحدث عن :

● الذات الالهية ● والنبوة والرسالة ★ والقرآن الكريم
● ومكانة الانسان في الاسلام .. الخ .. الخ ..

ويزيد من أهميته أن مؤلفه هو الاستاذ الامام الشيخ محمد عبده .. أعظم العقول العربية التي قادت ثورة الاسلام في العصر الحديث فأبرز الوجه المشرق للدين ، بعد ان تراكمت على فكره الجهالات والخرافات .

لقد كانت (رسالة التوحيد) أول كتاب حديث يعرض عقائد الاسلام لجمهور المسلمين ، انطلاقا من القرآن والسنة ، وفي ضوء العقل المستنير .. فجمعت الى شرف الموضوع : عظمة المؤلف ، وعلمية المنهج ، وسلاسة الاسلوب !

فاذا اضيف الى ذلك ان دارسها ومحققها هو الدكتور محمد عمارة الذي قدم للمكتبة العربية الاسلامية ــ ضمن ما قدم : ــ (الاعمال الكاملة للامام محمد عبده) .. كان من حق « كتاب الهلال » ان يفخر عندما يقدم لقرائه (رسالة التوحيد) لتسهم في تنقية عقائد المسلمين من البدع والخرافات .. وأيضا ، لتكون تحية لذكرى الاستاذ الامام الذي توفي في مثل هذا الشهر منذ خمس وسبعين عاما ؟! .

